

جمال الغيطاني

—————

المجلد الخامس

● رسالة البصائر في المصائر

● رسالة في الصباية والوجد

● من دفتر العشق والغربة



الهيئة المصرية العامة

١٩٨٥

الغلاف : جرجس ممتاز

الإخراج الفني : أميمة على أحمد

رسالة البصائر في المصائر



بسم الله الرحمن الرحيم
وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً
وماتدرى نفس بأى أرض تموت
صدق الله العظيم

ماشاء الله كان..

يوما ما، لحظة ما، فى موضع ما، لاتعيه الآن ذاكرتى
المجهد، المثقلة، وقعت عيناي على هذه العبارة، لافتة؟: ربما،
فى كتاب لا أدرى عنوانه الآن؟ : ربما، فى مدخل مسجد قديم،
أو على جدار لببيت عتيق، أو حفر على مسند مقعد بال؟

ربما ..

لكننى أريدها دائما، وأخطها على وريقاتى عند خلوتى،
أزين كلماتها وأموج حروفها، حقا.. ما شاء الله كان، وإلا هل
يمكن لنا تبديل ما جرى، ما كان. وإن جاز التحرز للآتى،
وأخذ الحوطة، مع تحسب المفاجأة، والمجهول، وما لا ندرية،
فسبحان من تنزه عن تأثير الزمان، وتعالى من هو كل يوم فى
شأن.

فيا أهل الوقت الذى لا نعرف من أمره شيئا، يا أهل أزمنة
لن نبلغها، ستقصر عنها أعمارنا، يا من ستسعون فى دهر

خلا منا، ومن آثارنا، وما يمكن أن يشير إلينا، يا من ستسعون
فى دنيا لن نتنفس هواها، لن نبصر مباحجها، ولن نعرف
ملذاتها، يا من لم تعرفوا ما عرفناه، ولم تشهدوا ما عشناه،
ولم تعانوا ما عايناه، اعلّموا أن ما مر بنا ثقيل، وأن ما عرفناه
مضن، وما قاسيناه صعب، مر. هذه السبعينيات من زماننا
الكر عقد انقلاب أحوال، وأمور غريبة، وبلايا ثقيلة، وتحولات
شملت جل القوم، كذا ما تلاها، وقد عاينت ذلك، قاسيته،
تضاعف همى، ناء وقتى بما عرفته.

يا من ستقع أبصاركم على تدوينى، اعلّموا أن انشغالى
بالمصائر قديم، موغل فى مكنونى، عندما كنت صبياً، غضا
بعد، لا أعى وقع مرور الأزمنة، ولا يطرقنى هاجس الموت، أو
الفوت، كنت أتطلع إلى أقرانى، سائلاً نفسى:

- أين سيكون كل منهم بعد عشر سنوات، أو بعد عشرين؟

وقتئذ كان العمر يبدو وكأنه ممتد أبداً، والآتى بلا حد.
والنظر شاخص إلى الآتى، إلى المقبل، أما وقد مررنا بما مررنا
به، وعرفنا ما عرفناه، وتبدلت أمور ظننا لن تبید أبداً، وصار
المتبقى - يقينا - أقل مما مضى، صرت أمعن النظر فيما جرى،
أكثر من التطلع إلى ما سيجئ.

مرة حلقت ركباً طائرة صغيرة، مروحية، فوق جبال آسيا
الصغرى، جبال لم تطأها قدم، وخيوط نحيلة من المياه ما هى
إلا بدايات أنهار متدفقة، هادرة، أطلت النظر إلى مرتفعات

كردستان المكسوة بالثلوج اثني عشر شهرا، خطر لى، عندما كنت صغيرا ألعب فى هذه الحارة القديمة من قاهرتنا القصية، العتيقة، هل تخيلت وقتئذ أننى بالغ هذه الفضاءات يوما؟ أو غيرها من بقاع قصية وصلت إليها، وجلت فيها؟. لو أطلعنى ثقة، على ما سيكون لما صدقت، كانت حدود العالم عندى وقتئذ لا تتجاوز مائة ذراع، والوصول إلى الميدان القريب يبدو مغامرة غير مأمونة، مجهولة الغواقب ولكن.. ما شاء الله كان.

عندما أستعيد وجوها عرفتها فى الحارة، فى الحى القديم، فى مدرستى الابتدائية، الثانوية، تتبعى الشعاب التى سلكت، والطرق التى أدت، أتعجب، غير أننى أنثنى قائلاً، لكل وجهة هو موليها.

لكن مع حلول السبعينيات التى قدر لى أن أتمز بها، أن أشهدها، لاحت المنعطفات المفاجئة، والمنحنيات الحادة، والانقلابات العاكسة، مما بدل وغير، حتى البديهيات انكفأت.

هنا.. خطر لى أن أقيد ما أعرفه، ما عاينته عن قرب، أو ما ألمت به عن بعد، أن أثبت شيئاً من أخبار قوم دنوت منهم، وأحوال بعض من سمعت حديث ثقة عنهم، أقدمت والله بدافع منى لم يطالبنى بذلك صحب أو إخوان، لم أسع بغية كسب أو شهرة، إنما شرعت والقلب فيه ما فيه، وعنذى أمل وتوق إلى تبدل الأحوال فى عودة الأمور إلى أصولها، واتصال المصاب بينابيعها، والأشياء إلى طبائعها، يقوينى يقينى بتبدل الأحوال،

فما من شئ باق أبدا، وكما تبدلت مصائر فى الخضم، وفنيت أعمار فى اللجة، وانقضت أوقات قبل الأوان، وهوت أغصان كان ممكنا أن تورق، وأتلفت أرحام كان ممكنا أن تفيض على البشرية بمدد، كما جرى ذلك، يمكن مع الصيرورة اعتدال الأحوال، حتى وإن لم أشهد ذلك فى وقتى | أمل يا من لم تفدوا بعد إلى عالمنا هذا أن تبلغكم صحفى، واعلموا أننى قصصت طرفا من بعض، فلست الملم المحيط، لم أتبع منهجا مسبقا ولم ألتزم أسلوبا معيناً، وربما رأى المتعجل، تباعد الحلقات، وتنائى الضفاف، أقول عندئذ: أمعن البصر، إنما أردت الإخبار عن بعض من عرفت، ليس بينهم ملك أو رئيس، أو صاحب سلطان. ممن تقلبت بهم الأحوال فجأة، ربما بدا كل منهم قصيا عن الآخر، ربما تقاطعت أحوال بعضهم، أو تماسست منصائرهم فى لمح خاطف، مارق، لكن هذا ليس بالأساس، إنما رمت الإنباء عن جوهر وقت، لن يصلكم منه إلا عناوين مقتضبة، وأثار خفية لا تبين لكنها فاعلة.

اعلموا أنى أثرت الحيدة، ألا أتدخل فى العموم، لا أجاهر إلا إذا لزم التنويه، وغمض القصد، واستبهم الأمر، وإنى لطامع فى العفو عند كل تقصير يلوح، أو عند أى موضع يكمن فيه سوء فطنة، فلن يشفع لمن كان مثلى، إلا الاطلاع على أحوال نالت منى، وقصت قدرا من عمرى، ونبل نواياى، حتى وإن حادت عن قصدها الآمال، وعذرى أن الإنسان، جواب، وثاب!..

أبدأ بحكاية حارس الأثر

.. هو عاشور بن مهدي النعماني، حارس قبة قلاوون وخفيها، ينادونه منذ القدم «يا عم عاشور» ، حتى أولئك الذين يبدون أكبر منه سنا، هادئ، راسخ الحركات، مقتصد اللفظ، وافر الشيبة، يميل إلى بدانة، أسمر اللون، غامقه، بطيء الخطو، خفي النظر، يرتدى معطفا فوق جلباب صوفى فى الشتاء، ومعطفا من قماش خفيف فى الصيف، على رأسه طاقية، فى الشتاء وخلال الأيام الباردة التى تهب فيها رياح مثيرة للأتربة، والقشعريرة، يلف شالا حول رقبته، عندئذ تنأى نظراته، وتبدو قادمة من بعيد.

اعتاد القوم حضوره الدائم، نادرا ما يبتعد عن القبة، إذا مشى فيألى بائع الشأى الواقف بجوار سبيل محمد على باشا المواجه لجامع الناصر محمد بن قلاوون، الملاصق للقبة، يقعد فوق الدكة الخشبية، يرشف الشأى، عيناه متجهتان دائما إلى مدخل القبة، حتى إذا لمح زائرا أجنبيا أو مفتشا من رجال مصلحة الآثار، أو غربيا أيا كان، يدع ما بيده، يتجه مسرعا.

حاضر، موجود، لا يغيب عن المكان، يراه الساعون أول النهار، أو القافلون قبل المغيب، أطفال الحى اعتادوا رؤيته حتى شبوا وتفرقوا إلى الجامعات، أو المهن المختلفة، بعضهم تزوج وانتقل إلى أحياء بعيدة، إذ يرجع أحدهم لزيارة أسرته، أو يمر مرورا عابرا يقبل عليه متهللا، فلکم آثار حضوره ذكريات نائية، واستدعى من الماضى المندثر صورا شتى، وحيننا ضافيا عند من شبوا، وابتعدوا، أو أخذتهم السبل.

عرف بابتسامته، وهدوئه وصوته الذى لا تتغير درجته، وانتقال الألفة منه إلى محدثه، حتى لتطيب الوقفة معه، غير أن ما اشتهر به ملازمته للمكان، حتى ليرى عند الفجر قاعدا أمام البوابة المغلقة وحيدا تماما، فى هذه المنطقة من شارع المعز، والتى يسودها الظلام والوحشة بعد نزول الليل، فما من بيوت مسكونة قريبة، ما من محال تجارية، يتجاور البيمارستان بمسجد المنصور وقبته، ومسجد الناصر، وجامع برقوق، هذه المسافة من الشارع وحدة متضامة من زمن عتيق، مندثر، تجاهد البلى، وعاشور حارسها، يراه الساعون إلى صلاة

الفجر فى مسجد سيد الشهداء، مولانا الحسين، يحيونه ولكنهم لا يتوقفون معه، كأن خشية تدركهم، تبدو وحدته مخيفة، ولزومه المحل غريبا، حتى قيل إنه يؤاخى جنية خفية، إنه يتقن سبع لغات، وقيل أكثر، مع أنه يخط اسمه موقعا بصعوبة، وهذا ليس غريبا هنا فى منطقة يقصدها الأجانب من كل صوب، خالطهم زمنا، بعضهم عابر، يكتفى بطلا موجزة، وآخرون يجيئون للمكث أوقاتا طويلة، يبقى الواحد منهم ساعات أمام ركن قصى داخل القبة، منمنم، مزخرف، أو أمام مربع من الرخام الملون، أو لوحة خط، أو حشوة خشبية، أو عمود سامق، يغيب أحدهم سنين ويرجع، أول ما يقصد، السؤال عن عم عاشور، يسارع إلى لقائه، لكم تلقى من خطابات أرسلت إليه من بقاع شتى، كان ينتظر قدوم من يفهم اللغة حتى يقرأ له. المكتوب، إنه يتكلم بالألسنة الأجنبية، لكنه لا يقرأ.

عم عاشور قديم الحضور والإقامة، له بالناس صحبة أكيدة، ومحبة، وعندهم له ود مقيم حتى وإن لم تتصل الجسور المتينة، فمع ما يصدر عنه من ود، لم يكن من السهل مخالطته، مع أنه لم يصد مخلوقا، ولم يبد الجفوة، ولم يصدر عنه اللفظ القبيح إلا مرة واحدة، وإنى لمورد تفاصيلها بعد حين.

وعندما دخلت سنة ألف وتسعمائة وست وسبعين، كان قد أمضى عمرا بأكمله وأتم الخدمة، أنهى المدة، وجب عليه أن يمضى مخلصا مكانه لآخر يقوم بعمله، إلا أن رجال المصلحة

القدامى سعوا وتوسطوا، وكتبوا لمن بيده الأمر، حتى نجحوا فى استصدار قرار بمد خدمته بعد سن الستين، فما من أحد يعرف القبة ومكوناتها ويحافظ عليها مثله، ثم إنه شبه مقيم بها، وما من مكان آخر له، منذ الأربعينيات رتب له المرجوم العلامة حسن عبد الوهاب سكنا فى بيت عتيق قريب، من البيوت التى ضمتها مصلحة الآثار منذ الثلاثينيات عندما كانت تعرف بلجنة حفظ الآثار العربية. بيت مواجه للقبة، على شمال السالك إلى ميدان بيت القاضى، يعرف بمنزل محب الدين، آخر من امتلكه قبل اعتباره أثرا عاما يجب المحافظة عليه، جميل الواجهة، رقيقها، متعدد الغرف والقاعات، لم يشغل منه إلا حجرة واحدة، إلا أنه لم يهمل الباقى، داوم على تنظيف الأركان القصية، والمداخل، وإزالة أعشاش العنكبوت، وما تخلفه الطيور فوق المشربيات، يكتسه مرة كل يوم ، يمسح بلاط المبنى كله صباح كل جمعة، تتصدر حجراته مصطبة حجرية فوقها مرتبة وأغطية، أما ملابسه فمصفوفة فى قفة بالية عتيقة، حال لون خوصها، إنها القفة التى حملها أبوه عند نزوله مصر أول مرة، رفض أن يدق مسامير فى الجدار يعلق عليها جلابيبه ومعطفيه الشتوى والصيفى، حتى لا يؤذى الأثر، لتلك القفة عنده معزة، إنها من رائحة الوالد، بل إنها كل ما خلفه له، لسبب ما لم يبيع به قط ، ربما لجهله به، أو بقصد الكتمان، طفش الأب من بلدته النائبة مصطحبا وحيدته، نزلا مدنا لم يسمعا عنها، وخرجا من قرى فى عز الليل، واقتريا من بلاد

صغيرة والغروب مكتمل، وهجا منها قبل انبلاج الفجر، حن عليهما أغراب، وتجاهلهما ذوو قريبي، كان والده يخشى الآخرين، ينأى عن المجالسة، يردد دائما أن الاقتصار عبادة، لم يثق ولم يأمن إلا لشخص واحد، من عطف عليه، وأمن له لقمة العيش، من أحقه بخدمة القبة والمسجد، وداراه فيهما، حسن أفندي عبد الوهاب، الطيب، المتواضع، المتبحر فى علمه، من يصغى إليه كبار العلماء، أجانب ومصريين فى رهبة واحترام، عليه رحمة الله، كان عند الوالد دراية بنحت الأحجار القديمة، قيل انه كان يعلم الصبية الصغار فى أقاصى الصعيد، تعب لطول هجابه، وانتهى به تغريه إلى حسن عبد الوهاب، رجاه أن يلحقه بمكان قريب من مثنوى الحسين الحبيب، وعندما استقر فى قبة قلاوون رضى وهدا، بعد أن أمضى زمنا لا يحتويه موضع، قضاه نقالا، فى هجاج خفى الأسباب، ومما رده عم عاشور دائما أن والده لم يفته أداء فرض واحد فى مسجد الحسين، ومهما بلغ انهماكه واستغراقه فعند اقتراب موعد الصلاة يدع ما فى يده، يتجه فوراً إلى الضريح، فى الفجر يسلك الطرق الخاوية، ميدان بيت القاضى، شارع بيت المال، إذ يلوح المسجد عند المنعطف أمام مدرسة خان جعفر، يلبى، يمد الخطى منشرح الصدر، رضى البال، لم يفارق ابنه عاشور قط، يده فى يده دائما، حتى عند ذهابه لشراء طعام الإفطار، كان يخشى من شئ لم يفصح قط عنه، لكنه لم يهدأ إلا بقربه من ضريح الإمام الشهيد، هما فى أمن

مما يتهددهما ما بقيا بقربه، مرة واحدة كان يفارق فيها ابنه، مرة لاغير، إذ أنه وهب جهده صباح كل جمعة لتنظيف ميضأة مسجد الحسين، ونفض الغبار عن العتبات المؤدية إليه كان يصحب ولده، يتركه قاعدا، بجوار الضريح، يوصى عليه الشيخ الضرير، حارس المكتبة القرآنية ثم يمضى لتأدية الخدمة.

لم يتخلف قط، لم يرحل إلى أى جهة أخرى، حتى جرى ماجرى ذات نهار لم يكن على بال أو فى خاطر، لا ينسأه عم عاشور أبدا، طلع الوالد إلى المئذنة العتيقة، كان عليه أن يثبت أحجارا جديدة بعد تسويتها وصقلها، وفى عتمة غير غميقة مد يديه، طالت يده حية كانت تلبد هناك، صرخ:

- «أه يابوى»-

لم يحط منطلقا بعدها، لم يلحقه أحد، لم يوقف سريان السم داخله أحد، لم يلحقه ترياق، ولا علاج، وعندما سكن جسده فتبيسا، مزرقا، هامدا بعد طول تغرب، وخشية، بدأت وحدة عم عاشور، واكتمل يتمه، حار، ولم يدر إلى أين يولى؟ وأين يقصد، وأى باب يطرق؟ لكن حسن أفندى عبد الوهاب أمن له بقاءه، وعلى يديه استقر أمره، وجرى رزقه، تعهده العالم الأثرى الطيب - عليه رحمة الله - ورعاه، أما عاشور فلزمه، وتعلم منه، وأخذ عنه ما يستعصى على الحصر، استمر بالقبة، أصبحت حدود دنياه، وخلاصة معرفته، يجول بها نهارا، ويفتش أركانها ليلا، ينقب عما يشوب نظافتها، لا يطيق عقب

سيجارة ملقى، حتى إذا توافد المغيب، وغمر الشارع ضباب شفقى، ولاح المارة كأنهم يسعون عبر أزمنة خفية ولا يقطعون مكانا، حركتهم على حدود المادة المحسوسة، تبدأ وحدته الليلية، يفلق البوابة الضخمة المطعمة بالنحاس، التي عبرت عصورا وحقبا، يبقى بمفرده داخل هذا التكوين الهائل من المعمار، يفترش الأرض وراء البوابة مباشرة، يأتنس بأصوات الطريق، وقع خطى، اقتراب مارة ثم ابتعادهم، يميز بينها خطوات عسكري الدورية، خطى بطيئة، أخرى حثيثة، خطى مقدمة تعرف إلى أين تسعى، أخرى وجلة، مترددة، بعضها اعتادها، أحيانا يتوقف البعض على مقربة، يتبادلون حوارا، إما محتدما اقتضى تمهلا، فوقفة، أو هامسا قبل مواصلة السير، لا يخطر ببال العابرين أن وراء هذا الباب خلف حجب العتمة تلك، من يصغى، ويحذر، ويتأهب، ويأتنس بمن لا يعرف، ولكم سمع، ولكم أصغى مستوفزا، متنبئا، لا يبدل رقدته إذا ما ابتعد الحديد عن القبة والمسجد، اتقن أصوات الطريق والمكان، اقتضى الأمر زمتنا حتى يتعرف على همسات القبة، وهسهسات الأركان القصية، وطققات الأخشاب، لم يدرك إلا مصادر قلة منها، كذا منابعا، مساريها، مساراتها، وظل البعض مستعصيا عليه، غير مبرر، هذه الفتحات، تلك الثقوب، الكسور فى الزجاج المعشق، مرور الهواء هنا غيره هناك، وصدى الصوت القادم من بعيد لا يتشابه إذا ما تكرر، للصيف أصوات، وللشتاء أصداء، للحر ضجيج وللبرد كمون وخواء،

وغرابة أصوات وأصداء لياليه، أما إيقاع المطر فلا يتشابه،
الرخة غير الهطلة، أما السيل فمغاير تماما، أضر القطر بالمبنى
ما كان خافتا، رفيعا، أما الزواحف والفئران والعرس والقطط
فلكل منها مجمل وتفصيل، ربما يرجع جمود ملامح عم
عاشور إلى هذه الفترة المبكرة من عمره، والتي كان ينفرد
خلالها بالتكوين كله، يتوحد به، ليس بالمكان المبهم فقط، إنما
بزمته الخالي، يلملم نفسه فى العتمة ويحوم مهوماً عند حواف
العصور النائية، كأن هجاجة الطويل انتقل إلى الأزمنة، على
مقربة منه يرقد السلطان منصور منشئ القبة، وابنه الناصر،
وشقيقه خليل، يعرف من حسن أفندى عبد الوهاب أن الناصر
محمد كان به عرج، فيوشك أن يلمح ذلك، فى بقايا الرقدة
الأبدية، أو فى الظلال التى تجوب الفراغ بعد اكتمال الليل،
حتى بعد انتقاله إلى بيت محب الدين الذى خصصه له حسن
عبد الوهاب رحمه الله لم ينا عن القبة، كان يقوم فى عميق
الليالى، يتطلع من نوافذ البيت الضيقة المغطاة بخشب الخرط
الدقيق إلى القبة، إلى هيئتها الليلية المهيبة، الغامضة، إلى
توحيدها وانفصالها عن العتمة فى الوقت عينه، يطيل النظر ثم
ينثنى إلى مرقده، أو ينزل ليتجه إلى قعدته أمام الباب، وكأن
أمرا خفيا صدر إليه.

لم يكن يثق، ولم يتخل عن صمته، أو اقتصاده فى الكلام
إلا عند مواجهة من عطف عليهما، من جرى على يديه رزق
والده، ثم هو من بعده، العالم، العلامة، حسن أفندى، صاحب

المؤلفات الجامعة، والكتب النادرة، بعضها نفذ حتى ليعد أندر من المخطوطات، يدعو له فى خلوته الليلية، وفى خضم مشغوليته.

عندما سألته عبده المزملاى فى حمام السلطان المجاور، عما إذا كان يخشى العفاريت والجن، جاوبه قائلاً إن العفاريت الحقيقيين هم بنى آدم. ثم قال إن الجن لا يؤذى مؤمناً، وإن مولانا الحسين يحمى المنطقة، وإنه وصل ما انقطع برحيل والده، فلم يتخلف عن المضى إلى الضريح صباح كل جمعة لكنس جناباته، وتنظيف الميضاة، وأضاف من عنده تقديم الماء إلى الظامئين من قصاد المولى، الحبيب.

غير أن تاجراً للفحم يقع دكانه على مقربة، وصاحب متجر يبيع أدوات المقاهى. أكدا أن عاشور يأتس بالجنى فى المبنى، وأنه يحب واحدة من الجن بعد أن تمثلت له بشرا سويا ، وأنها تتجلى له بعد صلاة العشاء، وتمضى الليل معه حتى ما قبل أذان الفجر ، عند ظهورها تتبدل القبة المعتمة حدائق غناء ، أما الأعمدة الرخامية الهائلة فتتقلب أشجاراً تصدح بينها الأطيوار والعصافير ، وما لا تقدر مخيلة على تصويره ، أما الزوايا المهجورة ، والمنحنيات ، والفراغات ، فتتحول إلى ممرات مفروشة بالسوسن ، وترتدى الجدران كسوة من يشب وعقيق، أما السقف فمن فيروز خالص ، هذه الجنية ترتد بكرا كل أسبوع ، وعليه أن يفتضها من جديد ، لذا يتهاى بذهابه إلى الحمام عصر الخميس ، ليزيح عن جسده ما علق به ، حتى

يلقاها نقيا ، ليليق بعروس دائمة التجدد، أكد تاجر أصله
أعجمى متخصص فى التنباك أنه يكتنز عطايا من الذهب ،
خبأها فى مكان مستور .

يبدو أن ما أشيع عنه لقى من صدقه ، إذ جاءه موظف
حكومى نحيل يسكن ناحية الخرنفش ، رجاء التوسط عند أهل
بيته من الجن حتى تعد له عملا يقوى به أمره على أداء واجباته
تجاه امرأته ، أدركه وهن ، وأم البنين لا تطلب ، تستحي ، لكنه
لا يقدر على مواجهتها، كل ما لجأ إليه من وصفات ودهون
ومعاجين لم يصلح عطبه. كذا جاءت شابة جميلة، ممثلة قليلا،
طلبت التدخل من امرأته الجنية ليتبدل حظها المائل ، تزوجت
مرتين ولم تعمر ، أخشى ما تخشاه أن يتم طلاقها فى المرة
الثالثة ، مع أنها كاملة ، لا ينقصها شيء كامرأة تعرف
واجباتها تماما ، والنساء يغرن منها .

جاءه آخر من حى القلعة، رجاء أن يوسط جنيته لتوقف
موت أولاده، أن يمده بحجاب منها، أنجب ستة رحلوا كلهم ،
أطولهم عمرا لم يتم العامين ، رجاء بحرارة ، بل انه انحنى
ليقبل يده .

أصغى الى ما طلب منه ، قابلهم بصمت حائر ، النفى لا
يجدى ، يزيد اليقين ثباتا ، كذا الصمت، يتطلع اليهم ساكن
التعابير ، حتى ظن بعض من لجأوا إليه أن به مسا ، أو أن
أمرا من الجن صدر إليه يحرم عليه المجاوبة .

يقعد صامتا ، متوحدا ، فوق حجر قديم ، عاقدا يديه أمام
صدره، إنها هيئته التى اعتادها المارة ، وأهالى الناحية ،

بعضهم يحييه بسرعة ، وآخرون يحيدون ليصافحوه ، جيرانه الأقربون نهاريون فقط ، أصحاب المتاجر القليلة الواقعة فى جزء من الجهة المقابلة ، أو على جانبى الطريق المؤدى الى ميدان بيت القاضى ، أقرب منزل مسكون قرب مدخل حارة الخرنفش .

أحيانا ينتقل إلى الرصيف المقابل ، يرفع بصره إلى الواجهات السماء السامقة للقبة، والمساجد المتجاورة، يطيب له تأملها ومداومة النظر إليها ، أوقات يرصد الظلال، يركز الذهن والنظر لإدراك حركتها وتحولها، تلك لحظات قال عنها وتحدث للمرحوم حسن أفندى عبد الوهاب لا يدرك فيها الزمن، ولا ينتبه إلى أقرب الناس ، حتى لو وقف على رأسه زاعقا ، أما إذا تعكرت خلوته بتلك الواجهات فهذا أمر فيه الكدر كله .

كان عم عاشور قليل اللفظ ، مقتصد الكلمات ، يصغى طويلا ويتحدث قليلا ، إلا عند شرحه لتفاصيل القبة ، يتدفق ، يدركه انفعال فيشد به محدثه ، أو يأخذ بذراعه ليسدد البصر هنا أو هناك ، وهذا لم يكن ليبدأ إلا إذا لمح اهتماما حقيقيا ورغبة أكيدة فى الفهم ، حتى قيل إن رؤية القبة بصحبة عم عاشور شىء ، والفرجة بدونه شىء آخر ، عالم إنجليزى شهير ، تخصص فى العمارة الإسلامية ، هو العلامة كريزويل، قال عنه : عاشور لسان الحجر ، لكل نقش عنده معنى ، مغزى ظاهر ، وآخر باطن ، فالخطوط لم تتقاطع مصادفة والدوائر لم

تكتمل عبثا ، ينبه إلى الصمت القديم ، والضوء الملون ، إلى اتصال مركز القبة السامق بمنتصف مدفن السلطان وأولاده ، اعتاد الوقوف بمفرده فترات طويلة شاخصا إلى الارتفاع الساحق ، إلى النوافذ المغطاة بالجص والزجاج الملون قرب المنتهى ، منها تنفذ حزم الضوء وتتقاطع عند توسط الشمس للسماء ، أما الفتحات الثماني فيتسلل الضوء منها مائلا ، تتلاقى أطرافه عند خشب الضريح المرمرى ثم يتراجع منسحبا خفية ، لعم عاشور تفاسير شتى لحركة الضوء ، لامتزاج ألوان الطيف وتفرقتها ، ينبه الزائرين إلى أن الأمر ليس مصادفة ، يؤكد أن القبة فى الصباح غيرها عند الظهر ، أما القبة ساعة الغروب فتكون مغيرة ، حتى إذا ما اكتمل الليل بدلت تبديلا .

احترمه علماء المصلحة القدامى ، ألم يصحب حسن عبد الوهاب ، وكريزويل الإنجليزى ، وفييت الفرنسى ، الا أن معظم هؤلاء مضوا ، إما بالتقاعد الحتمى ، أو السفر إلى البلاد العربية ، أو بالرحيل الأبدى ، رحمة الله عليهم أجمعين ، جاء شبان حديثو الخبرة ، شاحبو التجربة ، لو تزوج لأنجب من يتجاوزونهم عمرا ، يبدؤون الشرح ، كأنهم يعيدون باللفظ ما قرأوه فى الكتب أو ملفات المصلحة ، يصغى معتصما بصمته ، لا يتدخل إلا عند سماعه الخطأ الفادح ، يسر به ولا يبيديه علانية حتى لا يخرج المتحدث إذا كان يصحب ضيفا غريبا ، بعضهم يصغى ، يحرص على الاستيعاب ، وأغلبهم يبيد

اللامبالاة ، بل الجفوة ، أمثال هؤلاء لا يخطو معهم خطوة ، إنما يرقبهم من بعيد ، وبعد أنصرافهم يسترد قعدته، عند مدخل القبة شاخصا الى الواجهة الجصية ، أندلسية النمنمة ولتلك عنده منزلة خاصة وهوى .

فى رقادة الليلى يستعيدها جزءا ، جزءا ، أحيانا يمسك قلما ، يرسم النقوش من الذاكرة ، فلا يخطئ ، أحيانا يطيل الوقوف أمام الضريح المحاط بمقصورة من الخشب المخروط ، ينتهى الشاهد بعمامة رخامية مستطيلة ، تتوسطها ريشة مشرعة ، يصفى كأنه يحاول رصد دبيب العدم .

وقفاته وسكناته تلك ، رسخت عند البعض إلى حد اليقين صلاته بالجن ، لكن لم ير أحد منه شذوذا ، أو تصرفات غير محمودة ، ويخرج من القبة إلى بيت محب الدين عند الغروب ، وقد يوسع خطاه قاصدا مسجدا الإمام الحسين ، لا يلحظه أحد عند رواحه ومجيئه كالظل الذى يغطى الطريق ثم ينحسر ، غير مرئى فلا يدرك غيابه إلا بعد تمامه، يظهر أحيانا أمام القبة، كأنه يولد من الظل، لمظهره عتاقة الموقع، يبدو من زمن مغاير مع أن الألوان واحد، والوقت لازم، لا يذكر أحد أنه خاض مشاجرة أو اشتبك فى عراك، إلا أن عبده المزملاى، وآخرين، لا ينسون أبدا ما جرى منه فى ذلك اليوم البعيد.

حدث أن جاء رجل يرتدى الملابس البلدية، مستطيل الوجه، كثر الحاجبين، هذا ما تبقى منه عند عم عاشور خلال السنوات

التالية، سلم وقعد إلى جواره، غير مبال بالتراب، قال إنه سمع
عن عاشور، لكنه لم يكتف، إنما تابعه عن بعد، وعن قرب، حتى
أنه يعرف عنه أموراً شتى !

هنا ابتسم الرجل، إلا أن عم عاشور بدا غير منتبه، غير
مهتم، قال الرجل إنه سيدخل إلى الموضوع مباشرة.

بدون لف أو دوران، يعرض عليه مائة جنيه، ورقة واحدة،
سيدفعها إليه بمجرد سماعه لفظ القبول، إنه يثق به، ما يطلبه
باختصار، حشوة من الرخام الملون، مساحتها خمسون
سنتيمترا مربعا لا غير، إنها في الركن الشمالي، موقعها معتم،
وجودها مساو لغيابها، واكتشاف اختفائها صعب، ومع ذلك
سيتم تركيب بديل لها، الزخارف هي هي، الرخام هو هو،
مستحيل اكتشاف التغيير، كل المطلوب منه غرض النظر عن
لدخول رجلين بعد الغروب، عملهما سيتم بسرعة، وصمت، في
وقت وجيز، إنهما خبراء في فك الرخام ، لن يشعر أحد، لن
يدري إنسان، ها.. ما رأيك ؟ جرى ذلك في أواخر الأربعينيات،
ذات شتاء، بدا وجه عم عاشور في الضوء الرمادي غامضا،
غير موح بما يدور داخله أثناء الإصغاء، إلا أنه ردد بعد انتهاء
الرجل :

- مائة جنيه.. مائة جنيه ؟

أكد الرجل :

- نعم، والمبلغ فى جيبى الآن.

على مهل استدار عم عاشور، بدت سمرة و كأنها قدت من
ظلال القبة، رفع يديه، لم توح هيئته بما أقدم عليه بعد لحظات،
إذ أطبق براحتيه على عنق الرجل، قام واقفا ليتمكن، تبدلت
معامله، تقلصت، بدا قاسيا، ذا حضور مفاجئ، مغاير لما كان
يبدو عليه دائما، كأن آخر حل محله، زعق مرددا:

- ياكفرة.. ياكفرة.

جحظت عينا الرجل، تدلى لسانه، وتباعدت ثناياه، انفرط
عقد ملامحه، ولولا مرور ثلاثة من تجار الخيش بالخرنفش،
وبائع عصير السوييا لاكمل الموت، أحاطوا بعاشور، صاحوا
به أن يخزى الشيطان، أن يذكر الله، بذلوا ما عندهم من جهد
وقدرة، حتى عندما توسلوا إليه، لم يفلحوا، ولكن عندما قال
أحدهم:

- وحياء أبوك ياشيخ.

عندئذ التفت إليهم متعبا، متخليا عن حنقه، مشمئزا، لم يدر
أحد كيف اختفى الرجل الذى ولى هاربا وكأن أرضا انشقت
و بلعته.

قال عم عاشور فيما بعد أن ما حيره، كيف عرفوا أن ما
يؤثر فيه هو ذكر والده، التوسل بسيرته عنده، مع أنه لم يتحدث

إلى أحدهم، لم يسع إلى متاجرهم، تردد.. هل يبلغ الشرطة؟، لكنه لا يعرف الرجل، غير أنه أفضى بما جرى إلى حسن أفندى عبد الوهاب، أثنى عليه، أوصاه باليقظة، هذا يعنى أن القبة منظورة والعيون عليها، لكنه نصحه بالتروى فى المرات القادمة، لو قتل الرجل لراح على نفسه، إنه لا يريد ابدا أن يراه فى السجن.

أوما برأسه مرات، ما يقوله حسن أفندى لا يناقش.

غير أنها ليست المرة الأولى التى بلغ فيها هياجه المدى، بعد سنوات عديدة من هذه الواقعة، فى نهاية الخمسينيات، فوجئ المارة وأهالى الحى الذى تزايد زحامه، وقامت فيه عمارة جديدة عند مدخل الخرنفش، الوقت قرب حلول العصر، ارتفع صوت هائل، غاضب من داخل الممر المؤدى إلى القبة والمسجد، يصاحبه صراخ امرأة، فوجئوا بعم عاشور يدفع رجلا أجنبيا أمامه، يمسك به بيده اليسرى وقد لوى ذراعه خلف ظهره ورفعها حتى توشك أن تدنو من رقبته، أما يده اليمنى فتنهال بالصفع على القفا الذى انحسر عنه القميص، أما ما أنهل القوم، فرؤية الأجنبى بدون بنطلون، نصفه الأسفل عار تماما، حتى لاحظ البعض أن عضوه بدون ختان، خلفهما تعدو امرأة تصرخ بلغة غير مفهومة، بينما يداها تحاولان إحكام قميصها المفكوك.

والحكاية أنهما جاءا كغيرهما من الأجانب الذين يقصدون القبة للزيارة، رافقهما داخلها، وعندما أنهيا جولتهما أبديا

الرغبة فى الصعود إلى المئذنة، وافق على مضض، صحبهما إلى الفناء الخلفى الذى يبدأ منه السلم المؤدى إلى سطح القبة، ومن هناك تبدأ قاعدة المئذنة حيث الدرجات الضيقة المتتوية التى تصل إلى الشرفة الأولى، كان عم عاشور قد تقدم فى السن، صارت حركته أبطأ، وبدأ الشيب فى فؤديه ومقدمة شعره، طلوع هذه الدرجات كلها يكلفه من أمره تعباً وكداً، قال إنه سينتظرهما عند بداية الدرج، وشرح لهما الوصول إلى داخل المئذنة، ويبدو أن هذا عين ما أراده الأجنبى، إذ هز رأسه مرات شاكراً، وأسرع يتقدم صاحبتة بعد أن أخرج ورقة فئة الخمسين قرشاً دسها بسرعة فى يد عم عاشور، اختفياً، ولكن بقى عنده ما يريب، هذه اللهفة التى بدت عليه، وإظهاره النقود، عم عاشور هادئ دائماً، وهدوؤه هذا يطال ردود فعله، لكنه عندما استعاد آخر نظرة رآها فى عيني المرأة توجهت بها إلى الرجل، غلى الدم فى عروقه، صعد السلم وثباً، وعندما وصل سطح القبة المشرف على أفق المدينة كان يلهث، إلا أنه لم يعبأ، قرب الشرفة الدائرية الأولى للمئذنة رأهما، كان الرجل يتأهب منحنيًا، بينما قعدت المرأة بين ساقيه النحيلتين العاريتين وكأنها تتأهب لحلبه !

فى المئذنة يا أولاد الكلب.. فى المئذنة..!

هذا ما ظل يردده طوال دفعه الرجل عبر الطريق المؤدى إلى ميدان بيت القاضى، وما سمعه منه أصحاب وعمال دكاكين

الموازين، وعبدته الحلاق، وجنود نقطة المطافئ، والعابرون الشتى، لم يتوقف ولم يكف الا داخل القسم.

فيما عدا هاتين الواقعتين، لم ير منفعلا، ولم ينطق بسباب، لم يخض مشاجرة، لم ير إلا ساعيا بين بيت محب الدين والقبه، أو متجها إلى ضريح الإمام الشهيد، ظهر الجمعة، بعد الصلاة يتناول غداه من الطحال المقلئ فى مطعم قديم يقع فى مواجهة فندق الكلوب العصرى، لم ينقطع عن عادته الأسبوعية تلك إلا مرة واحدة فى بداية الخمسينيات، عندما امتنع عن الزاد أسبوعا كاملا إثر رحيل العالم العلامة حسن أفندى عبد الوهاب، أسبوع قضاہ متواريا، قاعدا وراء الباب الرئيسى للقبه، ذاهلا لا يجيب على أحد، لا يهتزم منه طرف، حتى عندما جاء عالم الآثار الإنجليزى، وقف أمامه، لم يبد عليه أنه لاحظته، من عينيه تطل دمعات، ويبدو أن العالم الأجنبى أدرك مقدار حزنه، ربت على كتفه، وابتعد، خشى عبده المزملا تى عليه، فرجاه أن يبكى، أن يلطم، أن يصرخ، ولكن استمرار الصمت مخيف، فمن الحزن ما قتل، بعض أبناء المنطقة لم يدركوا أمره، فسروا صمته، وسعيه الهادئ، وبقائه أمام القبه جامدا، صامتا، حزينا بأن مسا أصابه من امرأته الجنية التى يخاويها.

فى تلك الفترة بدأ اهتمام أم خيرية به، هى امرأة دمياطية، بيضاء، فارمة، ممثلة، تقطن غرفة فى حارة الصالحية القريبة،

برقعها لا يخفى ملاحه وجهها، خاصة عينيها المكحولتين
المدرتين بالأنوثة، أودعتهما كل ما تضح به من فورة، وما
تحفيه الثياب من فتنة، ورغبة، تقترب من الأربعين، وحيدة،
فردانية مثله، تزلت فجأة، كان زوجها يبيع الكشوى أمام
مدرسة خان جعفر للصبية، شوهدت تقف معه، تجينه بأطباق،
وأحيانا براد الشاي، تقعد إلى جواره أمام القبة، لم يستمر
تردها عليه، انقطعت فجأة، يؤكد عبده المزملاى أن الرجل
زاهد فى النساء، ربما بتأثير الجنية التى تزوجته، يقول إنه
شاهد بنفسه ذكره، يفوق التصور فى طوله، ما يقارب نصف
التر، ومما يروى فى المنطقة أن امرأة أجنبية جميلة جدا، جاءت
إلى القبة بمفردها للفرجة، صاحبها، فمئذ حادثة الأجنبي
ورفيقته لا يدع أى إنسان مهما كان يتجول بعيدا عنه، ويبدو
أن حالة من الشيق المتفجر اجتاحت المرأة داخل فراغ القبة
الذى يفيض بالموت والعدم، بدأت بإمساك يده، ثم دنت منه،
ومالت برأسها على صدره ، قالت بالعربية الركيكة..

- حبيبي !

الا أنه دفعها، وابتعد خارجا .

المؤكد أنه لم تشاهد أى امرأة داخلة إلى بيت محب الدين،
إذ يمضى فى مطالع النهارات إلى القبة حاملا المفاتيح
الضخمة، كان بعض أصحاب الدكاكين يتابعونه صامتين،
تسأل بعضهم عن حقيقة عمره، أكد بعضهم أنه محال إلى

التقاعد منذ زمن، ولأسباب عديدة اعتبروه خارج اللوائح،
قدامى مفتشى المصلحة يتباركون به، بعضهم يستمد معلومات
معينة خاصة بآثار المنطقة، عدد من الباحثين أصغوا إليه،
واستوعبوا ونقلوا عنه.

سنوات عديدة مضت على مجيء هذا الرجل الذى عرض
عليه مائة جنيه فى الزمن القديم، أمور تجل عن الحصر
تغيرت، حتى القبة والمسجد، إذ جرت ترميمات عديدة، وأقيم
حاجز حجرى يمنع تدفق مياه الأمطار والمجارى إلى الجدران،
أغلق المدخل المؤدى إلى السطح والمنذنة، ونشرت الصحف
التحقيقات عن ارتفاع منسوب المياه الجوفية مما يهدد المباني
القديمة فى المنطقة، أقلق هذا عم عاشور، وصار يسأل
المفتشين فى كل مرة يجيئون فيها، وهل صحيح أن منسوب
المياه إذا انخفض سيهدد أيضا سلامة البناء، صار لا يكف
عن الطواف، ينحنى مدققا النظر، يضرب الحجر بقبضته كأنه
يختبر أمرا ما، غير أن ما لحظه البعض خاصة من القدامى،
الذين اعتادوا رؤيته منذ زمن بعيد، نحوله، بطم خطواته،
وارتفاع صوت تنفسه، وتثاقل نطقه، وامتزاج سواد عينيه
ببياضهما، أصبح أيضا يتغاضى عن صحبة الزائرين، بل أنه
لم يعد يفارق مكانه عند المدخل إلا لحظة دخول رجل وامرأة
إلى القبة وانفرادهما، أما معظم وقته فكان يقضيه شاخصا
إلى الواجهة الأندلسية.

سنوات عديدة تقع ما بين مجيء الرجل الغريب الذى عرض

عليه مائة جنيه رشوة فى زمن كان فيه الجنيه جنيها بحق،
يمجىء هذا الشاب فى صباح باكر، إنه ممتلى قليلا، يرتدى
نميصا وبنطلونا، يدخن سيجارة، قدم نفسه قائلا إنه محمد
حلاوة، ابن حلاوة بائع الكهرمان.

«أعرف أبوك، رحمه الله، عدسه لا ينسى، لم أكل مثله».

بدا الشاب مسرورا مع أنهم حذروه منه، أشار إلى
الرصيف المقابل حيث سبيل خسرو باشا، قال :

- «كنت أقف إلى جواره، أغسل الأطباق فى الجردل..»

تطلع عم عاشور إلى حيث أشار، لامس نقهه بأطراف
أصابعه، هازا رأسه، ارتد إلى صمته، كأنه نسى وجود
الشاب، غير أن هذا تجاهل الشرود والانصراف عنه ، استمر
يتحدث وكان ما بينهما متصل ، لم ينقطع، قال إنه يجىء بلقمة
حلوة، رزق من السماء ، مكسب كبير لن يكلفه جهدا.

توقف لحظات ليرى رد الفعل، ولما رأى صمت عم عاشور،
استمر قال إن زوار القبة من الأجانب كثيرون، هؤلاء يحتاجون
إلى تغيير ما معهم من دولارات، أو استرلينى، ما عليه إلا أن
يأخذ ما معهم من عملة، ويقدم إليهم الجنيهاات، يعنى بيع
وشراء، وله نسبة يتسلمها منه مساء كل يوم، طبعا .. ليس هناك
مكان هادئ وبعيد عن العيون مثل داخل القبة.

كف الشاب، تركزت نظراته على يدي عم عاشور، كأنه يعد
العدة، ربما حذره أحد منهما، الا أن اليدين بقيتا هامدتين،
استمر، قال إنه سيبدأ من الغد، سيجيئه بخسمائة جنيه ليبدأ

العمل، أما الأسعار فسيبلغه بها صباح وظهر كل يوم، وإذا حدث طارئ مفاجئ ارتفاع أو انخفاض، سيسارع إليه، السوق متقلبة، قال إنه قريب هنا فى خان الخليلى، عند مدخل السوق من ناحية الصاغة، وإذا فوجئ بمبلغ كبير يمكنه فى دقيقة أن يأتى إليه، المهم أن يعرف من الآن كيف يميز بين الورقة الصحيحة والزائفة.. خاصة فئة المائة.

متمهلا يستدير، يتأهب الشاب، للرجل تصرفات غريبة، حذروه منها، بقاؤه وقتا طويلا بمفرده داخل القبة التى ما هى إلا مدفن هائل، معاشرته الجن، إلا أن ملامحه بقيت هادئة، ويدها مبسوطتان، نائيتان ، ويقدر ما شعر الشاب براحة، بقدر ما رغب فى الضحك، عندما نطق عاشور متسائلا..

- «والبوليس؟؟»-

حاشية - ١ -

لماذا؟

لماذا قبل عم عاشور أن يقترب على مهل من الأجنب الذين
كثرتردهم على القبة فى السنوات الأخيرة، ويقول همسا
بالإنجليزية:

- «تغير دولار؟»

حيرنى هذا، خاصة أن الرجل أوشك على أن يوفى المدة،
بعد عمر طويل أثر فيه الصرامة مما كان مبعث حكايات تبدو
أحيانا غير واقعية؟

هل كان فى حاجة ؟

أبدا..

أقول هذا وأنا على ثقة، سكنه لا يدفع مقابله قرشا، ما يتقاضاه يكفى وزيادة، هل أدركه ما جرى فى الواقع الأعم من متغيرات، لكن.. كيف وقد كان يبدو فى معزل عما يحيطه، يصغى إلى أفدح الأنباء فلا يعلق، ويسمع ترديد جيرانه لأجل الحوادث فلا يابه، لا يبدو عليه الاهتمام، لماذا صار يقترب من الأجانب وفى ملامحه ما ينم عن طلب الهبة، وهذا ما لم يقبله قط من قبل. يغض الطرف عن دخول الذكور والإناث، لا يتبعهم، ولا يستثيره غيابهم بالداخل، وإذا تبعهم فلمسافة قصيرة عبر المدخل، ويسألهم عما إذا كانوا راغبين فى تغيير العملة.

حيرنى هذا، ولولا أنى أشهدت الرجل عن قرب لما صدقت، فلم أذكر شيئا فقط على سبيل المبالغة، بل إن كل ما قلته عن مشاهدة، وما لم أحضره ولم أعينه نقلته عن ثقات، وربما حذف بعضه طلبا للإيجاز .

لكن..

مالى أبتعد، مالى أمعن فى حيرتى، ألم أرقب بعينى ما جرى لذلك الطبيب، ذلك أنى سكنت زمنا فى بيت قريب من وسط المدينة، أول شارع الجيش، حيث تنتهى القاهرة القديمة، وتبدأ مبانى القرن التاسع عشر المطلة على ميدان العتبة الخضراء، وإن كانت تلك ماضية إلى زوال، وكان أول ما

اختفى منها مبنى دار الأوبرا الجميل، الهامس القديم، المكنون،
والذى احترق عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين، التهمه
حريق مدبر وبكاه من لا حصر لهم، ومكانه الآن جراج متعدد
الطوابق، وإنى لمخبر، محدث عن سائر هذه المباني فى رسالة
أفردتها لموضوعى الزوال والبقاء، فالمجال يضيق الآن.

كان سكنى يتوارى فى طريق ضيق متفرع من شارع
الجيش، كنت فى الطابق الثالث، أما هو فكان يشغل شقتين
متواجهتين فى الطابق الاول، اتخذهما عيادة لاستقبال مرضاه،
لم نلتق إلا مصادفة عند صعودى أو نزولى، هو طويل القامة،
نحيل جدا، وسمعت أنه كان لاعبا ماهرا فى فريق كرة السلة
الجامعى، ابن أسرة رقيقة الحال، شقى والده طويلا حتى أتم
تعليمه وتخرج طبيبا، افتتح هذه العيادة بعد عامين من إنهاء
دراسته، وجعل قيمة الكشف نصف جنيه فقط، وهذا أقل من
أى طبيب فى المنطقة، قال أكثر من مرة أنه نشأ فقيرا ، ولولا
كد والديه لما أمكنه إتمام تعليمه، يعمل أبوه كاتباً عند أحد
تجار حقائب السفر فى الدرب الجديد المتفرع من سوق
الموسكى، لم يمض وقت طويل حتى اشتهر أمره فى الموسكى،
والعتبة، وباب الشعرية، وصار المرضى يجيئون إليه من مناطق
ناحية، لما عرف عنه من حسن مقابلة، ولسان حلو، وقدرة على
وصف العلاج السديد، وتقدير لأحوال الخلق، حتى أنه كان
يعيد قيمة الكشف إلى من يشعر بوهن قدرته، ورقة حالته، بل
كان يقدم الدواء مجانا إلى أمثال هؤلاء، وكان يصر قائلًا إنها

العينات المجانية التي ترسلها إليه شركات الأدوية، لم يعرف عنه أنه تأخر قط فى تلبية أى حالة عاجلة، طارئة ، ليلا أو نهارا، هكذا أدركته، وسمعت عنه، حتى قال لى من أثق به إن ثمة فرصة أتاحت له لافتتاح عيادة بالدقى، فى عمارة حديثة، شاهقة، يمكن للواقف بشرفاتها أن يرى النيل، لكنه أبى مفارقة المنطقة القديمة، والناس الذين اعتاد عليهم كما قال.

متى بدأ اهتمامه بالأراضى الفضاء، والعقارات ؟

الحق أننى لا أدرى على وجه التحديد، لكن كل ما لاحظته وقع بعد هدم هذا البيت، إذ كان يقوم عقار قديم من طابقين، تحته مصنع للحلوى الطحينية، جاء عمال صعايدة يوما ورفعوا معاول الهدم، حتى تمت تسويته بالأرض خلال أسبوعين لا غير، ثم أحيطت المساحة الفارغة بسور قصير من الطوب الاحمر، وعلقت لافتة تقول إن الأرض ملك لسيدة، ذكرت اسمها، وعنوانها بكويرى القبة، لكن لم تتضمن اللافتة أى رغبة للبيع أو التصرف فيها، بقيت الأرض خالية ما يقرب من عام، أوى إليها بعض المشردين، وأمرأة عجوز كومت فى أحد الأركان عددا كبيرا من صناديق الكرتون الفارغة، ولافئات من قماش كانت معلقة خلال الانتخابات النيابية، أما تجار الموز الذين يقفون بعرباتهم قرب سوق البضاعة المستوردة، فاتخذوا من الركن المقابل ما يشبه المخزن للموز الأخضر، وغطوه بمشمع قديم، كما اعتاد صاحب المصبغة البلدية المجاورة إلقاء

صناديق المصبغة الفارغة، وبدأ بعض أبناء الشارع يلقون القمامة فى الخرابة كما أطلق البعض على المساحة الخالية.

لكن قرب انتهاء العام الأول المنقضى على هدم البيت، ظهر سمسار نوبى يسكن فندق البرلمان القديم بميدان العتبة منذ عدة سنوات، ويجلس عند مدخله، حيث يستقبل عملاءه، أولئك الراغبين فى البيع، أو الباحثين عن قطعة أرض، أو مسكن للإيجار، ونظير أجر معين يدفعه لإدارة الفندق علق لافتة صغيرة:

« سمسار أراضى وعقارات، شقق للتملك، للإيجار، دكاكين وخلافه ».

شاهد النوبى فى شارعنا الضيق، كان يصحبه أحد أبناء السيدة مالكة الأرض، وفى اليوم التالى قيل إن الطبيب، ابن الحى، اتصل بالمرأة، وعرض شراء الأرض، ثم شوهد فى الأيام التالية يقف إلى جوار النوبى، ويدوران فى المساحة الفسيحة.

بدلت اللافتة بأخرى تحمل اسمه، وتعلن عن إنشاء برج السعادة، مكاتب، شقق فاخرة، تشطيب فاخر، واجهات المونيووم، حمامات سخن وبارد، أرضيات مفروشة بالموكيت، الاتصال بالطبيب مباشرة، كتب رقم التليفون، أما الوسطاء فيمتنعون.

أزيل الموز، والقمامة، والفوارغ، أما المرأة العجوز فرحلت منذ مدة إلى حيث لا يدري أحد، ثم ظهرت آلات المارقة، أدوات حفر، وماكينات صغيرة، وآلة لشطف المياه الجوفية التي ظهرت بمجرد بدء الحفر خضراء قاتمة، جاء رجل صعيدى، كوم عبوات الأسمتت الخام على هيئة جدران، ويسط ألواحاً خشبية كسقف، وعلق ملاءة من قماش لتجيب عيون المارة عن الداخل عنه وعن امرأته الشابة التي تحمل طفلاً رضيعاً، لم تتأخر أعمال البناء طويلاً، إنما بدأت فور شطف المياه الجوفية، وتكسية الأرض بمادة سوداء تمنع رشحها، قامت بذلك شركة مختصة.

فى هذه الفترة اعتدت رؤية الطبيب، يقعد نهاراً فوق مقعد بدون مسند، يتابع ما يتم، أو يصدر تعليمات لهذا أو ذاك، وبين الحين يقوم ليمر هنا أو هناك، ويمسك الدعائم الخشبية بيده، كأنه يختبر متانتها، ثم سمع صوته مرتفعاً، صاخباً لأول مرة، وكان يزعق مهدداً أحد العمال بسبب إهمال ما، ثم أصبح عادياً رؤيته جالساً وإلى جواره النوبى، وثالثهما أحد الراغبين فى الاستئجار، أو مقاول البياض، أو الكهربائى، أو متعهد أعمال السباكة، ومما قيل إن الطبيب أسفر مبدياً مهارة غير عادية، فهو يشرف على كل كبيرة وصغيرة، الخامات يذهب ليشتريها بنفسه، وحساب المقاولين يناقشه آخر النهار، مستعينا بآلة حاسبة صغيرة، وكان إذ يجادلهم يرفع صوته، ويلفظ جملاً فى صيغ استفهامية، أو استنكارية، ويناديهم بما اعتاد العمال أن ينادوا بعضهم البعض، كأن يقول :

- «أفهمنى يا حلوة».

أو :

- «اسمع يا غسل..»

وأحيانا كانت مناقشاته تحتد حتى ليسمع صوته فى الطوابق العليا، برغم ضجيج التليفزيونات، والمقهى، وأصوات السيارات والشوارع القريب، أما فى الصباح فكان يقعد لاستقبال الراغبين، القادمين بصحبة النوبى، قعدته المفضلة صارت إلى هذا الرجل، النحيل، الأسمر، الذى لا يفارق معطفه صيفا أو شتاء، وثق به، وأعطاه سره، وعندما جاءه التمورجى الذى يعمل معه منذ سنوات، وأخبره برغبة أحد الأثرياء من بلدته فى استئجار شقة، طلب منه أن يتكلم فى ذلك مع النوبى، لم يشك التمورجى فقط منه، إنما كل من عمل فى هذه العمارة التى قامت خلال أقل من عام واحد منذ دق أساساتها، شكوا إصراره على مناقشة كل شئ بنفسه ومراجعتة الفواتير بدلا من المرة عشر، واشترطه استخدام آلات معينة، أصبح من المعتاد أن يقضى ساعات النهار كلها فى الشارع، وعندما بدأت أعمال البياض وتشطيب العمارة بدل ملابس، ارتدى الجلباب وطاقيه بيضاء صغيرة مخرمة، فى نهاية اليوم عند اتجاهه إلى العيادة يبدو مرهقا متعبا، لم يعد يقضى أوقاتا طويلة فى الفحص، ضاعف من قيمة الكشف، أصبح جنيتها، اعتذر للخلق بسبب ارتفاع الأسعار، قال لبعض المقربين إن

بناء العمارة كلفه الكثير، وأنه من الأفضل للمرء شراء قطعة أرض وتركها مدة، ثم بيعها، الأسعار تتضاعف، أما البناء فيقتضى جهداً، ومتابعة، اعتاد الناس مجيء النوبى، ظهوره فى العيادة المزدهمة، اتجأه إلى غرفة الطبيب، كان يدخل فى أى وقت، ويقضى ما شاء من وقت، ثم ينصرف متمهلاً، غير مبال بضيق الذين طال انتظارهم، ومما تردد أن النوبى أتى بفرصة نادرة، قطعة أرض بناحية العباسية، وعلى الطريق الرئيسى، تباع لظروف استثنائية، وأن الطبيب اشتراها بالفعل، وأنه يتفاوض حول مساحة أخرى بمدينة نصر، وأن كلاماً يجرى حول مخزن أخشاب كبير بشبرا، بل أكد البعض أنه اشترى مصنعا للطلوى الطحينية أو شك صاحبه على الإفلاس بسبب دين ثقيل، كل يوم صار يخرج بصحبة النوبى، ويقال أنه هو الذى أشار عليه بضرورة الحج إلى الأراضى المقدسة، حتى يناديه الخلق يا «حاج» وهذا ما صار بالفعل، انقطع عن فحص المرضى، لكنه لم يغلّق العيادة، إذ بدأ شاب يتردد عليها، أحد الخريجين الجدد، ظهر أثناء سفره لتأدية الفريضة، ظن الناس أنه يشغل الموقع الشاغر لفترة، لكنه استمر بعد عودته، لم يعد صاحبنا يظهر فى العيادة إلا نادراً، وإذا شوهد فأخر الليل، يمضى محبباً هذا أو ذاك، ويناديه الجيران:

- «تفضل يا حاج..»

فيلتفت بقوامه الذى امتلا محييا، ثم يمضى بخطاه التى
صارت أبطأ، أما أنفاسه فأصبحت تسمع خلال لفظه الكلمات،
يجلس تحت العمارة فوق دكة مستطيلة، أحيانا يعلو صوته
محتدا، وقسمه بالإيمان المغلظة، ومرة كاد يشتبك بالأيدى مع
ثلاثة قيل إنهم من كبار تجار الفاكهة بسوق روض الفرج، ومرة
أخرى سحب الطبنجة وصوبها تجاه اثنين من تجار خان
الخليلى، مما حدا بالنوبى أن يزعق:

.. «أذكر الله يا حاج..»

عاد هادئا، واستؤنف الحديث فيما يشبه الهمس.

انقطع تماما عن العيادة، تعاقب عليها شبان من الخريجين
الجدد غير أنه ردد دائما عزمه على ألا يتركها أبدا، إنها
أساس كل ما جاءه من خير، وهذا ما كان عليه الحال عند
انتقالى من مسكنى إلى منطقة أخرى ، وفيما بعد رأيت صورته
فى الجريدة يقص شريطا إيذانا بافتتاح مصنع للبسكويت
المحلى بالشيكولاته، وكان يرتدى جلبابا أبيض، وطاقية بيضاء،
وتحيط وجهه لحية كثة، وإلى جواره بعض من أصحاب النفوذ
والجاه، وكان الإعلان يحتل صفحة كاملة، هذا ما عرفته عنه،
وأخر عهدى به، فلم تقع عليه عينائى إلا فى الإعلانات، ولكننى
أحطت علما بما جرى لشاب آخر، وألمت بتفاصيله، وإنى
لقاصه عليكم..

هذا ما جرى للشاب الذى أصبح فندقيا

.. وهو الذى لو سئل أثناء دراسته فى الجامعة عما إذا كان يرغب العمل فى الفندقية لأبى واستنكر، كان مولده عام الف وتسعمائة وستة وخمسين، وعندما بدأ الهجوم الثلاثى على مدينة بورسعيد الخالدة، أو الصامدة، كما وصفت فى ذلك الزمان المندثر، كان المتبقى على مجيئه إلى الحياة الدنيا ثلاثة أسابيع، تستعيد أمه تلك الأيام، غياب أبيه فى مكتبه، وقضاءه الليل بطوله فيه، وتلبية للظرف الاستثنائى، تذكر ولدها جنينا يتقلب فى رحمها، سعادتها إذ تشعر بتمدده، بتقلبه داخلها، كأنه يتعجل خروجها قبل الأوان، كانت تسند ظهرها إلى الوسادة فى ليالى العتمة الإجبارية، تسأل، ولد هو أو بنت؟

كيف سيكون؟ ترسم الخطط، وتصوغ المشاريع، وعندما وفد، وأصغت إلى صرخته الأولى، كانت البلاد كلها فى تأجج واستنفار، الأيام تنبض، وجميل الأغاني يتردد، وسائر ما يهز الأرواح، ويدمج الخصوصيات فى العموميات.

كان طفلا ذكيا، مليحا، سليم الخلقة، فى وجهه قبول، عيناه واسعتان، وشعره طويل، ناعم، غزير، حرصت أن تقصه بانتظام حتى لا يشبه البنات، ملامحه تصونها مجموعة صور صف بعضها على مقربة من فراش الوالدين، كان الأب ميسور الحال بمقاييس الزمن القديم، لم تتأخر ترقياته عن موعدها، كذا علاواته السنوية، الدرجات التى ارتقاها بانتظام أفضت به إلى منصب وكيل وزارة مساعد فى نفس السنة التى حصل فيها ابنه على الثانوية العامة، كان الأب رجلا حشما، مستقيما، عرف عنه إخلاصه لوظيفته وصدده الحازم لعروض بالرشوة، أما قطعة الأرض التى ورثها عن الراحلة أمه فقد أتاح له إيجارها السنوى يسرا ضئيلا مكنه من قضاء أسبوعين كل صيف بصحبة أسرته فى رأس البر، إنه متواضع، مؤد للواجبات، يحضر الجنائز، ويجمال فى أفراس صحبه، وعنده طول بال على تفهيم الطالب، لطيف المزاج، به وسامة، حلو الصورة، قليل الغذاء جدا، انتقل بعض مما عنده إلى ابنه بالأخص شعوره العميق بالمسئولية، وضرورة إنجازها على أحسن صورة، فى الأسابيع التى تسبق الامتحانات يشتد نحول الولد، يطول سهره، وتطالبه الأم بضرورة الأكل حتى

يذهب يبسه، وعندما اجتاز المرحلة الثانوية متفوقا، هدا فؤاد أمه، واطمان أبوه إلى إمكانية تحقق رغبته التي لم يبيع بها قط، إذ ود وتمنى أن يعيش حتى يرى ابنه من رجال الخارجية، يمثل بلاده فى الخارج، فى لحظات خلوه بنفسه، كثيرا ماريد تلك العبارة ولم يطلع عليها أحدا، «ابنى يمثل بلاده فى الخارج»، لهذا عندما فاز بالقبول فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ابتهج، وسقى العاملين فى الادارة شرابا حلوا، وبدا له ما ظنه يوما بعيدا وقد صار قريبا، أربع سنوات وبتخرج ابنه، يلتحق بالخارجية، يبدأ السلم من أوله، سكرتير ثالث، فثان، فأول، قنصل ثم وزير مفوض.. ثم سفير، هل من المعقول أن يعيش حتى يرى صورته فى الصحف الأجنبية بعد تقديم أوراق اعتماده لرئيس دولة ما فى هذا العالم، معقول، ليس ذلك على من بيده الأمور ببعيد، ولكن إن شعر بدنو الأجل، واقترابه من تخوم الأبد قبل تحقيق هذا، سيوصى ولده بتذكره فى ذلك اليوم، عند ارتدائه ملابس التشريفة ومضيه إلى مقر الحكم، قصر ملكى أو جمهورى، أن يقرأ له الفاتحة، وأن يتذكر والده الذى كان يتمنى رؤية هذه اللحظة ولو عبر صورة، فى اليوم الأول للدراسة الجامعية صحبه، دعا له بعد أن افترقا، وحن إلى امراته وإلى بنها الكلم الطيب، فاشتري لها عطرا طيبا، هى من أنجبت له هذا الابن الصالح الذى سيمثل بلاده يوما.

جرى ذلك قبل عبور الجيش المصرى قناة السويس بسنة كاملة، وقبل مجيء العزيز هنرى كيسنجر أول مرة إلى القاهرة المعزبة فى زيارة وصفت بأنها هامة وضرورية. وقبل فك الاشتباكين الأول والثانى، وقبل قدوم ريتشارد نيكسون فى زيارة قيل إنها تاريخية.

وعندما دنت السنوات الجامعية وأوشكت، كانت أمور عديدة قد تبدلت، وظروف ظنها الكثيرون أنها ثوابت، بدأت تتسدير وتدبر، درس الابن على أساتذة منهم أجلاء، أتقن علوم الاقتصاد، والسياسة، خط صفحات تجل عن الحصر، واستوعب ما قيل له، وكان فى بذل الجهد غير ضنين، استحق ثناء شيوخه فى العلم، أثنوا عليه ورضوا وأشار أحدهم إلى ما ينتظره، وأشاد آخر بسعة أفقه وتفتح مداركه، وقوة أمله.

إنه تخرجه شغل به والده، إلام سيصير امره، خاصة أن الظرف معسر، والواقع فيه جدوية بادية، وحدث فى ليلة خريفية أن التقى فى مقهى بناحية شارع عماد الدين بصاحب له، مدة خدمته تماثل مدته، ودرجته مساوية لدرجته، إلا أنه يتميز عنه بعمله طوال مدته فى المؤسسة الرئاسية، وقد بدأ قبل الثورة فى القصور الملكية، وتدرج حتى أصبح وكيلًا مساعدًا للوزارة، واختص عمله بأمور ربما تبدو غريبة، إذ كان مسئولًا مسئولية مباشرة عن أوانى الطعام والمشروبات الخاصة بالقصر، يشرف على إخراجها عند مد اللواتم، أو إقامة الموائد، فى المناسبات،

وللمضيوف الأجانب، وتلك مسئولية لا تسند إلا لذي أمانة، فجل هذه الأواني من الفضة، وبعضها من الذهب الخالص، ومنها ذو القيمة التاريخية التي لا تقدر بثمن، كان يشرف على تخزينها وترتيبها، وإخراج المطلوب منها، وإعادته، أما اختصاصه الثانى فيتعلق بالجناز، فعند وفاة عظيم أو كبير، يتصل هو بالحنوتية، كانوا كلهم يعرفونه، ويخشونه، ويلبون طلباته، كذلك أصحاب محلات الفراشة، ومن هنا خرجت كل الجناز فى مدة وظيفته مهيبه، لاثقة، لا ينقص ترتيباتها شىء، ولا يمكن رصد أدنى عيب، وثق الجميع به، واشتهر عنه وذاع أن عضو مجلس قيادة الثورة زكريا محبى الدين، أثناء توليه لفترة أمورا تنظيمية، كان يردد دائما أنه إذا رأى توقيع على مذكرة ما، فإنه يؤشر فقط وأثقا من سلامة المتبع، وكان لهذا الرجل بنتان، كلتاهما فى الجامعة، أنجبهما متأخرا، ولأنه لم يتبق أمامه إلا عامان فى الخدمة، ولأن ظروف الحياة تضغطه، ولأن ما سيتقاضاه من راتب تقاعدى لن يتأثر، ولأن هذا الراتب لن يكفى نفقات البيت بعد خروجه من الخدمة، أحال نفسه إلى التقاعد، وكان يوم تسليمه مكتبه وعهدته مشهودا، إذ دمعت العيون تأسفا عليه، مضى ليلتحق بشركة سياحية صاحبها واحد من معارفه، وكان الراتب الجديد مغريا، فتيسر حاله قليلا.

إنه لا يلقى صاحبه هذا إلا عند مجيئه إلى ذلك المقهى الذى يرتاده، إذ يضيق بالبقاء فى البيت، أو الحمله إلى جهاز

التليفزيون، وتكرار قراءة الصحف، لكم دهش وارتاع عندما علم أن صاحبه أحال نفسه إلى التقاعد، لم يفكر فى ذلك قط، خيل إليه دائما أنه لو ترك الوظيفة سيضل، إن تبديل الحال أمر صعب عنده، خاصة أنه موظف عمومى مثالى، لم يشوه ملف خدمته ورقة إنذار، أو تقرير ضده.

فى تلك الليلة الخريفية أفضى إلى صاحبه بما يشغله من أمر ولده، منذ أسابيع ظهرت النتيجة، الولد ناجح ومتفوق والحمد لله، لكم كان بوده أن يلتحق بالخارجية، بالسلك الديبلوماسى، أن يمثل بلاده فى الخارج، لكن يبدو أن الأمر ليس سهلا، والسلك المؤدية إليه وعرة، لا يعرف الدروب المفضية إليها، أو السبل المؤدية إلى بداياتها، ما يقضه ويقلقه، انقضاء مدة طويلة قبل حصول الولد على وظيفة، وقد سمع ما أزعجه عن وفرة فى خريجي هذه الكلية بالذات التى عدت عند التحاق ابنه بها مرموقة وذات مستقبل بهى، إن ما يضيق به الانتظار بلا عمل، ثم الالتحاق بوظيفة حكومية، فى الأغلب الأعم لاصلة لها ولا علاقة بما أتم دراسته وتحصيله، كان بشكايته همه يمهّد كى يسأل صاحبه عن إمكانية توسط أحد المسئولين السابقين لقبول ابنه فى الخارجية، أى مسئول ممن خدم معهم، إن تقاعد أمثال هؤلاء لا ينهى ولا يقطع صلاتهم بمن هم فى مواقع المسئولية الآن، من خدمته الحكومية الطويلة عرف أن الكبير للكبير، حتى وإن تقاعد أحدهما، غير أن صاحبه لم يمهله، طقطق بأصابعه، مصمص شفثيه مبديا عدم

الموافقة، قال إن البلد يتغير، والزمن يتبدل، والعاقل يجب ألا يفكر فى الوظائف الرسمية قليلة الرواتب، شحيحة الموارد، وإذا كان ولا بد، فليلتحق بوظيفة تمكنه من توفير ساعات عمل حر، وهنا أعرب الوالد عن قلة حيلته، وعسر دريته، وندرة معارفه من ذوى النفوذ، من أين له هذا العمل؟ صمت صاحبه مقدار لحظة ثم تساعل، أهو الذى رأيتَه بصحبتك منذ سنة؟ أجاب الوالد بأسطا كفيه، وهل عندى غيره؟ قال الرجل إن طول العشرة يقتضى منه الإقدام على الخدمة، وإنه من ناحيته سوف يسعى، أبدى الوالد امتنانا وإن حاش ضيقا وحرنا، ألم يتمن طوال عمره التحاق ابنه بالخارجية؟ أن يراه ممثلا لبلاده فى الخارج؟ هكذا رغب، هكذا دبر، لكن غيره قدر، ذلك أن غيبة صاحبه عنه لم تطل، اتصل به، قال إن ثمة فرصة شحيحة لن تتكرر، وإن نية ابنه فيما يبدو ويلوح نقية صافية، وللنية فى قضاء الحاجات سلطان عظيم، وإن عنده القبول، لهذا دنت تلك الفرصة وبدت، وبعد هذه الديباجة، أفضى بالمهم فقال، ان جمعا من معارفه يشرفون على إدارة فندق حديث، شديد على أطراف المدينة، تكلف ملايين الجنيهات، وأسندت إدارته إلى شركة عالمية، وإن ثمة منصبا خاليا يمكن أن يشغله الابن، يعد بالنسبة لمن كان فى مثل عمره مغنما، إذ سيصبح مسئولاً عن جلب الزبائن، وتنشيط الحركة، وهذا مما يعرف فى لغة الفندقية بالتسويق والمبيعات، أى أنه سيصبح مديرا، وتلك مهام وعرة، لا يتولاها إلا خريج جامعة أجنبية، ولا يصل إليه أحد إلا بعد

ارتقاء طويل، أما عن المرتب الشهري فكم يظن ؟ كم يعتقد ..
هـ.. فليخمن، ثلاثمائة جنيه، إلى جانب المكافآت والحوافز، قال
الأب لابنه في نفس الليلة إن هذا يقارب مرتب وزير، أين ذلك
من المرتب الحكومي وقدره خمسة وأربعون جنيهًا، أما عن
الوظيفة نفسها، فلا يمكن الحصول عليها إلا لمن كان من
الواصلين وذوي القربى، وإن هذا لمن طالعه الحسن، قال ما
قاله مضمرا أسي، فلکم ود أن يعمل ابنه بالسلك السياسي،
حتى يمثل بلاده يوما ما في الخارج، لم يبد كآبته عندما
تحمس الابن وأظهر قوى الرغبة، الراتب كبير ولن يصل إلى
مثله إذا التحق بالوظائف الرسمية إلا عند دنوه من التقاعد،
ولماذا يناى ؟ ليس واليد ماثلا أمامه ؟ ألم يصبح مرارا إلى
رغبات صخره ؟ حلمهم العمل في أحد هذه المؤسسات
الجديدة سخية العطاء، البنوك الأجنبية، الفنادق الكبرى،
شركات المقاولات، السياحة، أو السفر إلى بلد ناطق، فرصة
كجلم تواتيه، لم يسع، لم يكلف نفيسة عنتا، أما عن الرغبة في
استكمال الدراسة العليا فيمكنه تحقيقها، خاصة أن هذا
الراتب سيتيح له أمنا وهدوءا، وما سينتهي فيسحة من الوقت،
يمكنه توفيرها، لم يهن حماسه حتى بعد أن تأكد له إثر بدء
ترده على الفندق أن ما قاله صاحب البيت فيه عظيم مجالفة،
وتزيد، لم يشر أحد من قريب أو بعيد إلى توليه إدارة المبيعات
أو التسويق أو ما يشابه ذلك، ذلك، بل إنه لم يدرك تماما كنه ما
سيقوم به، أو نوعية ماسوف يسند إليه، حتى بعد لقائه بالمدير

الأجنبي ممثل الشركة الأمريكية التي تدير الفندق، نحيل، قصير، صارم الحضور، مزوم الشفتين، لا تشى ملامحه بأية إمكانية على التبسط والابتسام، كل ما فاه به أنه طلب منه أن يردد دائما على مسمع النزلاء والمترددین نوعية المؤهل الذى يحمله وتخصصه فى العلوم السياسية. أما لقاءه بالمدير المصرى فاستغرق زمتا أطول، أبدى ودا وترحيبا، وإن لم يرتح إلى ضحكته المفاجئة، المغتصبة قسرا، والتي تحوى سخرية لا تخفى، قال أن هيئته أعجبت المدير الخواجة، هذا مهم جدا، هنا اقترب منه، دقق ملامح وجهه ثم قال إن عينيه فريدتان بين من رأى من الرجال، لكن ما ينقصه عناية خاصة بهندامه، غير أن هذا ممكن، سيصرف له مبلغا يستقطع منه فيما بعد، ليشتري قميصانا وأربطة عنق وأحذية، سيحدد له ألوانها وأوصافها، وسيصرف له مبلغا آخر ليشتري به ملابس داخلية ملونة، وتلك سيختارها هو كما يرغب، ولما لمح دهشته وعجبه، قال: إن القمصان ستكون شفافة، وستبرز ما تحتها، ومما يستحب أن يكون ثمة تناسق بين ما هو يخفى وما يظهر، عندئذ ضحك هذه الضحكة التي يصاحبها خروج رذاذ من لعابه، طلب منه أن يتخذ أوضاعا مختلفة أثناء وقوفه، كأن يقدم ساقا ويؤخر الأخرى، أن يعقد يديه أمام صدره، أن ينحن قليلا أو يتراجع، أبدى المدير رضا وراحة، بنفس الضحكة توجه إليه قائلا: أرجو ألا يخطفك مخرجو السينما، أنت تبدو كأنك قادم من هوليوود . بدا جادا فجأة وطلب منه أن يصغى تماما إلى كل

حرف، وأن ينتبه إلى كل معنى، يجب ألا يخضع أى أمر للصدفة، طريقة مشيه، انحناءاته، لفتاته، مخاطباته للقوم، إمساكه لسماعة الهاتف، عبور القاعات، وقوفه بالممرات، كذا ابتساماته وانحناءاته، استقباله القادمين عند المدخل، لكل مدخل مظهر وتصريف، كل شيء بقدر، بحسب، الجمالة يظهرها في الوقت المناسب، ولن يستحق، يجب أن يعرف قدر من تجب مجاباته أولاً، وأن يبدي الجهامة عند الضرورة ولكن في غير إفراط، وليعلم أن العميل علي صبح دائماً وإن أخطأ، وليضع في ذهنه أن تعامله مع القادمين أو المقيمين عابر، واتصاله بهم مؤقت، ليعلم أنه يجب ألا يطأ الفندق إلا مبتسماً مهما مر به لا يظهر كدراً أو ضيقاً، عليه أن يردد إذا طال الحوار بينه وبين أى نزيل أنه حاصل علي شهادة عليا في العلوم السياسية، بعد الصرافة أدهشه ترديد المدير المصرى لما ذكره المدير الأجنبي، وكدر ارتياحه ضيق بذلك الرجل، وكما استعاد ضحكته أو شيك علي اضطراب، دارى ما عنده، ولم يبح بشيء من ذلك لوالده صباح يوم يوافق مرور عام كيامل علي ذهاب رئيس البلاد إلى ديار العدو سعياً للصليح، ارتدى هندامه الأتم، عقد ربطة عنقه حتى يكتمل المنظر ويستوفي القاعدة، بدا بهيا، يفيض بشبابا وحيوية، طويلاً، متنسقاً في العموم، حتى أن أمه دعت أن يقيه خالقه شر العيون وأولاد الحرام، وأن ييسر أمره، وأن يوقف له أولاد الحلال، وأن يبعد عنه كل أذى، فهو لباب عمرها الأتم.

صحبه المدير المصرى إلى المكان المحدد له: المر المؤدى إلى المطعم الرئيسى، سيتحرك متمهلاً بين المرأة القديمة التى تم شراؤها من أحد القصور القديمة، وتمثال عارى، امرأة ترفع شعلة لا تضىء، سيقضى وقته هنا فى الفترات السابقة واللاحقة على مواعيد الغداء والعشاء إذ لا إفتار فى المطعم الرئيسى، عليه أن يروح ويجىء على مهل، حتى إذا بدأ رواد يبادر مبتسما، يبسط يده مرحبا، يتقدم منحنيا، مبديا الاحترام اللائق، ثم يسأل عما إذا كان الحجز قد تم مسبقا؟ فإذا جاء الرد نعم، يتقدمهم حتى باب المطعم، هنا تنتهى مهمته، ويبدأ المشرف على المطعم عمله، فى يومه الأول هذا بدأ خفيفا، مستبشرا، معظم من أنهموا دراستهم معه لم يبدأوا العمل بعد، بعضهم هناك، ومنهم من حاول أن يخفى حسدا، غير أن واحدا، لا.. بل اثنين، أبديا دهشة، ما علاقة هذا بما درسه وتعلمه، خاصة أنه من المتعمقين، المستوعبين جيدا لما درسوه، لو أنه صبر قليلا يمكنه أن يصبح معيدا، من أعضاء هيئة التدريس، إن ترتيبة يسمح بذلك، أبدى عدم موافقة، بل جاهر باستهزاء ، الانتظار ربما يطول أو يقصر، كم سيتقاضى إذا أصبح معيدا؟ غير أنه عندما خلا بنفسه أدركته حيرة، كأنه مقدم على سفر لا يعرف غايته، لا يدري نقطة الوصول، أو المسافة التى سيقطعها، كأنه كان يتأهب ليقطع طريقا بعينه، وفجأة تتبدل المرئيات والموجودات فإذا بالدرب مغاير، وما قصد إليه ينأى عنه، لو أن الامر بيده كله لانتظر، غير أنه عاد

ليقول لصدته، إنه سوف يجد الوقت الكافى كى يتم البحث العلمى، وإنه سيلتحق بالدراسات العليا خلال أول العام، مهنته الجديدة تبدو مريحة، عائدها مجز سىتيح له التفرغ بهدوء بال، وطمأنينة زائدة. فى يومه الأول هذا حرص على التزام المسافة المحددة له، لم يتجاوزها حتى بمقدمة حذائه، بالضبط ما بين المرأة والتمثال، الفراغ فيه رائحة المفروشات الجديدة، وكساء الجدران، وروائح أخرى منها ما يمت إلى عطور شتى «، أو أطعمة مطهوه، التزم الأوضاع التى نصحوه بها، كان منتبها إلى كل خطوة، أو إيماءة، حريصا على مقدار الانحناءة، تأمل التمثال الرخامى فى ثيابه وحركته، دقق فى تفاصيل جسد المرأة شبه العارى المتشع بغلالة رقيقة أبرز النحات البارع تفاصيل تموجاتها مع أن الحجر واحد، حتى استدارة حلمتى النهدين بدتا جليتين كالعلامة، إنها المرة الأولى التى يتأمل فيها تمثالا عن قرب، ولطول وحدته أو شك على مخاطبته همسا، عند الثانية بدأ رجل بدين تصحبه امرأة نحيلة، سمراء، غزيرة الشعر، فسيحة النظرات، ترتدى ثوبا أخضر يشى بعظمتى ترقوتها، تقدم منهما، أبدا الخطى فى منتصف المسافة عندما انتبه إلى إسرعه قليلا، مثبتا النظر تجاه الرجل لا المرأة، انحنى، بالضبط كما قيل له، وبدا له استفساره عما إذا كان البك قد حجز مقدها أمرا مضحكا، المناضد كلها خالية، لكن لابد من النطق بما أمر به حتى لو بدأ الأمر غير منطقى، تقدمهما حتى مدخل المطعم الفسيح المسدلة عليه ستائر خفيفة

لونها وردى، ورأسها تماما هاجز من الخشب الخرط، عربي الطراز. عاد إلى المر ويه أنس، مصدره ذلك الحوار السريع، القصير مع الرجل، لن ينسى ملامحه أبدا، كذلك المرأة، إنهما أول من تعامل معهما، غير أن ركودا يعاوده، إن وقتا طويلا ينقضى هنا، الحيز ضيق، خطواته أحصاها مرات، إحدى عشرة لو أفسح، وستة عشر لو ضيق، عند بداية المساء جاء رجل يمسك بمفتاح غرفته، مقيم إذن، كان بمفرده، وعندما تبعه لاحظ قفاه، وصلعته، وخيل إليه أنه ينوء بهم ما، جاء أيضا ثلاثة يرتدون ملابس شركة طيران أجنبية، يتحدثون الألمانية، لكن عند مخاطبته تكلموا بالإنجليزية، بعد منتصف الليل ولج البيت. الوالدان فى الانتظار، لم يهجعا، فى ملامحهما بشر وقلق، استفسروا عن الأحوال، ولماذا التأخير؟ كان متعبا وعنده توى إلى النوم، قال إن الامور تمضى ولا بأس، أما التأخير فعادى، ما من ساعات عمل محددة حتى الآن، الفندق جديد، مازال بعد فى مراحل الأولى، وسوق المنافسة شديدة، لذا لا بد من التفانى، وبذل أقصى الجهود، هكذا قال المدير، فى اليوم التالى قالت الأم إن الولد كان مرهقا، وشخيره يسمع خارج حجرته حتى أنها قلقت عليه فأطلت مرتين، هذا ليس من عاداته، قال الأب إن لكل عمل ظروفه، ثم حاد بالحديث فقال إنه يفرح عند خروجه، ويتابعه من النافذة حتى يختفى عند الناصية، وإنه يدعو له، هذه اللحظات عاش ينتظرها منذ عشرين سنة وأكثر، إذ جاء اليوم الذى يدخل إلى جيبه قرش

نتاج مجهوده إنه مازال يذكر اليوم الأول الذى صحبه فيه إلى المدرسة، يراه كأنه بالأمس، بعد أن فارقه فى فناء المدرسة، بعد أن أوصى عليه المدرسات، نظر إليه من بعيد، فرآه وحيداً، صغيراً، فحن ورق وأوشك على العودة إليه يومها، سأل نفسه، بعد كم من السنين يمكنه الاعتماد على نفسه، وهل سيعيش حتى اليوم ، الذى يراه يخرج فيه إلى عمله، إنه يحمد الله أنه رأى هذا اليوم، ويحمد الله أنه الحقه بتلك المدرسة الأجنبية، فاتقانه اللغة سبب هام لحصوله على تلك الوظيفة التى يتمناها الكثيرون، صمت هنا، لم يقل لامراته إنه تحمل مصاريف هذه المدرسة لكى يتقن ابنيهما لغة أجنبية ويمكنه الالتحاق بالسلك السياسى.

حقاً.. ما كان أجدره بتمثيل بلاده فى الخارج، لكن من أين له بالطريق إلى الخارجية ؟ الأيام صعبة، والفرص محدودة، ثم انه سمع عن شباب بدأ دون ابنه بكثير فى بعض الفنادق ومع الزمن ارتقوا وصاروا مديرين كباراً تنشر الصحف صورهم.

بعد أيام قليلة أرسل المدير المصرى فى طلبه، أبدى ودا وأثنى عليه وضحك مرتين، هذه الضحكة التى ينفر من سماعها، قال إن الفندق ما زال فى البداية، وإن جهداً يبذل الآن فى اتجاهات عديدة، الشركات السياحية، وكالات السفر، ليس فى مصر وحدها، إنما فى الخارج أيضاً، أيضاً فى اتجاه أهل الفن، ونجوم الرياضة، ورجال الإعلام خاصة.

سأله عما إذا كان يعرف أحد العاملين بالإذاعة أو التليفزيون أو الصحف، إذن.. لا تربطه علاقة، هذا مؤسف، إن تردد ممثل واحد هنا يمكن أن يفتح الباب أمام الآخرين، أما إذا اختار أحد المخرجين الفندق موقعا لأى فيلم سينمائى، أو حلقات تليفزيونية، فهذا نجاح جدير بأن يجعل ، عليه أن يبحث فى معارفه، فى زملائه بالكلية حتى لو دعا أحدهم الى العشاء هنا فسيتحمل الفندق المصاريف، سكت لحظات، ثم بدا كأنه يتخلى عن لهجته الرئاسية ليبحث شكوى، أو ليفضى بهم بثقله، إن المدير الأجنبى يضغط عليه يطالبه بتنشيط المبيعات، مع أن هذه ليست مسئوليته، لكنه مضطر إلى العمل فى كل الاتجاهات، المدير الأجنبى يلمح دائماً إلى كسل المصريين، وتقاعسهم، وفى كل حوار معه يذكر ملايين الدولارات التى أنفقت، وأن العائد يجب أن يكون سريعاً، هل تدرى كم مليوناً تم استثمارها هنا؟، تطلع صامتاً مبدياً جهله بالأمر، قال المدير بتأن، ستة عشر، نصفها بالعملة المحلية، طبعاً أصحاب المال لا يريدون استرداد ما دفعوه فقط، إنما الربح أيضاً. طلب منه الا يهمل الأمر، أسفر فجأة عن ضحكته المصحوبة بالرداذ، قال إن الزحام سيعود عليهم جميعاً بالخير، ثم قال إن الحركة فى المطعم قليلة، لهذا يطلب منه القيام بعمل قد يبدو غريباً .

قام من جلسته، دار حول مكتبه، على مهل مشى حوله، قال إن الظروف ربما اضطرتته إلى القيام بأعمال ربما تبدو له غريبة، أهم شىء أن يلقى بنفسه فى خضم العمل، أن يفكر فى

الكسب، الفرص بلا حد، المهم الثانى أن ينسى ما تلقاه فى الجامعة، هذا كله كلام كتب، ما يجب أن يذكره عنوان مؤهله لا غير، العمل الذى سيخبره به رجب به المدير، بل هنا عليه، قال بصراحة إنه لم يتصور وجود من يفكر هكذا هنا، الأمر ببساطة أنه سيجلس وقت الغذاء والعشاء فى المطعم الرئيسى، بالضبط كائى مقيم، سيتناول الوجبات مجاناً، كما ستقدم له كافة أصول الخدمة، الغرض أن يبدو المطعم مزدهماً، خاصة عندما يوجد عدد قليل جداً، أن المناضد الخالية توحى بعدم الثقة، طبعاً لن يتم إشغال المناضد كلها، ستوضع لافتات هنا وهناك تشير إلى حجزها مقدماً.

خرج من مكتب المدير وعنده من الدهشة قدر غير يسير، تزايد يقينه أنه يؤدى دوراً ما، وأنه يجب أن يستنفر شخصاً آخر ليخرج من بين ثناياه ويقوم عنه، يشب ما بينه وبينه نفار، هذا ما بدأ يدركه مع تكرار حركته ما بين التمثال الرخامى والمرأة القديمة، مع كر أيامه مد خطاه، تجاوز المسافة المحددة له خلسة بخطوة أو خطوتين، لكنه سرعان ما يستدير مسرعاً خوفاً من المدير الاجنبى، ظهوره مفاجئ، من حيث لا يتوقع أحد، بوجهه عبوس مقيم، وفى طلته غضب مقيت، يخشونه كلهم، ويتردد همساً أنه يبغض البلاد وأهلها، إنما جاء لارتفاع راتبه، لا يخرج إلا نادراً، ولم يحاول الاتصال أو المزورة، لا صاحب له، مرة واحدة غادر إلى المطار عنده سفره الى قبرص لحضور اجتماع ممثلى الشركة فى الشرق، فى الليل يتجرع خمراً ويأوى إلى سكنه، لا يجرؤ أحد على إزعاجه أو اللجوء إليه عند وقوع مشكل.

تلقى المهمة الجديدة كأنه يتلقى أمراً مفروغاً منه، ما يصدر هنا لا مجال لرده، هذا ما وعاه جيداً، ما عليه الا الامتثال والتنفيذ، بل إنه أبدى تحمساً وارتياحاً، فهذا يعنى ابتعاده عن الممر، تلك المرأة والتمثال الذى ضاق به، ملامحه التى حفظها، وهدق فى جزئياتها وتفاصيلها، كان التغيير الوحيد ظهور القادمين إلى المطعم وهم قلة، يتقدم الرجال مرحباً، يتبع النساء، وعندما ابتسمت إحداهن انحنى، كانت تصحب رجلاً يمتلك توكيلاً للسيارات، ابتسامتها لم تكن عابرة قط، لم تستغرق إلا ثوان، بل ربما أجزاء من الثانية، غير أن ما تحفل به علق عنده، فاستعادها مرارا، وانتظرها ولكنها لم تأت، لم تلح مرة أخرى، فأورثته حنيناً، ما دهش له جرأة بعضهن، جسارة لفتاتهن وإيماءاتهن، يعرفن التوقيت الملائم لتسديد النظرة، لتشجيع الرسالة، وهى جد موجزة، جد ضامرة، ما يجب الانتباه إليه بقاؤه متلقياً على الدوام، غرض البصر عن أى معنى يصل إليه، له جذر أو متوهم، لو انتبه أحد هؤلاء ربما لحقه أذى عظيم، قد لا يتوقف عند فصله، وخسران راتبه الذى تسلمه أول مرة وعده على مرأى من والده الذى بدأ غير مصدق وأمه الداعية له أبداً بنأى الحساد عنه، غير أن يقيناً استقر عنده أنه يؤدى دوراً لم يعد له ولم يتأهب، بعد أن تحمس لعمله الجديد، ضجر منه، عليه البقاء حتى انصراف آخر الزبائن بصحبة اثنين من العاملين، لا معرفة سابقة تربطه بهما، وهذا مما عاناه، قعاده وقتاً إلى من لا تربطه بهم حميمية

أو وثيق صلة، واضطراره الكلام فى مواضع شتى لا رابطة بينها ولا دافع عنده لخوضها، مبرزاً ابتسامته، ماحياً من ملامحه كافة ما ينم عن نفور أو ضيق، لم يكن قادراً على التمكن من الطعام وتذوقه حتى، فالتعليمات تقضى بتناوله على مهل حتى لا يشغل المدة كلها، ما بين اللقمة واللقمة مسافة زمنية، حتى إذا ما بدأ المضغ وجب عليه أن يبداً نهما شرها، تواقاً الى المزيد، أن يشير بيده، أن ينطق ما يشى باعجابه، بأن الطهو متقن والأصناف رائعة، منذ قدومه إلى الفندق يشعر أنه غادر ذاته فى مكان ما وزمن ما، وأنه سيبدأ تأدية الدور، والحذار الحذار أن يهن، أو يتوقف، لو كف سيلحقه أذى، الليلة جرى ما أثار انتباهه، إذ التقى به المدير المصرى عند مكتب الاستقبال، صافحه مبدياً رضاه، أثنى عليه، قال إن الزبائن فى تزايد، والأمور تمضى إلى الأفضل، قال إنه بمناسبة شم النسيم سيقوم حفل إفطار فى الصباح الباكر حول حمام السباحة، طبعاً فيه البصل والليمون والملانة الخضراء، أما الفسيخ والسريدين فسيقدم فى وجبة الغداء، وهنا أطلق ضحكتهن متتابعتين، ومال إلى الأمام كأنه روى نكتة أو فاه بنادرة، قال إنه تم دعوة عدد من نجوم المجتمع وأهل الفن، حفل سيكون له مردود كبير، قال إن رئيساً لتحرير صحيفة كبرى نزل اعتباراً من اليوم لمدة أسبوع، هذا حدث لا يستهان به الآن، قال إنه تم إدراج الفندق فى قوائم عدد من الشركات السياحية وأول فوج سيبدأ إقامته الأسبوع القادم، لكن ما يجب التركيز عليه هم السياح العرب و.. والأثرياء الجدد،

توقف المدير قليلا، قال مبتسما: والثريات ا ، غمز بعينه، بعد انصرافه استعاد إيقاع الكلمة، ملامح المدير عند نطقه وعدم إتباعها بضحكته المقيتة، الثريات ؟ هل شكاه أحد الرواد؟ صحيح أنه يحدق طويلا فى الملامح فى الوجوه، خاصة بعد بقائه فترات طويلة فى المطعم، بدلا من رؤيته الناس بسرعة فى المر، عرف النظر المتأنى، والطواف بعيدا، ثم الكر مرة أخرى بعينه على وجه أعجبه، أو ملامح جذبتة، خلسة كان يرقب إيماءات النساء ونظرات الرجال، كيفية المضغ عند كل منهم، أفواه مضمومة أثناء الأكل، أخرى ثابتة، وشفاه متحركة مهتزة، ممدودة الى الأمام، وأفواه مزمومة، وأخرى يبدو مضغها كالتقبيل، وأوداج تنتفخ بالأسنة المدفوعة جانبا لاستخلاص بقايا من بين الأسنان وثنايا الفم، عيون تتأوه عند تحلقها حول الأطباق، وأخرى تبدو مشوقة حانية، فى إحدى الليالى أوشك على الضحك، رجل المانى كان يمضغ بسرعة ينقل الطعام من جانب الى جانب، وإن يزدرد الطعام يمد رأسه كله إلى الأمام، يتقوس حاجباه، وبعد اكتمال البلع يومئ مرتين، لا يتشابه إنسان بأخر، خفية كان يتفرج، وبسرعة يدقق، حريصا دائما على جمود ملامحه، فى أمسية أدركه خوف، إذ رصد انبعاث إشارات من منضدة قريبة، الرجل يدير ظهره، أما المرأة الحسناء فكانت تواجهه بملامحها، لم تكف عن اتخاذ أوضاع بشفتيها ذات معنى ودلالات عدة، أما عينيها فكانتا تتأودان، تنكماشان وتمطيان اتجاهه، أشد ما يخشاه تلك الإيماءات الخفية، ماذا كان يقصد مدير الفندق ؟

هل يقصد.. بسرعة استبعد الخاطر، لكن لم يستطع رده، عاوده ليلا عند انصرافه متأخرا، تقله عربية العاملين، لا يتحدث إلى أحد، يولى وجهه شطر الطريق يتابع مروق المرئيات، فى هذه اللحظات يبدأ استرداد ما حجبته، ما واره من ذاته، أحيانا إذ يتأكد أنه بمنأى عن العيون، يحرك عضلات وجهه، يفتحهما، كأنه ينفذ قناعا خفيا علق به، فى عتمة الليل ترددت المعانى التى لم يلمحها وقت نطق المدير، وفى مواجهة ما أدركه بدا دهشا، حائرا، متعبا، وعنده رغبة فى الإفضاء إلى أبيه وبسط همه أمامه، لكنه كتم ، حتى بعد ثلاثة أيام، بعد تأكده مما خطر له، التقى المدير به، قال إنه يتنبأ له بمستقبل باهر، وكرر ما رواه من قبل عن بدئه الرحلة من أول السلم، من أدناه، ارتقاه درجة، درجة حتى وصل، أصبح مديرا، وهذا منصب رفيع، لا يمكن الوصول إليه فى عالم الفنادق بسهولة، فما البال إذا كانت الشركة أجنبية والتنافس بين جنسيات شتى.

توجه بالخطاب مباشرة إليه، دافعا مقدمة أصبعه صوب صدره « أما أنت. أنت عندك من المؤهلات ما يمكنك من التقدم بسرعة، لا أقصد طبعا ما حصلت عليه من الجامعة، انس هذا بالذات، المهم مؤهلاتك أنت، طولك، وسامتك».

غمز بعينه.

«وسيكون لك معجبات يجئن إلى الفندق خصيصا لرؤيتك، المهم.. أن تقف فى المكان المناسب حتى لا تحرمهن من رؤيتك ا»

انصرف مسرعاً، لم يتم ما بدأه، لكنه لم يصرح، لم يعد ثمة مجال للحيرة، واضح ما يهدف إليه، أوى إلى فراشه منهمكا، انتبه إلى انقطاعه عن قراءة صحف الصباح منذ فترة، كم يوماً؟ لا يدري بالضبط لكن أيام دراسته تبدو نائية كأن سنين انقضت وليست شهوراً معدودات، فما أبعد الشقة، وأنى المسافة، يتصل به بعض من زملاء دراسته، أحدهم هناك، قال لا بد أن وساطة قوية تمت، استفسر عن المرتب والحوافز، أخبره ثالث عن انتظاره التعيين في الحكومة، البعض يبحث عن فرصة للسفر إلى الخليج، لكن يقال إن الفرص هناك ضئيلة الآن والآلاف يستعدون للعودة، أحدهم أقلع مهاجراً إلى فيينا، قال إنه سيبدأ من جديد، وكأن ما انقضى لم يكن سيبيع صحفاً أو يعمل خادماً في مطعم، ولعله يوماً يصبح مثل أولئك الذين يقرأ عنهم، وتتابع تحركاتهم، ويضرب بهم المثل على النجاح، صاحب قديم ميسور أخبره أنه سيتم دراسته في باريس، إنه سيعد رسالة علمية هناك، قد يعود وقد لا يعود، أمر في علم الغيب، أهدى إليه وعنده غيرة وأسى، هذا ما وده وتمناه، أن يصبح معيداً، أو دارساً في الجامعة، أن يسافر إلى بلد ما، إن في شرق أو في غرب ليتم درسه وتحصيله، لكنه يرقب دبيب شرخ في البنية، وخلال في ترتيب النظام، تغيير يجرى، يشمل كل ما حوله، إنه غير قادر على تحديد ملامحه بدقة، يشعر به ولا يعقله، يثقله ديبه ولا يدركه، يثق من سريانه

حوله وفيه ولا يراه، كان يعد نفسه لأمر، وإذا به مشمول بأخر، لكم ود إتمام الدرس، تحقيق ما تمناه والده، أن يقدم أوراق اعتماده يوما إلى رئيس دولة أجنبية ممثلا بلاده، لو أنه سافر كصاحبه هذا، لو التحق بجامعة أوروبية ، لكن ظروف والده المحدقة لا تفي بالعرض، عندما وضع بين يديه راتبه كاملا دمع الرجل تائرا، قال إنه تمنى التحاق ولده بالسلك السياسى، لكن ما يعزیه ضخامة المرتب، أعاده إلى ابنة داعيا له بالتوفيق، مرددا، لا يدري أحد أين يكمن الخير؟ وعسى أن تكروها شيئا وهو خير لكم، والخيرة فيما اختاره الله، وما شابه ذلك، وما أدرك معه الابن أن الراتب الكبير لم ينه ولم يجهز على أمنية والده القديمة، هو أيضا لم يكن مرتاحا وإن أبدى غير ذلك حتى لايسبب ضيقا لوالديه، حلق بعينيه المفتوحتين فى ظلام الغرفة، وإدراك حاد عنده أن الخطط حادت، وأن ما حصله فى سنوات طوال يتسرب على مهل، ليس المناهج، والنظريات، والعلوم، والقضايا، إنما أيضا الدأب والمثابرة والترتيب وما يمكن أن يحقق ذاته، يعى تبدد عناصر القضية الأصلية، وهذا موجع، مهما بدت المغريات الحسية، ثمة أمور مستحدثة تحل، بدءاً من طبيعة الوقفة، والانحناء، واصطناع البسمة فى غير موضعها، وتوجيه الشكر لمن لا يستحقه، وتجاهل الإهانة ولو كانت ضارية، وإغلاق بعض خزائن إنسانيته، وتبديل محتوى طال الحفاظ عليه، والتدرب على إقصاء نفوره من شخص غريب عنه، أما ما يجله، ما يكمن فى انتظاره، فلا يعلم عنه شيئا، مضرب، مغيب عن ناظره، وهذا كئيب.

للمرة الثالثة يتغير موقع عمله، للمطعم الرئيسي رواده الآن، والحجز مقدما صار ضرورة لا وهما، سفارات بدأت تقيم حفلاتها، وأفواج سياحية تعبر لمدة ليلتين أو ثلاث، وشركات طيران تأوى أطقم طائراتها بانتظام، تجار كبار، لهم أسماء راسخة فى السوق يجيئون، أحدهم يتردد يوميا، لا يجيء بمفرده أبدا، دائما فى جمع وصحبة، أحيانا يصحب فنانة معروفة، أو لاعب كرة شهيرا، المدير أحاطه باهتمامه، وخصه برعايته، لم يكن فى حاجة إلى زمن ليدرك نشاطات جديدة يقترب منها المدير، يمارسها علنا، فبمجرد وصول مجموعة من السائحين، يجتمع بأحدهم، يعرض عليه تغيير ما معهم من عملة، يشرح مضار التغيير الرسمى والحر، إنه يقيم علاقات وثيقة مع عدد من تجار التحف فى خان الخليلى، أحيانا يصحب بعض الأجانب الذين يفيضون بثرائهم، وفى الأغلب الأعم يرسل مجموعات السائحين مع من يثق به، وله فى كل جهة مقدار معلوم، هذا بعض مما ألم به مصادفة، أما ماخفى فلا يدريه بعد، إنه فى المطعم الفسيح الآن، حيث تقدم الوجبات السريعة، مزدحم، مفتوح طوال الساعات الأربع والعشرين، فى المساء يجيء شبان وفتيات لا يرى مثلهم فى الشوارع، يرتدون ثيابا تحاكي أحدث ما نشرته المجلات الأجنبية، بنطلونات واسعة من القطن، وقمصان بدون أكمام، وحلل كاكية ذات جيوب مختلفة الأحجام، يأكلون الشطائر، يجرعون عنب البيرة المستوردة، ينفقون فى غير حرص، يتنادون..هائى، أعمارهم

تقارب عمره، برغم ذلك ينوه فى مواجهتهم بسنين لا تحصى لم يعشها فكانه كهل بلغ من العمر عتيا، لماذا ؟ ، يسأل نفسه كثيرا وهو قائم على خدمتهم، يدون ما يطلبونه، ويبادل بعضهم الحوارات السريعة الخاطفة، ربما لأنه لم يمر بما يمرون به، من وفرة مال سهل، وخلوهم، ألم يكن النجاح آخر العام بمثابة الشاغل الأكبر وفى الأيام الصيفية يقرأ ليزيد معلوماته وحصيلته، أين راح هذا كله ؟ أحيانا يستعيد صوت أبيه عندما كان يلج غرفته فيراه مشغولا بكتاب أو مجلة فيدعوه له ويثنى عليه، يبدو له هذا غريبا الآن، وكأنه جرى لشخص آخر، أو فى مكان وزمان لا يمتان إليه بأدنى صلة، تدهشه جرأة الفتيات، يبادلنه الضحكات، إحداهن صافحته وضغطت يده بشرافة بادية، غير أن الشبان المصاحبين لهن أشد انتباها وغيرة من الرجال الوقورين، الممثلين، المصاحبين للنساء مرتديات ملابس السهرة مرتفعة الثمن، والتي تنشى رقتها بالملابس الداخلية الشفافة مما يوجع خيالاته التى لم ترو بعد ولم يشف غليلها، هنا الزحام مسل، والوقت ينقضى بسرعة، ما يرهقه، اضطراره محاوره هؤلاء الشبان، خاصة عندما يدخل بعضهم فى نقاشات عبثية، وتبادل قفشات، والتلفظ بجمل ذات إيماءات، وطبقا لما أوصى به المديرلابد من مجاوبتهم ومسايرتهم، ألا يتغلب على أحدهم لفظا، ألا يبدى تعاليا، إلا يرتدى ساعة ثمينة، أو خاتما ذا قيمة، فهو مغلوب دائما، ولكن فى غير ذلة، أقل ذكاء حتى وإن فاق محاوره، يجب أن يبدو

طبيعياً طول الوقت، يفيض نشاطاً، لا يبالي، لا ينقص، إن ساعات الوقوف طويلة، لكن عليه إخفاء إرهاقه، ألا يختلس جلوساً ولو دقيقتين، المدير الأجنبي لا يتهاون أبداً، كذا المصري، إلا أن تعبته توارى، ومعكراته خفت بعد ظهورها، هكذا فجأة انبثقت في المكان، بوغت بوميضها فأوشك أن يعشى، بحضورها الأنثوي الذي شع فطغى، وامتد فغطى، لم يكن بمفرده هو الذي تعلق بصره بها، إنما كل من وجد هذه الليلة، صالت بنظراتها هنا وهناك، ثم أخذت طريقها باتجاهه هو، بدأت تعبر الصالة متمهلة، تحيد متثنية متأودة عند اعتراض منضدة لسريانها، كأنها في عرض مستمر لا ينتهي، عنقها المطواع وصدورها الأشم، وطلائع فخذين أتمين، الجانب الآخر منهما ردفان مكتملان، محفوفان بما لا يزيد أو ينقص، أما قوامها فمتأجج وثاب، كأنها تعرف دريها صوبه، ابتسم، ارتبك، انسحب من كافة الأصول والقواعد، وعندما استقرت أمامه، عندما انتهت إليه، انحنى هرباً من عينيها مغالباً خفق قلبه وخدر حواسه، شمله حضورها، وذرته، فأرجفه وهدده معاً، فأرسل عنده مباسم وبشارات، واستنفر شوقاً إلى مجهول أتم لا يلوح منه قبس، تقدمها إلى منضدة خالية ينتظم حولها مقاعد ثلاثة، جلست فكانها شبت، أسفرت فتحة الثوب الجانبية عن لحظة اتصال الساق بالفخذ، ريان، ممتلى، باظ، لعاب رغبته يسيل داخله، يجاهد ليكنم، مرة أخرى ينحنى اتقاء لعينيها البديعتين النهاشتين، عليه أن ينسحب، أن يتراجع

صوب مكان وقوفه، إن سؤالها عما ترغب أكله أو شربه ليس مهمته، لكنه استفسر بصوت خافت، وتراجع ليبلغ زميله رغبتها فى زجاجة بيرة، كيف جرى له ما جرى؟ مع أنه يرى كل ليلة ربما من تفوقها جمالا، تفوقها؟ كيف.. ربما فى الملامح، لكن تلك حضورها مشبوب، وإشعاعاتها أزلية، أبدية، أما جسدها فممنقلت فار من حدود الثياب المتوارية منه، موحية بعديم قدرتها على له، لم يكف عن الطواف حولها، والتسلل من بعيد بالنظر إلى منطقة وجودها، متسائلا عن جنن ليجلسن معها، إحداهن سمراء، نحيلة، جعداء الشعر، تدخن سيجارة فى أثر الأخرى بدون توقف، الأخرى طويلة فى إفراط، أسيانة الملامح، ربما ألمانية، أو من إحدى الدول الإسكندنافية، أما هى فمن تكون؟ كيف يمكنه أن يعرف بدون أن يلفت النظر؟ اطمأن إلى نزولها الفندق، مفتاح الغرفة أمامها، وعندما دنا ميعاد ذهابه بدت باقية، حذرا اقترب، هل خصته بنظرة؟ هل أومأت؟ لا يقدر على نفى أو إثبات، فى هذه الليلة غادر الفندق على كره لأول مرة، ود المكث فترة أطول، فى تلك الليلة أرق، رأسه كوعاء ماء مغلى، حتى رائحتها تميزت فى الزحام، علقته به، وعندما أعياءه التقلب، وخشى طلوع النهار عليه مستيقظا، أنهك باستدعاء خطوها وتجريدها، وتمرير يديه على النافرين الصليبين وتقبيل جهاتها، قبض ذكره بيده، أراح نفسه بنفسه كما اعتاد منذ سنين حتى يهدئ حالة ويروق باله، ويواتيه خدر النعاس، كثيرا ما أنهى توتره باستدعاء جسد لفت انتباهه، أو

وضعا اتخذته إحدى زميلاته عند جلوسها وانحسار الثوب عن بضاضة وفتوة، أو تأثير ملاصقة عابرة دبرتها المصادفة بأنثى قدر لها أن تقف أمامه أو أنس صمتا منها، أو إطالة التحديق إلى صورة ممثلة شبه عارية.

فى اليوم التالى غادر البيت قبل مواعده، قبل أمه بحماس، وأوصاها أن تقبل أباه نيابة عنه، بدا شرحا، خفيفا، راغبا فى السعى، هذا الضيق الذى اعتاده عند التوجه إلى الفندق تبدد، يود الإسراع، خطاه أفسح، حريص على حركاته، فكأنها ترقبه خفية طوال سعيه، سيبدأ موعد الغداء عند وصوله، مع بدء نوبته، سيمكنه الاطمئنان عما إذا كانت مقيمة بعد؟ لا يدرى ما يريده بالضبط، لكن مجرد رؤيتها بعث عنده نهضة. على مهل، فى حذر، سيحاول أن يعرف عنها، إنه فى توق إلى رؤيتها، هذا المدد الحيوى الذى يبعث أزيزا خفيا فى أوصاله عند خطوها، عبورها، عند تثنيها، بعد استقرارها قاعدة يستمر الضجيج الخفى المنبعث عن طلعتها النضيد، الأخاذ، يؤجج مشاعر طال كتمانها، وهنا لابد من إشارة عابرة إلى خجل لازمه طويلا، وخفقات قلب فتى لم يضمناها قولاً أو بوحاً.

عندما رأها تهلل وأخفى، تمايل داخله وقمع ظاهره حتى لا تشى ملامحه بخباياه، فيما بعد لاحظ أن اتجاهه ناحيتها كان أسرع، وخطوه أخف، وابتسامته أرحب، أما يده الممدودة فتفيض مودة، وعندما أزاح المقعد قليلا الى الوراء لتتمكن من

القعاد، استنشق عيبرها بقوة، وأنشبت نظرتة عند قاعدة عنقها
وبداية وادى ظهرها العارى المنبعث منه زغب ذهبى خفيف
يتألق عبر الضوء، اليوم لم تطل وحدتها، جاء من يجله، من لا
يعرفه، من لم يره من قبل هنا، مصرى، ممتلى، حول معصمه
سوار ذهبى، تقدمه الى حيث تجلس، ركز البصر على
مصافحته لها، هل يتعرف بها لأول مرة، يبدو متحفزا كأنه لم
يرها من قبل، لم يطل جلوسهما، اكتفيا بشرب العصير، ثم
سقت قامتها متأهبة للانصراف بصحبته، اقتفاهما حتى
خرجا، فأوحش داخله وتعجل الغد.

تقريبا، فى الموعد نفسه جاءت، فى التوقيت عينه يتوقع
انبثاقها، أحيانا بصحبة هذه السمرء الجعداء، لكن مكثها
معها لا يطول، تخطر مرات الى الهاتف، تتحدث بهدوء،
تضحك، مرة لاحظ أنها تشير بعصبية، غير أن ما سرى إليه،
تلك النظرة التى خصته بها فى الليلة الرابعة لظهورها، تأكد له
ما فيها من خصوصية، ابتهج إلى حد التعب، وعند انصرافها
بصحبة مدير احدى الشركات السياحية رمتة بطلة جانبية،
أوشك أن ينحنى متوددا، غير أنه لاحظ تجهم المدير فكف، إذ
يخلو المكان منها يود الانفراد بنفسه بسرعة، وقبل نومه يلتهب
باستعادتها، باستحلاب حضورها بمخيلته، أما تلك النظرة
فأينعت عنده غرسا، وسقت أحلاما مبهما، خلال الأسبوع
الأول المنقضى على ظهورها لم يكن بقادر على تحديد مصدر
كل تفصيلى مما عرفه أو نمى إلى علمه، أحاديثه مع بعض

زملائه التي حرص على أن تبدو غابرة غير ذات غرض، خاصة مع موظف الاستقبال الشاب الهادئ، الذي يجاوره أحيانا في غرفة الفندق، إضافة إلى قول من هنا وقول من هناك، الحوارات السريعة التي تجرى في الممرات، عند الانتقال من موضع إلى آخر، عرف أنها مقيمة إلى مدى غير معلوم، أنها عاملة بإحدى شركات السياحة الأوروبية، وجودها مع زميلاتها ينشط الحركة، أنهن يقمن في غرف معلومة، لكنهن ينتقلن من حجرة إلى أخرى، يبدأ التعارف في الملهى الليلي، أو في المطعم، أو في أى مكان آخر، ثم يتولى المدير تدبير الأمور، قال صاحبه موظف الاستقبال إن هذا وضع متعارف عليه في عدد من الفنادق، خاصة تلك التي تديرها شركات كبرى، تحجب أسماءها المحظورات، ما سمعه حيره، أدهشه، لكنه عندما التقى بها أمام المصعد ابتسمت، بمفردها هي، جاوبها، كان عليه أن يمضى، طبقا للتعليمات ممنوع عليه إطالة الحوار مع النزلاء، خاصة النساء منهن، أو مصاحبتهن، أما الصعود إلى الطوابق العليا فأمر يؤدي إلى تحقيق قد يعقبه فصل، أو شديد عقوبة، هذا ما قيل له عند بداية خدمته، غير أن ما نعى إليه أحدث عنده زلزلة، ما يتكشف له لم يتوقعه، بل إنه غريب.

عند هذا الحد كانت الشقة قد اتسعت بينه وبين أيام دراسته، مع انصرافه الليلي، فى صمته، وتأمله الطرق شبه الخالية، والبيوت المدثرة، والعممة، والنوافذ القليلة المنبعث منها الضوء، خيل إليه أن من تردد على الكلية شخص آخر، وأن

الأيام الطويلة التى قضاها يطلع على النظم والقوانين الممضتة، ويخط بيده بنية السياسات، خيل إليه أنها نائية، غريبة عنه، أحقا أجهد النفس ليحقق أمنية والده، أحقا تمنى رؤيته دبلوماسيا يرتدى الحلة الكاملة ورباط العنق، ويمثل بلاده فى الخارج؟ لكم أفصح الأب فى جلسة ما بعد العشاء، بل تخيل مرارا ما يرجوه، والبلد التى سيخدم فيها، حتى السطور التى ستخط على بطاقة ولده، تلك الأمنيات، وأحاديث الليل، هل جرت فعلا؟ هل طاف بذهن والده، أو عنده هو يوما ما ذلك المكان الذى يعمل به الآن؟ أى هوة، أى باب شاسع يفصل بين الحدين، يباعد ما بين الخطين؟ كأن أمورا خفية تعمل عملها فتعدل وتبدل، وما ينتظره عند الخطوة التالية ربما يتفق أو يختلف مع النية والعزم، بل إنه الآن يوغل فى النأى عما ألفه وعهده، ما تعايش معه عمرا، وما جرى فيما تلا ذلك رسخ هذا وقواه وزاد من بعد المسافة بين ما كان وسيكون، ذلك أنه عند وصوله صبيحة ثلاثاء وعبوره المدخل المخصص للعاملين، فوجئ برجل الأمن يقول له إن المدير يطلبه، وأنه استفسر عن وصوله مرتين، خفق، لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال، لكن رجل الأمن بسط يديه، من أين له العلم؟ .

ابتسم المدير، اقترب منه ممسكا بذراعه، ألم يقل له إن مستقبلا راعا فى انتظاره؟ إذن.. لا يراد به شر، فى كل مرة يستدعيه المدير يظن أنه أخطأ أو أتى مخالفة، وأن توبيخا ينتظره أو عقوبة، غير أن قلقه لم يول، ماذا يراد به؟ قال

الرجل بلهجة ذات إحياء ومعنى أن مائة سبعة وسبعين معجبة به. مائة سبعة وسبعين ؟ من هى ؟ ضحك المدير ضحكته المبتسرة ، حقا لا يعرفها؟.. إنها الحسنة التى يأكلها بعينيه كلما دخلت إلى المطعم.

قال المدير بجدية، إنها تنتظره فى الثالثة تماما، ويمكنه الصعود، ضحك قائلا ، تذكرنا وأنت معها.. لا تكسفنا .

دخل المطعم، كأنه يقف على حدود مجهول، غامض، لماذا لم تتجه إليه مباشرة ؟ صحيح أنها رمقته مرات، لكن لم يصل إليه ما عبر عنه المدير، ماذا تريد منه ؟ لهجة المدير لا تخفى مضمونها، بل إنه أوشك أن يغمز بعينيه، الثالثة إلا خمس دقائق جاء أحد زملائه، قال مبتسما إنه سيحل محله، إنه يمكنه الانصراف ، كأن الفندق كله يعرف، كأنهم يعرفون أين سيكون بعد دقائق، وعندما توقف أمام المصعد لم يضطر إلى التلفت، الإذن بالصعود من المدير شخصيا، قال لعامل المصعد بثبات، الطابق الاول ، يدارى العامل وجهه، هل يبتسم ؟ هل يعرف هو أيضا، لا يعنيه الأمر، المهم الآن الثبات، حتى يوفى فيما ينتظره، عندما قال له العامل، مع السلامة، ارتبك لحظات، كأنه يمر بلحظات مشابهة لما يمر به أى عريس يقف مع عروسه فى صالة الاحتفالات قبل صعودهما إلى الغرفة بعد انتهاء الفرح، كل من يتطلع إليهما يتخيل ما سيجرى، أما الأخيلة الشبقة فتجرد العروس ، لكن لماذا يتجه بمخيلته تلك الوجة ؟ ربما

تريده لأمر آخر، غير أن مجرد جلوسه وحيدا إليها يفتح مغاليق جسده، قبل أن يمد يده ليطرق الباب ففكر هل فى الأمر مكيدة ؟ تردد، لكنه خطأ بقدميه، جاء جاء، عندما فتح الباب أشرف على تخوم عطر خفيف، الرائحة التى اعتادها عند مرورها، تقف وراء الباب، تطل برأسها باهرة العينين، تبتسم، تقول مرحبة بالإنجليزية، مزيج من ترحيب وتشجيع واستغراب عجب !

تفضل..

يلج الغرفة فيدخل إلى زمن مغاير، هذا كله جديد عليه، هاهى مكتملة، بديعة الوقفة، هجومية النظرات شتان شتان ما بين رؤية عينيهما من بعد، وسط الزحام، والوقوف فى محيط رؤيتها، فى مداهما، شتان أن تنظر بهما إلى جمع، وأن تحتوى بهما فردا، هو بالأخص، من أى نسيج أسود شفاف صيغ هذا الثوب الذى يشى بمفرق الردفين وعمة مابين الفخذين الواعدة، ينسدل على نهوض بنيانها، واكتماله، وفورانه المتدفق، الضاج، كتفاها العاريتان المستديرتان، انحناءتهما تغرى بالميل، بلثهما، أما نهديها فلا مشد يسندهما، حلمتان مشرعتان، بدأ داخله مس وأزيز، أما ركبتاه فسرى عبرهما خدر وتسيب، كاد ينتفض عندما فوجئ بها تمد يديها لتخلع جاكته وتفك رباط عنقه، نظراتها تلج عبر مسامه، ود القعاد إذ أوشك إعياء لطيف أن يحطه، وعندما شبت على أطراف قدميها لتتناول المشجب

اكتمل بزوغ جسدها، اتضحت التقاسيم، وانجلى السفور،
تعلق بالخط اللامرئى الذى يحدد منتصف الظهر ثم يتقوس،
ينحنى ليتحول إلى استدارات عجيبة، فكان رديفها يشدان
فخذيها، مكتملين، صلبين، ملحقين بها، متصلان، منفصلان،
ولأنها شبت، فقد انخسف الرداء الحريرى الشفاف المطرز
بخطوط طويلة مذهبة، توارى بعضه فى الفرق الذى يباعدهما
ويقربهما ويبرزهما، فى الوقت عينه الذى يفصلهما، فما أكمل
التكوين وأبدعه، فجأة استدارت، أوقعته فى كمين عينيها، مما
أربكه لحظات، غير أن الازين تحول إلى صراخ أو عويل متصل
دفع إليه بجرأة لم يعهدها عنده، كانت هى اللحظة بأتمها،
تختزل كل ما انقضى وتحجب عنه كافة ما يتوقع مجيئه أو
حدوثه، أشارت إلى المقعد فأبى، خطت نحوه فاشتد أمره، حتى
انتبه إلى ماتسفر عنه ثيابه، لكنه لم يبذل الجهد ليدارى،
حركتها المحدودة كأنها ركض داخله، تأودها ينشب عنده، تمد
يدها بكأس شفاف، تشير إلى زجاجة ويسكى، ليس مما يقدمه
الفندق..

- كأس ؟

يضطر إلى ازدراد ريقه قبل أن يلفظ «لا» بصوت متخثر.

- لا تشرب ؟

- لا..

- مسلم ؟

قال إنه لم يعتد الشرب فى الظهيرة، الحقيقة أنه لم يذق
الويسكى قط، تقف معرفته عند البيرة التى جرع منها كويا أو
اثنين، وأخفى ذلك عن والده الذى حذره دائما من الخمرة، من
الحنشيش، من الأقراص المخدرة التى ظهرت وشاعت أخيرا
وتنشر الصحف عنها، من النساء والزنا، كان يقول إن مشكلة
ستقبله عند تمثيله بلاده فى الخارج، لا تخلو الحفلات
الديبلوماسية من الخمر، ألا يظهر السفراء والقناصل وبأيديهم
الكؤوس؟ لكنه يقول مستدركا، إنه يمكنه المجاملة بشرب كأس
من الليمون أو عصير البرتقال، هكذا يمثل تقاليد بلاده حقا،
تقول إنها تشرب فى أى وقت، تضع قطعة صغيرة من الثلج، لا
يرى إلا تحرك جسدها، وعندما وضعت ساقا فوق الأخرى نفر
وركها المرتوى، فأوشك على الهذيان، ومع هذا كله حاش نفسه
عن الاندفاع، بقيت عنده خشية يقظة، ربما عد ذلك تهورا
يقتضى العقوبة، وفى لحظة وعى أن ما يأتى منه رد على فعلها
هى، وليس استجابة لاضطرامه وفوران حاله هو، أزعجه ذلك.

تقول إنها عرفت اسمه الأول، وعرفت دراسته للعلوم
السياسية، لكنها تجهل إلى أى البلاد سافر؟ يقول إنه لم
يسافر قط، تبدى دهشة، هى رحلت إلى بلدان عديدة، تسافر
منذ سن مبكرة، بلادها فى شمال الدنيا، باردة، لا تسطع
الشمس إلا أياما قليلة فى الصيف، كافة رسائلها إلى
أصدقائها تدور حول شمس مصر، والمناخ الذى لا مثيل له،
لكن الزحام شديد، تسأله عن خططه للمستقبل، يقول إنه لا

يدري، تسالنه عما إذا كان راضيا فى عمله هذا ؟ يقول إنه غير مستقر حتى الآن، لكنه يتمنى أن يلتحق بالسلك الديپلوماسى، تقول لكن المرتبات قليلة، يضحك قائلا إنها تعرف أمورا كثيرة، تقول إنها لم تعرف شيئا بعد، تصمت قليلا، تشرذ نظراتها، يحار، إلام سيؤدى هذا الحديث ؟ يقفز إلى وعيه تسأول، ماذا تريد منه ؟ هل يتخذ خطوة تجاهها ؟ لو أنهما بعيدان عن الفندق، لو أنه لم يأت بتعليمات المدير، لبادر وأقبل، ربما ما يمر الآن به معتاد عندها، لكن.. هل تقعد هكذا سافرة بجسدها كله ؟ بعد إقدامها على خلع جاكته وفك رباط عنقه؟ إن حضورها الانثوى يسبب له دوارا، بل أن خاطرا يياغته، هل يمكنه إرضاء هذا الموكب كله ؟ تقف حدود تجربته عند التقبيل المختلس وتميرير الكف فى أماكن هادئة على ضفتى النيل، قبلة خاطفة، ينتهى الأمر بتشابك الأصابع، وضغط الأيدى، وتأوه مكتوم، يذكر صوت صاحبتة الحذر، أه... إنك تؤلنى !، تسأل: هل تعرف كل من يتردد على الفندق ؟ يقول إنه يعرف بعضهم، إنه مستجد فى العمل هنا. تقول كأنها تحدث شخصا ثالثا غائبا، إنها تكره حياة الفنادق، تلتفت إليه فجأة..

- «تعال»..

ينتفض عابرا المسافة القصيرة التى تفصلهما، يرتعى بكليته صوب جانبية فلکها، إذ حط عند مشارفها تمدد إعيأوه، وثقل تنفسه حتى خرج منه مايشبه الشخير، ولما كف، شرع

فى شهيق شره، بدا كأنه لن يكف، يجرع عبقها، عطرها
الداخلى، تركض دقات قلبه، يود لو ذوى فى إسارها، مررت
أصابعها خلال شعره..

- برى.. برى..

تفك أزراره، تجرده، إذ بهم، تشير إليه أن يكف، إنها تفضل
القيام بذلك، للحظة يخجل من عريه، ما يلقاه غزير، متعدد، لا
يدرى بأى الأمور يبدأ، يود لو يأتيها من كافة جهاتها، يدنو من
أفقه، يقارب تضاريسها، ضحكاتنا قصيرة، سريعة، حانية،
يحوم حول مركزها، كأنه يخشى أن يبدأ فينتهى، وعندما
اجتاز تخومها انخلع غير مصدق وجرى بعضه فى بعضه،
يدفس أنفه فى إبطها، تحنو، تمرر أناملها فوق ظهره، يبدأ أمره
فى السريان من جديد، كأنها وعت ما هو عليه فامتصت زخمه
الأول، أما الآن وقد اكتمل استواؤها، فتبدو كمارج من نار،
ينبوع لهب، تتصلب، ترتخى، تتقلب فى هجوعها، وتمشى فى
ثباتها، يسلم قياده، تطرحه، تدغدغه، لم يقدر على منع أصوات
قصيرة من الصدور، تبدو كأنها تستحنه على إتيان المزيد،
يدرك أن هذا مما يستثير كوامنها الخبيثة ويقربها من نراها
فيلبى..

كم الساعة الآن؟ لا يدري، لكنه يوقن أن ما انقضى لما
يؤرخ به، تقبله، تمسه مسا هينا، تسوى شعره، تعدل ياقته، لم

يعتد ذلك من أنثى، إنه قادر على النظر إلى عينيها غير وجل،
إنها راضية، لكن المهم، متى وأين اللقاء التالي؟ تقول برقبة
ونغموض..

- بعد.. بعد..

ينصرف من الحجرة، انشطرت حياته إلى قسمين، تشعبت
رحلته إلى مرحلتين، إنه مضمخ برائحتها، غاص بوجودها
داخله، يود الانصراف، الخلو إلى نفسه، استعادة ما جرى،
تمثل ما وقع، قولها أنها تحب صدقه، وبكارتته، انه وسيم،
يتخدر إذ يستعيد إشعاعاتها عند القرب، يمضى على مهل،
ينزل الدرج بطيئا، مجبر على العودة إلى المطعم، يعبر الصالة،
يوشك أن يتعثّر، إذ يفاجأ بالمدير فى مواجهته تماما عند
المنحنى المؤدى الى المطعم..

«ها.. رفعت رأسنا؟»..

كأنه عالم بكل التفاصيل، يضافحه، يضغط يده، يقول إنه
كتب مذكرة لصرف مكافأة خاصة له، يضيق، غير أنه لا
يفصح، يحار الا انه لا يبدي، لماذا يكافئونه؟ يחדش ذلك
خصوصية ما جرى، لماذا يتعاملون معه وكأنه أذى وظيفية، لكن
يبدو انه لم يمض إليها إلا بإذن وتصريح، إن خاطره يغم، غير
أن ما مر به طفى فلم يقدر إلا على استعادته، فى هذا المساء
ازدحم المطعم، وعلا صخب، ولم يتوقف طويلا عند اهتمام
أبنته ابنة تاجر أدوات صحية شهير بدأت التردد منذ أيام مع

عدد من صاحباتها، تنفق بسخاء، جاوبها بما تمليه قواعد الخدمة لا غير، عنده قلق، لكنه يفيض حيوية، وكلما استعاد لحظة يسرى تجميل خفيف لطيف عبر ظهره، عندما لاحت عند المدخل كانت بصحبة سويدية شقراء، فارعة، عريضة الكتفين، نكورية الهيكل والأرداف، لم تصل إلا أول أمس، تجول بعينيها فى القاعة، كأنها لم تلمحه، لم تره، أهذه عادتها فى الليالى المنقضية، هل تتجاهله حتى لا توحى بما كان ؟ لكن المدير يبدو ملما، جامعا، من واجباته التقدم، والابتسام، الانحناء، الإشارة بيده، إلى المنضدة الخالية أو المحجوزة، بعد أن تم جلوسها أومات، هل تأخر فى الابتعاد عنها؟ هل تردد قليلا ؟ لا يدرى، لكنه ود لو تلقى إشارة تخصه، عندما أرتد الى موقعه عند المدخل اجتهد فى استعادة ملامحها، هل أبدت ابتسامة خفية ؟ ربما، لا.. إنه مخطئ، كان خطوها أمامه مختلفا، يستعيد ما كان بينهما منذ ساعة زمن واحدة، من يتصور كيف مضى الأمر بين هذه الجالسة المتألقة، وبينه هو الذى يستقبل القادمين بلطف، لم تلتفت قط إلى جهته، ود لو يبقى، لو يمكث، لو يجلس إلى منضدة مجاورة، أو يقف فى مواجهتها، فى اليوم الثالث قرر أن ينهى هذا الصمت المحير، أن يقدم على ما يعد مخالفة، ابتسم لها، استفسر عن صحتها غامسا عينيه فى عينيها، التفتت إليه كأنها بوغتت بهذا التبسط ، إلا أنها فى اليوم السابع المنقضى على اندماجهما قابلته بعينين تفيضان ترحابا ومودة، قالت بالعربية «أنت كويس»، خف، وشف، وتبدد

كمدته المتراكم، إلا أنه عندما لمح اقتراب الرجل الممتلىء، ذى السوار الذهبى حول معصمه، لفه غم، وعند اضطجاعه أرق، تقلب موعلا فى خططه الليلية، قرر الصعود إليها، طرق الباب، دخوله، استفساره عن أسباب تجاهلها له، تقبيله يدها، لكنه عند بدء نوبته فى المطعم، لم يجزئ على تجاوز المدخل، فى هذا اليوم غابت، لم تظهر فى اليوم التالى، وفى الرابع ضجج، لم يستطع المقاومة، تقدم من زميله موظف الاستقبال، قال إن صاحباً له يسأل عن مهندس دانمركى، متخصص فى الطباعة، ينزل فى الغرفة رقم مائة وسبعة وسبعين، بعد تقليب بطاقات الإقامة، قال زميله : الحجرة لا ينزل بها شخص بهذا الاسم، عندئذ بذل جهداً ليحافظ على حيادية ملامحه، من يشغلها إذن؟

عند عودته إلى المطعم تزوجت عنده الراحة بالضيق، راحة لانها أوحشت روحه، قل زاده، وتغير لونه حتى لاحظ أبوه فاستفسر عما به، غير أن حاله أوغل فى انعكاس، وأمره أصبح فى خلف، تباعد عن الأقربين، شح لفظه، وطال شروده، أوشك وكسه على التمام عندما علم أنها تجيء فى الليل المتأخر بعد انصرافه، وأنها تغيب أياماً وتظهر بصحبة جديدة، وأن معارفها يعدون الآن بالمئات، وأن رجالاً كباراً تنشر أخبارهم فى الصحف يجيئون إليها ويسعون، ويبتغون ظهورها، وبعضهم يصحبها إلى خارج.

الحركة فى المطعم صارت مقبنة، ملامحه يظللها غمام،

وبالتأكيد فإنه لم يلاحظ في البداية اهتمام هذه السيدة الأمريكية به، لم تكن بصحبة أحد، وحيدة، متأنفة، تجلس إلى منضدة صغيرة، وبين الحين والآخر تدون بعض الملاحظات في دفتر صغير، أو تنظر إلى مرآة صغيرة، بيضاوية، مزخرفة الحواف، تعدل أطراف شعرها، أو تهز رأسها راضية، تمضغ على مهل، بتأن، وعند بدئها الأكل تسبح عيناها في شرود عظيم، المطعم مزدحم باستمرار، نسبة الإشغال في الفندق لا بأس بها، في تزايد، أما السياح العرب فوصلوا، يجيء بعضهم بصحبة نساء محجبات وأخريات منهن سافرات، وأطفال، يبدى المدير عناية بهم، يقف مع بعضهم، يتبادل الود، أو يحادثهم مقطب الجبين، وعندما أرسل في طلبه ذات ليلة اشتد فيها الزحام، توالى عليه خواطر شتى وبوارق، قابله جادا، طلب منه مباشرة الصعود الى أربع مائة وأربعة عشر، ثم قال إنه في المرة السابقة لم يسأله عما جرى، وكان المفروض أن يجيء من نفسه ليقص عليه أدق التفاصيل، لكنه في هذه المرة لا بد أن يطلع على كل شيء، أصغى إلى اللهجة الحازمة، المدير في عجلة، لا يقترح إنما يأمر، اتجه إلى المصعد، هل بدلت غرفتها؟ ربما، إقامتها طالت، إن حيوية تسرى وإن لم يفارقه شؤم، لن يقربها حتى يستفسر عن نفورها، عن تجاهله، سيطلب رؤيتها خارج الفندق، يود ألا يكون لقاؤهما من خلال المدير اللزج، الفضولى، عكارة مترسبة صعب تلاشيها، غير أن دمه نشط في عروقه عندما طرق الباب، وبدت له رؤى بهيجة، فليعش ما سيمر به،

الا أنه أوشك على التراجع خطوتين عند فتح الباب، من هذه؟
للحظات لم يستطع التعرف عليها، الملامح لتلك السيدة، لكن
شعرها مسدل، تبتسم الأمريكية العجوز، تدعوه إلى الدخول،
رائحة عطر نفاذ، مختلف لكنه سيظل مرتبطا بهذه اللحظات
الأولى، غرفة أوسع، تطل على الليل والخلاء واللانهاى، ثلاث
حقائب ضخمة متراصة، متجاورة، إحداها معدنية الشكل،
وكانها صنعت من الألومنيوم، سلة فاكهة فوق المنضدة، أصابع
الموز مغلفة بورق شفاف، كذا عنقود العنب قاتم اللون، تبسط
يدها مرحبة، يقعد فى نفس الموضع الذى لزمه عند دخوله
الغرفة رقم مائة سبعة وسبعين. لكن ما أبعد الشقة، صوتها
خشن، فيه بحة، نفس السؤال، والإجابة بالنفى، لا يشرب، تقف
أمام المرآة، تنتنى متجهة إلى منضدة مزدحة بالأطباق، كيف
لم يلحظها؟ سمك مدخن، شرائح جبن، لحم بارد، سلاطات،
تقول إنها ستعد له عشاء خفيفا، ستأكل معه، يومى موافقا،
تناوله الطعام سيؤخر اللحظة التى يتوقعها، تفتح زجاجة مياه
معدنية، تصب ملء كوبين، تسأله: هل يفضل الضوء هكذا؟ يهز
رأسه، تتطلع حولها، تبدو متدفقة النشاط، فى صوتها، فى
حضورها حيوية كامنة، يستدعى إلى ذهنه الكليل التثنى،
التمهل، التأود، انسداد الثوب الدال المدل، نمش يغطى وجه
محدثته، كيف لم يره؟ لولا هذا الصدر المتهدل والركبتان
البارزتان لما بانَت علامات تقدم العمر، ليست طويلة، لكنها
عندما استقرت فى مواجهته أبقت رأسها مرفوعا مما أبرز

نحول رقبتها وانسيابيتها وشبها إلى أعلى باستمرار، كأنها واقفة أبداً، تقول إنها جاءت إلى مصر مرتين، وتنوى العودة في العام المقبل، لكنها المرة الأولى التي تجيء وحيدة، بمفردها، مات زوجها العام الماضي، ابنها يعيش في سيدنى، وابنتها في أسلو، أما هي فتسكن في كاليفورنيا، لكنها اعتادت قضاء الشتاء في جنوب أسبانيا، تمتلك بيتاً هناك، قريباً من المران العربى، تقوم إلى حقيبة يد سوداء صغيرة، مقبضها ذهبى، تتناول بطاقة خضراء اللون، قرأ عنوانها في كاليفورنيا ورقم الهاتف، على الوجه الآخر عنوانها في أسبانيا، قالت إنها زارت بلدانا عديدة في العالم، كان زوجها يصحبها دائماً، عمله اقتضى تنقله بين بلدان شتى، لم يتركها بمفردها قط، خاصة بعد استقلال ابنتها بأمرة، ورحيل ابنتها الإقامة مع زوجها النرويجى، إنها لا تفضل البقاء مدداً طويلة في أمريكا، زارت الاتحاد السوفييتى قبل شهر ثلاثة، أول بلد تراه بمفردها، زوجها لم يذهب إليه، قالت إنها تمنى لو صحبها في ليننجراد، مدينة جميلة، مليئة بالجسور، والنواصى البديعة، أما أعمدة الاضياء هناك فمتحف متفرق قائم بذاته، كذا القصور العتيقة المطلة على نهر النيفا من خلال خضرة كثيفة، تغمض عينيها، معبرة عن إعجابها، تبدو ملامحها ناطقة، جذابة، لا تفنى الانوثة مع تقدم العمر، هكذا فكر وقدر، يبدل جلسته، إنه مصغ، أقل توتراً وإن كان حائراً، متى البداية وكيف؟ هي أو هو؟ حتى الآن لم يلتقط إشارة أو إيماءة، يخشى الإقدام، ربما

أتى ما يغضبها، أو ما لم تتأهب لقبوله، حتى لو قويت عنده الرغبة فلن يخرجها إلى حيز التصرف والتعبير، عند الأخرى انتفض الدم فى عروقه بمجرد دخوله، أما هذه العجوز التى تفيض حيوية وأسى على زوجها الغارب، فإنها لم تبد علامة حتى الآن، ولم تقدم إلا على حديث طويل، عندما رآها هنا كاد يولى، تقزز من مجرد تخيله إلى جوارها، غير أنه الآن.. ولم يمتز من الوقت إلا مقدار يسير يتطلع إليها راغبا، بعثت عنده نشاطا وأنهت خمودا، هل يبدأ تحسس طريقه حذرا، لاشك أنها أعمق خبرة وتجربة، بحيث تؤجل الأمر حتى لا تبدو رغبتها مباشرة، فجة، غير أن ما يعكمه ضيقا، إدراكه التام أنه مقيد، وأنه... أنه يقوم بمهمة، وأنه قد يلقي الجزاء أو اللوم الذى ربما وصل إلى حد العقاب، تنهى صمته بسؤاله عن جهة مولده، يقول إنه ولد فى القاهرة، وعاش بها، تقول لا بد أنه يعرف المدينة جيدا، تطلب منه أن يحدثها عن أقسامها، عن أحيائها القديمة خاصة، يتهيا، لكنها تشير بيدها، ترجو منه الانتظار قليلا، تعود ممسكة بدفتر جيب صغير، يتذكر جلستها أقصى المطعم، تدوينها بعض السطور فى هذا الدفتر، تتطلع إليه بملامح فيها الانتظار لما سيقول، تدون، بين الحين والحين تستفسر عن كلمة، عن اسم شارع، تطلب منه أن يمليه عليها حرفا، حرفا، تهز رأسها هزات سريعة، لم تكن خبرته بالمدينة عميقة، حدثها عن منطقة سكنه، ميدان السكاكينى، القصر القديم، الظاهر، مسجد الظاهر ببيبرس المهجور، عن الأشجار

القديمة، والاجانب الذين كانوا يفضلون سكنى المنطقة ثم هجروها، استعداد بعضا من ذكريات والده عن الترام الذى كان يصل إلى الأهرامات، استوقفته بإشارة من يدها، سألته عن دراسته، تمهل عند قوله إنه درس العلوم السياسية، أبدت دهشة، إذن عمله فى الفندق إضافى إلى جانب عمله الأساسى، نفى، قال إنه متفرغ تماما، دونت بعض الملاحظات، استغرقت وقتا أطول، قالت، لأبد أنه نسى ما تعلمه، فى بساطة أوما مجيبا، لأول مرة يعترف نطقا وقولا، ولن؟ لهذه المرأة التى لا يعرفها، المكلف بالجلوس إليها ، التى يلتقى بها أول مرة، وربما آخر مرة، خفف عن نفسه ثقلا، ستمضى وإن تلح عليه بالاستفسار، كيف نسى ما درسه، كيف ينظر إلى سنوات دراسته الطويلة؟ يطرق ساهما، نطق بما آل إليه حاله، يبدو أنها لاحظت وجومه، تسألت، هل أثقلت عليه ؟ ابتسم مجاملا، أبدأ، أبدأ، تقوم إلى سلة الفاكهة، تتناول أصبعا من الموز، تقشره، تقدمه إليه، يتسامل، سيكون ذلك مقدمة لاقترابها منه؟ صحيح أنها عجوز، لكنها تفيض نشاطا وحيوية، حتى أنه شعر بتعب غريب فى مواجهتها، أدركه مس من كهولة لا تزال نائية عنه، تعود إلى مقعدها، دفترها لا يفارقها، ترفع حاجبيها، تبدو مستغرقة فيما يجعله، يلوح تعجب ودهشة بين ثنايا ملامحها، من أى الامور؟ لا يدري، تتشاغل بالنظر حولها، هل حانت المغادرة ؟ فليجرب، يقف، تومئ شاكرة، ابتسامة محايدة، تطلب منه الانتظار، تمد إليه مظروفا عليه شعار

الفندق، يحار، تهز رأسها بما يعنى أنه من الضروري أن يأخذه، عند الباب أمسكت ذراعه، شبت قليلا، قبلت وجنتيه، قالت إنه لطيف، مع السلامة.

فى المر فتح المظروف، ورقة مالية واحدة فئة الخمسين دولارا، ابتسم مدير الفندق، قال إنه يحب الأمانة، هذا ما تم الاتفاق عليه فعلا، لكنه لم يخبره مقدما حتى يستوثق ذمته، قال إن أهم مميزات الفندقى الناجح الأمانة .. الأمانة بالتحديد.. ساعدته على ارتقاء السلم من أوله، حتى وصوله إلى المرتبة التى يحتلها الآن، هل يعلم أنه بدأ عاملا فى نظافة الغرف ؟ كم من أشياء ثمينة عثر عليها فى الحجرات وقام بتسليمها، بعضها مما خف حمله وارتفع ثمنه، كان يمكنه إخفاؤها، لكنها الأمانة ثم الأمانة، إن نصيبه خمسة وعشرون دولارا سوف تسلم إليه فى نهاية الشهر إضافة إلى ما سيستجد، إنه وسيم، مكتمل الشكل وفرصه بلا حدود، ضحك، الضحكة ذاتها، قال إنه ليس بغافل عن نظرات الحسان إليه، كل نظرة إعجاب به تبلغه، يحاط بها علما، مرة أخرى هذه الضحكة، لكم يمقتها ..

عندئذ نطق، تسامل، لكن... لماذا هذه الدولارات ؟ قال المدير أخشى أن ترتد غبيا، لأنك أصغيت، لأنك استمعت إلى وحدتها، وإذا طلبتك مرة أخرى ستدفع من جديد، لو تطور الأمر مع شطارتك، سيكون الحساب مختلفا، مفهوم ؟ إن وجهه جامد

الآن، يقول، هل تعرف المر الذي بدأت فيه عملك؟ ستقف مرة أخرى عند باب المطعم، بجوار التمثال الرخامي، قابل الداخلين بابتسامة وانحناء، احذر مصافحتهم، لا تتحرك معهم، لا تتبعهم، مفهوم؟ أو ما مجيبا، يقول المدير إنه عمل مؤقت تمليه ضرورة معينة، لن يفصح عنها الآن.

في هذه الليلة رأى عددا أكبر يتجهون إلى المطعم، يختلفون عن رواد المطعم السريع، الرجال يرتدون الملابس الكاملة، وأربطة العنق، أما النساء فيضوين في بريق متلالى، الفخامة بادية، والثراء فائض إلا أنه حن إلى المطعم الآخر، حيث الحيوية متدفقة، والفرصة متاحة لتبادل جملة أو جمل، إنه ينحني، يبتسم، ولكن معظمهم لا يبدو عليهم أنهم يلاحظون وجوده حتى كأنه قطعة صماء متممة لهذه القطع الصماء المتناثرة في المر، تمثال رخامي، مرآة ثمينة، رأس تمثال محنط بعد تمام صيده وحزه منذ زمن، غير أنه عندما انحنى مبتسما لذلك الشيخ العربي النحيل الملتحف بعباءة سوداء مطرزة حوافها بالقصب، ويغطي رأسه بقماش من مربعات حمراء وبيضاء جاوبه، قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يتبعه ثلاثة على مسافة لا تزيد أو تنقص، عبااتهم بنية اللون، رمقوه بنظرات صماء، بعد انتهاء العشاء فوجئ بتوقفه أمامه، يمد يده، لم يتح له فرصة للانحناء طبقا للتعليمات، أحاط يده بكف نحيلة، معروقة، باردة، لاحظ لحيته المثلثة، وعينييه شبه المكحولتين، المرافقون الثلاثة يهتفون بنفس المسافة،

يبتسمون، يشجعونه بالنظر، اتسعت عينا أو سطهما كأنه يندبه
إلى الحظوة التي نالها، تسامل الشيخ: تعمل هنا؟ أوما، نعم،
ردد الرجل، ماشاء الله، ماشاء الله..

ضرب المدير المكتب بقبضة يده غاضبا، إلى متى سيعلمه
أصول الشغل؟ رجل كهذا كان يجب التودد إليه، مخاطبته
بباطويل العمر، طال عمرك، معاليك، هل يعرف ماذا تعنى رتبة
شيخ؟

عندما رآه فى اليوم التالى قادما نزل به ضيق، ضغط يده،
سأله عما إذا كان يقف هنا كل ليلة؟

- «نعم ياطويل العمر»..

«الله، الله، ومهذب أيضا..»

ثم أتبع قوله بلهجة مصرية دارجة..

- «إيه الحلاوة دى؟»..

ازداد اقترابا منه، مال نحوه حتى أوشك أنفاه أن يلامس
جبهته، بدأ يسمعه شعرا :

تفاح خدى شقير فيه مسكى لون زها وازهر

قد بان منه النوى فاضحى زهرى لون بخد مسعر

ماتزال راحته محيطة بيده، قبل أن ينصرف هز رأسه..

- «الله جميل يحب الجمال»..

لم يدر كيف يكون الرد، عند استماعه إلى الشعور دار
بنظراته، لم يدر أين يوجهها، أو كيف، أن ضيقا ثقيلًا تملكه
وجثم عليه، خاصة عندما بدأ يتلو هذا الشعر، ضيق ممتزج
بكراهية وخوف وقشعريرة تبعث عنده تساؤلا، ماذا يراد به،
ماذا ينتظره ؟ كل شيء جلى أمامه، غير أنه لم يدر كيف يدفع
عنه هذا الخطر اللزج السقيم، لام نفسه لأن رد فعله لم يبد منذ
اللحظة الأولى، لكن مقتضيات العمل، ظروفه..

فى المكتب بدا المدير قاسيا، غتيتا، ينوى الأذى، تسامل
مستنكرا، كيف يمكن رد هدية معاليه ؟
توقف لحظة، قال..

- مغفل.. هل تعرف ثمن هذه الساعة ؟
أطال النظر إليه..

- أربعة آلاف جنيه، يعنى ستضع حول معصمك سيارة
صغيرة..

جاوب المدير بنظر كظيم، تسامل، ولماذا يهديه الساعة ؟ إنه
لا يعرف اسمه حتى، يضحك المدير، ضحكة يصغى إليها لأول
مرة، مصحوبة بما يشبه الشخير، عيناه صوب السقف إذ
يقول، وهل من الضرورى أن يعرف اسمك ؟، ترتد ملامحه
خشنة، يتجه نحوه متمهلا، كلمة واحدة تتردد داخله تلخص
ملامح المدير الذى دنا منه، «فاجر» يخرج صوته بطيئا، خافتا،

فيه قسوة، اسمع يا ولد، هل تذكر مجيئك عندي أول مرة؟ ألم أقل لك إن شرطنا هو الطاعة التامة، هو قبول أى عمل يوكل إليك؟، يوشك أن يبدي اعتراضه، غير أن المدير لوح بيده وكأنه ينهى الحوار، خلاص... هذا شغل، شغل سيظل أمره بينى وبينك.. هنا وصل إلى نقطة لا يمكنه مقابلتها بالصمت، أو تجاهل المعنى الكامن للسافر، يقول، هل من العمل أن يتقبل مثل هذه الهدية التى لا يمكنه ردها؟ هل من الشغل أن يقرص الشيخ خده ويبدي الرضا؟ هل من العمل أن يغمز له بعينه، هل يقبل على نفسه مثل هذا؟

يقهقه المدير، يتراجع متمايلا حتى يستند إلى المكتب، إنه يحملق فى المدير، إن ما يواجهه يتجاوز وجود هذا الرجل الغتيت، إن خيوطا خفية تحدق به، تدنو من مسامه، تهدده بالنفاز إلى أبعد أغواره، توشك أن تبدل سنينه كلها وما سيجىء من زمنه، يخيل إليه أن المدير الاجنبى يقف وراء هذا الباب، يصغى، ينتظر النتيجة، وآخرين يجهلهم، لم يلتق بهم قط ولن يراهم أبدا، بعضهم هنا وآخرون منهم هناك، إن ضيقه يتحول إلى غضب، ومرثية لنفسه، أهذا ما ينتظره؟ ينهى المدير - فاجر - قهقهة، ليبدأ هجوما ساخرا، متصلا، مشيرا إليه بأصبعه أحيانا، الولد شريف، الولد عفيف، اسم الله عليه، هل تريد أن توقف حال الفندق؟ من أين يجىء مرتبك الذى لا يتقاضاه وزير؟.. وتكاليف الوجبات التى تطفحها بدون مقابل، أنت لا تدري مصلحتك، لا تدري مصلحة الفندق، ستة عشر

مليوناً أنفقها أصحاب هذا المبنى، ويومياً يتصلون به، يضغطون عليه، بل كل ساعة، يجب عليه أن يضحى، إذا لم يكن من أجل الفندق فمن أجل البلد، إن إغضاب معاليه ربما يسئ إلى العلاقات، ثم.. لماذا يخاف؟ هل سيأخذ منه ما لا يريد أن يعطيه غصباً؟ أبداً، ثم لماذا يفترض ما يفترض، ربما يكتفى معاليه بالمحاورة والملاطفة، ها.. ومن يدري، ربما يفاجأ عند طلوعه إليه بالرجل مرتدياً قميصاً نسائياً، برغم غضبه وضيقه منه سيقص عليه حكاية طريفة، حدث أن وصل إلى ليمان طرة شاب صغير يفوقك جمالا، أشقر، أنت شعرك أسود، خشى عليه الضابط من عتاة المساجين فوفر له إقامة منفردة وأوصى الحرس بحمايته، ومع مرور الأيام أهمل أمره وصار يروح ويجيء فى السجن، وأمر أحد الضباط بضمه إلى حجرة بالطابق الثانى كان يقيم فيها فتوة العنبر كله، رجل فى حجم معالى الشيخ ثلاث مرات، قاتل، هل تعرف ماذا جرى؟ فوجئ الضباط والجنود أن هذا الشاب الصغير الرقيق هو الرجل، والفتوة الذى يهابه الكل فى موقع الأنثى منه.. فلماذا يخشى؟ لماذا يخاف؟ ثم إن هذا غباء ما بعده غباء، سيقطع على نفسه طريق الترقى والثراء، ليسأله هو الذى بدأ السلم من أوله.

لا يتوقف، يبدو كأنه أعد الحديث من قبل، متصل، متدفق، يتزايد يقينه أنه سقط فى فخ، وأن عليه أن ينجو، الهرب حتمى، الفرار واجب، وإلا ضاع إلى الأبد، ولسبب ما يتذكر وجه أبيه

الطيب يود لو يراه الآن، لو يلوذ به، أن يأوى إلى ركنه السديد، هناك فى جلستها المسائية التى تبدو نائية، بعيدة، حيث لا يمكن لمثل هذا الفاجر أن يصل، أن يطل، أن يلفظ ما يقوله الآن، لكم تبدو أمنية أليه قصية، كأنها قيلت فى زمن يخص غيره، لا يمت إليه، أن يمثل بلاده فى الخارج، يقول الفاجر أن تصرفه سوف يسيء إلى العلاقات، إن مريثة تسرى عبره، مريثة لا تؤدى به إلى انكسار. إنما تفجر حنقا وغضبا..

- اعتبرنى مستقيلا..

يضحك، إنها الضحكة المختصرة، الرذاذ المتناثر، للحظة تبدو ملامحه طبيعية..

- اسمع.. ألم أمرك بالصعود إلى غرفة هذه البنت..
وظلعت؟ يرقبه صامتا..

- ألم أبعث بك إلى هذه العجوز؟

ماذا يعنى؟ انه يبسط يديه كأن الامر مفرغ منه..

- طلوعك عندهما يماثل تماما ذهابك إلى معاليه.. كله شغل..

يود إنهاء هذا بسرعة، الخروج إلى الطريق.. التوارى، تجنب المرور أمام الفندق، بالقرب من المبنى نفسه..

هل تظن أنك ستجو منا؟ أنت تفسد ما نبنيه، ستدفع الثمن من عمرك..

الهواء البارد يلفه، يمشى على قدميه، المنطقة نائية،
الضاحية بعيدة يمد الخطى، كأنه يخشى اللحاق به، كان
بعضهم يترصده، ليس مهما ما ينتظره، همه الوصول إلى
البيت، رؤية والديه، اللوذ بصمت الغرف، أصغى أبوه ولم يدقق
كثيراً لمعرفة التفاصيل، ربما أضمر النية فيما بعد، أما الآن
فبدا راغبا في تهدئة ابنه، حتى أنه ربت كتفه محاولاً تخفيف ما
بدا عليه من كرب ومشقة، أما الأم فأبدت ارتياحها، وقالت إنها
لم ترض عن هذه الوظيفة حتى لو ساوت ثقلها ذهباً، هل تكون
نتيجة التعب وسهر الليالي وقوفه في مطعم؟، فلتغر هذه
الوظيفة إذا كانت قد سببت له ما تراه بعينها وما تشعره
بقلبها، طلب منه الأب أن يقوم ليرتاح، إنه عارف بأحوال ابنه،
قريبه منذ أن كان صبياً، صحبه إلى سائر الجهات، طيل عمره
لم يرفع يده ليعاقبه أو ليزجره، يعرف ابنه حمولاً، صبوراً، على
البلايا، ولا بد أن مكروها صعباً نزل به، لا بد أنه ينوء بما لا
يقدر على حمله، على عدم البوح به، لن يلح الآن، يثق أنه ربما
سيخرج من غرفته عصراً أو عشية، ليفضى إليه، لينبئه بما
جرى، وما جرى جسيم، هكذا تنبئ ملامحه، قسماته المعتمة،
فأى أمر وقع؟.

استقبل الرجل القبلة، صلى ركعتين، رفع يديه بالدعاء، قبل
أن يخلو إلى أم ولده قال، عسى أن تكروهوا شيئاً وهو خير
لكم، ربما أراد الله أن يمثل بلاده في الخارج، قال ذلك ثم
مضى إلى باب الغرفة، مال مصغياً، الولد نائم فيما يبدي، والأم

لم تخف قلقها، بعد الغروب مضت على مهل، نادته نداء خفيا،
لم يجب، لم تنصرف إلا بعد اطمئنانها على تردد أنفاسه، فى
الليل خيل إليها، بل أوشكت على اليقين من أنه مستيقظ أرق،
لكنه لم يجب عندما نادته، أغفت بعد الواحدة صباحا، غير أن
الطرق المفاجئ عند الفجر باغتهم أجمعين، هذا لم يقع من قبل،
أى زائر هذا؟ يقف الولد عند باب غرفته مجهدا منكوش
الشعر، تتطلع أمه إليه، حسها الخفى ينبئها أنه المقصود،
ترجوه بعينيها أن يخبرها، أن يبوح، يفضى إليها، وعندما
اقتحم الضابط ذو السترة السوداء والنجوم الذهبية الصالة،
أوما إلى الجنود الثلاثة أن ينتشروا فى البيت، أن يقبلوا، أن
يفتشوا، أن يقبلوا ما لم يطلع عليه غريب من قبل، تتطلع الأم
إلى ابنها الواجم، المستغرب، لم تلفظ إلا كلمة واحدة بدت
كالاستغاثة، كالمراثية..

- «ياخرايى..»

الآب يبدو ما يجرى أمامه غريبا، كأنه يسمع بوقوعه ولا
يراه، كل ما فاه به أنه نطق باسمه كاملا مقرونا بوظيفته، غير
أن الضابط جاوبه مشيرا إلى ولده..

- «انصحه بالاعتراف.. ربما خفف ذلك من العقوبة..»

ثم انثنى ملتفتا إليه، غير عابئ بجزع الآب، وتهدم الأم،
ودوع الابن..

- «بصماتك تملأ الغرفة رقم مائة وسبعة وسبعين.. هناك
شهود أيضا..»

وقت ضائع

.....

.. ما خبرته، ما جربته، أن التغير لا يدرك لحظة وقوعه، إنما يبدو وتتضح معالته بعد تمامه، الجواهر الذى عشته يوما ووطنته باقيا أبدا، مفروغا منه، لا يمكن مجادلته أو نقصه، أشهدته منقلبا، تبال واتخذ وجهة لم تخط على بال، ولم يتنبأ بها أحد، ما جرى فى زمنى المحدود كان شاملا، مباغتًا، أورث من هم مثلى كهولة قبل الألوان هم مازالوا بعد فى اربعينيات العمر، ولأضرب مثلا وإن بدأ فى صيغة تساؤل:

- ما الذى درج عليه أقرانى منذ نشأتهم ؟

اليس تحصيل العلم ؟، النجاح فيه، والتفوق فى مضماره، فى زمنى كانت قيمة الإنسان بما يحصله من علم ومعرفة، كان

هذا كافيا لضمان حياة إنسانية، بلا ضميم، أو عوز، ما كان عليه الحيال فى وقتى الاول، لكن ما وقع من تبدل أتى معه بما لم يدر بخلد، إذ صارت القيمة الإنسانية تقاس بما لدى المرء من مال جمعه واكتنزه، ليس مهما كيف أتى به، ولا بأى وسيلة، هذا جوهر الوقت الذى أدركنى، وحفزنى إلى كتابة هذه الرسالة، حتى إذا ما تبدل الأمر يوما، وصار ما اکتويننا به نسيا منسيا، لقى من يأتى بعدنا لمحا ما كان وباد، فالتغير يلحق كل شىء، ما من معنى أو حدث مطلق، فكل أمر نسبى، محكوم بالوقت وقصد المنفعة..

من تصور يوما أن التغير سيلحق جوهر ما بذلت أرواح من أجله ؟ من ؟ ..

من شطح به الخيال وقت اضطرام الحرب ؟ ليرى من هتك الأرض ودهس بجنازير دبابتة الأطفال الصغار، ساعيا أمنا، يجوس الديار، أما الذين بذلوا أعمارهم أثناء حربه، فقد أتى حين من الدهر، منع فيه ذكرهم، حرصا على الوئام الذى بدأ، والصكوك التى وقعت..

من ؟

إنى منبئى عن حرب لم أقرأ عنها، لم أسمع بأحداثها، لم يروها لى مخلوق، إنما شهدت لهيبتها وخضت غمارها، وكدت أقضى فيها، لو أنى بدلت يوما مكان وقوفى، لو أن عربية ركبتهأ أبطات قليلا، لو ارتفعت رأسى مقدار شبر، لو أننى

حدثت يميناً بدلاً من اتجاهى يساراً، لم ألتزم هنا ولم ألتزم هناك، لما صرت إلى تلك اللحظات التى أخط فيها رسالتى تلك..

حدث ذات يوم ديسمبرى عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين أن أتجهت إلى موقع خارج السويس، خطر لى أن أعرج على مقهى وسط المدينة، مقهى أبو رواش، الواقع أمام محطة السكك الحديدية التى توقفت القطارات عن الوصول إليها أو الرحيل منها، فوق الرصيف قعدنا، أنا وزميلي ضابط الشئون المعنوية، شاب من دمنهور، برتبة نقيب، خفيض الصوت، أحببت المقهى، إنه الوحيد الذى بقى مفتوحاً زمن الحرب، يقوم على خدمة الناس فيه عم خليل، من يصدق أنه تجاوز الثمانين، دائم الطواف، والحركة، لم يكن له أقارب فى أى جهة، اتخذ من المقهى مستقراً ومقاماً، بعد الشاي، يشعل الجمرات، يقدم المشروبات، والنرجيلات، يحرص على بقاء المقهى نظيفاً، لذا لا يقعد، لا يكف عن كنس الأرض ورشها وتنظيف الموائد، وتحذير الرواد من البصق.

فى هذه الأيام لم يكن الناس فى حاجة إلى انقضاء أوقات طويلة ليتعرفوا إلى بعضهم البعض، ما تبقى من الأعمار قاب قوسين أو أدنى، الموت فى كل خطوة، عند أى حركة، مقترن بالأنفاس ذاتها، جاء جندى من قوة المطافئ المرابطة، قعد على مقربة، دعونه إلى كوب من الشاي، دنا فجلس، صرنا ثلاثة، متجاورين، لا يواجه أى منا الآخر، وإذا تحدث أحدنا مال إلى الامام قليلاً، حكى عن إقامته هنا، وإقامة امرأته وأولاده هناك، عن رحلته الشهرية إليهم، عن العبء الملقى على امرأته..

كان الله فى عونها!

صمت لحظات، لم أنتبه إلى ميل رأسه، فيما بعد قال زميلي أنه ظنه بدء إغفائه، غير أن ميله البطئ استمر، حتى تكوم أمامنا، كان مظهره ثقيلًا، هامدًا، هذا الغموض البغيض الذي لن تعقبه قومة، كان لأبد من مضى بعض دقائق حتى يكتشف عم خليل تلك النقطة النحيلة، الضامرة كراس الدبوس، تبعثها نقاط على فترات متقاربة، ثم سال خيط، فى المستشفى قال الطبيب إنها شظية ضئيلة جدا مندفعة من مكان ما، ماذا لو أنى جلست مكانه ؟

الغريب أن هذا التساؤل أقض عم خليل الذى لم يكن يجاورنا وقت نفاذ الشظية، لكنه اعتاد الحديث إلى جندى المطافئ هذا، كأننا يتحدثان دائما وقت العصارى، يصغى عم خليل إليه، يهز رأسه أو يمصمص بشفتيه أسفا أو تعجبا، ولا يدرى أحد ممن يراهما مضمون الحديث . فيما تلا ذلك من أيام قال الناس إن عم خليل العجوز أوشك على الجنون، كان يبدأ الحديث إلى أى إنسان قائلا:

- تصور لو أنى قعدت مكانه ؟

فى البداية كانوا يصغون إليه، يستفسرون، لكن مع كر الأيام صاروا يستمعون إليه ضاحكين، وقد يسخر أحدهم منه فيبادره:

- ماذا يحدث لو أنك جلست مكانه؟

تلك شظية أدق من رأس الدبوس نفذت إلى موضع مؤثر،
سلكت سبيلا لم نطلع عليه، ولم ندر به، فأخرست عمرا ناطقا،
وأنهت حياة شاء الترتيب الخفى أن نرى حدها على مرأى، من
أين أتت؟ أى قوة دافعة؟ لم نسمع انفجارا قريبا، لم ندر
المصدر، فكيف؟ هذا من المكنونات التى لن نطلع عليها، لكن ما
تردد عندي عين ما أقض عم خليل، ماذا لو قعدت مكانه وقد
كنت قريبا دانيا، متأهبا، ماذا لو أنه لم يأت؟ أى مسار كانت
تسلكه الشظية؟، أحيانا وبرغم انقضاء الأعوام الطوال، أردد:
ماذا جرى لامراته، لعياله؟ أى مستقر؟

شغلنى هذا، كما شغلنى ما جرى ظهر ذلك اليوم، عندما
كنت أقصد مدينة القنطرة، على الطريق الممتد بين الإسماعيلية
والقنطرة، السيارة تمضى فى خط متعرج، الضفة الأخرى،
مواقع العدو مرتفعة، مطلة، نيران الأسلحة الخفيفة تطل
وتغطى الطريق، صوت المحرك يغطى أى ضجيج خارجى
محتمل، تمر الغرود الرملية، المنحنيات، فجأة.. لمحت جنديا
يهرع، كينونته الأولى تحاول التوارى عن خطر محقق، محاولة
غريزية يرتد عبرها إلى زمنه البدائى، إذ يحاول الوجود
الإنسانى الوصول إلى مخبأ ليحتمى، ليبقى، فى اللحظة
نفسها لم أر ولم أدرك هذه المعانى كلها، كان ثلاثاء، الواحدة
والربع عندما أمرت السائق أن يقف، وعندما حادت العربة
واستقرت خارج الطريق المرصوف، صحت به أن يجرى، أن

ينبطح، كنت أفعل ما أصبح به، من الأعلى يتدفق هدير الطائرات، يصهر الصمت، معدنى، يثير الغثيان، يجرح، يشقق السماء الصافية جدا، عرفت الطائرات من الصوت، سكاى هوك، كانت حديثة جدا وقتئذ، رأيت ملامح السائق، كانى أعرفه أول مرة، ترقب، خوف، رحيل محتمل، استفسارات وتصاعد وتيرة، أصابعه مغروسة فى الرمل، فوق الأرض بدت العرية بأبوابها التى بقيت مفتوحة لها مظهر ذعر بشرى، تتعامد الشمس فوق معدن الطائرتين، تبرقان كنصل الموس، واحدة إثر الأخرى، هجوم وتغطية، انفجارات القذائف المضادة لا تطالهما، كانتا بعيدتين عن مرمى مدفيعتنا، عندما طغى الانفجار تناثرت الرمال حولنا، فى لحظة بدت الملامح التى تواجهنى وكأنها فقدت الصلة ببعضها، عيناه فى ناحية، ذقنه تدلت، أما شفاته فانفرجتا متباعديتين، ابتعد الهدير ثم اقترب، استدارتا تجاه الشرق، كان الانفجار على بعد ثلاثين مترا تقريبا، أسرعت، خفيفا، مبتهجا، منفيا من الوقت. عندى بهجة غامضة، وفورة حيوية، إذن. نجوت !

تأملت آثار القنبلة الثقيلة، زنة خمسمائة رطل، كأن سكيننا هائلة قشطت ضفة التربة المنجدرة حتى سطح الماء، يلمع الطين الأسود المشطوف، على مسافات تناثرت كتل متفاوتة الحجم، على بعد عشرين مترا ترقد جثث ثلاث، بينهم خبير روسى، شملتهم الدائرة المؤثرة، غطاهم مدى القتل...

حتى مساء هذا اليوم لم أكف عن الحديث، الإنباء بما
يجرى لكل من التقى به، قبل هجوعى دهمنى تساؤل:
فيما تلا ذلك كنت غير هياب، ما أعيشه منذ وقوع هذا
الانفجار أو ما شابه ذلك من مواقف، وقت مضاف، زائد، إذ
كان المفروض أن أولى وجهة العدم منذ زمن بعيد.
ما جرى كثير، لو فصلت لأطلت، لكننى أقصر، فما قصدت
الا التمهيد لثلاثة أترجم لهم، عرفتهم زمن الحرب، وتابعتم
بعد تغير الأحوال.

ماجرى للمحارب الذى تقاعد

.. ما بين نهار وآخر خرج من الخدمة !

تغير وضعه بالكلية بعد ظهور اسمه فى كشوف الضباط ،
فى النشرة الدورية التى تصدر آخر أيام السنة، على الرغم من
توقعه ذلك فإنه بوغت، فالأمر يتم فجأة، ربما لأن صاحباً له لم
ينبئه، لم يلمح له، تقاعده يعنى انتقاله من وضع اعتاده، إلى
مجهول لا يعرف أبعاده، من سير معلوم إلى سعى مجهول، من
أرض يعرف مواقع الخطى فيها، إلى تضاريس تفاجئه كل
لحظة، مفارقة عشرين عاماً من الانضباط العسكرى ليس أمراً
هيناً، لهذا بدا أول يوم خارج الخدمة غريباً. لا يمكنه ارتداء زيه

أو المضى إلى الجهات، يطرق الشوارع فى أوقات لم يعتد المشى فيها، إنه يدنو من السادسة والأربعين، يرتد إلى نقطة يجب أن يبدأ عندها من جديد، لكن الشباب يأفل، وفى رقبتة عائلة، أما معاشه المقرر فلن يفى ولن يكفى، الأدهى من ذلك الفراغ، تذهب البنتان إلى المدرسة، تمضى امراته إلى عملها، ويبقى فى البيت ! هذا مالا يطيقه وما لا يقره أمام ذاته.

وتعمل امراته فى إحدى الشركات، ابنته الأولى تقترب من نهاية المدرسة الإعدادية، الصغرى فى الثالثة الابتدائية، شوطهما مازال بعيدا، يقولون إن ذروة العطاء تبدأ من الأربعين إلى الخمسين، عنده دراية وإتقان لعلم الهندسة، له خبرة بما يسمى بفن الاتصالات، كان من المعدودين فى مجاله هذا، شهد حرب السويس وكان حديث التخرج، يافعا بعد، أخضر العمر، أن عاش ماعاش لا ينسى انسحابه من بورسعيد وعبوره بحيرة المنزلة بصحبة الجند فى قوارب الصيادين، فيما تلا ذلك من سنين رأى فظائع شتى، إلا أنه لن ينسى أبدا احتراق الصباح الباكر فى المدينة، اللهب المندلح من البيوت، محيط بها، ممسك سائر الجهات، لهب برتقالى أحيانا، داكن الحمرة حيناً آخر، أسود قاتم إذ يغزر الدخان، عاش فيما بعد حروبا ثلاثة، الحرب فى اليمن، كاد يقتل فى صرواح، والحرب التى جرت على ضفتى القناة بعد أن وقعت الواقعة عام ألف وتسعمائه وسبعة وستين، وأخيرا... حرب أكتوبر، وطوال خدمته كان مشكور السيرة، مقداما، قلبه جامد على المخاطر، سمعته بين

جنوده طيبة، كذا عند الضباط الأقل منه رتبة، ومما تردد عنه بين قادته، موقف عاشه فى خضم آخر ما جرى من حروب، عندما انقطع الاتصال بين قيادة لواء مدرع وسائر الوحدات، وقام بجهد فائق، استثنائى، فى تأمين قنوات وسبل اتصال بديلة، ومما اشتهر به أيضا واستحق عليه نوط الشجاعة قدرته على إفساد التشويش المعادى على وسائل الاتصالات البديلة، فكان ذلك مما سجل له، وكوفئ عليه، ونقله آخرون عنه، فنال الثناء والوسام بحق، أصبح هذا كله بعيدا، ماضيا مندثرا، بعد انقضاء المدة ومروق الفترة حكى ما جرى لامراته، عن أصعب لحظات عمره قاطبة، عندها انقطع الاتصال، وبرغم قربها منه، وإدراكها لما يسره وما يكدره، فإن قسماتها لم تعكس اهتماما، كأن ما يقصه عليها أمر عادى، عندئذ كف ولم يكرر الرواية، سكت أيضا عن كثير، فليس كل ما يمر به الإنسان يمكن توضيحه وشرحه للأخرين، حتى الأقربين، خاصة إذا كان الظرف مخالفا للمألوف.

انقضى هذا كله، كأنه يخص غيره، وأحيانا يكتشف أن غميمة نسيان حجت عن وعيه ما ظن أنه لن يمضى أبدا.

كان بين زملائه وبينه صحبة أكيدة ومحبة، كان من قلة معدودة خلت سيرهم من المكدرات، أو المخالفات، باختصار دال نقول إنه كان فى التمام، لذا كثر عليه الأسف من زملاء خدمته ورفاق سلاحه زمن الحرب، وأوشك بعضهم أن يذرفوا

تأثرا بحضرتة، قال أحدهم وكان ريفيا متينا، يا أصيل يابن الأصلاء، إلا أنه أظهر الود الجميل عند التوديع ومفارقة المقر بعد أن أتم تسليم عهدته، وعندما خطا بعيدا قال بصوت مختنق تأثرا: أن للمحارب القديم أن يستريح، يكفيه أنه خلف وراءه رجالا هم بحق أعز من عرف، فيهم من يفوقه علما، كما أن ملامح منه وعناصر أودعها فيهم، بقى متماسكا، غير مفصح عن كثير، إلا أنه عند مواجهته أول أيام تقاعده تهدد داخله، هانت عليه قعدته فى أو ان خروجه اليومي إلى عمله، عزت عليه أيامه القديمة، غص حلقه، وطرى دمه، والغصة لا تواتى من هو على كبر إلا إذا اشتد الأمر، وعظم الخطب، وقل المساعد، هو الآن برتبة عميد، غير أنه لم يمارس مهامها، ولم يتحمل لحظة واحدة تبعاتها، وإذا ذكر الرتبة فلا بد من إضافة لفظ «متقاعد»، خلال الأيام التالية ترسخ شعوره أنه كمن سحب بساط من تحت قدميه، أو تلاشى جدار كان يتكى عليه، بعض من يعرفهم بدوا مسرورين، فرحين، إذ تعنى الإحالة إلى التقاعد تمكنهم البدء فى الأعمال الحرة، حيث أفاق الكسب بلا حد، وإمكانية المغامرة متاحة، أصغى إليهم بدهشة، كأنه بعيد. بل سأل نفسه، ماذا يجرى للخلق؟ إنهاء عمر بأكمله، وتعوده العطاء بشكل خاص، توظيف ما يعرفه، وتحصيل ما لا يعرفه، أمر يستحق عليه التهنئة؟، لم يكلف بمهمة إلا وأنجزها، هذا حق، بقدر ما ينتظره أيام أجازته ليقضى الوقت الأطول بصحبة طفليته، بقدر اشتياقه إلى عمله أثناء العطل، كان محبا لما يقوم

به، مكثرا من مخاطبة الهيئات العلمية، والمؤسسات المنتجة للأجهزة الجديدة، ما يتم التوصل إليه، لم يخطر بباله مفارقة تخصصه هذا، برغم توقعه الإحالة على التقاعد عند الارتقاء من رتبة إلى أخرى كما جرت العادة منذ سنوات ، لم يتخيل مفارقتة للسترة الكاكية، والعمل فى مشروع خاص، لم يتصور نفسه واقفا فى السوق يدير توكيلا لسلعة أجنبية، أو مندوبا لدى إحدى الشركات، ردد أقارب امرأته على مسمعه أن من كان فى مثل خبرته يمكنه أن يكسب زهبا بسهولة، وإذ تلمح امرأته من بعيد يسألها:

- هل ينقص شىء ؟

تجيب على استحياء..

- لا.

يقول مدركا أنها لم تنطق كل ما عندها..

- أليست مستورة ؟

تومئ، الحمد لله، عندئذ يقول:

- والبنات.. أليس تعليمهما فى مدارس اللغات مرضيا؟

تتساءل..

- لكن المستقبل ؟

يلوح بيده:

- ياستى، المستقبل بيد مالك الملك..

غير أن قلقاً سرى إليه خلال العامين الأخيرين، أسعار الحاجات فى ارتفاع، كثيراً ما يصفى دهشاً، مفاجئاً بأسعار طفرت وكانت حتى الأمس القريب فى المتناول، اضطر إلى التغاضى عن بعض مما تلمح إليه امرأته على فترات متباعدة، من ضرورة تبييض البيت، إذ بهت الطلاب وتقشر فى مواضع عدة، لو استعاضوا عنه بورق الحائط لكان ذلك أفضل، يستفسر، كم التكاليف؟، لا تخبره مباشرة، إنما تقول :

اسأل فى السوق، إذ يمضى يومان أو أكثر تستفسر وتتقصى عما تم، يضطر إلى النزول والسعى، يفاجئ بالتكاليف، يطلب أرجاء الأمر، تسكت على غير رضاء.

فى الأيام التالية لبدء تقاعده، وإن صح المعنى ودق، فى الأيام التى خلت مما ارتبط به عمراً، لاحظ راحة فى عينيها وبهجة، صحيح المعاش أقل من الراتب، لكنه يأتيه بداية كل شهر بلا جهد، بلا مقابل، إنه يملك وقته كله، يمكنه الالتحاق بعمل مشابه لما حصل عليه بعض صحبه أو زملائه، أحوالهم فى رواج الآن، منهم من لديه بدلا من العرية الفاخرة اثنتان، ومن يرحل هنا أو هناك ولا يستقر إلا أياماً معدودات فى مصر، قالت امرأته أنها تخشى زيارة أحدها حتى لا تبادلها الزيارة، لا تقدر على إبداء مقابل لكل ما عاينته أو رآته، ثم تتطلع إليه متسائلة فى صمتها عما سيفعله فى الأيام القادمة؟ إنه يدركها، يفض رسائلها لكنه غير مجاوب، يضمم حزناً

وانكسارا، انتهاء هذا العمر كله لا يبعث أبدا فرحا أو راحة،
ليس المولى الغارب شباب بأتمه، سنين كده، وأيام اندماجه،
ولحظات خطر كان ممكنا أن يفنى ويتبدد عبرها، أطياف مجد
عاشها تبدو كالوهم الآن، كذا فرص لتحصيل علم جديد ولت،
تبددت، فى الأيام الأولى لتقاعده، اعتاد الصحو فى الموعد
ذاته، ثم الخروج، إلى أين؟ لا يهم، استعداد متأسيا أياما بعيدة
كان الاستيقاظ المبكر فى المعسكرات النائية يجعلهم حاملين
بأيام عطلة شحيحة مقبلة يمكنهم النوم صباحا كما يرغبون، لا
ينتظمون فى طابور الصباح والبرد صرصر، حتى إذا دنت هذه
الأيام ونزلت وحلت بدت أيام الكد الأولى زاهية، عزيزة المنال،
فما أغرب، وما أعجب ذلك !

ما يثقله لا يقدر على الإفضاء به إلى الاقربين منه، صباح
كل يوم يخرج فى ميعاده، لكنه لا يرتدى السترة وغطاء الرأس،
حيث السيارة فى انتظاره لتنقله إلى الوحدة، إنه يخرج
متباطئا، يتابع المسرعين فيود لو أن حاله كحالهم، بدأ يوجد
اهتمامات عديدة ليشغل نفسه، ليكون لمشييه هدف، كان يمشى
إلى وسط المدينة للفرجة على ثياب جديدة لابنته، أو لشراء
بعض لوازم الدراسة لهما من أقلام رصاص جيدة، وكراسات،
وما شابه ذلك، أمور كان يقضيها عرضا أثناء خدمته، أو
يوصى بعض صحبه بها، صارت الآن أهدافا يخطط لها، يقطع
بها وقته، أما اللجوء إلى المقهى وقضاء الاوقات به فأمر لم
يعتده بعد، يضيق به، لم يرتبط بمقهى من قبل، إذ كان فى

مهندسو الهند ائتم لامتلاك وقته، حتى أن امراته نهته مرات إلى
مخطئة. لبنتيه للقعاد معه، والانفراد به، فيرجى ذلك إلى أيام
الاطفالات إذ به يقطع الشوارع الآن من بداياتها إلى نهاياتها ثم
يتثنى، يمر ما سبق أن مر به، ويرى ما رآه من قبل، يدخل
مكتبة، يقلب كتبها، يعاين صحفا ومجلات أجنبية، ينصرف
وعنده خضوع لأنه لم يشتر، يعود إلى البيت في مواقيته القديمة،
أحيانا يرجع بكرا فيلقى نفسه وحيدا، يأوى إلى صمت
البيت، يتدبر به، يستعيد انصراف الضباط والجنود من
الوحدة أمهتدانا للجم، حراء بعد السور، ما يثيره عند مرأى كشك
مخشيشين، يبعدهم سور، وحيد تماما، كان جزءا من منشآت
القاهرة يومها الإنجليزي، يضيق اذا تأخرت امراته عن مواعدها،
يدوق في الشرفة في انتظار نزول البنتين من عرية المدرسة.

صوار، أمور في شكاية. وحاله إلى انسحاب، أوى إلى صمت
يولي، وشيوعه غير، إن الملك لم يطل، لم يقدر على تصور نفسه
في الملك، شكرا، كلاً، غير مقتنع بعد، أن نظامه زال، وأن
أيام جديدة بانت، وأرت حكيما، يجب أن يتم، لم ينف فكرة العمل
مع مشور، وفي العيش، لكن رأيي، هل تلك هي القضية، إنه مهندس
وعند الحروق، لكن كيف النفاذ إلى السبل وإمساك
المسألة، في العيش، بدأ الأمر يصبح من شواغله، وذات
الليلة، جالوسه، وفي الشرفة من فردا، مصفيا إلى حركة
الوطن، ذلك ما جواته، وقدفت صند، يدخل الشرفة بعد اطمئنانها
إلى مكتبها، والمخالفين، أخرجهم بعد نهار شاق

موزع بين عملها، وعودتها، وقضاء الحاجيات من ترتيب طعام، ومراجعة دروس، دائما تقول إنها لو ركنت فقط إلى المدرسة لما تقدمت إحداها خطوة، مجهودها فى البيت هو الأساس، أن أن يؤدي نصيبه الآن، أن يخفف عنها بعضا مما تقوم به، أضمر النية ولم يقدم على الفعل، فما الأيام الماضية إلا تمهيد لما سيكون فيما بعد، يشبها باللحظات التى تسبق ملامسة عجالات الطائرات للممر الأرضى، يردد بينه وبين نفسه، أنه لم يتم نزوله بعد.

تقول زوجته برقة :

- أقعد ؟

يقول: ياسلام، ومنذ متى تحتاجين إذنا ؟

تدنو، أيقن أنها تخفى أمرا، إنه عليم بلامحها، بتصرفاتها، هذه السنين قريتهما، دنت بكل منهما إلى الآخر، استقرت فوق المقعد المستدير بدون مسند، تميل إلى الأمام، تدس يديها مبسوطتين، متلاصقتين بين ركبتيها:

- شوف ياسيدى

يتأهب للإصغاء، تقول إن خالها اتصل وطلب منها أن تخبره بحاجتهم إليه كمدير لشركة مقاولات، إنه يتمنى قبوله، فالمنصب كريم، والراتب مغر، وبرغم إلحاحه عليها، فإنها طلبت منه الفرصة، إنها أدرى الناس به، تعرف أنه لن يقبل على أول

فرصة إلا إذا وافقته وطابت له، الحق أنه فوجئ، لم يقدر أن الامر سيتم بهذه السرعة، وبالطبع لم يكن فى حاجة إلى ثاقب فهم، ونصاعة إدراك.. ليفهم أن المبادرة أتت من جانبها، وهى الساعية إلى خالها، هذا الرجل الذى سطع نجمه وعلا قدره خلال السنوات الاخيرة، إنه متعدد العلاقات، كثير الأسفار، يظهر اسمه من حين إلى حين فى الصحف، إن علاقتهم به ليست حميمة، تقتصر على زيارته فى أيام الأعياد والمواسم، لكنها تتصل بأسرته وتداوم، لولا خالها هذا لما قبلت ابنته الصغرى فى المدرسة، كانت أصغر من الحد المقرر بأسبوع واحد، يعنى هذا ضرورة انتظارها عاما آخر، نزل به ضيق وأسى، البنية نكية، تفيض حيوية ونشاطا، ترى أختها الكبرى تجلس إلى كراسياتها فتأتى بواحدة بيضاء الصفحات، تمسك قلمها وتخط أشكالا ودوائر، تقول إنها تذاكر دروسها، وفى الصباح تغادر الفراش مبكرة، تساعد شقيقتها فى ترتيب حقيبتها، وعند انصرافها تربت كتفها ويدها، تودعها حتى بداية درجات السلم، تتابعها وعلى وجهها ما يوحى بتمنيها، لو كانت معها، لو تصحبها، لو تمضى معها إلى المدرسة، ترجع كابية الملامح، ينقبض متألما، سبعة أيام سيضيع مقابلها عام كامل، إلا أنه قال لامرأته، هذا ما يقضى به النظام، غير إنها أبدت جزعا، قالت إن هناك استثناءات، من حق الناظرة استثناء نسبة من شرط العمر، قالت: أنت ضابط وحاربت أربع حروب، من ححك، اذهب إليها، ألحت عليه وأطالت وأثقلت حتى امتثل،

خشى أن يرث ذنبا، أن يجيء يوم يقول فيه، كان ممكنا أن أفعل وتقاعت، ارتدى الزى الرسمي كاملا، ومضى إلى طلب مقابلة الناظرة، كان فى مكتب السكرتيرة آخرون، كان أحدهم يبدو واثقا، يرتدى قميصا أسود، وينظفوننا أسود، يتلفت حوله، يتعجل المقابلة، يحيط معصمه بسوار من ذهب، ويلوح بسلسلة مفاتيح تحمل علامة عربات المرسيديس . ابتسمت السكرتيرة بعد خروج سيده شقراء تبدو عليها الراحة، وندرة الهم العام، قالت مرحبة إن الهانم فى انتظاره، ردد الرجل أنه فى عجلة وإنه مسافر بعد ساعتين فقط، وعندما اقتربت منه السكرتيرة وقالت بحيادية: تفضل، لم يكن ذو السوار الذهبى قد خرج بعد، هذا يعنى إنه سيقابلها فى حضوره، ضايقه ذلك، دخل حاملا غطاء الرأس، ذا النسرة الأشم والسنبلتين بين يديه، رآه مستفرقا فى المقعد الوثير، متمكنا، لامباليا، يتطلع إليه، لا يحيد ببصره عنه، بل.. يتفحصه بوقاحة، تضع الناظرة أمامها زجاجة عطر باريسية، إنها هادئة جدا، ناعمة الصوت، لا يلوح من تعابيرها أنفعال محدد، لا تذكر اسما إلا مقرونا بلقب بك، قالت باختصار حاد، تحت أمرك ياسيادة العقيد، تزداد حدة نظرات الرجل ذى السوار الذهبى، فى نظراته تصد غامض مشوب بازدراء مفتعل، أيقن أنه سيكون موضع تعليق بينهما بعد خروجه، قال باختصار إنه جاء ليستفسر عن فرصة الاستثناءات المتاحة أمام أبناء القوات المسلحة الذين خاضوا

العمليات، وأصيبوا، ويحملون الأنواط والأوسمة، كأنه يوحي أنه يستفسر عن وضع عام، وليس عن حالة تخصه هو، غير أنها قالت، أه.. عشان الكتكوتة ؟

لم تتح له الاستمرار، قالت إن هذا الغى منذ عامين، وإنها تود خاصة أن الكتكوتة ينقص عمرها أسبوعا لاغير، لكنها تخضع لرقابة صارمة من الوزير شخصيا.

والله كان بودى !

لم يدري ماذا يمكن قوله؟ خاصة أنها حادت عنه لتسأل ذا السوار عما إذا كان سيغيب، قال بسرعة، لا أبدا، شوية فى روما، وشوية فى باريس.. تراجع إلى الباب، حيا السكرتيرة ومضى خجلا يلوم نفسه، نادم على مجيئه، مشفق على طفلته، ضغط أسنانه عندما استعاد ابنته وحيويتها، لا تكف عن الحركة، والحديث عن المدرسة وحملها حقيبة شقيقتها، قالت امراته باختصار إنها ستطلب من خالها التدخل، لم يبد موافقة، لم يبد اعتراضا، غير أن ما جرى فى الأسبوع التالى فاجأه، رن جرس الهاتف، الناظرة نفسها، استفسرت عن صحته، عن أحوال المدام، عن.. الكتكوتة الصغيرة، ثم قالت إنه يمكنه الحضور بها غدا العاشرة صباحا، يمكنه دفع المصاريف وتسلم الكتب فى نفس اليوم، أصغى دهشا، أجاب باختصار، طلب من امراته أن تمضى هى إلى المدرسة، لا يطيق

رؤية هذه المرأة، قالت إنها تشاركه مشاعره ورأيه، ولكن لسنوات مقبلة سيضطران إلى التعامل معها، البنتان عندها ومن الأفضل مسايستها، ثم.. ما الذى يربطنا بها؟.

غير أنه أصر، ورجاها أن تحصل على أجازة من عملها، أن تنوب عنه، قال إنه سيصبح البنية صباح بعد غد، وإنه سيتعرف بالمدرسين، لكنه لا يرغب فى رؤية هذه المرأة..

إن.. للخال نفوذ، ويد تطول وتنفذ، فى صباح أحد أيام الأسبوع الأول من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين، اجتاز الباب الزجاجى الذى يفتح تلقائيا بمجرد الاقتراب منه، أحد. هذه المبانى التى ظهرت فى المدينة أخيرا، صماء، معدنية، زجاجية، تحوى أسراراً عديدة، إلى يمين الداخل مكتب استعلامات للمبنى كله، أما حراس الأمن الخصوصيون فيقفون قرب المصاعد، يحيطون خصورهم بأحزمة جلدية تتدلى منها المسدسات، والطلقات النحاسية، قرأ الاسم على اللافتة المستطيلة التى تحمل أسماء الشركات والبنوك والهيئات الاستشارية والمكاتب المتخصصة التى تتخذ من المبنى مقراً لها.

«مقبلكو..» مجموعة شركات للإنشاءات والمقاولات.

الصمت، الحركة الحسوية، مساحات الألوان المسطحة الملونة وأضواء مجهولة المصدر، مكتب السكرتيرة فسيح، مقاعد وثيرة، فى أركانه الأربعة أصص لنبات الظل، عندما

وقف أمامها خيل إليه أنه محاصر بشكل ما، وأنه مراقب، وأن الرجل ذا القميص الأسود والسوار الذهبى الذى قابله فى مكتب الناظرة قابع فى مكان ما هنا، السكرتيرة نحيلة، طويلة، ورغم حرصها على أن تبدو حركاتها وتصرفاتها دقيقة، محسوبة، فإن حضورها كان فجا بدرجة ما، لم يستطع تحديدها بالضبط، عندها مبالغة فى اقتصاد حركاتها، وإيماءاتها، وترتيب التفاتاتها، ونظراتها المفاجئة التى توجهها هنا أو هناك، وميل رأسها عند الإصغاء.

إنه غريب هنا، للمكان طابع غامض، كأن الفراغ من معدن خفى، الباب المؤدى إلى المكتب جزء من الجدار يصعب تمييزه، عندما اجتاز الباب فوجيء به يقف على مسافة خطوة، فى انتظاره، أبدى الود والترحيب للتو، إنه ربة، يتدلى رباط عنقه الأزرق على قميص ناصع البياض، أما الجاكتة فمعلقة إلى مشجب يلى طاولة اجتماعات فى أقصى الغرفة الفسيحة التى يمكنه أن يعدو فيها، أجدد الشعر، يحتفظ بابتسامة هادئة لا تفارقه، يبسط يده داعيا إلى الجلوس، يمد صندوقا مفتوحا يبرز لفائف السيجار الكوبى، غير أنه يعتذر، يعدل وضعه، يواجهه بملامح وقسمات تجاوز عمرها الخامسة والأربعين، تقلبت عبرها ظروف شتى من رحيل إلى صحارى البلاد، وحروب متتالية، وأمسيات هى الآن متداخلة، تبقى من بعضها مجرد لمحات بوارق، ومضات، واختفت أخرى، إذن.. هذا «مقتبل»، اسمه فى اللافتات المعلقة إلى جدران المباني التى لم

تكتمل بعد، «مقبلكو»، فى هذه اللحظة أدرك انه لم ير صورته قط، تنشر الصحف الإعلانات عن شركاته، لكن ملامحه لم تظهر، لم يرها، إنه أصغر مما توقع، ربما فى الخامسة والثلاثين، لم يتردد اسم مؤسسته إلا منذ وقت قصير، ربما لا يتجاوز العامين، قيل إنه جمع ثروة بعد عمله سنوات فى بلد نفطى، يتردد أنه وثيق الصلة بكبير مقاولى البلد، تردد هذا كله عندما وقعت عيناه عليه أول مرة، بل سأل نفسه، أين كان منذ عشر سنوات ؟ ولم يدر لماذا حدد المدة بسنوات عشر؟، قال إنه مسرور جدا لأن رجلا مثله سيتعاون معه، لهجته محايدة، هادئة، لفظ ثلاث أو أربع كلمات بالإنجليزية بعد تردد وحيرة فى البحث عن الألفاظ العربية، يوحى بإتقانه الإنجليزية أكثر، جاءت السكرتيرة بصينية عليها كأسان من عصير التفاح المستورد، لم يفتته رواحها ومجيئها منطلقة، أثناء جلوسهما دخلت مرتين، اتجهت مباشرة إلى المنضدة المجاورة للمكتب، تناولت أوراقا، فى المرة الثانية بدت وكأنها تتأكد من شىء ما، قال مقتبل «باشا» - هكذا يذكرون اسمه - إنه بإمكانه تسلم العمل من اليوم، الإجراءات بسيطة جدا، قال إنه أصدر تعليماته، لو صادفته أى صعوبات يرجوه الاتصال به، إذا لم يجده ستقوم لميس بكل شىء.

اسمها لميس إذن، عندما حياها أثناء انصرافه لوحث له كأنه على وشك أن يستقل طائرة يقلع بها، وفى الطريق إلى الإدارة لمح فى صورة يحيطها إطار فضى لمقتبل «باشا» وهو

يتسلم شهادة ما فى مناسبة ما من شخصية كبيرة، وعندما تسلم قرار التعيين، فوجئ بالمرتب، إنه أكثر مما أخبر به خال امرأته، القرار صادر بخمسمائة جنيه بينما ألح الخال إلى ثلاثمائة، ليس خمسمائة فقط، إنما إلى جانب ذلك المكافآت والحوافز.

انصرف إلى الشارع دهشا، فرحا، مترددا.

أما الدهشة فلأنه لم يتوقع المرتب، لو أنه استمر بالخدمة، لو وصل إلى رتبة اللواء، فلم يكن ليحصل على ما يوازى ذلك، أما الفرحة فلأن الراتب الجديد سيمكنه من تكوين مدخر ملائم لطفليته يقيهما شر العوز حتى حين إذا ما جرى له مكروه، وإذا ما غيبه القدر عنهما، قبل أن يتما شوطهما، هذا أشد ما يرهبه، لديه الآن مكافأة نهاية الخدمة التى صرفها منذ زمن قريب، وما سيمكنه إخاره فى الشهور الآتية، سيقدر أيضا على مواجهة أمور طال إهمالها، وغض البصر عنها، منها تغيير العربة التى أصبحت عتيقة وتكلفه مالا متزايدا، أما إذا استقر الحال واستمرت الامور موأتية فريما أصبح ممكنا سفره مع امرأته وطفليته فى أجازة لمدة أسبوع أو أسبوعين، يريهن ولو قبسا هينا من الدنيا الفسيحة. أما ترده فمرده ومرجه هو اجس شتى وظنون.

أولها، طبيعة العمل الذى سيقوم به، أى جهد سيقدمه مقابل هذا المبلغ الضخم؟ أى قوم سيتعامل معهم؟، أنه منذ الآن

مدير لإحدى شركات «مقبلكو»، فى الأيام الأولى خفت هواجسه وتوارت قليلا، إن مكتبه مؤثث بعناية، ومقعده دائرى، ولديه خط تليفون مباشر متصل بمكتب مقتبل، ليس بمكتبه هو شخصيا، ولكن بمكتب ليس السكرتيرة، لاحظ.. أنها متنفذة فى كل شىء، كلمتها مسموعة، وعندها أمر ونهى، كما أنها صاحبة عقد وحل، لها أتباع، وعندما يتصل بها لا تجيبه مباشرة، إنما فتاة أخرى، ناعمة الصوت، تبادل فتقول بالإنجليزية «هنا مكتب الأنسة ليس.. نعم»، حار، أمثل هذه توصف بالسكرتيرة ؟ فى نهاية الأسبوع الأول أيقن أن جهازا بأكمله يصرف شئونها، وأن لها اليد الطولى، يعاملها الجميع باحترام وخشية، ما الحكاية إذن؟. ربما بدافع من الرغبة فى الاقتراب منها ربما لأنه كان يود الاتصال فعلا، طلب منها أن يتحدث إلى المهندس مقتبل.

قالت بتهكم بين، تقصد مقتبل باشا؟ بتحد قال لم يعد هناك باشوات منذ زمن طويل ، لم تحتد، غير أنها أتت صوتا مغناجا، ساخرا، قالت: «دا انت سيد الباشوات». بعد أن وضع سماعة الهاتف أصغى إلى نفسه، يدرك أهمية هذا الحوار الأول، فطبقا للبداية ستحدد المسارات، يعرف أيضا أن الهاتف مرشح جيد للصوت الإنسانى، يكثف كل ملامحه، ويكشف أدق سماته، ومايشعر به، ما رصده من فجاجة حضورها عند رؤيتها أول مرة.. وثق منه بعد حديثه إليها، غير أن ما شغل به، ويبدأ يحوم حوله، الرغبة فى معرفة حقيقة موقعها، أهى إحدى

قريباته؟ أم أنها على علاقة به تتجاوز العمل ولوازمه؟ لم يستطع التوصل إلى حدود مميزة، أو علامات فارقة، أضمر النية على التقصى والوقوف على كنه الأمر، غير أن ما حيره أكثر وقوى عنده البلبلة.. تلك الشركة التي تولى أمرها، فى البداية أقبل على عمله الجديد مبدياً الهمة، متأهباً لإظهار المقدرة، مستعداً لتقديم ما يوازى الراتب الضخم، حتى لا ينفق على بيته وعياله إلا مالا حلالاً، هكذا يكون راضياً، لم ينس أيضاً ما لح إليه مقتبل فى لقاءهما الوحيد حتى الآن، أن كل جهد بارز أو استثنائى سيقابله حافز مرض تماماً، غير أنه فى نهاية الأسبوع الأول تزايدت حيرته، بل اضطرب أمره، خاصة بعد أن فرغ من قراءة عقد تأسيس الشركة، والملفات الخاصة بمجالات نشاطها وأوجه عملها، وجد تساؤلاً يلح عليه، محوره، أى نشاط تقوم به هذه الشركة؟ هذه المنشأة التى بدأ يتولى مسئولية إدارتها وتصريف شئونها وتنمية أعمالها ومواردها، ودفعها فى اتجاه الربح، والنأى عن أسباب الخسارة، وعوامل التلف، طبقاً لما دون فى العقود التأسيسية فإنه مسئول عن شركة للمقاولات والتجارة، لكن.. أى مقاولات؟ لم يجد أعمال تشييد أو بناء أو هدم، فقط مجرد عمليات استيراد لمواد لا رابط بينها أو علاقة، فمن أحجار رخامية إلى ألواح معدنية، إلى أسياخ حديدية، إلى أجهزة الكترونية، ومواد غذائية، تلك صفقة ضخمة للشحومات الغذائية، لاحظ مكوئها فى المخازن التابعة ستة شهور متصلة، ثم تصريفها وبيعها فجأة فى يوم واحد، ماذا يعنى هذا؟ لم ينته من قراءة الملفات والوثائق

المتاحة إلا وقد عظمت حيرته، إذ لم يلق ما يبصره، وما يدلّه على سبل شتى تخيل وجودها ، وألقى على عاتقه مسئولية طرقها، والخوض فيها بهمة وتفان، وقبل نظره الملفات والدفاتر الحسابية، أرسل فى طلب من ينوب عنه إذا غاب، ومن يدير أمور العمل إذا أخذه شغل، جاء الرجل متهللاً، باسماء، مكثراً من تقليد إيماءات ونظرات اشتهر بها ممثل كوميدى ممن علا نجمهم ولمع خلال المرحلة، قال إن الجميع يستبشرون بقدمه خيراً وبركة، كان يضحك فجأة ضحكة قصيرة، مضغوطة، ينهيها بغمته، لم يرتح إليه، بل نفر منه، غير أنه كتم ما به من تساؤلات، وحاش أموراً شتى لم ينطقها، بدأ بالاستفسار عن أحجار الرخام، فقال الرجل إن الشركة لاقت منافسة لا يمكن مجاراتها، تسائل، ممن ؟ عندئذ أطرق بنظراته إلى الأرض، ثم تطلع إليه شأن من يعرف أموراً جمة لكنه لا يود الإفشاء بها، غير أنه قال بعد هزة من رأسه تنتمى إلى هذا الممثل الكوميدى ثمة أشياء وخطوات واتفاقيات ربما تبدو عادية لكنها تعد من أدق الاسرار غير المستحب الخوض فيها حتى بين كبار العاملين، هذا ما عودهم عليه مقتبل باشا، لكنه الآن من أهل البيت، ولا يجوز إخفاء شيء عنه.

بدا أثناء نطقه الكلمات الأخيرة وكأنه يجامل، أكثر مما يقدر حقيقة مفروغا منها، ثم واصل حديثه..

قال إن المنافسة أتت من سيد المقاولين فى مصر، لم يكن الرخام مجال عمله، لكنه سارع إلى تأسيس شركة كبرى وعقد اتفاقيات، ولكن مقتبل باشا ابن سوق، يفهم ويتصرف، توصل

إلى اتفاق ورضى بالعمل من الباطن فى مجال الرخام، طبعاً هو سيد العارفين بالمصلحة، أوامره لا تناقش وخطه لا يعرفها أحد، هو الكل فى الكل، والمال ماله، والدار داره، وإذا شاء استغنى عن الجميع فى غمضة عين.. إنه واصل !

لم يغب عنه أنه المقصود، المعنى، بكل كلمة فاه بها الرجل، بعد انصرافه لام نفسه، كان بإمكانه الرد القاسى فى مواضع عدة، لكنه أثر أن يكون مصغياً، وأن يؤجل ردود الأفعال، ما استوقفه شخصية الرجل نفسه حضوره الثقيل، الفاظ تطرق سمعه أول مرة، وتعبيرات لم يالفها، وإيماءات غالبية على المعنى الظاهر، وإيحاءات متضمنة، استعاد سنوات طويلة كان يشرح الأمور الكبيرة بالكلمات القليلة، بأسى تذكر حميمية الصلات بينه وبين ضباطه وجنوده، بينه وبين قاداته، خاصة زمن الحرب، وضوح القصد ونصاعة الهدف ونبل الجهد، هذه الليلة عندما كان قابعا فى خندق اتصالات قريب من قناة السويس، كان مسئولاً عن تلقى الإشارات والرسائل من دورية قتالية عبرت إلى ما وراء الخطوط، أشد ما خشيه حدوث عطل تنقطع به الاتصالات أو تشويش معاد لا يمكنه إبطاله، برغم بعد المسافة الفاصلة، برغم عدم معرفته لأفراد الدورية، فإنه أيقن أن عمره يتصل بأعمارهم، وأن شهيق أو زفير كل منهم له صدى فى صدره، استعاد قلقة الليلى عليهم، واقترابه منهم على بعد، وراحته عند تلقيه نبأ عودتهم، وإبلاغه التمام، وانصرافه متأثراً بما كان منه مع أنه لم يرههم، ولم يلتق بهم

لا عند عبورهم ولا عند رجوعهم، من يمكنه أن يدرك موروثه هذا؟

مقتبل باشا؟ ليس التي يتعقد لغزها، أو هذا الرجل الذي لا يدري عن ماضيه الحقيقي شيئا، أين ما كان مما هو كائن بالفعل؟ النقلة حادة، والتغير وعر، فكأنه نزل ديارا يجهل ما احتوته، إنه يؤدي دورا ولا يمارس عملا، مضطر هنا أن يكون غير ما هو عليه، يضيف ظللا على ملامحه، ويلفظ الغريب عن قاموسه، يظهر ما لا يضمّر، ويبطن خلاف ما يلوح منه، عبر خدمته الطويلة لم يخض قتالا مباشرا، لم يواجه العدو عن قرب، لم يشتبك بالسلاح الأبيض، لم يلتحم، لم يكمن ثم يباغت، ومع ذلك فإن تعامله عمرا مع أجهزة الاتصال العادية والدقيقة، وتوقعه للإشارات المتداخلة، والنبضات الغامضة، وظهور صوت معاد فجأة، وتتبعه المصنئ لمواضع الخلل، والانقطاع، أكسبه هذا قدرة على التوقع، والتقصى والنفاد إلى غياهب لا تدرك بالنظر الحسى، يوقن أن هذه اللافتات تخفى أمورا غير مدونة بالورق، إنه يقف على حافة عالم غريب عنه، خلاف ما خبر، وغير ما عهد، لا تستقيم فيه الأمور كما كانت عنده، فى ميراث خدمته العسكرية الطويلة، كانت الحدود ناصعة، صارمة، فاصلة، هنا الصواب وهناك الخطأ وما بينهما منطقة حرام، أما النتائج فلا تحتمل التأويل، الأمر فى النهاية متعلق بأرواح يمكن أن تزهق، وخسائر جسيمة يمكن أن تقع، لكل خطوة حساب معلوم، وتقدير، ونتيجة، لكم كان

سانجا عند مروره بتلك المنشآت من بعيد، يظن أن لكل شيء ترتيبا، العمل لأبد له من نتيجة، وللمضاربة عواقب، إما ربح وإما خسارة، يلتزم هذا كله فيما تعرف عليه القوم أنه بنية النظام.

لكن في طوره الجديد هذا يقف والخطى ماتزال بعد في بدايتها على ماخضه خضا، وما يتناقض مع محصلة زمانه كله المولى، الممتد في أيامه الخاصة المعاشة، لمدة أسبوعين لم يوقع قرارا، لم يصدر أمرا، تغلل بالرغبة في التعمق والدراسة، واستكشاف حقيقة الوضعية، إن ما تجمع عنده خلال هذين الأسبوعين لكثير، كتم ما تردد عنده، وأصغى، واستقصى حتى أدرك بعضا وليس الكل، في لحظات أوشك أن يظهر النفار، عندما أصغى إلى ضحكة الرجل المقتضبة القصيرة، وهو يحدثه شارحا ظروف صفقة السمن، أكد أن التجربة نجحت، وأن الصفقة الثانية آتية لأريب فيها، قال إن تغيير تواريخ الصلاحية لم يلفت النظر، ضحك ضحكته التائهة، قال هذه مواد انتهت في بلادها، غير مسموح بتداولها هناك، ومقتبل باشا يحصل بشطارة على كميات كان يمكن أن تلقى في البحر، لكن القوم عندنا يهضمون الحديد، ما من شكوى وردت، وما من حالة تسمم جبرت، المخزن بالمطرية، رسميا معروف أنه مخزن للخشب، مستودع هائل، ضخم عند أطراف المدينة، هناك يتم طبع تواريخ الصلاحية الجديدة، تلصق البطاقات على العلب المعدنية، السوق تبلع كل شيء.

ابتسم الرجل، قال إنه من الطبيعي أن يقوم بزيارة المخزن،

انه تابع له، كما إنه سيرى هناك كيف يتحول التراب إلى ذهب ! لم يعد الرجل متحفظا معه، بل إنه صار يحكى له بسهولة، يقص تفاصيل ما يجرى، ويبدى إعجابه بمقتبل باشا الذى لا يتحرك الآن إلا وحوله ستة من الحرس الخاص، كأنه من الزعماء المرموقين، لم يكن الرجل هو المصدر الوحيد لوقوفه على ما يجرى، تفاصيل عديدة تشكل فى مجموعها كنه الوضع، من الصعب أن يرجع كل منها إلى مصدر محدد، مما أدهشه أن أدق التفاصيل يجرى تداولها كأمر مفروغ منها، فى الشركة، وفى الشركات الأخرى لا يذكر اسم مقتبل مجردا، بل لا يذكر إطلاقا فى العموم، إنما يشار إليه بالباشا، أما ليس فيجهل الكثيرون اسمها، يعرفونها بالهانم، لاحظ أن كثيرا من العقود المبرمة فى بلدان نائية وقتها ليس، عقد فى مانيللا، آخر فى لاهاي، ورابع فى أثينا، أفلام تصوير، أنواع من الجبن، والصلصة، قطع غيار سيارات، مصابيح كهربائية، اصباغ كيماوية، مبيدات حشرية، وآلات للجراحة الطبية، وعندما اتضح له أن ميزانية الشركة التى تولى إدارتها تحقق خسارة سنوية متتابة، كان عند حد لا يتلقى فيه المفاجأة الأولى، عزم وأضمر النية على وضع تقرير مفصل، مركز عن الشركة، عن تنوع نشاطها وعدم تخصصه، ولكن الأهم من ذلك كله، تركيزه على الخسارة الجسيمة التى تحققها الشركة بانتظام منذ تأسيسها، أوشك على الانتهاء من هذا كله، لكنه متردد الآن بعد أن للمم جوانب الأمر، وأحيط من مصادر شتى بجوهر الأصل والفرع، ما الجدوى مما قام به، وهل سيصغى

مقتبل إليه ؟ إنه الآن حذر، لو بدأ الصدام فربما دبروا له أمرا، خاصة بعد تأكده من وجود ثلاثة بين العاملين معه فى الشركة قضاوا مددا متفاوتة فى الليمان نتيجة ارتكابهم جرائم شتى لم يقف عليها بالضبط، وصل إلى حد أثر عنده أن يكتم، إلا يلح والى يفصح، ما أدركه فظيع، وما استوثق منه مروع، ولكن إلى صمت، وطول تأمل، وميل إلى انفراد، وعلى الرغم من أنه اعتاد ألا يخفى أمرا عن امرأته، فإنه لم يبيع لها بحرف مما وقف عليه، وتكشف له، بل حاول تجنبها، وعدم الخوض فى حوارات مطولة، يخشى أن تدرك من أمره شيئا، ضاق بذلك لأنه اعتاد ألا يخفى عنها أمرا، لذا كان يعود متأخرا، مجهدا، متعبا، علل ذلك بضرورة بذل الجهد المضاعف، خاصة أن الأمر مازال فى بدايته، تتقبل راضية، توصيه أن يحاول العودة فى اليوم التالى مبكرا ليرى البنيتين قبل نومهما، يسألانها عنه، ولماذا يتأخر، فتعدهما بوقت أطول يخصصه لهما عندما يفرغ، فتقول الكبرى، إن أيام الجيش أحسن !.

لم يفته همة امرأته فى ترتيب أمور البيت، تعد العدة لطلاق الجدران، وتلمح إلى ضرورة تغيير بعض الأثاث، يود لو أنه أفضى إليها بما ينوء به، لكنه رأى فيه إزعاجا لها وتشتيتا، فكر فى مصارحة خالها، لكنه استبعد ذلك، العلاقة بين الخال ومقتبل وثيقة، ألم يلمح مقتبل نفسه فى لقائهما الوحيد إلى صلته به، بل قال إن للخال فضلا عليه وأيادى لن ينساها، فأى خير يكون مع مثل هذا؟ إنه يقضى أوقاتا بمفرده بعد انصرافه

من الشركة، خيل إليه أن ثمة من يراقبه، كف عن المضى إلى المقهى الذى عرفه أيام تقاعده، أوى إلى ركن قصى فى نادى المحاربين القدماء، بعد صلاته المغرب توجه إلى هاتف من الطراز القديم فوق منضدة مرتفعة القوائم، دس عشرة قروش معدنية فى العلبة الصغيرة المجاورة، أدار رقما، مما عرف عنه أنه يحفظ الأرقام التى يتعامل معها، لا يحتاج إلى تدوينها، حتى أن بعض صحبه من الضباط تندرأ بذلك، إذا أدار رقم الهاتف مرة واحدة فإنه ليس بحاجة إلى تسجيل الرقم، ومع ذلك اضطر إلى التمهّل لحظات لا تتزاع الأرقام من تلافيف ذاكرته، لم يكن قد اتصل بصاحبه هذا إلا مرتين ومنذ عدة سنوات، وكان ذلك فى الأعياد للتهنئة، ثم انقطعت الصلة خاصة عندما أحيل الرجل إلى التقاعد قبله بعام أو أكثر، فى هذا الغروب، مع بدء نزول الليل أيقن أنه بحاجة إلى رؤية هذا الرجل، هو بالذات، عرفه أثناء خدمته فى القطاع الجنوبى من جبهة القناة، كان وقتئذ برتبة عقيد، مستنولا عن مخابرات القتال، إنه من الصعيد، بلدته قريبة من مسقط رأسه، سمعته حسنة، صاحب جلد، ويقال إن اسمه معروف جيدا على الناحية الأخرى من صفوف العدو، وإنه نظم عمليات قتالية أثار بها الرعب بين أفراده، هذا مقطوع به، مؤكد، يذكر لمعة عينيه، وحدة نكائهما، يستعيد بعضا مما روى عن جرأته الغربية، حدث أن توجه ليلا إلى موقع قاعدة صاروخية فور علمه بقصفها، مضى والنيران فى أوجها، وطائرات العدو ترمى

مشاعل تقلب ظلمة الليل، تصهرها، وعند اقترابه من حد معين صاح به بعض الجند محذرين الا يتجاوز حدا معيناً، ثمة قنابل لم تنفجر بعد، أشار أحدهم إلى قنبلة ضخمة سوداء، قاتمة، فى حجم الزير، ذات ألف رطل، قال قائل منهم إنها لم تنفجر بعد، حثهم على التقدم لإزالة ما تهدم، ما انهار، رأى وجلهم وترددهم، تساعل مشيراً إلى قنبلة الألف رطل، ألم تنفجر بعد؟ قيل، لا، تقدم بهدوء، قعد فوقها، أشعل سيجارة، وبدأ ينفث دخانها، وعندما لاحظ دهشتهم برقت عيناه: ماذا تنتظرون؟ هل ننتظر حتى يموت من هم بحاجة إلينا تحت الانقراض؟ عندئذ اقبلوا يتنافسون، أبرز ما فى وجهه عينان نفاذتان، لنظراتهما .

إنه يقعد فى مواجهته، هنا فى هذا الركن القصوى من النادى، قال إنه لا يجيء هنا إلا نادراً، اعتاد التردد على مقهى افرنجى هادئ قريب من البيت، أما معظم وقته فيقضيه فى البيت، يقرأ، منذ عام بعد تقاعده مباشرة، قرر أن يخوض التجارة، كان لديه مبلغ من المال وضعه فى مشروع لتجارة السيارات، شارك بعض أقاربه، غير أنه فشل، أيقن انه ليس من أهل ذلك، السوق صعب، وخبائاه وعرة، خاصة سوق هذه الأيام العجيبة، صمت لحظات ثم تساعل: وأنت .. ماذا فعلت الدنيا بك؟ بوغت، إذ كان يفكر فى مدخل يفضى من خلاله بما ينوء به، لابد أن الرجل أدرك بخبرته وفراسته أنه ما سعى إليه إلا ليخبره أو يطلعه على أمر ذى شأن، قال إنه والله فى ورطة، أخبر عن ظروفه، عن عمله الجديد هذا، غير أن المشكلة تكمن

فى هذا العمل ذاته، صاحبه الشاب الذى تشهر الإعلانات اسمه، وتبرزه اللافتات، والصحف والمجلات، الذى لا ينتضى أسبوع إلا ويلتقى بكبير مسئول، صاحب التبرعات الشتى، من لا يظهر أمام عدسات التليفزيون إلا والمسبحة فى يده والورع على ملامحه، هذا الشاب ماهو إلا تاجر كبير ومهرب خطير لأشد أنواع المخدرات، وبعضها نخل البلاد أول مرة على يديه..

هنا لمع فى عيني ضابط المخابرات القديم انتباه حاد، ويقظة زائدة، بينما انتهى شرود لازمه منذ بدء الجلسة، تساعل، وكيف عرفت هذا كله؟..

قال إنه بدأ بملاحظة، وتقصى أخبار مديرة مكتبه، أو بمعنى أدق مديرة أعماله، أو بوضوح أكثر صاحبة النفوذ كله عليه، منذ رؤيتها أول مرة لم يفته حضورها القوى وأثرها عليه، ونفوذها، ومكانتها، حتى أن الاتصال بها أو مقابلتها يحتاجان إلى ترتيب حتى من كبار العاملين فى شتى الفروع، شغله أمرها، خاصة بعد اكتشافه وهمية الشركة التى أسندوا إليه إدارتها، بحرص بدأ يستقصى ويستفسر، وبعد انقضاء وقت قصير، أدرك أن الأصول معروفة، والتفاصيل شائعة، المهم أنها لا تعلن، كل يدري، حتى كبار المهندسين المشرفين أو المنفذين لمشروعات البناء، والتى ما أريد بها إلا تغطية جواهر النشاط وحقيقته، أهله ما أدرك، فمقتبل هذا لم يكن له شأن

يذكر إلى ما بعد الحرب بسنة، وفي أيام القتال نفسها والزمن السابق عليها لم يسمع به أحد، لم تكن هناك لافتة ترفع اسمه، أو نشاط معروف له، ما من نفوذ أو ثروة، فانظر إلى أى حد تغيرت الأمور.

ضحك ضابط مخابرات القتال القديم، قال: وانظر إلى أمورنا نحن!..

قال إن ما عرفه شائع، شائع، وهذا ما أدهشه. إذ ظن أن الترتيب محكم، والنظام قايض، قال ان سر نفوذ ليس هذه يكمن في أنها أول سعده، من بدأ ثراؤه على يديها، المسكة حتى الآن بسره، إنها ليست جميلة جدا، غير أنها ذات طلعة، وعندها جراءة، متسقة، فارهة، لها حضور، عندما تعرف إليها مقتبل كانت تخدم عند إحدى الأسر العتيقة، تدبر أمور البيت القائم قرب الاهرام، تحيطه حديقة فسيحة، لا يعيش فيه إلا رب البيت وامراته، محامى عجوز، ابنتهما مهاجرة فى أمريكا، ابنتهما يدرس فى فرنسا، ورثت ليس - وهذا اسم مكتسب حديث - الخدمة عن والدها الذى عمل طوال عمره خادما لهذه العائلة، إلى أن وافاه أجله، وحتى لا تضل البنت أو تضيع بددا، أوها الرجل عنده، تدبر أمورهما، تشرف على امرأة فلاحه تجيء لتنظيف البيت، ورجل نوبى يجيء لطهى الطعام، تعرفت إلى مقتبل وقت عمله بائعا فى متجر للتحف بخان الخليلي، يقال إنه أحبها وأحبته، ويقال، انه لقي فى ملامحها

ما كان يبحث عنه وقتئذ، إذ توحى بأصالة نسب، وانتماء إلى جذور ثرية، فكانها ابنة باشا قديم صادرت الثورة أملاكه، ردد هذا على مسموعها وصرح به فانتشت لذلك وسرت. كانت تتقن أيضا اللغة الفرنسية، إذ درست في مدرسة تتبع إرسالية تبشيرية كاثوليكية كانت تقدم العون لبعض الأسر الفقيرة، وقد يكون المحامى العجوز لعب دورا فى إلحاقها بالمدرسة، ما من أمر مؤكد بخصوص ذلك، المهم أن مقتبل عرف طريقه إليها، وحشا رأسها بيقين أنها جديرة بثراء لاحد له، وجاه، ونفوذ، وأن مظهرها فيه جمال وهبة، توثق أمرهما حتى تمت أول عملية على يديها وكانت البداية..

تساءل ضابط مخابرات القتال القديم :

- كيف تم ذلك ؟

عندئذ اقترب بمقعده، واجتهد ألا ينسى تفصيلا، أو تفلت منه شاردة، قال إنها تركت الخدمة فى بيت العجوز، بدأ لها السفر مغريا، أن ترحل هنا وهناك، وترى الدنيا، كان هذا أحد أحلامها القديمة، بل أنها لم تنظر إلى وضعها كخادمة أو مديرة بيت كما أحببت دائما أن تصف نفسها إلا كوضع مؤقت، وأن حياتها ستتخذ سبلا مختلفة طال الوقت أو قصر، وجدت فيما اقترحه عليها مقتبل الفرصة أما الضمانات التى تحدث عنها فهدأت بالها وطمانت خواطرها، سافرت إلى باريس، وعندما ودعها فى المطار بدت زاهية، وكأنها اعتادت السفر منذ

القدم، متسقة الحركات، دقيقة الإيماءات، شحيحة فى الفاظها، فى باريس قضت أياما، ومنها طارت إلى آسيا، إلى منطقة يقال إنها تقع بين الهند وباكستان، أو بين أفغانستان وباكستان، لا يدري على وجه الدقة، هناك تسلمت ما مقداره كيلو جرام واحد، اقل حجما من كيلو سكر، هل تدرى كم قيمة هذا ؟ ألف دولار، أما بيعة فيحقق ربحا قدره ستمائة ألف فى الحد الأدنى، المهم... أنها اتقنت إخفاء فى حقيبتها، وعادت مرة أخرى إلى باريس، ومنها طارت إلى القاهرة، حقائبها مكدسة بأزياء الشتاء الجديدة، هذا ما صرحت به عندما استفسر مفتش الجمرک مبتسما مهذبا عما إذا كانت تحمل شيئا يستحق أن تدفع عنه ، حياها مادا يده إلى طريق الخروج، خطت رأسخة، تدفع عربة الحقائب، وتحمل حقيبة يدها وعروس جميلة، كتب فوق صندوقها الشفاف أنها تغنى وترقص وتمشى وتبول !

تلك كانت البداية، والمؤكد أنها لصاحب متجر العاديات، إلا أن العملية التالية كانت خالصة لهما، عرف مقبل طريقه إلى الرأس الكبير، تعامل معه مباشرة، وحتى الآن يخضع له، يستظل به، ولا يعصى له أمرا، سافرت مرات متباعدة حتى لا تثير شكاً أو ريبة، غير أنه من الثابت أنها بعد السنة الأولى لم تكن بمفردها، ويبدو أنها هى التى اجتهدت حتى اقنعت بعضهن، حرصت على اختيارهن ممن لهن ملامح الوقار والجمال، لم يعرف عنهن الامور المريبة، أو السوابق الغريبة،

بعضهن جامعيات، ويبدو أنها تملك قدرا هائلا من السيطرة عليهن، تجهل كل منهن الأخرى، اتسع مجال نشاطها، وعظم شأنها، وقوى أمرها، حتى لتكاد تكون صاحبة الشأن، أما عن كنه علاقتها بمقتبل فأمر في بعض جوانبه مبهم، من المؤكد أن ما بينهما وثيق، وطيد، لكن الثابت أنها سهلت له ودبرت تعرفه بهذه الممثلة الجميلة المشهورة، إذ يقال إنه مما يقوى رجال الأعمال في السوق ويثبت أمره أن تكون له علاقة بمشهوره أو ثرية بحيث يذيع أمرهما، وتتناقل الألسنة تفاصيل ما بينهما، وأوصاف الهدايا المغدقة عليها، ورحلاتهما السرية، كذا خلواتهما، وما شابه ذلك، أما عن الشركات التي أشهرها وتتبعه فمنها ما يعمل فعلا، ومنها الغطاء المموه، إحداهما متخصصة في استيراد الأدوات الصحية، ولكن نشاطها الحقيقي تهريب أنواع أقل قيمة من المخدرات، بل ثمة إشارات إلى تهريب أمور أخرى، الذهب والماس، وحتى قطع الحلوى، ما يحيره أن جميع هذه الشركات تحقق خسائر على الورق، خلال الأيام الماضية أنهى مراجعة الأوراق والملفات، ودرس الأوضاع فلم يجد إلا الخسارة، لكنه يثق أن ثمة أوراقا أخرى غير متاحة له، سجلات ما، ربما أظهروها له بعد أن يستوثقوا من أمره، إنه في وضع غريب، عجيب، إنه مستول عن شركة لا يدرى كنه نشاطها، جهل ميزانيتها الحقيقية، أما العاملون فكل منهم له وجه معلن وآخر خفي، يثق أن ما يدور حوله في الظاهر يخالف ما يجري في الباطن فماذا يفعل؟

يقول المحارب القديم باختصار دال موجز :

- «انج بنفسك قبل التورط استقل..»

أطرق مهموما، كدرا، قال:

- «استقلت ا»..

لماذا نظر المحارب الذى تقاعد إلى الصغيرات أثناء لعبهن

.. تنقضى الأوقات أسرع مما جرى به تقديرها، عند خلوته يستعيد ما كان فتغمره دهشة لوجيز المدة التى بدت أحيانا دهورا ممتدا، عندئذ يسرى فيه حنين وتعبه هدهدة أسيانة، معان غالية ولت، وأحداث دنت خلالها الذات من جوهرها اندثرت، إذ ينتقل إلى التفكير فيما تبقى تغييم رؤاه إلى حين، ماتبقى أقل مما انقضى، هذا حتمى، مقطوع به، مع إيمانه الأتم أن لكل أجل كتابا، لن يمتد به العمر خمسين أخرى مثل التى انقضت، يثق من ذلك مع عدم وصوله إلى حد الكفر بما قضى به، يؤمن أن الموت فى الخطى الساعية، فى الأنفاس المتعاقبة.

لو انقضى وقته دون مفاجآت ليست فى الحسبان، كأن تصدمه عرية، أو تصعقه كهرباء، أو يسقط فوقه ثقل ما أثناء خطوه فى الطريق، فإنه بالقطع موف الأجل فى العشرين القادمة، هذا إذا تجاوز الستين، صحيح أن والده تجاوزها بثلاث، وجده دنا من السبعين، لكنهما من سلالة زمن قديم، أما هو، فما أشق تراثه، وأثقل ميراثه، يبدو الآن قريبا، بعيدا، بعد أن فرغ منه، بعد أن أرغم على تركه فتحددت نهاية لما بذل من أجله العمر المنقضى، لكم سعى أحيانا ليقدم عمره طواعية، فى ذرا معاشته للخطر لم يطرقه هاجس الموت كتلك الأيام التى يمتلك فيها وقته.

فكر أحيانا فى تدوين اللحظات التى دنا فيها من انحناء المصير، عندما شارك فى الثورة، كان ضابطا برتبة ملازم، لم يمض على تخرجه إلا سنة ويضعة شهور، هذه الليلة، هذا المنزل فى كوبرى القبة، قريه الحميمى من صحبه، الشعور بالمشاركة، التوحد، المصحف المفتوح على سورة يس، الأيدى المبسوطة، ترديد القسم.

ليلة الثورة عندما اقتربت اللحظة، استنفاره الجند، وقوفه فى عمق الليل، صوته المرتفع إذ يقول إن الجيش ماض لتطهير البلد من الفساد، من الإقطاع، من الظلم، إنه ماض، فمن شاء الخروج معه ليتقدم خطوة إلى الأمام..

ثوان مرت، ثم بدأ الخطوة، لم يتخلف أحد، فيما عدا جنديا تقدم خطوتين، صار فى مواجهته تماما، عنده ما يرغب الهمس به، انتحى به، قال الجندى انه سيخرج ولكن هناك احتمال الموت، اليس كذلك؟

أجابه مومنا .

قال إنه يرغب فى لقاء ربه طاهرا، اصله احتلم أثناء النوم، يرجو السماح له بالاستحمام، لن يستغرق إلا دقيقتين...

أذن له، أما جاويش السرية، من بيده مفتاح السلاحيك، فقال له انه صاحب عيال، وإنه يرجو إعفائه، المفتاح هاهو، فإذا حالفهم الحظ رجاهم النظر إليه بعين الرحمة، وإذا خابت الأمور، فسيقول إنه كان يغط فى نوم عميق، وإن المفتاح سرق منه، قال:

- ربنا معكم..

أين هذا الجاويش الآن؟ حتى أم ميت؟ أين الجندى الذى احتلم؟ لم يرهما فيما تلا ذلك من أيام وليال، أين اللحظات الفاصلة المحملة بلامح يذنو بعضها وعبثا يحاول تقريب العديد منها، أين؟ لم يعن بتدوين ما مر، لم يكن لديه الوقت، مرة فكر فى تسجيل اللحظات التى اقترب فيها من الموت، حرب عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، وحرب اليمن، وحرب الاستنزاف، ثم حرب ثلاثة وسبعين، لكل لحظة تفرد بها وغرابتها، يوما سيدون ما مر به، ينوى، لكنه لا يقدر، يحكى

أحيانا عن ضابط صاعقة، واحد من المعدودين، عرفه محاربا، شجاعا، لايهاب، يضح حضوره إذا ظهر فى موضع ما بالمجادلة، والتهيؤ للمنازلة، حارب فى جبال اليمن، عبر سيناء مشيا، ظامنا، نازل العدو وراء الخطوط أكثر من أربعين مرة، كاد أن يقع فى الأسر غير مرة، لكم مرق بين الشظايا بين اللحظة واللحظة، ثم يقصد القاهرة فى أجازة، وأثناء مشيه فوق الرصيف جادت عربة عن طريقها، خلل ما، دفعها ناحيته، فلم يحط منطلقا، أى عقل يستوعب هذا؟ أى مصادفة تستعصى على التفسير؟ أحيانا، منذ تقاعده يرى أن وقته الحالى زائد عن الحد، يريد، أنه أنجز المهمة على خير وجه، خسائره طفيفة، غير أنه لم يقصد.. لم يتهاون، ولم يتنازل، الأمر عنده مرضى، لكن الوضع نسبى، فإذا قيس بالظروف، وتمكن الأحداث من الوقت، فالخطب فادح، والامر طام، وهذا مما يخرج عن حده، ما لا قبل له به، لاقدرة له على تغييره.

إنه الآن بمفرده.

طوال عمره لم يؤد ما كلف به إلا وهو فى جمع ورفقة، فسبحان من يغير الأحوال، ويبدل الظروف تبديلا ..

إنه فى الخمسين الآن، تجاوزها بشهور، البنات الثلاث تزوجن، الأولى أنجبت فصار جدا، و الثانية فى طريقها إلى أن تصبح أما، أما الثالثة فأمرها مقلق، مقض، أما الابن فمغترب الآن، بعيد، بعيد، حتى رسائله شحيحة، لكنه يلتمس له العذر،

ابنه مازال فى البداية، يحاول أن يبني حياته فى بلد بعيد، غريب فيه عن الأهل، عن اللسان، عن الصحب الذين عرفهم هنا، بمجرد تخرجه عزم وصمم على السفر، فوجئ، بوغت، أعد العدة لكى يبقى قريه، إنه الوحيد الذى جاء بعد شقيقاته الثلاث، له معزة، وعليه حرص، ومنذ السنين الأولى رياه على الصحبة، والبعد عن الجفوة، يهفو دائماً إلى فترته ما بين التاسعة والثانية عشرة من العمر، إذ يصحبه إلى زيارة الأتارب، إلى النادى، كان يقعد صامتا بين الرجال، لا يستوعب ما يقولون، غير أنه لا يتملل، لا يبدى ضجرا، حتى إذا ما غلبه النعاس، قال:

- يا الله يابدرى!

يتسامل القوم بدهشة:

- يناديك باسمك؟

فيقول وبه مس من خيلاء:

- إنه صاحب وابن.

لكنه بعيد جدا الآن، يستعيد ما كان فينفطر بؤبؤ القلب منه، ويشرف الدمع على تخوم عينيه، هو من شهد أهوال الحروب، وعلى مقربة منه استشهد أعزة، سجي بعضهم بيديه وفات آخرين، لم تطفر منه دمعة، إلا أن هذه الأيام البعيدة، الغائمة، تهدد ما كان منه وترقرق ما تبقى، ألم تغيم المرئيات عندما ودعه؟ ألم تتميع الموجودات؟ وعند عودته من المطار بدا الكون

موحشا، والبلد قفرا، الفراغ قد من وحدته أما وقته فبارد، لم يرجع إلى البيت في مواعده، قبع وحيدا في مكتبه، رابط منفردا بعد أن أذن للضباط والجند بالانصراف، علق بصره بقم شجيرات عتيقة ولم يعد، حاول تصور مراحل رحلة ابنه، حركة الطائرة في نقطة ما من الفراغ، نقطة متغيرة، متبدلة حتى أوان الوصول، من ينظر إليه، من يتطلع، من يبادل الحديث عرضا، من يدري أن لهذا الفتى أبا كان محاربا، صلدا، لم تدمه الجروح، وأوقات الحصار، والانسحاب مضطرا، ما أله ذلك الرحيل، هذا الغياب، صرف كل من يعمل معه، اعتاد مواجهة الآخرين بملامح لا تفصح عما بداخله، يقصى أى أثر قد يتسلل إلى وجهه، أتاح الخلوة حتى لا يراه أحد، طرق باب البيت بعد العاشرة ليلا، الليلة الأولى لاغتراب الابن، لقي امرأته منتظرة، ساهدة، مكومة، باد جواها، أسئلتها قصيرة:

كيف بدا في لحظات ما قبل دخول الطائرة؟

ألم ينس شيئا؟

هل سعد معه؟

ماذا قال؟

أجابها مورداً أدق التفاصيل، مردداً من حين إلى حين:

أتقلقين على الرجل؟ ابنك الآن رجل.

تقول حاسرة عن ألامها:

أنه ضنى.

تصمت مرغمة، مصفية، تردد..

هذه حال الدنيا!.

فى تلك الليلة، فى الأيام التالية حاد كل منهما عن إيلام الآخر، إلا أنه كان بعد نومها يقوم إلى البقايا، يقلب الكراسات العتيقة، تأمل خط ابنه عندما كان يجاهد ليحكم القبضة على القلم، عضلات يده أضعف من ذلك، الخط أمامه، باق، دال على وقت، غير أن الوقت ذاته ولى، صار عدما، فأين؟ نظر طويلا إلى أول شهادة نجاح حرص على الاحتفاظ بها، الانتقال من الصف الأول إلى الثانى، عندما تسلمها فرح فرحا جما وصانها فى إطار جميل، فيما بعد لم يبدد كراساته، أو كراسات شقيقاته، وشهادات الانتقال من مرحلة إلى أخرى، الارتقاء من زمن إلى زمن، بعد تسلمه الشهادة الأولى سافر إلى اليمن، ارتقى جبالا وعرة، وارتدى الزى الوطنى، أكل الأرز بقبضة يده، اتقن لهجات بعض القبائل، اقتضى عمله كضابط للمخابرات رحىلا دائما عبر الشعب والقرى واجتياز الوديان، عند كل فرصة يكتب إلى أسرته، يخط رسالة إلى ولده، يطلب من أمه أن تقرأها له، يذكر أيام اليمن فيلوح جانب من الرحلة الشاقة، إنه أحد الذين أمضوا خدمتهم كلها فى التشكيلات المقاتلة، الميدانية، نائيا عن المدن، فى الأطراف القصية، بقى عنده حنين دائم إلى البيت، وها هو يشهد الأيام التى يحن فيها

إلى زمن الترقب، والرصد الليلي، ومواجهة الخلاء، أياما يضيق فيها ببقائه الطويل فى البيت، لم تكن أجازاته إلا أياما شحيحة تنقضى بسرعة، دائما حرص على مغادرة البيت والأبناء نيام، كان حمل امرأته ثقيلًا، غير أنها لم تقصر، لم تكل، كان عليه أن يجمع حنينه، وميله، حتى لقى نفسه فجأة.. وإن توقع الامر.. محالا إلى التقاعد.

أول أيامه فى البيت، أول يوم يفتقد فيه الوجهة، ويغيب عنه القصد، انتبه إلى وجوده مع امرأته لاغير، كأنها أيام اقترانهما الأولى قبل قدوم البنين، غير أن الوضع تبدل، تغير، فما كان مأمولا، بعيدا، انقلب موليا، لذا بدا البيت الذى تاق عمرا إلى قضاء الأوقات فيه خاويا، اغترب الولد، ومضت كل بنت إلى حياتها، فثقلت حيويته، وخبت نضارته، أما انتهاء الخدمة فميع أرضا طال وقوفه فوقها، أو خطوه، أو اتكاؤه، أرضا طالما رواها بأيامه، سحبت من تحته بغتة. فنزل عليه خواء.

أتم المهمة، والدنيا لا تدوم، ولا تبقى على حال، ألا يحق له أن يرضى ويهدأ؟، خمسون وت، لم يلحقه سوء يكرر صفو الخدمة، مع أنه لم يكن هيابا، أو مترددا عند الحسم، أو مؤثرا للسلامة إذا لاح خطر، لم يخنع فى مواجهة من هم أعتى، وله فى ذلك مواقف شائعة.

كان سدادا، منقادا دائما إلى ما يراه صوابا، ذا رأى وتديير فى كل ما أوكل إليه، كان فى الحضور مهيبا، صاحب

جسارة وتتفند، حى الظرات ، واضح معالم الوجه، أمر الصوت بطبعه، إذا رآه من يجهل مهمته لا يخطر له إلا أن يكون مقاتلا، أو رأسا فى مجاله، ومع صرامته البادية، فإنه سليم الباطن، قليل الشر، كثير المروءة، مناصر للضعيف، لذا أحبه جنده، وهابه قاداته.

أتم الخدمة، أنهى المهمة، غير أنه لم يستوعب بعد معنى التمام، لم يدرك حقيقة الفوت، وكنه انقضاء العادات إلا مع تباعد مألوفاته، ونأى مكوناته، إنه دهش.

أحقا ولى هذا كله بدون رجعة ؟

أحقا حدث ؟

كان الأمر يخص غريبا عنه، أيام التقاعد الأولى ضنكة، فى سنين بعيدة، كان ينام متأخرا وعند الفجر يصحو، اعتاد رؤية بدايات النهارات دائما فى الخلاء. فى الصحارى، حيث ترابط الوحدات، فى لحظات استيقاظه الأولى يطوف به مرأى فراش دافئ، وتوشك أن تغلبه رغبة فى النوم دقائق أخرى، أو الإغفاء أمانا، بعيدا عن القصف المدفعى، عن الهلاك المحوم فى الفضاء، ها هى أيام الفراغ، حيث لا مواعيد تضطره إلى تحديد ساعات النوم، ولا ضرورة للاستيقاظ المبكر، ولا صحو مفاجئ نتيجة هجوم غير متوقع، مع ذلك فإن ساعات رقاذه الآن أقل، يتساعل قبل نومه عما سيفعله غدا، يقلق فجرا، أحيانا تتميع الموجودات، تتداخل، يظن أنه تأخر، أنه أوغل فى

النوم وأن دقائق متبقية فقط ليرتدى الزي العسكري، طوال خدمته حرص ألا يوقظه أحد، دائما آخر من ينام وأول من يستيقظ، يعي فجأة أنه متقاعد، إن يومه فارغ من أى التزام، إن باستطاعته النوم، أن يغفو بدون إزعاج، يغمض عينيه، فلينم، ألم تبدو لحظات كهذه بعيدة المنال؟ ليستريح، الوقت طوعه، غير أنه لا يزداد إلا يقظة، يتأجج صحوه مع بذل المحاولة للنوم، يصعب مضجعه فيقوم، يروح فكره إلى ولده، هو مستيقظ الآن، أم يغط فى نوم عميق؟.

بهدهو يخرج قاصدا الغرفة التى شغلها ولده، المطلة على الطريق، يلصق جبهته بالزجاج، يرقب الحركة فى الشارع، بعد تكرار وقوفه أصبح يعرف الآن، من سيخرج من البيت المقابل فى السادسة إلا ربعا، من سيظهر فى السادسة؟ العربية التى تجيء فى السادسة والنصف، تنتظر حتى الثامنة أحيانا، سائقها الأسمر يغفو أحيانا أثناء انتظاره، متى يستيقظ أذن ليجئى هنا مبكرا؟ لابد أنه ينزل عند الفجر، يذهب إلى جراج المؤسسة ثم يجئى لينتظر البك الذى لا يظهر إلا عند الثامنة، لماذا يقف هذه المدة؟، فى الأمر قسوة، ربما رغبة فى التظاهر حتى يرى الجيران العربية وسائقها.

يشفق على تلاميذ صفار يمشون فى السادسة والنصف، يقفون عند الناصية، فى انتظار عربية المدرسة، تنحنى

أجسادهم النحيلة اتقاء لهيات الهواء البارد، يقضم بعضهم شطائر، بينما يحتفظون بحقائبهم بين سيقانهم ملامسة الأرض.

ما أسرع مرور الأيام، ولت كطيف، بعد أن ضج البيت زمنا بأصوات الأبناء فى مثل هذه الساعة، خلا وخوا حتى من الصدى، كان يتابع خروجهم إلى المدرسة راسيا، إذ يمضون تقول امراته: ياه.. مازال المشوار طويلا، متى أستريح ويستريحون؟، الآن أتمت مهمتها مثله، غير أنها لم تسترح، يأخذها الحنين.

يتابع النظر، فى السابعة ينزل مدير محطة الكهرباء من المبنى المواجه، تجيء عربة نقل صغيرة، يركب إلى جوار السائق، إنه منحن يتلفت حوله كثيرا، سافر عامين إلى السعودية، ما بين السابعة والثامنة تدفق الحركة، موظفة ترتدى فستانا طويلا، وحجابا، تنزل على عجل تحمل طفلة صغيرة، يبدو أنها تمضى بها إلى دار الحضانة، يشفق على الصغيرة، الدنيا برد، امرأة نحيلة تظهر فجأة، سريعة الخطى، تتوقف عند الناصية كأنها تكتشف نسيان شيء هام لا يمكنها المضى بدونه، كأنها على وشك التعثر فجأة، فى نفس الوضع تقريبا تفتح حقيبة يدها، تقلب محتوياتها دون أن تبرزها، تغلقها، تستأنف السير، يبتسم، يتذكر زميلا من ضباط الاحتياط، يفتح مظاريف الخطابات بعد أن يلصقها، يعود مرات

ليتأكد من إغلاق مكتبه، عند الثامنة إلا عشر دقائق تبدو فتاة تحتضن كتباً، أحياناً تحمل معطفاً أبيض على يدها، كلية الطب، أو الهندسة، بعدها تجيء امرأة ترتدى جلباباً أسود، تغطي رأسها بطرحة، متقدمة في العمر إلا أنها نشيطة تتدفق حيوية، يحيد بعينه بعيداً، في مثل هذا الوقت كان عمله يبلغ ذروته.

زمن الحرب، يتصل اليوم باليوم حتى توشك الفوارق أن تنمحي، لكم أمضى ساعات يرصد، يرقب تحركات العدو في الناحية الأخرى، لزيادة طلعات الطيران مغزى، ظهور نوع معين من العريبات له مغزى، لكثرة ما جمع من تفاصيل عن القطاع المواجه كان يعيش أوقاتهم وهو بعيد عنهم، مواعيد تغيير النوبات، الزمن الذي يستغرقه الجندي للصعود إلى كشك الملاحظة، مواقيت تناول الوجبات، تشكيل دروريات الاستطلاع، مرات تردد قائد القطاع على المواقع الأمامية، أما مواقع أكداس الذخيرة، ومخازن المؤونة، ومداخل ومخارج النقاط القوية فكان يعرفها ويرقب أى تغيير أو تبديل يلحقها، أحياناً يحلم بها لانشغاله وطول تركيزه، وعندما وصلت إلى يديه صورة قائد القطاع المواجه علقها في مكتبه، صار يزيح عنها الستار كلما انفرد، يتأمل ملامحه - يستعيد الأساليب التي تصرف بها خلال الاشتباكات الماضية، عصبى؟ هادى؟ سهل الاستفزاز؟ حريص؟ متهور؟ لكل صفة، لكل تفصيلاً أهمية قصوى، مهما بدت ضالقتها.

لطول معاشته كان يدرك بالحس ما لم يقف عليه بالمعلومات، يستشعر دنو الخطر، والأوقات التي يلوح فيها الكمون، يرصد البدايات الغامضة، اللامرئية، حدث أثناء انتقاله مشيا على قدميه من موقع إلى آخر قرب مدينة القنطرة المهجورة وقتئذ أن ارتمى فجأة منبطحا، جزء من لحظة ودوى انفجار على بعد أمتار، ما الذي دفعه إلى الارتداء فجأة، إلى جذب مرافقه؟ فيما بعد حيره هذا، لكنه لم يقدر على رصد نذر أو مقدمات، إنه يفارق النافذة، ما يقرب من ساعتين يقرب خلالها حركة الطريق.

ظلال البيت وموجوداته غامقة مع انتقاله من التحديق في الضوء إلى الداخل، لمقاعد المائدة حضور صامت، غريب، كان يتعجل أيام أجازاته للجلوس هنا، يتصدرها، حوله البنات وشقيقتهن، أما امراته فلا تقعد إلا لتقوم، تحضر ما يحتاجه كل منهم، من رغيف أو ملح أو ملعقة، مع تنافس البنات على الخدمة وقضاء حاجات البيت، لكم أحب تلك اللمة، هذه الجلسة المكنونة..

المقاعد خالية الآن، المرأة حركتها بطيئة، هدوء ثقيل يوطر ملامحها، لولا مجيء هذه الشغالة في الشهور الأخيرة لما استطاعت أن تدير أمور البيت، قال ضاحكا لأحد أعزائه المقربين: نساؤنا نال منهم العمر، ونحن نتقاعد في ذروة عافيتنا، قال صاحبه: تزوج شابة صغيرة. قال: هل سنأخذ من

الدنيا أكثر من حقنا؟، ثم قال، إنه كمن يبدأ من جديد، لكنها بداية ما بعد الخمسين، بعد أن شب الأبناء ومضى كل منهم إلى حياته، يحوش نفسه عن زيارة بناته، يود الإصغاء إليهن أثناء طوافه بالشوارع للمشى كما يقول، ولكى يقطع الوقت أيضا، يدنو من بيت أكبرهن، قريب، يشرع، يود رؤية حفيده، غير أنه ينثنى قبل الناصية، لا يود مفاجأتها هكذا، ربما يضيق زوجها، يوم الجمعة يلتئم الشمل عنده، يجئن مع أزواجهن، هذا ما طلبه منهن، ألا يتخلفن عن غداء يوم الجمعة إلا لضرورة، إنه فرصة اللقاء المتبقية، عندما كن فى البيت نأى عنهن بالضرورة، فى المعسكرات، فى مواقع القتال المتقدمة، هكذا قضت الواجبات، لكم مضت عليه أيام شداد، مجرد تصويره لقاء الأبناء كأن ذلك سيتم فى خلق جديد، أيام توالى غارات الطيران، وضعف القدرة على المواجهة، وعندما صار فى الوقت فسحة، كن شبين ومضين، أما الولد فاغترب !

لقاء وحيد، مرة فى الأسبوع، لاحظ آخر مرة أن الابنة الصغرى ضلت طريقها إلى صوان الكتب، نسيت مواقع الأشياء فى البيت، مع أنها لم تفارقه إلا منذ عام وعدة أسابيع، بعد خروجه تتصل الأم بهن، تطمئن خاصة على الحفيد، أمر مستيقظ، أم مازال نائما؟ هل أكل جيدا؟ هل خف الرشح ؟

حقا أنهى الخدمة، أتم المهمة، لكن أيمتك وقته فعلا، أم يمضى به إلى حيث لا يدرى؟، لماذا يشعر أنه ضل؟ إن

الجهات اختلطت عليه؟ أما هدفه فمرق منه، رسا عند زمن غريب، مرة فى اليمين صحا بعد نوم عميق، للحظات تعلق بصره بسقف المكان، لم يدر شرقه من غربه، بعد وقت أمضاه متمددا بدأ يعى أن هذا ملجأ فى الجبل، وأن المدخل ضيق، المرقد صعب، وأنه فى حرب، فى اليمين، وأن دياره نائية، أيامه الآن تشبه لحظة الفقد هذه.

فى اليمين شغل بأمره، إنه جنوبى المولد، أول هواء استنشقه فى إحدى النجوع «نجع الهلة» بسوهاج، كان والده شيخا؛ مهيبا، مسموع الكلمة، وافر الحرمة، له القول الفصل عند المنازعات، عرف بعشقه للتواريخ، وما جرى بين العائلات والقبائل فى الزمن القديم، كذا تتبع الأنساب، والفروع، والأصول، أخذ ذلك عنه، وأغرم به، غير أنه لم يسلك طريقة أبيه لاختلاف الظروف، واتباعه طريقا مغايرا، ذلك أن والده كان عالما باحوال العائلات فلما بناس الناحية، إذا ذكر اسم أمامه يقص ما جرى لصاحبه، ويحكى عن الأقارب، من أقلام، ومن رحل، من ذهب ولم يرجع، من اغترب، من رجع بعد غيبة موسرا، من قفل عائدا فلم يعرفه أهله الأقربون، من عاش ومن باد، كان أول سؤال لمحدثه، من أى بلد أنت؟، حتى إذا ما أصغى إلى الإجابة يذكر بعض الأسماء مستفسرا مما يدعش محدثه، ويثير عجبه، أخذ عن والده السؤال، أول ما يبادر به الجنود الجدد، لكن أنى له معرفة والده، وغزير إحاطته، مما حكاه والده فى الزمن القديم أن أصول القبيلة التى انحدروا

منها فى اليمن، وعند إقامته زمنا، متنقلا فى ربوع البلد، مستطلعا، مدققا، أثناء تجواله استقصى حتى أمكنه بعد جهد جهيد أن يستوثق مكانها، عمل مجهودا كبيرا حتى دنا من مضاربيها، بات ما يفصله عن جذر أصله، عن أساس قبيلته ممر جبلى خطر، كان أفرادها على غير وفاق، يجاهرون بالعداء، أوقعوا الرجال فى مكائد شتى، أبدى استعدادا للمضى إليهم، للمفاوضة، تلقى الموافقة فأعد للأمر ودبر ما يلزمه، حتى وصل إلى حد معين، كان عليه أن يركب بغلة، أن يمضى عبر شعاب الجبل سعدا، غير مؤمن إلا بوعد شفهى وصله عبر رسول لا يستوثق أمره تماما، إلا أن فضوله كان عظيما، فمن تلك الوديان والشعاب والمدقات انطلق قومه فى الزمن السحيق، كيف، لماذا تحركت عندهم دوافع الرحيل؟ كيف تاهبوا له، كيف فارقوا مراتبهم تلك؟ على أى صورة مضت الليلة الأولى على درب الاغتراب؟ لماذا رحل من رحل؟ لماذا بقى من بقى؟ فى أى عمر كان جده البعيد عندما ودع ما ودع؟ ربما تبقى هنا من يمى إليه بصلة قري، عند وصوله سيطلق النظر إلى الملامح، إلى الشبه الخفى، لعل وعسى!

لم يتبق بينه وبين مضاربيهم إلا مرحلتان من الطريق، خلف وراه أربع مراحل، كان فى بداية النهار، والوصول مقدر له عند العصر، بعد عبور المضيق يبلغ أرضهم، إلا أن أمرا بالعودة صدر، أمر لا يقبل المجادلة، صارم، غامض، كإشارات اللاسلكى التى احتوته، لم يكن بوسعه إلا أن يلبى، أنثنى،

وبدلاً من استقبالهم بوجهه أدبر، وبدلاً من وصوله ألقع، عند كل منحى التفت، كأنه واحد من قومه النائين عند رحيلهم فى الزمن القديم، ومثلهم علل النفس بعودة قريبة، أو فرصة تالية، غير أن هذه الفرصة لم تأت قط، ذلك أنه فارق اليمن كلها بعد أسبوع واحد من محاولة اقترابه، نزل القاهرة لمدة ثمان وأربعين ساعة ومنها رحل إلى نخل بوسط سيناء، لم يزر بيته حتى، جرى ذلك قبل بدء حرب يونيو بأيام ستة لا غير، كثيراً ما استعاد تقدم خطاه عبر الجبل، خاصة فى ليالى رقاده قرب قناة السويس، حيث يمكنه الإصغاء إلى تلاطم الموجات المتتابعة.

حكى بعضاً مما جرى لامراته، كانت تصغى فى البداية متقدة الانتباه، مسرورة، لم تعتد منه طوال خدمته أن يحكى عن عمله، عن ظروفه، وها هو بعد تقاعده يفيض، غير أنه بدأ يلحظ شرودها وإن تظاهرت بالإصغاء، لكن تيهه نظراتها لم يكن بمنأى عنه، كف، عاد إلى صمته.

فى يوم جمعة، وبعد الغداء قعد صامتا، فى البيت البنات وأزواجهن، ترى، أين ولده الآن؟، هذا ما ردهه دائماً، ابنه الذى كان يخشى خروجه بفرده إلى الطريق، يسعى الآن فى ديار غرية، التفت، خارج النافذة يبدو نهار رمادى، يترقق، لا يقدر على احتمال اللحظة، بعد لحظات اعتذر، تغلل بارتباط ضرورى، ربما المرة الأولى منذ سنوات بعيدة، منذ ما قبل

دخوله الكلية الحربية، يمضى بلا قصد، بدون وجهة، يمشى
للمشى، يحيره هذا، ما لم يتكيف معه بعد.

عند خروجه من البيت يبدو سريع الخطى، متعجلا، يضى
على ملامحه جدية وأحيانا عبوسا، فكأنه ينوى قضاء حاجة لا
تحتل التأخير، حتى إذا بعد عن الشارع مقدارا، يخف
اندفاعه، ويبطئ خطوة، يتوقف أمام واجهات المحلات، يدقق
النظر فى لافتات الأطباء، الإعلانات، المباني التى ظهرت فجأة،
متى قامت؟

كأنه يدرك المدينة لأول مرة، لم يعبر طرقاتها إلا فى العربة
العسكرية، مناطق باكملها لم يطرقها، وأحياء جديدة لم
يقصدها، وشوارع لا يدرى إلى أين تؤدى، اكتشف الطرق
مشيا جد مختلف عن المرور راكبا، غير أن المشى بدون قصد
باعث للكمد، محير، لماذا لا يزور المتاحف؟ لم يدخل المتحف
المصرى إلا مرة واحدة منذ ستة وثلاثين عاما فى رحلة
مدرسية، كيف لم يصحب الأبناء إليه، إلى المتحف الإسلامى،
إلى الزراعى، إلى القبطى؟.

يمكنه الآن زيارة أى متحف، قضاء أى وقت، لكنه بمفرده،
الابن بعيد، والبنات منغمسات، أما امراته فتشكو ألم ساقها،
تعتذر بثقل حركتها، بان عليها تقدم العمر، تبدو راغبة فى
الخلوة، فى الانفراد، لا تتكلم إلا إذا حاورها، لا تنطق إلا إذا
ناداها.

عجيب! أهذه طبيعتها وغابت عنه لقضائه الأوقات فى الخدمة؟ معظم عشرتها اتصلت اسبابها فى أيام الأجازات، لم ير من معالها إلا ما تسمح به الأيام القليلة.

حرصت الا تكدره، الا يعود إلى عمله مهموما، مثقلا بمشاكل البيت، شالت عنه مشاكل الكبير والصغير..

يتوقف أثناء مشيه، يحن إلى رؤيتها، للعودة إلى البيت فى هذه اللحظة، كأنه يكتشف ذلك لأول مرة، أعطى زمنه بأكمله للجيش منذ أول يوم عبر فيه باب التخرج فى الكلية الحربية، طرح الحياة المدنية وراءه، تباهى دائما بسنوات خدمته التى قضاها كلها فى التشكيلات الميدانية، زها بالترقية الاستثنائية التى حصل عليها نتيجة البلاء الحسن، والقدوة الجيدة.

هو.. كان قدوة، ولكنهم بغتة أخرجوه عنوة من وقته، من انتظامه، أقصوه قسرا فى ذروة انغماسه، حادوا به غصبا، أرغموه أن يصبح مكيفا فى عنفوانه ولم يهن بعد.

لم يكن حبيسا للمكاتب قط، كان دائما طوفا، حواما، وعند زواجه لم يتبدل أمره، لم تشعره امرأته بالهموم، رعت أغصانه، سقت طرحه، حتى إذا فاض عن الحاجة، وفرغ إلى وقته كاملا، سعى إلى الثمر، فإذا به نضج، مفارقا الأصول، متفرعا إلى دروب شتى.

أحيانا يتوقف أثناء طوافه بالمدينة، تطرقه هواجم تبدو ضئيلة لكنها تستنفر داخله الشجن، يتعجب، كيف لم ينتبه إلى

مغزى الأمر عند حدوثه، كيف لم يلتفت فى اللحظة الآنية، حتى ليتوقف فجأة أثناء مشيه، أو يهيم إذا كان قاعداً، ويطوف بحدقتيه أسى مكتمل، لا يلوح إلا فى حدقتين خبرتا الأحوال العظام.

كم مرة دنا من الموت؟، ألم يظل مسدسه فى متناول يده زمناً، عند انتقاله، عند هجوعه، إذا نام وضعه تحت وسادته، ألم يخطط يوماً لأسر ضابط مخابرات العدو فى القطاع الجنوبي، وضع كل احتمال بما فى ذلك أسره، لو دنا المحظور كان متأهباً لإخراص نفسه إلى الأبد، يضم ما عنده من أسرار تتعلق بها حيوات القوم.

ليست المواقف التى تهدد فيها عمره تلك التى تلح عليه، انما لحظات صغيرة بما احتوته، كانت ضائعة من مناطق الذاكرة المضيئة.

قبل عبور القوات، فى قرية الشط، كان فى موقع مراقبة متقدم، على مقرية قطعة أرض ينحنى فلاح من الناحية على زروعاتها، كان رجلاً تجاوز الخمسين، ومن حركته خمن أنه ينزع بعض الحشائش الضارة، عندما دوى أول انفجار انتفض واقفاً، تلفت حوله بحدة، بعد الانفجار الثانى، راح، جاء، راح، جاء، كأنه مشدود إلى خيط خفى يجذبه يمينا ويسارا، ثم جرى إلى الحفرة الدائرية فى نهاية الغيط يلح عليه الموقف، رواح الرجل ومجيئه اللاإرادى، ثم اندفاعه..

غير أن لحظة أخرى مثقلة بالدم سرعان ما تدركه، يأخذه روع عند استعادتها لم يعرفه في أنيتها.

كان يقود سيارته في خط متعرج، كانت مدينة الإسماعيلية تتعرض لقصف مدفعي كثيف، اضطر إلى التوقف أمام بيت واجهته خشبية، عند الناصية لمح، كان يرتدى جلبابا، يركب دراجة، يقودها بأقصى ما لديه من طاقة، هكذا تتبى حركة ساقية، انحنائه.

فجأة.

شظية لم يرها، لم يدر حجمها، أو مصدرها، سبقها انفجار قريب، انبثق الدم غزيرا عند قاعدة الرأس، بدا مظهر الجسد غريبا وقد طارت منه الهامة، لكن ما جعله يحمق، استمرار الساقين في حركتهما، امسك اليدين بالدراجة، دوام الانحناء، الاندفاع إلى الأمام، انخفاض ساق وارتفاع أخرى، كم دام؟ ثواني، جزء من ثانية؟ الغريب أنه لم يرو الواقعة لزملائه، لم يفض بها قط إلا بعد تقاعده، ولزميل خدم معه في اليمن وأحيل منذ وقت طويل إلى التقاعد، لكنه إذ يستعيد ما تدرك أطرافه برودة، مع وعيه الأتم بالأسباب المنطقيات لكنه الفرق بين أن يرى، وأن يسمع..

تتنفض الرؤى القديمة، واللحظات المارقة، حتى الإحساس بالذنب.. مرة أبلغ عن هروب جندي من أحد مواقع مدفعية

الهاون الثقيل، خرج فى أجازة ولم يعد إلى وحدته عند انتهائها، تم إخطار قسم البحث عن الهاربين، والشرطة العسكرية، والشرطة المدنية، والجهات المعتاد إبلاغها عند وقوع مثل هذه الحالات.

مضى أكثر من عام..

طبعاً نسى الأمر، فهناك آخرون يختصون بأمور لا يحاط بها علماً، لكنه علم من قائد التشكيل ما عجب له، مع أن حين الدهشة فى الحروب ضيق، ضئيل، لقد عثروا على الجندى، كيف؟، تقع وحدة الهاون على مسافة من الطريق المرصوف، عندما بدأ أجازته كان لابد أن يمشى مسافة عبر مدق ترابى، كان الوقت ليلاً عندما حامت طائرات العدو، سقطت قنبلة زنة ألف رطل، كان فى المدى المؤثر للانفجار، قلبت القنبلة الهائلة الرمال، انهالت فوقه، طمرته، اختفى تماماً، لم يعثر له على أثر، ولم تكن هناك علامة دالة، بعد أكثر من عام جاءت الجرارات لإقامة مصطبة رملية، أثناء الحفر عثروا على المقاتل، استدلوها على الهوية من السلسلة المعدنية التى تحيط بالرقبة وتحمل رقماً، نقلوا الرفات، وأصبح الهارب شهيداً..

لكم أشفق على أسرته، على الجندى نفسه، يدركه ذنب بعد انقضاء الأوقات، لكن كيف كان سيعرف؟ كيف؟

يلح قديمه عليه، غير أنه يحوشه عن الآخرين، ما جرى تراث يخصه، وإن ما شهده لن يدركه إلا هو، لا يريد الوصول إلى

لحظات يصغى فيها أزواج بناته إليه تهذبا، مع أن زوج الصغرى ضابط تخرج منذ أربعة أعوام، لكنه لا يقدر على وقف هذا التدفق، كأنه يكتشف بعضا مما مر به أول مرة، لذلك تطول فترات صمته، أحيانا كان يلتقى ببعض ممن يعرف، يسألونه عما يفعل؟

يقول إن عنده مشاريع للتجارة..

إذا ألح محدثه يجيبه..

- تصدير واستيراد..

مجال فسيح، مطاط، كما أن معظم الضباط المتقاعدين اتجهوا إلى هذا النشاط، لماذا التصدير؟ لماذا الاستيراد؟ لا يدري..

غير أن ثمة عرضا حقيقيا تم، إذ جاء رجل يمت إليه بقرابة، لقيه فى مقهى فسيح، عتيق، بشارع الألفى، ثم دعاه إلى الغداء بنادى الضباط، يشفق على امرأته من دعوة صاحب أو قريب حتى لا يكلفها جهدا لم تعد تحتل القيام به، كان الرجل تاجرا كبيرا فى المحافظة النائية، عنده واسع دراية ويد طولى فى السوق، عرض عليه أن يضع يده فى يده، أن يتكاتفوا ويتوكلا على الكريم، أن يدخل معه فى مشروع لتجارة العربيات، عنده مخزن مغلق الآن، موقعه قرب ميدان المحطة، إذا اتفقا سيرتبه، ويعلق فيه صورا لطرز العربيات الحديثة، فقط.. هذا ما يلزم

البداية، طبعاً سيجيئهم من يعرض بغرض البيع، ولهما العمولة، كما أنه يعرف بعض كبار التجار فى أسيوط، هم قائمون على توكيلات شركات كبرى، سيأخذ منهم عربيات للعرض كأمانة.. الأمل كبير، وفى الباب متسع.

أصغى إلى الرجل، النادى حولهما شبه خال، فراغ المكان يوحى بتداعيات الوحدة، ثمة بوق نحاسى ملقى قرب المسرح، بوق صدئ ربما، لمن؟ لا يدرى، منضدتان فقط مشغولتان، متباعدتان، إلى الأقرب قعدت امرأة تخطت الأربعين، هذا مؤكد، ثلاث فتيات، إحداهن ناهضة، والأخريان صغيرتان، ضامرتان، وصبى فى الحادية أو الثانية عشرة، يتناولون طعامهم فى صمت، أين أبوهم؟ غائب؟ حاضر؟ أم راحل إلى الأبد؟ إذا كان شهيداً فمن هو. هل سمع عنه؟ ربما يعرفه، ربما خدم معه.

المنضدة الأخرى يجلس إليها عجوز جداً، يمضغ متههلاً، واضح من بروز شفثيه وارتخائها أن فمه خلو من الأسنان، ربما كان ضابطاً فى العصر الملكى، بعد عشر سنوات أو خمس عشرة إذا امتد به الأجل سيطعن هكذا، من يدرى؟.

- «أه ما رأيك؟».

يبدو أنه شرد طويلاً.

لم يشرع فى التجارة، ولم تخطر بباله يوماً، كثيراً ما سمع فى السنوات الأخيرة عن زملائه الذين تعجلوا إنهاء خدمتهم، وتقاعدوا راغبين، ثم شرعوا، منهم من نجح وجمع ثروة، ومنهم

من خاب، التقى بهؤلاء وهؤلاء، أصفى إلى أحوالهم، إلى تقلب الظروف بهم، لكنه لم يتصور نفسه شريكا فى تجارة.. لكن، ماله يجد نفسه مترددا، حائرا، زمن القتال كان يتخذ أصعب القرارات فى الفترة الوجيزة، زمن احتدام الاشتباك، حيث تتعلق المصائر بقرار، أحيانا لم يكن الوقت يسمح بترف التردد، لم يقدر الا على المفاضلة واتخاذ الأنسب مع مراعاة القدرات المتاحة، ما يحيط الظرف، لماذا يحار الآن؟ يطيل النظر إلى الرجل المتقدم فى العمر، صارم القسما، موجز العبارة.

لماذا لا يجرب؟

لكن من أين له الإمكانيّة؟

ما من عقار، أو رصيد مناسب فى البنك عنده، ورث بيتا فى القرية لكنه لم يقم به إلا أيام نزوله القليلة، قدمه إلى شقيقته قبل وفاتها، كانت أحوالها صعبة، والآن تقيم به ابنتها، كان والده مهيبا، مشكور السيرة من القريب والبعيد، مسموع الكلمة، يعمل برأيه عند المنازعات وإن لم يكن أغنى القوم، لم يحز ثروة أو أطيانا، لم يلتق يوما بأحد أبناء البلدة أو الذين عرفوه إلا ورفع يديه إلى السماء ترحما على الرجل الذى لن يجيء مثله، القادر على فض المنازعات، وإلزام كل إنسان حده، غريب أمره الآن، بعد كل ما خبره وعرفه فى الحياة الدنيا، يود لو أن والده كان برفقته الآن ليسدى إليه نصحا، يستعيده الآن، بنظراته الهادئة، المسددة، قامته النحيلة، ما قوله، كيف سينظر، كيف سيجيب لو أصفى إلى هذا الرجل مال إلى الأمام قليلا..

كيف سيشارك، ما المطلوب منه بالضبط؟

يحرك الرجل عصاه التي يحيط قممتها براحتيه، يضحك،
إنها بداية الثقة، والبوح بما يضمرة، فى مقدمة فمه موضع
سنتين فارغتين هل لاحظهما؟ لم يجزم، يضيّق، كيف فاته ذلك،
يقول الرجل ملامسا صدره براحة يده:

- «أنا بمالى، وأنت بعرقك..»

تبدو هيئته كتاجر جلية، تاجر يساوم، يحاور، يبيع
ويشترى، يتخفي ثم يسُفر فى اللحظة المواتية.

- «عرقى، وماذا يساوى؟»

يتراجع، يرفع حاجبيه، كأنه يقول، يعنى الاتفهمنى؟، يميل
إلى الأمام مقتربا..

- «عرقك غالى ياسيادة اللواء، يساوى الكثير، الكثير قوى..»

- «بصرنى يا حاج..»

- «أنت لواء، ولواء من الأبطال، وعندك معارف وأحباب فى
أيديهم كل شىء، قبل الافتتاح سنعلن وننشر فيعرف القريب
والبعيد».

- «لكن يا حاج أنا طول عمرى فى الجبل، فى الصحراء..»

يبتسم الحاج، وأن بدا حذر مشوب بقلق عنده..

- «طول عمرك ضابط مخابرات، اتظن أنني لا أعرف..»

- «مخابرات على إسرائيل يا حاج..»

يضحك..

- «وماله، ما هم في البلد زى النمل..»

يتراجع بهامته قليلا، كأنه يسمع لأول مرة، قال ما قاله
وكأنه أمر مفروغ منه، غير قابل للمجادلة، مستقر منذ أمد،
يطيل النظر إلى الرجل، إنه وقور، لشيبته حضور، كانوا
يسمون حرب المخابرات صراع العقول، بعد نجاح مهمة خطط
لها ينتظر، كيف سيكون الرد؟ كيف سيتصرف من يقبع في
الجانب الآخر؟ بون شاسع يفصله عن الحاج الآتى من أعماق
الصعيد بحثا عن غطاء لا عن شريك، سعيا وراء واجهة، لا
يدري أن الجالس أمامه أصبح صدئا، من مخلفات زمن غبر
وحروب تبدو الآن نائية جدا بكل ما حفلت، فكانها جرت في بلد
آخر، وفي عصر بعيد يجهد المؤرخون أنفسهم ليعرفوا بعضا
من ملامحه. كيف يتصرف؟ يسخر أم يقسو؟ لا ينطق، بل
يطرق، يسرى حزن خفى نواته، إلى صلبه، اليس الرجل منطقيا
مع نفسه، مع الواقع؟، يريده مستخدما عنده، يبغى شراء هذا
التراث كله، إنه تاجر قديم، ابن سوق، ولا بد أن ما جرى حوله
من تقلبات جعلته يتلمس ما تصور إنه غطاء يمكن الاحتماء به
عبر السبل المعوجة، لا يشبه التجار الجدد، ما سمعه من

العقيد المتقاعد بدأ له غريبا، بل مقلقا، جاءه محتميا به ولكن من جهة مغايرة، حكى له عن هذا الشاب الذي تنشر الصحف يوميا عن نشاط شركاته، لكنه لم يتصور قط عندما التحق عاملا عنده أن نشاطه الحقيقي محوره أشد أنواع المخدرات فتكا بالبنية البشرية، وأن الامر كله بيد عاهرة لها الشان كله، بدأ كأنه يلوذ به، هو متقاعد مثله، غير أن ظنا واهيا عنده، ربما أبقى عمله كضابط مخابرات قديم، على صلات يمكن من خلالها تقويم المعوج، تنبيه أصحاب الشان إلى نشاطات المؤسسة، إلى خطورتها، لم يدر سليم النية، طيب السريرة، أن هذا النفوذ اندثر، فالوضع كله أعوج، وما كان ثانويا صار رئيسيا، وما كان محرما صار القياس، لم يخف أمره، وحتى يجتث أى أمل واه عنده قال:

«استقل...»

بوغت عندما أتاه الجواب، قال العقيد مهندس متقاعد:

.. «استقلت فعلا..»

قام واقفا، كأنه على وشك تأدية تحية ما، أثنى وأشاد، هذا دليل على أن اللصوص الجدد لن يمكنهم قهر الشرفاء، المهم هو الثبات، عدم الخضوع لأى ابتزان، لأى محاولات ترغيب أو تهيب.

فى لقاء تال، قال العقيد مهندس المتقاعد إنه فى دهشة.

لماذا؟

لانه ظنهم اقوياء، عندهم قدرة وشدة تنفيذ، لكن ما يجرى منهم بعد استقالته يحيره، إنهم يبذلون المحاولة تلو المحاولة، اتصلوا به مباشرة، غير انه حاد وراوغ، عندئذ سعوا إلى الأقارب، خاصة خال امراته، جاء بنفسه إلى البيت مع أنه نادرا ما يزورهم لشدة انشغاله وتعاضم مسئولياته، حدث الخال عن ثقة مقتبل «باشا» به والأفاق التي سيطرقها، طلب منه أن يوسع من أفقه، أن ينسى ما ترسب عنده من هنا أو هناك، الزمن انقلب، كل يسعى إلى مصلحته، إلى تحسين أحواله، فى زيارته الثانية قال الخال إنه لن يمكث طويلا، إنما يطلب منه التفكير فى البننتين، الرحلة الطويلة التى تنتظرهما، متطلباتهما أثناء الدراسة وعند الزواج، ألن يجرى يوم يشرع فى تجهيز كل منهما، ليس هذا ببعيد، حتى بعد زواجهما سيكون عليه مساعدتهما، هل يرغب السفر إلى بلد نفطى، حيث يصبح هو فى ناحية وهم فى ناحية، يرجع فى الأجازات كالغريب، وياعالم ماذا سيجرى لهم فى غيبته، دخله من هذه الشركة يعادل ما يمكن أن يحصل عليه من عمله متغريا، لماذا لا يفكر بمنطق الواقع؟

قال إن خال امراته أوجز ونصح، غير أنه عند الانصراف لمح بوعد خفى، لم يرغب عنه، أدركه، بدا وكأنه يحذره من مقتبل ورجاله وما يمكنهم إلحاقه به، لم يخف أنه ينذر ولا يشفق.

قال العقيد مهندس المتقاعد، معلقا بعد أن فرغ من نبأ ما جرى له، برغم هذا كله شعر أنه قوى، أما إلحاهم عليه فعن

ضعف، قال له إنه محق، فعلا.. انهم يخشونه، نعم.. لهم نفوذ،
إلا أنهم يرتعدون خوفا إذا ما حاد أحدهم أو شذ.
قاطعها، لكنه لم يكن منهم.

رفع يده، قال بهدوء: أيا كان الأمر، فقد دخلت الدائرة ولو
بقدر، وعند خروجك أصبحت خطرا عليهم، يجهلون نواياك، لا
يعرفون على أى أمور وقفت، لذا يسعون اليك.

رجاه أن يتصل به، أن يجيء إليه، أن يطرق بابه فى أى
وقت، شدد الرجل على يديه. لسبب خفى قلق عليه، ربما
لاضطرابه البادئ، لتهدل كتفيه، ربما لأنه يود، يتمنى منه
الثبات.

بعد أربعة أيام اتصل به، قال إنه لا يدري كيف عرفوا
الطريق إلى أمه، فوجئ بها تطالبه باتباع العقل، بالتفكير فى
ابنتيه، فى المستقبل الصعب، فى الظروف، ما كان يكفى الأمس
لا يصلح لليوم، وإن يوازى قشرة بصله غدا، هل يظن نفسه
وصيا، أو مصلحا للكون؟.

قال إنه يظن تدخل امرأته، لم تكلمه مباشرة، إنما دفعت
أمه.. أصغى إلى صوته عبر الهاتف، ترسخ قلقه، أدرك
الاهتزازة الخفية فى صوته، فى نبراته مراجعة دائمة، لم يتخذ
بعد قراره النهائى مع أنه فى خضم اللجة، كان العميد الشهيد
الرفاعى يقول لرجاله، عند الخطر يجب اتخاذ قرار، من المهم
أن يكون صوابا، سليما، ولكن الأهم ضرورة الحسم، قرار
يتبعه الكل، أما التردد فهلاك مبين.

الرجل لم يقر أمره بعد، صحيح أنه جاهر، وأعلن واستقال، لكن الضغوط التي لا تبين، أشد وطأة من الجلية الواضحة، لا يدري ما يمكن أن يفعله من أجله، فقط.. المؤازرة، ولكن.. هل تجدى في هذا العصر؟ إنه منقطع عنه منذ فترة.. ويخشى السؤال عنه فيأتيه مالا يحب سماعه، بعد انصراف الحاج بقى في الحديقة، مشمولا بالوحدة، حاول رده برقة، إلا أن الرجل لم يخف ضيقه..

«على أى حال فكر ورد على، لكن.. ليس بعد أسبوع..»

هنا أوضح حاسما:

- «يا حاج.. لا أسبوع ولا أسبوعين.. أنت لن تنفعنى، وأنا لن أنفعلك..»

لا يدري كم بقى ساكنا بطالا، يخطو زمنه بطيئا، أرسى هذا عنده ثقلا وكديرا، يمضى إلى الطرقات، ما أبغض المشى بلا هدف، ما أصعب تمام القدرة، امتلاك جل الوقت، مع افتقاد ما يجب عمله، قال لنفسه إنه بعد هذا العمر كله اكتشف جهله بالمدينة، علل مشيه برغبة التعرف إليها، حاول الابتعاد عن منطقة الوسط المطروقة، شارع طلعت حرب، ٢٦ يوليو، قصر النيل، تبدو المنطقة بؤرة تدفق لانهاى، يمضى شرقا حيث بقايا حديقة الأزبكية، والأشجار العتيقة المتبقية، جزر الخضرة النحيلة، عند ميدان العتبة ينتابه يقين أنه ينتقل إلى زمن متبق من قديم غرب وافل، يتمهل مرغما، زحام، تيه يغمر الملامح،

باعة قادمون من الجنوب يواجهون المدينة بافتعال الشطارة، تتوالى الطرقات الخلفية، الضيقة، ما من ملامح معمارية، العتاقة فقط سمة مشتركة، محسوسة، غير منظورة، سوق باكملة تخصص فى بيع ماكينات الخياطة القديمة، أجزائها، ولوازمها، بالقرب سوق للاغلاق: أقفال المكاتب، البيوت، الأبواب الفخمة، البوابات الصغيرة، تأمل طويلا متجرا يعرض خزائن حديدية ضخمة، قديمة الطراز، حاول أن يتخيل ما احتوته، ما ستضمه، حيره مقهى يعلق إعلانات مضى عليها عشرات السنين، أنواع مختلفة من السجائر، وزجاجات الوسكى، بيدو شارع كلوت بك رماديا، هرما، مختلط الملامح والواجهات، يعبره القادمون إلى المدينة حديثا، الفنادق البالية، والأرصفة المتآكلة والورش الصغيرة، منطقة وهم وانتظار، وربما ضياع وفقد، يدفع بنفسه عبر الطرقات المتعرجة، يحاول أن يرى ، راغبا فى التواصل، متأهبا لرصد التفصيل.

عندما خرج من شارع باب البحر، رسا فى ميدان باب الشعرية، أوى إلى مقهى فسيح، أنس به، رشف شايا ثقيلًا، إلا أنه لم يواصل تدخين النرجيلة، لم يعتدها، جاءه الرجل المتقدم فى العمر، سأله عما إذا كان فى حاجة إلى تمباك أهدأ، كله موجود، هز رأسه شاكرا، أبدى الرجل عناية وأظهر له ودا، ربما لأنه غريب عن المقهى، وعندما أخرج حافظته الجلدية قال الرجل، خلى يابك.

قام ساعيا إلى ميدان الظاهر، إلى المسجد القديم المهمل، إلى ميدان السكاكيني، تفحص زخارف القصر العتيق، الرمادى، المثقل بالغبار، واصل إلى ميدان الجيش، فى اليوم التالى انثنى إلى شارع الحسينية، مال إلى ضجيجه الحميمى، لم يستطع رؤيته إلا عابرا، فما من معارف له هنا، إذا أوى إلى مقهى من هذه المقاهى الصغيرة فستقلقه النظرات، انطاؤها على الريبة، على الشكوك، هذا واقع قائم حوله، فى متناولها، لكنه بعيد عنه بالحضور والتكوين، فى أيام متتابعة قصد امتداد الطريق، عبر سور القاهرة القديم، ارتقى درجاته الحجرية، قرأ ما كتبه جند فرنساوية، ورأى ما تبقى من كتابة هيروغليفية على الأحجار المنتزعة من مقارها الأولى، المعابد، اهرامات، قصور مندثرة، لاشئ يبقى، وما من أمر ثبت على حال، حتى الجماد الذى استعان به القدماء لقهر العدم.

فى تجواله رأى قصورا عتيقة وقد أصبحت مدارس، أو إدارات حكومية، هل ظن أصحابها يوما أنها ستؤول إلى ما آلت إليه، ما من بناء بقى على حاله، حتى الأهرام، لها قدر معلوم، ويوم آت ، فلماذا تتقطع روحه حسرات على زمن عاشه وانقضى؟ ربما لأن المتاح أمام القدر البشرى زمن واحد، والوقت عزيز، تسديده صعب.

عندما جاز مدخل جامع الأقمر أخذ بتواريه، وانكماشه، مدى ما ينطق به رخامه من حزن، وعندما توسط قبة قلاوون

تضائل أمام رهبة المكان وسموقه، وما يحتويه من جهد إنسانى لمغالبة الأبدية، كيف تأخر عن رؤيته هذه الأعوام كلها، لام نفسه، لماذا لم يصحب ابنه وبناته لزيارة هذا النصب، والله هذا تقصير.

تمتزج مشاعر شتى داخله كما تتداخل الأضواء الملونة التى تنفذ بقدر عبر الزجاج الملون المعشق بالجص، ولده هناك، سافر، اغترب، لم ير هذا كله، أى تقصير؟ لو أنه بصحبته، لأفضى إليه بخواطره، بما يجول عنده، على مهل خطأ تجاه المحراب.

فوجئ..

ثمة آخرون فى العتمة، أجنبى وأجنبية، كانا متضامين، متعانقين، تلفهما رغبة مغلقة، كأن ماء باردا غمره، أو قبضة صدمته، لم يدرك كيف يتصرف، إلا أنه أسرع، لفظ نعوثا قاسية، هنا، اليس للمكان حرمة؟، كان الحارس عجوزا، لوجهه تيه، وغياب.. صاح فيه..

- «ما يجرى بالداخل عيب..».

رفع الرجل عينين قديمتين، كأنه لا يراه، صاح مرة أخرى..

- هل رأيت ما يجرى فى داخل القبة؟

قام الرجل متمهلا حتى واجهه تماما فوجئ به يقول..

- «وهل رأيت ما يجرى خارج القبة؟».

عاد إلى صمته، قال أحد المارة وكان يتابع مع آخرين
توقفوا:

- «سبحان الله، منذ أن جرى له ما جرى ولا يعنيه شىء...».

قال آخر:

- «تصور.. عمره كله لا يطيق ملامسة أحد لجدران القبة».

قال ثالث:

- «ماذا جرى لك يا عم عاشور.. سبحان مغير الأحوال...».

أوغل فى الطريق مبتعدا، غاضبا، بعد الخطو استعاد هدوء
المكان الرخيم والعناق فانبعثت داخله استنارة حتى أنه خجل
لما مر به، ماذا أيتمنى مثل ذلك؟ عيب!!

دفع بنفسه عبر حوارى الجمالية، أصر ألا يستفسر عن
مخارج الأزقة، والحوارى المؤدية، وصل إلى الدراسة، عبر إلى
طريق صلاح سالم السريع، معسكرات الأمن المركزى، تكتلات
الجيش، جاءها يوما ، يذكر فراغات ما بين المباني، ساحات
الوقوف، المكاتب فى الغرف الخشبية، الحرص على المظهر
النظيف، يهدأ عنفوان المدينة ويخف اضطرامها هنا، يهن
صخبها حتى يتلاشى عند المقابر.

اليست مقابر الشهداء قريبة؟

إلى الأمام مباشرة، ثم الانتشاء، يمينا، عندما جاءها من قبل كان راكبا، لم يدقق ملامح الطريق، كان راحلا بفكره إلى أحد ضباطه، شيعه حتى الرقاد الأخير، سحب الجثمان من لسان بورتوفيق إلى المستشفى، إلى المثوى النهائى، نزل إحدى هذه الحفر.. وسده بيديه، خلع حذاءه، سجاه، رغم تعايشه مع الموت فإن تائرا طالاه، وغما، قرأ فاتحة الكتاب، وسورة يس، مكث غير بعيد عن الشواهد الرخامية، يحمل كل منها اسما ورتبة وتاريخين، الأول للبداية، والثانى للنهاية.

أوصى الخفير بشراء قفل فخارية، سبع، لصفها فى الطريق، وإضافة عطر الزهر إلى الماء، رجاه مداومة العناية، والاتصال به كلما تطلب الأمر نفقة، أى قرش سينفقه، سيلقى مقابله قرشين.

عندما خطا خارجا لقي رائحة بعثت عنده حضور الصحراء الممتدة، الموحشة ، كأن ما يحيطه رمال بلا حد، مع أن الأرض من حجارة والعتبات رخامية، بدا المكان خاليا، يفيض بالصمت الأبدى، تذكر قولاً بعيداً لم يدر من قائله، لا يذكر متى سمعه، أو قرأه: «جيران لكن لا يتزاورون».

سعى إلى القلعة، الجدران شيدت لتحجب، لتمنع، مصممة، مشرفة، مهيمنة، كأنه خرج من زمنه المعهود، من وقته، أدرك أنه

مفتقد لمعارفه، ناء عمّن أحب، عندما صحب ابنه فى صغره
عامله كصاحب، يردد قول والده إذا كبر ابنك خاويه، وما هو
فى الكبر ذاته، غير أن ولده بعيد، بعيد. عندما اجتاز بوابة
المتحف الحربى لم ينتبه إليه جنديا الحراسة، انتبه إلى أنه رفع
يده بحكم العادة القديمة التى لم تعد من حقه، عندما كان يرد
التحية العسكرية.

أبرز بطاقة المحارب المتقاعد فقام الباشجاويش محبياً،
ليست تحية مشدودة، محددة، إنما تأدباً منه ومراعاة، ابتسم
له، قال إن العميد زهدى أنتقل من المتحف ولا يعرف إلى أين؟
أدركته خمدة، لأنه لن يلتقى بصاحب خدم معه، ولأن
معلوماته بدأت تبلى، أصبح خارج البنية، بعيداً عن النظام!
اعتاد إذا لقي نفسه قريباً أن يعرج على المقابر، يستوثق
سلامة الأوانى الفخارية، وامتلاها بالماء المعطر، يتوعد إلى
الحارس مقدد الوجه، تسأله امرأته بعد عودته..

- أين كنت؟

كيف أمضيت الوقت؟

يقول إنه كان بصحبة بعض رجال الأعمال، إنه يدرس
مشروعاً تجارياً، ربما شارك فيه!

تصمت، دائماً يحدثها عن مشاريع يدرسها، لا يفصح عن
كنهاها، يبتسم داخله، ربما تظن أن مسا أدركه، أنه مال فى

هذه السن إلى امرأة أخرى، ألا يحدث ذلك ممن تقدم بهم العمر، أو تضحضت بهم الصحة، فما البال وعنفوانه مازال مكتملا.

عندما سأله زوج ابنته عما يشغله، قال، إنه يدرس مشروعا كبيرا عرضه عليه صاحب له، استفسر زوج الابنة، قال إنه يمت إلى السياحة، ثم عرج بالحديث مستفسرا عن بعض الضباط الكبار الذين يعمل معهم زوج ابنته.

كم دام تجواله في المدينة لا يمكنه التحديد، غير أن الشوارع بعد حين باتت مستعصية عليه، فما طرقه مرة ومرتين لا يجد دافعا أو حماسا للسعى إليه مرة أخرى، باستثناء أماكن محدودة يهفو إليها، ويشرع في المضى، فتعوقه صعوبة الانتقال من زحام وزهق.

إن خلا يسعى إلى كونه؟

يأرق ليلا، يقضى أوقاتا في الفراش متقد الذهن، راحلا ما بين أيام الحرب وحيث يعيش ابنه، يصحو مبكرا مهما طال سهره، إلا أن تغيرا سرى، لم يعد ينصرف، في مواعده القديم، لم يكن بعد تقاعده يطيق البقاء في البيت، عند اقتراب الساعة التي كان يخرج فيها، يمضى إلى الجراج، يبدو قلقا، متعجلا إخراج السيارة، ينطلق بنفس السرعة، لكن. إلى لاشيء، عند خروجه من منطقة البيت يدركه فراغ، إلى أى جهة، ماذا يفعل؟ جاب الطرقات الرئيسية، أوغل في الجانبية، شهد المتاحف التي كان، ينبغي له زيارتها منذ زمن، أوى إلى مقاه لايعرف فيها أحدا، ولا ينتظر مجىء أحد.

وماذا بعد؟

إن ثقلاً بدأ يحط داخله، رصد اقترابه عندما بدأ يتأخر قليلاً عن الخروج فى موعده الصباحى، مع توالى الأيام تمدد الوقت، حتى جاء نهار شرع فى الذهاب إلى الحسين، أحب متابعة حركة الميدان، عاودته الرغبة فى الذهاب، إلا أنه تكاسل، تقاعس، أمضى اليوم فى البيت، حاول الابتعاد عن حركة امرأته، التوارى بعيداً حتى لا يعطلها أو يضايقها، ذات صبح عرض عليها المساعدة، غير أنها ضحكت.. لم تعتد هذا منه، إذ يمضى لإعداد كوب شاي تلحق به، تطلب منه أن يستريح، لم يكن له موضع فى حركة البيت اليومية، انسحب إلى الشرفة الداخلية، فسيحة، فراغاتها محاطة بزجاج ملون، يمكنه رؤية ما بخارجها ويستعصي على الناظر إليه مشاهدته، يشب متابعاً حركة الطريق، ما يستجد فى الشرفات، من ظهور امرأة تنتشر الفسيل، أو شاب يرتدى قميصاً، يتلفت متطلعاً إلى لاشئ، أو رجل يظهر فجأة، ينظر بجدية ثم ينتنى داخلًا، يصغى إلى المذياع الصغير القوى، هدية ابنته إليه، يدير المؤشر، لا يستقر عند محطة بعينها، إلا إذا أصغى إلى نشرة أخبار باللغة العربية، أو الانجليزية، يتوالى الصغير الغامض، الإشارات المنقطعة، والموسيقى الشاحبة لبعده المسافات، تعاوده اللحظات المنقضية، طوابير التدريب، الليالى الباردة، الترقب، الفرح بالأجازات، قلق البعاد، يسنعيد مقدمات هجوم تم أو اقتحاماً شارك فيه، أو تريضاً جويًا، يسأل نفسه، هنا يعلو صوته، ينتقل من داخله إلى خارجه.

- «أحقا جرى ذلك؟؟».

يعجب مع أنه يلوم نفسه، لماذا؟ لماذا الدهشة؟ لماذا الروع؟
الم ير تبدل النصب، البناء المشيد على بقايا البناء القديم، تبدل
الامر يوما، ما يظنه اللب الإنسانى خالدا مخلدا سيبهت يوما
ثم يتلاشى، ما نزلته مقيما سيرجل يوما، وما نعتقد فى بقاءه
سيفنى، حتى البطولات، والأمجاد والرسائل المنزلية، لو قرأ
ذلك منذ أعوام لما اقتنع ولما صدق، لو أنه أصغى إليها من
حميم لولى مبتعدا وشكك.

ما أوعر أن يعيش ذلك!

لكم تبدلت المعانى، واختلف مضمون القضايا، وتبادلت
الجهات مواقعها، غير أنه لم يهن بعد، صحيح أن وحدة قاسية
تطويه، قذف به فى زمن مفترض، مباحث، يمت إلى آخرين ولا
يدركه، فما أوعر الغربية تبدو الصحف وكأنها تصدر فى بلد
هاجر إليه، بعض ما يقرأه كان يثير عجبه واستنكاره بداية،
لكن تكرارها أورثه تعباً وضنى، أحيانا تستفزه سطور ما
فيشرع فى صياغة رد، أو توضيح، أو تعليق، غير أنه لا يقدم،
لا يكمل، ماذا بقى؟ حتى ما بدأ يوما فى منزلة الرفعة
والتقديس لم يعد بمنأى عن المس، العقيد المتقاعد لم يتصل به
ولا يسعى إليه، فى آخر اتصال بدأ مرتبكا، محرجا، قال إنه
يتعرض لضغوط شتى، ثم غاب عنه، لم يود إحراجه.

أصعب الأوقات فى البيت، صمت ما بعد الغداء، اقتراب
العصر ثم حلوله المتند الأصفر، فيه توغل امرأته إلى أبعد نقطة

داخل ذاتها، تبدو مستسلمة لثقل غامض غير مرئى، إرهاق الزمن المنقضى.. ربما، ينوء بساعات العصر، حتى إذا دنا الاصيل تشتد وطأة الظلال داخل البيت، اقتراب المغيب يستنفره، يستنفر المحارب الذى كان، فى أيام القتال يسمون هذه اللحظات، آخر ضوء ، يكتمل التأهب فى كافة المواقع، يتم دفع الكمانن إلى المواضع المحددة، المحتمل تقرب العدو منها، يشدد الرصد، يقوى التأهب..

يرتدى ملاپسه، فى بدء الفترة اقترح على امراته المضى إلى النادي، أثرت البقاء، قالت إنها سترى تمثيلية السابعة فى التليفزيون، قالت:

- اخرج لتفرج عن نفسك.

يعرف أنها ستتصل بالبنت، ستطمئن على حفيدها، هل تناول الرضعة؟ هل كانت شهيته جيدة اليوم؟ يخرج إلى الطريق وعليه كمدة، لو أدركه المرض يوما سيرغم على الرقاد والاستسلام للحظات آخر ضوء، يتمنى ألا يقابلها، ألا تلحق به مضطجعا أبدا، ألا تجيء النهاية متمهلة، معذبة، يتمنى أن يقضى فجأة، بغتة، از يخطف خطفا، الا يقعه العجز أبدا.

إذ يرى حمرة الشفق. يهفو إلى ولده، فى أى أرض يسعى الآن؟ على أى المرئيات تقرب عيناه؟

فى تلك الأيام عرف الطريق إلى المقهى، بعد أفول آخر ضوء يستقر مشرفا على الميدان، مقهى أفرنجى يخلو من

الترجيلات، يحيطه سور منخفض، صفت عليه أصص ورود،
 فى الصالة الداخلية المغطاة مطعم، زبائنه من أبناء المنطقة،
 يوما بعد يوم لاحظ أن الوجوه لا تتغير، بل إن البعض يجىء
 فى توقيت يوم - - - - -
 فى أحدهم عجوز
 من الليالى
 ذارات،
 يعيش بمعز.

سيجىء مثله، مضموما، ضامر الحضور، يتناول العشاء هنا
 مثله، لا يقرب الأطباق بعد أن توضع أمامه، يبدو وكأنه غير
 منتبه، ثم يمد يده بينما يولى النظر بعيدا، يزحزح الطبق
 الرئيسى قليلا، يرفع المعلقة متمهلا، فى اتجاه مصدر الضوء،
 يمسحها بمنديل ورقى، على مهل يبدأ المضغ، إن شفثيه
 تمتدان إلى الامام، متلاصقتان، تتحركان بسرعة، وعند البلع
 يتراجع بعنقه إلى الخلف، كأنه شيئا يؤلم حلقه، يتوقف، يعود
 مرة أخرى، بين لحظة وأخرى يرفع الفوطة البيضاء ماسحا
 شفثيه، من حركتهما أدرك أنه ذو طاقم أسنان صناعى، يجىء
 مرتين، الأولى للغداء والثانية للعشاء، لم يفكر من قبل فى
 ملاحظة الأكلين الشاربيين على مقربة منه.

فى الجبهة بذل جهدا قصيا حتى يلم بمواعيد تناول
 الوجبات فى مواقع العدو، أولى ذلك اهتماما، بل رصد ورأقب
 الوقت الذى يستغرقه التناول، لكم استطلع، وجمع الدقائق
 العسرة، لكم رصد وحلل، واستنتج، ومزق ما جمع، لكم

أصغى إلى حوارات متبادلة بين ضباط المواقع، لكم أجهد نفسه، لكنه لم يرقب عامدا من هم على مقرية، لم يخدم حياتهم بفضوله، منذ سنوات قبض على عميل خطير كان يسكن مباشرة فوق شقة واحد من زملائه، ضابط ممن خدموا طويلا فى المخبرات..

قال له أحدهم مداعبا:

- كيف لم ينتبه كيف لم يلحظ ؟

أجابته قائلا إنه لم ينس ما تعلمه فى بداية الخدمة، ألا يرصد جارا أو صاحبا، ينتنى ليلوم نفسه.

لماذا يتابع رجلا عجوزا يأكل طعامه وحيدا، أليس فى الأمر قسوة؟ لكنه لا يريد به شرا، إن أمرا خفيا لا يمكنه تعيينه أو تحديده يواصل الدنومنه، يوشك أن يطبق عليه، وما تعلقه بالآخرين إلا محاولة للنفاذ، لتوسيع الرقعة المتاحة، حتى وأن اقتصرت الصلة على النظر من ناحية مع انتفاء المجاوبة أو توقعها.

مع بداية إحدى الأمسيات جاء شاب، طويل، عريض الكتفين، ينحنى إلى الأمام، عندما جىء إليه بطبق الخضار، وطبق الأرز، اتسعت حدقتاه، يصب المرق فوق الأرز، يرفع المعلقة إلى فمه، يمضغ بسرعة بينما تتحرك رأسه، بين الحين والحين يدفع بلسانه إلى ركن فمه فيبدو بروز مقبب، يتحفز..

حاد ببصره عنه، يبدو منفرا، يعاود النظر خلسة، يرفع شفقيه العليا، تلامس أنفه، يضيق، يود لو قام، لو ضربه، لو وجه لكمة إليه، وعندما رآه يرفع الطبق ليصب آخر قطرة مرق فوق حبات الأرز، أشفق فجأة عليه، يبدو جائعا، إنه عابر، تُرى.. إلى أين يقصد؟ ما وجهته؟ لام نفسه بسبب تلك الكراهية غير المبررة، لماذا وهو لا يعرف حتى اسمه؟

لسبب ما استعاد ملامح ابنه صغيرا، كان لا يأكل إلا واقفا بينما تضج أمه، تشكو شحوب شهيته، تخشى الضمور، ألا يشب، ألا ينمو، تطالب الطبيب بدواء، الآن.. كبير الولد وراح يسعى فى العالم بعيدا، غريبا، يراه طفلا يصبو، أو صبيبا يلهو، صور بعيدة ظن اندثارها، تلوح وتبرز من بين ثنايا الذاكرة المثقلة، يعجب.. يستعيد لحظة نائية جدا، صحب ابنه إلى الإسكندرية، كان الولد فى الخامسة أو السادسة.. ربما، لا يذكر على وجه الدقة، بل إن سبب ذهابهما إلى الإسكندرية غاب عنه تماما، أندثر، غير أنه يرى مشيهما فوق الرصيف المؤدى إلى أحد الشوارع الجانبية، كان يمسك بيد ابنه، يسبقه قليلا، لم ينتبه إلى العمود المعدنى الذى ينتهى بمصباح الإضاءة، يبدو أن الولد كان ينظر خلفه، كانت الصدمة شديدة حتى أنه صرخ جزعا، أنحنى عليه، بدا الألم عميقا، غائرا، خلال اللحظات الأولى، أو شك البكاء أن ينفجر، لكنه فوجئ بولده يكظم ألمه، لم يشأ إزعاجه، لم يرغب فى تكديره، لم يرم تعكير صفوه، أو التنكيد عليه فى الرحلة التى بدا خلالها

سعيدا جدا لقربه هذه المدة من والده، لانفراده به، كان ذلك قبل أن تأخذه الدنيا، الغريب أنه على امتداد سنوات تالية، فى مصر، فى اليمن، فى بعض المهام التى خرج لتنفيذها، استعاد اللحظة، وفى كل مرة كان يبذل الجهد لينجو منها، ليوارىها أعماق ذاكرته، كان تردد الألم داخله، استرجاعه، أقسى من وقوعه لحظتها على ابنه، ماظن أندثاره يلوح ناصعا، كلما بعد العهد نصعت التفاصيل.

أنس بخلوته، بوحدته فى هذا المقهى، ولأنه يتردد فى أوقات معلومة لذا صارت ملامحه معروفة لرواده، يحيونه، يومنون، يرد التحية بأحسن منها، إلا أنه يتحاشى دنو أحدهم من حواف عالمه، كأنه يكتشف الاستغراق والخلوة إلى الذات، لم يهدأ، لم يستكن طوال عمره، ولت مراحل محورها القتال، دراسته، الإعداد له، نقل الخبرات القديمة، التأهب له، خوضه، دفع الكيان الإنسانى إلى حافة الوجود وبدائيات العدم، الجراءة، الرجولة، التقارب الإنسانى الحميم، تشظى الصمت، وتبدى الكينونات، فى أيام المقهى الأولى ضايقه تمهل الوقت، لم يشغله إلا متابعة حركة الطريق، ومتابعة رواد المقهى خفية، غير أن ضيقه خف بعد اعتياده تدخين النرجيلة، حضورها الصامت يؤنسه، ينفث الدخان متمهلا، أحيانا يتأمل المياه داخل الوعاء الزجاجى وفقفقاته عند سحبه الأنفاس، وتوهج الجمرات فوق التمباك، ربما ثمة حضور لا يدرك بالحس الإنسانى لهذه الأشياء، من يدرى... ربما تحتوى وعيا غامضا

يمكنها التخاطب فيما بينها، أن تسمع وترى، بدأت أوقاته تطول فى المقهى، اذ يلتقى فى الطريق بأحد معارفه، يسأله عن أحواله، يقول إنه مشغول بدراسة مشروع استثمارى، وعندما تستفسر امراته عما يشغله، يقول إنه يدرس مشروعاً جديداً، تصدير واستيراد !

أحياناً يشرع عند الصباح الباكر فى كتابة خطاب طويل إلى ولده المغترب يخبره عن أشياء شتى، يذكره بأمور ولدت، وفى النهاية يؤكد لولده أنه يعفيه من الرد، يعرف أنه مشغول، لا يريد تعطيله، إنما هو شعور قوى لمخاطبته، ومع ذلك فإذا سمح وقته فليرسل إليه بطاقة مصورة، مجرد أثر منه وطيف من رائحته.

أحياناً كان يلتقى مثل هذه البطاقة، بدون مظروف، سطورها مباحة، لا خصوصية لها، إنه دائم التنقل والترحال، وإذا أرسل خطاباً يبدأه بقوله، أسف لأننى أكتب بسرعة فبعد قليل سأسافر إلى.. أثناء توحده بوقته يردد، ما أسرع انقضاء المدة!

يأسو، يتفرق حتى ليدينو من ضفاف البكاء، فى البداية كان يخشى أن يلحظه أحد، بعد فترة لم يعد يعبأ، إذ يستعيد حواراً ضامراً موجزاً، جرى بينه وبين أحد المقاتلين فى لحظة حرجة، ربما يتوقف عند عبارة قيلت عرضاً، ولم تلفت انتباهه وقت نطقها، يرددها بصوت مسموع، يقشع إذ يستعيد لحظة نائية، كان يكتب، اقتربت منه ابنته، إنها أم الآن، وقتئذ كانت

فى السابعة، اقتربت منه أثناء كتابته خطاب، لا يذكر لمن؟، عندما التفت أوشك سن القلم أن يلامس عينها اليسرى، بعد هذه السنوات الطوال يجزع، يغمض عينيه هرباً من المخيلة والاحتمالات القديمة، ماذا لو.. تماماً كما يجرى داخله عند استعادته لحظة اصطدام الولد بالعمود، لم يبيل إليه، لم يخف روعه، مع أن عمراً بأكمله ذهب، لكنه دائماً يحاول الهروب من وعورة المخيلة، لكم رق لهذا الضابط الذى لقيه مصادفة أثناء مشيه بعد الغروب متجهاً إلى المقهى، صافحه، وعندما استفسر عن أخباره بكى، فقد ابنه الوحيد، لم ينبج غيره، انزلقت قدمه، اصطدمت بحافة الحمام، لم ينطق، أخبره الرجل عن ذكاء ولده، وتفوقه فى المدرسة، وهذا النور الساطع المفاجئ الذى بدد عتمة القبر عند نزولهم لتمديد جثمان الصغير، القبر كله أشرقت فيه شمس خفية، صاح الحانوتى، الله أكبر، لا يحدث هذا إلا مع من اختارهم الخالق عز وجل أحباء له، فليهدأ، فليطمئن باله، لكن الفراق مر، كيف ينسى..

كيف؟

لم يدرك أى كلمات ينطق ليهون، ليهدىء،!، يردد بينه وبين نفسه، لو جرى لى ما جرى له لجننت.

زاره الأب المكلوم مرتين، إذ يخبر عن ولده وما كان منه يتدفق محدثاً، ثم يصمت فجأة، عندئذ يؤثر ألا يزعجه، ألا يخض سكينته، انقطع أكثر من شهرين، ثم جاءه ذات عشية،

بدا مقلًا في حديثه، نحيلًا، حزنه مقيم، ظن أن الزمن عمل عمله، إلا يلد كل شيء صغيرًا ثم يكبر؟ عدا الحزن، فإنه يولد كبيرًا ثم يتضائل، إلا أن حال صاحبه مغاير، ألمه مستقر ما بين الجلد والعصب، ما بين العظم والحسء دامى العينين، قام بعد صمت، راح، طالعت غيبته، انقطع عنه، أدار قرص الهاتف مرات، ولم يأتته إلا الرنين الأصم..

أن حزننا ثقيلًا يهيم عليه، الأسباب مغايرة لكنها جمّة، إن وهنا يتسلل إلى خباياه، إنه يعى ما يجرى، يحاول صدّه، دفعه، يعرف أن أشد المخاطر وأوعرها ما يبدأ من الداخل، يحذر أن يجرى له ما لقيه هذا الضابط الذى مشى فى جنازته منذ يومين، رحمه الله، كان من أكفأ ضباط المدفعية، فوجى، بوغت بخروجه من الخدمة، خلا الرجل نفسه، كتم، لم يحتمل، فكان ما بين تقاعده ورحيله الأبدى عشرة أيام لا غير، فكان مهمته لم تنته فى الجيش فقط، ولكن فى الحياة الدنيا، يخشى الانقطاع، مع بدء تقاعده قال إن حياة جديدة تبدأ، استنفر ما عنده، حاول الاندفاع بنفس الطاقة، إلا أنه كان كقطار شح مؤنه، ويحاول قائدّه دفعه إلى مرحلة غير مقدرة، غير أن السرعة تقل شيئًا فشيئًا لنفاد الزاد، وفساد التكوين.

قابل عديدين ممن زاملوه، وخدموا معه هنا أو هناك، من سبقوه إلى التقاعد، أو ممن لحقوا به، منهم من بدأ عملاً مغايرًا ونجح بمقاييس الفترة، ومنهم من يحاول التعلق بعمل

ما، فالأحوال رديئة، ومنهم من ترك تراثه وهاجر إلى بلد آخر، وحضور مغاير، أما هو.. فمن قلة لم تتكيف، ليس عن عجز، فالقدرة عنده، وتوقد الذهن موفور، وحدة البصيرة مكتملة، غير أنه يصعب عليه الشطط عما هو عليه، أن يبدد تراثه، أيمضى ليعمل عند مقتبل هذا أو غيره؟، إنه ابن اللجة التي خبرها، وعرف أنواعها، ومقصد رياحها، وجاهد فيها طويلا، حتى لو أخرج منها، وأقصى عنها، لكم رثى لصاحبه الذي جاءه موزعا ممزقا، بين ما يجب أن يكونه، وبين ما هو عليه فعلا، أحيانا يشعر براحة، يعتبر أن زواجه فضلا ومنة، أنجب مبكرا، كبر الأبناء، مضى كل إلى حياته، تحدثه امراته عن مشاكل تعترض إحدى بناتها، لا يصغى، لا يستقصى، يطلب منها أن تدعها تدبر أمرها، فبعد انقضاء الفترة لن يوجد هو أو هي، غير أن اغتراب ولده نال منه وتمكن، أحيانا يقتحمه خاطر معذب، لن يره مرة أخرى، حتى لو لقيه لو جمعهما الوقت مرة أخرى، فالابن الذي سيراه غير الذي رياه، وعرفة، أى أمور فقد؟ وأى خصال اكتسب؟ ربما بدلته الغربة تبديلا إن ساعات طوالا تمضى عليه فى المقهى، اكتسب عادة، هو الذى عاش دائما فى الأوضاع الاستثنائية بعيدا عن العادات اليومية، كان واقعه يتغير فى ديمومة لا تكف أبدا، إنه يعرف أمورا عديدة عن روادها الدائمين، بعضهم يسعى إليه، لم يعد يتجنبهم، غير أنه يصغى فى معظم الأحيان، كثيرا ما يشرد، فما يستعيده الآن أكثر مما يعيشه.

إنه يقرأ صفحات الوفيات بتدقيق، اعتاد إرسال برقيات العزاء أو يمضى لتشجيع هذا الراحل أو ذاك، فى السراقات يلتقى ببعض ممن زاملوه، أو يرى وزراء قدامى، أو عضوا من مجلس قيادة الثورة القديم، أما ذروة انفراده فعند زهاب امرأته لزيارة إحدى البنات نهارا، كان يجول فى البيت، يعيد ترتيب بعض الأشياء، يتطلع من الشرفة، يرقب حركة الظل فوق واجهات البيوت.

يقترب من باب الشقة، يتطلع عبر العين السحرية الضيقة إلى السلم، يمضى وقت قبل أن يرى شخصا فى طريقة إلى الصعود، أو النزول، أو خارجا من المصعد، كان خلو الممر والباب المواجه الموصد يثير عنده صورةا شتى لأراض نائية مبسوطة، بلا حد، لكنها مدثرة بالظلال.

فى تلك الظهيرة رأى من خلال العين الزجاجية طفلة صغيرة، واقفة على الدرج، تشب على أطراف أصابعها، تضغط الجرس، تمضى لحظات، يفتح الباب، يرى ثلاث بنات، يعرف أكبرهن، ربما فى الثالثة عشرة، يصل إليه صوت الطفلة الصغيرة..

- ممكن أعب معكم؟

يخرجن إليها، الكبيرة تطلب منهن الوقوف فى الممر، شقيقاتها فى جهة، والصغيرة فى مواجهتهن، تقول إنها ستبدأ الدوران، عليهن البدء معها، من تسقط ستخرج من اللعبة،

الطفلة الصغيرة تقفز فرحاً، بيدان، يدرن في اتجاه واحد،
الكبيرة تفرد ذراعيها، أصغرها تلامس خصرها بأطراف
أصابعها، يفاجا بالطفولة الكامنة في أكبرهن، يلتقى بها في
المصعد، صامته خجلي، لكنه يراها الآن أغزر طفولة ممن
يصغرها، يستمر دوارهن، لا يتوقفن، الكبرى تترنج، ولكنها
تواصل، الوسطى تسقط.

- اخرجى..

تكرر الكبيرة:

- احذرن الوقوف، من ستقف، ستقع..

تردد الشقيقة الوسطى:

- لو وقفت سأقع..

ابنة الجيران أصغرها عمراً مستمرة، دورانها هادئ

تتسامل:

- فستاني بيطير؟

لا إجابة، الكبيرة تشير إلى شقيقتها

- أنت انتكأت على الحائط.. اخرجى..

تنتقل الى الامام، إلى الوراء، ترفع يديها، تغطي عينيها، إذ
تقترب من السلم يود فتح الباب، أن ينبهها إلى ما ينتظرها من
خطورة لو سقطت فوق الدرج، يستعيد الحزن المقيم في عيني
ضابط سلاح الجو، أين راح؟ إلى أين سعى؟ لا يدري..

أكبرهن تميل مستندة إلى الجدار، تنزل ببطء لتتقعد بجوار
شقيقتها الوسطى، تغيب عن مدى رؤيته عن الفتحة المستديرة
الضيقة في حجم القرش، لم تبق إلا ابنة الجيران، أصغرهن،
لم تتوقف، لم يبد التعب عليها، بل إنها تزيد سرعة دورانها
أحيانا ثم تتمهل حتى يخيل إليه أنها ستكف، يود لو صفق لها،
غير أنه لا يأتي أى حركة حتى لا يشعروا..

وهذا نبأ الطوبجى

.. منذ تخرجه فى الكلية الحربية، عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين، لم يفارق سلاح المدفعية، إنه ابن ناس طيبين، لم يكن أبوه ميسورا إلى حد الثراء، ولا معسرا إلى حد الإملاق، كان مستورا، مقتصدا.

ورث عن والده العديد من الصفات، أهمها الرضا بالمقدور، والحرص على البعد عن أولاد الحرام، والاحتفاظ بمسافة بينه وبين الآخرين، لا تدنيه منهم إلى درجة التبسط المخل، ولا تقصيه عن الخلق حتى الوحشة والانقطاع.

إذا ذكره من عرفه، أو استعاد ملامحه من خدم معه، أو جاوره، فلا يعى منه إلا وجهها بشوشا، لا تغيب عنه ظلال

ابتسامه أبدا حتى عند الظروف الصعبة، أمضى سنوات عمره في مراكز التدريب، يضع الخطط، ويشرف على تنفيذها، يشهد المناورات العسكرية الموسمية، ينضم أحيانا إلى لجنة الحكيم.

كان مسموع الكلمة، لرأيه احترام وموقع حسن، مضت سنواته على سداد وأمر جميل، وعندما أتم السادسة والعشرين، تكلم والداه معه في أمر زواجه، حان الوقت ليتم نصف دينه، لاقى مقترحه قبولا عنده، لم تمض أسابيع إلا كان يمضى بصحبة والديه لخطبة ابنة موظف قديم عمل زمنا مفتشا للرى، صاحب الوالد، ذو استقامة وسيرة حسنة.

في الأسبوع الأول سألته عما إذا كان يجب عليها البقاء في البيت أو الاستمرار في الوظيفة، قال لها إن الأمر متروك لها، علقت منه في الأسبوع الأول، بعد تمام مدة حملها أنجبت طفلة جميلة فرح بها أبوها فرحا جما، وفي الأعوام التالية أنجبت ابنتين أخريين، قالت إنها ودت دائما أن تأتي له بولد، ابتسم ملوحا بيده: يا شيخة.. البنات أحسن على الأب.

بعد إنجاب الابنة الثالثة، نصح الطبيب المداوى بالكف ، صحة الأم لن تحتمل، فتدبرا أمرهما، واحتاطا.

حياتهم لم يشبها كدر، لم يعكر صفوها طارئ سوء. انما مضت في هدوء، يمضى أجازته وأوقات فراغه بصحبة البنات، يقلب كراساتهن، ويسترجع دروسهن، إذا رجع مبكرا يمضى

منتظرا أصغرهن بعد انتهاء يومها الدراسي، لم يقبل بديلا أيام العطلات يبعده عن امرأته وأطفاله، عقب كل صلاة كان يرفع يديه بالدعاء، متمتما بشفتيه، ثم حدث بعد هزيمة يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، أن اقتضى عمله التردد مرات على جبهة القتال، كان له الرأي المسموع فيما يختص بتوزيع بطاريات المدفعية، فى هذه الأيام لاحظ إرهاق امرأته البادى، كان عملها فى المنطقة التعليمية يقتضى منها الاستيقاظ مبكرا حتى تعد البنات لمدارسهن، وتتأكد من تناول الإفطار، ثم تهرول لتلحق بكشف التوقيع قبل رفعه، فى هذه السنة اقترح عليها أن تتقدم بأجازة طويلة بدون مرتب، أن تريح نفسها من هذا الجهد المضاعف، قالت بعد تردد إن صحتها لا تسندها الآن، لكن الأحوال تزداد صعوبة، البنات فى حاجة إلى مصاريف، الشوط ما زال أمامهن بعيدا، والعين يجب ألا تتوه عن المستقبل.

قال لها يا ستى مستورة والحمد لله، المهم أنت!

بالفعل سوت أحوالها، تقاعدت، كانت أحيانا تشكو بعض الأوجاع، لكنها تكتم خشية إزعاجه، خاصة أن ما يبذله تضاعف، وبان عليه التعب، كان لا يخبرها بسفره إلى الجبهة إلا لحظة خروجه وأحيانا لا يفصح.

يقول إنه ماض إلى مهمة، سيغيب أياما، لم يكن يرتدى فى تلك الأيام إلا السترة الكاكي، لا يفرغ من مأمورية إلا ليبدأ

أخرى، يمضى إلى أقصى النقاط المتقدمة، يدنو من مياه القناة، يقف في مرصد الاستطلاع، هادئا، ثابتا، مستغرقا، لطيف الملامح، يحذره بعض الجند، قد تطاله نيران القناصة، إلا أنه يهز رأسه، لا يفارق وجهه التعبير الهادئ، حتى عند بدء القصف، أو الغارات الجوية، لا تتبدل أساريره أبدا.

يردد دائما لصحبة، لزملائه، لامراته أحيانا، أنه لا يتمنى إلا حضور الحرب الفاصلة، أخشى ما يخشاه أن تقع هذه الحرب بعد خروجه من الخدمة، لسنوات ست لم يكف عن الحركة، عن بذل المجهود.

أمضى أياما صعبة في الشتاء، وشديدة القَيْظ صيفا في مناطق نائية من الصحراء الغربية، والجبال الشرقية، بقاع لم تدون على الخرائط، لم تطأها أقدام بشر من قبل، حتى عتاة الأدلة.

شهد المناورات الكبرى، والمحدودة، والتدريبات، اختبر زوايا الإطلاق، وعاین موضوع انفجارات الدانات، سود أوراقا لا حصر لها، قاس المسافات، أسهم في تصميم خطط، بعضها رئيسى، والآخر ثانوى، رأسهم في تهيئة مسرح العمليات لتشكيلات شتى، شارك في بحوث ومناقشات لاختيار أنواع القصف المناسب لتدمير المواقع المواجهة، لطالما غالب إعياه، وجاهد حتى لا يلوح تعب، أو تبدو عليه علامات ضيق بمحدثه، كان خفيض الصوت دائما، ميالا إلى الصمت، شحيح الكلمات،

لكنه إذا تبنى وجهة نظر، أو دافع عن رأيه، فإنه يتدفق، إلا أنه يلزم ذات الوتيرة، كثيرا ما توقف بعد انتهاء اجتماع أو مناقشة، أو مناظرة، وبدأ شاردا النظرة بعيدها، كان يفكر في هذه المعركة التي طال الإعداد لها، لا يكف، لكنه يخشى أن تبدأ بعد خروجه.

إلا أن مخاوفه لم تتحقق، في ظهر السبت، سادس أكتوبر، ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، طابت نفسه، وانتابته مشاعر شتى، كان موقعه قريبا من غرفة العمليات الرئيسية، إلا أنه سعى إلى الخروج في مهمة عبر خلالها قناة السويس، أمضى ليلة في مقر القيادة الميداني للفرقة الثانية، وعندما قفل راجعا أخفى عن صاحبه مدى تأثيره، كان يردد دائما أن أقصى ما يتمناه المحارب خوض المعركة قبل غروب العمر، وقد شهد ما سعى من أجله دائما، ما أعد له دوما، ما بذل له الشباب والخدمة.

في الأيام التالية لوقف إطلاق النار، كان مسئوليا بشكل ما عن بعض الجوانب المتعلقة بالقوات المحاصرة في الشرق، ورغم دقة الموقف، وجرح الحالة، لم يفارقه ثباته، حتى وإن أبدى ملاحظة أثناء اجتماع أو مناقشة من الممكن تلمس قلق منها، فإنه يتبعها بإسامة اعتادها من عمل معهم، إلا أن خدمته لم تدم طويلا بعد انتهاء الحرب، وتوقيع الاتفاقيات، كان داخله يقين خفي، غير مستند إلى معلومات دقيقة، أو

جمال الفيثاني ج ٥ - ١٩٣

استقرارات، أو تحليلات، أن ما كان لن يكون، وأن ما سيكون ليس ما كان، إن رياحا جديدة تهب، وإن تغييرا سيقع، التيار شديد، يحيد بعيدا، بعد سنة من انتهاء الحرب، وعندما حان موعد ترقيته، رقى فعلا إلى رتبة لواء، لكن سحب ذلك حالته إلى التقاعد، مثل هذا يجيء مفاجئا، مباغتًا، وإن كان متوقعا في نفس الوقت.

بدا هادئا لحظة تلقيه النبأ العظيم، ولكن داخله تصدع، وبقى فؤاده غير مطاوع، رجع إلى البيت، البنات ينتظرنه، لا يتناولن طعامهن إلا إذا جاء، أما إذا طرأ أمر مفاجئ يضطره إلى الغيبة، فإنه يتصل بهن، يخبرهن، بعد الغداء انتقل إلى غرفة الجلوس، هذا ما جرت به العادة، كبرى البنات أصرت على إعداد الشاي، أصغى إليهن، إلى امرأته، مبتسما، ملامحه هادئة، لكن فيما بعد قالت امرأته إنه كان يتطلع إليهن، كأنه في الجانب الآخر، تطلع طويلا إلى البنات، ثلاثتهن يقعدن فوق الأريكة، في مواجهته، متضامات، متقاربات، هل كان يحاول النفاذ عبر الحجب؟ ربما، قرأت امرأته في أوراقه تساؤلا قلقا، أين ستكون كل منهن بعد عشر، بعد عشرين سنة؟ الأعوام القادمة تبدو كطريق لا تلوح معاله للساري، أهذا ما جال بخاطره في تلك اللحظات؟ ما من إجابة، فلن يحيط أحد بذلك علما.

تابع حوارهن، بهجتهم، حتى هذه اللحظات لم يخبرهن، لم يشأ التكدير عليهن، ربما ظنن سوءا.

قال إنه سينام قليلا، تتقدمه امرأته إلى غرفة النوم، تبدو راضية، خاصة بعد الاوقات التي يلتئم فيها الشمل، إنه يرتب ثيابه، يزيح الملابس المدنية داخل الصوان، يفصل بيده ما بين الملابس العسكرية والمدنية، تطول وقفته، لا يحيد بنظره عن العلامات، يبدأ تساؤل امرأته خافتا كرجع الصدى الذى يزداد وضوحا ..

- مالك.. جرت حاجة؟

حاشية ٢

كلما لقيت صاحبي الذي تجاوز الخمسين، قال لى:

- لا التقي بزملائي القدامى الآن إلا فى الجنازات..

عرفته زمن الحرب، ضابطا بقوات الصاعقة، قادرا، عنده كفاية، وفيض وطنى، علم الكثيرين، خاصة فنون القتال خلف الخطوط، ولسنوات طويلة لم يكف، ولم يهدأ، واشتهرت عنه أمور، فمن ذلك عبوره إلى الشاطئ الشرقى لخليج السويس أول أيام الحرب، ويقاؤه بعد انتهاء مهمته الأصلية، قال لى، إنه اخترع لنفسه مهمة، وقطع طريق الإمدادات القادم من الجنوب باتجاه مواقع الجيش الثالث، حارب سبعة أيام، بالحد الأدنى

من الزاد قبل أن يجرح، ويسحب إلى الغرب.

قابلته في منتصف السبعينيات بعد إحالته إلى التقاعد بشهر واحد، رأيته متحمسا، متفجرا بالتدفق الحي، أخبرني عن مشروعات عديدة ينوي أن يجريها، قال إنه ينوي خوض لجة السوق، لكنني عندما لقيته بعد عام تقريبا، ودعوته إلى مقهى ناحية باب اللوق، أخبرني أن السوق غير سليم، وأن معظم الشركات الجديدة تعمل في التهريب، تهريب كل شيء، لم يبق أمامه إلا مشروع إنشاء ورشة لإصلاح طلمبات الديلز، وراح يفصل لي ما نوى عمله، ثم غاب عني، ولما مر عامان أو أكثر ولم أسمع عنه خبرا، ولم تبلغني منه إشارة، سعيت أستقصى أثره، فعلمت ممن له به صلة أنه جمع سائر أحواله، وفض ما تبقى، وسافر، وأن آخر خطاب وصل منه إلى أهله، ينبئ فيه أنه أصبح مدريا للغطس في أحد النوادي بجنوب فرنسا، فاتنى القول، أنه تدرب فترة في سلاح البحرية على أعمال الضفادع البشرية، فخطر لي عندما سمعت النبأ، أنه ربما كان يدرّب الآن بعضا ممن حاربهم يوما، أو من على صلة بهم، فسبحان مغير الأحوال ومدبر الأمور.

فيما تلى ذلك، مررت بظروف ليس هذا مجال تفصيلها، فالأمر ذاتي، دفين، فآثرت الانقطاع والتوحد، خاصة عمن عرفتهم زمن خوض الحرب، غير أن أحدهم شغلني أياما ليست بالقليلة.

ذلك أننى فوجئت فى نهاية الثلث الأول من الليل بصوت يأتينى عبر الهاتف، بعيد، قصى، قادم من أغوار الأزمة، أستعيده حتى الآن فأرى فيه من يستنجد بغير صراخ، من يسعى إلى المساعدة بدون عويل، قال إنه يطلبنى، لا يريد أكثر من خمس دقائق، إنه يعتذر لتعطيلى، يعرف أن وقتى ثمين.

قلت له إن وقتى متاح، وأننى أقدر على المجيء إليه للتو، لكننا اتفقنا على اللقاء فى اليوم التالى، انتحينا ركنا فى المقهى غير بعيد، صعب على أمره، فلم تقع عينى عليه من قبل إلا وهو فى هيئة الإمارة، والقدرة، وما رأيته منه الوهن، والحيرة... عرفته عند عملى فى الجبهة، وكان برتبة مقدم، له كلمة، ومنه أقدام، وأمره ثابت.

قال لى إن أحدهم غرر به، أضاعه..

- كيف؟

قال إنه دعى إلى حفل استقبال بمناسبة تقاعد ضابط كبير ممن تتلمذ على أيديهم، ليته ما لى، ليته ما ذهب.

- المهم، ماذا حدث؟

قال إنه التقى فى هذا الحفل بأكبر مقاولى البناء، طبعاً هو فى غنى عن التعريف، معروف بثرائه، ونفوذه المالى، والسياسى، تعرف به، وقال إنه سمع عنه، وقرأ فى الصحف ما قام به من أعمال، خاصة خلف خطوط العدو، إنه يدعو

للعمل معه فى إحدى شركاته، إن وظيفة كبيرة تنتظره، وراتبا مغريا، أن الأوان كى يجمع له قرشين، قدم إليه بطاقته، ورقم تليفونه الخاص جدا الذى لا يوجد إلا لدى كبار المسئولين، رجاء ألا يطلع عليه مخلوق، ليته لم يقف معه، ليته لم يقترب منه، بل ليته لم يذهب إلى هذا الحفل المشنوم.

المهم، ماذا جرى؟.

طبعا عاد إلى البيت، يستعيد هيئة الرجل، جديته، بنظرة يفحص ما وصل إليه، حتى هذه الفترة لم يكون حاجة تقى ولديه الشرور غير المتوقعة، ما لديه المرتب لا غير، لا أملاك، لا أراض، لا عائدات من أى مصدر آخر، من حقه أن يسلك وجهة مغايرة، يضمن دخلا معقولا يمكنه من الانخار، لم يشرح له الرجل طبيعة عمله الجديد، لكنه كان واضحا عندما قال له إن الأوان حل لكى يجمع له قرشين، ليته لم يصغ، ليته لم يتبعها.

قال إنه سعى، وسعى، حتى أحيل إلى التقاعد بناء على طلبه، ودع عمرا من الخدمة المتصلة، وإنه عندما مشى فى الطريق بعد أن خلع سترته وفترته كان حائرا، وكأنه افتقد وجهة اعتاد أن يقصدها مع مطلع كل شمس، فلما حيل بينه وبينها، أوشك أن يضل عن أماله الجسم، لولا.. لولا الطاقة الجديدة التى فتحها له الرجل، ولكن المصيبة سرعان ما لاحت.

قال إنه قصد باب الرجل فلقية موصدا، فى البداية لم يصدق، ولكن عندما قابل سكرتير رئيس مجلس إدارة أكبر الشركات التى تحمل اسمه، عندما أصغى إلى ما قاله، اتسعت هوة تحته، قال له الرجل إن المقابلة ضرب من المستحيل، صحيح أن هذه الشركة - وغيرها - تحمل اسمه، لكنه لا يتردد على أى منها، ثمة من ينوب عنه فى إدارتها، إنه على مقربة باستمرار من القيادة السياسية، واللحظة من وقته لها ثمن، عندئذ أبرز رقم الهاتف الخاص، تأملها السكرتير، قال:

- «نمرة صحيحة، لكنها تغيرت، أرقام هواتفه تتغير كل ستة

شهور..»

طلع من مقر الشركة لا يكاد يبصر ما أمامه، لا يدرى كيف عرف أن للرجل بيتا فى الجيزة، وبيتا فى الإسماعيلية، وبيتا فى الإسكندرية، واستراحة فى أسوان، وأخرى فى الواحات، عبثا حاول أن يقنع موظفى المكتب الرئيسى للبرق، لكنهم أبوا، فالرجل من الشخصيات التى لا بد من تصريح خاص لإرسال برقية إليه، وعندما قبل موظف عجوز فى مكتب الموسيقى الفرعى، تمنى لو عانقه، لكن البرقيات شيعت ولم يبد أى صدق، سعى إلى الصحف لينشر إعلانا يطلب فيه مقابلة الرجل، ولكن الصحف جميعها أبت، عند حد معين أدرك استحالة اللقاء، خاصة عندما أكد له السكرتير أنه تم إبلاغ

سيادته باسمه، برغبته فى مقابلته، وكانت إجابته، أنه لا يعرفه!.

ماذا يفعل، ماذا يفعل وفى رقبته أسرة، وراتبه التقاعدى محدود؟.

أصغيت حائرا، كنت ألومه بينى وبين نفسى، غير أنى أبقيت ما عندى حبيس صدرى، فلم أظهره على أسارىرى ولو من بعيد، فوجئت به يطلب مساعدتى، إننى صحفى، وعندى اتصالات، وما يطلبه مجرد عمل، أو السفر إلى أى بلد عربى.

لم أقل له إننى أمر فى ظروف لن تمكننى من مساعدته. ولم أشأ أن أبقى ذرة أمل عنده عالقة بجبهتى، انصرف منحنيا، ولم أسمع صوته، ولم أقابله، غير أن عبارته الاخيرة بقيت زمنا ترن فى سمعى.

- « خرب بيتى.. الله يخرب بيته».

فيما بعد استقصيت أحواله، فعرفت أنه عمل مدة شهور بإحدى شركات الأمن الخاصة التى بدأ ظهورها حديثا، وأنه استقال وسافر، كثيرون ممن عرفتهم سافروا إلى بلاد شتى، وبعض من عرفت لم يدر بمخيلته يوما أنه سيركب الطائرة ليرحل إلى بلد غريب، أو يخرج حتى من القاهرة، لكنها الظروف، والأوقات التى أتت بكل غريب، عجيب، ولكن الأغرب أن تأخذنى الدهشة، أنسى دائما ما خببرته، أنه لا شىء يبقى على حاله..

وفيما يلي نبأ الخطاط

الذي راج أمره في الغربية

في مفتح العقد السابع كان له من العمر اثنا عشر عاما .
إذ نى إلى علمى - وهذا مؤكد - أنه ولد عام الف وتسعمائة
وثمانية وخمسين ميلادية، فى أسرة أحوالها معسرة، تسكن
حجرة واحدة من الخشب المطلى بالجص فى بيت عتيق يقع
عند ناصية زقاق يمكن للواقف فيه أن يرى مسجد ابن طولون.
كان ذكيا لماحا، سريع الإجابة فيما يوجه إليه من أسئلة طوال
سنوات دراسته، متقد الفؤاد بأحلام شتى، بعض معلميه تنبأوا
له بمستقبل حسن فيما لو ثابر، وأتم الشوط، وتزود بالعدة.

لكن كما قيل، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وكما قيل أيضا، العين بصيرة واليد قصيرة، ذلك أن الأب كان نجارا، فقيرا، أرزقيا، لا عمل دائم له، ولا مورد ثابت يتقوتون منه، يوم هنا، وآخر هناك، وثلاثة أو أربعة يقضيها بطالا، مع أنه مهر فى حرفته، وبرع فى حفر الأشكال المورقة على الخشب، إلا أن الحظ خالف، والبخت مال، والزمن لم يساعد، أمر واحد شغل به، وتعلق، وسعى جاهدا إلى تحقيقه، بل لنقل إنه عقد العزم عليه، ألا وهو تعليم ولده هذا حتى التتمة، كذا إخوته الأربعة، الحق أن ابنه هذا كان تواقا إلى العلم، أثار إعجاب أساتذته، كثر ثنائهم عليه، كما ذكر اسمه فى لوحة التفوق مرات، ومما أثار اهتمامهم، تميزه عن أقرانه بجمال خطه، وبراعته فى تنسيق الحروف وحفظ النسب، بعضهم أوكل إليه رسم لوحات عليها عبارات مثل، «وبشر الصابرين» و «ادخلوها بسلام آمنين» و «الصبر مفتاح الفرج»، إلى غير ذلك مما يعلق فى الغرف، وفى الحفلات الموسمية، كانت كراساته منمقة، مرتبة، نظيفة، خلوا من الأخطاء، وعندما كان يصحب والده إلى المسجد المهيب الفسيح القريب، اعتاد تأمل الحروف المورقة وتشابك الحروف، تلاقيها وتفرقها، تماسها وابتعادها، يود لو نقش مثلها، على ورق، على جص، وكثيرا ما استعاد فى خلوته بنفسه هذه الأشكال، وعند تخيلها كان يميل ببعض الحروف، فيغير من أوضاعها، وزواياها، وعند تجاوزه الثالثة عشرة أعجب به مدرس عجوز من معلمى الزمن القديم، اسمه سعد

الله، كان يدنو من سن التقاعد، نحيل جدا، عويناته سميكة، وكانت يده اليمنى لا تفارق منشة مقبضها عاجى، حتى عند إمساكه الطباشير وخطه الدروس، كان طويل الصمت، بطئ الخطوة، ثقيل النظرة، طيب القلب، أهداه كتابا ضخما لم ير مثله عن الخط العربى، قلب صفحاته، تانى فى تأمل لوحاته، نقل منها، وعرف الرقعة والنسخ، والكوفى، والبسط، والثلاث، والحجازى، إلى غير ذلك، بعد أدائه امتحان شهادة الإعدادية، لم يكن فى حاجة إلى انتظار النتيجة كى يقرر أمرا، ذات ليلة أفضى إلى والده بما نواه، بما عزم أمره عليه، فالظروف صعبة، والرزق شحيح، والزاد قليل، والشجار بين أمه وأبيه متكرر، وكثير، أفواه الأشقاء فى حاجة إلى قوت، حز فى نفسه رؤيتهم حفاة فى الحارة، أو متعلقة أبصارهم بنهاية الطريق فى انتظار عودة الأب بقليل من الطعام، تتخاطفه الأيدي الممتدة عادة إلى طبق واحد، مما يضطر والده إلى نهرهم، أمرا كلا منهم مراعاة البقية، عزم على البحث عن عمل يأتية بما تيسر ليساعد الأب الذى يتقدم فى العمر، ويان على ملامحه العجز ومرارة الأحوال، أطرق الرجل مغموما، كمدا، حجب عن نطقه رغبته فى إتمام ابنه للشوط، حصوله على شهادة تمكنه من وظيفة تؤمنه، وتحوشه عن سؤال اللئيم، يجنبه المشاق التى عرفها، تنأى به عن ذل الحاجة، كأن الابن أدرك أفكار أبيه إذ شفت ملاحظه المجهدة عما عنده، فأفضى إليه بعزمه ونيته على استكمال علمه، سيلتحق بمدرسة ليلية، سأل.. ودلوه على

مدرسة خاصة ناحية الفجالة، الأمر ميسور والعزم صادق، فى هذه المدرسة موظفون صغار يطمحون إلى الحصول على الثانوية بمجموع مناسب، واجتياز عتبات الجامعة أملا فى تبديل الأحوال، ليس فى الامر عيب، فالظروف حاكمة، اقترب الأب من ولده، بدأ كالجمل الحمل إذ يحط بما ينوء به من ثقل بعد طول رحيل، بان فى عينيه ضعف وإعياء قديم، طلب منه أن يقسم، فتح المصحف على سورة يس، قربه، عندئذ هدأ بال الأب، واستفسر عن العمل الذى سيلتحق به الأبن، قال إنه سيبحث عما يناسب ما يتقنه، الخط طبعا، قال الأب: هذا عمل كريم، مضى إلى سعد الله أفندى، معلمه القديم، أبدى الرجل ترحيبا ومجاوبة، قال: أنت يا ولدى هدية لمن ستعمل معه، طلب مهلة يومين، بعد أنقضائهما اصطحبه إلى أحد معارفه، مدير لإحدى شركات المطاحن، زوده ببطاقة إلى تاجر بالموسكى، أبدى ودا، وتحديث عبر الهاتف إلى شخص ما، طلب منه الذهاب إلى هذا العنوان صباح اليوم التالى، لم يكن المقر نائيا، دكان عتيق، زاخر بعبير الزمن المولى، عند نهاية شارع محمد على قرب ميدان العتبة، تعلق مدخله لوحة باهتة: «فنان الخط العربى» قال صاحب الدكان إن زمن الخط الجميل ينقضى؛ الحروف الجاهزة تكتسح السوق شيئا فشيئا، وكثيرون يطبعون بطاقتهم الآن بالمطابع التى تصف الحروف صفا، قال له: أنت صغير، والعمر أمامك مديد، ومهنتنا إلى زوال، لماذا تتعلق بها؟

قال إنه يريد أن يأكل عيشا حتى ينهى دراسته الثانوية ويلتحق بإحدى الكليات، ولأنه يعشق الخط ويتقنه فهذا أنسب الأحوال الموائمة، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، أبدى الرجل رضاه، لأنه يريد تخفيف الحمل الثقيل عن أبيه، كما أعجب بمهارته خاصة فى كتابة الثلث والحجازى والمنسوب، والحسن والفائق، وقدرته على فهم أسرار الحروف ودلالاتها، قال الرجل أنه لا يعمل إلا فى الحلال، كتابة اللافتات، عناوين الكتب، والأختام الشرعية، لو أنه عمل فى الحرام لجنى ثروة وصار فى بحبوحة، فلما استفسر منه عما يعنيه بالحرام، قال أن صناعة الأختام جزء من مهنتنا، بل إنها الأكثر رواجاً، يحدث أن يجىء أحدهم، يطلب إعداد خاتم حكومى، والمقابل طبعاً مقدار غير قليل من المال، غير أنه يأبى، لا يرفض فقط إنما ينهر ويطرد، حدث منذ عشرين عاماً أن جاءه رجل تبدو عليه علامات اليسر والنعمة، طلب إعداد ختم عليه علامة النسر، اعتذر، فأخرج الرجل من جيبه عشر ورقات، كل واحدة بمائة جنيه، الألف فى ذلك الوقت تساوى مائة ألف الآن، أخرج المبلغ بسهولة، كأنه يتناول عشرة قروش، هزرت رأسى، عندئذ تغير واكفهر، هدد وتوعد، لكننى قلت له، أوسع ما فى خيلك اركبه، لا يمكن أن تعمل لى حاجة لأن شكك واقع فى الخطأ من شعر رأسك إلى أصابع قدميك، أنذرنى بإغلاق الدكان، لكنه مضى ولم يعد إلى ناحيتى، الغريب أنه مقدم على الخطأ ويهددنى بالنفوذ والسلطان، فيما بعد علمت أنه مضى إلى زميل لى له طلبه، سامحه الله، مات منذ سنتين.. ماذا أخذ معه؟.

اعتاد الحديث المتدفق المتصل، يبدو أنه لن يكف أبداً، يذكر أدق التفاصيل فجأة، بدون مقدمات يصمت، يكف، يبدأ سرحة طويلة، ينقطع عما يحيطه، يصير إلى عزلة محكمة، ربما ينهيها بقوله:

- «ياما شفت.. أنتم لم تعرفوا شيئاً، أما نحن فعشنا..»

يحكى له عن شارع محمد على هذا، عن توالى الأقواس الحجرية وتعاقبها بانتظام، عن نظافته، عربة الرش تجئ يومياً مرتين بعد كنسه، مرة أول النهار ومرة آخره، لم يكن مزدحماً كما يراه الآن، كان الضوء شفافاً لا تكسوه غبرة، يقف فى أيام الشتاء بعد نزول المطر، فيرى الطريق ممتداً من ميدان العتبة وحتى القلعة، مستقيماً، واضح القصد، وإلام يؤدي؟، الهواء شفاف حتى ليتمكن رؤية الأصوات السارية، عربات قليلة، ومارة لاتعلو وجوههم الهموم، وعيون للنساء المكحولة الواسعة، تلخص وجودهن المختبئ كله تحت الملاحة اللف، والبرقع واليشمك اللذين يغطيان الوجه عدا العينين، يتوقف لحظة لينفث أهة حسرى على ما ولى وانقضى، نزول الليل، أه من قدوم الليل، اشتعال المصابيح والكلوبات، وخروج صببية العوالم، وقوفهم عند مداخل الحارات يضعون أمامهم صناديق الآلات الموسيقية الضخمة، متعددة الأشكال، ينتظرون نزول المطربات والراقصات والعازفين، تجئ السيارات، يعلو ضجيج الأصوات، كم من جميلات تطلعن إلى الطريق وهن يرتدين

الفساتين المحلاة بالترتر والقصب، ملابس السهرة، يقضين الساعات اللائى يقمن خلالها بإحياء الأفراح والحفلات، هنا فى المدينة أو الأطراف، أو السفر إلى بلدان وقرى بعيدة، للشارع نجومه، منهم من يعظم الطلب عليهم، ومنهم من يقل، بعض الراقصات اللواتى عشن فيه عشقهن عليه القوم، بأشوات وسعوا من أجل طلة أو نظرة، لذهابهم ومجيتهم بصحبة عازفى الآلات الموسيقية شذى وأصداء، هنا كان الفن، وكانت الصحافة.

هل سمعت عن جريدة المؤيد؟.

يمصص شفتيه أسفا قبل أن تأتيه الإجابة، مساكين شباب هذه الأيام، ماذا تعلموا إذن فى المدارس؟، يصمت ثم يستفسر، ألم تسمع عن الشيخ على يوسف؟ يتقدم مباشرة تجاهه، يمسك بذراعاه، يخرج به إلى نهر الشارع، يشير إلى مبنى عتيق مقابل: هنا كان مكتبه، هنا مقر جريدة المؤيد، كانت أكبر وأوسع شهرة من الأهرام ولكن الزمان قلبا.

يقول إن والده رحمه الله كان يرسم عناوينها، ويصينغ أختامها، أبى الشيخ على يوسف عليه الرحمة كلها - أن يتعامل مع الأرمن، الأجانب، وخص والده، أول مصرى عمل فى الصنعة بكل ما يلزم الجرؤدة.

يشير إلى ناحية باب الخلق.

هناك كانت مجلة اللطائف، مقابلها مجلة اليوم، على مقربة جريدة السياسة، الناحية الأخرى مجلة المطرقة.

يتطلع ناحية دار الكتب.

يا سلام.. ياما قعدت فى المقهى هناك، واستمعت إلى حافظ إبراهيم، والشيخ عبد العزيز البشري، وتوفيق دياب، ممن لا مثيل لهم ولا شبهه فى هذا الزمن القفر.

يتوقف لحظة، ثم يتسائل:

هل شاهدت مصارعة الديوك؟ طبعاً لا.. ولن تعرفها، هناك، بجوار دار الكتب كان أغنياء الأتراك يداعبون أطراف شواريهم الكثة وهم يتفرجون على مصارعة الديوك، بينما تشتعل حمية الرهان، راح هذا كله، ذهب ولن يعود.. انظر إلى الزحام، انظر إلى فقر الترام، ويؤس المعمار...

كان يفيض متحدثاً عن تغيير الضوء فى ساعات النهار المختلفة، وعن امتداده عبر الأيام الشتوية صوب القلعة، حينئذ تخذتمة مأذن مسجد محمد على، عن روائع غامضة، مديرة إلى نفسه، لا يمكنه تفسيرها أو نسبتها إلى مصدر بعيد، وما رائحة نلال البيوت المتداخلة، المتداخلة، أن الجرادات المتعينة التى لم يلامسها ضوء الشمس، ربما واحدة انظار الأندلس والعينى، عند النواصي، وتطلع نظراتهم إلى النوافذ المسددة، الماسد عليها الستر، أو بئرة أطعمت مسقت أطباقها وتفتلر الحاممين، أو أصدااء عديد أنشوب، وما هذا كذا، لا يقدروا على التحديد، على النعنين، لكن الرائحة تلك بقيت تدهنذ و ساقطير، الآن وذهنت، رقت، وسحوت أنه تادى تادى، ام تدمع تدمع،

غير أنها لم تعد تلك التى عرفها وهفا إليها، إنه يزداد انحناء،
إنه يأسو، يبدو أشد بعدا، كأنه أقلع من الحيز المولى..

إنه يجلس أمام الدكان، يتابع المارة، مضيقا عينيه من حين
إلى آخر، يشرب الشاي الشامق، لم يعد يقف أمام لوحة منذ
فترة، أو ينحنى ليخط حرفا، أسند العمل كله إليه، يقوم أحيانا
ليلقى نظرة فيبدي ثناء أو ملاحظة، ثم يعود إلى المقعد المستدير
راحلا بنظرة الكليل عبر الطريق، عمره موزع عند المداخل
العتيقة، وتحت البواكى العتيقة، وعند نواصى الأزقة التى
يرتفع بعضها عن مستوى الطريق، يلتفت فجأة ليتحدث عن
والده، يقول إن الخواجات الأرمن هم الذين أدخلوا هذه
الصناعة، ظلت كارهم الخالص، لا يقترب منه أولاد البلد،
يتوقف ليخبط صدره مرات ثلاث، والذى أول من فتح الباب،
أول مصرى يعمل فى الزنكوغراف، لم السوق من الخواجات،
وتبعه كثيرون، ولولاه لظلت الصناعة فى أيدي الخواجات.

وإن يستعيد والده يلوح فى عينيه حنين، أحيانا يحط على
مقعده ممسكا كوب الشاي، لا يحيد نظره، قد تمضى ساعات،
لا يذبحرك، وربما سألته فسجأة، ها، سمعت عن الويدى، أحببانا
يطلب ذلك أن يذكرك، ما فى يده، ما يشغله، يثنى مقعدا صغيرا
بدهن مسود يقول حبيبه ما، تتدنتنا:

.. وأين هم، على نفسى، لا تتعب، أطرك..

ثم يفيض فى الحديث، يضحك، وفجأة يأوى إلى صمت شديد، يبدو أنه نسى وجوده إلى جواره، أشد ما يزعجه زحام الطريق، خاصة إذا توقف المرور وارتفعت أبواق السيارات ورنت أجراس الترام وعلا صهيل من هنا أو نهيق من هناك، يلوذ برمادية الفراغ، بعقاقة المكان، يتمم مكلوما:

- لم يكن الأمر هكذا، أبدا، أبدا..

فى عصر شتوى، غامق، يوحى بالكثة والتوق إلى ماض مبهم، بدأ منحنيا، ملموما، كأنه تضاعل فجأة وانطوى، ثمة رياح باردة تثير أتربة، سعل مرة، مرتين، ثم مرات مقطعة، متباعدة، سعال غريب، أصداؤه متسلخة، اشتد ثم خفت، كصدى يذوب مبتعدا فى واد سحيق، ترك اللافتة التى يخط فوقها اسم المرشح، هذه بداية الموسم، يروج الحال عند بدء المنافسة واحتدامها، لافتات عديدة مطلوبة، يضيق بالسرعة فى عمله هذا، لكن للضرورة أحكام، هذا موسم لا يتكرر إلا كل أربع سنوات مرة، إلا إذا أكرمهم الله بحل المجلس، وإجراء انتخابات جديدة، أحيانا يبتسم ساخرا إذ يخط لافتتين، الأولى لمرشح والثانية لمنافسه، غير أن الابتسامة راحت عندما بدأ يصل إلى سمعه هذا السعال الغريب، وأشد ما يخيف، ما كان غير مألوف.

- مالك .. مالك ..

لا يصمد للمسبة يده، إنه ثقيل، هذا الثقل التام، ارتبك، اضطرب، إنها المرة الأولى التي يواجه فيها النهاية الحتمية، مرة واحدة أثناء ركوبه الترام، صرخت امرأة، أقبل اضطراب، وعندما تمكن من النفاذ عبر الأجساد الفضولية المتكاكئة، رأى جثمانا ممتددا، بنطولنا بنيا وحذاء، قميصا مقطوعة أحد أزراره، قالوا إنه سقط فجأة، السكينة، غير أنه لم ير وجهه المجهول، هاهو الآن يقف مواجهها الرجل الطيب، الرجل القديم، الذى كان !. إنه مستسلم لنوم غامض، خلو من الأحلام، ملامحه تبدلت بعض الشيء، أطبق بعضها على بعض، وفى ثناياها ضمير الحنين إلى ما كان وما انزوى، قفل منتشيا إلى ما ولى، تم..

هرع إلى الجيران، إلى المقهى، إلى دكان الآلات الموسيقية، بكاه كأنه يشيع أباه، ما يقرب من عامين لم يسمع منه كلمة فظة، لم يزجره، لم يقل له أف، لم يثقل عليه، بكى إذ استعاد عبارته عندما منحه العيدية:

- «والله يا بنى أنت زى ابنى.. كائى خلفت على كبر..»

تحلق القوم حوله، قالوا له ما يقال فى مثل هذا الموقف، من تأكيد لقضاء الله، وتذكيره بحتمية الموت، وأن كل من عليها فنان، راحل، مودع، والرجل مضى فى هدوء، لم يرقد، لم يمرض، لم يصبح عبئا على غيره، إنه من المكرمين، رحل فى لحظة..

لم يفارقه حتى مواراته الثرى، عاد إلى المحل لايدرى ما يفعل، كان الرجل وحيدا، عاش بمفرده، لم يسمعه يتحدث عن قريب أو صاحب حميم، إنه يقف على حدود مرحلة مجهولة من الطريق، لايدرى ماذا سيأتى به الغد؟ كيف ستمضى الامور؟، وحتى يدبر حاله استقصى من الجيران عن ديون الراحل، وما من دين إلا حساب مقهى التجارة المجاور، أربعة جنيهات وسبعون قرشا، قلب الأوراق التى عثر عليها فى الدرج المقل، عله يجد كمبيالة ما، أو إيصالا يستحق السداد، لم يعثر إلا على ثلاثة أختام بالية، أحدها باسم حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى، فى الأيام التالية أتم كافة ما اتفق على إتمامه من لافتات انتخابية، نصحه والده باستشارة أهل العلم بما سيكون عليه الدكان، غير أن الأمر لم يطل كثيرا، صباح الخميس المتمم مرور خمسة عشر يوما على تمام أجله، ظهر رجل تجاوز الخمسين، بدا قاسيا، ينوى الأذى، قال إنه من أقارب المرحوم، أبدى الإثباتات الشرعية وأظهر الحجج القانونية، تسائل: بأى حق يقف ويدير المحل؟ من الممكن اللجوء إلى الشرطة لوضع الأمور فى نصابها، لكنه يبدى النصيحة لوجه الله خالصة، أن يمضى إلى حاله، أن يشوف رزقه بعيدا، وإكراما للمرحوم لن يطالبه بما ربحه فى الأيام المنقضية، فارق الدكان بقلب موجع، وخاطر كبير، مرددا:

.. يا عامل الخير.. يا عامل الشر!!.

لم يبد له الشارع أطول مما بدأ له ذلك اليوم، وعندما دنا من ميدان العتبة، ولاحظ سماء نائية، وغمامات متناثرة، عمه خواء، فارق سبيله الذي أحبه، الرجل الطيب خلت منه الدنيا، حتى عدته لم يأخذها، فرشته وأقالمه، مضى متمهلاً في الطريق الخلفى لمبنى المطافئ، أوى إلى هقهى مزدهم، رواده سمر الرجوه، نوبيون، زعام، ضجيج، غير أن وحدته لم تتبدد، تضاعفت، منذ هذه اللحظات بدأ انحطاط أمره، وعكس حاله، ودنوه من بيد تؤدي إلى مجهول لا يعرفه، فى الأيام التالية طرق أبواباً شتى، أحد معارف والده عرض عليه الوقوف بمطعم ناحية السيدة زينب، عمل بسيط لا يقتضى مهارة، مجرد حشو الأرغفة بالفول أو الطعمية، لكنه أبى، خشى أن يأخذه بعيداً عما أتقنه، قال له الراجل الكريم إن الخطاط لابد أن يمرن أصابعه باستمرار، وإلا أصبح الأمر صعباً، كان قد ادخر بضعة جنيهات، اشترى ورقاً سميكاً، وورقاً مذهباً، وآخر ملوناً، فوق سطح البيت بدأ يقعد فى الشمس، على مقربة منه دواجن تلتقط من الحب ماتيسر، أصوات الطريق تبدو بعيدة كأنها تأتيه من واقع آخر، بداية يحدد الحروف الغليظة بالقلم الرصاص، ثم يقص الورق المذهب، يلصقه، حتى إذا فرغ ينظر مرتاحاً، راضياً، أية قرآنية كريمة، إذ يتم اثنتين أو ثلاثاً، يطوف على المتاجر بما أتمه، على المقاهى، غير أن البيع صعب، لم يدرك أحد ممن يعرض عليهم الفروق بين خطوطه واللوحات الأخرى الجاهزة، بل أبدى بعضهم استخفافاً، بعد أخذ ورد

يسمع تكرار العبارة ذاتها «الله يسهل لك»، كأنه يبغى صدقة، كأنه يطلب منه، حتى إذا ما تم بيع لوحة يجد ربحه ضئيلا، أثناء تجواله لقي رزقا، إذ مر بورشة قرب القلعة تصنع عربات اليد، اتفق مع صاحبها على تزيين عربتين، الأولى لبيع الفاكهة والأخرى عالية كالهودج، خط أدعية، وآيات قرآنية، ورسم زهورا، ودوائر متداخلة، أبدى المعلم إعجابه، وتمنى لو أن الحال كالزمن القديم، كان العمل لايتوقف، فى كل أسبوع عربية أو عربتين على الأقل، أما الآن فالأحوال عسرة، قل الطلب على العربات الجديدة، ولولا إصلاحهم قديمها لأغلقت الورشة منذ زمن، لم يتوقف عن قطع شوارع القاهرة وحواريها حاملا لوحاته، مر بشارع محمد على، من الرصيف المقابل وقف غير مصدق، سرعان ما بدأ ينز حسرة، تبددت ملامح الدكان تماما، فكانه لم يفتح يوما لخط الكلمات أو رسم اللوحات، تعلقه لوحة: «مينى ماركت». أما فى ذات الموضع الذى كان يخلو فيه الرجل الطيب فرأى ثلاجة بيضاء، على جوانبها ملصقات شتى، حيث وقف وانحنى واندمج تقف امرأة شابة، من هى، من تكون؟ خطر له عبور الطريق، أن يعرض عليها لوحة، لكنه أقصى خاطر ولم يبادر، من هؤلاء الذين قدموا من المجهول ليرثوا، ليبدلوا ما انقضى، أى درجة قرابة تربطهم بالراحل؟ لم يسمع منه عنهم، يتحرك خطوات مبتعدا، يلتفت مرة أخرى، كأنه لم يمض أياما كوامل هنا، كأنه لم يقض سنة وعدة شهور يصحبه الطيب، الأمير، ابن الزمن العتيق، لكم حنا

عليه وأثنى به، كأنه لم يكن، وكأنه هو لم يعمل هنا ولم يصنع ولم يتعرف على جهاد الأب لانتزاع الصنعة من أيدي الأرمن، ما يراه عند الجانب الآخر لا صلة تربطه به، لا أثر للعلاقة، اتند في مشيه، إنه يتعرف على ذلك المعنى المبهم الغامض، يدركه لأول مرة، أنه انقضاء ما انقضى، تمام مرحلة لن تتكرر أبداً، لن يستعيدها أبداً، أطبق عليه أسى، وناء وجد.. تعب من اللف في الطرقات فأوى إلى مقهى بباب اللوق، جاءه صاحب المقهى، كان قد اشترى منه لوحة علقها في مواجهة النصب، قال له أن ما يقوم به تضييع للجهد، للطاقة، سيدله على تاجر يبيع هذه اللوحات وغيرها، إنه من رواد المقهى، يجئ في السابعة صباحاً، يدخن النرجيلة، ويشرب النعناع المغلى، أنه رجل صالح، يؤدي الفروض في أوقاتها، يحج كل سنة مرة، قال له: تعال يا بنى غداً في الحادية عشرة ليلاً، إنه آخر زبون يقوم من هنا، تعال قابله واتفق معه وارح نفسك من الهم!

في النهار التالي لم يفارق البيت، رسم لوحتين أضافهما إلى ماعنده، قبل الموعد بوقت كاف سعى، هاهو الحاج يدخن النرجيلة، أنفاسه سريعة، قصيرة، لا يتيح للدخان فرصة الكوث في صدره، يمسك سلسلة ذهبية، تأمل اللوحات بلا مبالاة، كان يشير بيده إشارات حادة، مقتضبة، فيحار، يطلب منه أن يمضى بعيداً وكأنه يهشه هشا، أو يريد رؤية اللوحة التالية، ملامح وجهه تؤكد أنه مستمر في رؤية اللوحات، عند رؤيته المستطيلة ذات الخلفية الزرقاء، أشار إليه أن يتراجع، تأملها قليلاً ثم أشار بيده..

- كفى!.

باختصار ممض، مباشر، موجع:.

- شوف يابنى، كل هذا لاينفعنى..

المعلم صاحب المقهى الواقف خلف الحاج يغمز بعينه،
يعض شفتيه، مايعنى، اصبر، لا تتعجل، خفف ذلك من ضنكته،
بعد لحظات قال الحاج، انت ستجئ عندى إلى الدكان،
سأعطيك الخام كله وأخبرك بما أريد، تروح بيتك، تنفذه، ثم
ترجع إلى، تأخذ عرقك وأكثر، المهم.. لا تغشنى.

صاحب المقهى يسارع متدخلًا:

- «ضمانته على..»

يقطع الطريق إلى البيت مرتاحًا، لن يضطر إلى التجوال،
المضنى، والوقوف هنا وهناك، ومعاناة إذ يعرض عنه الآخرون،
ولا يعيرون ما يحمله طلة حتى، لن يقاسى الخوف من شرطة
المرافق التي تطارد الباعة الجائلين.

بدأ عمله بهمة ونشاط عظيمين، أملاه الحاج العبارات
المطلوب خطها وتجميلها، والأسماء التي يبغى أصحابها
كتاببتها على ألواح نحاسية، أو خشبية، أمده بما يلزمه، يقع
الدكان خلف المقر الرئيسى للبنك المركزى، على مقربة من
المقهى محل صفير، ضيق، مزدحم بالإطارات القديمة
والحديثة، إنه مجرد مقر للحاج الذى يعمل فى مجالات عديدة،
تركيب زجاج العمارات وبيع السيارات القديمة، والعمل، وأوجه

أخرى شتى، جاء إلى المقهى فى الميعاد المحدد، لم يصل الحاج بعد، أبدى المعلم إعجابيه، ردد: اللهم صل على النبى. وصل الحاج، وتأمل صامتاً، لم يفصح وجهه عن علامة، أبدى بعض الملاحظات، وصف المحل القريب، طلب منه أن يمضى إلى هناك، سيجد صبياً اسمه عاشور، سيسلمه اللوحات ويرجع، ومنذ الآن سيكون التسليم هناك، عندما عاد إلى المقهى لم يجد الحاج، أثقل صدره بغم، رتب أموره، نوى شراء فطائر وحلوى من ميدان السيدة زينب لأشقائه، قال صاحب المقهى إنه اضطر إلى الانصراف بعد مكالة هامة، ثم قال: لا تقلق، أجبرتك ستقبضها مساء كل خميس مع الدولار، أبدى دهشة، أى دولار؟ ضحك قال إن كل من يعمل مع الحاج اسمه الدولار، يعنى دولار العمل، تسأل قلقت، أملاً: ألم يترك لى شيئاً، قال المعلم، طبعاً.. طبعاً، مضى إلى المنضدة المرتفعة، تناول ورقة بيضاء، عليها بخط ركيك: مطلوب عشر لوحات «الصبر مفتاح الفرج»، المقاس العادى. عليه أن يمر صباح الغد بالمحل ليأخذ المونة، يقول المعلم بعد لحظات:

«أنت فى ضيقة؟»

ينفى، أبدأ، أبدأ.

يدس فى يده خمسة جنيهاً

- «فك عن نفسك يا رجل، ويوم الخميس الفرج إن شاء
الكريم..»

يقول المعلم مبتسماً، مودعاً، مطمئناً، فما أرق ملامحه
وقتئذ:

- «لا تنس المرور على الدكان صباحاً».

مساء الخميس جاء، أشار المعلم إلى سبعة أشخاص، هل
يفضل الجلوس مع الدولار أو بمفرده؟، إنه لا يعرف أياً منهم،
ينزوي في ركن قصي متابعاً الداخلين والخارجين، الصامتين،
المتحاورين، ممتلئاً بالصمت، ظاهر الجد، رمى سلاماً عاماً لم
يخص به شخصاً بعينه، قعد بمفرده، بعد أن طلب كوباً من
القرفة إضافة إلى النرجيلة المعتادة التي تستقر أمامه بمجرد
وصوله، بدأ يستدعى الدولار، يحاور، يجادل، يضرب حافة
المنضدة بأصبعه، وربما يرتفع صوته، لم يحن دوره إلا في
النهاية، لم يحص النقود، مدها الحاج إليه مضمومة، ملمومة،
كأمر مفروغ منه، لا يقبل نقاشاً ولا يحتمل جدلاً، عاد إلى
مقعده، لم ينصرف مباشرة كأفراد الدولار الآخرين، رغب
في كوب من الشاي، وعندما أعاد الجنيحات الخمسة إلى المعلم
دعا له بطول العمر، فأبدى الرجل تأثراً ورقة، ربت كتفه..

- رينا يفتحها في وشك.

فارق المقهى وعنده رضى وفضول، لم يكن يعرف مقدار
مكافأته، توقف تحت مصباح ناء، المبلغ أقل مما قدر وتوقع،
يكفى حاجاته بالكاد، لا يقابل أبداً مقدار ما يبذله من جهد
وعناء، هل يجادل الحاج في الأمر؟، هل يفتح معلم المقهى؟،

يبدو له هذا كله عبثا، لا جدوى منه، لو أن الظروف ساعدته، لو تمكن من افتتاح محل صغير، ليس في وسط المدينة، في أى منطقة بالمدينة، لكن. دكان كهذا يقتضى مبلغا هائلا لا بد أن يدفعه في البداية.. من أين له به؟ لو أمكنه أن يعمل ويوزع بنفسه، لكن من له بالدروب؟ من يذله على بدايات السكك؟، كان يلف المدينة شارعاً وشارعاً ودرياً ودرياً ويعود في الأغلب الأعم بما خرج يحمله من بيته، إنه في ضيق، أما ما حزن من أجله، وما رثى لذاته بسببه، فتوارى مشروعه لإتمام تعليمه، كان والده يرقبه منكبا على اللوحات، يدعو له، وينبئه إلى ضرورة نزوله الطريق ليمشى، ليفرد جسمه قليلا، ليخرج إلى الضوء، ليريح عينيه، ليسرى عن نفسه، مرة أو مرتين فاتحه في موضوع دراسته، ماذا عن تلك المدرسة الخاصة؟، قال إن الأمر سيتم، لكن بعد استقرار الأحوال قليلا، يريد أن يتبين رأسه من رجليه، غير أن داخله كان مشغولا بالرغبة في امتلاك محل، افتتاح دكان، وليس طموح إنهاء مراحل دراسته، أن يكون مقره بيده هو، يخط ما يحب، ويرسم ما يرغب، ما يفضله هو، لا ما يريده غيره، يبدع ما يهوى، لا ما يطلبه السوق، إن اقتراب يوم الخميس يثير عنده مشاعر متنافرة، يقدر ما ينتظر استلام ما يستحقه، يقدر ما هذا الانتظار الطويل المتعمد، إن اكتاف الرجال لتنوء، وإن رقابهم لتميل عبر انتظار كسير كهذا، مرة اتصل المعلم قبل الموعد المحدد لإغلاق المقهى

بدقائق، أخبر باضطرابه إلى تأجيل الموعد حتى غد، انصرف
الدولاب، استفسر منه معلم المقهى عما إذا كان يحتاج مقدارا
من المال؟ شكره وأعرض عن طلب مليم واحد مع أنه كان فى
حاجة، انصرف مثقلا وعنده غبن وهم، فى هذه الليلة تردد
داخله ما لم يدر حتى راوده أول مرة و اتضح عنده مالم
يتصور أنه شارع فيه يوما، وفى الايام التالية بدأ يعد العدة، لم
يخبر أباه، لم يخبر أمه، أو أحد أصحابه، حتى لو أراد أن
يفضى إلى قريب أو حميم، فألى من يسر؟ وإلى من يحكى؟،
زملاء المدرسة مضوا فى مراحل تعليمهم، ما كان يجمعهم بهم
ولى، فى المنطقة التى يقطنها لم يقم علاقة حميمة، إن عمله
يلتهم الجانب الأكبر من وقته ، وعندما يثقله الضيق، وتحديق به
الوحدة ، يمضى إلى مقهى قريب فيه جهاز التليفزيون، يمكث
مقدارا من الوقت، وفى الأعم يكون شاردة عما يتتابع امامه من
مشاهد، أرضه قلقة، وجسوره منقطعة، والآتى عنده غامض،
ضبابى. أمره مشوش حتى ليغض البصر عند لقائه بخديجة
ابنة جارتة إذ تلتقى به أثناء خروجه من البيت أو عند عودته،
خديجة سوداء العينين، طويلة الشعر، حصلت على دبلوم
نجارة، تعمل مؤقتا بائعة فى متجر للملابس الدائرية
بالموسكى، تنتظر الائتحاق بوظيفة فى بنك أو دائرة حكومية، أو
أحدى هذه الشركات الحديثة التى تمنح أجورا سخية، إنه يربى
الوجه، يشيع ويتجاهل، ماذا يوسع أن يقدمه؟ على أى شيء؟

يقيم الوعود؟ حتى ملابسه لا تستر إذا رغب في الخروج بصحبتها، المشى بحذاء النيل، أو الإيواء إلى ركن في حديقة شاحبة ليبيتها ويفضى. إذ تلح عليه فورات الجسد ونشيش الرغبة، يعالج الأمر، يستدعى إلى ذهنه صورة امرأة رآها في الطريق، أو نظرات خديجة الخمرية وما تثيره، أو يمعن البص إلى صورة سمثلة شبه عارية، يكفي ذاته، حتى يهدأ ويهجع.

أحيانا يطبق عليه الحال، تتنابه رغبة في الهجاج، خاصة عند نزول الليل، يخرج قبل اكتمال الغروب، يستسلم لحركة الطريق نيمضى إلى حيث لم يقصد، عيناه مجهودتان، وآلام تنز عنقه، يرجعها إلى طول انحنائه، في ميدان السيدة زينب زحام، الناس أكثر لكنه بمفرده، كأنه لا يرى أحدا، في المقهى ساء عن بعض ممن سافروا، نادى السيارات، الذى سافر إلى دولة ناطقة ونسل نقاشاء، ثم تقاب فى دهن شتى حتى عاد بمسود الحال، يجيء رائبا غريبة، يومئذها، ينزل يتنهأ، يدسك حلقة المفاتيح المعدنية، يدخ النرجيلة بهنود، يتأل إنه أدهب من نحر العملة، سمع عن أحدهم كان حاملا من مطعم قريب، بقاى الباذنجان والطعمية، اخذها أذخر وسافر، هناك أدهب الكا للطبخ صغبر، يجيء كل ليلة، إلا بالهدايا. تتسابق المقهى، أذخر من أكثر من مرة.

«لما لا تجربى بذلك..»

يتطلع إليه حائرا:

- «أنا خطاط يا حاج..»

مرة لوح الرجل بيده:

- «اعمل أى حاجة، أنا كان عندى صبي هنا وراح، كان إذا
أحدهم سألته عن عمله، يقول له، أنت ماذا تريد؟، فإذا كان
المطلوب مبيضا أجاب، وإذا كانت الحاجة إلى مبلغ لبي..»

ثم يشير إليه الحاج:

- «أما أنت.. فتعرف ما لا يقدر عليه غيرك..»

ليلة من ليالى فبراير الباردة، اقتنع بما فكر فيه، بما لم
يتخيل أنه واقع يوما، ما يحصل عليه يكفيه بالكاد، لو أنه ادخر
ما يتسلمه من المعلم لمدة عشرين سنة بدون أن ينفق مليما
واحدا، فلن يتوافر له ما يمكنه أن يدفع مقدما لحجرة أو خلوا
لركن يمكنه أن يبدأ فيه حياته مع خديجة أو غيرها، إذن..
فلتكن غرية قسرية، يدخر ما يمكنه ويرجع، استبدت به الفكرة،
أحكمت الحوطة عليه، بدأ ينظر إلى عمله مع الحاج على أنه
مؤقت، لم يطلع حتى الأقربين على نواياه، ادخر ما ادخر،
واقترض ما اقترض، وبذل الجهد المضاعف، وعندما اكتملت
قيمة التذكرة، وخرج من مكتب شركة الطيران إلى الطريق تطلع
إلى البنائيات فغامت عيناه، ومر بالنواصي فكانه لن يراها مرة
أخرى أبدا، وعندما عبر ميدان السيدة متجها إلى مسجد ابن

طولون كاد ينوح، كأن ما تبقى له من أيام هنا كل ما سيقضيه فى هذه الحياة الدنيا، كأنه يقف على شفا جرف سحيق وثمة من سيدفعه فجأة، فى عصر هذا اليوم صارح أمه وأباه وإخوته، أصغوا وأجمين، لكن لم يبد أحدهم اعتراضا، حتى والده لزم الصمت، برر ذلك لنفسه بأنه زين لهم الظروف، فلم يقل لهم إنه ماض إلى مجهول، وإنه قاصد باب الكريم، بل أكد أن عملا ينتظره، وسكنا مع سحب سبقوه، وأنه سيرسل من هناك ما يحتاجون إليه إن صيفا أو شتاء، كما أنه سيجئ على الأقل مرة فى كل سنة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، ما ضاعف شجته تطلع أمه الصامت إليه، كأنها تتزود منه، وتتملى من قسماته، ولكم كان راغبا فى الاطلاع على ما يدور داخلها، أى لحظات تسترجعها، ما أثقله اهتمامها به، بطعامه، حتى أنها نزلت السوق القريب واشترت سمكا، هى تعرف أنه الطعام المحبب له، أبدت همة عالية فى طهيته، وعندما جلست على مقربة منه طلب أن تشاركه، كذا إخوته.

- «يعنى أكل لوحدى؟»

قالت إن نفسها مسدودة، أما الإخوة فيفضلون الطبخ، عندئذ تراجع.

- «طيب.. لن أكل..»

أقدمت، وأقدم الأشقاء، غير أنه لاحظ تمهلهم، حرصهم على أن يدعوا له النصيب الأوفى، ضايقه ذلك، لكن لم يكن بوسعه

تبديل الأمر، وفي إحدى الليالي خيل إليه أن أمه تبكى، أصغى إلى نهضة مكتومة، وعندما تقلب في فراشه كفت، حتى خروجه من البيت قاصدا المطار حرصت ألا تبدى أمامه ضيقا، أو غما، كان يدرك أن ابتسامتها تلك وليدة جهد جهيد، أما والده فلاذ بسكون، واستجاب لإلحاح ابنه ألا يصحبه إلى المطار، كان يعول هم الأب، كيف سيرجع من المكان البعيد، حتى وصوله إلى ناصية الحارة التفت مرات سبعا، ولوح بيده، وهم بالرجوع، لكنه لم يعد، وكانت امرأة عجوز كليلة البصر تقف أمام الفرن القديم تبيع أحيانا الليمون، سمعها تقول..

- «تروح وتجيء بالسلامة يابنى..»

اعلموا يا أفاضل، يا كرام، أن وداع هذه المرأة التي لاتمت إليه بصلة، ونطقها الواهن لتلك العبارة، نكات عنده جرحا، وهدمت ساترا أخفى خلفه ما انتابه، وما اجتاحه، وجهد حتى لا يبدو منه شيء على مرأى من والديه، هذا ما عرفته من حال هؤلاء القوم، أمه تدارى حتى لا تؤله، وهو يخفى حتى لا يزيد حملها، حتى إذا خلا كل بنفسه ونأى عن بصر الآخرين باح بما عنده، وأظهر ما خفى من أمره، ولكن لذاته هو، شفقة ومحنة على محبيه، ظل صوت هذه المرأة العجوز يتردد عنده، حتى اجتيازه بوابات الرحيل، وطلب منه الشرطى إبراز جواز سفره وبطاقته، بعد أن تفحصهما وقارن الصورة المثبتة بملامح الوجه الصامت المتطلع إليه بنظر ثابت، كأنه يقول، لا تدري ما مررت به حتى وصولى هنا، حتى وقوفى بهذه اللحظة،

حتى إقدامه على المغادرة، حتى انخلاءه من البيت، والحارة،
والحي، والبلد، ووالد وما ولد، متى سيطأ هذه الأرض مرة
أخرى؟

عندما اقترب من باب الطائرة لم يواته الفرح الذي طالما
تخيله طفلاً، ثم صبياً، يتطلع حالماً إلى الطائرات التي تعبر
سماء المدينة، أبداً، بل التفت متشبثاً بكل ماتقع عليه عيناه،
مبنى المطار، العرييات المتباعدة، السماء الغمامية، الجنود
الواقفين، العاملين بالمطار، كل منهم سيصبح الليلة في سريره،
في بيته، بين من يحب ومن يعرف، وعندما تطلع من النافذة
الدائرية إلى الأرض والمعالم التي راحت تتضائل بسرعة، بدا
كأنه أودع ما مضى وما كان جوف هذا الثرى.

جال فيما حوله، اعتصم بالحديث إلى من يجاوره، صعيدى
من سوهاج، فى البداية كان حذراً، يوماً، وعندما نطق اقتضب
الجواب، غير أنه سرعان ما وثق وأنس، فحكى عن عياله،
وقيراط الأرض الذى باعه ليوفر ثمن التذكرة، مبلغ من المال
قسمه، نصفه لامراته، تدبر به أحوالها حتى يتيسر أمره فى
الغربة، ومقدار آخر قليل أخذه معه يتدبر به، قال إنه سينزل
على قريب له، أخرج من طيات ملبسه ورقة مضمومة، ملمومة،
فردھا، طلب منه أن يقرأ العنوان مرة أو مرتين، رده بصوت
مسموع، كأنه يستوثق من حفظه، من يدرى.. ربما فقد الوريقة
لسبب ما، طواها وخبأها فى مكنها الأمين، ثم استفسر فجأة

عن مقصده، وعن بلدته، ومهنته، فقال إنه يقصد البلد ذاتها،
وأنة قاهرى المولد والنشأة، يعيش على مقربة من السيدة زينب،
وأنة خطاط، وأنه على باب الله..

قال الرجل الصعدي:

.. شاء الله يا سيدة زينب..

ثم صمت، بدا حائرا، لا يدري ماذا يقول، كأنه يتمنى تقديم
مساعدة ما، لكن ليس فى اليد حيلة، قال أخيرا:

.. الله سيكرمك..

جاوبه مستسلما، قلقا، أملا :

.. «كله على الله..»

مع بده هبوط الطائرة، وثقل السمع، قدم إليه الصعدي
استمارة الجوازات رجاء أن يكتبها له، تبعه ثان وثالث يجلسان
فى المقعد المجاور، خيل إليه أن كلا منهم يعرف وجهته عداه، لا
يدري كيف جرى التقارب وتم بين ثلاثة لم ينتبه إلى وجودهم
فى الطائرة، هم مثله، ينزلون البلد أول مرة، وما من ارتباط
مسبق بعمل، الوضعية متشابهة، لذا وقع تألف، وتقارب، فكان
كلا منهم يلوذ بالآخر، بعد انتهاء الإجراءات، وتفتيش الحقائب،
وتقليب محتوياتها والطرق على جوانبها، وتمرير جهاز صغير
يحدث أصواتا متقطعة، بعد فرد ملابسه، حتى الداخلية منها،
واستبعاد رغيفين، ودجاجة أصرت الأم على إعادها له زادا

للطريق، بعد التحديق فى الملامح، التنقيب فى شروذ العيينين،
وسبر غور النظرات، ومحاولة استكشاف مدى الحزن البادى
وسره، بعد التطلع بريبة، ثم بقسوة، ثم بعدوانية سافرة،
السؤال عما إذا كان معه رسائل، أو شرائط تسجيل، أو كتب،
أو مجلات، بعد تقليبه يمينا وشمالا، قال الموظف بلهجة طرد،
أو سب، «رح..».

رتب محتويات حقيبته القليلة، مضى فى الاتجاه الذى يشير
إليه سهم الخروج، قرب البوابة ذات الجهاز، فوجئ بجندى
يرتدى غطاء رأس أحمر، يصيح به، يأمره أن يتوقف، تحسس
ثيابه، مرر جهازا صغيرا مستطيلا على ظهره وبطنه، أمره
بإخراج ما فى جيوبه، أن يخلع نعليه، وجوربه، ضغط موضع
امعائه، وداس عليه من دبر، ولما سأل واستفسر جاوبه بنظر
خشن، وتهديد خفى، فيما بعد عرف أنهم يحجزون البعض،
يدخلونهم فرادى إلى غرف مغلقة، يجردونهم من ثيابهم، يصبح
الواحد عاريا كما ولدته أمه، يأمرونه بالانحناء، يتفحصون
الاست، والحجة أن البعض يدس أنابيب من بلاستيك فيها
ممنوعات، لم يجر هذا له، بعد لحظات قال الجندى..

- «رح..»

لحظة تاهبه للمغادرة، لح فى الصالة الداخلية التى يفصله
عنها زجاج بعض من صحبوه، من جاءوا معه على الطائرة،
يقعدون القرفصاء فى الصالة الداخلية، ينتظرون أمرا ما، رأى

جاره السوهاجى، مضى منقبضا، كدرا، خرج إلى الساحة
الفسيحة، طالعه فى الواجهة أطار هائل يتطلع منه وجه زعيم
البلاد، ملامح قاسية، صارمة، كأنها تتفحص القادمين، أما
الخط الذى كتب به الشعار تحت الصورة فردئ، ظل من أى
تنسيق، لا يتبع قاعدة ، وقف بمفرده، غريبا، لا ينتظره أحد،
أرض يطؤها لأول مرة، رائحة لم يعتدها، مزيج من عناصر
شقى، برغم تعدد المصاييح، وتناثرها على مسافات متقاربة،
فان العتمة مخيمة، طاغية.

متى سيجىء إلى القسم الآخر من المطار ليعبر بوابات
العودة لايدرى..

يبدو الأمد ممتدا، والوحشة غالبية، يجهل ما ينتظره وكأنه
يدرك لأول مرة أنه غريب، بعيد، ناء عن كل إلف ، وأنه كان
مشمولا برعاية غير منظورة، أما الآن فإنه مجرد من كل ما
أحاطه منذ مجيئه إلى العالم، بعيد عن كل ما اعتاد عليه، فى
لحظاته الأولى تلك حن إلى صاحب المحل، الخطاط، الطيب،
قديم الهجرة، استعاد استغراقه فى اللوحات والحيوية المتدفقة
عبر كيانه الضئيل ، إذ يستعيد ذكرياته القديمة، وسعى نظرات
عينيه عبر الأيام المولية، عطفه وحنوه عليه، تذكر صمته النهائى
فوق المقعد، احتضاره الهادئ الذى شهد به عينيه.. حن إلى
أبيه، وصمته المضطر إليه، وقلّة حيلته البادية فى الأيام التى
يقضيها بطالا بدون عمل.

لم يكن يدري كيف الوصول إلى المدينة، لم يقترب منه أحد السائقين ليسأله عما إذا كان بحاجة إلى عربة، كأنهم بما لديهم من خبرة يدركون إلى من يتجهون، في مثل هذه الظروف تعمل العربة عملها، أنس إذ لمح هؤلاء الثلاثة الذين صحبوه في الطائرة، ينزلون البلد مثله أول مرة.

الأول قال إنه سائق وميكانيكي، جاء قاصداً أحد أقاربه، لكنه لا يقيم في ال عاصمة، إنما في مدينة نائية من مدن الجنوب، لابد من قضاء الليلة هنا، ثم متابعة السفر في الصباح.

الثاني مهندس زراعي، بدأ حريصاً عند التعريف بنفسه أن يقرن لقب المهندس باسمه، قرأ وسمع عن المشاريع العديدة هنا، معه رسالة توصية إلى شخصية ذات نفوذ، لا يمكن الإفصاح عنها، تقيم في الشمال، لابد أن يقضى الليلة هنا ثم يسافر غداً..

الثالث، قال إنه إسكندراني، جاء ليغرب حظه، ليجمع قرشين، ثم يسافر إلى أي بلد أوروبي، وما هذه البلدة إلا أول محط في طريقه، معه عنوان مقهى يقصده بعض أبناء بلده، ضحك، قال إنه قادم وعينه أيضاً على النساء هنا، ضحك الإسكندراني، هذا في الظاهر، ولكن خفية يحدث ما لا يمكن تصوره، والمصريون هنا مرغوبون..

سألوه قال إنه خطاط.

أبدوا شفقة.

وماذا سيعمل الخطاط هنا؟، أى رزق سيجنيه من مهنة كهذه؟ ثم كيف يجيء ولا معارف له؟.

قال إنه سيحاول، فإذا فشل فى العمل كخطاط، يمكنه العمل فى أى مهنة، عندما كان تلميذاً عمل شهور الأجازة الصيفية فى ورشة لإصلاح الإطارات..

قال المهندس الزراعيان هذه خطط طويلة النفس، المهم الآن.. وصوله إلى المدينة، مشى فى أثرهم، اقتراه منهم طمأنه، خاصة فى اللحظات الأولى التى يصعب فيها كل أمر، لم تكن هناك عربات عامة تربط المطار بالمدينة، عاد الإسكندراني ليقول إنه اتفق مع سائق عربية أجرة، وإن هذا هو الحل الوحيد للوصول إلى المدينة، البقاء هنا فيه مخاطر، بلغ نصيبه من أجرة العربية ثلث ما معه، ما جاء به، أى انتقاص من نفوقه يديه من لحظة حرجة يرهبها ويخشها مجرد التفكير فيها، لكن.. ما باليد حيلة، لامفر.

الليل غميق، لا يتيح له رؤية المعالم، تبدو المدينة متوارية، البيوت واطنة، طابق أو طابقان، يلمح حدودها الخارجية، ما من مبان مرتفعة، أعمدة المصابيح متباعدة، تتلالا القاهرة الآن، تشع بضوء رأسخ، السائق يغطى رأسه بطرحه بيضاء، لم

يلفظ حرفا، كما أن أحدهم لم يتكلم، ربما لشعورهم بوجود غريب، مع أن كلا منهم لا يعرف صاحبه إلا منذ دقائق، الطرقات مقفرة على المدى، ميدان السيدة فى أرجه الآن، محلات الفطير ، والكباب، والدخان المتصاعد، وباعة الفاكهة عند النواصي، ورائحة أنس لها لطول ما اعتادها، عبق قادم من عصور متوالية، لا يدرك بالوعى، إنما يحس، لا يفسر، ينفذ إلى الوجود اللامرئى، فما أنأى المسافة، ما أصعب الشقة، ما أوعر الوقت!، لسبب ما ألح عليه وجه خديجة جارتة، تطلعها المخملى إليه، خفرها، وسنها، وحيأؤها الشرعى، أين هى الآن؟، يستعيد ما يحول بينهما، ويعى بقسوة أنه قصى، أنه بعيدا -

توقفت العربية أمام الفندق، مرة أخرى شم تلك الرائحة الثقيلة، إنه زخم شهوانى غامض، فيه دهون، وبقايا شواء، دم وقسوة، مدخل الفندق مطل على بداية زقاق ضيق صاعد، أما الشارع الرئيسى فخال، الدكاكين مغلقة، النوافذ لا تنشى ، لا تفصح عن أى ضوء، ما من شرفات، الليل لم يوغل بعد، ما من وقوف عند الناصية، ما من مقاه عامرة، غير أن ما لفت نظره، ما أثار انتباهه، ما أخذه عن القفر والوحشة، رؤيته هذا العدد من اللافتات، لافتات قماشية معلقة تصل جانبي الطريق، تتوالى على مسافات متساوية، متقاربة، لافتات ممتدة بعرض الواجهات..

فأل حسن هذا ا

ثمة فرصة، بل وكبيرة، العبارات متشابهة، تعلن الترحيب بضيوف المؤتمر الثالث للشرطة العربية.. مؤتمر كهذا تعلق من أجله هذه الالفتات كلها، وأين؟ فى منطقة شعبية لن يعقد فيها اجتماع واحد، ولن يزورها أعضاء المؤتمر بالقطع، ماذا عن منطقة انعقاد المؤتمر ، بل ماذا عن الأعياد والمناسبات، غير أن ما طمأنه ليست هذه الالفتات، بل أخرى تعلن عبارات التأييد والترحيب والتهنئة بعودة زعيم البلاد المهدى من زيارة المنطقة الجنوبية، مجرد عودته إلى العاصمة اقتضى هذا، فكيف الحال عند عودته من الخارج، أو عند احتفاله بمناسبة ما؟، موجات متتابة من الالفتات، إنها تحمل له البشارة، هذا باب للرزق ومجال فسيح، ما عليه إلا الاستدلال على الطريق المؤدية، أن يقف ببابه، يطرقة طرقا هينا، لطيفا، ثم.. يقرعه بكل ما أوتيته من قدرة ومهارة.

فيما بعد استعاد الليلة الأولى، تمدده فوق حشية مهترئة، إلى جواره رفاق سفره الثلاثة، الحجرة بدون نوافذ، فقط.. فتحة مربعة فى الجدار المثل على الممر، فى الخارج، أمام الغرفة فرشت سجادة بالية، تمدد فوقها رجل سودانى نحيل جدا، طويل، كان يئن طوال الليل، ينبعث منه ضنى مكتوم، وعلامات تعب، وألم حاد.

برغم إرهاقه، تعب السفر وتوتره فى المطار، وحنينه الممض الذى يبلغ مداه فى اللحظات الأولى لبدء الاغتراب، فيتشابه مع

الشوق الذى ينضج ويكتمل بعد طول المدة وتوالى الفترة أثر الفترة، بغم الكمد لم ينم، أيضا بسبب شخير الصخب، وقرص حشرات غامضة، وحضور المكان الغامض الذى لم يألفه، وارتفاع حوار حاد فى الطابق الأول قرب الفجر، إصغائه متفحفا لهذه اللهجة غريبة الإيقاع، الخشنة، بسبب كتمة النفس، لم ينم.

لن ينسى الليلة الأولى أبدا!

عند طلوع الصباح أغفى قليلا، غسل وجهه بالماء البارد، لم يكن لديه صابون ولا فى الفندق، عند خروجه إلى الزقاق، ثم إلى الطريق، فوجئ بكثافة الحركة، بالزحام، كأن الشارع نهارا غيره ليلا، أما ضوء النهار فساطع، سماء حادة، قوية السطوع، شديدة القرب، بدأ سعيه مؤجلا إفطاره حتى الحادية عشرة على أن يتناول غداءه فى الخامسة بعد الظهر، هكذا يمكنه توفير وجبة، أفضل الطعام فى ظروف كهذه ما يثقل المعدة ويلكمها، ما تبقى لديه ضئيل، وهو غريب، وحيد، بعد تفرق من تعرف بهم، راح كل منهم إلى حاله، دله المهندس الزراعى، قبل سفره إلى الشمال - على مقهى قريب يلتقى فيه المصريون، مقصد من يبحث عن عمل، أو وظيفة، أو عون.. ورغم قلقه وتخوفه من اقتراب المساء، من قدوم الغد، أو بعد الغد وهو على حاله، إلا أنه لم يكف عن قراءة اللافتات، ورصد كثافتها، وضح وثبت أن كل متجر صغر أو كبر، كل مصلحة أو منشأة تعلق عددا من اللافتات ، واحدة للترحيب عند المدخل، وأخرى بعرض الطريق لتأييد زعيم البلاد أو إبراز جملة من مآثور قوله..

لن ينسى يومه الأول أبداً، وحشته وغربته، فالبدائيات لاتغيب عن الذهن، وما يليها تندغم تفاصيله، وربما يقضى الإنسان حولاً كاملاً في مدينة، وإذ ينقضى الزمن، لا يعلق بوعيه الا يوم الوصول، ويوم المغادرة، وبدائيات أهم ما مر به والنهايات، هكذا عرف المقهى، حيث يفد أبناء موطنه، عرف الانتظار، والقعدات الطويلة، وشروء الفكر وتيه النظر، والمشاركة فى حوارات لا تعنيه، الاقتراب ممن لا يعرفهم، الإصغاء إلى وعود مبهمه ، التطلع إلى ما سينطقه مجهولاً عنه، البعض أبدى شهامة، وتعاطف وصادق رغبة فى المعونة، فمنهم من أقرضه، ومنهم من أسدى إليه نصحا لأنه سبقه المجرى إلى تلك الديار وخبر أحوالها، ومنهم من اقتسم معه لقمة وغموسا هينا، أحدهم دله، بل توسط له عند صاحب مقهى آخر قديم، هكذا شاء حظه أن تكون البداية من مقهى.

إنه مقهى عتيق، يقع بأرض خلاء، مبناه على الطراز القديم، تحيطه حديقة أشجارها قصيرة، تتوزع فيها دكك خشبية بيضاء، يقعد فوقها بعض الرواد صامتين، يحملقون إلى الفراغ، وفى الأغلب الأعم لا يتحدثون، يشربون الشاي، يدخنون النرجيلة، وشبان يلعبون الورق قرب الطريق، وقلعة من أجانب يعملون فى البلاد، يجيئون للفرجة على أدوات الشاي التى تنقرض من سائر المقاهى الأخرى، وفناجين القهوة العربية، والنرجيلات، وأثاث خشبى من بقايا بيوت اندثرت،

صاحب المقهى بدين، يقعد فوق دكة مرتفعة، يدخن نرجيلة نحيلة، لا يقربها إلا هو، وعاؤها زجاجي من كريستال ملون، منمنم، أنثوية المظهر، تمباكها غزير، جمرها شديد، أما «اللى» فطويل ينتهى بمبسم عاجي لا يفارق فمه، يظل على مقربة من شفثيه إذا نادى أو تحدث، بين الحين والحين يزعم:

– «ولد..»

لا يسبق نداءه بحرفى «يا»، حتى إذا ما لبي أحدهم أشار صامتا إلى الجمر الموشك على همود، يتابع ما حوله صامتا فإذا غربت الشمس فارق مقعده، انتقل متمهلا إلى الجهة المطلة على الحديقة المتسعة، واستقر فى مقعد من خيزران علي مقربة من الأشجار العتيقة.

كان يرقب نزول صاحب المقهى من فوق دكته، يبدو خفيفا فى سعيه، رغم ضخامته، وجهه خلو من أى علامات ضيق نتيجة قعاده الطويل وانثناء ساقيه تحته، لم يتصور أنه قادر على اتخاذ هذا الوضع لعشر دقائق فقط، يعجب من سهولة انتقاله من وضع الثبات إلى الحركة، بعد لحظات من استقراره فى مكانه الغروبى، يرتفع صوته على مهل، غناء غميق، بالغ الحزن، حزن مخدوش، أساه بعيد الأغوار، سحيق، يتلحق حوله بعض من رواد المقهى، يصغون صامتين، يبدون تأثرهم، غير أنه يبدو قصيا، هو فى ناحية، ومستمعوه فى ناحية أخرى، لو انصرفوا أجمعين لا يكف ولا يتوقف، وربما تزيد جمعهم،

وتعاطم شجوههم، وفي غمرة الترقق والانفعال يكف فجأة،
يميل رأسه حتى تلامس ذقنه صدره، عندئذ لا يمكن لإلحاح أو
رجاء أو قوة أيا كانت أن تدفعه إلى استئناف الغناء، عرف عنه
هيامه بأم كلثوم، وحفظه لأدوارها وأغنياتها القديمة، وجمعه
لأسطوانات نادرة صار العثور عليها صعبا، حتى أن إذاعة
البلاد استعارتها منه لتسجيل ما تتضمنه، لم يأمن.. فحمل
أسطواناته مضمومة إلى صدره كالوليد، وانتظر قلقا حتى
انتهاء النقل والتسجيل، أما إذا تحدث عنها فيلزم الإصغاء
إليه، وهو يصف صوتها، وطبقاته، ودرجاته، وكمون نبوغه،
ويقال إن له الحانا لم يطلع عليها أحد قط.

في الثامنة ينصرف القوم، غير مسموح بالسهر بعد الثامنة
واثنتي عشرة دقيقة، قبل الموعد تطفأ نار الركوة، تجمع
النراجيل، تصف فوق الطاولة الرخامية، يتابع صاحب المقهى
الحركة بعينين قلقتين، مع اقتراب الموعد يمد الخطى، بينما
تتباعد نراعه السمينتان، يتطلع إلى الساعة المعلقة إلى
الجدار، إلى ساعة معصمة، لأبد من إقفال الابواب تمام
الثامنة واثنتي عشرة دقيقة.

في المقهى خمسة عمال، أربعة مصريون، وخامس يمني،
يستوثق من وجودهم، يدخلهم المبنى، يدفع مصراعى الباب
الرئيسى، يؤكد أنه كان باب القصر الكبير فى الزمن العثمانى،
وأنه اشتراه بدراهم معدودات عند بيع أنقاض قصر أقامت فيه

زمننا إحدى العائلات المتنفذة التي صالت وجالت زمننا، ثم تفرق
شمل أفرادها، ولم يعد يقيم منهم شخص واحد في البلاد بعد
هجرتهم واحدا أثر الآخر، يخرج من ثنايا صديريته مفتاحا
كبيرا يديره ثلاث مرات، له طرقة وضجيج، يدفع الباب بكتفه
حتى إذا اطمأن انصرف مبتعدا، هذا شرطه حتى يناموا في
المقهى، النوم هنا يوفر لهم أجرة المبيت في الفندق، كان
باستطاعته الاستحمام في دورة المياه، أن يطبخ مع صحبه
أيضا، أحدهم شاب قصير القامة، كبير الرأس، تجاوز
العشرين بعامين، صعيدى، ولد وعاش في قرية قريبة من بنى
سوييف، أبوه فلاح أجير، يعمل بالكراء في أراضي الآخرين،
رزقه يوم بيوم، غير أنه جاهد وثابر، وأدخر من قليله حتى
تخرج ابنه في مدرسة الصنائع، أثر الابن أن يعوض حرمان
والديه وتعبهما وضناهما الطويل من أجله خيرا، فسعى، ادخر،
واقترض، حتى اغترب ليجمع قرشين ويرجع فيريح أباه من
شقاؤه الصعب، كان ينوى بمجرد نزوله مصر شراء سرير
لوالديه، ناما عمرهما كله فوق الأرض، إنه صموت، حى،
هادئ، لا ينطق إلا إذا سئل، وفي غير أوقات العمل يتمدد
محملقا إلى السقف، يؤدي أى عمل يطلب منه، عنده صبر،
وجلد، برغم سكونه، فإنه إذا بدأ الحديث عن قريته، عن والديه،
فان صوته يتفرق، وملامحه تحن، يكتب خطابات عديدة
يشيعها إلى والده، وإذا يتلقى خطابا من مصر ينفرد بنفسه،
يقرأه مرات، ثم ينتابه نشاط، يروح ويجىء، يقبل على خدمة
الكل، وقد يلوح بيده إلى السماء مخاطبا من يقابله عرضا.

.. « الحمد لله .. الوالدان بخيرا »

إنه أقربهم إليه، كلما أصغى إليه يتحدث أو يخبر عن والديه فكأنه يردد ما عنده، كأنه عنه يكتنى، وإياه يعنى، يناديه باسماء،
«يابنى سويف..»

إنه الأمهر فى الطبخ، يشترون الخضار خلسة، كذا اللحم، يخفونه داخل المقهى بعناية، حتى إذا انصرف المعلم نشطوا، بدأوا فى إعداد طعامهم، يدبرون نارا، يوقدونها بطرق شتى، يخفون وقيدها ولهيبها، لولح أحد جنود الدورية ضوءا داخل المقهى لوقعت أمور لا يدري عاقبتها أو مداها، عند الطرف الآخر من الحديقة، فى مواجهة المقهى يقع مقر عظيم من عظماء البلاد، مقرب لزعيمها المدعى، ويقال إنه يجيء ليقضى بعضا من وقته فى هذا القصر، يتخفف فيه من مسئولياته الجسام، ويتبسط، ويلعب رياضته المفضلة، التنس، أوقات ترده غير معروفة، مجهولة، عربات الدورية المسلحة لا تكف عن الرواح والمجئ ليلا ونهارا، أحيانا يتطلعون إلى أسواره البادية، ماذا يجرى هناك؟ ربما يكون موجودا الآن، لكن لا يعلق أحدهم، ولا يلفظ تعليقا أو دعاية، فقط عندما يغلق عليهم باب المقهى، يعزلون تماما عن الخارج، حتى إذا جاء أحدهم بسيرته خفض من صوته، وتحوطا لا يذكرونه باسمه، بل أطلقوا عليه اسم فريد شوقى المثلل الشهير، إن حذرهم لشديد، فالأحوال هنا غير ما عهدوا، وما عرفوا من قبل، إن

تألفا ومودة يسودانهم عند إعداد الطعام، عند القعاد لتناولها، إذ يوغل الليل يتمدد كل منهم على دكة خشبية مغطاة بالحصر، الحصر مستطيلة، تترك الحز أثر الحز فى الضلوع، غير أن العادة تهون، تخفف من كل شيء، يطوى الواحد منهم ملابسه تحت رأسه كوسادة، المشكلة فى الأيام الباردة، فثمة نافذة علوية مكسورة، وما من غطاء، إنهم يقربون الدكك من بعضها، ويوقدون الجمر لفترة، أما ليالى الحر فمقدور عليها، أمرها هين.

لا يبدأ العمل قبل العاشرة صباحا، دائما يستدعى زحام المقاهى القاهرية فى شتى ساعات النهار، تفتح أبوابها مع بدايات النهار، تفيض أنسا وحيوية، وكثيرون ممن عرفهم لا يمضون إلى أشغالهم قبل أن يمروا بـ «الاصطباحة» يشربون الشاي، وقد يتناولون الإفطار، بعضهم يدخل متمهلا ثم يمضون إلى سعيهم، لا.. المقهى القاهرى ونسة وألفة، هنا رواد المقاهى قلة نهارا، فى العصر يبلغ الزحام ذروته، لكل منهم مهمة محدودة فى المقهى، ما وقع على عاتقه منذ اليوم الأول، حمل أبريق نحاسى مملوء بالماء المثلج، وثلاثة أكواب معدنية، يطوف الصالة الداخلية والساحة الخارجية، ينادى:

- «مى..مى..»

إذ يصيح أحدهم

- «ولد..»

يلبى، يبدو النداء خشنا، جافا، فيه صيغة الأمر واضحة، فجة، تعلم الا يبدي ماعنده، أن يكتم حتى خلوته الليلية، الوحيد الذى خيل إليه أن ثمة تقاربا نشأ عنده تجاهه، صاحب المقهى، ربما لسمته، لهدوئه الكثيف، والأهم.. ميله وحب الغناء، وصوته الغريب الذى يختزل أحزاننا بعيدة، موغلة، غير أن وصل حبل الود بينهما كان أمرا صعبا، حوارهما يكاد يكون منعما والرجاء مقلع دائما من المكان، استمر الأمر هكذا حتى عصر ذلك اليوم الذى لم ينسه قط.. رآه يفك القفل الصغير الذى يمك به قرص الهاتف منعا لاستخدامه أثناء غيابه، إنه نادرا ما يتحدث عبر الهاتف، وإذا تحدث فإن صوته المرتفع يسمع من أركان المقهى، لم يكن يجيب هذا العصر إلا بغمغمات وإيماءات، وعندما انتهى بدأ مغتما ثقيل الحركة، لم يأو إلى مكانه الذى اعتاد ملازمته عند المدخل، إنما طاف الساحة، واستند مرة أو مرتين إلى الباب الرئيسى، تحدث بسرعة إلى بعض الجالسين، واضح أنه يستفسر عن أمر ما، وما من أحد يجيبه، إذ كان يرتد أكثرهما، لم يكن قادرا على متابعتة، إذ عليه أن يتحرك هنا وهناك ليلبى طلبات الظامئين، القيقظ وعمر، حر الديار شديد، أثناء مروره بالناحية المواجهة للنهر فوجيء بزميله البنى سويفى، الصعيدي، الصامت، يناديه، ماذا جرى؟، خشى أن يكون اضطراب المعلم له صلة بأحدهم، وأنه سينعكس عليهم، لا شىء يثبت هنا، وكل أذى متوقع، دائما ينتظر الضرر، غير أن البنى سويفى مبتسم، إن

وجهه يبدو طفوليا عند انفراج ملامحه، قال:

- «أبسط يا عم، الفرصة جاءتك لغاية عندك.»

دنا منه مبتهجا، قال هامسا إن أحدهم فيما يبدو كتب تقريرا فى صاحب المقهى، نبه فيه إلى خلو المقهى من لافتات التأييد، لا توجد إلا لافتة بالية قديمة، تهنى زعيم البلاد المفدى بالعام الجديد، أى عام؟ هذا مثير طبعا للسخرية، اللافتة مضى عليها ثلاثة أو أربعة أعوام، أى عام جديد هذا ؟ مقهى كهذا يقع فى مواجهة مكان يتردد عليه «المفدى» يجب أن يعوم فى لافتات لا حصر لها ربما تطلع الزعيم من الجانب الآخر للهديقة، ماذا سيجرى إذ يلحظ خلو المقهى، المبني الوحيد فى الناحية خال من أية لافتة؟، أما الصورة الكبيرة المعلقة عند المدخل والتي رسمها فنان معروف مقابل مبلغ كبير من المال فلم تشفع ولم تخفف، باختصار.. صاحب المقهى فى موقف حرج، اللافتات يجب أن تعلق فى أسرع وقت، الخطاط المعروف هنا داخل المدينة، مشغول للغاية، وإن يفرغ من المطلوب قبل شهر، إن المعلم فى موقف فظيع ، يخشى وصول خطاب اعتقال مفاجئ إليه:

إن اعتقال الخلق هنا لا يتم فجأة، لا يدهام رجال الشرطة منزل المقصود فجرا، لا يذهب إليه أحد، إنما يرسل خطاب فيه قرار القبض، ويتم تحديد موعد بعد أسبوع، بعد شهر، بعد سنة، وفى الموعد المعين لا بد من الذهاب إلى الجهة المحددة

وتسليم النفس وإلا لحق الأذى بكل من يمت إليه بصلة، حدث أن تلقى صاحب متجر فى السوق القديم خطاباً، تحدد فيه اعتقاله بعد شهر، انتاب الرجل رعب جسيم، ماذا فعل، ماذا جنى؟ انفض عنه كل قريب، وصار إذالقى السلام لا يجاوبه أحد، إذا سعى فى الطرقات يبتعد عنه الناس، يتحاشونه، سعى إلى جهات شتى، لم يجاوبه أحد، مضى إلى المركز المحدد لتسليم نفسه قبل الموعد المقرر، لكنهم رفضوا اعتقاله، أخبروه بضرورة الحضور فى الموعد المحدد بالخطاب، إلا يتخلف عنه، تملكه كرب كمن يعرف تاريخ موته مقدماً، عاف الطعام، وهجره المنام، بدأ يذوى، وقبل الموعد بيومين مال رأسه على صدره ولم يعتدل قط، لم يعرف القوم بموته إلا عند مجيء الليل، لحظة إغلاق المتاجر كلها، حتى بعد اكتشاف أمره هاب القوم الاقتراب، فأبلغوا ومضوا، إن المعلم يرتعد خوفاً..

قال البنى سويفى:

- «فرصتك هذه.. امض إليه الآن..»

ضحك صاحب المقهى، قال:

- «يا رجل.. ولماذا لم تقل منذ البداية؟»

قال إنه خاف إلا يلحقه بالعمل لو أفصح عن مهنته. أو شك المعلم أن يقول شيئاً، غير أنه عبس مرة أخرى..

- «ما الأمر؟»

الأسواق..

الأسواق أغلقت الآن، من أين لهم بالقماش والأحبار
والأقلام ، تساعل:

- ألا يوجد فى البيت قماش؟ ملاءات سرير بيضاء حتى،
ستائر، القماش أهم مافى الموضوع..
قال المعلم:

- هذا ممكن.. لكن الحبر..

- الحبر الموجود فى البيت أسود، يكتب به الأولاد، هذا لون
ممنوع الكتابة به.

- لكن الصيدليات لاتتلق ميكرا..

تطلع، أهة ارتياح طويلة..

- «أه منكم يامصريين.. عفاريت، والله عفاريت».

أما الاقلام فأمرها سهل، ما أكثر الخشب هنا، يمكن
تسويته بالمقادير المطلوبة، هرع المعلم إلى بيته، لم يمض إلى
قعدته الغروبية هذا المساء، أما هو فمضى ليخبز زملاءه، بدوا
مبتهجين، ما سيتم سيرفع أقدارهم فى نظر صاحب المقهى،
مضى إلى الخشب يبحث عن قطعة مناسبة، الثانى مضى إلى
حيث خبأ السكن، يقطعون به اللحم ليلا، ويقشرون البطاطس،
والباذنجان، الثالث قرب منضدتين متساويتى الارتفاع،

ضمهما، وضعهما عند الناحية المواجهة للمقر، هنا يقل عدد المترددين، لا يفضلون الجلوس على مرأى من مقر هذا العظيم، يجلسون بعيداً، مديرين ظهورهم له، ربما لكراهية يضمرونها، ربما لخوف، لخشية، للدوريات لا تكف عن المرور، لو حمله أحدهم تجاه القصر، لو شردت النظرات، لو علقت، ربما أسىء تفسير الأمر، قال أحدهم:

- «أين ذلك من القعاد أمام النيل؟».

المصابيح القوية تضاء قبل اكتمال الغروب، راح يبصرى قطعة خشب، يسويها، يرفعها فى اتجاه الضوء، عند حد معين بدأ راضياً، جاء المعلم لاهثاً، عرقه غزير، يمسح عنقه وجبهته بمنديل كبير، تطلع متفحصاً، كل شئ فى موضعه، القلم، أدوية معالجة الجروح، حمراء، صفراء، بسط القماش الأبيض الذى كان فى الأصل ثلاث ملاءات تفرش الأسرة.

هل يصلح القماش؟

طبعاً.. القماش ملائم..

عند الثامنة وعشر دقائق، قبل موعد الإغلاق الرسمى، تم تعليق لافتة بعرض المدخل، الخط الأبيض، الخط الأزرق، ضخم يقرأ من مسافة بعيدة:

«مقهى الزمن القديم يحيى ويؤيد الزعيم المفدى».

علق بصر صاحب المقهى باللافتة، دار حولها، وتأمل من

جهات مختلفة، عاد إلى صمته، إلا أنه بدأ راضيا، مرتاح البال، وإن لاح إنهاك خفى بين ملامحه، وفي خطوه، بعد أن أغلق الباب عليهم تابعوه من خلف زجاج النافذة الجانبية المستطيلة، كأنه تقدم في العمر فجأة، شأن من تعرض لمأزق عظيم وجاءه الفرج في اللحظة الأخيرة .. استمر واقفا عند المدخل الخارجى، رافعا وجهه صوب اللافتة، ثم استدار متمهلا، يده وراء ظهره متماستان، مضى تلفه الظلال والعممة.

فى اليوم التالى لم يوزع الماء المثلج، إنما قعد فى الساحة الخلفية يرتب ما اشتراه صباح اليوم من الأسواق، قماش اللافتات، الأحبار، الأقلام، الفرش، الألوان، عدد من الرواد أبدوإ إعجابهم بما فوجئوا به معلقا فوق رؤوسهم، فى كل يوم يجيئون ليجدوا أن لافتة قد أضيفت، تحمل عبارة من أقوال المفدى، أو جملة ترحيب به، أو تأييدا، أو دعاء بالنصر، ماجذب الأنظار وشد الانتباه، تنوع اللافتات، فواحدة من قماش أبيض، وأخرى من قماش أخضر، أما ما أوقف العابر، وأثار الإعجاب، ما كان سببا فى قيام المسئول الثورى للناحية بزيارة المقهى فيما بعد، ومجىء عدد من الصحفيين والمصورين، فتلك التى امتدت بطول الباب القديم، جملة من أقوال الزعيم، لكنها صيغت فى خطوط متداخلة، متصلة، منفرجة، بحيث يتشكل منها وجه لا يمكن للناظر إليه أن يخطئ ملامحه. لأيام متتالية لم يكف صاحب المقهى عن الشرح، والإشارة إلى الحروف، وتفسير ماغمض منها، يزهو، يتباهى، يمكن القول إنه راض

الآن، أمن.. وعندما جاء مسئول الناحية، طاف به، أشار إلى اللافتات، أفاض فى الشرح، هز المسئول رأسه مرات وهو يتأمل اللوحة والحروف العربية التى تحدد ملامح الزعيم فى تشكيل جمالى بديع، قال إنه سيرفع تقريرا إلى هيئة الإعلام لعمل الدعاية اللازمة، لكن.. على وجه السرعة مطلوب عشرون لوحة أخرى مماثلة.

يمكن القول إن هذا كان بداية حظه، وطلوع سعده، وإشراق نجمه، وثباته فى الغربية.

جاء وفد إذاعى، أجرى حوارا مع صاحب المقهى، تبعه آخر تليفزيونى، ضرب المذيع باللوحة المثل على طاقات الحب الكامنة فى قلوب الشعب الطيب الأصيل تجاه قائده المظفر.

لم يتحدث إليه أحد، ولم يدعه صاحب المقهى لمقابلة الزوار المعجبين، ولو أن مبدع اللوحة واحد من أهل هذه الديار، لتغير الأمر، ومضت الأحوال إلى مسار مفاير، إلا أن صيته ذاع، وأمره انتشر، توافد عليه بعض من رواد المقهى، وأصحاب المتاجر، وعربات النقل، طلبوا لافتات مماثلة، إلا أنه أبدع فنوع فبهر الآخرين، تزايد حجم عمله، وأصبحت المساحة الخلفية القريبة من الحديقة تخصه تقريبا، بدأ صاحب المقهى راضيا، متقبلا، إلا أن الأمور لا تظل كما هى، والأحوال لا تثبت، والظروف مهما طالت موقوتة، لها انتهاء، ولو لم تكن نهاية لما كانت بداية أصلا، فبعد اتساع عمله وجريان الرزق بين يديه،

وقضائه خمس عشرة ساعة يوميا منكبا، تزايدت حاجته إلى مكان يخصه، يريح فيه جسده، أما هذا الحصر فيحدث علامات في جلده، وألما في عظامه، والأدهى ذلك المكان المغلق. لم يعد يطيقه، لم يعد قادر أن يغفو في موضع لا يقدر على فتح بابه، لم يطل الوقت، حانت اللحظة التي يفارق فيها المقهى، حاول المعلم أن يستبقه، ولما أدرك أنه الفراق، رجاه أن يزوره من حين إلى حين، بدأ المعلم رقيقا، طيبا، مترقرق الصوت، قال إنه اعتبره كابنه، وإنه لن ينسى أبدا جميله تجاهه، يعلم الله كم هو مدين له، وعندما تلاقت نظراتهما في لحظة وداعية، أيقن أن هذا الرجل يخفى أكثر مما يظهر، يبطن ولا يبوح، عائق صحبه، زملاء المقهى، أوصاهم بالتردد عليه، وعدم الانقطاع، خاصة البنى سويفي!.

اتخذ مسكنا قرب الشارع الرئيسي، فيه حمام، حمام يخصه هو، مسكن محكم، خلو من تيارات الهواء الباردة التي كانت تشق فراغ المقهى مصدرها مجهول، بيت يمكنه الدخول إليه والخروج منه عندما يشاء، إذا أراد المشى عاريا مشى، وإذا رغب التمدد حينما شاء تمدد، به شرفة يمكنه الوقوف بها والنظر إلى الطريق إذا ماكلت عيناه، راج أمره في المدنية كلها، بل جاءه نفر من مدن قريية، بعضهم من ذوى المكانة، رجوه، ألحوا عليه لسرعة إتمام لافتاتهم، عرف الطريق إلى المصرف، أصبح من المخاطرة الاحتفاظ بما يدخره في البيت.

إنه يعمل بدون انقطاع طوال أيام الأسبوع، لكنه بعد توالى عدة أسابيع مرهقة خصص بعد ظهر الخميس لراحته، يرتدى ملبسه، يمضى إلى قلب المدينة، إلى السوق التجارى المغطى، حيث يمكن للنساء أن يمشين على مهل، تثيره نظراتهن الخلسى، الشبقة، أحيانا يقتفى خطى إحداهن، يتلقى بحواسه الأزيز الخفى، يدخر اهتزاز القوام، ونحولة الخصر وترجرج الأرداف لخلوته الليلية، فيستعيد متمهلا مثلثذا، مبطنًا ما يراه أو متوقفًا عند صدى نظرة متخمرة، داعية له، متخذة طريقها إليه فى الزحام، أما إذا بلغ الزحام النادر حداً مكنه من مس جسد إحداهن، أو الاقتراب من مشارف الرائحة الخاصة.. فإن ذلك يشعل ليلاليه، يؤرقه، ولا يفلح جهده فى إرواء ذاته بذاته!

يوم الخميس أيضا اعتاد المضى إلى أحد المطاعم، يأكل لحما أو دجاجا، ثم يرجع فى ساعة متأخرة، يصفى إلى المذيع، يدير مؤشر الجهاز الصغير، القوى:

- «هنا القاهرة...»

لتكرار الإصغاء يعرف الآن أصوات المذيعات والمذيعين، ومواعيد عملهم، أحيانا يسمع على البعد حفيف الأوراق التى يقرأ منها المذيع الأخبار، تتدفق عندئذ الصور، مبنى الإذاعة المثل على النيل، القوارب، والجسور، ويمضى شارع فى أثر شارع، وناصية بعد الأخرى، وبيوت لم ينس واجهاتها، حارات لم تبته روائحها عنده، ودكاكين لها مغزى ومعنى عنده، حتى يتوقف عند مسجد أحمد بن طولون، يمضى متمهلا إلى

الحارة، إلى البيت، وإذ تطالعه قعدة أمه عند المدخل، تتطلع إلى منحنى الحارة، مترقبة، منتظرة، إذ يراها ولا تراه، يرقب هيئتها ولا تلمحه، إذ يرصد الحزن القديم، يقوم قاعداً فى فراشه، يدرك بحدّة أنه بعيد، قصى، يحصى ما تبقى من شهور على التاريخ الذى حدده لعودته فى أجازة، لن يطول به المقام فهو غريب، لكنها الضرورة والرغبة فى تديير الأمر.. فى مثل هذه الليالى يغفو وعنده رغبة فى هجاج، أما كبده فينزع حينها، إنه يصحو وعنده غم، وميل قوى لاستئناف النوم، إلا أنه يتذكر ما التزم به فيفارق السرير كدرا، عبوسا، حتى إذا قعد إلى أقلامه وألوانه استغرق شيئا فشيئا، مفكرا فى محاسن حاله، إنه لا يعمل عند أحد، لا يضطر إلى الذهاب هنا أو هناك، أما ما يتقنه فنذر من يعرف مثله، وهذا يضىف عليه قوة.

العمل كثير، والمناسبات متوالية هنا، محورها زعيم البلاد المفدى، مناسبات عارضة، وأخرى ثابتة، أما العارض فافتتاح سيادته لمشروع جديد، أو منطقة سكنية، أو محطة كهرباء، أو مقر جديد لوزارة، أو زيارة إلى إحدى نواحي البلاد، أو زيارة إلى دولة أخرى، وهذه الزيارات الخارجية تفتضى عملا نشطا، فلافتات تودعه عند رحيله الليمون، وأخرى تستقبله عند عودته المظفرة، أما المناسبات الثابتة فمعروف تواريخها، يجرى إعداد العدة لها مقدما، فمنها حلول شهر رمضان المبارك، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، وليلة النصف من شعبان، وعيد رأس

السنة الهجرية، أما هلول عيد ميلاده فأوسع الاحتفالات وأشدها، إنه موسم العمل بلا كلل، وبيع قماش الالافتات الأبيض بأربعة أضعاف سعره فى السوق السوداء، يحتاط له القوم ويحتاطون منه، يحتاطون له بإعداد كل منهم لافتة جميلة، ويحتاطون منه بتدبير قماش ملابسهم الصيفية أو الشتوية قبله بوقت كاف، لا ينسى أحد عندما شح قماش الدمور والبفتة والدبلان وسائر المنسوجات القطنية السادة والملونة، حتى لم يبق فى المخازن متر واحد يكفى لتفصيل قميص لطفل، كما أنهم يدخرون أيضا البيض والدقيق واللين، خاصة البيض، فعند ذروة الاحتفال بالعيد تعد الكعكات وتوقد الشموع، كعكة العاصمة، وكعكة فى كل مقاطعة، وأخرى فى كل مدينة، ومحلة، والحق أن اطلاق كلمة كعكة إنما من قبيل المجاز، فكعكة العاصمة مثلا يبلغ قطرها عشرين مترا، وارتفاعها ثمانية، وقيل عشرة، ويجرى إعدادها فى وسط الملعب الرياضى الكبير، وعند إطفاء الشموع هائلة الحجم المستوردة والمصنوعة خصيصا طبقا لمواصفات معينة تجيء عربات المطافئ من فرقة العاصمة وضواحيها، مزينة بصور سيادته، مكللة بالزهور، وتنصب السلالم فى أوضاع محسوبة، وفى اللحظة المحددة يتم تسليط أجهزة خاصة، تطفى النيران المتصاعدة، ويكون هذا إيذانا بإطفاء الشموع فى المدن الأخرى، وأمام بيوت العائلات التى يخرج أفرادها كلهم حتى البنات من خدورهن، والأطفال على أباط أمهاتهم، لا يتخلف عجوز أو صغير، ويتحلقون أمام مداخل البيوت حول الكعكات، وبعد إطفاء

الشموع تجرى الرقصات ويبدأ الغناء فى الشوارع وتنطلق الأهازيج ولا يتوقف الأمر إلا بعد طواف المراقبين التابعين للهيئة السياسية واللجان الثورية، حتى يرصدوا من تغيب، أو من يشارك بغير حماس، قيل بين القوم إن كعكة العاصمة وحدها تستهلك عدة آلاف من البيض، وأن القشر المتخلف بعد تطقيشه يملأ عشرات السيارات، وينشئ جبلا صغيرا فى كيمان القمامة خارج المدينة، وهذا من أعجب ما سمعه وعأينه.

عيد ميلاد المفدى ذروة المناسبات، ولكن ثمة أخرى تتوالى، عيد تسلمه السلطة، وانتصاره على خصومه، وعيد قيامه بالحركة التصحيحية الأولى، ثم الانفاضة المباركة، وعيد إعلانه الثورة التعليمية، والثورة الصناعية، والثورة الزراعية، والثورة الثقافية الثانية، والثالثة، وعيد ظهور أول مؤلفاته، وعيد شفائه من المرض، وعيد سباحته فى البركة الصناعية، وجريه فى السهل، وعيد تهديده القوى العظمى!.

أما الأيام الثوابت فمرتبطة كلها بحياته، فمن ذلك الثالث من سبتمبر الذى شهد قيادته للمظاهرة الطلابية الكبرى عندما كان تلميذا فى المرحلة الأولى، والرابع من أبريل، والسادس من مايو، والتاسع من نوفمبر، والرابع عشر من يناير - وكان الثالث عشر فى الأصل إلا أنه قدم يوما لتشاؤمه من الرقم - أما الرابع عشر من يونية فهو عيد إعلان المرسوم الشعبى بالأى يطلق اسمه المفدى على أى مولود، فالبلاد كلها لم تنجب إلا

شخصا واحدا يحمل الاسم الذى لا يذكر مجردا، ومثله لا يمكن أن يتكرر !.

لقد دون هذه التواريخ فى مفكرته، وأحصاها، حتى يرتب ظروفه، كما أنه استقصى حذرا إمكانية سراء كميات هائلة من القماش وتخزينه عنده على الرغم أن هذا لا يعد مخالفا أو معوقا للهدف، فمن الشائع، الثابت، أن أى شخص يقوم على تخزين البيض أو السكر أو الدقيق أو القماش يعاقب باعتباره عدوا للشعب ولسيادته، لكنه هو يحتفظ بالقماش اللازم حتى يلبي طلبات الناس فى الوقت المناسب، خاصة أن المفاجآت عديدة، فجأة تنطلق مظاهرات تأييد أو شجب، تأييد الزعيم، أو شجب الخونة والعملاء والمأجورين، أو شجب سياسة قطر مجاور، أو بلد آخر، هذه المظاهرات يلزمها عدد لا حصر له من اللافتات ، لابد من تجهيزها على وجه السرعة، ربما ألقى سيادته خطابا مفاجئا، أو أدلى بحديث مطول إلى صحفى أجنبى، عندئذ تغمر الشوارع لافتات تؤيد كل عبارة وردت، أو تبرز بعض الأقوال المعينة.

كان أثناء انهماكه يحاول تخيل أولئك الجهوليين الذين يؤيدهم، أو يشجبهم، أو تلك الزمرة العميلة التى يبارك استئصالها، يتساءل.. من أفرادها؟ أى شجاعة دفعتهم إلى التحدى؟ ولأن زعيم البلاد المفدى هو المحور والركيزة، أصبح يشعر أنه قريب منه، وأن علاقة لها خصوصية تربطه به، ليس

الولاء، ليس الحب أو الكراهية، صلة عجيبة بمقدار ما فيها من رهبة، بقدر احتوائها على تهكم دفين، وإدراك لخبايا الملعوب.

سنة شهور انقضت، تعاضم خلالها حجم العمل، حتى لم يعد قادرا على ملاحقة وتلبية الطلبات، الثابت منها أو المتغير، المعروف أو المجهول، فى بداية الشهر السابع أتاه زميله القديم فى المقهى، البنى سويفى بشابين، أحدهما خريج زراعة، والثانى خريج مدرسة الفنون والصنائع، داخ كل منهما فى البحث عن عمل وحفيت قدماه، عندهما هوية للخط، لكن تنقصهما الدراية، صبر عليهما أياما حتى أصبح ممكنا له الاعتماد عليهما، فك ضائقتهما وأقرضهما مالا يخضم فيما بعد من أجرهما، وأبدى معهما أنواعا من الشهامة والجدعنة، ومن ناحيتهما بذل كل منهما أقصى الجهد ليعطى أفضل ما عنده، بعد أسابيع انضم إليه ثلاثة آخرون، صار من يعمل معه خمسة، هكذا تيسر أمره للغاية، وراج حاله جدا، بدت أيام المقهى نائية، بعيدة على قريها، يعجب.. كيف احتمل النوم على خشب الدكك والمبيت فى مكان مغلق كالسجين؟، إنه يكتب الآن خطابات أقل، ويتلقى أكثر، تتباعد نوبات حنينه وإن لم تخف حدتها، كما أنه لم يتخلف قط عن تحويل المبلغ الذى خصصه لأسرته، ومع أى مسافر يثق به يرسل قماشاً وحلوى، وبعضا مما تيسر، كذا بعض الهدايا الصغيرة للجيران، بل أرسل عباءة صوف إلى صاحب المقهى الذى حن عليه يوما، غير أنه لم يذكر خديجة فى رسائله، وتذكر أنها بنت حلال وأصيلة، لم

يخف عليه التلميح وإن تجاهل الرد أو الإشارة، تيسرت أحواله
ولانت ظروفه أيضا، ولرقة طبعه ودماثة خلقه ومهارته فى
صنعتة، تعرف إلى عدد من ذوى الحيثية والمكانة بعد ترددهم
عليه، وطلبهم لافتات جديدة، أو التوصيات على لوحات ذات
مواصفات خاصة تعلق فى السرادقات أو فى الطريق الذى
يسلكه الزعيم ، مكتته علاقاته تلك من التوسط لدى بعضهم
لإيجاد عمل لبعض من تعرف بهم أثناء تردده على المقهى
القديم، أحيانا يمد هذا أو ذاك بمبالغ صغيرة لتجهيز أنفسهم
بمتطلبات الاعمال التى سيلتحقون بها، كما كان يساهم
بالنصيب الاكبر فى تكاليف شحن جثمان من يلقى حتفه هنا،
يقول لمن معه، المصرى لا يدفن إلا فى أرضه، ومما أثر فيه هذا
التسابق الذى يلقاه من عمال فقراء، لا يدرون ماذا سيكسبون
غدا، لكنهم هم البادئون دائما بجمع ماتيسر لإغاثة من لحقته
ضيقة، أو نزلت به محنة، أو عسرت أحواله ، أو وافاه أجل لا
مفر منه، كان لا يتردد أبدا، وبالجمله فإنه صار مشكور السيرة
محمود الخصال، رائج السمعة الحسنه، بين أهل بلده، وأبناء
تلك الديار، ويمضى المدة صار هناك سبب آخر لهدوء أحواله،
واستقرار نفسه، وترطيب أيامه، وتلطيف وجوده هنا وتثييته،
ذلك أنه تعرف ببنيه جميلة، رائقة المظهر، نارية الجوهر،
وتفصيل ذلك شائق.

ذلك أن البيت الذى يقطنه، ويتخذ من أحد طوابقه مقرا،
يتكون من أربعة طوابق، وبذلك يكون من المباني المرتفعة

بالقياس إلى بقية المعمار فى المدينة، فى الدور الأول تعيش أسرة هندية، عائلها يعمل فى المستشفى الأميرى، وفى الثانى عجوزان بلغا من الكبر عتيا، يقضيان جل وقتيهما فى الشرفة، تمضى أيامهما هادئة عدا يوم الجمعة الذى يعلوفيه ضجيج الأحفاد، وأحاديث الأبناء، الثالث مقرة هو وسكنه، فى الأخير أسرة صاحب البيت، الرجل تاجر مصنوعات جلدية، امرأته هادئة، فى حالها، لم يرها إلا مرتدية العباة السوداء، كانت تمضى إلى المستشفى الجديد بانتظام، كثيرات يذهبن إلى العيادة الخارجية ليس طلبا للعلاج، ولكن من باب الترويح عن النفس والفرجة على الطريق، والثرثرة أثناء الانتظار، أبناؤهما ثلاثة، ولد وبنتان، كان إذ يلتقى البنتين بغض الطرف، وإن أدركته نشوة غامضة، يتخلله الفيض الأنوثى للكبرى، ويطاله، رائحتها، نظراتها الخلسى المتقدة، فى الليل يستدعيها، يتخيلها فى أوضاع شتى، حتى يغفو منها، لم يرها إلا معا، حتى جاء ذلك الخميس، عند خروجه إلى جولته، أمام شقة الطابق الثانى، كانت تصعد متمهلة، وهو ينزل متندا، مدغدا برؤياها، ترتدى العباة السوداء فوق الزى المدرسى الأزرق القصير الذى بدا من انفراجة أتاحتها، أما أنفاسها فيكاد يراها لسخونتها، أما النظرات فمتدفقة فائرة، مبهرة بعينيها الواسعتين، تحاول إسدال خفر وحياء لكن عبثا، توقفت حتى يمر، تمهل.

- مساء الخير..

أمأت، مضى وجسده يولول بالرغبة، لوقفها الصامتة،
الترقبة فحيح، غليان، وعيد، سمع كثيرا من صحبه فى المقهى
عن جراءة النساء فى هذه الديار إذا ما أتحت لهن الخلوة، وأن
الواحدة منهن إذا استوثقت وجودها بمفردها مع من ترغب
شرعت فوراً، برغم الحكايات العديدة فإنه التزم الحذر، إنه
غريب، يخشى إثارة مشاكل لايدرى مداها، مع أن مجرد
تخليها عند أنفراده يفرج ويخفف عن زمته جسده، ويسرى عن
رغبته، كان لديه حس خفى أنه مقدم على أمر، وأن بعضا مما
سمعه عن الآخرين سيمر به ، مجرد استعادته ملامحها يخفق
قلبه، يتعجل المصادفة، تلقائية أو مدبرة !

حتى حانت تلك الظهيرة..

كان منهما فى كتابة لوحات ورق مستورد خصيصا،
مطلوبة لإحدى الجهات الرسمية، ولأهميتها لا بد من إعدادها
بنفسه، عندما فتح الباب بوغت، تقف أمامه متأججة، نافرة،
وعندما دارت لتتظر السلم، لتتأكد أن أحدا لم يرها، لم يلمحها،
أعلنت فى الوقت نفسه سرية قدمها، وأنبات ببدء مغامرتها،
ولجت داخلة، أغلقت الباب، اقتحمته عينها، كان شعرها
الاسود طويلا، مسترخيا، شارد الخصلات، كانت بضاضتها
تتخطى الفراغ الذى يشغله جسدها إلى فراغ البيت كله، وعلى
مهل، بعق، استنشق رائحة الانثى، فأشاعت عنده دفئا،

وأنسا، أما رغبته فتأججت قاسية، تطلعت، تردد بصرها بينه وبين الأرض مرات، ثم استقرت سافرة الملامح، عالية النداء، ملقية عنها كل خفر، أصابع يديها متداخلة، فى وجهها ظمأ قاس، وتوق، ودعوة عاجلة، واستعداد أتم لفك الحصار، إنها الجراة الهادرة التى تندلع جارفة كل شىء اذ تحين الفرصة، طقت خميرة الرغبة عنده، قالت بصوت متعثر، غير مسترسل إنها تريد لوحة للمدرسة، مجرد نطقها أوصل أمره إلى مداه، أما نظراتها فأججت أمورا كامنة طال كتمانها بتأثير جهد يمتص منه الطاقة، ويستنفد منه جل القدرة، تقدم مادا يديه، وعندما لامس أناملها حطت كلها عنده، بركت وأقعى، لم يتصور أن الامر سيتم بهذه السرعة، لقيها دافقة، تقصى حرمانا وتهتك أسوارا طالما خنقتها، تسعى إليه بقدر ما يسعى إليها، رددت فى غمار نعاسها اليقظ..

- «شبعنى.. شبعنى..»

رأى عجبا، طرقت درويا لم يعرفها من قبل، فى لحظات تتباعد مكوناتها، تتراخى، تتفكك أوصالها حتى ليخشى عليها، وما أن ينحنى ليلمسها بشفته أو لينادىها فكأنه ينفخ فيها السر، تتورد، تزهر، ولحظة بلوغها الأوج تبدو منفلة، خارج كل قانون، شهيدة فى تعبيراتها، حتى أن تمام متعته لم يكن يتم إلا برؤية ملامحها، وتقصى انتفاضاتها، وطفراتها، وقطعها المراحل حتى بلوغ همودها، كان يغالب جموحه

النهائى، فالبنت عذراء، إلا أنها لم تكن تعباً، ما سمعه عن شقيق نساء هذه الديار لشدة التضيق عليهن والحجر يتضامل وتفضيل الرجال هوى الغلمان، ما تردد أمامه يتضامل بالنسبة لما عاينه، لما رآه منها، مع أنها لم توغل فى سننى الحياة بعد، اعتادها، أصبحت جزءاً من وقته، حتى أن اللحظات التى تسبق مجيئها كانت مصدراً لمتعة بذاتها، كتب إلى والديه وإخوته ينيئهما بتأجيل موعد عودته، بدأ له ما انقضى من عمره مهدياً، أما إنسانيته فظلت ناقصة حتى مجيئها، وظهورها وحتى يفرغ لها، وتفرغ له، استأجر بيتاً قريباً لمن يعملون معه، ليكون مقراً للعمل، ويقيمون فيه أيضاً، فرحوا، رحبوا، واستراح هو، إذ ألقاه وجودهم فى البيت الذى تسكنه هى، خشى ميلها إلى أحدهم، يعى أنها لن تتردد، لن تتراجع، بل ستقدم إذا قررت، وعندئذ لا يقدر على التنبؤ بما سيكون منه، قال لهم إنه يود الانفراد بنفسه، السكن سكن والعمل عمل، طلب منهم الا يجرى أحدهم إليه مهما كانت الظروف، إذ يتخيل انصهارها فى إحدى اللحظات بين ذراعى غيره يطق غيرة وغضباً، امتزجا، خبر تضاريسها، رائحتها، شذا اقترابها، ولسع ملحها!

لم يعد يفارق البيت كثيراً، يمضى فى الصباح عند ذهابها إلى المدرسة، يتابع تنفيذ اللوحات، يبدى الملاحظات، ويخط بيده مايرى أهميته، أو يرسم الخطوط الخارجية للكلمات، يدع

ملء الفراغات لهم، بعض الطلبات صار يوكل تنفيذها إليهم، كان يردد لنفسه دائما، أنه أصبح صاحب عمل، كما أنه يثق بهم، خاصة ذلك الشاب النحيل، الهادئ الذى جاء يبحث عن وظيفة مناسبة لمؤهله فى علم المساحة، اكتشف عنده قدرة على تجويد الخط وإتقان فنونه، غير أن أمره لم يطل معه، إذ فوجئ يوما بتفجيه، وعندما استقصى واستفسر علم أنه استقل، وافتتح محلا فى ضاحية قريية، ضاق فى البداية، وطافت الافكار القاتمة برأسه، لو أخطره، لو أفضى إليه، ربما خفف ذلك من وقع الأمر، ضاق بالقدر، يمكنه إلحاق الأذى به عن طريق أحد المعارف المهمين الذين يطرقون بابه، لكنه استبعد ذلك، بل لام نفسه فيما بعد، كيف يفكر فى إلحاق الأذى بمن جاء فى ظروف كظروفه؟، استوحش ذلك منه، السوق تحتمل عشرين آخرين، فلماذا يغضب أو يضيق؟، بل إنه مضى لزيارة المحل الجديد، لو أن الخطاط العجوز الذى أنس منه مودة ومحبة مكانه لأقدم على ذلك، أحيانا يستعيد أيامه معه، الصباحات الباكرة فى شارع محمد على، والمباني العتيقة، وتدايعيات الذكرى المتتابعة، والأدراج المكدسة بالاختتام والكليشيات، كان أيامه مع الرجل الطيب انقضت عليها سنوات طوال، بل يخيل إليه أحيانا أن شخصا غيره عاشها، مر بها، أثناء عمله وإصغائه إلى مرويات الرجل وحكاياته لو أخبره أحدهم أنه سيكون بعد أقل من عامين فى هذه الديار لما

صدق، ولما تخيل أبدا إمكانية حدوث هذا، أو لقائه بهذه البنية، هل تصور يوما وهو يسعى فى حوارى السيدة، أو قلعة الكباش، أن بيتا كهذا سيضمه مع غريبة عنه، وأن جسده سيلج جسدا فائرا، هنا، فى هذا المكان، فما أعجب التدبير !

عاتب الشاب خريج مدرسة المساحة، قال لو أنه أخبره برغبته فى الاستقلال بعمله لساعده ومد له يد العون، احتفظ الشاب بصمته، واكتفى بالإيماءات الحذرة، وعندما قام صافحه، وأوصاه ألا يتردد فى اللجوء إليه لو اعترضه سيب، أو نزل به ضيق، وألح إلى إمكانية تعاونهما، فهما فى النهاية أبناء بلد واحد فى ديار غرية، غير أن الشاب لم يبد حماسا مقابلا، وانصرف عنه مرددا، هل أخطأ فى سعيه إليه؟ لأسابيع متتالية لم يهن أقباله على صاحبته، طالأت أوقات بقائه فى البيت، إنها تجيء عند أى سانحة، عند خروجها لشراء شىء ما، أو إلى موعد الدرس الخصوصى، أو فى الأوقات التى ترتبها بإحكام مع إحدى صاحباتها، ثلاث مرات لم تتم نزول السلم فى الصباح الباكر، تغيبت فيها عن المدرسة لتقضى نهاراتها معه، أما ما أثار خشيته فمجئها الليلي، انتظارها نوم الأهل، دخولها عليه حافية، مرتدية قميص النوم القصير، فى الليل تكون أشد انقادا، قليلة الكلام، إذ ما رغب تبادل الحديث لقى الفاظا قليلة وتطلعا إلى البدء من جديد، حتى أن الوهن يبدأ وإذا خاطبته قالت:

- حبيبي.. حياتى.

وكان يلمح إيقاع المثلثات المصرية فى لهجتها، واقتربها منه، اعتاد زيارتها الليلية، وصار يتأهب لها، غير أن الامور لا تثبت على حال، وإذا استقر جانب تبدل آخر، وإذا ما استقامت ناحية، تضعضت جهات.

هل كان انشغاله بصاحبته تلك البداية، وانقطاعه عن متابعة عمله، أم تفتح رغبته عند حد معين للتعرف إلى أخريات؟ أم تنفيذ ما طلبته هذه المرأة العجوز التى جاءت باكية متوسلة، إذ اعتقل ابنها منذ عام كامل، ويعد أن لفت ودارت ، استعطفت واسترحمت، طلب منها مسئول ذو نفوذ يمت إلى قبيلتها وله برجال الزعيم صلة أن تنفذ ما طلب منها، أن تعد ألف لافتة من قماش جيد، تعلق فى منطقة سكنها تحمل الدعوات وعبارات التأييد، سعت إلى عدة خطاطين، إلا أنهم ماطلوها، وتهربوا منها، مع أنها عرضت مبلغا كبيرا من المال، ذهب من مصاغها، لكن كلا منهم زاغ بوسيلة أو طريقة مغايرة، مع أن هذا مشروع، وعرف جرى العمل به، عند طلب العفو وقبوله يتقرر كتابة عدد من اللافتات يجرى تقديره من قبل المسئولين، طبقا لدرجة الجرم، أو العقوبة المحددة سرا، أحيانا يطلبون خمسمائة، ومرة أخرى ألفين، وفى إحدى المرات قام تاجر فى الصاغة القديمة بإعداد خمسة آلاف لافتة، وهذا أكبر عدد عرف، رق للمرأة التى كانت تمشى بصعوبة، وتتحدث بضعف، وحتى يؤمن عمله، استفسر من أحد العاملين بأمانة الناحية، فأخبره أن هذا عادى، معترف به، وإلا لما صدر الطلب أصلا..

عندئذ شرع، وأوصى العاملين معه..

أى سبب كامن، ومن أى نقطة بدأ الأمر، ربما ماجرى للفتى
البنى سويفى كان نذير الشوم، لكم أحب هذا الشاب القصير،
الصامت، الذى لا يتحدث بانفعال إلا إذا ذكر والديه البعيدين،
والذين اغترب لتعويض بعض من كدهما، وحرمانهما من أجله،
عندما جاءه أحد العاملين بالمقهى وأخبره باحتراق المقهى ليلا،
صرخ جزعا..

- «مات أحد؟»-

واحد فقط، البنى سويفى، اختنق بالدخان قبل أن يتمكنوا
من كسر الزجاج العلوى والخروج، ضناه حزن، وقال لصحبه..

- «لن يدفن إلا فى مصر..»-

وتبرع بمال كثير، وتبرع آخرون لتجهيز البنى سويفى،
وشحن الجثمان فى صندوق مغلق، لن يفتح، هو الذى قام بهمة
عالية لنقل الجثمان، هل أثار ذلك غضب المسؤولين هنا؟ هل
حنقوا عليه لسبب ما؟

لايدرى، مامن سبب واضح مثل فى وعيه عصر ذلك اليوم.
كان يجلس فى صالة البيت، محاطا باللافتات،
والصورالمعدة لإحاطتها بالإطارات، كان يتوقع مجيء البنية
أيضا، لكثرة تردها صارت رائحتها فى فراغ المكان، كان
يستعيد دخلاتها عليه، غير أن رغبة قصية داخله بالأا تجى،

كان يتطلع إلى فك مغاليق أخرى، ثقته أكثر بنفسه الآن، منذ أيام لم تغب عنه هذه الصبية التي تسكن البيت المجاور، طويلة الضفائر، متينة الأساس، مقببة الأرداف، تبادلنا نظرات خلسة، حذرة، هل أولته اهتماما باديا، أم لاحظها عابر، على أية حال. فليحاول ، فليدبر أمر اقترابه منها، يستعيد حضور جراتها الفتية، وكأنه يود تبديد شعور بالذنب ، يلوح بيده ناطقا خواطره بصوت مرتفع : إنها لا ترتوى، وأنا بحاجة إلى من أتكلم معه! هم بتخيل الصبية الأخرى، مدهشة العينين. تردد طرق غير مألوف، قبضات ثقيلة، مرة، هذه وجوه مقتحمة، لا يعرف أصحابها، الشوارب ثقيلة، يدفعه أحدهم جانبا، يلج المكان متلفتا حوله..

- «أنت» -

يتفحص المكان متمهلا، ينتشر خمسة من الأشداء المسلحين، يقلبون اللافات، اللوحات الصغيرة، يتأملون بعض اللوحات التي خطها للعجوز كي يتم نسخ مثيلها، يعرضون القماش للضوء، بدا مرجوفا، خائفا، ما سمع عن وقوعه لآخرين يجرى له، يمر به، بوهن، بحنين، بالأم، ألحت عليه ملامح أبيه، وأهله البعاد، وقعدة الرجل الطيب في دكان شارع محمد علي، كأنه يلتمس منهم مددا، أو عوننا خفيا.

أكد أنه لم يأت مخالفة، لم يقدم على إتيان جرم ما، أوراقه كلها مضبوطة تماما، مد جواز سفره، وبطاقة إقامته، هوى قلبه عندما أمسكها كبيرهم، بدون النظر إليهما، رماهما إلى أحد مساعديه الخمسة، فوضعهما هذا في جيبه لا مباليا..

حاشية - ٢ -

.. وإنى لمطلعكم على قعدة أمومية، أشهدتها مطلع نهار صيفى، لن يتاح لكم الوقوف عليها، حتى من يمرون بها لا يدرى معظمهم ما وراءها، ولا خبرها، ما عرفته من الهيئة عند بدء لواحها لى.

حدث أن دعانى صاحب لمرافقته إلى البر الجنوبي، كان مكلفا باستقصاء أحوال بعض ممن طلبوا المساعدة، فاتنى ذكر أنه يعمل فى هيئة اجتماعية، تقدم بعضا من عون لمن أعوزهم الوقت، ونزلت بهم نوائب البغته، أو مال بهم الظرف.

كان النهار فى أوله عندما وصلنا إلى مدخل الطريق الترايبى المؤدى إلى القرية الصغيرة، لم نلق عسرا فى الاستدلال والاستفسار، الناس فى هذه النواحي يعرفون بعضهم، قيل لنا إن الرجل الذى نقصده يعيش فى بيت صغير

قبل الوصول إلى القرية، بجوار شجرة السنط، أجبنا واحد
مرتبا، متشككا:

- لماذا تسألون عنه؟

قال صاحبي:

- نقصد خيرا..

لاح عنده اطمئنان، أشار إلى الجهة المؤدية.. قال:

- توصوا به، الله يكرمكما..

ثم قال:

- لم يعد لهما أحد.

بقدر ما لحت حذره، بقدر ما رصدت هذا التضامن
الخفي، والرثاء للآخرين، والحس بالمشاركة، هذا ميراث طويل
ياصاحبي، موغل في قدم لا ندرى أوله، أما الحذر فلأن القوم
هنا لا يتوقعون خيرا مع الغرباء القادمين، الآتين عبر الطرق
المؤدية..

المهم، مضينا يا أخى حزين، السكة ضيقة، والأرض
متربة، وعرة، وعندما لاحت بيوت القرية المتضامة، بدأ الفراغ
المؤدى فسيحا، عند حدود الحقل لحت القعدة، والشجرة،
وقناة المياه الضحلة، وجذع النخيل، غير أن كل ما أدركه
بصرى من عناصر بدأ مؤديا لهذه القعدة، للانحناء، للإطراقة،
للنظر المستديم إلى لا مكان.

كانت تنكت التراب يعود قش، هذا كل ما يصدر عنها من حركة بادية، عبر صاحبي القناة، اهتز جذع النخيل، لم أتقدم لتوى، بقيت واقفا أراقبها، فكأنى حصلت فى لمحة الإدراك الشمولى ما صار إليه الأمر، كل ما وقفت عليه بعد ذلك.

هذه قعدة أمومية يا صحب، قعدة تكلى، حضورها الحسى فى مكان وزمان بعينه، أما حضورها الأشمل، الأتم، فيمتد عبر شعاب خفية، ويتعلق بلحظات مولية، قعدة لن يصلكم عنها تفصيل، قعدة آل إليها العمر الطويل، وحط فيها الضنى، يوميا، تبدأ مع طلوع الشمس، مع رحيل الليل، لا تفارق مكانها هذا إلا بعد اكتمال الغروب، وتردد أصداء العتمة وتوالى نباح الكلاب، ونقيق الضفادع، وهيام صرخات مجهولة عند المدى، ربما تؤدى بشكل ما إلى أثر من الحبيب الغارب!

قعدة منحنية، مطوية، مضمومه، محورها هم، ومقصدها، وهدفها، مبتغاها أثر ولو يسير، فى إطارقتها محاولة منها وسعى لتمثل الضمة القديمة، عندما كانت تحنو عليه، وتهدهده حتى ينام، أو تملس على ظهره حتى تدركه راحة، تحاول جاهدة ضم ما تبدد، بعد أن طاح به الوقت فأقصاه بعد قرب، ونفاها إلى أبد لن يدركه أحد، تدرى!.

افترشت الارض فى مواجهتها، تطلعت إلى، وعندها رجاء فى أمل خارق، يتجاوز المستحيل، يتخطى المعقول، ربما نبا بعودة ضناها الوحيد، عيناها حال لونها، تداخل سوادهما

ببياضهما، فلا يمكن لى أو لكم تمييز الدائرتين اللتين كانتا يوماً تنبضان، تتابعان القاصى والدانى، وتتعاقب عليهما الرؤى، أما ما يحيط بالعينين، فتحاريق، تشقق، وجهها يا أخى كأنه قد من الأرض التى تقعد فوقها، المترية.

لم يكن محورها إلا هم، روحها كانت فيه، وحيدها، فلما جرى ما جرى، عافت الزاد، انطوى بسطها، ولم يعد لها إلا إحصاء ما تبقى، كل من يسعى إليها بود، بعزاء، بشفقة، تقول له:

- «خلاص.. اللقا هناك..»

لولا يقينها أن من ينهى حياته بيده يموت كافراً، وأن مصيره إلى النار، للحقت به منذ تيقننها النبأ، لكنها تريد المضى إليه، يقينا هو فى الجنة، من يشبهه، من يماثله؟ من؟ كان غضا، نقياً كالأطفال، لم يأت شيئاً فرياً، لم يفعل ما يفضب ربه.

لو أنه لم يتغرب، لم يبعد، صحيح.. قدر ومكتوب، لكنه لم يرحل إلا لأنه شاء رؤيتهما فى أحسن حال، هو من خرجت به من الدنيا، ثم فارق الكينونة قبل أن تكمل فرحتها به، أنفاسه ما تزال فى البيت، رائحته، موضعه لم يقربه أحد، ما خصه باق، ما أرسله من خطابات فى حفظها، لا تسمح أن يقربه أحد، ألم يمسك بهذا الورق؟ ألم يخط هذه الكلمات التى لا تعرف كيف تفك رموزها؟ نصيب، حظ عاثر، من كان يتصور ما تخبئه الأيام؟

منذ يومها الأول فى هذه الدنيا كانت وحيدة، لم ينجب أبوها السقاء غيرها، لم يكن لها أخ أو أخت، لكم ودت أن يكون لها شقيقة، لكنها طلعت إلى الدنيا بمفردها، كثيرا ما قالت: الواحد فى الدنيا عندما يتعب يقول... أخ.

كان رجلها فقيرا، على باب الله، لا وراه ولا أمامه، شقى من يومه، تقلب فى مهن شتى، لا.. ليست مهنا على وجه الدقة يا أذى، لكنه كان يقوم بالعمل المتاح، يلف على الأسواق، يقضى حاجة هنا أو هناك، ينشط فى المأتم والأفراح، لكنه لم يتسول، لم يمد يده قط، حياته الوعرة لم تكسر نفسه، لم تهن أو تحط من وضعه أمام ذاته، كان عنده عزة وأنفة، استقر به الأمر عاملا بذراعه، بالفأس، يضرب الأرض مع مطلع الشمس، كان قصيرا، مدكوك البدن، تقدد جلده، واشتدت ملامحه، ولزمت عيناه نظرة حيرى، بعد أن جرى ما جرى لوالده، لوحيدة، لمن خرج به من الدنيا.

شقى طوال عمره، هكذا ردد دائما، لم يمض إلى طبيب قط، لم يزد مستشفى أو وحدة صحية، كان إذا شعر برجفة، أو ألم، ياكل الثوم الأخضر الطازج على الريق، أو يداوى نفسه بأعشاب شتى عرف أمورها من هنا وهناك.

عندما سمح له صاحب الأرض القبلية ببناء كوخ طينى عند حد الزراعة الموازى للطريق، ليتخذ منه سكنا ومقرا يطل منه على الرائح والغادى، أو من يبغى إلحاق ضرر ما بالزرع،

ليحوش أى غريب قد يأوى خفية بين عيدان الذرة، بمجرد أن
أتم السقف بيديه، سعى إلى إتمام نصف دينه.

عندما قصد أباهما، كان على باب الله، أرزقيا، بسط حاله
وقسر أمره، قال لوالدهما السقاء:

- بنتك فى رقبتي.

هذا ما تمناه السقاء، فالعمر يتقدم به، وظهره يميل
وينحنى، لم تعد الصحة مواتية، والدنيا وحشة، خاصة أن
البنت وحيدة، لا قريب أو بعيد.

بعد رحيل أبيها فجأة، لم يعد لها إلا رجلها هذا، غير أنها
لم تنجب ثلاثة أعوام، عللت الانقطاع عن الخلفة بما جرى
لأمها، إذ قضت أربع سنوات حتى حملت، ولأن قلقها كان
بالغا، مضت إلى أحد المشايخ المشهود لهم، كتبت لها حجابا
تعلقه على صدرها، أوصاها بأمر معين نفذتها بدقة، كما
استجابت لوصفة امرأة عجوز، فتحننت الفرصة حتى خطت
فوق رجل ميت لم يدفن بعد، كان غريبا يعمل فى وأبور
الطحين، كان ينام فى عشة من البوص ناحية الجسر، يبدو أنه
نسى اللعبة الصغيرة مشتعلة وسقطت فوق القش الذى يغطى
به الأرض، هكذا قيل، عندما مددوا الجثة المحترقة خطت فوقه
مرتين.

مع بدايات العام الجديد انتابها دوار، وعافت نفسها
أطعمة، وتاقت إلى أخرى، الحق أن الرجل لم يقصر، راح

وجاء، طرق باب هذا وذلك، منعها من الخروج لحمل الأوعية،
أو ملء الماء، كان حنوناً، كريماً مع وعمورة أحواله، يضيق على
نفسه باللقمة، لا يأكل إلا ما يتبقى فى البيت، هذا حاله منذ
أظلهما سقف البيت، أما فرحته بمجىء المولود فما تزال
تذكرها فى قعدتها هذه، كأنها ترى اللحظات المولية، النائية،
أمامها.

لن تنسى أبداً جريه حتى بيوت القرية يوم أن جاءها
المخاض، إجهاده المشبع بالفرح، وتطلعه الصامت إلى ابنه.

- «والله لأرييه أحسن تربية..».

كان يقول دائماً إنه يطلب من العلى القدير أن يطيل عمره،
أن يمد فى أجله حتى يراه واقفاً على قدميه، أن يجنبه ما رآه،
ما كابده هو، مع توالى السنين بدا واضحاً أنه هو فرحتهما
الوحيدة، لم ينجبا غيره، وضع أمام عينيه مقصداً، أن يتلقى
الولد تعليماً، ألا يعرضه للمهانة، وبقدر فرحه بصحبته له، بقدر
ما حرص على إبقائه بعيداً عند زيارته لصاحب الأرض، أو
بعض الأعيان فى الناحية ممن يعطفون عليه، أو يهبون له
المساعدة، من زكاة المال، أو فى الأعياد والمناسبات، وعندما
كان أحدهم يهبه بعض الملابس المستعملة التى لم يعد لأولاده
حاجة بها، كان يأخذها تادباً، لكنه لم يقدمها إلى ولده قط، لم
يرتد ابنه إلا لباساً جديداً... كان يعمل فى الأرض طوال اليوم،
وإذا سمع عن أحد فى حاجة إلى عمل مؤقت بالقرية يمضى

فورا، كأن يشارك فى بناء ما، أو تفرغ حمولة، أو الخدمة فى عرس، أو مآتم، وفى أيام بطلان العمل فى الأرض يسعى إلى البندر القريب، يغيب اليوم كله، لكنه لا يقضى الليل بعيدا عن ولده وامراته، يعود ومعه طعام، لم يكف، لم يهدأ، كان كالنحلة، ويوم حصول ابنهما، الحبيب، الطيب، الهادئ على أول مرتب، جاء الأب وقعد بجوار الأم، ربما فى نفس المكان الذى تلزمه الآن، طال صمتهما، هكذا اعتادا، فى لحظات الفرح القصوى، فى لحظات الحزن الأشد لا يتبادلان اللفظ المسموع، أو العبارة المصاغة، ما عنده يصلها وما لديها يبلغه بدون محاوره.

- «أشعر أن الله عوض علينا..»

الولد نبتة طيبة، طالع لأبيه، وفى أيام الأجازات كان يبدى الرغبة فى الحصول على عمل مؤقت يساعد به، لكن الوالد يجيبه..

- «انتبه يا ولدى لدروسك ورينا يقدرنى...»

وعندما نزل إلى الغيط، وحاول أن يخفف عن والده، أبى الرجل وأقسم، هل كان يبذل الجهد إلا ليجنيه ما شقى به هو؟، لم يكن الولد مدللا، مع أن أمه تخشى عليه من سريان الهواء، من أولاد الحرام، من كل ما يمكن أن يلحق به السوء.

كان الولد يعى ضنكهما، يؤرقه أنه غير قادر على المشاركة، خاصة أن الحياة تتزايد صعوبتها، والأحوال لم تعد تمضى كالزمن القديم، ضنا على نفسيهما حتى بالفراش،

اشترى أبواه لوحا خشبيا، ومرتبة، وملاءة، وغطاء، أصرا على أن يكون هذا مرقده، أما هما فاعتادا افتراش حصيرة قديمة، يقول الوالد ضاحكا إنه لا يريح جنبه إلا الأرض...

فى ليالى سهره لا تغفو أمه، تقعد صامتة، لا تأتى حركة حتى لا تزعجه، تنشط إذا طلب منها شيئا، كوب شاي، لقمة، لم تتم فى حضوره، تغمض عينيها بعده، تفتحهما قبله، لو قلق فى عمق الليل تصحو، كان ركنا خفيا من جهازها العصبى متصل به، لم يفصل عنه، طوال ليالى سهره، تمسك لبة نمرة عشرة تحملها على مقربة منه لتضيق له السطور والصفحات، برغم إرهاقها اليومي كانت دائما راغبة فى بذل المجهود، وعندما امتدت أسلاك الكهرباء فى النواحي، وتخللت الأبراج المعدنية الحقول، لم يكن عسيرا مد سلك ينتهى بمصباح كهربائى، كان مريحا لعينيه، ساطعا فى العتمة، أثناء قعدتها يقول لها فجأة:

« بعد شغلى، أجيب لك تليفزيون تشوفى فيه الدنيا ..»

عندئذ تقول:

« تجيبه ليبتك يا ولدى..»

كانت، وكان أبوه، يتمنيان، يطلبان من العلى القدير أن يصلابه إلى الشهادة العالية، لكن الزمن أصبح غير مساعد، ظهر الأب بدأ يميل، والطورية لم تعد تطاوع يده، أصبحت ثقيلة على ذراعه، والحاجات فى غلاء دائم، القرش الذى كان يكفى بالأمس صار قاصرا اليوم.

هنا أقول إننى لم أر هذا الفتى، لم ألتق به قط، لن أصغى إلى صوته أبداً، كل ما شففته ثلاث صور تمسك بثلاث لحظات من زمن دراسته، أطلعنى الأب عليها قائلاً..

- «كان زينة الشباب..»

والله كأتى عرفته، كأتى عايشته بعض أيامه فى هذا البيت الطينى، المتواضع، بل أزعم أننى أطلعت على بعض خلجاته، ولحظات من توحده، توارد الخواطر عليه..

اعلموا يا صحب أن قلبى كان على أبى، كما كان قلبه على أبيه، كذا الرغبة فى تخفيف الحمل، لذا لم يكن عسيراً على إبراك ما كان، الجوهر واحد وإن اختلف الظرف.

كرر دائماً رغبته فى شيل الحمل عن أبيه، حدثها عن سرير سوف يشتريه ودولاب، عن ترتيب البيت، بياض جدرانها، عن فتح نافذة على الجدار البحرى، الطريق إلى الجامعة طويل، أما المدرسة الزراعية فثلاث سنوات لا غير، ستمضى بسرعة، يلتحق بعدها بالعمل ملاحظاً زراعياً فى المنطقة، لن يضطر إلى التغرب، سواء فى دراسته أو بعد عمله، المدرسة قريبة.

قال الأب إن الخيرة فيما اختاره الله، كان بوده أن يمضى معه حتى نهاية الشوط، لكن العين بصيرة واليد قصيرة، وقتئذ لم يكن يرجف الأم إلا احتمال بعده عنها، لكنها لم تفصح، لم تهن أمامه أو تضعف، حتى لا يطرق درياً على غير هواه.

يعلم الله كيف انقضت هذه السنوات الثلاث، أعوام ثقيلة، طويلة، غير أنها مرت، انطوت بما حوته من مشقة، وضنى، غير أن الأيام إذا كانت تذهب بالصعب، فإنها أحياناً تأتي بالأصعب، أو كما قيل.

ومن عادة الأيام أن صرفها إذا سر منها جانب ساء جانب، الوظيفة لم تنتظره بعد حصوله على الشهادة، بدأت تسمع عن كثيرين سبقوه وما زالوا فى بطالة، وأن خريجى مثل هذه المدارس يفيضون عن الحاجة، وأن الحكومة تتراجع فى تعيينهم.

مضى أبوه إلى صاحب الأرض وهو رائج الحال، له بالجهات صلة، وعده خيراً، ذهب ليطرق باب عضو الهيئة البرلمانية عن الناحية كلها، ولكن ما من فرج لاح، وما من حل بدا.

كانت أمه تلحظ ضيقه، تدرك أمره، تود لو أعانت، لكن.. كيف؟ ما ألمها، ملاحظتها حرصه، إنه يعمل حساباً للقمّة التي يأكلها، بل إنه يتحرك كضيف، كأنه غريب، زائد عن الحاجة، مكسور خاطر، يتجنب الحديث إلى والده مع أنه لم يقصر، سعى إلى هنا، إلى هناك، لكن الدائرة واسعة، وبصره لا يدرك الحواف، قال يوماً إن البشغل ليس عيباً، وأنه سيقتصد البندر، سيعمل أى شىء ما دام بعيداً عن المهاوى، ليته لم يذهب، ليته بقى فى البيت،، بل.. ليته لم يته دراسته، فى إحدى الليالى عاد

مبتهجا، تذكر أمه ملامحه المرهقة، قال إنه حصل على عمل بالمدينة القريبة، أفضل من انتظار الوظيفة بطالا، قال إنه يقطع التذاكر فى السينما الصيفى، الدار الوحيدة فى المدينة، المشكلة أن عمله يقتضى السهر، الطريق ينقطع فى الليل، لا يمكنه العودة إلا إذا استأجر عربية، هذا لا يقدر عليه، لحسن الحظ أن صاحب السينما وافق على قضاء الليل فى دار العرض، فى الصباح يعود إلى والديه، يمضى معهما ساعات النهار، كان يصل دائما مجهدا، ويمجرد تناوله اللقمة يحط رأسه، ينام، لا يوقظه قرع الطبل، تطل عليه، بحرص تبسط يدها، تحيطه بالرقى والتعاويذ والأدعية.

لن تنسى أبدا يوم مجيئه بأول خيره، بدأ متهللا، جاء بحلولى ومنديل جديد تعصب به رأسها، بسط يده إلى أبيه بورقة مالية، عشرة جنيها، فيما بعد أمسكتها، وحدقت فى رسومها، قبلتها ودعت له بالستر وحمايته من أولاد الحرام، لن تنسى ملامح أبيه، لحظة استناده إلى الجدار، لزومه السكينة، نزول الصمت عليه، تحديقه إلى الورقة المالية أم عشرة، كأنه لا يدرى ما يقول، هذا أول خير من وحيدته، الولد لم يحتفظ لنفسه إلا بجنيهاات أربعة، مصاريف الطريق.. لكن يا ليت دام ذلك!

لسبب ما أغلقت دار العرض، وقيل إنها ستتحول إلى ورشة نجارة، لم تدم فرحة الابن، لكنه لم يشأ العودة إلى قعدة البيت، طال غيابه فى المدينة، لم يفض لوالديه، غير أنهما ألما

بما كان فيما بعد من أقرانه، وممن عرفوه، وممن جاؤوا إليهما
لبث كلمات الصبر، وإبداء الشفقة، ليته لم يفارق.

تقلب فى أعمال شتى، خدم فى مقهى، وحمل أجرة القمح
فى مخبز بلدى، ونادى على سيارات أجرة فى موقف المحطة،
باع علب الكبريت وأريطة الأحذية والأقلام فى القطار البطيء،
وعمل عدة أسابيع فى معرض مؤقت للكتب أقامته جمعية
الشبان المسلمين، حاول الحصول على القرش الحلال لكن لم
يستمر شىء من هذا، بعد أن انقضى وقته، علمت مصادفة أن
بعضهم ضربه، هددوه إن عاد للعمل مناديا على عربات الأجرة
أمام المحطة، عندما أيقنت صرخت، «ياولدى»، رفرق قلبها فى
صدرها، كيف تلقى الألم، أكان يعانى ما لا طاقة له به؟، كيف
تحمل؟ هو ضئيل الجسد، نحيف البنية، هو الذى لم يضرب
مخلوقا قط، أشفقت، رثت حتى بكت مع أنه كان نائيا، النأى
كله، بعيدا، قصيا، لا يمكنه أن يسمع، لا يقدر أن يرى بعد
انتقاله إلى العدم.

ليته لم يرحل، مر يتلوه مر، وشقاء يتبعه شقاء، لكنها لم
تعتد التدخل أبدا فى أموره، ولا إبداء الرأى فى صحبه، فلم
يلج منه إلا ما يطمئننها، لم يرفع صوته فى مجادلة أو مناقشة،
لكنه عندما قعد أمامها، وقال إنه لا مفر من السفر، لم تدعه
يكمل..

- لا يا ولدى..

لا، البعد جفا والغربة صعبة، لا، إنها لم تطق مجرد تصور أنه فى ناحية وهى فى ناحية أثناء دراسته، فكيف يغيب عنها فى بلد آخر، بلد لا تعرف عنه شيئا، هذا ما لم تتصوره يوما، ولا ترجوه أبدا، هل ضاقت السبل؟ هل شح الطعام؟، هل أنعدم موضع الرقاد؟ أبدا أبدا.

قال إن الحكومة توقفت عن تعيين أمثاله، ولا بد من واسطة قوية لا هو ولا أبيه يعرفان الطريق إليها، عدد من أصحابه سبقوه، بعد شهور من سفرهم فاض خيرهم على أقاربهم، بل إن بعضهم بدأ يبنى أو يعيد بناء بيته القديم، إن وضعه جيد، إنه وحيد، معفى من أداء الخدمة الإلزامية، لم يغب فى الجيش السنوات التى كان لابد من غيابها، فلتعتبر مدة سفره غيبة مماثلة.

لم تلن، لم تهن، جادلته، هذه بلاد بعيدة، ظروفها غير الظروف، وناسها غير الناس، هناك سيكون بمفرده، وحيدا، ضعيفا، حتى لو كان فى صحبة، تغور الغربة وسنينها، ما لديهم يكفى ولو كان قليلا، هل حدث أن ناموا ليلة بدون طعام؟

قال إنه ما زال يفكر، لماذا تحزن، هل رآته يحزم حقائبه؟ بعد أسبوع، لا.. بل عشرة أيام جاءها متهللا، التحق بعمل فى البندر، كاتباً فى شركة نقل، هدأت، دعت بتيسر الأحوال، لمدة سنة لم يطرق موضوع السفر، أحيانا يخبر عن صاحب له غادر متجها إلى هذا البلد أو ذاك، فتصمت مخافة أن يتطرق

إلى مناقشة، لكنها فيما بعد أدركت أنه كان يدخر بهدوء في مكتب البريد، وأنه يقتر على نفسه حتى يجمع ما يجب أن يدفعه لمكتب السفريات في عاصمة المحافظة، لم يكن ثمة مفر من دنو تلك اللحظة التي تستعيدها مرارا في تلك القعدة، تذكرها بأسى، بخوف، كأنها ستحل: مع أنها كانت وانقضت.

لما أيقنت من وقوع المقدر، حاشت نفسها عن إبداء الدمع، قالت لنفسها، إذا كان ولا بد، فليسافر ومعه صورتها باسمه، مشجعة له، يا عالم، متى يلتقى الحى بالحي؟.

رتب حقيبته، وأوصته، وتمنت له، وفي الليل ولت وجهها شطر الجدار، عضت شفتها، ونزلت دموع عينيها، حتى الفجر لم تكف، لكنها عندما وقفت في بداية النهار تحمى الفرن، وترمى الحطب داخله، حرصت أن تمنع دموعها، وأن تظهر البشر، أعدت الفطير، واللبن، وجبنا حلويا، تظاهرت أنها تأكل وأنها تبلع، وعندما ضمها إليه بقوة، مالت لتقبل... يده، اليس وحيدها؟ اليس هو حصاد العمر؟ فوجيء، إنها المرة الأولى، سحب يده، قبل رأسها، قال إنه يسافر من أجلها، تمننت لو قالت له، إذا كان الغرض هي فإنها كارهة لسفره هذا، ليبقى، ودت لو تقول له، صعب عليها غياب طلاته، رحيل حضوره من البيت، لكن... لم يكن بيدها من الأمر شيء، كان أبوه صامتا، كأن أيادي خفية تحركه، لو حل بينهما الآن، فلن يعرف والده، تضحضح الرجل، مال، وزاغت عيناه، لم يعد قادرا على حمل

الطورية أو السعى إلى بيت صاحب الأرض للخدمة، صار
يجول فى شوارع القرية، ينتظر عند باب الجامع، يردد على
مسمع من الخلق برنة باكية، أن ضناه عمره «ماعيى»، عمره ما
اشتكى، وأنه لو عاش لكان عنده الآن كذا، كان نفسه أن يرى
أحفاده قبل رحيله، ولكن صاحب الأمانة استرد أمانته، فهل
يعترض؟ هل يكفر على آخر العمر؟ صار أبوه يخاطب من
يعرف ومن لا يعرف، يسأل الناس ويمد يده، وهذا ما لم يفعله
قط طوال حياة الغالى، فأخشى ما خشيه، أن يسمعه أحدهم
كلمة عندما يكبر، ولكنه الآن هائم على وجهه، بل أحيانا يغيب
ولا يرجع إلا بعد منتصف الليل تاركا امرأته وحدها، لكنه لم
يقض الليل بطوله بعيدا أبدا، بعد وصول جثمان المرحوم فى
صندوق، راح الأب يكتب إلى جهات شتى، إلى وزارة العمل،
إلى الشئون الاجتماعية، إلى الصحف، كان يقعد إلى أحد
أصدقاء ابنه ويملى شارحا حاله، ثم يقص عن ابنه، ثم يطلب
المساعدة، فالقوى وهنت، ولم يعد بمقدوره، وإلى الجريدة التى
يعمل بها صاحبي وصل أحد خطاباته، وعندما أقبل علينا،
بقيت الأم فى قعدتها، وبادرنا قائلًا: إن ولده كان جميل
الصورة، حلو اللسان، لم ينطق العيب قط، لم يخلف وراءه
ضغينة، وإنه لم يذهب إلى طبيب فى حياته، لكنها إرادة الله،
إرادة من بيده الأمر، قال الأب إننا أول من نستجيب
لضرعائه، لشكاواه، ثم انقلب إلى داخل البيت فجأة، عاد
ملوحًا بخطاب، قال إن إقامة ولده لم تدم، وإنه مع لم يرسل إلا

خطابا واحدا، ليس له ثان، قال فيه إنه بخير، وأنه مع صحبة
طيبين، وإنهم يعملون فى مقهى، صاحبه يحب المصريين،
عاشقين لصوت أم كلثوم، ولحمد عبد الوهاب، وأنه يسمح لهم
بالنوم فى حجرة ملحقة بالمقهى، وأنه تعرف على مصريين
كثيرين هنا، وكلهم يد واحدة، إن نومته مريحة، وأكله جيد،
وعما قريب سيرسل إليهما كسوة الشتاء..

وهذه حكاية نزيف

.. اعلما يا صحب، يا من ستقيمون الصلة بى عبر حرفى
تلك، أن عددا قليلا جدا من الناس يذكرون الآن هذا المهندس
الذى تخصص فى علم طباعة الكلمات والتصاوير. قليلون
أولئك الذين يذكرون شيئا ولو يسيرا عنه، أو يرد على أفئدتهم
طيف عابر منه، أو يستعيدون جملة عابرة نطقها يوما، أو معنى
أفضى به، يمكننى القول عن ثقة.. أن بعضا ممن انتسبوا إليه
نسوه، لم يعد يعينهم إلا صرف معاشه، أو مكافأة من هذه
الجهة أو تلك، إذ تقلب فى أعمال شتى.. داخل مصر
وخارجها، لا أبالغ، وإنى لقاى عليكم من أخباره شيئا، إذ
عرفته على فترات متباعدة، وأحيانا عن قرب. سمعت منه،
وعنه، لذا أحطت بأموره علما. وما لم أعاينه خمنته،
واستنتجته.

اعلموا أنه يكبرنى باثنتى عشرة سنة، ولد فى بيت من طابقين بحارة صغيرة، سد، لا تؤدى إلى أى شارع أو درب، تقع قرب قلعة الجبل، يمكن للواقف عند مدخلها أن يرى مآذن مسجد محمد على. من يومه بدأ هادئاً، لا يبدى أمور الشقاوة التى يعرفها الصغار، ومما رده أبوه عنه.. أن الولد فالح من يومه، لم يلعب فى الشارع. لم يشطه لم يتسبب فى مشكلة مع الجيران، كتب اسمه على لوحة الشرف فى المرحلة الإعدادية، كان بارعا فى الرياضيات، واللغة الانجليزية، تنبأ له أساتذته بمستقبل نضر، إما فى الطب إما فى الهندسة.

فعلا التحق بالهندسة، وبعد تخرجه عمل فى المطبعة الأميرية، كان ممكنا أن يمضى بها حياته، يترقى من درجة إلى درجة، لكن حدث أن مدير أحد الأقسام استقال يوما، وقيل إنه عمل بمطبعة صحفية كبرى، وأنه يتقاضى ضعف مرتبه، بعد شهر من استقالته التقى به فى ميدان سليمان باشا.

كانت نزهته الأسبوعية المضى إلى وسط المدينة، يمشى من القلعة إلى شارع محمد على، فميدان العتبة، يعبر ميدان الأوبرا، إلى الشوارع المضيئة، يتفرج على الواجهات، يتابع الفتيات، يفتنى خلواتهن واهتزاز أردافهن بنظراته لا غير، حتى اذا أعجبه قوام، أو حضور أنثوى طاغ، ثبت ملامحه فى الذاكرة، عند عودته. قبل نومه يتمدد على ظهره، يسترجع

القسمات والخطوط المحددة والتأود اللين، يضاجع الصورة
المستدعاة.

أمام دار سينما التقى بزميله، سأله عن الأحوال، فقال إنها
طيبة، قال بعد ثوان من الصمت:

- والله أنت ابن حلال، هل تصدقنى إذا قلت إننى كنت
أنوى الاتصال بك؟

- خيرا!

طبعاً كل خير، أقترح عليه أن يأتى معه، العمل فى حاجة
إلى من هم مثله، الظروف أفضل، المرتب أحسن، فرص الترقى
مفتوحة، إمكانية السفر إلى الخارج متاحة.

أصغى، لم يقل نعم، لم يقل لا، اقترح صاحبه أن يفكر، تلك
مواعيده التى يمكن أن يزوره خلالها.

هذه الليلة رجع مشياً، ذهنه خلو من أى وجه مليح، أو قوام
تثنى فى مجال ناظره، مشغول، مهموم بما سمعه، من طبعه ألا
يتحمس فوراً، ألا ينفعل للتو، إنما يأخذ ما يقال له بحذر،
وعندما يحسم الأمر تتدفق حماسته.

أطلع أباه، أطرق الرجل، طلب منه انتظار الجواب إلى ما
بعد صلاة الجمعة، بعد قراءة سورة الرحمن ونيل بركتها، فكر
واستخار، ثم قال لابنه:

- اعزم وتوكل!

نصحه أن يحزم أمره، المستقبل كما هو واضح.. أكثر اتساعا..

فى هذه الليلة نام يتعجل مجيء النهار ليمضى إلى زميله القديم... سعى إليه، لم يجده، فى اليوم التالى كان غائبا أيضا، قال لنفسه إذن يبدو النصيب وعرا، إذن لينصرف بعد أن يخط له خطابا، إذا كان فى حاجة إليه فعلا، فليرسل إليه.

عند باب المؤسسة فوجيء به أمامه، اعتذر، اضطر للذهاب فجأة إلى المطبعة القديمة، صحبه إلى داخل المبنى، جال به، أبدى راحة لما رأى، وما سمع، لم يمض شهر واحد إلا وتسلم عمله.

بدأ سعيدا، متفانيا، باذلا الهمة، توثقت صلته بزميله هذا الذى تمت النقلة على يديه. خرجا معا فى نهاية الأسبوع. وعندما دعاه إلى بيته لبي، ولما استقر فى غرفة الاستقبال، نفذت إليه رائحة الاستقرار. وجود أسرة، الستائر المسدلة، الهدوء، الأثاث النظيف، الكلمات الهادئة المتبادلة بين الزوج والزوجة، لكن كما قيل الطولا يكتمل. عرف أنهما لم ينجبا، وأن أعواما عديدة مضت، وفيما بعد لا يدرى كيف علم أن العيب من الزوج.

حتى ذلك الوقت كانت الشواهد كلها تؤكد أنه لم يعرف امرأة، لم يدخل فى علاقة، كان إذا لفتت نظره أنثى يخفى اعجابه. بل يخشى أن تفلت منه إيماءة أو نظرة، أو تتلون كلمة من لفظة تشى ببعض مما يكتمه، هذا ما عرف عنه، وكان لزوجته زميله هذا - أو بمعنى أدق رئيسه فى العمل - شقيقة تصغرها بعامين. تخرجت فى كلية التجارة، ولم تعمل بعد.

الحق أننى لا يمكننى القطع إن كانت المصادفة مدبرة، أم أن الامر تلقائى، المؤكد أنه لقى نفسه بمفرده مرتين فى مواجهتها أثناء ترده للزيارة، لمدة قصيرة جدا، لكنه ارتبك، لم يدر ماذا يقول. خاصة عندما سألته عن عدد قطع السكر التى يفضلها فى الشاي، وقربت منه طبق الفطائر، بعدها لزم الصمت، أطرقت حبيبة، غير أن نظرة مارقة، عابرة، كانت كافية أن يحتويها، ويحيط بحضورها.. يتمكن منها، هكذا قال لنفسه: انها جميلة وأهلها ناس طيبون.

بعد الزيارة الرابعة عزم أمره، وتوكل. قال والده إن الخيرة فيما اختاره الله، المهم.. الأخلاق.

طوال فترة الخطبة التى استمرت عاما وثلاثة أشهر، اعتاد الذهاب كل يوم جمعة لتناول الغداء بصحبة أسرتها، كانت تقعد إلى جواره أثناء تناول الطعام، تبدى اهتماما به. تداعبه أمها، توصيه بابتها خيرا. ثم تفيض فى الحديث عن خصالها، عن سماتها وخجلها القديم، تطرق الابنة، ترجو أمها أن تكف.

لم تتح له فرصة الخلوة بها فى البيت، لكنه عندما خرج بصحبتهأ أول مرة داعيا إياها إلى أحد المقاهى الأفرنجية على النيل، أسلمت له يدها، فسرى عبر شرايينه دفق جديد عليه، وإن حار فيما يجب قوله، حتى أن اللحظات الأولى انقضت بدون أن ينطق حرفا، ربما اجتهد فى استدعاء حوارات دارت أمامه فى الأفلام، أو ما قاله زملاء الدراسة عن مواقف كهذه، ضرورة تشابك الأيدي، والورور بمهل على راحة اليد، هذا مما يحزن صاحبة، أما الكلمات فلا بد أن تعنى بمظهرها، بطريقة تصفيف الشعر، لكنه لم يطرق شيئا من هذا، إنها خطيبته، ستصير أما لأولاده، ليست مغامرة عابرة.

حدثها عن الطريق الذى اعتاد أن يسلكه، عن الشقة، عن أثاث البيت، وما يجب إعداده وتجهيزه، وما يمكن تأجيله إلى مرحلة تالية... مع اقتراب عقد القران والدخلة تحدثا طويلا عن المدعويين، من يجب دعوته من أقاربهما.. من ناحيته هو قال: لن يأتى إلا والده وشقيقته الصغرى، معظم أقاربه فى الصعيد، لو فتح الباب لجاء العشرات.. لضاق المكان بهم.

يبدو أنه قال ما قاله ليقابل بفعل مماثل، تكاليف الفرح سيتحملها هو، إنها ليست هينة، كان ممكنا أن تقل لو أقيم فى دار النقابة، غير أنهم أبدوا عدم رضاء، أختها الكبرى تزوجت فى النادى، إن لم يكن المكان أفضل فليس أقل، الحقيقة أنها لم تجهر بالرفض، لم تقل نعم، لم تقل لا، لكن عدم الرضا بان

عليها خاصة عندما حادت بنظرتها، عندئذ يطوى كل ما قرر التصريح به، اشتداد النفقات.

الحق أنهم أثقلوا عليه، وحملوه ما لا يطبق بمقاييس هذا الزمن، لكنه لم يتسبب فى أى مشكلة، لم يعترض مدفوعا برغبته فى رفع رأس البنيت أمام أسرتها.. فى الظهور بما لا يقلل من شأنه. كما أنه أخفى عن والديه التفاصيل، ردد دائما أن كل شىء يمضى على ما يرام، وأنهم قوم كرام، مع أنه ضاق أحيانا، حتى فكر فى فسخ الخطبة.. فى التراجع، وهو ما زال بعد فى البداية.

حدث ذلك مرات، ولأسباب مختلفة، منها على سبيل المثال ما جرى عند التفاهم على الشبكة، إصرارها على أن تكون مما يليق، الا تقل عن تلك التى قدمت إلى شقيقتها، أسورة من الذهب محلاة بجنيهاات جورج الخامس، ألا يقل عدد الجنيهاات عن سبعة، وخاتم من الذهب الأبيض عليه فص ماسى، لا يقل عن اثنى عشر قيراطا... هذا ما جاء لشقيقتها. طبعاً إذا أضاف من عنده فهى عروسه. وكله يعبر عن تقديره لها..

لسنوات تالية لم ينس عصر ذلك اليوم الذى أعلنت فيه الأم مطالبها، بعد شرب الشاي تراجعت قليلا إلى الوراء، لم تتخل عن ابتسامتها الجملة، غير أن كلماتها بدت محددة، حاسمة، إيقاعها أصولى لا يمكن مناقشته، هن رأسه مرات. لم ينطق، لاحظ انسحاب خطيبته عند بدء الكلام، أما الاب فأطرق

صامتا، راح يدحرج حبات مسبحته، وعندما أمعنت الأم في التفاصيل، قال الأب:

- يا ستي.. دعيه هو يختار..

لوحث بيدها:

- والنبي لتسكت.. أنا لم يعد عندي غيرها..

هو نفسه تحدث في جلسة أخرى، بينما لزمّت الأم الصمت، بدأ يذكر مثلا شائعا، ثم أتبعه بمثل آخر «الله، الله على الجد، والجد الله الله عليه، الطريق اللي أوله شرط آخره نور، إنه يرى فيه ابنه، هو الذي تمنى ولدا ذكرا، لكنها إرادة الله سبحانه وتعالى، الذي يعطى ويمنع، إنها الوحيدة الباقية، ربنا أكرم شقيقتها بالزوج الصالح، وبيتها عامر الآن، طبعاً أنت زرتهم وشفقت...»

لم تخف عليه الإشارة، وعندما بدأ التصريح كتم ضيقه، ما آله، ما نال منه، هذه اللهجة الباردة المحددة، التي تحمل من النذر بقدر ما فيها من تفصيل. تحدث الرجل عن الشقة، عن ضرورة أن تكون من أربع غرف، لا بد من عمل حساب المستقبل، هناك أولاد سيجيئون بإذن واحد أحد، ثم أشار إلى الأصول.. أكد أنه لن يبخل بجهد على ابنته، ليس عنده الآن غيرها، المطبخ كله من واجبات العريس، أيضا سخان الحمام، والنجف والسجاد، السجاد بالذات يفضل أن يكون ست عشرة عقدة، كذلك الستائر عليه..

هنا قالت الأم:

- «ودولاب الفضيات..»

أشار الأب بيده:

- «بعد، بعد، هذا من الكماليات، طبعا هو حر، إنه بيته..»

أكد مرة أخرى على السجاد، السجاد بالذات، اليدوي أفضل، قيمته فيه، كلما مر عليه الزمن ازداد سعره، تماما كالذهب..

قال انه لا بد من تكسية الجدران بورق حائط قابل للغسيل، أما النجف فلا بد أن يكون من الكريستال الحقيقي، الصافي، هناك انواع من البلاستيك يظنها من لا خبرة له أنها كريستال، لكنها ليست كذلك، لذا يجب الانتباه. الوسائد.. مرتبة السرير.. تنجيد مقاعد حجرة الاستقبال.. أواني الزهور.. من مسئولياته. أيضا فإنه لا ينصح بموقد محلى الصنع، من الأفضل أن يكون مستوردا، يمكن شراؤه من السوق الحرة بالدولار، لا يسألون عن مصدر العملة الصعبة الآن، أما الدولار فمتوافر فى السوق السوداء، مهم الموقد جدا.

- «ياسلام لو أمريكى الصنع..»

صحيح أن السعر مرتفع، لكن الغالى ثمنه فيه.

- «عند شقيقتها موقد ممتاز يعمل بالبوتاجاز والكهرباء..»

كان إصفاؤه إلى هذه التفاصيل ثقيلًا عليه، يومئ متمنيا انقضاءها بسرعة، بل إنه ينكمش في جلسته، يلملم ذاته، يتسائل، لماذا يعاملونه هكذا؟ لم يشأ إغضابهم، لم يرد طلبا مادام في قدرته، لكن لماذا يضغطون؟! لماذا تبدو كلماتهم حادة، صارمة؟! تفاصيل تؤدي إلى تفاصيل، والتلميح لا يدوم، إنما يسفر عن تصريح حاد، محرج، ملزم.

كان ينصرف عند الزيارة وعنده كمد، وثقل داخلي، ود لو أفضى إليها بعتاب يسير، ألا تدرك ظروفه؟ ألم يتعاهدا على استكمال بيتهما خطوة، خطوة، لا يبخل، لا يشح، لماذا يحمل بما لا يطيق، لماذا تتوارى مبتعدة عند بدء الحديث في الأثاث.. والستائر، وأدوات المطبخ، ومكان إقامة الفرع، إنه يضطر إلى تبديل الخطة، يضطر إلى الإقدام على ما كرهه منذ تخرجه، أن يلتحق بعمل إضافي في مطبعة يمتلكها رجل ثرى عنده مصنع للصابون، وشركة لعربات النقل، كان بحاجة إلى من يثق به ليدبر له أمور المطبعة التي ورثها عن أبيه، اضطر إلى التضحية بساعات فراغه وراحته.

لسنوات طويلة، كره النظر إلى الأسورة الذهبية المحلاة بسبعة جنبيات ذهبية من عصر جورج الخامس، كان ثمنها مرتفعا أحل بما أدخره.

أثناء خطبتهما، كان أقارب لها في زيارة، بعد تناولهم الغداء، قعد صامتا، كان لا يرتاح في جمع غريب عنه، يشعر

أنه يقوم بدور فرض عليه، أنه خلع عنه هويته، وأدعها فى مكان غريب، قامت حماته، عادت بعلبة القטיפه الحمراء مفتوحة، ترقد الأسورة فى كفنها المضملى، طافت على الحاضرين باسمه، راضية، متباهية، سرى عبره خجل، ود لو توارى، لماذا عرض الشبكة؟ مالزوم ذلك؟ تذكر يوما بعيدا عندما صحبه أبوه إلى فرح أحد الأقارب، بعد قراءة الفاتحة، طاف شقيق العروس يعرض الشبكة على المدعين.. أسورة وقلادة وخاتم وحلق، كان بعضهم يمعن النظر، يطيل التأمل، يتفحص، يقلب، ثم يهز رأسه، فينتقل الشقيق إلى آخر.

لكم ود انقضاء هذه الفترة، معللا النفس أنهما بعد انتقالهما إلى بيتهما، بعد بدء حياتهما، ستبدأ أوضاع جديدة، وتتغير أمور، تمنى تغييرها.

هنا لابد من الإشارة إلى أن أحواله فى الشهور التالية لزواجه مباشرة لايعرف عنها الكثير، كان يبدو صامتا فى معظم الأحيان، على ملامحه تلك الابتسامة الهادئة، البسيطة، المستفسرة، والتي كانت تبدو إذ يواجه موقفا صعبا، وبالتحديد عند الشروع فى عدوان من الآخرين، باللفظ كان أو الرغبة فى المضايقة، كأنه يتسامل بدون حرف، «لماذا.. إذا كنت لم أقدم على شر؟».

لكن من الثابت.. المؤكد، أنه عرف الطريق إلى المقهى، كان المقهى مرتبطا عنده - من قبل - بتبديد الوقت، برفقة السوء،

وكثيرا ما استعاد قول والده، إنه لم يقعد بالمقهى إلا لضرورة.
كان فى مطبعة الجريدة زميل له، مرح دائما، خفيف الظل،
عنده قبول، صحبه يوما بعد انصرفهما ودعاه إلى تناول
الشاي فى مقهى يقع بالقرب من محطة الأوتوبيس، بعدها
اعتاد أن يمضى إلى هذا المقهى، كان مطلا على شارع هادئ
يؤدى إلى باب اللوق المزدهم.

فى البداية طابت له الخلوة، تعرف إلى عدد، اقترب منهم
واقترىوا منه، برغم التزامه الصمت، فإنه كثيرا ما أفضى
ببعض من دقائقه إلى صاحب كان يمتلك متجرا للعطور، وكان
من محاسنه إجابة الإصغاء إلى محدثه، هادئا، غير ذى
ضرر.. وقد كمد عليه عندما عاد من الخارج فى إحدى أجازاته
بعد سنوات، وفوجئ برحيله فجأة، هكذا بدون مقدمات.

كان يقعد فى الموضع ذاته عندما سحب نفس الدخان، ولم
يخرجه، مال رأسه على صدره، سبحان من استرد أمانته، لا
معقب لحكمه.

كان يدخل المقهى فلا يلقى أحدا من معارفه، عندئذ تدركه
وحشة، يبدو قلقا، يسأل عن فلان، ألم يظهر؟ وفلان. ألن يأتى؟
يبدو مهموما لغيابه، مع أن أحدهم لو ظهر وجلس إليه ربما
امتد الصمت بينهما ولا يجدان ما يقولانه.

دام أمره على هذا حتى سفره من مصر كلية، لم ينقطع عن

المقهى سنوات متصلة، وبعد عودته كان يسرع فى أول ليلة،
أحيانا ينادى المعلم عليه ليرد على الهاتف، على الفور يعرف،
إذ يقترب يقول المعلم :

– «البيت..»

كانت تسأله عن أمور بسيطة، كأن تطلب منه ألا ينسى
شراء بعض الخبز، أو الشاى عند عودته، يدرك أنها تطمئن
على وجوده، أو تنبهه إلى أنها فى أثره، لا تستغرق المكالمة
أحيانا إلا دقيقة أو نحو ذلك.

بعد زواجه وإذ يطول صمتهما، تتساءل فجأة: فى أى
الأمور تفكر؟

كان يجيب: لا شىء. تبدو غير راضية، تتساءل:

– هل هذا معقول، أنت لا تريد أن تخبرنى!

ثم تقول ضجرة:

– «كلمنى».

فيلتفت حائرا.. تقول:

– «هل تقعد ساكتا فى المقهى؟»

تلوح ابتسامته تلك، تشير بيدها.

– لا أدرى سببا لضحكك.. هل تسخر منى؟»

ينفى ذلك.. يقول إن الكلام يأتي تلقائياً، بدون قصد، لكن يبدو أن رده لا يعجبها، تعرض عنه، لا تلوح إلا مقطبة، لم يكن هذا إلا عين المضايقة منها، لكم ود مضى أيامهما بدون منغصات، يحرص الا يغضبها، خاصة أن الأسباب المؤدية إلى الكدورات لم تكن إلا هينة، شاعت أن تضخمها، أو إبداء ردود فعل لا تتناسب، لم تكن تبادر بالغضب الفوار الجامح، لكنها كانت تتسحب إلى داخلها فى هدوء ممض، أو تجيبه بحيادية، وكلما أمعن فى الاستفسار، تنفى بما يؤكد الحال.

لـ فى الشهر التالي لزوجها كان انتقاله من حياة إلى حياة، من بيت إلى بيت.. أمر له جانبه الثقيل عليه، بقدر ما انتظر من مباحج حياته الجديدة ، قدر ما أدركه أسى، فما كان بينه وبين والديه وشقيقته لن يعود، خصص يوماً كل أسبوع يخرج فيه من عمله ليتناول الغداء عند والديه وأخته.. فى المساء تلقاه امرأته صامتة، تجيبه بقدر، لا تسأله عما إذا كان يريد شيئاً، لكنها تقول له وهى تولى مسرعة إلى الداخل: «سأنام.. عندك الأكل جاهز فى المطبخ..»

أصعب أوقاته وقتئذ - أفضى إلى صاحب له - بقاؤه وحيداً، تغمره وحشة، يبقى بمفرده طوال الليل، كيف يواتيه النوم؟.. هى بجواره وبعيدة.

فيما تلا ذلك باعد ما بين زيارته لأسرته، أحياناً كان يخرج من عمله قبل موعده بساعتين أو ثلاث، عندئذ يهرع إلى والديه،

عند دخوله يبدي العذر بعد العذر، يتعلل بانشغاله، وعمله ساعات إضافية، إذ تقوم أمه لتعد له الطعام يسارع إليها، يرجوها أن تستريح، ألا ترهق نفسها، إنما جاء ليطمئن، في البداية كانت تستجيب، تقول:

– «البيت بيتك يا ولدي..»

لكنه أدرك أنه يحول بينها وبين ما تحب، أن تعد له الطعام، احد واجباتها القديمة، تعرف ما يفضله، فيما بعد كان يقول بمجرد دخوله، «أنا جائع..»

وكانت ترجوه أن يخبرها بمجيئه مقدما، فيضحك قائلا: إنه لا يود ان يعامل كضيف في بيته، لكنه يعي أنها تفهم، ما عنده يصلها، بدون حوار منطوق، وعندما يصمت، وتطرق هي، عندئذ يتم الإقضاء والبوح، لحظة انصرافه يصر على تقبيل يدها، يودع فيها ما لم يقله.

عند عودته إلى البيت يبدي النهم في تناول الطعام، حتى لا تظن امرأته أنه مضى لزيارة البيت القديم كما كانت تسميه، لكم ود ألا يغضبها، ولكم تمنى أيضا ألا يسبب الما لمن أحبوه بدون غرض!

لم يسفر، لم يظهر، ولكن من تصريحه ذى الدلالة، ما قاله يوما لصاحب في لقهى، إن النساء متشابهات، اللواتى تلقين التعليم منهن، الجامعى أو غيره، كذا من لا يعرفن القراءة

والكتابة، غير أن صاحبه لم يوافق، وضرب مثلا بالمرأة ابنة البلد، التي تلتق أسرار الحياة من أمها، انظر كيف تنتهي للقاء رجلها، كيف تنتظره عند رجوعه، تتطيب، وتتزين، وتبدي الهمة.

مال عليه صاحبه، في الأحياء الشعبية يعرفن أسرار النكاح عند البلوغ.. هذا مهم جدا بالنسبة للرجل، المهم أن تعرف المرأة ما يرضى رجلها.

قال صاحبه إنه يعرف أحدهم، متزوج منذ عشر سنوات، لكنه يهزج من مصارحة امرأة بما يرضيه، وما لا يرضيه، بعضهن يؤدين هذا كواجب، ثم قال صاحبه إنه يعرف امرأة متزوجة لا تتجرد من ثيابها تماما أمام زوجها، لا تسمح له إلا بأوضاع معينة، لا ترويه أبدا، قال إنه عرفها وكان بينه وبينها ما كان.. رأى منها عجا، تتابعت رغباتها حتى إنه لم يستطع المواصله لنهمها وغرابتها، كانت تقول انها لا تحب رائحة زوجها، عرقه فظيح!

كان يصغى إلى ما يدور حول الجنس بين صحبه، لا يشارك إلا بقدر، لا يلمح ولو من بعيد إلى حياته الخاصة، قال صاحب له فى المقهى، متخصص فى صنع إطارات الصور..

- «تصوروا أنه لم يعرف غير زوجته!»

غضب، انقطع عن المقهى أسبوعين، لم يرجع إلا بعد أن اتصل به ثلاثة من المقربين، وعدهه بالكف عن مثل هذه

المداعبات، إلا أنه فى ليلة تالية شارك فى الحديث فجأة، قال إنه يعرف شخصا كان زميله فى المدرسة، التقى به بعد سنوات من تخرجهما .. راح يشكو خيبة أمه، أعد فى مخيلته برنامجا حافلا بالمتع، لكنه لاقى من امرأة صدودا وعدم مجاوبة، إنه يضطر إلى الاستمناء أحيانا، لم يتصور أن ذلك سيحدث وامرأة فى متناول يده.. ينام ملامسا جسدها بجسده وهى عنه مستعصية.

توقف، كف فجأة عندما انتبه إلى النظرات ذات المعنى المحدقة به، انهى روايته قائلا:

- «عالم غريب..»

اعلموا يا صحب أنه ردد دائما ان امرأته طيبة.. مهمومة دائما بالبيت، وحاجاته، لم تقصر قط، خاصة بعد مجيء أولى البنات، بكريته، كانت امه تسأله عن احواله، عن امرأته، لم تصحبه لزيارتهم الا مرة أو مرتين فى السنة الواحدة، وعندما تجيء تتكلم قليلا، تاكل ببطء، حذرة، متمهلة، حتى انه أخرج غير مرة، ولم يخف عليه عتاب أمه البادى فى عينيها، فيما بعد قالت له:

- «ربما لم يعجبها الاكل..»

ثم قالت:

- «كل انسان بما تعود عليه..»

بعد ذلك أثر الأي صحبها، أحياناً يقول إنها تعتذر عن
المجىء، فالدنيا مشاغلها كثيرة، وهى عندها الشغل والبىء،
وأحياناً تنام لشدة إرهاقها: تقول أمه:

- «الله المعين!»-

بعد عام من زواجه، بعد احتفاله بالعيد الأول، لم يتبق إلا
ثلاثة أشهر ويصير أباً، تأخر حملها مع أنهما لم يستخدمأ أية
موانع، لا أقراص ولا لولب ولا عازل.. كانت ترد دائماً رغبتها
فى الإنجاب، ويدركها رعب أن تصبح مثل أختها. كانت
شقيقتها تتردد على مستشفى خاص لطبيب مشهور، بعد
اصابتها بعقم لا نذب لها فيه، وتفصيل الأمر أنها بعد حملها
أول مرة أخبرها الطبيب المعالج أن فى الحمل خطراً، لا بد من
الإجهاض.

لم يكن ثمة مفر.. لكن حدث أن الطبيب أوكل العملية إلى
مساعدته الشاب الذى كان غير ذى خبرة كافية، ويده لم تثبت
بعد، تسبب فى ثقب الرحم.. إثر ذلك لم يتم لها حمل قط،
رقدت على ظهرها ثلاثة أشهر كاملة كما نصحوها، غير أن
الأمر بات مؤكداً، والنتيجة معروفة فى كل مرة، الحق أن رجلها
ابدى فيضاً من رقة وحنو، خاصة بعد تأكده انعدام الخلفة،
لكن أملاها هى لم ينقطع، طافت بأطباء عديدين، حتى استقرت
مع هذا الطبيب الكبير، أجرت تحليلات وكشوفاً سببت لها
الأسا، ومعاناة، تعلقت بأمل اكتشاف علمى يوماً ما يحل
المشكلة لعل وعسى.

وأعود إلى امرأة صاحبنا، طلبت أن تكون الولادة على يدي هذا الطبيب المعالج لشقيقتها، إنه مشهور، يستضيفه التلفزيون، تشير إليه الصحف، وآخر ما ذكر.. أن امرأة سفير الدنمارك أرسلت إليه خطاب شكر تشيد ببرايعته، وعنايته بها أثناء إجراء عملية جراحية.. مما دعا الصحف إلى التعليق معتبرة هذا فخرا يجب الإشادة به.

أصغى إليها، لم يقل نعم، لم يقل لا، لكنه أخفى ضيقا، تكاليف المستشفى مرتفعة، لم تكن دور العلاج الإستثمارية قد ظهرت بعد، كان عقد السبعينيات ما زال في بدايته، لم تلج بعد علاماته، برغم هذا كان ذلك المستشفى معروفا بارتفاع نفقاته، حتى تردد أنهم يحسبون سعر كوب الماء المقدم، على أساس أنها مياه معدنية مستوردة من نبع معين في جبال الألب السويسرية!.

لم يطلب منها الذهاب إلى مستشفى آخر أقل كلفة، الأمر يتعلق بمولود قادم، كانت تلمح إلى تردد شقيقتها عليه للعلاج، للعلاج من أجل ماذا؟ من أجل أن تحمل، وهما اللذان أنعم الله عليهما بالخلفة، هل سيبخل؟ هل سيضمن؟ صحيح أن عديله أقدم، إنه ليس مجرد رئيسه فقط، إنما عنده أعمال أخرى تدر عليه دخلا، إذ تستعين به شركات طباعة لحل بعض ما يواجهها من مشكلات، خاصة في الماكينات الألمانية الصنع، سنوات خبرته أطول، انه أيسر حالا، لكنه لم يشأ إبداء المعارضة، المولود القادم أول فرحتها، بل فرحتها معا.

هل يثير المشاكل؟

لا.. لا داعي.

جهد يسير منه ويتوافر المطلوب، عاد ليعمل فترة بعد الظهر، لكن في مطبعة أخرى، ساعده عديله هذه المرة، كان يتقاضى من العمل الإضافى مبلغا يتجاوز ما يقبضه من الأصيلى، فسيما يلى ذلك.. ولدة سنوات لم ينس قط استعداداتهم لاستقبال المولود الأول، شراء الملابس، والمفارش، أحذية القماش الصوفية، أوعية الرضاعة وسائر ما يلزم.

كانت فى لحظات الصفو، تبدو وديعة، مستكينية، تسند ظهرها إلى بعض الوسائد، تطلب منه أنه يضع أذنه على بطنها، كان يصغى إلى حركة الجنين. تتتابه مشاعر شتى لا يدري كيف يعبر عنها. تقول هى:

- يبدو أنه شقى!

ثم تتوه بنظراتها فى الفراغ، تتحدث عما ستجىء به السنوات المقبلة، لابد أن يبدأ البحث منذ الآن عن مدرسة لغات، المدارس قليلة، الزحام شديد، والوساطة مطلوبة من الآن.

تلك أفضل حالاتها، ترق، تشف، حتى أنها تطلب منه زيارة والديه، الا يهمل السؤال عن أمه بالذات، يا سلام.. يا سلام على رضا الأم، لماذا يمضى وقتا طويلا بعيدا عنهما، لماذا لا

يمر بهما؟ لابد أن يقبل أمه، يخبرها برغبتها أن تكون بجوارها يوم الولادة، أمه طيبة، بركة، لكن.. لماذا لا يمضى إليها الآن؟.

تبدو عيناها دامعتين تأثرا، يؤكد لها أنه سيزورها غدا، يود لو أخبرها بزيارته الخاطفة السريعة، لكنه لا يفصح، فى اليوم التالى يمضى وقتا أطول عند والديه، حتى أنه يبذل ثيابه ويرتدى جلبابا تحفظه أمه له وتغسله بانتظام، تكويه وتعلقه، يتمدد، يغفو، تماما كالزمن القديم، بعد عودته، تسأله امرأته:

– «أين كنت؟»

الله، ألا تعرف أنه مضى إلى والديه؟ ألم تطلب ذلك منه أمس؟ عندئذ تهز رأسها..

– «أه.. لكنك تأخرت..»

ثم تطوى ملامحها، فلايسمة، ولا ابتسامة، وعلى هذه الحال تتم يومها، يدارى ما به، إنها حامل، والإنفعال خطر على الجنين..

هنا لابد من تأكيد، أنه لم يبد لها ما عنده، لا قبل الحمل ولا بعده، كان يكتفم، ويزفر أنفاسا حرى، يمضى إلى ركن قصى ناعيا ميل حظه وسوء بخته.

مع اقتراب موعد الوضع صارت أكثر عصبية، أصبح هو أكثر رقة، كل مساء يصحبها للمشى فى الشارع، نصحبها الطبيب بذلك، كانا يقطعان الطريق صامتين، ينبهها عند نهاية

الأرصفة، أو النتوءات، أو يمسك بذراعها تلقائيا عند اقتراب غريب.

ليلة الوضع لم تكن هناك علامات غير عادية، لكن عندما بدأ الألم المتقطع يتردد عند منتصف الليل، نزل، اتصل من هاتف الصيدلية المجاورة بشقيقتها، مرت على والديها، جاءوا عند الفجر، وبعد أن دخلت الحمام، تبعتها أمها، خرجت معلنة أن علامة الولادة نزلت.

السابعة إلا ثلث صباحا خرجت المريضة من غرفة العمليات، كانت تحمل لفافة بيضاء، بدت مبتهجة، توقفت، طلبت إغلاق النافذة العريضة في نهاية الممر، عندما اقترب منها، أزاحت القماش.

يا.. لم ينس هذه اللحظة قط، المواجهة، بين الأصل والفرع، وجه صغير دقيق الملامح، مغمض العينين، مصفر الوجه، شبه شديد لم يره فيما بعد بهذا الوضوح كما رآه من بكورة هذا الصباح، فيما تلا ذلك من شهور وأعوام تغيرت الملامح، كانت تقترب أحيانا، وتناهى، لكنه لن ينسى أبدا لحظة المواجهة الأولى تلك.

«عروسة زى القمر..»

غمرته حالة من التأثر الغامض، همس عديله في أذنه أن يعطيها حلوة البشارة، دس في يد المريضة خمسة جنبيات، عندئذ أمسكت بأنف المولودة، وارتفعت الصرخة

الحادة الثاقبة..

أمران انطبعا فى ذهنه، استعادهما مرارا فى غربته، ملامح المولود، وتلك الصرخة. للأسف، لم يقدر له فيما تلا ذلك أن يحضر اللحظات الأولى لمجىء ابنته الثانية إلى العالم، كذا ابنه.. تلقى خبر وفودهما فى غربته، ولدت الثانية وهو فى ذلك البلد العربى، وجاء ابنه وهو فى البلد الاوروبى، أما لماذا سافر إلى هذا، وإلى ذاك.. فلهذا أيضا تفصيل لا بأس من الوقوف عليه..

حقيقة، لم يفكر قط فى العمل خارج مصر، لم يخطط ولم يشرع فى ذلك، ولو أنبأه أحدهم أنه سيفارق القاهرة إلى أرض غريبة أثناء شتى مراحل دراسته، أو فى سنين عمله الأولى، سواء بالمطابع الأميرية، أو فى تلك الجريدة لا صدق، لاكد استحالة ذلك، لتسأل مستنكرا:

وكيف يتأتى ذلك؟..

لكن، دعونى أتساءل، هل تتسق البدايات مع النهايات؟، هل تمضى المصائر كما تمنى أصحابها؟ وهل يتحقق ما يرجوه المرء أبدا؟ المهم.. أن ما لم يتخيله حدث، وما كان وهما صار واقعا..

عبارات عديدة قيلت فى حواراتهما الليلية، كانت فى البداية تلميحا أو إيماء، محورها ضرورة إيجاد حل، تكاليف الحياة فى تزايد مستمر، ما كان يكفى أمس لا يفى اليوم، العمل

الاضافى فيه إرهاق، فيه استنزاف لجهده، يرجع لينام وأحيانا لا يلحق تناول لقمة. والعائد لإيوانى، حرام.. هذا فوق طاقتة.

كثيرون بدأوا السفر، فى السنوات الماضية لم تسمع إلا عن سفر المدرسين لكن كثيرين الآن يمضون للعمل سنة أو سنتين، يعودون فتنحسن الظروف، زوج إحدى زميلاتنا عاد بالسيارة بعد سنة واحدة لا غير، ليست سيارة فقط، إنما تليفزيون ملون، وجهاز فيديو، وثلاجة بيايين، وهما الآن يبحثان عن شقة أوسع.

هذا البيت الذى يعيشون فيه، ما أضيقة، هل يصلح لهم فى المستقبل؟ كيف سيتحركون فيه؟ هل سيظل الأثاث على حاله؟ أليس من الأفضل أن يحسن الإنسان ظروفه، أختها تغير ورق الحائط كل سنة مرة، التغيير ضرورى، والبنت.. ماذا عن البنت؟ ومن سيجيء بعد البنت؟ أليس من الواجب تكوين رصيد، أو وديعة فى البنك، ألم يفكر فى ذلك؟

مع توالى الأيام صار خطابها مباشرا، فى كل يوم ترد المعنى وإن اختلفت العبارة، من الضرورى أن يسافر، فى السفر حل للمشاكل الآتية، وتأمين لما قد يستجد، عليه أن يلحق، الفرص لا تدوم، وما يتاح اليوم ربما لن يجده غدا.

الحق أنه بدأ كارها للسفر، لم يتقبل فكرة اغترابه، بل لم يتخيل سفره إلى بلاد لا يعرفها، ولا يعرف ناسها، وأهلها،

فكر فى إمكانية عمله فى أحد المشروعات الاستثمارية الجديدة،
ولكن من أين له تلمس الطريق، وكيف الوسيلة؟..

أصحاب المؤسسات الجديدة والمشروعات الانفتاحية لا
يقدمون الا على تشغيل الأقارب، أو من ينتمون إلى أصحاب
النفوذ بصلة، اقاربه هو فى حاجة إلى مساعدة منه، ولا يعرف
شخصاً من ذوى النفوذ، صحيح أن سمعته حسنة فى مجال
عمله، عرف عنه الدقة، وبذل المجهود الأتم، والقيام بالمهم
الأكمل، لكن هذا كله لم يعد مبرراً، لا يشفع إلى وسيلة أو
غاية، ثمة تغيير يسرى، يدركه فى مجمله، مما يصل إليه، فيما
يقراه، أن ما يجرى غريب عنه، أو هو فى غربة عما يحدث، لكن
السفر للعمل شىء آخر، تغيير عمله هنا يتم داخل الدائرة، فى
اطار مألوفه، لكن سفره.. هذا كونه مغاير لما عهده، حتى لو
كان الخلق لهم نفس اللسان، لا يتصور انقطاعه عن المقهى،
وصحبه، معقول هذا؟.

هل تتوالى الأيام بدون السعى فى شارع محمد على إلى
بيت والديه؟..

هل سينقطع عن تجواله، عن التطلع إلى صمت النهر، إلى
السماء الشتوية والغميمات الشفقية، وهبوب النسيمات فى
الليالى الصيفية، لا يتصور هذا أبداً.

هل يتحول وجوده المعاش إلى مادة للحنين القاسى؟
صعب.. والله صعباً!

قال لامراته وهو يحاول.. إن الحصول على عقد ليس بالأمر السهل، قالت فليبذل جهدا من ناحيته، وهي لن تقصر. تساءل متعجبا، وأى جهة ستطرقها هي؟، قالت إنها تحدثت بالفعل إلى زوج شقيقتها، وأن الرجل وعدها خيرا، أشارت بأصبعها - الغريب أنه لم ينس هذه الإشارة لسنوات - قالت:

- سنة واحدة تتغير بعدها أوضاعنا..

فى هذه الفترة لاحظ أصحاب المقهى صدوده، وابتعاده، يقعد بينهم لكنه بعيد، يذكر أحدهم قوله له بدون مقدمات، بدون أن يؤدي مجرى الحديث إلى مضمون نطقه..

- «يظهر أننى سأغيب عنكم!»

لم ينبئ: بخبر، لم يفسر، لم يشرح.

فى تلك الأيام مضى عبر الطرق التى اعتاد المشى فيها، والنواصى التى ارتبطت عنده بأيام ولت.. يرى العالم بعيني المودع.. أطل المكث فى بيت والديه، وقعد فترات إلى شقيقته، ربما أدرك وقتئذ أن حياته تفترق عنهم، كخطوط السكك الحديدية التى تتجاوز، وعندما تتقاطع وتتفرع تتباعد فجأة، بنفس سرعة القاطرة التى تدرج فوقها، فلا يحيط بها النظر إلا للمحة، سرعان ماتندثر.

حقا، ما أسرع مضى أيامه، إنه ممعن فى البعد، مولى صوب جهة مغايرة لتلك التى ضمته وإياهم، ما بقى بينه وبينهم جوهر الصلة، ولب المودة الذى لا يرصد، لا يرى، لكن لم يعد

هناك لحمة الحياة وسداها، دقائقها وتفصيلها، مصادفة يعرف أن أمه زارت الطبيب، قديما كان مجرد تفكيرها فى التردد على إحدى العيادات يثير لديه اضطرابا، وخوفا من المجهول، مرة أخرى لمح أباه مصادفة ينتظر عبور الطريق عند ميدان باب الخلق، كان يركب سيارة عامة، ولم يهم بالنزول. إنما أدرك من لحمة خاطفة ما لم يدركه بالقربى.. الهرم الذى لحق بوالده، كانه وعى فجأة، لكم تقدم فى العمر، كيف غاب عنه الأمر؟.

فى تلك الأيام جال فى الطرقات طويلا، أوى إلى المقهى كثيرا، أصغى ولم يتكلم إلا نادرا، حتى إذا حانت اللحظة التى خشبها وحاول تجنبها، انطوى بعيدا عن الخلق فى صالة المطار.

اعلموا يا صحب، أنه خرج وحيدا، أصر ألا يصحبه أحد للوداع، لا الزوجة ولا والده، شقيقته فاجأته بقدموها، قالت إن أمها أصرت، وإنها تبلغه برضائها عنه، وصفاء قلب أبيه له، ودعواتهما من أجله، أعطته مصحفا صغيرا، قالت إن أمهما تتمنى لو احتفظ به دائما على مقرية، حاش دمعة قسرا، وعندما ارتفعت مقدمة الطائرة، فارقت عجالاتها الأرض، عندما مال الخط الأبيض الذى يحدد المر، ثم تلاشى، رجف قلبه وهوى، تابع البيوت التى تحولت إلى خطوط، والشوارع التى تلاشت ملامحها، وسرعان ما غطاها ضباب خفيف.

لطالما قرأ عن السحب التي تبدو تحت الطائرات، كان يمكنه
اطالة النظر، التأمل، لكنه نظر ولم ينظر. رأى ولم ير، ود لو أن
سفره الأول هذا كان موقوتا.. أسبوعا، أسبوعين فى مهمة
ويعود محملا بالهدايا، يفيض فى رواية ما شاهدته لأصدقاء
المقهى.

هل من المعقول أن يقضى سنة كاملة قبل أول أجازة؟ هذا
ما نص عليه العقد.

فى الليلة الأولى لوصوله كتب خطابين.. الأول شرع يسطره
قبل أن يقلع هدومه، فور دخوله الحجره فى فندق حجزوا فيه
أربعة أيام له حتى يدبر أموره، خطاب والديه، أوصى أمه
بتناول دواء الضغط فى مواعيده، الانتباه إلى طعامها، رجا
أباه الانتباه عند عبور الطرق، فالشبان الصغار يقودون
السيارات الحديثة بسرعة، لا يعباون بزحام المدينة، الح على
شقيقته الا تتأخر عند عودتها من الجامعة، بعد أن كتب
العنوان على المظروف، قام ليتأمل الحجره، نظيفة، فسيحة،
فيها تليفزيون، وراديو إلى جوار السرير وثلاجة صغيرة فى
الجدار، داخلها قطع حلوى، وعلب مياه غازية، مستديرة، أنيقة،
بدأ دخول أنواع منها إلى مصر.

الحق.. ان الجماعة لم يقصروا، استقبلوه فى المطار،
أوصلوه بالعربة، الفندق فاخر، قريب من البحر، لم يخرج
محتويات حقيبته كلها، بعد أيام قليلة سيفارق، قبل نزوله إلى
المطعم، كتب الخطاب الثانى إلى امرأته، قال ان ارادة الله

والظروف شاءت ان يكون بعيدا عنها وعن ابنته، لكنه سيعمل ما بوسعه كى يسعدهما، قال إنه بخير وإقامته مريحة، ولا ينقصه إلا رؤياهم، ثم أوصى بالانتباه إلى جدول تطعيم البنت، وعدم تعريضها للهواء، وإذا اضطرت للنزول إلى الطبيب فلا بد أن تصحب شقيقتها أو زوجها. كتب فى الرسائل أن أنه سيرسل عنوان سكنه الدائم بمجرد استقراره.

فيما بعد استعاد مرارا، وفى ظروف مختلفة تناوله العشاء بمفرده أول ليلة، كان القوم جمعا جمعا، تلتقى نظراته بعيونهم فى لحظات عابرة، وسرعان ما يولون بعيدا، لا يعرفه أحد، لا يدرى شيئا عنهم، حرص على أن يتناول طبقا واحدا، حتى لا يبدو مسرفا عندما يتأمل مضيفه قائمة حسابه، بل إنه قرر أن يتناول طعامه فى الخارج إذا سنحت الفرصة.

فى اليوم التالى مضى إلى المطبعة، المطبعة فى الضاحية الجنوبية، أما الجريدة فتحتل طابقين فى وسط المدينة التجارى، استأجر شقة صغيرة من حجرتين وصالة، فى بيت يقع على ناصية طريق متدرج فى الارتفاع، كان يمكنه منه رؤية الجبل والبحر، بدأ له الجبل فريدا، لم ير من قبل ارتفاعا صخريا كهذا، تكسوه الخضرة، لم ير من قبل جبل المقطم، أما المدينة الحديثة المشيدة فوقه فلم يطلع ليجول فى شوارعها، لم ير منها إلا أنوارها المضيئة عندما كان يسلك طريق صلاح سالم ليلا، لم تكن إدارة الجريدة ومطابعها فى مبنى واحد مثل الصحيفة التى عمل بها فى القاهرة.

كان يتعرف على ما يبعد عنه، بحذر، حتى المدينة الأوروبية الطابع، لم يتغلغل داخلها إلا متمهلا، وعلى خشية، فى القاهرة كانت الشرايين والأوردة تؤدى إلى القلب، ولكن هنا بدا له التكوين كجسد أنيق من بعيد، لكن لا رأس له ولا رجلين، لا ملامح.

جل وقته كان يقضيه فى المطبعة، حتى بعد انتهاء الزمن المحدد له، لم يعتد مكانا محددًا يمضى إليه، لم يرتبط بمقهى، أو مكان معين، كأنه يخشى إقامة صلة، وجوده هنا مؤقت مهما طال، إنه عابر وليس مقيما، مع أن مكثه فى هذه المدينة دام عامين ونصفا، تبدلت فيهما الأحوال المحيطة به.

فى البداية كانت المدينة مبهرة، عندما عرف شوارعها كان يمضى إلى الرئيسى منها، يتطلع إلى الأضواء، المتاجر، المقاهى الحديثة، مقاعدها الملونة، الطوى، الجيلاتى المكسوى بالفستق، الوجوه الجميلة، جنسيات شتى، إلى مكاتب السياحة، إعلانات السفر إلى أوروبا، إلى أفريقيا، إلى أقصى آسيا، يلمح شذرات من العالم البعيد، كان يمر بواجهات الفنادق الضخمة، لا يتمهل، إنما يمضى بسرعة، لم يدخل إحداها، يتابع حركة الشوارع المتدفقة فى أيام الأجازات، المحلات الصغيرة، النوادى الليلية، لكنه لم يوغل.

كان ينظر بخوف إلى المسلحين، إلى ثيابهم العسكرية المموهة، شبان صغار تبدو عليهم الشراسة، والتأهب لخوض

القتال فورا، كان يخشى دخول مناطق معينة، ويحيد بعيدا عن شوارع حذره معارفه منها، فى المنطقة الفقيرة عرف مقهى متخصصا فى النرجيلة وداخله ركن لتناول اقراص الفلافل، والقول المدمس، صاحبه من الاسكندرية، لذا يقصده مصريون، بعضهم يقيم هنا وآخرون جاؤا إلى المدينة كمحط عبور إلى أوروبا، عدد منهم يعملون فى التهريب، لا يخفون ذلك، تذكر ما سمعه فى مصر عن تجار الشنطة، لكن ما خفى كان أعظم.

قال له أحدهم ذات مساء إنه يعمل فى تهريب الماس، وإن أحد معارفه على صلة بكبار تجار المخدرات الذين يقيمون فى قصور هنا، ولا يتحركون إلا محاطين بحرس خاص، الأفزيون والحشيش يزرع علنا فى هذا البلد، ويعد من الصادرات التى تدر دخلا.

لم يدرك، لماذا أفضى إليه محدثه بهذه المعلومات، أهو استهتار أو غرض آخر؟.

شاب جامعى، قال إنه ينوى السفر إلى تركيا، سيتاجر هناك فى السيارات، أصبح يصغى إلى محدثيه فى المقهى أكثر مما يتحدث، معظم من لقيهم يقفون على حدود المغامرة، وخوض أدوار لم يعدوا لها، ومن أجلهم أدركه رثاء وحزن.

كان بعضهم قد انضم إلى الفرق التى تعج بها المدينة، إلى هذه الطائفة، أو ذاك الحزب، أيقن أن هذا البريق لن يدوم أبدا. أثر البقاء معظم لياليه فى مسكنه، يجلس متابعا للتلفزيون،

كان بإمكانه فى اللىالى الصافية أن يرى التلفزيون المصرى،
كان يتابع الأفلام الملتقطة فى الطرق، يحدق فى أطراف الوجوه،
هل ثمة من يعرفهم.

اعلموا يا صاحب أنه قضى عامين يحاول جاهدا تجنب
المشاكل، كان صاحب الجريدة يرتاح إليه، يدعوه أحيانا لتناول
العشاء فى مطاعم لم يفكر قط فى الدخول إليها، كان رجلا
ضخم الجسم، محبا للحياة: نهما أكولا، عاشقا للنساء، يشرب
فى اليوم الواحد زجاجة ويسكى كاملة، فى الصباح بعد الإفطار
يحتسى الفودكا التى يظهر أثر رائحتها، خاصة عند حديثه
إلى المترددين عليه، هو أيضا لاعب ماهر، مدمن للقمار، ويقال
إنه خسر فى ليلة واحدة عشرين ألف جنيه استرلينى.

كانت الجريدة والمطبعة، ودار النشر، والفندق، مجرد
أجهات لأمر أخرى، الجريدة تمول من إحدى الدول العربية
المجاورة، إذا تأخر المخصص الشهرى تعطل صرف الرواتب.

يقال إنه على علاقة بجهاز مخابرات أوروبى، لم يحدده أحد
بالضبط، أما جل ثروته فيؤكد المقربون أنها من المضاربة على
الذهب، والأسهم، ويؤكدون أنه من خبراء سوق المال، حتى أن
أكبر بنوك أمريكا منحه بطاقة خاصة لا يحملها إلا عشرة من
عता المضاربين فى العالم.

عامان بأكملهما قضاهما فى هذه المؤسسة، يصفى إلى كل
ما يقال، لا يعلق، يقول إنه ليس طرفا على أية حال، وإن كان

ما سمعه حوى أخطارا تزايدت بعد ظهور رجال أشداء مسلحين، عرف أنهم حرس خاص، استعان به الرجل لحماية المطبعة.

كان وضع المؤسسة غريبا، الإدارة ومكاتب التحرير فى منطقة تسكنها أغلبية من طائفة ينتمى إليها الرجل، أما المطبعة فمقرها هنا ضدهم، وإن اضطرت بسبب هذا الاعتبار بالذات إلى تخفيف اللهجة خاصة بعد بدء الاضطرابات التى تمت فيما بعد، وإن لم ينفذ ذلك..

خلال هذين العامين زار القاهرة مرة واحدة، بعد غيبة سنة كاملة، أمضى شهرا قضى منه أسبوعين بصحبة امرأته وابنته فى فندق فلسطين بالإسكندرية، لكن من رآه فى هذه الزيارة يذكر حزنه البادى، وصمته، والبياض الذى طق فى شعره.
اعلموا أن لذلك أسبابا..

أولها ما رآه من ابنته الصغيرة، لحظة دخوله البيت ولت هازية، لاذت بأمها، عندما ظهر عديله، جرت إليه، مرحبة، معانقة..

«بابا..»

نزل به كمد عند سماعه نداءها، فى نفس الليلة. أصغى إلى امرأته، تحذر ابنتها:

- «.. لا.. أبوكى هذا..»

لكن، هل يقدر على لوم طفلة؟

السبب الثاني سلسلة أمه فى المرض، قعدت، لم تعد تدخل أو تخرج، حتى الطبيب المعالج لا تقدر على الذهاب إليه، تلقته متهلة، مقبلة، قالت إنها ظنت الفراق، وإن ليالى عديدة مضت تود تنسم رائحته لا غير، لم تقل له لا تسافر.. اعتادت منذ الصغر ألا تلح عليه، ألا تكرهه على فعل شىء، لكنها قالت له:

- «ماتعد يا بنى جنب ابنتك وامراتك..»

حدثها عن عقد موقع، وعن التزامات لم ينهاها، وعن العام الأول الذى لم يتمكن الإنسان فيه من ادخار ما ذهب من أجله.

انصرف من البيت مغموما، كابيا عنده هم. ولوم لنفسه، لأنه اشترى قماشاً من السوق المحلية قبل زيارته لوالديه، وقدمه على أنه أتى به من هناك، لماذا ذلك؟ حتى لا تطلع امرأته على ما يأتى به إليهم، أليس فى ذلك ضعف منه؟ إنه يعى ذلك.

لماذا ضمته أمه بهذه القوة؟ لماذا أطالت النظر إليه وكأنها لن تراه ثانية؟، لماذا أبقت رأسه على صدرها لحظات؟ هذا لم يحدث من قبل، أما والده فخطاه أقرب إلى الزحف، شقيقته كانت غائبة فى زيارته الأولى، لم يتبادل معها إلا كلمات معدودات، فى الزيارة الثانية بدت مهمومة بدراستها الجامعية، عندما خرج إلى الطريق، التفت إلى النافذة المستطيلة العتيقة، كانت أمه تنظر منها، تتطلع إليه، تتبعه بنظراتها، وكان واثقا أنها تبتكى!

قبل أن يتم عامه الثانى فى هذا البلد بشهرين، تلقى خطابا بقدم ابنته الثانية، فى الخطاب أيضا أنبأته امرأته أنهم أسموها «عفاف»، ود لو حملت اسم أمه، لكنهم لم ينتظروا رأيه، كأنه غير موجود، صعبت عليه نفسه، لكن لم الحزن؟ لم الغضب؟ إنه ليس موجودا بالفعل، ألم بيد فى بعض الاحيان خلال اجازته كالضيف؟ حتى مظاهر العناية به عمقت إحساسه بذلك.

لام امرأته، لام شقيقتها، وأقاربهما، لكنه عاد يلتمس لهم العذر، الخطاب يستغرق عشرة أيام، هل كانت البنت ستبقى عشرين يوما بدون اسم، وماذا عن شهادة الميلاد، والتطعيم، ترى.. هل دعوا أمه بعد مجيء المولودة؟ لم يطلعها أحد على ذلك، شقيقته لم تلمح للأمر فى آخر خطاباتها، كانت تطلب منه أدوية معينة لوالدتهما وتنقل إليه وصاياها، بدءا من ضرورة حرصه على صحته، وحتى الاهتمام بطعامه، ودعواتها أن يقصى الله عنه أولاد الحرام.

كان يقرأ خطابات شقيقته ولا يعنيه منها الا الاطمئنان على أمه، وأن مكروها لم يصبها، لكنه فيما بعد طلب من شقيقته أن تحدد بدقة التاريخ الذى بدأت فيه الكذب عليه، أكثر من سبعة شهور تمنع فى التفاصيل حتى توحى إليه بغير ما جرى وما كان.

فى آخر خطاب منها قبل الحادث الذى تسبب فى عودته، طلبت منه قماشاً من القطيفة، حددت اللون، البنى، ابتهج لذلك، حتى أنه اشترى القماش فى يوم تسلمه الرسالة، وقد رأى أمه فى المنام ليلة سفره النهائى إلى القاهرة، كانت ترتدى ثوباً قاتماً من نسيج غريب، ليس مما عهدته فى العالم المحسوس، تحيط رأسها بعصابة سوداء، حولها نساء عجائز يتحلقن فى شبه دائرة، يحملقن إليها صامتات، رانبات، كلهن فى صالة فسحة مجهول مصدر ضوءها، كات تنظر إليه عاتبة، وعندها آهات حرى، فلما سألها عن أحوالها قالت:

- سافرت بحسرتك!

صحا منقبضاً، ولما تمت عودته، وعرف ما عرف، وأيقن أنه لن يراها، كمد وأخفى، حتى أن شقيقته رجته أن يبكى، أن يذرف دمعة.

لم يتسلم عمله مباشرة، أياماً طويلة قضاها بمفرده، يلوذ بالتيه فى الطرقات عند اكتمال الغروب، وبدء نزول الليل، لم يفارقه إدراكه أنه غريب، أنه انخلع من العائلة، لم يعد دعامتها الرئيسية، بل إن أياماً عديدة انقضت قبل أن تتأديه ابنتاه «بابا».

بعد تسلمه عمله، قالت امرأته، إن الأسعار ارتفعت، وإنها تطلب منه أن يتولى هو الإنفاق، لا يمكنها تدبير الأمور بالمبلغ الذى كان يدفعه قبل سفره، بدت له الفكرة صائبة، يسترد

بعضاً مما راح منه، لكن المطالب توالى، لم يكن مصراً، أو راغباً فى التدقيق، لكنه فوجئ بفجوة بين مرتبه وما يجب أن ينفقه، اضطر إلى السحب من المدخر، ولم يكن فى حاجة لحسبة يكتشف بعدها أن ما ادخره خلال العامين سينفذ بسرعة، كأنه لم يتقرب، ولم يتعرض لخطر، ولم يعان الوحدة.

هنا أرجع بكم قليلاً لذكر السبب الذى عاد بعده إلى دياره، ذلك أنه لم يتم المدة، ولم يرتكب خطأ ما، بل إن صاحب الدار أشاد به دائماً، ولكم ذكره بالخير فى حضوره، وغيابه، ولكن ما حدث لم يكن له فيه يد، ذلك أن الأحوال بدأت تتغير، اقتتل القوم فيما بينهم، بدأ تقسيم المناطق، وهجرة الخلق من منطقة إلى أخرى، تحددت المعالم بقسوة، ثم أصبح السعى فى الطرقات محفوفاً بالمكاره، خاصة للغريب، لمن لا ينتمى إلى فريق.

حتى كان هذا اليوم، عندما اتجه من بيته إلى المطبعة، لكنه فوجئ بالسكك المؤدية مغلقة، وأناس يروحون ويجيئون.. ولما لاح له المبنى فوجئ.. دخان أبيض سائل يتخلله لهب، منذ أن وقع الهجوم والمبنى يذوى جزءاً بعد آخر، تتصاعد منه هبات وانفجارات، طالت النيران مخزن الحبر، والمواد الطباعية الكيماوية، وجم ودنا من حافة البكاء غيظاً، وقهراً، هذا مكان أودعه ما يقرب من عامين. لم يعد له مقام هنا، وبقي عليه انتظار اللحظة المناسبة ليصل إلى المطار الذى صار مغلقاً معظم الوقت.

فيما بعد، اعتاد أن يقرأ أخبار المعارك في المدينة، كان يتخيل الشوارع والمتاجر، والنواصي التي تتفجر عندها العربات الملقمة، يفكر.. لو وقع الهجوم على المطبعة نهارا لما أفلت، لاختنق، أو احترق، إنه يعرف جيدا ماذا يعنى حريق مطبعة.

حقا، قدر ولطف..

لكن بقدر ما بدت له الغربية منذرة بالمخاطر، فإنه أيقن باضطرابه إلى الخروج مرة أخرى، لكن .. إلى أين؟
حاد به شيء لا يعيه تماما عن السياق القديم.

اعلموا أنه لم يتم سنة واحدة بعد عودته من تلك المدينة، إلا كان يستعيد الروائح الخاصة بصالة المطار، الهواء المكيف، وعطور غامضة، ومشروبات، وبقايا عابرين، قعد منتظرا الإقلاع شطر بلد آخر، لكنه في هذه المرة لم يكن ذاهبا للعمل في مؤسسة خاصة، عديله ساعده بما لديه من صلات في الحصول على هذا العقد، بلد أكثر استقرارا، أموره ممسوكة بحزم، إنه يمضى كخبير، هذا ما نص عليه العقد، سيعمل مشرفا على مطبعة وزارة الإعلام. في المطار انتظره موظف رسمي، أبدى ودا وترحيبا، كان هناك أيضا سيارة وسائق مرح، قال إنه لا يعترف في دنيا الغناء إلا بصوتين، أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، اتجها به إلى بيت من طابق واحد، تحيطه حديقة، مؤثث، مطبخ فسيح توازى مساحته صالة بيته في

مصر، لو أن الأسرة معه، كانوا سيمرحون في هذه الحديقة الصغيرة الأنيقة، رحابة البيت، بساطة أثاثه، سطوع الضوء، بعث عنده راحة وحسن قبول، كان هناك هاتف أيضا .

عند عودته في أجازة، سيبدأ إجراءات تركيب جهاز في البيت، يمكنه الاتصال بابنيته، سماع صوتيهما، لكن أهم ما شغله ترتيب وسيلة تحويل مبلغ في بداية كل شهر.

في غربته الأولى، كان يحول مبلغا إلى زوجته عن طريق البنك كل شهرين أو ثلاثة، لولا إخضاره قدرا من المال لعاد خاويا تماما، علمته التجربة أن كل ما يصل إلى يديها تنفقه، لم يسألها، لم يسترجع الأمر، لكنه عندما لح في إحدى ليالي الصفاء سرعان ما تكدرت، قالت إنها لا تنفق على نفسها، لم تشتتر من الصاغة ذهباً ولا فضة، مع أن زميلاتهما يكسبن معاصمهن بالأساور، ويحطن أعناقهن بالقلادات، لكن كل قرش أنفقته في البيت، البيت لم يستكمل بعد، هل يرضيه منظر الحمام؟ لا بد من توسيعه، وكسوة جدرانه بالخزف، ومع ذلك لم تفعل، لأنها تراعى الأولويات، ماذا يقول الناس عندما يرون الصالون الصغير البدائي الذي اشتراه. لم توافقه عليه، لكنها لم تصرح وقتها حتى لا ترهقه، الصالون لا بد أن يتغير، لا بد!

اعلموا يا صحب أن مسافة بقيت غير منقوصة بينه وبين البلد الذي نزل، تماما كما جرى له في البلد الأول، وإن اختلفت الأسباب، ليست اللهجة، أو الأزياء، أو ملامح العتاقة، لكنه

النظام عينه، هناك كانت المدينة تبدو مفتوحة، تعرض مكنونها جهارا، بما فيه من قوى حرب، ودمار، لكن المدينة هنا تبدو مضمومة، ملمومة، بعيدة، قصية عنه وهو يسعى فى قلبها، غير مبسوسة للغريب، المتاجر تغلق بعد الغروب مباشرة، تخلو الطرقات تماما إلا من عربات مارقة، يبعث كل شىء خوفا غامضا لم يكن يدركه هناك، حيث الرصاص يمكن أن ينطلق فى أى لحظة، هنا تنتشر طوال الليل عربات مسلحة، بينما يقف على النواصى شبان يرتدون الملابس المدنية، لكنهم يشهرون المدافع الرشاشة والبنادق سريعة الطلقات، يدقون فى الهويات، يطيلون النظر إلى الملامح، الأخطار هنا خفية، لكنها مبنوثة، لا تبين.

كان يواجه وحدة من نوع غريب، إنهم يبديون له احتراما جماء، لا ينادونه إلا «سيادة الخبير»، لحظة دخوله المبنى الحديث الضخم يقوم موظف الاستعلامات محييا، لكن، لم يقترب من أحدهم، ولم يسمع شخص منهم إليه، لم يتلق دعوة لزيارة بيت، لم يرافقه صاحب إلى مقهى فى المدينة، ولم يسأله زميل عن حاجة له، ولو قابل واحدا منهم فى الطريق بعد انتهاء العمل، فكأنه لا يعرفه حتى ان تلاقى نظراتهما، مسافة تفصله عنهم، لم يدن منهم، أى محاولة كانت ستقابل بصد، اما معلى واما خفى، هذا ما أيقن منه، لذا لم يسرع!.

فى القاهرة اذا ضاق به الحال، يلقى متسعا هنا أو هناك، إقامة الجسور بين الخلق ميسورة، سهلة، لكن هنا تبدو الوجوه

جهمة، لكل شيء ظاهر وباطن، هدوء المدينة مريب يخفى عنفا، صمت الملامح يطوى غضبا، أو حنقا، لا يدري، لكن ما يراه عبر الملامح مخالف لما يدور فى الاعماق القصية.

كان يخشى عطلة نهاية الأسبوع، يعول همها قبل حلولها، ما بين انتهاء الدوام ظهر الخميس، وحتى بدئه صباح السبت أثقل الأوقات وأوحشها، بيته بعيد، محاط بالفراغ من كل جانب، المنطقة كلها ما تزال تحت الإنشاء، الحشائش تغطى مساحات واسعة، وثمة شيء ما يتربص، متحفز على وشك الانقراض.

بعد انتهاء برامج التليفزيون يطن الفراغ فى رأسه، يدير مؤشر المذياع، يصغى إلى القاهرة، إلى عواصم بعيدة، إلى لغات لن يفك رموزها، عصى فهمها، وعندما تحين لحظة إيوائه إلى الفراش، يتكوم، يفرد الغطاء حتى يخفى رأسه، كأن هذه البطانية فى الشتاء أو تلك الملاحة فى الصيف ستموه وجوده فى مواجهة خطر يحدق به.

نهار الجمعة تبدو الساعات ثقيلة، ملولة، يعيد ترتيب الأشياء، أو يعد طعامه فيتأنى ويتمهل، أحيانا يكتب الخطابات، إلى امرأته، إلى والده.

الغريب أنه لم يكن يخشى وفاة والده كثيرا، كأن رحيل أمه وهو فى غربة أوجد عنده ألفة مع العدم، اعتياد لبدء الفراق، كان يفكر فى شقيقته، وظروفها بعد رحيل والده، أكثر مما

يفكر فى الرحيل ذاته، اعتاد الخطابات المطولة اليها، ينبئها بأحواله، لكنه يتحاشى أى إشارة إلى البلد، كل المظاريف تفتح، وصف أيامه، وتوالى الليالى، وشوقه إلى ابنتيه، واسترجع أياما نائيات، فمن ذلك جلوسهما فى الزمن القديم إلى مائدة الغداء، وعدم تناول أى منهم لقمة واحدة مهما بلغ الجوع مداه قبل رجوع الأب، إنه يذكر ترتيب القعدة، ومذاق طعام أمه، والفظائر التى كانت تقلبها يوم الجمعة، وخروجه عند العصر.

الغريب.. أنه كان نادر الإشارة إلى امرأته وبنتيه، وابنه الذكر الذى رزق به بعد شهور تسعة من أول أجازة يزور فيها مصر بعد عمله هنا، أمضى شهرا كاملا، وقبل سفره أوصى لو جاءت بنتا فليكن اسمها صافية، لو ولدا فليكن اسمه محمد، وهذا ما كان.

فى خطاباته إلى والده لم يذكرهم إلا فى السطور الأخيرة، لكنه فى خطاباته إلى امرأته كان يكرر وصاياها، ألا تدع البننتين تنزلان إلى الشارع بمفردهما، أن تقف فى الشرفة عند ركوبهما حافلة المدرسة، أن تشدد عليهما فى عدم شراء الحلوى من المدرسة، أن يحذرا عند تلقيهما قطعة شيكولاتة أو حلوى، من إحدى العاملات، أو حتى من زميلاتهن، يؤكد أن أحدهم أخبره بمعلومات غير مشكوك فيها، وثيقة المصدر، بوجود عصابات تدس المخدر فى الحلوى، يقوم عملاؤها بتوزيعها مجانا على الصغار حتى إذا ما اعتادوا وأدمنوا

فرضوا عليهم الأسعار التي يريدونها، حذرنا حتى من المدرسات، أرسل إليها قصاصة من مجلة وقعت في يده مصادفة وجدها مع أحد المصريين العاملين هنا بالمقهى القديم، في القصاصة خبر عن إحدى المدرسات، عملت في الخليج لمدة عشر سنوات، جمعت مالا وادخرت ثروة، إلا أن أحدهم أقنعها بحمل كيلو واحد لا غير من الهيروين لتسلمه إلى شخص ما، في مقابل هذا تحصل على أضعاف ما ادخرت طوال عشر سنوات من الكد المتصل.

كان يؤكد دائما أن الزمن لم يعد كما عهدوه، وأن المخاطر جمة، وما يسمع به غريب..

في خطاباتها إليه عبارات متشابهة، تطمئنه، وتؤكد له أن كل شيء على ما يرام، وأنه لا ينقصهم غير وجوده بينهم..

وجوده بينهم؟!!

أعلموا أنه توقف طويلا عند هذه العبارة، وأمثالها، إذن.. لماذا يشغله هذا الخاطر، البطيء المزيج، لماذا تفاجئته تلك اللحظات الحادة عند استيقاظه صباحا، أنه غريب، وأنهم غريباء، يحاول الدنو منهم، ويقدر ما يبذل من جهد خلال إقاماته القصار^ة فإنهم يوغلون بعيدا، بل في لحظات أمكنه تحديدها، خيل إليه أنه زائد عن الحاجة، أنه لا يعرف شيئا عن من هو من صلبه.

فى البيت، ىرن الهاتف:

- أنا منال ..

- منال من؟

- زميلة عفاف.

فى المساء يسأل أبنته الكبرى عن المدرسة، عن زميلاتها،
تجيبه باقتضاب، أحياناً بتفصيل، هل تبدو معجبة لأنه
يستفسر؟ ربما، مرة أخرى فوجئ بوجود قائمة أدوية، يقرأ
التاريخ..

- لماذا لم تخبرينى بمرض الوالد؟».

- «لم أشأ أن أزعجك..»

- «لكن.. ألم أوصيك بكتابة كل شىء إلى..»

تصمت.. مرة قالت إن ما يجب الكتابة عنه كثير، هل ترهقه
وهو فى غريته، يكفيه ما هو فيه..

لم يفته تعبها، وإرهاقها البادى ، مضىها إلى النوم مبكراً،
كان فى بيته وبين أولاده يلقي نفسه فجأة غريباً، ينوء بثقل غير
مرئى، لم يكن معهم عند ذهابهم وعودتهم إلى مدارسهم، إلى
الطبيب، إلى مركز التطعيم، فى أمسيات الخميس، فى مرات
خروجهم لقضاء حاجاتهم، للترويح أو للتسوق، أو لزيارة
الخالة.

ما حاول إقصاءه عن وعيه، عن الصور المستعادة التي يطيل التأمل فيها بعد عودته ، تلك اللحظات التي يرى فيها الأطفال زوج خالتهم، تبسط ملامحهم، يندفعون إليه، يحيطون به، حتى الولد! أما البنت الكبيرة فموقعها خاص، لم يعلم إلا في الأجازة الثالثة أنها تقضى معظم أيامها فى بيت خالتها، أن لها حجرة تخصها هناك، ولاحظ فجأة أن ما ترتديه مختلف عن ملابس شقيققتها الصغرى، وأن زوج خالتها توسط لإلحاقها بمدرسة أجنبية بعد أن أمضت مرحلة الحضانة فى مدرسة سعى هو أثناء أجازته الماضية لتنظم فيها البنت، ولما أبدى ملاحظة عن الأوضاع، وقال إن السنين الأولى تؤثر فى شخصية البنت، أبدت امرأته ودا، ولينا. قالت ان شقيققتها حرما الله من الخلفة و«عفاف» تؤنس وحدثهما، هما يعتبرانها كابنتهما، لم يرتج، لكنه لم يعلق، إذ كان عليه أن يرجع إلى هذا البلد بعد يومين.

فى أيام وحدته القصية كان يتسائل عما يفعلون الآن؟ فى هذه اللحظة بالذات؟، يستعيد وجوههم، يتأمل ملامحهم فى الصور، يلمح أطياف شبه من أمه وأبيه وقسماته هو، البنت الكبرى فى طفولتها أقرب شبيها إلى أمه، ليبتها حملت اسمها، يطيل النظر، ثم ينطق بصوت مسموع:

«اولادى!»

يشير بأصبعه..

«اسمعى يا عفاف..»

يتوقف لحظات، يصغى إلى رجع الصدى فى البيت الفسيح
النائى، لأسباب شتى يوقن أن ابنته تدرك فى نفس اللحظة ما
يقول برغم بعد المسافة.

فى صفره كان اذ يتحشرج صوته فجأة، أو يبدأ اضطراب
مافى حلقه، تقول أمه إن بعضهم يخوضون فى سيرته، ثم تتلو
اسم الله مرات، وآيات من القرآن الكريم، إنه ينظر إلى الصور،
يوجه بعض الملاحظات، يسدى نصائح وربما أبدى غضبا، غير
أنه بعد وقت يسير ينتنى مبديا اللطف، «خلاص.. سامحتك..»

وقبل مضيه إلى النوم، يومئ للصور المطلة عليه:

«تصبحون على خير يا أولاد..»

فى ليالى عزلته القصية، خاصة أيام الأجازات، والعطلات
الرسمية، أصعب الاوقات وأوحشها عليه، فى الليالى تلك وفدت
إليه أعراض لم يعهدها من قبل، كان يستيقظ فجأة، مكروش
النفس، تعدو دقائق قلبه بعضها فى أثر بعض، ماذا لو وافته
المنية فجأة؟ كم من الوقت سيمضى قبل اكتشافهم غيابه، أم أن
ما سينبعث من جثمانه سيدل عليه؟ لكن البيت بعيد عن
الطريق.

يمعن متخيلا ردود الافعال، لحظة تلقى امرأته للنبأ، والده
الذى لم يعد يبصر، شقيقته الوحيدة، أيهم سيبلغ حزنه المدى؟،

ايهم سيذكره لدى أطول؟، الولد مرتبط به، سيحزن، ولكنه سيلهو بعد حين، لكنه سيصبح يتيما، كذا شقيقته، لن يكفي إلا لفترة محدودة، لهذا اضطر إلى تجديد العقد أربع سنوات أخرى، لم يكن له خيار، من يدري ماذا سيجيء به الغد؟، فى تلك الليالى تأخذه الخواطر السود، حتى صاغ أحيانا نعيه ورتب الاسماء التى ستنتشر، وشرع فى كتابة خطاب إلى ابنه يحكى فيه ما جرى له فى إقامته، وفى غربته، كان دافعه أن يعرفه ابنه ميتا، ما دام لم يعرفه حيا، بدأ فعلا، لكنه لم يتم الخطاب، تشاءم، إن ذلك يعجل بالمقدر.

فى النهار يلوح لمن يعرفه هادئا، صامتا، لا يعرف أحد شيئا عن دخائله ولا يعرف شيئا عن يحيطون به.

فى بداية كل شهر يمضى إلى المصرف لتحويل المبلغ الذى يحق له تحويله إلى مصر، نسبة معينة ينص عليها العقد الرسمى، يوقع العديد من الاستثمارات، يتنقل من نافذة ضيقة إلى أخرى، ملامحه محايدة مهما تلقى من مضايقات الحراس، والموظفين الذين كان معظمهم غليظ العبارة.

فيما بعد قال لشقيقته، هذا ما اذحصرت فيه العلاقة، ازعجها ذلك، جاء رد فعلها مشابها لما كان ممكنا لوالدته أن تقوله..

«حرام عليك.. من لهم غيرك؟»

حقاً، ليس لهم غيره، لكن.. هل يدرك وعيهم ذلك؟، لماذا لا يبدون نحوه قدراً من الحنية؟، لكن البنت الصغيرة تسرع عند ظهوره، سمعها مرة تتكلم مع زميلتها، تخبرها أن والدها وصل بالسلامة، فى اليوم نفسه طلبت منه أن يزورها فى المدرسة، لم يتأخر، صباح اليوم التالى، بدت مزهومة به وعندما لمحت إحدى الطالبات صاحت بها:

- «بابا أهه يا ستى.. بابا أهه»..

لسنوات تالية لم يفس فرحة ابنته بزيارته لمدرستها، وتعلقها بيده، وتوقفها المفاجئ، وأشارتها إلى إحدى زميلاتهما:

- «ثرياً.. دى اللى بتضربنى»..

والى أخرى :

- «صفاء.. بتقولى فىن أبوكى»..

لكم رقى، وشف حزنه فى غريته عندما استعاد زيارته تلك، علل البعاد بأنه من أجلهم، يتمنى لو أتم ادخار حاجة لكل من الثلاثة حتى إذا حان تخرجهم فى الجامعة.. لقوا ما يمكنهم الاستناد إليه فى بدء حياتهم ، هذا أقوى ما دفعه إلى تجديد العقد..

لكن..

حدث ما لم يخطر له على بال، ما لم يعد له العدة، ولذلك تفصيل:

فمنذ نزوله هذه الديار ، لزم جانب الحرص، لم يتحدث أمام زملائه عن شأن يخص بلادهم، لم يخض فى أمور عامة، لم

يذكر لا بالشر ولا بالخير حاكم البلاد الذى تطالع صورته
البصر أينما أتجه، لم تخل منها حتى العربات العامة
والخاصة، وفى نهاية الأسبوع عندما ينتظر القوم السهرة إذ
يتوقعون فيلما مصريا، أو مسرحية، أو عروضاً غنائية، يطل
عليهم مفترشا الأرض، ممسكا بعضا الماريشالية، مرتديا عباءة
عربية، يبدأ حديثه البسيط، أو العائلى كما أطلق عليه أعلام
البلاد، حتى فى هذه الليالى لم يعتد إغلاق الجهاز، إنما يتركه
مفتوحا، مسموع الصوت.. فالبعض يؤكد أن الشباب الموالى
يمر بالبيوت متصنئا، راصدا من أغلقوا، أو بدلوا قنوات
التلفزيون بقناة بلد مجاور يصل إرسالها واضحا، تخلو عادة
من الأغانى الحماسية، والشعارات المتتالية، والإعلان المستمر
عن نبا هام سيذاع بعد قليل.

فى الأيام الأولى هنا كان ينتظر بقلب واجف، حابسا
أنفاسه، متوقعا الأذى، هل وقع انقلاب؟، هل قامت الحرب؟ هل
هى كارثة طبيعية؟ لكنه اعتاد ما يلى ذلك، إن سيادته - مثلا -
تلقى رسالة خطية هامة من أحد إخوانه أصحاب الجلالة، أو
الفخامة، أو افتتاح وحدة كهربائية جديدة، أو حضور مناورة
بالذخيرة الحية قرب الحدود الشمالية حيث مصدر التوترات
الدائمة، أو إعادة العلاقات أو قطعها مع بلد ما، أو قيام
سيادته بممارسة رياضة المشى لمدة ثلاث ساعات فى منطقة
القبائل الجبلية، لم يعد يتوتر، وإن بقى ترقبه إلى حد ما، فريما
وقع حادث جلل فجأة.

كان إذا وجد فى جمع، وفوجئ بسيادته فى التليفزيون،
يشخص وينصت ، لا يسمح لأى خاطرة داخلية تمر به أن تبدو
ظلالها على ملامحه، كان يبقى جامدا، فان صفق القوم
شاركهم، وإذا ابتسموا تبعهم، ليس له من الأمر شئ، غريب
مهما طالت مدته، ليس بذى علاقة مهما أبدوا له ودا أو ترحيبا.

لم يتردد إلا على هذا المقهى القديم المطل على الحديقة، لم
يتبادل الحوار إلا مع العمال المصريين الشبان الذين يفدون
إليه من أجل الكسب المحدود، والمأوى الذى يقدمه إليهم
صاحب المقهى البدين، حوارهم معهم عام، عابر، شاركهم مرتين،
الأولى بعد الحريق الذى شب، رجاه أحدهم أن يتبرع باليسير،
لأنهم سينقلون الجثمان إلى مصر، توقف الشاب عن الحديث،
كان ميكانيكيا من الجمالية، قال إنهم أقسموا فيما بينهم إذا
لحق بأحدهم مكروه أن يعيدوه، فى أى وقت إذا حلت المنية،
فلن يدفن هنا أبدا. قال له إن الولد وحيد والديه، وإن أباه فقير
جدا، والأمر كارثة، كارثة، لم يتردد.. لم يبخل قط.

فى المرة الثانية جاءه أحدهم، استفسر منه، أيعرف مسئولا
كبيرا فى هذا البلد؟ نظر متسائلا، حذرا..

قال الشاب إن صاحب هذا الخط، وأشار إلى اللافتات
المعلقة، صاحب الخط الجميل هذا معتقل منذ ستة شهور، قيل
إنهم أطلقوا عليه الرصاص، وسمعوا أنهم دسوا له السم فى
اللبن كما جرت العادة عند قتل الخصوم هنا، أبوه حفى فى

القاهرة، دار على وزارة الخارجية وسفارة هذه البلاد قبل قطع العلاقات، ونشر التماسا فى صحيفة مصرية رفعه إلى الزعيم، لكن.. ما من مجيب!

أصغى حذرا، من لا يعرفه جيدا لن يثق به، يعلم أن عددا من الذين جاءوا للعمل هنا انضموا إلى الفيالق الثورية، البعض طواعية، والآخرين تحت ضغوط شتى.

قال إنه مجرد موظف فنى، خبير طباعة ولا يعرف أحدهم، أو بمن يمكنه مجرد الإفادة، اعتذر، ولكنه لم ينقطع عن المقهى، كان يمضى إليه بعض الوقت فى العصر، يقعد فوق إحدى الدكك متأملا الأشجار القديمة، المتقاربة، وعندما سأل بعض من أهل البلاد عن زيارة السادات إلى القدس، قال إن ما جرى خطأ، ولم يزد حرفا.

الحقيقة أن ما شعر به فى تلك الايام أكثر من محدودية تلك العبارة، عندما رأى رئيس البلاد يخرج من بطن الطائرة فى مطار اللد، ويتلفت حوله، لم يصدق عينيه، كان بمفرده فى البيت القصى، اهتز باكيا، وترددت فى وعيه فكرة موجزة: انتهى دهر، انتهى عصر، راح عهد وجاء عهد، ما زال محتفظا بكراساته التى رسم على صفحاتها أبطال الجيش المصرى أثناء حربهم فى فلسطين، ومما لا ينساه، أيام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، تطوعه فى المقاومة، أيام الخريف هذه الرمادية، الانفجارات، الغارات الليلية، الأغاني وما أثارته من

مشاعر بقيت حية، ومن قبل ومن بعد ابن شقيقته، مازال مفقودا حتى الآن، لا يدري أحد أحي هو أم ميت، كان يعمل فى منجم الفحم بسيناء، قال زملاؤه إنه هج على وجهه فى الصحراء عندما وصل الغزاة، آخر مرة شاهده عامل صعيدى يمشى متجها إلى الشرق، وضاع، وقال آخرون إنه كان بين مجموعة من الشاردين، صفهم الجنود ورموهم فى هجير الصحراء، لا أحد يعلم..

أهكذا.. أهكذا ببساطة؟

فيما بعد، لم ينس خرجة السادات من بطن الطائرة، تلفته مضطربا حوله، تمنى فى هذه اللحظة أن يجرى شىء ما، أمر خارق، فيختفى أو يتلاشى، لكن كل التفاصيل علق بذاكرته، حتى هذا الضابط الإسرائيلى، كان يشمر كمنى سترته، ويمشى مزهوا مختالا وراء الرئيس!!

ما مر به كتمه، فى اليوم التالى مضى لمقابلة المسئول السياسى عن الوزارة، وكان الرجل قد سلمه جائزتين فى حفل أقيم بالديوان العام بعد الظهر تعبيرا عن تقديرهم لتفانيه فى العمل، قال إنه يمكنه العودة إلى مصر إذا كان وجوده يثير حساسية ما، غير أن الرجل قام واقفا، قال:

«بل إننا نرجوك الاستمرار.. مالك أنت وما جرى؟»

ثم قال: إن التوجيهات العليا للقائد المنتصر صدرت بمعاملة المصريين أفضل معاملة، وإذا كانت العلاقات قد قطعت فإن

العلاقات الحقيقية ستظل قائمة، وإن هذا البد سيتسلم زمام القيادة لتعويض النقص الاستراتيجى بخروج مصر..

هذا ما قاله القائد، وهذا ما سيكون..

إلا أن ما قيل علنا، وما رددته الصحف، وأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، غير ما جرى فى المعاملات اليومية، فلم يخل الأمر فى أحسن الأحوال من تعريض خفى، وفى أسوأه من تهكم علنى، بقى يتقاضى، ولكن ما جرى فى المقهى لم يستطع عليه صبرا.

ذلك أنه أوى عصر يوم خريفى رمادى إلى المقهى، شرب شايًا، ودخن أنفاسًا من النرجيلة، وراح فى سرحة طويلة، لم ينتبه إلا عندما فوجئ برجل أصلع، غليظ الرقبة، بأنفه أثر من ندبة قديمة..

- «أنت مصرى؟»

- «نعم..»

- «زين والله زين.. عندى منكم اثنين.. خدم.. والله أنتم ما

تنفعوا غير خدم..»

وسقطت النرجيلة فوق الأرض، تناثرت الجمرات، والتمباك، كأن قيذا شده دهرًا انفلت، انقطع فجأة، أطبق على عنق الرجل، اقترب الرواد، تحفز العمال المصريون، وعندما تمكنوا من إبعاده إلى الخلف، كانت يداه ترتعشان، وشفثاه ترتجفان، وعروق رقبتة نافرة، وأفاظه منقطعة.

أحد الشبان العاملين، بدأ منفعلًا، صاح: إن هذا الرجل أهان المصريين، سمعه بأذنيه، هذا يتناقض مع توجيهات القائد، مع ما يتردد صباح مساء، كان صاحب المقهى البدين قد وصل، قال:

- «لا تضخم الموضوع.. هذا عجوز خرف..»

ثم التفت إلى العمال الذين تحلقوا..

- «اسألهم عن حبنا لمصر.. مصر أم العرب..»

فوجئ الكل بالرجل ينظر هلعًا، يردد:

- «ما تخربوا بيتي..»

ثم اتجه إليه..

- «يا أخی ما تخرب بيتی.. كنت أداعبك، والله أداعبك..»

ثم صاح هاتفا بصوت متحشرج:

- «عاش الرئيس.. عاش الزعيم..»

أصر صاحب المقهى على دعوته إلى مجلسه، إلى شاي، إلى نرجيلة، قال كلاما كثيرا عن الخواطر الغاضبة، عن الذين لا يحسنون التعبير، عن الحمقى أيضا، عندما تأهب للانصراف قبل اكتمال الغروب، كان عنده شجى، لماذا فقد أعصابه هكذا، ما الذى جرى؟، فى لحظة - وقد عاودته فيما بعد - رق للرجل إذ استعاد خوفه، وهتافه المذعور.

فى البيت، عندما خلا إلى نفسه، وأحاطته الوحدة، أيقن أن

ما كان لن يكون، وأن المقام لن يطيب بعد الآن، وبدأ عنده اليقين أن ثمة أمراً سيقع، توقع غيلة، أذى.. لكن ما طبيعته، ما حجمه؟ لم يدرك.

عندما طلعت الشمس لم يشعر هل أغفى أم لا؟، شرب فنجانين من القهوة المركزة، اقترب من المرأة، لكم هو فى حاجة إلى النوم.

على حاله هذا مضى إلى المسئول السياسى الذى استدعاه على عجل، استقبله غير مبتسم كعادته، بل إنه لم يدعه إلى الجلوس، بدت الجفوة واضحة، والرغبة فى الإيلام.

قال باختصار: إنه سبب له إحراجا شخصيا، فهو المسئول عنه هنا، وما جرى منه فى المقهى عصر أمس لم يكن له داع، هل يزعج باسم القائد فى شجار عابر. هذا خطير، خطير جدا، أنه يتعجب.. بل إنه لم يصدق عندما أطلعوه على ما جرى.. إذن.. هل يخفى هدوءه هذا وعزلته ما هو أخطر؟

بعد خروجه من مكتب المسئول السياسى كان فى حال، وعنده حاجة إلى الانفراد، لم يجد إلا دورة المياه، دخلها لا ليقتضى حاجته، وإنما ليغمض عينيه ليحاول تبين عند أى نقطة يقف؟، ما علق بذكرته ما قاله لبعض من معارفه فيما بعد، شعوره بأنه بعيد، وحيد، وما من ناصر، أو معين، إن مكروها يمكن أن يصيبه فجأة، سمع عن كثيرين راحوا ضحية حوادث مفاجئة أثناء عبور الطريق، أو يفقدون بعض أطرافهم فى حوادث تبدو عابرة، لكنها مدبرة، أما دس السم فى اللبن فشائع، لم يدرك، لماذا اللبن بالذات؟

كف عن شرائه، عن شربه، قرر ألا يتردد على المطاعم العامة، أن يتوقف عن نزهة نهاية الأسبوع، أن يشتري طعامه من أماكن مختلفة، أن يغير ما يقدمه له البائع في اللحظة الأخيرة، حتى النرجيلة كف عن تدخينها، بل انقطع عن المقهى تماما.

ما أثقله، لحظة بدء انفراده، عندما يصل إلى البيت، ويغلق الرتاج. ويصبح منقطعاً، معدوماً من كل عون، يأنس من المساعد، أحكم إغلاق النوافذ والأبواب، غير موضع نومه، يضىء الصلاة طوال الليل، مع أنه لم يعتد النوم، إلا في عتمة، كان يستحم بسرعة، ولحظة اغلاقه عينيه بسبب تدفق المياه، يفتحهما بسرعة، متوقعا ظهور أحدهم فجأة أثناء عريه.

كان في البيت نائياً، ضحيفا، وفي الحمام، أو أثناء نومه أشد ضعفاً، لم يوقن، هل تبدو نظرات المحيطين به طبيعية، أم أنها تبدلت؟، لكن الذي لم يشك فيه أن النساء يطنن التحديق إليه، حتى إذا انتبه ولوا بنظراتهن، أما موظفو الاستعلامات فبان في تحييتهم فتور..

كم مضى على حادث المقهى؟

كم أنقضى على استدعاء الوكيل له؟، وحتى وصول هذا الاستدعاء؟.

فيما بعد لم يستطع تحديد الأيام بدقة، ربما سبعة، ربما عشرة، لكن ما مر به، ما أثقله خلال هذه الأوقات جعل مرورها بطيئا، ثقيلًا، حتى خشى استعادة بعض من تفاصيلها، مما جرى فيها لمدة.

عند ذلك الغروب كان يتأهب لقلبي بيضتين، وإعداد كوب من الشاي، وبالمناسبة، فإن ما يثير حزنه، جلوسه وحيدا عند تناول طعامه، فالأكل يحب اللمة، وكثيرا ما استعاد أياما من سيرته الأولى.. انتظارهم وصول الأب ، لا يمد أحدهم يده إلى لقمة مهما بلغ الجوع، كان الشبع لا يكتمل إلا بالونسة.
من ينتظره الآن؟

فجأة، رن الجرس، مرة نادرة، لا يتوقع أى زائر، من؟، عندما فتح الباب رأى أحدهم، يمسك أوراقا، يردد اسمه، متطلعا إليه، تحدد يوم الأربعاء صباحا، الساعة الحادية عشرة وثلاث عشرة دقيقة لمقابلة رئيس مكتب الأمن الخاص، استفسر عن السبب، لكن معالم الرجل بدت صماء، حدد عنوانا، واسما تسبقه رتبة عسكرية، شدد على الحضور.

لماذا؟ لماذا الاستدعاء؟، فى حياته لم يدخل قسم شرطة أو محكمة، ولا كشاهد حتى، لماذا يوم الأربعاء وليس غدا؟.

يعلم الله وحده كيف مرت عليه الأيام الثلاثة، شحب نومه، وقض مضجعه، هوى قلبه مرات، كدره تساؤل ممض، هل سيرى الأولاد مرة أخرى؟

إلى من يتجه؟، ممن يطلب العون؟ إلى من يبوح؟، خطاه
مرصودة ، حركاته محسوبة.

كانت الأيام الثلاثة قاسية.. لكن الساعات الأربع التي
انتظرها فى الصالة الرمادية أفسى، بدت لهجتهم غريبة، كأنه
لم يصغ إليها لسنوات..

نودى عليه فقام، إلى الجدار علقت ساعة قديمة، ذات بندول
يهتز برتابة، الواحدة والنصف.. طلب منه الرجل أن يتبعه، إلى
الباب الضيق فى نهاية القاعة، لايد من إحناء الرأس للمرور
منه، للوصول إلى الفناد الفسيح، عدد من شباب الثورة،
مسلحين بمدافع رشاشة قصيرة، يرتدون الأزياء المدنية،
ملاحهم متقاربة، عليهم تاهب وعندهم قسوة، تطلع بعضهم
إليه.

أثناء صعوده السلم الضيق، الرطب إلى الطابق الأول، ثم
الثانى، ثم الثالث، كان أكثر هدوءا، وقراره أهدأ من الأيام
المنقضية، وقورع البلاء ولا انتظاره كما يقولون!، مع أنه لم يوقن
من خروجه من المبنى الذى بدا كل ما فيه محاطا بغموض،
أبوابه مغلقة، لا تسفر، لا تشى، أما الطرقات فمتداخلة..

عند أحد المنحنيات فوجئ برجل معصوب العينين، يقوده
اثنان منهم، تساءل.. لماذا يبدو رأسه مرفوعا إلى أعلى؟، تذكر
أن العميان يمشون هكذا، الفرق أن كتفى الرجل مرفوعتان
وكأنه يتوقع ضربة مفاجئة فأثر أن يتحفز. هل سيخرج هكذا؟
إلى أين سيمضون به؟

داخل الحجرة الرمادية طلب مرافقه المكث لحظات،
انصرف، بقى وحيدا، معزولا تماما، بعيدا إلى أقصى حد،
أيقن أنه مرئى، مراقب، وأن ما يعبر ملامحه مرصود، رب
حركة بلا معنى يحاسب عليها، فليشغل نفسه بتأمل ما حوله،
بالنظر إلى الموجودات، مكتب قديم، فوقه أوراق متناثرة
وزجاجة حبر، قلم، دفتر صغير، عليه دبابيس دائرية، فتاحة
خطابات حادة، ثلاثة أجهزة للاتصال، هاتف أحمر، تتدلى
الأسلاك المتصلة بها، تتشابك، تضى إلى حيث لا يستطيع
متابعتها، خزانة حديدية، مقبضها دائرى، ماذا تحوى؟
صندوق مغلق، ماذا به؟ البساط قديم، نقوشه هندسية،
مثلثات، داخلها مربعات، تتوسطها صلبان صغيرة، رائحة قدم
تثقل الفراغ..

- «أهلا..»

من أين دخل الرجل؟، هل استغرقه الأمر حتى أنه لم
يلحظا، الغريب أن أولاده توافدوا عليه فى هذه اللحظات، حن
حتى كاد يبكى، إنه أب، متغرب عنهم، ليؤمن لهم أوضاعا
أحسن، ألا يستحق هذا رفقا بحاله؟، لم يأت شيئا، لم يخالف،
لماذا دخوله المبني مجبرا؟

الرجل قدم نفسه.. الرائد علاء، علاء فقط، اسمه حقا؟، بدأ
مصرا على إبداء هذا التهذيب المبالغ فيه، لا يخفى ما يستتر
وراءه من عنف ربما تفجر فى أى لحظة.

فى مواجهته تداخل فى بعضه، لو رأى نفسه لأدهشه
تضائل حجمه ، إنها المرة الأولى فى حياته التى يواجه فيها
شخصا فى مثل هذا الموقع، بدأ يتحدث مباشرة، فقال كلاما
كثيرا عن عظمة مصر، عن دور المصريين فى هذا البلد، عن
مساهماتهم فى خطط التنمية العظمى، عن التوجيهات الحاسمة
فى توفير ظروف العمل لمن يجيء منهم، طبعا هذه تعليمات
سيادة القائد...

- «طبعا .. طبعا..»

هذا لا يمنع وقوع بعض التجاوزات الصغيرة، خاصة من
الجيل القديم الذى لم يترب على الأفكار القومية، الثورية،
الوحدوية، وأبرز مثال.. ما حدث فى المقهى..

- «ياه.. سيادتك تعرف..»

استدار الرائد مبتسما، الحق أنه تساءل منبهرًا، ليمد
غروره بزاد من عنده..

- «نحن هنا نعرف كل شىء..»

دنا منه فجأة، مال عليه..

- «إننا عيون الزعيم وأذانه.. ما علينا..»

عاد مرة أخرى فأفاض، ذكر الكفاح المشترك، ونبل الشعب
وقدرته على التضحيات، وإذا كانت الظروف التاريخية أدت إلى
انسحاب مصر من المواجهة فإن الثقل القياىى انتقل هنا
بفضل حنكة الزعيم والقائد..

ضرب المكتب بقبضته..

– «إنه قيادة تاريخية، استثنائية..»

لم يعلق، لم يبذ حركة، لم يجاوب، لا بالنظر.. ولا بالإيماء،
إنما سرى عنده حزن وأسى، واستمر الرائد متحدثاً عن الأمة
الواحدة، عن ضرورة بث أفكار القائد، فى كافة أنحاء العالم
العربى، خاصة مصر.. مصر الأم، مصر مركز الثقل..

هنا لا بد من وقفة، إذ بدأت تلوح علامات فى الحديث
المستمر، المتدفق، تلميحات لم تخف عليه، إنه مقبل على لحظة
حادة، مديبية، لا يمكن له التزام الصمت عندها وإلا عنى ذلك
الموافقة.

اعلموا أنه منذ وصوله إلى هذا البلد، ومنذ نزول السادات
فى مطار العدو، منذ الإعلان عن قطع العلاقات، وهو يخشى
أن يلقى نفسه عند نقطة لا يمكنه بعدها العودة إلى القاهرة، أن
ينقطع تماماً عن عياله، عن شقيقته، لم يفصح لأحد عن دمه
إذ رأى الرجل يخرج من بطن الطائرة فى مطار اللد، لم يبيح، لم
ينطق، لو أنه فى القاهرة، لمضى إلى المقهى، لفض مغاليق قلبه
لصاحبه، لأبدي وجاهر، لكنه هنا لم يشأ أن يسفر حتى لا يجد
روحه عند هذه النقطة التى يخشاها، أن يكون هو فى بلد،
وأسرته فى بلد آخر، صحيح أنه لن يراهم قبل تسعة شهور،
لكن كل يوم ينقضى يقربه منهم، وعند لحظة بعينها سيجد
نفسه فى الطريق إلى المطار، متجها إليهم، لا يوقفه حاجز، ولا

تخترقه عينان متفحصتان كعيني هذا الرائد.. بل إن وجوده فى هذا المكان يؤذيه داخليا، إنه مضطر لإخفاء مجيئه إلى هنا، هذا إذا أتيح له الخروج.

المهم..

كم طال به المقام ؟

أربع ساعات كاملة، رق فيها الضابط وتصلب، أبدى وأخفى، صرح ولج، تقدم وانثنى، بعدها لم يطل مقامه، بمجرد خروجه عبر الطريق بسرعة، أوغل مبتعدا فى الطرقات الخالية، مجتازا البيوت التى لا تلوح منها حركة، كان يود التوحد بذاته، النأى، استعادة دقائق اللقاء، فى البيت قعد مكمودا، لا يدري المراد به، هل سيطلع عليه صباح اليوم التالى هنا أو فى مكان آخر؟. كان راضيا لوضوحه مع الرجل، غير أنه كان يعى تماما.. لم يعد له مقام هنا!.

لم يعرف إنسان ما جرى له خلال هذه الأسابيع الثلاثة، الممتدة بين المقابلة ولحظة إقلاع الطائرة به.

فيما بعد قال لشقيقته:

- لو تعرفين أى أيام سود؟

كانت شقيقته تحملق إليه صامته ، لا تدرى، لا تستفسر، لا تعرف التفاصيل، غير أنها كانت تحسه، تماما كالمرحومة أمه، لكنه فيما بعد أفصح، ليس فى جلسة، إنما عبر قعدات شتى، فى معظمها كان يبدأ وكأنه يناجى نفسه.

فى البيت لم يغف إلا مضطرا، ولم يعرف من النوم إلا ما يشبه الإغماء، أما الزاد فعافه حتى أوشك على هلاك، تردد بين الوزارة، والبنك، ولما قالوا له إن تحويل مدخراته يقتضى موافقة أربع جهات، اثنتان أمنيتان، واثنتان سياسيتان، لم يعبا، ما شغله سرعة مفارقة البلد، تحمل نظرات المحيطين به، وتحرشات العاملين، وازدراء الموظفين البادى، وسخف اللجنة التى جاءت تتسلم البيت قبل موعد سفره - الذى تحدد - بستة أيام، كان عليه قضاء هذه المدة فى الفندق، ولأنه يعلم بوجود مفاتيح أخرى للغرف، كان يزيح المقعد والمنضدة إلى ما وراء الباب، ثم يستلقى باكيا حظه، متشوقا إلى أولاده..

لكن هذا كله فى ناحية، وما جرى له بالمطار فى ناحية أخرى، عندما تخطى الحاجز المؤدى إلى مكتب الجوازات، مازحه الرجل فى البداية، سألته عن سعاد حسنى، هل هى متزوجة الآن أم لا؟، ثم أطل النظر إلى جواز السفر، تطلع إليه، بدا عليه تجهم مفاجئ، قام مفارقا المكتب الضيق، أشار إليه..

- «اتبعنى..»

إلى حجرة مجردة من كل أثاث، مغطاة بلون رمادى ذى مستوى واحد، لا ظل ولا نتوء، رائحة مطهر قوى، كفراغ المستشفيات.

هل أخبر بما جرى له؟

نعم.. لشقيقته، وقبل سفره الأخير بأسبوع واحد، قال لها باختصار إنهم لعبوا فيه، قال ما قال وأدركه خزي، أطرق، لكنه منذ حدوث ذلك وهو يود أن يفضى ببعض من حملة الثقل إلى آخر يحسه، لم يكن له إلا أخته، التي تقعد أمامه متوحدة، بها ظل من ملامح أمه القصية، بها ود، وعندها تحسر، وتمن، لم تمض أمورها كما تمضى أمور سائر البنات، إنه سوء الحظ، والبخت المائل.

حدثها عن تجريدهم ثيابيه، عن إبدائهم الغلظة، دفعه إلى الصدر، وخزه فى الجنب، حتى بقائه بالقطعة الأخيرة، إصرارهم تجرده منها، وعدم مجاوبتهم لما طلبوه، دخول ثلاثة، حفاة، غلاظ الأكباد، فشخه قسرا، تمرير آلات كهربائية، التنقيب داخله عن نقود يمكن أن يكون قد أخفاها فى أنابيب من البلاستيك..

عندما فرغوا ألقى عاريا تماما، ومرارة داخله، وتقبل لفكرة الموت لو استمر تطاولهم، لو الحوا، أن يطبق على عنق أحدهم، لكنهم لم يواصلوا، وعندما دخل واحد منهم، لم يره من قبل صاح ونهر، أسف واعتذر، كان فى مواجهته ضعيفا، مجردا من كل عون، غير أنه لم يجب، لم ينطل هذا عليه، كل شيء مدبر، كل خطوة مدبرة، حتى ابداء الشفقة.

عندما تسلم جوازه مختوما، مدونا به كافة التأشيرات، عبر الحاجز الحديدي إلى داخل الصلاة حيث انتظار الإقلاع، هنا الخطر، فمن الناحية القانونية غادر البلد، لكنه فى الواقع ما زال فى قلب النظام! فى المتناول، لو اختفى هنا، فما من دليل، هذا إذا وجد من باستطاعته الوصول إلى من يمكن الاستفسار عندهم هنا.

كان يخشى استعادة لحظات عريه المهينة، لكنه فى مواجهتها يأتى بلحظات مقابلته للرائد، إصراره على عدم إبداء التراجع ولو خطوة، أى تهاون يتبعه آخر، لم يلب، لم يخش نفيه عن العالم، هذه المقابلة لم يفض بها لأحد، حتى أخته، إن مجرد تصريحه بذهابه إلى هذا المكان لما يخجله أكثر من عريه فى المطار، وهذا عجيب!.

قبل سفره إلى أوروبا - وسيرد تفصيله - اعتاد التردد على شقيقته، وبقائه عندها ساعات، يحكى وتحكى، يستعيدان أيام طفولتهما، وأمانهما المولى، تذكره بمن بهتت ملامحهم فى ذاكرتهم، المرأة المهیضة التى كانت تسكن فى مواجهتهم، والموظف المتعالى الذى كان لا يلقى التحية على من يلتقى به، وإذا ذكر اسمه يتبعه فوراً بقوله: ليسانس حقوق بدرجة جيد جدا. يضحكان، تذكره بزواجه المفاجيء من صاحبة القرن الأفرنجى عند الناصية، أما الشيخ الملتحي تاجر العطور فلم يكن يظهر إلا ليلا، ثم تبسم وتذكره بابنته، ألم يكن يهتم بها؟.

ويفاجأ.. بعد مضى هذا العمر كله ، يكتشف أن أمه وأخته كانتا متبتهتين إلى ما ظنه خفياً، مستورا، يعرف هذا.. لكن ليس في حينه، إنما بعد غياب أمه، واكتمال وحدة شقيقته، واقترابه منها، والإفضاء بما يثقله إليها، وهذا جديد عليه، مستحدث..

قبل زواجه كانوا معا، ينمو كل منهم قرب الآخر، يظلم سقف، لكن الدخائل بقيت أسيرة الصدور، كان ما بينهم كليات، وليس جزئيات، أحب أمه وأباه، غير أنه لم يفض إليهما بعدابات مراقته، أو دقائقها.

أمه لم تصارحه بإدراكها، لبعض مما عنده، بقيت خارج دائرة المكاشفة، أما شقيقته فظلت حتى زواجه.. تلك الطفلة التي كانت تدرج على مقربة حتى بعد تخطيها العشرين.

فيما بعد بدأ يلحظ اهتمام أمه الخاص بابنتها، كانت تخرج خفية إلى سوق الموسكى القريب وتعود بقماش أو زجاجة عطر أو علبة بودرة، لم تكن شقيقته دميمة، ملامحها هادئة، مريحة كظلال الطرق التي يسعى عبرها إلى بيت والديه؛ ليست قصيرة، ولا طويلة، لم تكن نحيلة ولا بدينة.

فى الأعوام الأخيرة طالت فترات صمتها، أحيانا يلقاها محمرة العينين من بكاء، تصر أنه ما من سبب، لم تكن تزور صاحباتها، ولا تزار منهن، وإن تحدثت مرة عن صديقة لها فى ضاحية حلوان، كانت تعود من الجامعة فتمكث حتى اليوم

التالى، حتى بعد عملها فى هذا البنك، وإذا استرجعنا
ذكرياتهما عن الأم فلا تحوش نفسها عن البكاء..

«لم يكن لى غيرها.. ولم يكن لها غيرى..»

ما يحزنه، حتى فى غربته، أن الوالدة رحلت مبكرة
وحسرتها باقية، ودت أن تفرح بها، أن تراها مستورة، لكن
الحظ مال عنها، فى آخر حوار جرى مع أمه، قالت:

- «البركة فيك، لم يعد لها غيرك..»

لم يغب عنه ذلك، كان يقتصد مبلغا، لا يخبر به امرأته، لا
يذكر عنه شيئا، يعطيه لشقيقته عند زيارته السنوية.. يطلب
منها الاحتفاظ به فى دفتر التوفير الذى فتحه لها فى مكتب
البريد القريب عند ناصية الشارع الثانى إلى اليمين.

عندما رجع فى أجازة منذ عامين، هاله وحدثها، البيت الذى
ضمهما معا صار قبرا للذكريات ومثوى، كل جزء منه يوحى
بلحظة مندثرة، عندما ولجه انقبض مع أنه عابر، فما البال وهى
المقيمة. لاحظ القفلين الجديدين فى الباب، وإغلاق حجرة
والديه.

عندما فارقتها عائدا إلى بيته كان مثقلا، كيف يتركها هكذا،
بمفردها؟ عند انصرافه بدأ حرجا، حاول مداراة ذلك بالتاكيد
على ضرورة إغلاقها الباب، التأكد من شخصية محصل
الكهرباء، ابقاء ضوء الصالة ليلا، قال لامراته إن شقيقته

وحيدة تماما، من الطبيعي مجيئها للإقامة، وحدثها مبعث قلق له، لم ترفض، لم توافق أيضا بوضوح، إنما قالت: «البيت بيتها». ثم تساطت عن مدى الخطر المصاحب لترك الشقة هناك بدون ساكن، ألا يغرى هذا أولاد الحرام بسرقتها؟.

لم تقبل أخته فورا، أبدت ممانعة، ألح وأقسم، أبدت امرأته ترحيبا، قالت لها، إنها فى بيتها، إنها ليست ضيفة، حرص خلال المدة المتبقية من أجازته ان يقرب بين أبنائه وشقيقته، غير أن ما ألمه أن العلاقة لم تتوطد، وعندما شرع فى السفر لم يكن مرتاحا، فثمة مسافة بين الأولاد وعمتهم، لا يجلسون إليها، ولا يتحدثون إلا نادرا، أما ما أزعجه فزوجته، ان تطلب منها أداء بعض الأعمال، الحقيقة أن البنية لم تقصر، بل سعت من تلقاء نفسها، لكن يبقى فرق ضئيل بين تأدية ما يجب كأنها من أهل البيت، وبين طلب زوجته منها بلهجة شبه أمره، وكأنها.. هل بالغ؟ ربما، لكنه عندما سافر لم يكن راضيا، كتب فى أول خطاب يوصى امرأته وعياله، ويذكر ما يرقق قلوبهم، فأخته لم يعد لها أحد ما من قريب أو بعيد، لكنه بعد شهرين تلقى خطابا فيه الحزن الخفى، قالت إنها لم تشأ أن تكون مزعجة لأهل بيته، وأنها تفضل الإقامة فى المكان الذى سعى فيه والداها حتى آخر أيامهما، كل ما رغبته، ألا يغضب منها، وهى تثق أنه يقدر ويفهم!.

فى أجازته التالية لم يطرق الموضوع، لا مع امرأته، ولا مع شقيقته، لا من قريب ولا من بعيد، ما بقى مصدر ألم له،

معيشتها بمفردها، غروب أيامها يوما أثر يوم، وشهرا بعد شهر، سنة بعد سنة، الطفلة التي عرفها، التي ما تزال صورتها بالاضفائر مهيمنة عليه، هذه الصغيرة التي سكنت نفس الرحم الذي تكون فيه وأواه، تدرج نحو العنوسة، تتغير ملامحها، وتنزل ببطء عتمة في عينيها، وتلوح بوادر استكانة في مصيرها.

ماذا بوسعه أن يفعل؟

بعد عودته النهائية أثر ما جرى له، أكثر من تردده عليها، لا ليطمئن فحسب، إنما ليتحدث، ليفضى إليها بدقائق الشئون، وعندما كانا يستسلمان لنزول الغروب، وتبقى النافذة مفتوحة قليلا لخروج الذباب، بينما الليل يكتمل في الخارج، وضجيج الطريق الذي اعتاده في الزمن الأقل، يتغير إيقاعه، كان يصمت أحيانا.... يلقى نفسه وحيدا، تماما كوحدها هي، وأن حظه عاثر مثلها، وأن الزمان مال عليه كميله عليها، كان يطيل القعاد بدون لفظ، تنتابه رغبة في البكاء، لكنه يكتم، عندما يتهيأ للذهاب، يفتح الثلاجة، يطمئن إلى وجود طعام كاف، عند الباب ينطق الوصايا ذاتها، إحكام الإغلاق، عدم فتح الباب لغريب، ترك ضوء الصالة، تودعه مبتسمة...

- طيب.. طيب...

ينزل الدرج حزينا، يمضى إلى المقهى، يؤجل عودته إلى البيت، لماذا؟ هذا ما يلزم توضيحه!

اعلموا أنه منذ عودته، وبعد انقضاء الأيام الأولى، أدرك أنه غريب، أنه زائد على الحاجة، أن ما كان يعينهم التحويل الشهري، أما شئونهم فليست شئونه، وأمورهم لم تعد تضى مقتونة بأموره.

البنات الكبيرة مقيمة عند خالتها، أحيانا تجيء، لكن مكانها هناك، ملابسها، كتبها، حجرتها، بل إن ثمة فارقا بينها وبين شقيقتها، ابنته؟ نعم، لكنها تنتسب إليه بالاسم، جوهرها لم يتابع نموه، إنها أنأى ذريته عنه، لم يلحظ نموها يوما بعد يوم، تطور اهتماماتها، لا يعرف من أمر علاقاتها شيئا، زميلاتنا، صديقاتنا، يفاجا أحيانا عند النظر إليها، أهذه ابنته؟.

ما أزعجه، ما يلبل خواطره، ما أخجله حتى خشى استعادته، أنها كانت تتحرك فى البيت، فى أحد العصارى، كانت ترتدى قميصا ضيقا يبرز صدرها المتمكن وبنطلونا يلتصق بجسدها، عندما انحنت فوجئ بنفسه محدقا بردفياها، المكتملين، المستديرين، المتصلين، المفترقين فى تضام، سرى عنده ما يسرى عند الذكر تجاه الأنثى!!

عذبه هذا، خجل من استعادته، وإن توافدت عليه للحظة من حين إلى آخر، حاول نفيها وإقصاءها، لم يذكر هذا لأحد، غير أنه دونها على قصاصة ورق أثناء المرحلة الأخيرة من تغريه فى أوروبا، كان يدرك أن أوان احتجاجه على بقائها عند خالتها قد

مضى، إن سنوات غيبته سلبته أمورا، حتى ابنته الوسطى،
وابنه كانا نائنين ، بعد عودته كان يطيل البقاء فى البيت، لكنه
يفاجأ بحياته تمضى عبر شعب عدة، دورسهما لا يعرف عنها
شيئا، أصحابهما، كان يجد نفسه وحيدا، امرأته إما مشغولة
بأمور البيت، وإما تجلس إلى أحدهما لمراجعة الدروس، دائما
مرهقة، مهمومة، العيب ثقيل، المدارس، الأسعار التى تتزايد
باستمرار، إذ يبدى تعجبه ودهشته، تطلب منه الذهاب بنفسه
إلى السوق، بعد هجوع البنت والولد، يطل نعاس من عينيها،
يسألها أن تقوم لتنام، تستفسر عما إذا كان يريد شيئا، يهز
رأسه نفا، تشير بأصبعها، «العشاء جاهز». تتبسم فى إعياء..

- «تصبح على خير..»

بدأ يعتاد الخروج بعد الظهر، زمان.. كانت تسأل وتدقق
مبدية الغيرة، أو ملمحة بها، الآن، لا تنتظر عودته..

فى الصباح يبدو الولد والبنت متعجلين حتى أنهما لا
يتناولان إفطارهما، إنه يمضى إلى المقهى، لكنه لا يلقى أحدا
من معارف الزمن القديم، الوجوه تغيرت، اصحاب السنين
البعيدة رحل بعضهم، انقطع عدد منهم، أصبح المقهى مقرا
لعدد من المقاولين الذين بدأوا نشاطهم فى السنوات الأخيرة،
أحدهم كان حارسا للسيارات فى الشارع الضيق القريب، كان
يحمل فوق صدره لوحة معدنية، الآن يجيء فى سيارة حديثة،
ينزل أمام المقهى تماما، تاركا بابها مفتوحا، ومحركها دائرا

فى عرض الطررق، وسرعان ما يقودها المنادى الذى خلفه فى المنطقة ليركنها بجوار الرصف، أما صاحب المقهى فدائم الشكرى، بعد أن توفى أخوه صار الحمل كله عليه، كما أن التكاليف فى تصاعد، الشاى، القهوة، السكر.. صار يجد صعوبة فى توفير السكر، الزمن لم يعد هو الزمن.

ثمة عروض عديدة عليه لشراء المقهى، من بنك، من تاجر سيارات، من صيدلى كبير، من سيدة ثرية تريد افتتاح معرض للأزياء.. إنه يفكر ولم يقرر بعد.

لم يعد يطول به المقام، تضنيه الوحدة، يفتقد الدروب الموصلة إلى من يحيطون به، يقوم منصرفا إلى متاهة الطرق.

أما امرأته فعادت إلى التلميح، ما سيحتاج إليه الأولاد، صحيح أن أحوالهما أفضل من غيرهما، عندهما رصيد فى البنك، لكنه يجب الا ينسى أبدا أنه أب لابنتين، كلاتهما ستزوج بعد قليل، ويجب أن يعد العدة من الآن.

من ناحيتها هى اقتصدت، ، وادخرت، واشترت طوال السنوات الماضية بعضا مما يلزم، أطقم صينى، سجاد، أسعار الأمس غير اليوم، ولا يدرى أحد شيئا عن الغد، ثم تصمت، لكنها مرة قالت بوضوح إنه لو أتم المدة لأصبح عندهم الآن مبلغ أكبر.

قال لها إن من حقه مبلغا كبيرا هناك، لم يحولوا مكافأته عن المدة، كتب عدة شكاوى، أرسل إلى الصحف، فيما تلا ذلك استفسرت منه، حتى تستوثق أطلعها على الأوراق، وإيصالات البرقيات التي رفعها سواء هنا أو هناك، كان يأنس من حصوله على حقوقه، لكنه لم يستكن، ماذا كان باستطاعته أن يفعل إلا إرسال التظلمات وتشجيع الشكاوى؟

خلال هذه الأيام التي تكاثفت فيها غريبته بين من يحب، وقع أمر، وتفصيل ذلك.. أن عديله كان مسافرا إلى أوروبا منذ عامين، وذلك لعمله في إحدى المطابع العربية التي أنشئت هناك خلال السبعينات، كان يخبر في رسائله عن أحواله الميسورة، يرسل الهدايا، كثيرا ما حسده، فالحياة هناك تعج بمباهج شتى، وحتى هذا العمر لم ير شبرا من الشاطئ الآخر للبحر.

في شهور الأجازات الصيفية كان بعض العاملين يقترحون عليه السفر اسبوعا أو أسبوعين إلى فارنا، أو إلى قبرص، لتغيير الجو كما يقولون، لكنه يومئ برأسه بما لا يعنى الموافقة أو الرفض.

إذا ذهب بصحبة الأولاد فسينفق مبلغا كبيرا.. إذا ذهب بمفرده فلن يطاوعه قلبه، يتفصح هو وهم لا؟، أصعب عليه تقبل هذا، كثيرا ما كان يفكر في عديله الذي سافر ليعمل لأول مرة في الخارج هناك، كان يتسامل خفية، ألم يحاول إيجاد فرصة له؟.

رغم خواطره تلك، لم يكتب إليه، لكنه فوجئ بامرأته متهللة
يوما:

- يا لله ياسيدى ستسافر إلى أوروبا..
- كيف؟.

أرسل زوج أختها عقدا، سيعمل فى نفس المطبعة، والسفر..
بعد أسبوعين لا غير، لم يدر.. هل أرسلت امرأته إليه، أم أن
الأمر تم تلقائيا، لم يدر ولم يعنه هذا، إنما أقدم على إنجاز
إجراءاته بسرعة، وتجهيز حاجاته، شراء ملابس داخلية من
الصوف، وجوارب طويلة، الشتاء هناك قاس، ويرغم تطلعه
للفرجة على عالم مغاير، لم يره إلا فى السينما. فإن أسى
تحرك عليه، لم يتم سنة واحدة منذ عودته، أوشك على الاندماج
فى البيت، لكنه عليه الآن أن يغادر، إلى تحويل المبلغ الشهرى،
إلى الاطلاع على أحوالهم عبر الرسائل.

هذه المرة بكت أخته، وعندما صافحها عانقته، فحقق قلبه،
عاتبها..

«تبكين عند سفرى، أريد أن أتذكرك باسمه..»

ولما غالبت دموعها، قال:

«يا بنت أمى وأبى، سأرسل إليك بعد استقرار أمورى،

وتجئين إلى أوروبا..»

عند مدخل المطار فوجئ بها، لماذا الحت فى وداعه؟ لماذا
ضمته الى صدرها؟ لماذا أتت إلى المطار الذى اعتاد الرحيل
منه بدون مودعين؟ لكم يكره اللحظات الأخيرة.. غير أنه فى
هذه المرة ارتاح لظهورها، ظل يلوح لها حتى تواريه، وإيغاله فى
الممر المؤدى إلى مكتب الجوازات.

فيما بعد قالت إنها كانت تشعر، وأن رفة مشنومة مرت
بعينيها، وأن حلما كئيبا ألح عليها، لم تشهده إلا قبل رحيل
أمها، إذ رأت نفسها فى أرض خلاء تماما، ترتعد بردا، ومن
فمها تسقط سن، لم تخبره بذلك، إنما كتمت..

المهم..

أنه سافر

فى أيامه الأولى.. بدا مرحا، مبسوطاً، لا يعود من عمله إلا
وينزل ليمشى فى الشارع، يلف هنا وهناك.. يتجه إلى مناطق
السهر، إلا أن عديله حذره، فالمدينة مليئة بالعاطلين، والأغراب،
وهؤلاء يستخدمون العنف للحصول على أى نقود، كف عن
السهر، ليس بسبب الخوف، إنما الإرهاق أيضا، إذ يبدأ العمل
فى ساعة مبكرة، وينتهى فى الخامسة، أقام مع عديله فى نفس
الشقة، اتخذ مرقدا له فى حجرة صغيرة، تواجه بيتا قديما،
نوافذه مستطيلة، المبانى كلها خالية من الشرفات هنا، ضباب،
برد، مطر يستمر أياما متصلة، الستائر مسدلة تماما، لكنه
يلمح ظللا باهتة، تتحرك، تروج، تجيء، احتكاك الملاعق

بالاطباق، لحظات تناول العشاء، يقلع حنينه إلى البيت، إلى اللمة القديمة، وتقوى حاجته إلى القرب.

مع تتابع الأيام بدت وحدته قاسية مع أنه يعيش مع عديله في بيت واحد، بعد وصوله قال عديله ضاحكا، إنه ذو خبرة في الغرية، لذلك عليه تدبير أمورهما معا، قال إنه لم يتقن في حياته حتى سلق البيض.. أشاد بالطعام الذى أعد لهما، قال إن الأكل فى البيت أوفر من المطاعم بكثير..

أصبح هو الذى يشتري اللحم والخضار والبيض واللبن وسائر ما يلزم، ليس هذا فقط، بل إنه يرتب البيت كله، حتى فراش عديله الذى يتركه على حاله ويمضى، كان ما بينهما شاحب، فلم تكن ثمة علاقة قوية، على الرغم أن الرجل كان سببا فى زواجه. وبالرغم من نمو ابنته الكبرى وتربيتها فى كنفه.

عندما دخل غرفة عديله فوجئ بصورتها بجوار السرير وصورة خالتها ، كان يعدها كابنته ، كأن هذه الحقيقة تواجهه لأول مرة.

كثيرا ما كظم ضيقه، خاصة فى البداية، بل فكر أحيانا فى زوج خالتها باعتباره غريبا عنها، صحيح أنها ذهبت إليهما طفلة، ولكن ماذا بعد أن تصير أنثى مكتملة، ولكنه كان يقصى هذه الخواطر بعيدا، لا يصح..

منذ سفره الأول صار نائيا عن الكل، وإن ظلت المسافة بينه وبين ابنته الكبرى أبعد، عديله إمكانياته أكثر، ألحقها بمدرسة أجنبية، وكفل نفقاتها، أما الحلى التى تزين معصمها وجيدها فأكثر مما لدى أمها، كذلك الثياب التى تبدو متميزة، والعطور التى تفوح منها، آخر ما عرفه قبل مجيئه هنا، أنها أصبحت عضوا فى نادى الجزيرة، وأنها ذهت إليه، تلعب التنس وتركب الخيل. سمعها تتحدث عن الحصان الذى تلقمه السكر، عندما يراها مقبلة يهيمهم ويتحرك فرحا، قال لامرأته، إن هذه النوادى لا يعرف أحد ما يجرى فيها، أجابته باقتضاب «إنها ابنتى.. وأنا أعرفها.. هى تحكى لى كل شىء..»

لكم لزم الصمت، ربما لأنه لم يكن إلا عابرا، مجرد زائر فى أجازة، يجرى طوال هذه السنوات لفترة مهما طالت فلم تزد على شهر، ثم يرحل، على أية حال تقاطعت خطوطه بخطوط عديله، كانت تمضى أيام عديدة فلا يلتقيان. لا يجلسان للحديث فى البيت، يمضى إلى عمله مبكرا، ويستيقظ عديله بعده، إذ أن عمله يختلف، كان يعود متأخرا، علم مصادفة أنه يشارك فى نشاط إحدى الجمعيات، لم يخبره، ومن ناحيته هو لم يسأل، كان دائما متجها إلى دعوة للعشاء أو ما شابه، أو إلى قاعة سماع موسيقى، أو للفرجة على مسرحية، كما اعتاد الذهاب إلى أصحاب له فى ضاحية نائية، لم يدعه قط لمصاحبتة، لمح مرة إلى تقاليد البلاد وظروفها المختلفة.

كان يعد الطعام قبل نومه، يغطى الأطباق، ويتركها فوق
المائدة المستديرة فى الصالة، مع ورقة تحتوى سطوراً منه،
يتمنى له شهية طيبة. فى الصباح يجد الأطباق، وفيها بقايا
طعام، لم يكن يغسل حتى كوب الشاي، ينتابه غضب، كأنه لم
يأت إلا ليعده له الطعام ويرتب الفراش، ويدير أمور البيت، لكم
بدا مختلفاً عندما عاش بقريه تحت سقف واحد، يقرر أن
يصارحه الليلة، لكنه مع نهاية النهار يكتم، أنه أكبر سناً، لم
يبد منه ما يسيء إليه، كان عديله يدرك ما يمكن أن يجول
بذهنه، أحياناً، أثناء لقائهما العابر يسأله عن أحواله، ثم يذكر
بمناسبة ويدون مناسبة، الجهود التى بذلها حتى أمكنه
الحصول على عقد عمل له، مثل هذا صعب جداً هنا، ألا يقرأ
عن نسبة البطالة المرتفعة؟، ولولا أن أصحاب المطبعة من العرب
لما جاء إلى هنا.

كان يصغى ولا يعلق.

غير أنه تساعل مراراً فى خطاباتهِ التى شيعها إلى أخته،
لماذا تسعى الظروف إلى مخالفته فى الحدود الدنيا؟. لماذا لم
تمض به فى مساراتها العادية، لماذا يجد المخالفة عند كل
سعى مشروع؟.

بدا يشكو الأيام الرمادية المتتالية، المطر المستمر، الوحدة فى
قلب الزحام.

هل تصدق؟ أنه يمضى أحياناً إلى بعض المقاهى الخاصة

بهم، مقاه بلا أُرصفة، أبوابها لا توحى بما تؤدي إليه، ضيقة، معتمة الواجهات، إذ يجتاز المدخل، يسلم المظلة والمعطف، يجد الفراغ ممثلنا بالدخان ، ينتظم القوم حول المناضد، معظمهم يشربون البيرة. تصورى.. يشربون وأنظارهم محملقة إلى الامام. لا ينظر الواحد منهم إلى الآخر، يطلب طعاما خاليا من الخنزير، عندما يحمل طبقه ويمضى إلى مكان خال، يومئ محببا الجالسين، غير أنهم لا يقابلونه إلا بوجوه جامدة، وعيون زجاجية، مهما قضى معهم من وقت لا يتبادل مع أحدهم كلمة، أحيانا يجاور عاشقين، يصغى إلى حوارهما الهامس.. إلى تبادل القبلات، كأنه غير موجود، كل فى محيطه، ملاصق مركز دائرته. أين ذلك من المقهى القديم؟، وهذا المقهى العتيق، الفسيح، فى ذلك البلد العربى.. من يصدق أن يوما أت، يحن فيه إليه، وأين.. وهو هنا فى أوروبا، كان يتحدث إلى من يجاوره، تمتد الوشائج الإنسانية، أما وحدته هنا فصعبة، كأن ستارا خفيا ضرب حوله، إنه بعيد جدا حتى عن نفسه، القوم فيهم أنفة، وصلافة زائدة، وبغض للغريب. لن ينسى أول مرة جرى فيها ما جرى.. إذ قعد فى المترو بجوار امرأة عجوز، تطلعت إليه بنظرات جانبية حادة، حتى ظن أنه أتى شيئا فريا، ثم قامت غاضبة، أثرت الوقوف بعيدا..

فى المساء قال عديله إن البعض هنا يكرهون الملونين، ويحرضون ضدهم، هو بالنسبة إليهم ملون، بعضهم يسمونه التركى، البقال لا يسميه إلا التركى، لكم مرت به لحظات باردة،

عند عودته متأخراً، تحديق به الشوارع الفسيحة، شبه الخالية، بينما تبدو المباني الرمادية مصمتة، لا تسفر، لا تنبئ بأى حركة، حتى الأضواء تبدو مختلفة، كأنها ظلال لأضواء أخرى، يمد الخطى وثمة خوف غامض يدركه، إذ يغلق الباب خلفه يلقي أنفاسه لاهته.

لكم كتب إلى شقيقته، تمنى المشى، مجرد الخطو فى الطريق العامرة المؤدية إلى البيت، لا تنقطع الحركة منه ليلاً أو نهارة، فى أى ساعة يمكنه النزول وشراء ما يحتاج إليه.

لكم يود إلقاء التحية على من يعرفهم ويعرفونه، الى سماع الردود الحميمة، يود النظر إلى الدكاكين المتجاورة، المورد بالبقال الذى لا يفتح أبوابه إلا بعد التاسعة مساء ويستمر حتى الصباح.

لكم تمنى الدخول إلى دكانه العبق برائحة الجبن الرومى، والزيتون الأسود والصابون. تسأل مرارا.. لماذا تبدو الأيام بعيدة؟ لماذا يبدو قبس منها مستحيلاً؟ نعم.. البلاد هنا جميلة، لكنها جميلة لأهلها، لمن يجيئها عابراً فى أجازة، أما الإقامة لمن هو مثله فصعبة ومرة !.

لم يتلق من شقيقته أجوبة، إنما تلقى أدعية، وتساؤلات، ماذا به؟ إن لهجته غير مطمئنة، إن كلماته تعكس ضيقاً والماء، لماذا لا يرجع؟ لماذا لا ينهى غريته؟ تغور الفلوس وما يجيء بعدها.

لكم قرأ كلماتها، وأدركه خجل، ألا يصلها ما لا تطيق؟ ألا تكفيها وحدتها، هي من تجتاز خريفها بدون أنيس، بدون رفقة بعد ميل بختها، إنها مقطوعة عن كل قريب، لماذا ينقل عليها؟، هو.. عنده امرأته وعياله لكنه لا يقدر على مكاشفة امرأته بما يصارحها به، أو بمعنى آخر.. لا يرغب.

لكم يروعه إدراكه لنأيه عن أولاده، أحيانا يقول لنفسه:

ما أبعد الفرع عن الأصل، ما يصلهم به ذلك التحويل الذى لم ينقطع عنه بداية كل شهر، لم تكن غربته الأولى فى ذلك البلد الذى كاد يلقى حتفه فيه إلا لتكوين رصيد يمكنهما من مسابقة ظروف الحياة، لم يكن بمفرده، إنما تغرب كثيرون ممن لا يعرفهم، وممن يعرفهم. أما غربته الثانية التى لقي فيها ما لقي، وهذه الثالثة فلضمان استمرار حياتهم كما هي، صحيح أنهم يكتبون إليه الكلمات الرقيقة، ولكنها كلمات متشابهة، جملها متكررة.

سنوات انقضت، هو فى ناحية وهم فى ناحية، عندما نطق كل منهم بحروفه الأولى، عندما حبا أولى خطواته، لم يكن قريبا يسمع ويرى، ليبتهج، ليتلقى أول السعى بين ذراعيه ، فلماذا يلوم؟ غير أن وحدته وعرة هنا، تحديق به أوقات خلو من كل عزيز، سعى أحيانا إلى افتعال مشاجرة مع عديله، لكم رتب ظروف تحرشه به، ضرورة تنبيهه إلى المشاركة فى أمور البيت. لم يأت به من مصر ليعد له الطعام، أه.. ليفهم ذلك، ثم..

لاداعى للتلويح دائما بجهوده التى بذلها من أجل إتمام هذا التعاقد، إنه يقدم جهدا ويتقاضى مقابله أقل مما ينبغي، ثم ليفهم جيدا.. أنه ليس سعيدا بالمرّة البلاد، باردة، موحشة.

عندما كان فى هذا البلد العربى، كان يمكنه الحديث إلى هذا، أو زيارة ذلك، لكن الكل هنا أسير جلده، لم يسأله يوما إذا كان مريضا أو مرتاحا، بل تمضى أيام لا يرى كل منهما الآخر. لكم جهز وأعد ما سيقوله، وعندما يتواجهان يحل الصمت، فيؤجل، بل أحيانا ينقلب ليلوم ذاته، لماذا يريد فصم ما بينهما وهما فى غربة؟، يلتمس العذر تلو العذر، غضبه وضيقة بسبب وحدته، وربما حاجته إلى سماع كلمة حلوة من الآخرين، إنه البعد الطويل عن أولاده، وإذا يفكر فيهم تتطلع عيناه إلى بعيد، أولاده؟، يوشك على لومهم، مع ذلك لكم مر بلحظات خف وشف بعد تلقيه خطابا من ابنتيه، تطلب كل منهما أشياء محددة، قمصانا بألوان معينة، وطرزا محددة. يهرع إلى المتاجر، يتأمل، يتوقف، يرى المعروضات بعيونهم، يطيل الاستفسار.. ألا يوجد شيء أفضل؟ مرة أخرى أبرز صورة ابنته الوسطى وأطلع عليها البائعة، أبدت إعجابها، قالت: ما أجمل عينيها!.

كانه ينتبه إلى عيني ابنته أول مرة، هنا تذكر ابنته الكبرى، لحظة انحنائها، وخجله، لكم رتب، وأعاد ترتيب الحاجات التى سيرسلها إلى أولاده، لكم أطلال النظر، وتخيل لحظات الاستلام، واستعراضهم لما أرسل!.

فى هذه الليلة بالذات، فرغ من ثلاثة أشياء قبل أن يأوى..
الأول.. كتابة رسالة إلى شقيقته، يطلب منها ألا تصفى إلى
الأحلام، ألا تصدقها، كان هذا ردا على قلقها لرؤيتها حلما
بغضا لم تفسره له.

الثانى.. قراءة نص رسالة من ابنه يطلب فيها نوعا معيناً
من مضارب التنس، فوجئ.. هذه أول مرة يعلم أن ابنه يمارس
هذه الرياضة، هو لم يمارس الرياضة فى حياته، لم يعرف إلا
المشى. ابنه كبير، أصبح لاعبا للتنس، قرر قبل إغماض عينيه
الذهاب غدا إلى أكبر متاجر الأدوات الرياضية.

أما الثالث.. فهو تجهيز العشاء لعديله ولفه بورق معدنى
حتى لا يفقد حرارته.

لم يع لحظة انتقاله من اليقظة إلى النوم..

لم يدر الساعة التى استيقظ عندها، به جفاف فى الريق.
وثقل رأس وهبوط مستمر إلى لا قرار.

بصعوبة انتبه إلى شىء لزج يفرق فيه، وسائل ينزف من
فمه، لم يعده، لم يمر به ذلك من قبل، ولم يكن بوسعه إيقاف
الدم الذى انسال مبقباً من فوق ومن تحت..

طبق الأصل

ما شاء الله كان..

له الأمر، من قبل، ومن بعد، منه العون، وإليه المصير.

والله يا إخوان كلما استعدت هذا الرجل الذى اكتملت معرفتى به بعد غيابه. ترقرق أسأى، واستنفرت خواطرى، أستعيد إطراقته، إقباله مبتسما، مسالما، وإدبار كينونته، اندماجه الهادئ فى زحام الخلق، ودهشة ملامحه إذ يحيق به أذى أو ضيق.

أرى أطيافا منه فأتقف على خلاصة سيرة، ومصير اكتمل، وكان ممكنا ألا يدرى به أحد، أو لا يقف على أخباره إنسان.. لعن الله ظروفًا أدت بمن كان مثله إلى فراق الأهل والأوطان، مثل هذا كان مستقبحا مستنكرا عند قومى، حتى إذا تبدل الظرف وتغير الحال، هج من هج، وطفش من طفش.

أستعيده، لكنه فى كل مرة يزداد بعدا، فكأنى واقف على شاطيء لجة واسعة، تضطرم حيناً وتنبسط حيناً، وما بين ذلك وذاك تلوح وجوه فتدنونى حتى أوشك أن أمسكها بنظرى ويدي، لكنها تفلت، نائية، ومبتعدة، لا يمكن لى إدراكها أبدا!

راح من راح، وإنى لاحق بهم، فمأشاء الله كان.

وحتى زمن لا أدرى مقداره سيحيرنى ماجرى لهذا الغارب، الذى قضى بعيدا، حار الأطباء فيما لقوه عنده، عندما أحذقوا به ظنوا النزف لأمر داخله، فشقوا، وأعملوا المباح، وأحاطوا الأوردة بالأريطة، لكن ماكان يفلت منه لم يكن بوسع مخلوق إيقافه.

قال كبيرهم بعد حيرة: الأمر معنوى. وكان الأمر قد تم ! فى المحصلة راح. بقى منه راتب تقاعدى، ومقدار من المال بقى معلقا حبيسا فى البلد العربى الذى فارقه عنوة، سعت امرأته، وسطت قوما ذوى علاقة، لكن لم ينفع شىء..

والمقام هنا يستدعى إلى ما لم أذكره من قبل، فبعد أن احترق هذا الشاب وحيد والديه فى الغربة، وعاد إليهما فى صندوق معدنى مغلق، لزمته أمه قعدتها أمام الدار، محمقة إلى ما كان، لعل وعسى.. أما الأب العجوز الذى كلت قواه، وما عاد قادرا على الخروج إلى الغيط، ورفع الفأس وعزق التربة، فبدأ يفعل ما لم يقم به فى حياته قط. ما لم يفعله حتى لا يعاير إنسان ولده، بدأ يمد يده، ويسأل الخلق أن يعطوه ما زاد عن حاجتهم، بقى عنده الخسران الفادح.

كان ولده رهان عمره، من أجله شقى، واحتمل ما احتمل،
وحرم نفسه من اللقمة، دائما كان يمنى النفس بالوصول إلى
يوم يقف فيه الولد على رجليه، يسنده، ولما حان هذا اليوم غرب
الابن فجأة، لم ير خيره، أملى على أحد أبناء القرية رسالة إلى
وزارة الشؤون الاجتماعية، وإلى إدارة المعونة، وإلى البنك
المختص بتفريق أموال الزكاة. وإلى المشروع الخيري الذي
بدأته تلك الصحيفة التي يعمل بها صاحبي، شرح حاله، وما
جرى لابنه، وطلب المساعدة، والحق أن أحدهم أقنعه بذلك، غير
أن الرسائل راحت، وكأنه ألقاها فى جب، عدا واحدة، تلك التي
وصلت إلى الصحيفة، وكانت بنهاية الرحلة إليه، وهكذا وقفت
على ماجرى له.

عند مثلونا أمامه كان وقت طويل قد انقضى، وكان هو قد
كف عن إرسال المكاتيب، وبدأ إلى القعدة التي لزمته امرأته،
عند حافة الطريق، يتطلعان إلى القادمين والذاهبين، وقد ذكرت
من أحوالهما ما يشفى وما يكفى، أما الآن فهذا نص خطاب
أرسله كاتبه إلى جهات شتى، وأتبع لى أن أطلع على صورة
منه عند واحد من ذوى العلاقة، وإنى مورده كما كتبه صاحبه،
لم أغير، لم أبدل، فلعل فيه فائدة قبل أن أنكر شيئا عن
المدرسة التي عملت فى الغرية لسنوات، وأتمت المدة.. يقول
صاحب الرسالة بعد الديباجة:

«.. أنا المقيم بميلانو، شارع تورشيالى رقم عشرة، كنت
أعمل فى وظيفة عامل زراعى بإحدى القرى الإيطالية التابعة
لمحافظة بارما، بدأت فى العاشر من نوفمبر، عام ألف
وتسعمائة وسبعة وسبعين، بعقد عمل، معتمد رسمياً، بمرتب
قدره مليون ومائتا ألف ليرة إيطالية، وظلت أتقاضى راتبى هذا
لمدة عامين، ولم أتسلم أى أجر إضافى عن أيام العطلات
الرسمية، أو ساعات العمل الإضافية، أو شهور المنح المعترف
بها قانوناً فى إيطاليا، حتى الأجازة الصيفية حرمت منها،
وكنت قائماً على أساس أنه عمل دائم، ولما سكن بأوينى، كنت
أعمل طوال السنة، لم أقم بيوم واحد أجازة، لأننى مسئول عن
رعاية المواشى بدءاً من الأكل والشرب، حتى نظافة الحظائر،
كانت زوجتى تساعدنى، بدون أى مقابل.

كنت أقود الجرارات أيضاً، والآلات الزراعية، وقص
وتجفيف وتخزين الحشائش الزراعية - البرسيم، كان المسئول
عن المزرعة رجلاً إيطالياً يأتى بعد الثانية ظهراً، لأنه مدرس فى
أحدى المدارس الصناعية. أما صاحب المزرعة نفسه فلم يكن
يأتى إلا مرة، نهاية الأسبوع. كان يسكن فى مدينة ميلانو
القرية.

فى أحد الأيام سألت صاحب المزرعة عن كشف حسابى
الشهرى مثل كل الناس، فأخبرنى أن المزارعين ليس لهم
كشوف حسابات، تسمى هنا فى إيطاليا «البوستة باجا»، طبعاً
هذا كلام لا أساس له من الصحة، ولكن ماذا أفعل؟

فى يوم من الأيام أرسل لى أهلى يطلبون من زوجتى
العودة لتسلم عملها فى وزارة التربية والتعليم.

أخبرت صاحب المزرعة فقال: ليس مهما سفرى، كما أن
زوجتك تساعدك وأنتما باقيا هنا.. ثم إن عمل المزرعة يحتاج
إلى رجل متزوج، لأنه مرهق وساعاته طويلة..

اقترحت عليه أن نساقر، أنا وزوجتى حتى تحصل على
أجازة - ولو مرضية - وإلا فقدت وظيفتها، وافق، واشترط
العودة السريعة.

فعلا.. سافرت، وزوجتى وابنى، وعدنا بعد أن قدمت أجازة
مرضية، وأغلب ظنى أنها فصلت من عملها حيث إن الأجازات
المرضية لم يوافق عليها الأطباء

قلت لزوجتى إن هذا ليس مهما، يكفى عملنا هنا، لقد
انقضى وقت طويل علينا هنا، إنه عمل دائم، وثابت..

فى شهر مارس عام ألف وتسعمائة واحد وثمانين، فوجئت
برسالة مسجلة من صاحب المزرعة، يخطرنى بانتهاء عملى،
ويضرورة تسليم المنزل أيضا. ولما ذهبت إليه، متسائلا: لماذا؟
زوجتى فصلت من عملها، الأهم.. إلى أين نذهب الآن؟

قال: هذا كله لا يهم، عليك بالرحيل من هنا فوراً، سألتة عن
مرتبى، قال إنه سيعطينى شهرى مارس وأبريل، عندما نترك
البيت، وعندما فارقنا تسلمت مرتب مارس، أما أبريل فلم يدفعه
حتى الآن.

ذهبت إلى ميلانو بصحبة امرأتى وابنى، وصلنا فى منتصف الليل، بدأت البحث عن مأوى، وعن عمل، لجأت إلى حمام، أبرق إليه طالبا بعودتى إلى العمل، ليس قانونيا فصلى على هذا النحو، ثم أين ما يحق له؟

قال فى رده على المحامى: إن الأجانب ليس لهم حقوق عندى، أرسل إليه المحامى قائمة بساعات عملى الإضافية، بحقوقى المشروعة أصلا، وقدرها أربعة وعشرون مليوناً من الليرات الإيطالية. ويوازى هذا أربعين ألف جنيه مصرى.

اتفق صاحب المزرعة مع المحامى على مهلة يفكر خلالها قبل الذهاب إلى المحكمة، بعد أسبوع اتصل بى المحامى، وعرفنى أن الرجل يطالبنى بتسعة ملايين ليرة كتعويض عن الخسائر التى لحقت بالمنزل الذى كنت أقيم فيه لأن ماسورة المياه انفجرت وأتلفت البيت.

قلت للمحامى إنها حيلة قذرة..

عرفت أنهم دخلوا من الباب الخلفى، وكسروا ماسورة المياه الموجودة بدورة المياه، ثم اتصلوا بالبوايس الموجود فى القرية، بحجة أنهم لا يعرفون مكان إقامتى فى ميلانو، وللعلم فإنهم على اتصال دائم بالمحامى، وهو يعرف عنوانى، ورقم تليفونى.

عرفت الطريق إلى المحكمة، حضر شهود لا أعرفهم، كما حضر مدير مكتب العمل بالقرية، ولكن كشاهد ضدى!

تأجلت القضية، مرة لغياب بعض الشهود، ومرة لمعاينة البيت، ومرة لسبب لم أعرفه، جرى هذا على امتداد عام كامل، ولم أصل إلى أى نتيجة.

يوم المعاينة ذهبت بصحبة محامية (تحت التمرين)، فالمحامى الكبير لا يحضر بنفسه القضايا خارج مدينة ميلانو، هكذا أخبرونى.

جاء القاضى حوالى الثانية عشرة ظهرا، معه محامى صاحب المزرعة، والسيد المسئول عنها - الذى يعمل مدرسا - وبدأت المعاينة.

قال القاضى: من أين دخلوا الشقة؟

قلت: من هنا ياسيدى.

لكن ما لاحظته أن الباب به ترميم جديد واضح للعيان، سأل القاضى عن هذا الأسمنت الجديد، فقال المدرس إنه منذ ثلاث سنوات، قلت: لا ياسيادة القاضى، لم يحدث شىء من هذا أثناء إقامتى.

قال صاحب المزرعة:

... لا ترفع صوتك هنا.

قال القاضى:

... إذا رفعت صوتك مرة أخرى. فسوف أدخلك السجن.

قال محامى صاحب المزرعة:

- «ونحن شهود».

أما المحامية التى بصحبتى فلم تتلق كلمة، وسجل السيد القاضى أن الترميم حدث منذ ثلاث سنوات، مع العلم أن هذا ليس من اختصاصه إنما من مهمات لجنة فنية فى هذا المجال.

المهم... عرض صاحب المزرعة مبلغ ثلاثة ملايين ليرة، لتسوية الأمر. قلت للقاضى: إننى أصبت فى قدمى أثناء تقديمى البرسيم للمواشى، شوكة كبيرة جرحتنى، احتجزت فى المستشفى، وأصبحت ساقى مهددة بالبت، كانت الشوكة ملوثة، أشرف على علاجى طبيب عربى الأصل من سوريا، وبقيت اثنين وأربعين يوماً مصاباً، كانت زوجتى تقوم بالعمل، لأنه لا يوجد غيرى.. ولم نسمع حتى كلمة شكر..

سألت القاضى عن رأيه فى هذا، وعندى تقارير المستشفى، قال سيادته:

- إن هذا موضوع آخر.

قرر تأجيل الجلسة حتى العاشر من ديسمبر، حتى أقبل المعروض من صاحب العمل، أى على قبول هذا المبلغ بالإكراه، أولن أنقضى ليرة واحدة، وانتهت الجلسة بعد أن عملوا من شقة صاحب المزرعة محكمة.. فى النهاية قدم لهم النبيذ الأبيض الطبيعى، والفسق، واللوز.

جرى هذا وأنا بينهم، أجلس إلى المائدة المستطيلة، لكننى كنت أشرب كئوساً أخرى، كئوساً لا يراها أحد، لها مذاق المر والعلقم. مذاق النذل والهوان.

ظلت منكس الرأس، وهم منصرفون إلى أحاديث بعيدة تماماً عن القضية، لكم ضقت بنفسى، لكم احتقرت ذاتى وأنا كالذبيحة المسلوخة بينهم، ليس لى سند أو نصير.

وعندما وقف صاحب المزرعة وتحدث، أسودت الدنيا فى عيني، قال ما نصه:

«إن زوجتى كريمة، وأنا مثلها، ونحن نعطف على الفقراء القادمين من الشعوب المحتاجة مثل السنيور - وأشار إلى - إننا نعطيهم التبرعات، وأنا أعرض عليه لآخر مرة المبلغ، لننهي الموضوع كله.. إنها الفرصة الأخيرة له، وإن لم يقبل فلن يجد شيئاً، إننى أفعل هذا لأننى أعطف عليه..»

شعرت أنه مسح بى وبكل ما أنتمى إليه الأرض، ويرغم إعتام الدنيا فى وجهى، وإحباطهم بى، فقد أقسمت بينى وبين نفسى، ألا أخضع، وأن أسعى وراء حقى، حقى أنا، وإن لم ينصفنى قانونهم فلى شأن..

هكذا تنتهى الرسالة التى وجهها كاتبها الى جهات شتى يطلب الموازنة والمعونة، ولم أعرف أخباره، ولم يقف صاحبى، الذى كانت الرسالة بحوزته على أى معلومات.

فيما تلا ذلك من مدة، لم نسمع عن صاحبها ولم نقرأ، كما قرأنا عن السيدة التى عملت مدرسة، وكان من أمرها ما كان..

هذا ما جرى للمدرسة التي أتمت المدة..

سبع سنوات، وستة شهور، وأحد عشر يوما..

تمام المدة ومجمل الفترة، قضتها هنا فى تلك الدويلة الصغيرة، النائبة، منقطعة متوحدة، لم تزر مصر إلا مرات ثلاث، مرة بعد ثلاث سنوات، والثانية فى بدء العام الرابع لتغريبها، والأخيرة قبل عام من تاريخ عودتها النهائية.

بعد الأجازة الأولى انزعجت مما تكلفته، مما أنفقته، كل من يمت إليها بصلة، أو علاقة، ينتظر هدية، بعضهم لا يمكنها الدخول عليهم ويدها خاليتان، خاصة ذوى القربى، هناك من يطلعون إليها، يتفحصون ثيابها وحليها، ينتظرون أيضا، تقول عيونهم بما لم تصرح به أسنتهم، أما الذين حملت إليهم قطعة قماش، أو زجاجة عطر، أو لعبة لطفل، فلا تدرى ماذا يقولون عنها بعد انصرافهم؟

ليت الأمر يقتصر على الهدايا، إنما تفتتح المطالب.. فيياض
البيت مشروع مؤجل حتى عودتها، وأن تستبدل بالموقد الغازي
القديم فرن بوتاجاز.. فأمران لا مفر منهما.

صحيح أن أمها لم تطلب، لكنها لمحت، أشارت إلى عمرها
المنقضى بصحبة هذا الموقد العتيق، لا يمر أسبوع إلا تضطر
إلى إصلاحه.

في الزيارة الثانية أشارت إلى التليفزيون الملون، بيت فلان
اشترى، وبيت فلان غير التليفزيون القديم بواحد حديث، لا
يخلو منه بيت في البلدة.

جاء طفل صغير، حافى القدمين، ذابل العينين، فتح الباب
أثناء خلوتها، راح يبتسم، كان ينتظر، إلا أنها واجهته بملامح
جامدة، جاءت أمها، قالت إنه ابن سعدية.. ألا تذكرها؟

أبوه سافر منذ سنتين وغابت أخباره، لم يترك ولم يرسل
أبيض أو أسود، بل إنهم لا يعرفون شيئا عنه، قالت أمها: اعطيه
حاجة. قالت إن كل من يجيء هنا يحن على الولد.

أبدت تأففا، قالت إن الناس يظنون العائد من هناك بنكا
متحركا.

تطلعت إليها الأم صامته، ثم قالت:

«رينا ما يحكم عليكى يابنتى...»

أخرجت من كيس نقودها خمسة جنيهات، لكنها نصحت أمها ألا تعودهم على ذلك، إنها لاتعرف شقاعها، إنها لاتجد النقود لمقاة فى الطريق، لكنه الشقاء، والغربة.

فى الزيارة الثالثة لم تطل إقامتها. جاءت مضطرة، إذ كان لابد من دفع مقدم الشقة التى اشترتها فى المدينة القريبة، لم تشأ توكيل شقيقتها، بل قررت، إتمام كل الإجراءات بنفسها.

هكذا.. أمضت معظم المدة وحيدة فى هذا البلد البعيد، حتى أيام أجازتها لم تكف خلالها عن التدريس لعدد من الفتيات اللواتى يعانين تخلفا دراسيا، كان هذا يسرها ويريحها، فألى جانب الدخل الإضافى تتلقى هدايا لا بأس بها، وعندما ترجع إلى غرفتها فى بيت المعلمات تمسك قلما، تحسب قيمتها، تعتبر هذا مضافا إلى رصيدها فى البنك.

خلال انقطاعها اكتفت بتحويل مبلغ إلى أمها، بداية كل شهر تمضى إلى البنك لإرسال الحوالة، كانت تنقص المبلغ شهرا، وتزيده شهرا آخر، نقص ملحوظ، وزيادة طفيفة، حتى لا تتوقع أمها مبلغا متساويا يكون تجاهه إلزام، حتى لا يتخذ شكل المرتب.

قبل إرسالها الحوالة بيومين أو ثلاثة تنتابها لحظات إشفاق تجاه أمها، قبل النوم تلوم نفسها ، بل توبخها، إن ما ترسله قليل لا يفى، كيف تبخل على أمها؟ كيف لم تراع تكاليف مرض السكر الذى لحقها، مرض يحتاج إلى نظام غذائى، وهذا مكلف، إضافة إلى الدواء الذى يجب ألا تنطق عنه.

فى خطاباتها تشدد وتنبه إلى ضرورة اتباع تعليمات الطبيب، إلا أنها تعلم صعوبة التزام أمها بالخضار وقطعة اللحم اليومية المسلوقة، أو كوب الزبادى.. تعرف أنها لا تشبع إلا من الخبز.. لا .. يجب أن تضاعف المياح.

تغفو، تنام راضية، مرضية، حتى إذا طلعت الشمس وبقيت دقائق فى الفراش، ترثى لنفسها، أصعب حالات وحدتها تلك، فما من شخص قريب، ما من تحية تصغى إليها، وما من أحد يحنو أو يسمعها كلمة حلوة.

مع خروجها إلى الطريق تبدأ مراجعة ما قررته ليلة أمس، ألم تبالغ فى تقدير النقود؟ عندما ترجع إلى مصر ستخصص قدرا من المال تشتري به ما يحتاج إليه البيت، بل لحظة وصولها ستضع فى يد أمها مبلغا كبيرا، أما الآن.. فإنها فى حاجة إلى زيادة الرصيد، كلما ارتفع تضاعفت الفائدة.

عند وصولها إلى البنك واجتيازها الباب تكون خفضت ما قررته قبل النوم، حتى إذا ما أمسكت القلم لتكتب الحوالة، لا تتخطى المبلغ الذى أرسلته الشهر الماضى إلا بمقدار يسير، وربما تقلله.

هدفها الذى لم يغب عنها طوال السنوات الماضية، الوصول بالرصيد إلى حد معين. لم تنفق إلا الحد الأدنى، بل قترت على نفسها، لم يخرج من يدها إلا الضرورى.

الغريب أنها قبل قدومها إلى هذه البلاد، عندما كان مرتبها فى بداية عملها بضعة جنيهات، لم تدبر، ولم تعرف ما تعرفه الآن من حذر، على أية حال، الحمد لله، فإن مارمت إليه تحقق، وما أرادته تم. وصلت إلى الحد الذى قررتة، صحيح أنها ودت تضاعف الرصيد، لكن .. هذا أقصى ما أمكنها تدبيره، من مرتبها، من مكافأتها، من الدروس الخاصة، عبر سبع سنوات، وستة شهور، وأحد عشر يوما..

الآن، تضمن الشقة، ورصيда يمكنها أن تحجز منه عرية. أن تدفع قيمتها بالدولار، أن تشتري ما تريد، من ملابس، ومطبخ يريحها، يضم ثلاجة ضخمة ذات بابين. وفرنا كهربائيا، وغسالة حديثة، وخلطا كبيرا، بمجرد نزولها مصر ستشتري هذا كله بالدولار من السوق الحرة، أما الأثاث فمن مسئولية العريس الذى ستختاره من بين المتقدمين إليها، ستختار وهى مستندة إلى رصيда مالى يقوى مركزها، إنها ليست دميمة، أبدا.. ملامحها مريحة، مقبولة، وتعرف تماما أن لعينيها وضعا خاصا، إنها جميلتان، عميقتان، وعندها لحظ !

لوقبلت الزواج ممن تقدموا خلال السنوات السبع الماضية، لأصبحت أما الآن لطفلين، لكنها شاءت أن تبني مستقبلها بيدها، أن تقرر هى.. إن لها شروطا أيضا، لن ترضى بأحد خريجي الكليات النظرية، لا آداب، ولا حقوق، ولا كلية العلوم حتى.. لن تقبل أقل من مهندس أو طبيب، إنها تنوى

حجز سيارة نصر بمجرد عودتها، ستدفع بالدولار حتى تتسلمها بسرعة، إن.. لا بد أن يكون لديه عربة أيضا، يستحسن من طراز مختلف، عليها باليقظة، الانتباه إلى أولئك الذين يمكن أن يطمعوا فيها، أو يحوموا حول رصيدها، لتحذر، إنها تكاد تشم رائحة الرجل الذي يضمن غير ما يظهر.

لكنها غير مشغولة بالزواج، حتى تمام عودتها واستقرارها، وبدء تدبير أمرها، إنها تراجع بدقة أوراقها، ما يستحق لها من مكافأة نهاية الخدمة.

في كل ليلة تحصى مالمديها، تقارن بأسعار الدولار في مصر، خاصة في السوق السوداء، تطرب لكل قرش زيادة، هذا يعنى زيادة الرصيد عند التبديل إلى الجنيه المصرى.

قبل نومها تحكم إغلاق غرفتها، تخرج ملفا يضم كشوف حساباتها التى يرسلها البنك بدقة، فى موعد لا يتغير، ترتدى ملابسها الداخلية الشفافة، تقعد فى مواجهة المرأة، أحيانا تتخذ وضعا جانبيا، ترمق صورته بنظرة جانبية.. تلفظ بصوت عال:

«حلوة يابنت والله..»

أحيانا تقترب حتى تلامس بجبهتها سطح المرأة، تنتثنى، أو تفرد طولها، أو ترفع نهديهها بيديها، لو أن لها القدرة على معرفة من يسعى إليها فى هذا العالم الآن؟ من سيلمس، ويمرر أنامله، ويقبل، ويضم.

لم تكن تفكر فى شخص معين، فى ملامح بذاتها، بقدر ما تردد الرقم، ثلاثون ألفا وستمائة دولار، تفرد أصابعها، تثنيتها، تنغم صوتها، تتمدد فوق الفراش وإلى جوارها كشف الحساب، السحب، الإيداع، المدين، الدائن، فكانها خصصت الليلة لمضاجعة رصيدها!

ياسلام، لو أنه ضعف هذا المقدار؟ ولكنه نتاج أقصى الطاقة، عليها إنهاء ما تبقى من أمورها، إعداد أوراق، شهادة خبرة، تحويل مالديها هنا إلى حساباتها فى مصر الذى افتتحته منذ سنوات فى أحد البنوك الأجنبية، شراء بعض مايتصور إنها لن تجده فى السوق هناك، يا عالم.. متى ستسافر مرة أخرى. يجب أيضا تدبير بعض الهدايا، لا بأس من ارضاء الاقارب، اعدت كشفا بالأسماء حتى لا تنسى، فى كل يوم تعد له، إما بشطب بعض الأسماء.. وإما بإنقاص ما تنوى إهداءه لهم، أو شراءه من مصر بدلا من زيادة وزن الحقائب مما يؤدى إلى دفع مبلغ وقدره، المهم.. الدخول عليهم ببعض الحاجات البسيطة، فلا يمكن لأحدهم القول إنها لم تفكر فيهم، وفى نفس الوقت لا تكبد نفسها غرما.

أهى حزينه؟ أهى مسرورة؟

لم بيد عليها ما يوحى بهذا أو ذاك، بدت مشغولة دائما، تروح وتجيء ، تشتري بعضا مما ستحتاج إليه هى، ماتعرف أنه رخيص هنا، مرتفع السعر هناك، زيارة هذه أو تلك ممن عرفتهن، كن يقلن لها إن فى الوقت بقية، لكنها تجيبهن برفع يدها، ويسط أصابعها:

«لا.. هذا يكفى .. هو العمر فيه كام سنة؟»

ثم تفيض فى الحديث عن أمها العجوز، المريضة، التى يجب أن تلازمها، وأن ترعاها، الحق أنها كانت تبالغ أو تحاول أن تبدو كابنة بارة، من يسألنها البقاء يعرفن أنها استنفدت المدة، وهى تدرك إنهن يعلمن، لكنهن يتظاهرن بالاعتراح عليها، وتبدى هى الممانعة، والحجة بواجبها تجاه أمها.

مرة كانت تتحدث إلى إحداهن، فوجئت بنفسها تقسم برحمة أمها، صممت، هذا شؤم، ولكنها فيما بعد قالت إنها كثيرا ما كانت تتخيل لحظة تلقيها نبأ رحيل أمها فى الغربة، فى البداية ينتابها جزع، وأسى، تسارع إلى إرسال خطاب، تشدد على ضرورة الرد فورا، ثم تفيض وتفصل فى نصائحها، كان هذا فى البداية، لكنها فى السنة الثانية كانت أقل اهتماما، كثيرا ما وعت ذلك فتعله بالبعد. تقول إن الغربة تلهى الإنسان عن نفسه، لكنها لم تستطع تبرير تفكيرها المفاجئ ذات يوم قائظ، عندما فوجئت بتخيلها لأدق التفاصيل المتعلقة برحيل أمها، بل وحالتها عند تلقى النبأ إذا كانت فى البلدة، أو إذا كانت هنا، فى غربتها، بل.. صاغت فى مخيلتها صيغة النعى الذى سوف تنشره فى الصحف، نعى من عدة سطور، بل ربما تكتب سطرين أو ثلاثة تناجى روحها كما يفعل البعض.

يؤكد بعض من عرفها عن قرب أنها كانت دائمة الحديث عن تخوفها ذلك، وتتبع ما تقول بذكر ما تحوله إليها، لهذا

يقولون إنها كانت تنتظر الموت حتى تتوقف، وتضيف ما ترسله إلى رصيدها، كما أن علاقتها بالأقارب ستتقطع، لها عديدون تجوز عليهم الحسنة، أو زكاة المال، لكن هذا باب لو فتح فلن تقدر على إغلاقه أبدا، مالها ومالهم، هل كانت غريبتها، وتحملها العديد من المواقف التي لم يكن ممكنا أن تقبل أقل منها في مصر.. صلف الناظرة، مضايقات الزملاء، خاصة من الجنسيات الأخرى، هل كان تحملها هذا كي تغدق على هذا أو ذاك؟.

هذا ما أشاعه البعض عنها، ولكن لا يمكننا الأخذ به لأنه غير مؤكد، وإن كانت بعض الشواهد تشير إلى ذلك.

في هذا اليوم بقيت في البيت.

كانت تحصى ما أنفقته خلال الأسابيع الأخيرة، أزعتها معدل ما اشترته، بعد أن فرغت من حساباتها على الآلة الصغيرة، لماذا لا تمضى ثلاثة أو أربعة أيام بمفردها في أحد الفنادق الكبيرة، في القاهرة أو الإسكندرية، لماذا لا تمتع نفسها؟ هذه الفنادق التي لم ترها إلا في الحلقات التلفزيونية، وأفلام السينما.

لكن سيكلفها هذا كثيرا، ثم إن القوم سينظرون إليها بريية، أنسة بمفردها..

ياها أشياء عديدة تود القيام بها، لكن الناس، وكلام الناس، أقاويلهم، على أية حال، عندما تتزوج سيكون من

شروطها قضاء أجازة من حين إلى آخر في أحد هذه الفنادق،
أما لو أسعدها الحظ، وكان العريس هو من تتمنى، فسوف
يسافران إلى أوروبا..

هنا رن الجرس!

فوجئت، لم تعدد استقبال أحد من معارفها، انقطعت عن
زميلاتها حتى لا يبادلنها الزيارة، اعتبرت ترتيب أثاث حجرتها
ومفروشاتها سرا يخصها. فوجئت حقا برؤية زميلتها، مدرسة
التربية الرياضية، تركية الأصل، زوجة لطبيب يعمل هنا منذ
عشرين عاما، أى بعد الاستقلال.. مدة مكنتها من جمع ثروة،
ياسلام.. ما كان أحوجها إلى مدة كهذه!

بقدر دهشتها، بقدر ما أبدت من ترحيب، كانت التركية
طويلة، راسخة الخطى، حركاتها محسوبة، شعرها طويل، أما
وجهها فجميل الملامح، وعيناها وأسعنان، فمها مضموم
كالحق.

لم تتقابلا إلا فى المدرسة، تعرفها باضطرابها للحديث
بالتركية عند الانفعال، أحيانا تقول «تشكرات» بدلا من
«شكرا»، ثم تتظاهر بأنها نطقت الكلمة عفوا..

طبعا، بدأ واضحا أنها جاءت لغرض محدد، صحيح أنها
أبدت أسفها لأن أحسن الزميلات يرحلن، إنها نادمة بسبب قلة
لقاءاتهما، لها نظرة فى الناس لا تخيب، ولأنها تدرك جوهرها
جيدا، ويتثق بها رغم قلة المدة لهذا جاءت تعرض أمرا محددًا

لم تتوقف التركية، لم تغير لهجتها، لم تبدل ايقاع كلماتها،
لم تزخرف، ولم توار أيضا، إنما استمرت، وكأنها لا يعينها أن
تقاطع، أو أن تتلقى ردا.

قالت باختصار حازم، باتر: إنها تعرض عليها المشاركة
في عمل ستريح من ورائه خمسين ألف دولار غير منقوصة،
خمسين ألفا أى ضعف ما ادخرته طوال سبع سنوات، وستة
شهور.. ثم قالت متمهلة: وأحد عشر يوما..

توقفت لحظات، ثم استمرت..

طبعاً السؤال المنطقي هنا، أى عملية لن تكلف جهداً،
وستعود بهذا الريح كله.. ما طبيعة العمل الذى ستصبح بعده
من الأثرياء؟ حقاً، إنها فرصة، والفرصة لا تجيء إلا مرة
واحدة فى العمر كله.. ها.. ما رأيك؟

أصغت مأخوذة، عندها فضول، وخوف غامض.. قالت:

«أنت سألت، ولم تجيبى..»

تراجعت قليلاً، الحق أنها لم تموه ولم تزوق قط، بدت
صريحة، واضحة، وفى بعض اللحظات كأنها تملى ولا تقترح..

قالت إن كل المطلوب منها، أن تحمل كيلو بودرة..

- بودرة؟

- نعم.. بودرة بيضاء.. هيروين يعنى..

مخدرات؟! ماذا قالوا لك عنى؟

قامت واقفة، غير مبالية برد الفعل.

- سمها كما شئت، ولكن اعلمى أنك لست الأولى ولن
تكونى الأخيرة..

لأول مرة تلحظ أصبعها الحاد القاسى، الذى لم ينثن طوال
الحديث.

قالت بلهجة عامية مصرية:

- فكرى كويس، وأحب أطمئنك، وصولك البيت مضمون، أنا
منتظرة الرد الساعة خمسة وربع - بكره.. باى!

.. لم تقم من مطرحها، بقيت شاخصة، حولها رائحة العطر
العالق بالفراغ بعد نهابها، الصمت البارد، بدت الزيارة
الغريبة كأنها لم تحدث وأن المرأة لم تأت، كذا الثقة الزائدة،
والصراحة الحادة كالنصل.. لكنها استعادت ما قيل، وخطوط
حضورها المادى، امتلاها غير المفرط الراحة فى ثنايا
جسدها، ملامح وجهها المشبع الثراء.

عشرون سنة مضت على زوجها فى البلد، تنشر الصحف
صورته، إنه لا يعمل فقط كطبيب، لكنه صاحب مستشفى
خاص مشهور، الليلة فيه تكلف نصف راتبها الشهرى، يقال
إنها شريكة فى دار للأزياء الجاهزة، لا تبيع إلا المستورد من
باريس، ولندن، وعواصم أخرى لا نعرف عنها شيئا، وفى

بدايات الفصول الأربعة تقيم عروضها، تشهدا سيدات المجتمع، وزوجات السفراء، يبيها التلفزيون، أما المجلات التي تصدر فى طباعة ملونة، نسائية وغير نسائية، فإنها تنشر صور العارضات، تفيض فى الشروح الخاصة بالخطوط الجديدة للفساتين، أدوات الزينة، العطور، إنها ثرية جدا ويقال ان عملها كمدرسة للتربية الرياضية ما هو إلا لشغل أوقات الفراغ التي تطول فى تلك البلاد..

لكن.. تبدو التركية وكأنها تعرف أمورا شتى عنها، لكن.. ماذا ستعرف؟ ليس فى حياتها ما يشينها، ما يعيبها، سبع سنوات وستة شهور وأحد عشر يوما، كانت تخطو فوق صراط مستقيم، لا تحيد ولا تميل، فكيف تجيء هذه المرأة فى اللحظات الأخيرة لتقدم هذا العرض الغريب.. المريب؟

إن خوفا يدركها وخشية، هل بدا على ملامحها ما يوحى بقبولها، هل تضمنت نبراتها ما يومئ إلى الموافقة، تستعيد انفعالاتها، تحاول استعادة الفاظها، قعدتها..

أبدا، لم يبد منها شىء قط.

لكن ما لم تستطع قبوله، أو إقناع نفسها به، صمتها، لماذا لزمت السكينة؟ لماذا أصغت إلى النهاية؟

وماذا كانت ستبدي إزاء المرأة التي تنشر الصحف صورتها أحيانا؟

ماذا كانت ستفعل؟

كان المفروض بمجرد سماعها العرض الصريح، الوقح، أن تقف، أن تشير إلى الباب، أن تصيح:

أخرجى بره..

لكنها لم تفعل، ثم.. أى رد فعل كانت ستبديه المرأة؟ ربما تدبر لها أمرا يؤدي بها إلى مخاطر لا تعلمها.. إلى عدم خروجها من البلاد نهائيا، إلى فضيحة، فضيحة؟ أى فضيحة، إنها لم ترتكب ذنبا، لم تات فعلا فريا، لكن.. من أين لها بالضمانات فى واقع تسود فيه مثل هذه المرأة، إن مجيئها إليها امر ليس سهلا، أى بلاء يبرز؟ يطل برأسه فى اللحظات الأخيرة، أين كان مختبأ لها هذا كله؟

أحكمت إغلاق الباب، بينما خوف يدركها متمهلا، ثمة أشخاص يتريصون بها فى مكان ما، هذا مؤكد، أشخاص لم تعرفهم قط لم يخطر ببالها يوما أن أى صلة ستقوم بينها وبينهم، أحد هؤلاء - ربما لا تعرف ملامحه - ربما ألحق بها الضرر الأقصى، بل.. ربما أجهز عليها.

هل من المعقول أن تتركها المرأة هكذا؟.. معقول أنه عرض يقتضى القبول أو الرفض، أم يستتبعه ما تجهل؟

إنها مرهقة، عندها خشية، وترقب، وتفكير فى مفارقة البلاد كلها، أى ثقة كانت تتكلم بها؟ أى راحة؟ ترى.. كم

ثروتها؟ كم؟ قالت إن حمل كليو واحد من البودرة سيؤدى إلى ربحها خمسين ألف دولار، مجرد حملة، فكم ستكسب هي؟ ليس فى هذا ما يدعو إلى الجنون؟ إن شقائها، وحدثها، وقمعها لرغباتها، شحها، تقتيرها على نفسها، وعلى أقرب الأقرين، محصلة هذا كله ما يقارب نصف المبلغ المعروض.

خمسون ألف دولار، لو أودعت فى بنك، لو أن متوسط الفائدة عشرة فى المائة، خمسة آلاف دولار فى السنة، بسعر السوق. مهما أنفقت فى مصر، هل ستتنفق مثل هذا الدخل؟

أضف إلى ذلك ما أدخرته هي، إن رصيذا كهذا سيمكنها من البناء، تصبح صاحبة ملك، تحسن فرص الزواج، من الممكن التفكير فى أستاذ جامعى، طبيب كبير عنده عيادة.

خبطة واحدة، نقلة واحدة، مجرد كليو بودرة..

لكن المخاطر؟

طبعا عديدة، لكن مثل هذه المرأة، اللامعة، الوجيية، القوية، هل تعمل بمفردها؟ لا بد أن هناك آخرين مثلها، هل من المعقول أن تدبر أمرا لم تتوافر له ضمانات كافية؟

لكن.. ماذا يعنى وصولها إلى هذه النقطة من التفكير؟ هل تميل بها الظروف إلى هذه الدرجة؟ هل تسعى بإرادتها إلى الحافة؟!

الحق أنها لم تغف طوال تلك الليلة التي لن تنساها أبداً،
تارة تجيء هنا، وتارة هناك، لحظة تأخذها، ولحظة تأتي بها،
حتى إذا طلعت شمس النهار الجديد، لقيت نفسها قصية عن
كل ما انقضى، أيامها كلها التي انقضت هنا في جانب، وهذا
اليوم في جانب آخر، كانت في رهبة وخشية، وفضول، غير
أنها رددت.. وضعها الآن تحسد عليه، لا بد أن هذه المرأة
تتابعها، ترصد حركاتها، تدبر لها، فهي بين خطرين، كلاهما
مر، الأول أن تعرض عنها تماماً، تمضى في إجراءات رحيلها،
تنفذ بجلدها لكن.. من يضمن؟ من يدري أنها لم تدبر لها أمراً
في المطار هنا أو هناك، لها ناس، هل ستتركها هكذا بعد أن
صرحت أمامها، بعد أن كشفت نفسها، معقول؟ يمكن أن ترتب
لها ما لا تقدر عليه، عندئذ تضيق مقابل لا شيء، وإما أن تقبل،
عندئذ تتحمل المخاطر، وإذا تمت الأمور كما ينبغي، فستأتى
في انتظارها خمسين ألف دولار..

عند الساعة الثالثة كانت تدنو مما توشك الاستقرار عليه،
أن تلتقى بها ، أن تصغى إليها، هكذا.. لن تسفر عن عدا بين،
فإذا بدا الأمر نائياً عن المخاطر الجمة كان بها، وإذا رأت
العكس اعتذرت وأبدت لها رقة خلاف ما جرى عند مجيئها
إليها، ستحاول أيضاً الوقوف ولو من بعد عما تنويه لها، أما
انقطاعها تماماً فخطأ مبین.

الثالثة أو الثالثة والرابع.. لا تذكر.. أدارت قرص الهاتف،
رن الجرس لفترة، انقضى وقت بدا طويلا، عاودت التطلع إلى
الرقم لتستوثق، فوجئت بصوت التركيبية يجرى من الطرف
الأخر.

«أهلا يا حبيبتي...»

كانها تنتظرها، كأنها تعرف أنها على الطرف الآخر من
الخط، أو تراها. عجيب.. قالت إنها تريد أن تراها، إنها
تنتظرها.

قالت المرأة بثقة:

«لا ياروحى.. هذه المرة ستجيبين أنت، أنا فى انتظارك،
بعد عشر دقائق سيكون السائق عندك..»
لم تدع لها فرصة، لا أخذ ولا رد، نطقها أمر، وإرسال
السيارة قرار غير قابل للنقاش.

فى البيت الفسيح القائم على أعمدة، نصفها فى البر،
ونصفها فى البحر مغروسة فى أمواج الشاطئ، فى صالة
ازدحمت، مزدانة بالنباتات الاستوائية جرت المقابلة.

فى اللحظات الأولى أثقلها تعب وضجت بأعوام الوحدة
الطويلة، بينما ترددها عندها تساؤل، إذا كانت التركيبية تعيش فى
هذا البذخ، فلماذا تجهد نفسها للعمل كمدرسة للتربية
الرياضية، ترى.. أى نوع من الهموم عند هذه المرأة؟

اللحظات تمادى داخلها وهن، لو تبعد، لو تجد نفسها فى مكان قصى، بقدميها جاءت، فهل تنكص فى اللحظات الأولى؟
لنتنظر وسترى.

كانت المرأة تتطلع إليها، تتقدمها ابتسامة غامضة، فى عينيها معنى يقول صراحة «كنت أعرف أنك ستجيبين»، بعد دخول خادمة أسيوية الملامح، تحمل صينية من الفضة عليها براد الشاي وأكواب الزجاج التى يستقر كل منها فى وعاء من الفضة المنقوشة.

طبق خزفى به بسكويت مختلف الأحجام، مستدير، مستطيل، لكل مذاق ورائحة مختلفة، صبت الشاي، تساءلت عن عدد قطع السكر.. قالت دون أن تعنى شيئا محددًا:
«واحدة».

تساءلت التركية عما إذا كانت تلتزم نظاما خاصا لتتقص وزنها، هزت رأسها نفيا، عندئذ قالت التركية مومنة إليها، إن قوامها ملفوف جميل، وأن طولها مناسب. لم ترتع للهجتها البطينة، المتخثرة، ونظرات عينيها، غير أن نبراتنا تغيرت بعد الرشفة الأولى من فنجان الشاي.

قالت إنها عندما رأتها المرة الأولى لفتت نظرها بطيبة ملامحها، وهدوئها، وحبها الكتمان، وبعدها عن ثرثرة الزميلات.

قالت إنها تعرف كل شيء عنها الآن، ليس عن حياتها وأقاربها فحسب، إنما مقدار ما ادخرته طوال سنوات شقائها، ما اشترته من هدايا لأسرتها، يمكنها أن تصف لها محتويات حقيبتها الكبيرة، بل وزنها أيضا، ألم تعابنها عدة مرات حتى تتأكد أنها لن تتجاوز الوزن المسموح به في الطائرة، هل تطلعها أكثر؟ يكفي أن تنبها إلى خطئها عندما وضعت العروسة التي تتكلم وتبكي وتبول في الحقيبة، صحيح أنها فى علبتها، لكن هذا الوضع يعرضها للتحطيم. مثل هذه العروسة يجب حملها فى اليد، صحيح أن وزنها خفيف، لكنها تشغل حيزا لا داعى له، هذه العروسة ستوفر العديد من المشاق، ولهذا شرح، وتفصيل، لكن فى وقته، كل شيء فى وقته..

ما أن توقفت التركية فجأة، إحدى مباغثاتها التى تتبعها بتحديد مركز مباشر، نفاذ، حتى شعرت أنها عارية تماما أمامها.. إذن، فحدها صحيح.. لو أنها لم تأت لدبرت لها أمرا..

استأنفت حديثها، بدت غير عابئة بتلقى ردود، كأنها تتكلم أمام جهاز أصم، ولا تخاطب أدمية من لحم ودم.

قالت إن ملامحها الهادئة، وحبها الانزواء، وإخلاصها فى عملها، وبعدها عما يشين أو يعيب، هذا كله جعلها تقدم على اختيارها، لكن.. قبل الشرح والتفصيل، لا بد من العلم أنها ليست الأولى التى ستقوم بذلك، وأن أخريات - لو علمت

بمراكزهن الاجتماعية - سيغمى عليها، فى مصر سوق كبيرة
الآن لما ستحملة، ستحمل كنزا حقيقيا، ليس ممثلا فى قيمته
وحسب، لكن فيما يعنيه بالنسبة لمن اعتاد عليه، تعرف تماما
أنها لا علاقة لها من قريب أو بعيد بهذه الامور ، أنها لا تدخن
حتى، وهذا أفضل، بل إنه من أحد الاسباب القوية لاختيارها،
فكل من تقرا اخبارا عن وقوعهم فى المحذور، إنما يكون أمرهم
قد انكشف لأمر أو لآخر، وفى الأغلب لتكرار نشاطهم، أو
لخطأ يرتكبونه، أو لوشاية مقصودة، هذا كله لا محل له، فهى
ستقوم بالعملية مرة واحدة، لم وإن يتكرر الأمر، كل الظروف
فى جانبها، فهى عائدة بعد غيبة، بعد غيبة سنوات من العمل
المضى، هذا واضح، بين، ما من اثر لها، أو حاضرا، لا
مكتوب، أو شفاهى صفتها بيضاء تماما، لا أحد يعرفها، إنها
خارج الدائرة تماما، المهم.. أن كل خطوة ستكون محسوبة،
مبعدة، تحوطها الترتيبات، سيكون هناك من يعنى بها،
ليساعدها عند أى مأزق ربما تتعرض له، أما لو أخطأت.. أى
خطأ ولو تافها، عندئذ تتحمل هى العاقبة كلها.

صمتت فجأة.

لم تكف عن النظر إليها، تتحدث كأنها تلقى تعليمات ولا
تفصل عرضا، شربها الشاي أنيق، ترشفه بدقة، أما ما
يحيطها من عز وأبهة، فلم تر مثله ولا فى الأفلام..

.. خططها تتغير، مسارها يتبدل، لن تسافر إلى القاهرة مباشرة ، تركب الطائرة، تسافر إلى كراتشى، بطاقة الطائرة منفصلة، لديها عدة بطاقات، أخرى من كراتشى إلى اثينا، ثم.. إلى القاهرة، لماذا هي قادمة من أوروبا؟ لأنها كانت تشتري ملابس وحاجات لها، نادرا ما تراجع الاختام التى تحملها الجوازات، إلا عند الشك، مع ذلك لكل موقف طارئٍ تديره المهم.. ألا تنسى، ألا تهفو، أن أعصابها قوية، متينة، وفى الأغلب الاعم، لا يفضح المرء إلا نفسه..

فى كراتشى ينتظرها أحدهم فى المطار بصحبة زوجته، تركب سيارتهما، تنزل ضيفة عليهما، لها أن تأمن، ألا تخشى، كل خطوة معدة، درست بعناية.

لماذا كراتشى؟

إذا كان ولا بد أن تجيب على مثل هذا السؤال، فالجواب واضح، احدى تلميذاتها واسمها «طفلة» دعته إلى رحلة مكافأة على ما بذلته من جهد لإنجاحها فى المدرسة، أيضا بمناسبة انتهاء عملها، «طفلة» والدها تاجر سجاد، له مصالح، وتجارة، وبيت هناك، ثلاثة أيام مدة إقامتها، فى كل يوم تصحبها زوجة الرجل إلى مكان مغاير للنزومة ، للفرجة، لشراء الحرير الطبيعي إذا شاءت، عند دنو الإقامة من نهايتها تسلمها الزوجة العروس، نفس العروس التى تلهو بها.

لكن يجب الوعى أن عروسها تلك لم تعد قيمتها خمسة وعشرين دولارا، إنما.. ثلاثة أرباع المليون. نعم.. اعتادت عند سفرها الا تفارقها، تحملها معها، تصعد بها إلى الطائرة، إذا تصادف خلو المقعد المجاور تقعدها، إذا جاورها أحد تضمها، تسندها إلى حجرها، عادى هذا.. مألوف، ربما أثار هذا فضول البعض، لكنها لن تأبه، العروس بالنسبة لها نبوة بطفلة جميلة، تصحبها فى سفرها، فى حلها وترحالها بعد زواجها.

من كراتشى إلى أثينا، الطيران مباشر..

الانتظار فى أثينا لمدة أربع ساعات، حتى موعد إقلاع الطائرة المصرية، كل التفاصيل معدة، من كان مثلها يفضل طبعاً السفر على الطيران المصرى، مع أن مصريين كثيرين يفضلون الشركات الأجنبية، لكن هى... تكره الطيران الأجنبى، حيث تتعامل مع مضيفات لا تعرف لغتهن، إنها لا تتقن الإنجليزية أو غيرها.

فى مطار أثينا ينتظرها أحدهم، يعمل فى المطار، يدلها على المخارج، والقاعات.. وصالة السوق الحرة إن شاءت، لن تخرج من مبنى المطار، من قاعة العابرين، تبقى محتضنة العروسة، ممسكة أيضا حقيبة يدها، لا تبدى قلقا، أو توترا. حقيبة أخرى ستنضم إلى حقائبها، تحمل اسمها، تحوى ما ستقول عند الضرورة إنها اشتترته من ثياب، وتحف صغيرة، وعطور، وأشياء أنثوية.

تجيل البصر حولها، تنظر أمامها، يجب أن تكون طبيعية،
تتعلم أن ثمة من يراقبها عن كثب، يتبعها، إما لتقديم العون عند
الضرورة، وإما حرصا وتحوطا، حتى لا تفلت، ثلاثة أرباع
المليون دولار، من يصدق؟ هكذا أكدت التركية، بل إنها فاجأتها
أثناء جلوسهما بإسماعها صوتها وهي تجيب عن
استفساراتها، فكانها لم تسألها عن أحوالها، وأقاربها
وخططها بعد العودة إلا بقصد تسجيل نبراتها، حتى تعلمها أن
دليل الاتهام بين يديها إن هي راوغت أو حاولت.

أبواب كثيرة وعديدة أمامها يجب اجتيازها، أبواب تفتح
تلقائيا ، أخرى تفتح بعد تلقى علامة، وأبواب ينبعث منها
صوت إذا كانت تحمل سلاحا، أو جسما معدنيا.

ضباط وجنود يجب أن تمر أمامهم، بعضهم يرتدى ملابس
رسمية، آخرون لا تلاحظهم إلا العيون المدربة.

أحقا.. يراقبها أحدهم، أحقا يصحبها طوال الرحيل من لا
تعرفه ، لو صح هذا، فمن هو؟ فى أى مقعد يجلس؟ عربى هو
أو أجنبى؟

هل تعنى التركية ما قالت؟ أم أنه إحاء حتى لا تجرؤ على
التفكير والتصرف بمفردها، أو الاختفاء بهذا الكيلو من
البودرة؟، بالمبلغ المهول؟ ليس لديها القدرة على تخيله، ستة
أرقام، خمسة أصفار، كم يبلغ عائده السنوى؟، أرقام لا
تصدق، لا تقدر على استيعابها، أو تخيل مجرد التصرف
فيها..

لكن..

لكنها ليست مشبوهة، إنها مدرسة عائدة بعد غياب سنوات
فى الغربية، ليس فى ماضيها ما يريب، والأهم.. يجب الا يكون
فى مشيتها، فى خطوها ما يبعث ذرة شك فى العيون الخفية
المترصدة.

أما إذا اكتشف الأمر ونبشوا داخل الدمية ..

«إحدى صديقاتى أعطتها لى، طلبت توصيلها إلى شخص
سيجيئنى ويتسلمها..»

ستذكر اسم التركية.. اسم هذه الشركة المشهورة فى
القاهرة والتي لمحت التركية إليها، بل صرحت باسمها مرة
وأحدة لا غير، لكنها أدركت.

يتطلع إليها ضابط شاب، يفصلها عنه حاجز زجاجى
تتخلله فتحة مستديرة، يختم استمارة الوصول، يقدم إليها
الجواز مبتسما:

«حمدا لله على السلامة، غيبة طويلة..»

تومئ مبتسمة..

«والله ما فى أحسن من بلادنا»

تردد عبارة سمعتها منذ ثلاثة أعوام، قالتها امرأة بدينة،
قصيرة كانت تحمل طفلة ويتبعها صبي، لفظتها بنفس الإيقاع.

تعبّر الحاجز الحديدى إلى صالة وصول الحقائق، تنتبه إلى ضغطها العروسة أكثر مما يجب، خطأ، خطأ، لتكن خطواتها متمهلة، عندما دفعت العربة الصغيرة وأوشكت على التعثر، تقدم أحدهم، ساعدها، نصح بوضع العروسة فوق الامتعة حتى تدفعها بكلتا يديها.

شكرا..

تبدو العروسة كطفلة صغيرة ترفع يدا، وتخفض الأخرى..

- هل معك فيديو؟

- لا..

- أى أجهزة كهربائية؟

- تفضل شوف..

بيد مدرية، خبيرة، يجس الحقيبة الكبرى، الحمد لله.. لم يلمس العروسة، يتطلع إلى جواز السفر..

- حمدا لله على السلامة..

- الله يسلمك.

يرفع الجندى يده محييا، كأنها لم تنتبه.

اجتازات آخر الأبواب، تقف فى الساحة الفسيحة، تفكر بسرعة، لا .. لن تتجه إلى هذا الفندق الذى أشارت التركية عليها بالنزول فيه ، كيف أطاعتها؟ كيف وافقتها عندما اقترحت

عليها ذلك؟، هل المعتاد هنا نزول فتاة بمفردها في مثل هذا الفندق؟ ستتجه إلى البلدة مباشرة، مفاجأة لأمها التي لا تتوقع وصولها، لكل الأقارب، هناك ستخفي العروسة بما تحوى.

زاد عمرها مقدارا ليس بالهين خلال هذه الرحلة الطويلة، لو أنها ضبظت في كراتشى، أو فى أثينا هذه، كم من السنوات كانت ستمضيها فى سجن غريب، بأرض غريبة، كم.. مجرد تخيلها ذلك يلحق بها الرعب، هذه المخاطر كلها.. ألا تجعلها تعيد النظر؟.

طرح التساؤلات

فاتنى القول يا كرام، أننى حرصت على جمع كل ما قدرت من صحف الفترة، كما دونت ما عن لى، وما لفت نظرى عند المطالعة، خاصة تلك السطور البعيدة عن العناوين الرئيسية والصفحة الأولى وما فيها، رب خبر من سطين يثير مخيلتى، وتساؤلاتى، ويأتى إلى بتداعيات شتى، أو يدفعنى إلى تقصى أسباب أو جلاء أمر.

ربما سمعت من متحدث، صاحب لى، أو غريب عنى، إشارة عابرة، أو رواية مفصلة، تقض مضجعى، فلا أهدأ إلا إذا عرفت أبعادها ولا أنثنى إلا إذا وقفت على تفاصيلها، والعنصر الذى لا أوفق فى الوصول إليه، أخمنه وأحدثه، وأستند فى ذلك إلى ما كان قبله وما جرى بعده، ربما أوفق، وربما لا، غير أن هذا طبع جبلت عليه.

حدث أن قرأت يوما، ثلاثة سطور لا غير، خمس عشرة كلمة، تخبر أن مصريا لقي حتفه، فى حريق شب والتهم سجن مدينة ميسينا الإيطالية، لم يذكر اسما.. ولم يرد أكثر من ذلك، ومثل هذا باعث للحيرة، يجتاحنى التساؤل تلو الآخر..

من هو؟ أى ظروف أودت به إلى البلدة النائية التى لم أسمع عنها من قبل، متى ترك الديار؟ متى ودع وسلم؟ وماذا تبقى له من صلوات ومودة؟، كيف وصل إلى ميسينا هذه؟ وأين كان يعمل؟ ولم سجنوه؟

حدث أن نزلت يوما بلدا قريبا من المحيطه جلت بها، وزرت مدنا مختلفة حتى وصلت إلى مدينة نائية، لم يكن فيها إلا فندق قديم مرتفعة جدرانه، تحيطه شرفات فسيحة تظلمها سقوف من خشب متكنة على أعمدة مستديرة، وإلى جانبه يمتد مدرج مطار صغير تستخدمه إحدى شركات النفط تقريبا.. الفندق والمطار مبنى واحد، برج المراقبة الصغير يقوم عند الركن الايمن للبناء، بارز منه. نزلت إحدى غرفه الفسيحة، السرير من طراز قديم، يمت إلى القرن التاسع عشر، عريض، فسيح، فراش تمددت فوقه - قبلى - أجساد شتى، أرق من أجهلهن، وقلق من لم التقي بهم، وملذات تلاشت.

ترى من هم؟.. من عبر هذا الفراش المشاع؟، إلى أى جهات ولوا؟ من بقى ومن رحل، ومن يذكره ما زال؟ ومن رحل إلى الأبد؟ للغرفة رائحة القدم والاندثار.

فى الليل نزلت صالة الطعام، قعدت بمفردى ، أتامل المحيطين بى، كلهم لا أعرفهم، كلهم ذكور، لم أر امرأة واحدة، وعندما وضع أمامى طبق الطعام تطلعت إليه مؤتنتسا، لايمكن أن أخطئ ملامح أبناء ديارى.. سألت مباشرة..

- أنت من أين؟

قال على الفور:

- من العباسية..

بعد تكرار سفرى، كنت أردد دائما، أننى لو لحت مصرىا يمشى. فى زحام لعرفته، حتى لو فى بلد عربى، حيث تتشابه السمات..

هو فى العشرينيات، وسيم، غزير الشعر، يثير عندى مشاعر البنوة، فى عينيه حزن غريب، لم يكن يخاطبنى إلا أثناء وقوفه، لا يمكنه الجلوس معى، هذا عمله، وعليه تلبية طلب هذا وذاك، ثم يرجع إلى، يتظاهر أنه يبذل طبقا، أو يأتى بملعقة وشوكة، أو ينظف المفرش.

قال إنه خرج قاصدا أوروبا، لكنه جاء إلى هذا البلد لادخار بعض المال يمكنه من مواجهة أيامه الأولى عندما يتجه غربا.

لم يكن السفر قد بدأ على نطاق واسع خلال تلك الأيام، كانت السبعينيات ماتزال فى بدايتها، والحرب لم يمض على انتهائها إلا شهر قليل، وفيما بعد جئت هذه المدينة مرة ثانية،

ولقيت فيها عددا كبيرا من المصريين ولكن لهذا حديث آخر،
يكفى القول إن هذا الفندق الذى قابلت فيه هذا الشاب بمفرده،
وجدت فيه عددا من المصريين، تقريبا يديرون مجمل العمل فيه،
كما قابلت عددا من العمال فى الساحة الرئيسية، حيث اعتاد
المقاولون، طلاب العمالة المגיע بحثا عن يحتاجون إليه، فى
أعمال البناء، أو النقل، أو ما شابه ذلك.

فى زيارتى الثانية كانت المدينة قد اتسعت، قامت فيها مبان
عديدة، ومهدت إليها طرق فسيحة، ونزلها غريباء كثيرون، مع أن
الفاصل الزمنى لايتجاوز الأعوام الستة.

لن أطيل.

أعود إلى هذا الشاب فأقول إنه مال على..

- إننى خائف !

- لماذا؟

قال إن معظم الجالسين هنا فى المطعم إنما قدموا من أجله
هو.

تعجبت.. انتبهت. بدأت أرصد نظراتهم.

انهم يغارلونه !

قال إن الحظ العاثر أوقعه فى مدينة لوطية ! لم يدرك ذلك
إلا بعد انقضاء الأسابيع الأولى، ومما حكاه له طباخ هندى

عجوز يعمل باستراحة شركة النفط المحلية التى تبعد كيلو مترا واحدا، ثم بدء النظرات، والغمزات، وترديد العبارات على مسمع منه، بعد أن يقدم طبق الطعام، وإذ يولى ظهره يسمع قائلا منهم..

قوام جميل والله..

قال إن بعضهم جاء خصيصا ليراه، يقدم إليه بقشيشا سخيا، وعندما يستدير ليمضى هنا أو هناك، يسمع همسهم، وغزلهم الفاضح الصريح، إنه يخشى الخروج من الفندق، بل يضاف عند نومه فى القسم المخصص للعاملين أن يقتحم بعضهم حجرته، سمع عن حكايات جرت لغرباء نزلوا المدينة، وجرى لهم ماجرى، بعضهم ردد على مسمعه تفاصيل..

المدينة أمرها معروف، شائع، حتى لترى نساءها مكتنبات، يطل من عيونهن التى لا يبرز ماعداها من وجوههن، جوع فادح، هذا أمر شائع، معروف، وللأسف لم يكتشف هذا إلا بعد إقامته ، إنه حائر لا يدرى مايفعل؟-

قلت محتدا:

- أخرج منها، ارحل، كيف تقول أنك لا تدرى ماذا تفعل؟

قال إن ذلك مستحيل قبل ثلاثة شهور، هكذا يقضى العقد..

- أى عقد؟ هل تفسخ العقد أم تخسر نفسك؟

قال إن فسخ العقد، أو الإخلال به، خاصة من جانبه هو
يؤدى إلى السجن، والسجن هنا هلاك مبین، من سيحمله
هناك؟ هنا ربما استطاع المراوغة، أو الإفلات، لكن بين أربعة
جدران وخلف باب مغلق، أين المفر؟

كنت فى حيرة، غير قادر على تقديم عون، أستعيد وقت
كتابتى هذا تحديق القوم فى الشاب، وتغامرهم، ونظراتهم، لم
أقض إلا ليلتين، بعدهما أقلعت عائدا من حيث أتيت، وعندما
حلقت الطائرة، وتداغمت البيوت، وتقاربت المعالم، وددت
الفواصل، كنت أفكر فى الشاب، وأنه موجود عند نقطة مما
أرى، لم أعرف ماجرى له، ولم يصلنى منه شىء، مع أننى
قدمت إليه عنوانى»

برغم تعاقب المديد وطول المدى، فإن حيرته تعاودنى، وما آل
إليه أمره يقلقنى» هل اغتالت المدينة فتوته؟ هل أفلت، عندما
زرتها مرة ثانية لم أجد له أثرا، ولم يذكره مخلوق، ولا أدرى
لماذا انبعثت ملامحه من عدم ذاكرتى ومجهولها عندما طالعى
نبا احتراق هذا الشاب فى سجن ميسينا الإيطالى البعيد؟

أم أنه صاحب الرسالة التى أتيج لى الاطلاع عليها؟ كان
يعيش فى ميلانو، هل انتقل إلى ميسينا؟ هل المدينة قريبة أو
بعيدة من عنوانه الذى حدده تفصيلا؟

والله لا أدرى، لا أجزم، مثلى كهؤلاء الذين لا يعرفون ما
جرى للمدرسة التى أتمت المدة، عندما طالعوا خبرا صغيرا

يقول إنه قبض على مدرسة عائدة من الخليج بناحية القناطر
الخيرية، أثناء محاولتها بيع كيلو من الهيرويين الخام.

أى تفاصيل كان ممكنا لى الوقوف عليها، لو أحطت بظروف
هذا الشاب المصرى الذى لم تذكر الأنباء حتى اسمه،
فالاحتراق هو الأهم، أما صاحب الكينونة ذاتها، فلا محل له،
ولا مقام!

عندى اختلف الأمر، إذ أقضنى أمره مع أنى لا أعرف
شيئا، وحتى لا أطيل أو أفصل، فإبنى مطلعكم على ماجرى
لواحد ممن عرفتهم، ومن الذين رحلوا سعيا وراء بسطة من
العيش، وقد هالنى ما انتهى إليه أمره، لكننى لن أتعجل
الرواية، ولن أقحم ذاتى عند مواضع كان لا بد أن أدلى فيها
بأمور، إذ ينبغى القول ياكرام، أن هذا الإنسان كان قريبا منى،
عرفته منذ زمن بعيد، كنا نقرب أحيانا، وتباعد ما بيننا الأحوال
والظروف فترات، ولكن إن فى قرب أو فى بعد لم تغب أخباره
عنى حتى كان منها ماكان.

وإني مضركم بما جرى من كفيله..

وأبدأ عند يوم اعتبره فاصلا بين حدين..

هو قبله، غير ما هو عليه الآن، إنها لحظة مغايرة لكل ما مر به، ما أدبر من زمنه ذوى واندثر، إنه موغل بعده فى الاغتراب، وما سيقبل بعد هذا النهار، تلك الساعة، هذه اللحظة التى أصغى فيها إلى ما أصغى، إنه غموض، محير، مضرب، مبهم. لو أنه بمفرده لهان الأمر، لكن ثلاثة كيانات متعلقة به، ثلاثة مصائر: امراته، ابنته، ولده، أولئك هم الأقربون، المحيطون به، أما الأقاليم عنه.. المنتظرون زيارته السنوية إلى القاهرة فما أكثرهم.

أولهم والده الذى ولد ونشأ فى هذه الديار ثم هج منها منذ ستين عاما أو أكثر، تلم فى البلاد، نزل الشام، قضى زمتنا

فى فلسطين، ثم عبر سينا ممتطيا ظهر هجين، استقر مقامه فى بر مصر، أصبح واحدا من أبنائها، له مالهم وعليه ماعليهم، ولهذا شرح قد يحيد بالخطة.

هناك أيضا خالته التى تعهدته طفلا، رضيعا بعد وفاة أمه إثر ولادته، حمى نفاس لم تمهلها، لا يعى من أمرها شيئا، لم تخلف صورة واحدة تمكنه من التعرف إلى ملامحها، خالته عجوز، وحيدة، قال والده إن شبها قويا يجمعها بالمرحومة، مع أن عشر سنوات تفصل بينهما على الأقل، أما شقيقاته فكل منهن تنتظر هداياه، خاصة أصغرهن، زوجها المبيض يعمل يوما ويتوقف عشرة، يدمن تدخين الحشيش، ويتباهى بقدرته على شرب عشر زجاجات بيرة دفعة واحدة، عندما تتوافر لديه النقود تنفلت يده، إذا جلس بمقهى ينفق على من يعرفه، ومن يجهله، إذا دخل سينما دعا من يجاوره إلى مشروب، كذا من يجلس أمامه وخلفه، يفضب إذا رد أحدهم دعوته، خاصة إذا كان يجاوره فى الصف، ثم يخرج إلى الطريق خاويا، ما من قرش معه وأمره بين الخلق مستقر عادى، لمح له بقدر ماتسمح مداركه، بدءا من ليدفع تذكرة الترام.

هؤلاء أهله، أما أسرة امرأته فينتظرونه فى المطار.. حماته وشقيقات امرأته السبع، أحيانا بعض الجيران، وشباب أو شبان غريبان، يعرف فيما بعد أنهما ينويان الخطبة، وقد يتم الأمر أو لا يتم.

مابينه وبينهم الآن يباب.

لا أحد منهم يدرى ما حل به، ولو نمى إلى علمهم فأى عون
يمكن تقديمه، أى مساعدة أى؟

لم يلق نفسه بعيداً، سحيق النأى كما هو الآن، منقطعاً عن
زمنه، عن موطنه، عن مآلوفاته، عن ديار يمكنه أن يجوس
خلالها بدون صد أو رد، أينما ولى وجهه فيها يمكنه طلب
العون، أو تلمس المدد.

هناك بعض معه يستند إليهم، ونفر عليه يمكنه القصاص
منهم، لكنه هنا منقطع عن أى مساعد، فمن يؤازره من؟

المؤكد، المقطوع به، أنه لم تكن ثمة بوادر، أو نذر . مضى
عليه سنوات ست منذ استقرار أمره فى هذه الشركة، ثابر،
تفانى، بذل الجهود الأتم، نال رضاء مديرها، حتى أنه كفله
بنفسه عند السلطات، وكان القوم يداعبونه قائلين:

«يا بخت من كان المدير كفيله وضامنه..»

وثق الرجل به، كان يستدعيه، يملئ مضمون ما يريد إبلاغه
إلى الشركات البعيدة، لم يقتصر الأمر على ما أسند إليه من
صياغة خطابات الدعاية، والكتيبات الصغيرة، بل ومتابعة
تنفيذها وإرسالها.

بعد عام واحد أرسل إلى امرأته، إلى ابنته وولده، عندما
جاءوا أول مرة كانت الكبرى فى السادسة، والصغير فى
الثالثة، الآن، اجتاز الولد التاسعة، وقتها سمع من البعض،

لماذا لاتبقيهم فى مصر؟ مجيئهم مكلف، لو بقيت بمفردك
يمكنك أن تدخر أكثر، غير أنه أبى، قال إنه عاهد نفسه، إذا ما
اعتدلت الاحوال لايبقى هو فى ناحية وهم فى ناحية، أسكنهم
بيتا فسيحا زوده، وأثته بما يحتاجون إليه، كأنهم باقون فى
تلك الديار أبدا.

صباح كل يوم يصحب البنت إلى المدرسة والولد، مدرسة
ابنه مجاورة للبيت إلا أنه يخشى عليه، يحتاط لأمره حوطة
عظيمة، الولد مليح، أبيض البشرة ناعم الشعر، أخذ من أمه
رقة التقاسيم، واتساع العينين، أشد ما يشغله الحفاظ على
ولده هذا، اللواط هنا شائع، شرح له أن الخلق من ذكر وأنثى،
وأن الانثى تكمل الذكر، والذكر متم لها وإن اختلفا، حتى
التأكيد عليه ألا يركع عند اللعب، وألا يسمح لصحبه أو زملائه
بالركوب فوق ظهره، أو القفز أثناء اللعب، والأ يخلع ملبسه
أمام مخلوق البتة، بل كان يعلن غضبه عندما يلمح باب دورة
المياه غيره محكم الإغلاق بعد دخوله، طلب من أمه أن يعتاد
الاستحمام بمفرده، وشدد عليه ألا يقبل هدايا أيا كانت من
شخص يكبره سنا، أو يصدق أى إنسان غريب إذا ما اقترب
منه يوما وطلب صحبته ليوصله إلى أبيه.

قالت امراته إنه ينبه الولد إلى ما لا يجب التنبيه إليه.

قال: اسكتى، أنت لاتعرفين هذه البلاد وأهلها.

قالت: لا.. أعرفها مثلك وخوفك على البنت يجب ألا يقل عن

الولد.

قال: عليك بالبنت وعلى أنا الولد.

عند خروجه من مقر الشركة ظهر هذا اليوم، رأى القوم يسعون، لا يدرون مالحقه، ما نزل به، عند ناصية الطريق هفا قلبه، لم يتبق على خروج الولد إلا ساعة، عليه أن يقضيها فى السيارة، طوال الشهر المنقضية كان يضبط موعد انصرافه من الشركة بحيث لا يفصله عن المدرسة إلا قطعه مسافة الطريق، عليه أن يقطع الشوارع مرات، إنه مازال مبهوتا، مكتظا بمالقيه، عليه خدمة فى السيارة، يتحرك بحذر، يتمهل عند النواصي، الحرص الشديد عند الإشارات الضوئية، إفساح الطريق للعربات الفارهة الفاخرة بغض النظر عمن فيها، إذا نهره سائق من أهل البلاد لا يرد ولا يجادل، مصيبا كان أو مخطئا، يجب عليه تفادى المجادلة، مازال يذكر هذا النحيل، مفرط الطول، نزل من السيارة غاضبا، راح يضرب العربية الأخرى بقبضته، مرددا: أرنى أوراقك.. أرنى أوراقك! سائقها يبدو غريبا، تداخل فى بعضه مرددا، مبهوتا، وانتابته رجة، عندما نزل مصر أول مرة بعد بدء اغترابه.. ود لو قال لسائق عربية الأجرة إنه يحسده على تلويحات يده، وذلك الحوار المبتور، الذى يتبادل مع السائقين الآخرين، وحتى ما يتفوه به من شتائم. وما يظهره من لا مبالاة، هل يقدر هنا على إيماءة غاضبة حتى؟ لا يمكنه ذلك أبدا. إنه يقترب بحرص

من الرصيف، ماينوه بحمله اليوم يجب الا يلهيه عن الطريق ومخاطره، غير أنه عندما لمح ولده واقفا وراء الباب حاملا حقيبته، كان ينوح، وهوى داخله ثقل بغيض خلف عنده فراغا أجوف يشع وهنا وبرودة، نزل ليصعبه، ضغط يده الصغيرة، وعندما جاوره ضمه اليه ومال ملامسا رأس صغيرة حتى دهش الولد، وتساءل: فيه حاجة يا بابا؟ هز رأسه، حاش ماعنده قسرا، فى وهج الظهيرة عظمت وحدته، وثقلت غريته، واشتدت وجيعته، وعندما خطا داخل البيت، تساءلت امرأته: « فيه حاجة ؟ ».

مرتجف صوتها، يحاول تخمين ماجعله بيدو غامقا، قاتما، كأن مايجرى فى عروقه قار وليس دما، قعد عند حافة السرير منحنيا، كررت.. «فيه حاجة.. خير..»

عندها فضول، وتساؤل، أن يخيب ظنها، أن تحيد أفكارها، قال بصوت محايد، غريب، تصغى إليه أول مرة:
« اقفلى الباب.»

وعندما عادت يلفها شؤم، وينهكها ضنى، بدا كلاهما منفردين، والعالم كله ناء، تطلع إليها، كأنها تراه أول مرة، وعلى غير ماتعهده، على غير ماتعرفه، فوجئت به ينشج، يبيكى، يجاهد كى يكظم جعيرا يحوى هزيمة رجولية مروعة..

- « فيه حاجة فى مصر؟ ».

يهز رأسه نافيا .

- إذن.. ماذا جرى؟.

أشار بأصبعه إلى بعيد، إلى حيث لاجهة بادية، وعندما أوشك استفسارها أن ينقلب نواحا، قال متحشرجا:

«يجب أن نخرج من البلد خلال ثمان وأربعين ساعة!».

لماذا؟ ماذا جرى؟ غير أن كل الأصوات تنأى، تطوف بكيان رجلها المتداعى، لم تعهده هكذا قط، هو الصامت دائما فى مواجهة أعتى الظروف وقد عرف منها الكثير، حتى وصفته يوما، بينها وبين نفسها بالبرود،

ماذا وقع؟

حدة بكائه لم تقدر على اللفظ، أو بذل المحاولة لتهدئته، يجب مفارقة البلد، لكن.. لماذا؟ أى جرم، أى خطأ، إنهم فى حالهم.. بعيدون تماما عن الكدورات، معتصم كل منهم بالآخر، فماذا حدث؟ تمد يديها، تلامس كتفيه كأنها على وشك احتضانه، كأنها تحتسى به من انهيار، فى وقت يتداعى هو فيه، برغم الباب المطلق، فان مايجرى نفذ إلى البنت، إلى الولد، يجرى صوتها حذرا، قلقا، على مشارف البكاء :

- «بابا جرى له حاجة ياماما؟».

تجيب بصوت مرتفع..

- «روحى وسأجىء .. روحى الآن».

يصلهما صوت الولد:

«أنا خائف يا ماما..»

ترجوه أن يهدأ، أن يكف من أجل الأولاد، فى هذه اللحظة يتوقف، تحاول مسح دموعه، غير أنه حاش يدها، يستمر محملاً إلى البعيد، إلى نقطة غير مرئية، تتجاوزها بكثير، تبدو رقبته المائلة رخوة، الآن يتجسد المعنى الذى لم تكن قادرة على تحديده، إن زوجها، والد طفليها، رجلها ، انكسر، إن قاصمة حلت به!.

لحظتان لم يفارقاها فيما تلا ذلك من مدة، عندما حط وبدأ جعييره المكتوم، ولحظة أن كف ويده نظره إلى بعيد، إلى اللاشئ ، تهمس محاذرة، ترجوه أن ينبئها، أن يقضى إليها، أن يفكر فى الولدين المروعين ، ماذا جرى؟، فى اللحظات التالية طرقت الابنة الكبرى مرتين، غير أنها ردتها، المرة الأولى برقة، والمرة الثانية بخشونة، زعقت مستنكرة.. «يعنى لا أعرف أقعد مع أبوكم؟»

فى صوت محايد، غريب، لا أثر فيه لانفعال، كأنه بمفرده، عليهم المغادرة خلال ثمان وأربعين ساعة، بعدها يصبح موقفهم حرجاً، يقبض عليهم رجال الشرطة، يتولون ترحيلهم عنوة، لماذا؟ لأن صاحب الشركة سحب كفالتة له، بين لحظة وأخرى سيجىء من يندرهم بضرورة المغادرة، تم الأمر بغتة، بلا

مقدمات، بلا نذر حتى يبلغ الأذى مداه ، ويكون الوقع أثقل وأفظع..

لكن.. لماذا؟ ماجرى، ماذا بدل الأحوال وغيرها؟

يقول لامراته المصغية، إن للشركة مديرين، أو شريكين فى إدارتها، الأول عجوز من أهالى المدينة القدامى، من معارف الوالد قبل نزوحه إلى مصر، وهذا رجل طيب، أتاح له الفرصة وثبت أقدامه، وثق به، وأوصى معارفه، عندما لاقاه أول مرة قال له: أنت ابن الحاج جمودى؟، أجابة مومئاً: نعم. قال: الخالق المناطق أبيك، سبحان الله، كأنه أمامى، انقطع عهدى به وهو فى سنك.. أهلا، أهلا بابن الحبيب الغائب، سأل عن أحواله، دقق فى معرفة أموره، كيف يعيش، كم أنجب غيره؟، لماذا لا يبدأ السعى محاولا العودة؟.

حكى له ما كان من أمر والده، مارواه له، عن هجابه فى البلدان، إلى الشام، إلى فلسطين، نزوله مصر وتقلبه فى أعمال شتى، زواجه المرة الأولى إنه ثمره هذه الزيجة، وثلاث شقيقات أخريات. وعن زواجه الثانى بعد رحيل أمه، امراته الأولى، حدثه عن استقراره هناك، وحنينه إلى أيام صباه، ولكنه لم يخبره بكراهيته لمن تولوا تدبير الأمور هنا، وتفضيله البعاد، حتى بعد ظهور الخير فى البلاد التى كانت مسقط رأسه، بعد أن أصبح مقصدا لكل راغب فى الثراء.

لم يفكر فى العودة، أو بدء المسعى، لم يقل للرجل أن أباه

لا يطيق سيرة من تولوا الزمام، وأنه لم يسترح قط لسفر ابنه، لم يهدأ، ولم يبد الرضا إلا بعد سماعه التأكيد تلو الآخر، بأن الغيبة لن تطول، وأن الرحيل لغرض، وإنما هي سنوات معدودات يتيسر فيها الأمر مع الراتب الكبير ثم يعود.

مما أدهشه بغض أبيه لقومه، وتحذيره إياه منهم، والتنبيه عليه ألا يفكر فى الاستقرار هناك أبداً، ألا يسعى إلى استرداد جنسية والده، إذ ينصرف عن أبيه يفكر، لا بد أنه لاقى ما لا يمكن وصفه. ألحقه الشيخ بشركته وكفله بنفسه، كان زملاؤه يحسدونه على تعدد مرات لقائه بالشيخ، صاحب المال، من تحمل اللافات اسم، كانوا يتطلعون إليه بعد انقضاء الأوقات الطويلة التى يمضيها بصحبته، اعتاد تلقى بعض المطالب منهم، يحملها إلى الشيخ ليقتضى فيها وينهى، والحقيقة أنه لم يقصر، لم يبخل قط فى قضاء الحوائج، كان عالماً وعنده دراية باللحظات التى يقدم فيها إليه، كان زملاؤه، بعضهم من مصر، وآخرون من أقطار شتى يداعبونه مبتسمين، يابخت من كان الشيخ كفيلاً، يصغى مبتسماً، لا يبدون ما يشئ أنه يحاول الحصول على وضع أفضل لانفراده بتلك الخطوة.

كان هادئاً يمضى ليؤدى ما يوكل إليه فى صمت، وفى البيت يسهر مدبجاً كتيبات الدعاية، كان الشيخ يقول له: أنت فصيح، تعرف لماذا؟ لأن فى عروقك دماء بدوية، أبوك بدوى أصيل، على الله ألا تكون المدينة الكبيرة قد أفسدته، عندئذ

يسارع بالرد: ياطويل العمر.. إن والدى لم يغير لهجته حتى الآن، يقول الشيخ: مصر كبيرة.. مصر أم الدنيا. ثم يقول إنه نظم الشعر فى مطلع شبابه، كان ممكنا لو تفرغ أن يصير شاعرا مرموقا، لكنه امتهن التجارة بدلا من الأدب، ثم يقول إنه بدوى ابن بدوى، لا يرتاح إلا فى البادية، أسعد لحظاته عندما يمضى إليها، ينام فى الخيمة ويشرب حليب النوق فائرا، ثم يشير إلى المكتب الفسيح، والأثاث الفاخر، والستائر المسدلة، وأجهزة التكييف، يقول ملوحا بأصبعه: والله مجبور ياأخى على هذا، والله مجبور!

الشيخ ذو هيبة وأفرة، وحضور صارم، له حرمة وتنفذ عند الحكام، إنه الخل الوفى لأمير مسن تجاوز المائة، ممن شهدوا المعارك الأولى التى سبقت قيام الدولة، كثيرا مايصحبه إلى البادية، ينقطعان أياما، يتحدث الشيخ كثيرا عما جرى فى الزمن القديم. عما لاقاه من فقر وضنك، يردد أنه عندما جاء من الصحراء كان يرتدى ثوبا مرقعا، بلا حذاء أو مداس، نحيف لقلة الأكل وشح الزاد، وعندما صحب هذا الأمير المسن، قال له: أريدك معى.. لكن لا تكذب، ولا تسرق . أجابه: أما عن الكذب فلن أكذب أبدا عليك أو معك، أما السرقة فان لم تكفى - وكفايتى فى القليل الميسور - فلا تحاسبنى إن سرقت، صار موثوقا به، وعندما بدأ ظهور النفط والثروة يسر له الأمير سبل قيام هذه الشركة، فجاء بشقيقه، وأقاربه، وأصهاره، شقيقه هو المدير الفعلى والمدير لشئون الإدارة، إنه شريك أيضا، منه

بدأت الواقعة، وعنده لب ماجرى!، أما الأقارب فيتولون الفروع المنتشرة هنا وهناك، شركة ضخمة، يشمل نشاطها أموراً شتى، التجارة فى العريات، وأجهزة الراديو، ومستحضرات التجميل، والمجوهرات، ولعب الأطفال، وقطع غيار ماكينات الري، والأقمشة بأنواعها، وعسل النحل، والجبن، والأسماك المحفوظة، واستصلاح الأراضى وتعبئة التمور، وعلاج آفات النخل، كما تدير عدة فنادق متوسطة، يشير الشيخ دائماً إلى معرض يتباهى به، متخصص فى الخضراوات الطازجة والفاكهة، يمكن لمن يرغب أن يجد فيه حبة أناناس قطفت بالأمس من شجرة أسيوية، وثمره موز طازجة مستوردة بالطائرة من كولومبيا، وطماطم طازجة لم توضع فى ثلاجة جىء بها من إستراليا، وتفاح فرنسى، وكثيرى سويسرية، يبسط يديه قائلاً، كذا خير، والله خير.

كان الشيخ إذا بدأ الحديث لا يتوقف، إنما يمضى من درب إلى آخر، من حاضر إلى ماض، ومن ماض إلى ماض أبعد، كان يجيد الإصغاء إليه. عند جلوسه إلى الشيخ تتوجه كل ملامحه إليه، تتركز نظراته، يبدى الانفعال، التعجب، الحسرة.

يمضى الوقت وتعدد الجلسات، كان يصفى إلى تفاصيل مكرورة، معادة، إلا أنه يحرص على إبداء دهشة بكر، خالصة، أن تبدو ملامحه وردود أفعاله وكأنه يتعرف على كل تفصييلة

لأول مرة، وعندما يتعلق الأمر بفعل أتاه الشيخ، أو موقف له فيه خبرة على من لا يمكن الوقوف بوجهه، أو براعة حققها أثناء صفقة، أو نبوءة أداها، وتحققت، كان بيدي الدهشة ويستفسر مستوثقا، عندئذ يعيد الشيخ ما بدأ روايته، يتمهل، يلوح بيده، بكثرة من القسم بالمقدسات، عندئذ يمد يده ملامسا أطراف عباخته، يرجوه ألا يحلف، إنه مصدقه.

إذ يكف عن الحديث، تكتسى ملامحه قسوة مفاجئة، وتحل في عينيه نظرات غير محددة الهدف، يدرك أن انصرافه واجب، وأن صمت الرجل سيطول، وأنه نسى وجوده على مقربة.

على مهل يخرج، يتراجع، لا يولى ظهره للرجل إلا عند الباب، بمجرد خطوه إلى الخارج، يومئ لمدير المكتب، السكرتيرة الإنجليزية، لكل من يلقاه أمامه، بينما يخف عنه عبه ثقيل، غير أنه لايفرغ من دور إلا ليتقمص دورا، إنه بيدي التودد فى التواضع الجم للمسئولين من أقارب الشيخ، يومئ لهذا ، ويحى ذاك بدون مناسبة، يعى ضرورة محو أى مشاعر معادية كامنة، أو حسد، أو تنافس خفى بسبب انفراده هذا الوقت كله بالشيخ، ومما أعد له العدة، وخشى جانبه.. الرجل الثانى، الشقيق الأصغر من بيده الحل والعقد.

إنه الشقيق الذكر الوحيد للشيخ، يصغره بأثنين وعشرين عاما، وما بينهما سبع إناث، لكل منهن مخصصات ثابتة، تصلها فى وقت معلوم، وهدايا، وسفرة فى شهور الصيف إلى بلد بعيد.

الشيخ دائم الاطلاع على احوالهن، فى نهاية كل اسبوع، ظهر الجمعة يلتقى فى قصره يصحبهن بأزواجهن وصغارهن، كثيرا ما يتغيب الشقيق الأصغر عن هذا اللقاء، إنه فى حركة دائمة، واجتماعات، حتى فى أيام عطلته، عابس دائما هو، لا يبتسم إلا نادرا، هو من يلتقى بالعملاء والخبراء، خاصة الأجانب، لا يمكن صرف أى مبلغ قليلا كان أو كثيرا إلا بصك أو إن مههور بتوقيعه، إنه كثير الأسفار، خاصة إلى فرنسا، وهولندا، وإيطاليا، ومصر، وتايلاند، أما فسحته فيمضيها فى النمسا، له فى كل عاصمة مسكن، وأشخاص على أهبة لتلبية ما يرغب، والسعى من أجله، وفى المطار الخاص بطائرات عليية القوم تقف طائرة معدة لتنقله حيثما شاء.

كان بينه وبين العاملين كلهم فاصلة، لا يقرب أحد، ولا يدنو منه شخص إلا بعد إذن، يكثر من إبداء الملاحظات القاسية، دائم المفاجأة لاقسام الشركة وإداراتها، لهذا خشية دائمة، وحرص على إبداء الاحترام الزائد فى حضوره، وخلال السنوات الخمس الماضية أسمعته الكلام القاسى، وكثيرا ما رد إليه بعض ما صاغه من مواد دعاية طالبا إعادة كتابتها من جديد، مرة بحجة غلظة الأسلوب، ومرة لضرورة الاختصار، أو مراعاة الجهة الموجه إليها الخطاب، وفى كل الأحوال لم يجادله قط، كان يمثل، ويجتهد فى تلمس المطلوب منه، بالضبط حتى ينفذه تماما، بل كثيرا ما يجاهر بانتقاد نفسه ويؤكد أن ملاحظات سعادته نبهته إلى ما كان غائبا عنه، وأطلعت على ما

جهل، وأن لمساته أضافت إلى النصوص عمقا وجمالا، لم يكتف بالتصريح على مسمع منه، وإنما أيضا عند حضوره مجلسا يضم بعضا ممن ينقلون إليه ويحصون الكلمات والأنفاس.

خمس سنوات أتقن فيها مداراة مشاعره، وإقضاء ما يتردد داخله عن ملامحه، أو معالم وجهه، وإن ينتهي يومه، يخرج إلى الطريق، يولج مفتاح عربته، يصغى إلى المحرك، يدركه انحناء كأنه يتقيأ، تعب غامض، كربه يعتريه، وإن يلمح ولده قادمًا نحوه يود لو طرح كل ما مر به، ألا يستعيده حتى، يتطلع إلى ابنه، قبل أن يصعد إلى المقعد الخلفى يقبل رأسه، غير مسموح له بالجلوس إلى جواره، يشم شعره. قالت أمه منذ شهور أن رائحة ابنه هي رائحته، وأنها عندما تستند برأسها إلى وسادته الصغيرة فكأنها تستنشق رائحته هو التي تعرفها جيدا، تردد دهشة، ما أعجب الخلقة! لا يشعر بالراحة، إلا عند لمة الغداء، عندما يغلق باب البيت، ويصفو تماما إلى أسرته، إلى عالمه هذا الآمن، دائما إذ يعيد هناك، يعى أن مدته هنا محدودة، ومهما توالى السنون، فحتما وقته المنقضى في الشركة يدركه إنهاك، نذف ما لا يمكن استعادته مغادرها يوما.

عند نزوله أول مرة ظن أنه لو أثبت أن والده من أهالي تلك الديار فسوف يكتسب حقوقا تنأى به كغريب، تكون له الحرية المتاحة لناس البلد، يمكنه افتتاح مشروع صغير، أو يمارس

تجارة، لكم حز في نفسه أول زمنه هنا أن كفيله كان رجلا
أصله من سنغافورة ، لم يحصل على الجنسية إلا منذ سنوات
قريبة، غير أن فتح الحديث عن ماضى والده وأصله قد يثير
متاعب جمّة، أبسط ما سيواجه به، لماذا غاب أبوه هذه المدة؟
لماذا لم يعد؟ وقد يثير هذا أمورا بليت، وطال عمرها، كان
مقتنعا أن المدة منقضية حتما، وأنه عند حد معين يتم فيه
ادخار ما يؤمن أيام البنات والولد سيعود إلى مصر، إلى أيامه
التي تبدو له أحيانا وأعدة إن تخيلها قادمة، ومعززة إن
استعادها، ألم يفض في غياهب الليل إلى امرأته بضيقه أن
يكون له كفيل، حنقه ألا يمكنه مغادرة المدينة إلا بأذنه، حرصه
الأ يتركب أقل خطأ، أن يتحمل أى افتراء يتعرض له من
الصغير أو الكبير هنا، يقول لها إنه يعذر الحلبي، تحيطه
عندئذ تهدده كأنه وليدها، تقول له: فات الكثير، لم يتبق إلا
القليل، عندئذ يرحل إلى هذه اللحظات المرتقبة، عندما يدخل
على الشيخ الكبير، سيرتدى حلة جديدة، سيبدو فى هيئة
مختلفة، سيجلس أمامه، يصغى إليه، سيلحظ الشيخ بفطرتة،
بفراسته أن ثمة شيئا يخفيه عنه، يسأله، مالك اليوم؟، لن يخبره
مباشرة، إنما سيبدأ يشكره، إذ اتاح له الرجل الكريم فرصة
العمل، وأسبغ عليه من فيضه، وقربه منه حتى ليشعر تجاهه
وكانه ابن يواجه أباه، لكن... هنا سيتغير صوته، يتبدل
إيقاعه... الزمن له ضرورات وأحكام، ابنته الكبرى حصلت
على الإعدادية، لا بد أن تلتحق بإحدى مدارس مصر الثانوية،

تمهيدا للجامعة، طال عمره، كما أن والده بلغ من العمر عتيا، ولا بد أن يكون بجواره، رتب أموره في مصر، إذ أدخر مبلغا مناسباً، سيفتح مشروعاً صغيراً، مكتباً لنسخ الرسائل والخطابات، وتصوير المستندات بالطبع، هذا المبلغ المدخر نتيجة لفيضه، لكرمه...

سيتوقف عند هذا الحد، لأول مرة سينظر إلى الشيخ من خلال حدقتين مفتوحتين، غير هيابتين، ربما صمت الرجل، ربما حاول إقناعه بالبقاء، ربما طلب منه السعى لإقناع والده بالعودة، عندئذ يحصل على الجنسية، يمكنه العيش مع أولاده، ستكون لهم كافة الحقوق، السفر دون مساملة، الانتقال من مدينة إلى مدينة، يمكنه أن يبدأ أى نشاط تجارى لحسابه، والخروج بما يريد من نقود، ولن يمشى فى الطريق حريصاً على ألا يثير مشكلة أو يتحرش به أحد، أو ينادى عن الشرطة.

سيقول للشيخ إنه بذل المحاولة مع أبيه، لكنه أبى العودة، طبعاً لن يفصح عن الأسباب الكامنة عند والده، سيقتنع الشيخ، سيقربه منه يصفحه، وربما قبل جبينه، يستدعى مدير مكتبه، يطلب تسليم جواز السفر إليه، ربما يأمر له بمكافأة شخصية، وتسهيل إجراءات سفره.....

كثيراً ما تخيل هذا الموقف النهائى، رتب لحظاته فى مخيلته، وثبت بعض تفاصيله، فى لحظات ما قبل النوم، أو عند جلوسه، وحيداً إلى مكتبه أثر ملاحظة قاسية وجهها إليه

الشقيق الأصغر، أو تصرف بدأ منه فيه إقلال من شأنه، وحث منه، أو إهانة مباشرة أو غير علنية له، يعدل فى الحوار أو يغير من طريقة دخوله على الشيخ، أو نبرة صوته إذ يصرح بعزمه، ومرارا تخيل الطائرة إذ تولى مقدمتها تجاه ممر الإقلاع، لحظة مفارقة العجلات تلك اليايسة بالذات، تتوالى المرئيات تباعا، توغل الطائرة، ينظر من النافذة المستديرة إلى الأرض التى تنأى، أقصى ما رغبه أن يحدد بنفسه ساعة المغادرة، أوانها، لا أن يرغم عليها كما جرى!.

طوال العام الأخير كان يردد، أن ما فات أطول مما تبقى، ما سيأتى قريب، وما مضى بعيد، يكفى أن ما انقضى ذهب على خير، بعد شهور سيتسلم شقيقته التى دفع مقدمها منذ عامين، سيكون لهم بيت، بدلا من نزوله عند أم زوجته، اضطراره إلى مسابرة زوجها الذى لا يطاق، غتت، فضولى، لا يكف عن التلصص والنظر خفية، قالت امراته إنها كانت تسد ثقب الباب خشية منه، وعندما تخرج من الحمام مبلولة تجده واقفا بمفرده فى المر، وعيناه تفحان رغبة، كانت تخشاه! دائما صوته مرتفع، يمكن للماشى فى الطريق أن يسمعه، يتحدث عن مهاراته وتصرفاته المعيبة دائما، يخوض أحيانا فى السياسة يتوقف بين جملة وأخرى يستفسر عن ثمن قميص، أو نظارة، إذ يراه متأهبا للخروج، يهز رأسه، مبروك يا عم! يؤكد له أن القميص قديم، عندئذ يضحك غامزا بعينيه، فيه حاجة قديمة هناك؟.

عندما يأوى إلى الغرفة التي تفردها لهم حماته، لا يكف عن الذهاب والمجيء فى المر، والحديث بصوت أجش، فى الصباح يقترح الذهاب ليلا إلى أحد الفنادق للعشاء، ثم يشير إلى صدره، أنا الداعى!.

لم يتبق زمن طويل على تسلمه الشقة، سيكون بيتهم، بابه مغلق عليهم، أما الأولاد فسيتقلون إلى المدارس المصرية، فى نهاية العام القادم تنهى ابنته المرحلة الإعدادية، فى السنة ذاتها سيتم ابنه الدراسة الابتدائية، هذا مما ييسر الأمر، انتقالهما معا إلى المدارس المصرية، هذا ما خطط له، ما عمل على تحقيقه، مراعى امرأته، البنت والولد... لكن ما يدبره المرء شىء، وما يخفيه القدر شىء، وما يعمل له الإنسان قد تأتى بعكسه الأيام...

اليوم، فوجئ بالشقيق الأصغر يستدعيه، كثيرا ما استدعاه لمقابلته، وفى كل مرة يتوجس، يتأهل لسماع ملاحظة قاسية، الرجل لا يقربه، يضيق بتلك الدرجة من الخصوصية بينه وبين معالى الشيخ، دائما يبدى الجفوة، فى المصعد فكر، إنها المرة الأولى التى يستدعيه صباحا، اللهم اجعله خيرا!.

عندما دخل المكتب رآه واقفا، على مقربة منه مدير مكتبه الأمريكى، أو مستشاره، صفاته عديدة هنا، أيقن أن شرا يلوح، وأن أمرا كريها يوشك على الوقوع، بادره مستنكرا:

«إيش ما فعلته؟»

لهجة باترة، متوعدة، لفظ ضامر، لم يتح له فرصة التلقى،
للنطق..«ترسل مطبوعاتنا إلى دول كافرة؟»

اضطراب جلال بدأ...

«أنا؟»

لم ير إلا الأصبع النحيله متوعدا، منذرا.

«لا تكذب»

تابع...

«أمران حذرك منهما معالي الشيخ عند مجيئك، الكذب
والسرقة»..

قال إن ما فعله يعرض الشركة للخطر، والأدهى إذا تكشف
وجود جهة أجنبية، أو منظمة تخريبية، على أى حال التحقيق
سيتم، كل شئ سيتضح.

يضغط زرا مستديرا، يدخل أثنان من رجال أمن الشركة،
يتطلعان ناحيته مباشرة، كل شئ معد، مرتب، يفتح فمه ليتكلم،
لكن الشقيق الأصغر يمد يده..

«ما عندك قلّه للشركة...»

يتطلع الأمريكى صامتا، ملامحه صارمة، دون شيئا ما فى
الدفتر الذى يحمله، أحاطه الحارسان، يعرفهما، أحدهما
تونسى، الآخر تايلاندى، بادلهما التحية مرارا، لكن أصابعهما

قاسية حول ذراعيه، كأنهما لم يطالعا وجهه من قبل.

عند اقترابه من الباب صاح:

«والله العظيم لم أرسل».

يلكزه أحد الحارسين..

«هيا... هيا».

حجرة ضيقة، بدون منافذ، مليئة بصناديق من الورق المقوى، لم يستطع معرفة محتوياتها، تطبق عليه، لا تتيج إلا فراغا يسيرا يتحرك فيه، غير أن هوة مظلمة داخله تتسع شيئا فشيئا، بوغت، وما من فرصة للحوار، للإيضاح، للتوسل حتى.

فى تلك الغرفة بدأ أصعب زمنه، وأمر وقته، ماذا جرى؟ لم يشغله هذا بقدر ما أوجعه، وهمه أمر قد يبدو غريبا، يتعلق باللحظات القريبة باليوم نفسه.. من سيذهب إلى الولد ليرجع به إلى البيت؟ منذ سنوات لم يختل النظام، لم يتخلف عنه يوما، لم يطل عبر أسوار المدرسة إلا رآه فى انتظاره، من سيصعبه اليوم، من؟ سيقف الولد، سينظر عبر السور، لن يرى أباه، لن يلحاه قادما، سينصرف الأولاد، كل إلى العربية التى جىء بها إليه، إلى عربيات المدرسة، لكنه غير مشترك فيها، لا يعرف الطريق إلى البيت مع أنه قريب، سينصرف الأولاد كلهم، سيصبح فناء المدرسة خاويا، لن يتبقى إلا هوا.

إلى من سيلجأ؟ إلى البواب الهندى؟ مسكين، سيهدئه

البواب، سيريت عليه، ربما راق له، عندئذ.. إن قشعريرة تجتاحه، تزداد الهوة اتساعا، يستعيد سطورا قرأها عن اعتداء عمال أجانب على صبية صغار، القبض عليهم، اعترافاتهم، إذا كان الطفل من أهل البلاد تقطع عنق المغتصب، وإذا كان من أبناء الوافدين، أو الأجانب مثله، فريما لا تقبل الشرطة مجرد الإبلاغ عن الواقعة، يجز على أسنانه، يتخيل الإمساك بالولد عنوة، التغييرات الفزعة، ما سيتركه ذلك من آثار لا تمحى إذا بقى حيا يسعى إذا تركه البواب ولم يخفه إلى الأبد، إن حالة من الرثاء تنتابه، كأن النبا بلغه فعلا، كأن ما يتخيله تحقق.

وهنا وقع أمر غريب، لم يسمع به، ولم يسبق له، إذ غرز عرقه مع تعاضم خوفه، وتتابع دقات قلبه، ازداد تداخله فى بعضه، كأن قوة غامضة تدك ما بداخله دكا، موجبات غريبة تسرى عبر ظهره على حوافها قشعريرة، وفى البؤرة منها ألم ولذة مرغم عليها، لم يسع إليها، لا إلى استئثارها أو بعثها، قذف كما يقذف عند الجماع، بقى مذهولا منهكا، مرتبكا مدركا أن خلا عنده وقع، وأن شيئا مستعصيا على التلف خسر!

إنه وحيد، منقطع، لسبب ما فكر فى صديقى دراسته، من بقى على صحبتهما فى مصر، كأنه يستغيث بهما، إذ استدعيهما بالمخيلة، كأنه يناديهما، الأول ضابط خاض الحروب حتى وصل إلى رتبة العقيد، وآخر ما عرفه عنه أنه تقاعد، سيرته حسنة، أستاذ فى فنه، أما الثانى فطبيب لا يرد

اسمه إلا بالخير، والثناء الجميل من أهالى الجمالية، والباطنية وكفر الطماعين والزغارى، ذلك أنه نشأ فى أسرة فقيرة، أتم دراسته بكلية الطب بعد جهد جهيد، باعت أمه ماورثته من مصاغ قليل، ونحاس البيت، وأثاثه، وعملت فى البيوت غاسلة للثياب، وقضت الحوائج، وضنت باللقمة على نفسها، كانت تغسل جلبابها وتنتظره حتى يجف لترتيديه، ذاقت المر إلا أنها لم تقصر فى حاجة ابنها حتى أنهى تعليمه وتخرج طبيباً، كان من أوائل زملائه، وعندما التحق بعمله فى مستشفى القصر العينى طلب من أمه أن تبقى فى البيت، ألا تخرج إلى الأسواق، أن الأوان لتستريح، وعندما تسلم أول راتب مضى إلى سوق القماش فاشتري لأمه ما يسترها، هذا نذر قطعه على نفسه خلال ليالى الضنك والكد.

بعد سنة من تخرجه افتتح عيادة فى إحدى الحواري القديمة، حدد الكشف أجراً زهيدا وكثيرا مارده عند اتضاح أحوال المريض العسرة، بل يقدم الدواء مجانا مما يصله من عينات مجانية ترسلها إليه شركات الأدوية.

تيسر أمره، وراجت أحواله، واشترى أثاثا جديدا، وغسالة كهربائية وفرنا يعمل بالغاز بدلا من الموقد العتيق، لم يفارق الحى، إنما انتقل مع أمه للسكنى فى بيت فسيح مجاور، عن الحى القديم، واعتذر عن السفر، وكثر الثناء عليه، وطابت سيرته، لم ينقطع عن كتابة الخطابات إليه، وأرسال البطاقات

فى الأعياد، انهما أقرب صحبه فى هذا العالم، لكن ما أقصاهما، ما أبعدهما عنه، لا يقدر حتى على إسماعهما شكواه، على أن يخبرهما بما جرى وكان ! حتى إذا لقى الطبيب صاحبه، إذا تجسد أمامه واقفا، كيف سيفضى إليه بما حيره، كيف سيقول له إنه ساب على نفسه؟ تساعل بصوت مرتفع..

ماذا جرى لى؟

وبرغم غرابة مامر به، ما سمعه، ما عبره، فلم يشغله ذلك عن ولده، عن أسرته التى سيختل نظامها، كيف سيدبرون الأمر وما من مساعد أو معين؟ حتى الحساب فى المصرف باسمه، تابعين له فى جواز السفر، لا يمكنهم الرحيل إلا بصحبته، إلى من ستلجأ امرأته، ربما إلى هذه المرأة، زوجها مسئول فى مقر الإدارة، متزوج من ثلاث، إحداهن مصرية، ثرى، عنده مصنع لتعبئة الألبان، وآخر لاكياس البلاستيك، وثيق الصلة بالأمراء، بالنبلاء، بأصحاب المعالى من شيوخ الناحية، لم يره، لم يلتق به، لكنه سمع عنه من امرأته بعد زيارتها لزوجته المصرية، أخبرته بما عندها من مصاغ، من مجوهرات، من أزياء بلا حصر، تصور.. تشتترى فساتين ولا تلبسها تصورا!

إنها ذات صلة بامراتيه الآخرين، هل يمكن لهذا الرجل التدخل، هل يقبل؟ لكن.. مقابل ماذا؟ ما الذى يدفعه إلى خصومة محتملة، هل يكفى ضغط زوجته عليه.

وإذا رضى، وتحدى، وأصبح كفيلا له ولأسرته، ماذا
سيجرى بعد ذلك؟ يخشى أن يجرى له ما جرى للحلبى!
قام واقفا، إن خدرا لا يمكنه من فرد قدميه، يضطر إلى
الوقوف منحنيا. بقعة البلب لم تجف فى سرواله بعد.

إلى متى سيبقى هنا؟ أى أمر سيحل به؟ فى أى مكان
سيقضى ليلته؟ هنا.. أم فى دار التحقيق؟ أم فى السجن؟
السجون هنا تضم من لاحصر لهم، يلقون بهم بدون محاكمة
فى انتظار عفو محتمل، ربما يصدر أو لا.

كم مضى حتى فتح الباب؟ لم يدر بالضبط، نظر فى
الساعة، دهش، أهذا الوقت كله ساعتان ونصف لا غير؟ باق
ساعة على انصراف الولد، لو يتركونه ليمضى إليه، لو برفقة
حرس، إنه فى قرار سحيق، متأهب للارتقاء أمام الشقيق
الأصغر، فقط ليصطحب ابنه من المدرسة إلى البيت، ثم
يمضون به إلى أى جهة، إلى أى مكان، حتى لو طلبوا منه أن
يلزم بيته، إلى أين المفر؟ مثله لا يمكنه الانتقال من مكان إلى
مكان إلا بإذن من كفيله، بتصريح..

اقتاده الحارسان، اتجها به إلى غرفة الشقيق الأصغر
مباشرة، رآه يقرأ أوراقا، مرتديا نظارة طبية للقراءة، بدأ
مستغرقا، أو هكذا حاول أن يبدو، دقائق جهمة، ولسانه معقود
فى فمه..

«أه.. جئتم به؟»

تراجع إلى الورا قليلا، لمس أطراف أنامله بفتاحة خطابات،
أومأ، مدركا، متوعدا، فى هذه اللحظة، فى خضم ضيقه،
وخوفه، وارتبأكه، فاض قلبه بكره، وحنين معا، رنا من مشارف
البكاء عندما تذكر الناحية المؤدية إلى بيت صاحبه الطبيب فى
تلك الحارة النائية، التى لا يدرى، هل سيراهما أم لا؟ لكم بدت
بعيدة، عزيزة المنال، فى هذا المكتب الفسيح العبق بعطور خفية،
هبت عليه كل الروائح التى يمكن أن يستنشقها عند مروره
المؤدى، تذكر العجوز المتقدم فى العمر، المتكى على عصاه أثناء
قعه أمام دكانه الصغير الذى لا يبيع فيه إلا السجائر
والطوى، تذكر أقراصها الصغيرة وسنواته المولية فكاد ينوح..

- «تعرف ما فعلت؟»

- «يا...»

- «أسكت، جرمك كبير، خطير..»

قال: إن ما أقدم عليه عقابه الوحيد الردع، السجن.. هذا
يمس أمن البلاد ومقدساتها، يعرض الرجل الذى أحسن إليه
للخطر، لابد أنه مدفوع من أحد الحاقدين، لكن ليفهم جيدا هو
ومن يقف وراءه أن المؤسسة أقوى، و أقوى.. هل يذكر ما قاله
معالى الشيخ عند مجيئك لترتقى؟ ألم يقل، لا تسرق ولا
تكذب، وأنت بما فعلت ارتكبت ما هو أشنع، الخيانة.

تعال هنا..

خطا إلى الأمام، يحيطه رجلا الامن، لوح بفتاحة الورق،
ابتعدا عنه، قال إنه من الممكن إرساله الآن إلى حيث لا يمكن
لقوة في الدنيا أن تعرف مكانه، ولكن..

مع لكن هذه استنفرت حواسه، عند ولوجه الغرفة يتساءل
عما ينتظره، وعندما بدأ يتكلم خيل إليه أن هذه التهديدات لن
تتوقف، إنه لم يتوقع قط هذه الكلمة «لكن»، إن دقات قلبه تهرع
كل منها في أثر الأخرى، كله مستنفر، باله يقظه متهييء لما
سيقال، لن ينسى أبدا اللهجة التي قيلت بها «لكن» هذه، إنها
حد، فاصلة.. نهاية وبداية.

قال إن معالي الشيخ عندما علم بالأمر غضب، أشد ما
يثيره خيانة الأمانة وتبديد الوديعة، فما البال وقد أولاه أكثر من
غيره ثقة، ومجالسة كادت أن تكون صحبة، لولا لطف الله.

قال إنه طالما حذر معالي الشيخ من الغرباء، لكن الرجل
طيب القلب. هذا القلب الكبير، الطيب، تدخل منذ لحظات، قال:
اطردوه فقط.

قال مختتما كلامه:

معالي الشيخ أنقذك من السجن، ربما مما هو أخطر، لكن
كفالتك أنتهت.

تعال..

وقع كافة ما قدم إليه من أوراق، لم يتح له التانى للقراءة،
لمح بسرعة سطورا تفيد أنه تسلم كافة مستحقاته، لم يدر ماذا
تحوى الأوراق الأخرى؟

مضى به رجلا الأمن ليتسلما ما فى مكتبه من أوراق، قلبا جيوب سترته، تحسسا جسده، وعندما تركاه بمفرده أمام مدخل المبنى تلفت حوله غير مصدق غير واثق، إلا أنه هرع إلى عربته موزعا، متفرقا، به فرح غريب لم يعهد مثله، لأنه أفلت، لأن نزوة الغمة لم تمتد، لأنه ماض إلى ابنه، لم يتأخر عن مواعده اليومي، عنده أيضا مهانة بالغة لم يتعرض لها من قبل، لا يقدر على ردها، خجل لتخيله ابنته الكبرى واقفة علي ما مر به، خوف غامض مما ينتظره، حيرة، اضطراب..

كيف سيرتب أمور أولاده؟ والمدارس، يتضاؤل فرحه، الوضع المحدق انتهى ليواجه المتاعب الممتدة، يستقر به انكسار بغيض، وشعور بقلّة الحيلة، وضعف القدرة.

إذ يستعيد ما جرى له عندما ساب على نفسه، وكأنه فقد عنصرا من صميم تكوينه، انفرد شيء من عقده، عكارة ثقيلة عنده حتى أنه لم يدر كيف وصل إلى المدرسة، عندما رأى البواب اجتاحه كره، كأنه أتى بالفعل الذى تخيله، إنه فى حاجة إلى أعوام لكى يفهم، حتى يستوعب ما جرى له، لا يدرى ماذا يجب أن يقوم به، أى إجراءات ستطبق عليه غدا؟ الغد فقط متاح أمامه، بعده يمكن رميه فى السجن، والسجن هنا رهيب مفرع.

هو بعد هذا اليوم غير قبله..

تقوم امرأته، إنه وحيد، خرجت لتهدىء الأولاد، إن فرعا

يدركهما، يطبق عليه صمت ما قبل المغيب، أصوات باهته قادمة من بعيد، إنه غريب، فى سجن وإن تباعدت جدرانه، بمنأى عن أى مساعدة، مقطوع، مجتث، إنه مظلوم، ربما تدارك معالى الشيخ الأمر، ربما يرق قلبه، يرسل إليه، يفاجأ بمن يجله، يطرق باب بيته، يطلب منه أن يصحبه، يمضى معه بعد تردد، تقطع العربية طريقاً طويلاً، تتوقف أمام بيت فى أقصى الضاحية محاط بسور، لأول مرة يدخله، يبقى مدة منتظراً، وعندما يجيئه الإذن يعبر الباب إلى غرفة فسيحة رصت الحشايا بمحاذاة الجدران، فى المواجهة يجلس معالى الشيخ، يبدو أقل حجماً بدون عباءة، يشير إليه، يطلب منه أن يقعد، يتردد، إلا أن معاليه يقول مباشرة بدون لف، بصراحة بدوية: يا بنى نحن غلطنا فى حقلك. ثم يقول، فى الأمر دسييسة، يصيح مناديا شقيقه الأصغر، يجىء متباطئاً.. يأمره بالاعتذار، إذ يلمح ترده ينهره، لكنه يقوم واقفاً، يتقدم من الأخ الأصغر، لا يريد أن يصل إلى لحظة الاعتذار، حتى لا يتسرب إليه أى شعور بالمهانة، حتى لا ينقلب عليه عند أول سانحة، يضافحه، بينما تذرف عيناه دموعاً ذات معنى، أخيراً، تثبت برأته، ومعالى الشيخ يعتذر له، بل يدعو ليتناول لقمة معه.

غير أنه يفاجأ بامرأته تقف أمامه، متأهبة، ترتدى ثوباً حريرياً اشتراه عندما حصل على إذن ورحل إلى العاصمة منذ ستة شهور، ملامحها صارمة، تتناول العباءة السوداء، فى هذه اللحظة لم يفته رغم إنهاكه وحزنه ملاحظة أمرين وإن تباعداً،

ذلك أنه فوجئ بتالق جمالها، فكأنه يراها بعد غيبة. أما الثانى فبداية أمر لم يبد مضمونه بعد، يعنى أن المبادرة تنتقل بدرجة ما إليها، استوثق ذلك عندما أصغى إلى إيقاع صوتها شبه الأمر..

«قم معى...»

تقترب، تقعد عند حافة السرير محاذرة أن يتكرمش ثوبها، تقول إنها فكرت فيما جرى، مهلة أربع وعشرين ساعة ظلم، يجب ألا يستسلما، ألا يعنى هذا تقصيرهما فى حق البنت والولد.. وإذا وجد من يمكن اللجوء إليه ويتقاعسان عن ذلك فذنبهما هنا أعظم، لاحظ يديها المبسوطتين، تشيران فى هيئة محددة، تعرف ما تقول، قولها فصل، هنا أيقن بما انتابه عند ظهورها المفاجئ، تقدمها لتمسك بالزمام، حام داخله خوف لم يعهده غير أنه تساءل عما يمكن عمله؟

قالت إنها ستذهب إلى امرأة هذا الرجل، إنه موظف كبير فى الهيئة التى تدير شئون المدينة، لكن المقصود ليس هو، إنه وثيق الصلة، بل إنه النديم الحقيقى لأمير الناحية، وينوب عنه فى تدبير عديد من المصارف والشركات، تقول:

لحسن الحظ لم أقطع معها، أودها من حين إلى حين..

ثم تقول:

لا تنس أننا قفلنا على أنفسنا، لم نسع إلى معرفة أحد..

لم يصحبها عندما مضت بمفردها إلى داخل البيت مرتفع السور، قبع خلف مقود العربة، ليل ثقيل، تباعد البيوت وترامى الخلاء الصحراوي الممتد ما وراء المدينة يزيد وحشة، هل لاح في صوت امرأته احتجاج خفي، أو نقد ما؟ لا يدري ما تقوله الآن، لكنه قلق عليها، نسيت أنه نصحها بالابتعاد عن زوجة الرجل خشية وحذرا.

منذ عام أسرت إليه أمرا، إحداهن شابة من هنا تعرفت بها، زارتها مرارا في البيت، في كل مرة تجيئها بهدية منتقاة، حقيبية جلدية، عطر باريسى، خاتم من ماس، لم تدخل عليها خالية اليدين قط، حتى حارت، كيف ترد على هداياها تلك.

في أحد الايام فوجئت بها تحمل صندوقا يحوى ملابس داخلية حريرية، راحت تستعرض ما فيه على مهل، تقلب القطع متمهلة، لمحت في عينيها لعبا من نظرات أرجفها، أما شفتاها فانفجرتا، قالت بصوت تتحفز فيه الرغبة، إنها عندما رأت هذا الطقم في السوق أدركت أنه صنع من أجلها، تخيلته على جسدها، فأصرت أن تهديه لها، ثم قالت: ممكن أشوفه عليك؟

تطلعت إليها صامتا، لا تدري أى رد يمكنها النطق به؟ سمعت عن ذلك، عن انتشار مثل هذه العلاقات، لكن لم تتخيل دنو الأمر منها يوما، كررت المرأة:

ممكن أتفرج؟

قامت واقفة، على شفتيها المتباعدتين المتمدتين ابتساما تشجيع، توسطت الحجرة، اقتربت منها، فجأة شلحت ثوبها إلى أعلى، بان فخذاها، كانا نحيلين، سمرابين، قالت إنها تردى مثله، ثم قالت بلهجة مصرية، اتقنتها من فرجتها على الأفلام:

«قومي وريني.. بتتقلّي على حبيبتك؟»

خافت، لم يمر بها مثل ذلك، قالت يومها إن ما تدعوه إليه حرام، ثم قامت، خرجت من الغرفة، مضت إلى صوان حاجاتها، ردت إليها هداياها، وقعدت صامتة لا تنظر إليها، لا تلفظ كلمة، حتى بدا ارتباكها.

قبل اجتيازها الباب، قالت كلمة واحدة، أودعتها حنقها ورغبتها المحبطة:

«غبية!»

أهى تلك التي تجلس إليها امرأته الآن؟ مثلها؟ على أية حال هن نساء، تلك امرأة وهذه امرأة، يتوقف لحظة، اليس فيما خطر له لا مبالاة، لا يعرف إلى من تجلس امرأته الآن، بأى لهجة تقص ما جرى، وبأى لهجة سترجو؟

الليل يوغل، والفراغ حوله سحيق، هل سترجع لتخبره بكفيل جديد؟

هل ستأتى وتجلس بجواره صامتة شأنها عندما تنجز أمرا ما، تؤجل الإخبار به دقائق.

هل سيأتى الأسبوع القادم وهم هنا، أم مبعدون، أم هو فى ناحية وأهله فى ناحية.

هل تنجح، ويكفله سيد جديد، رجل لا يعرفه، يحيط به ويأموره، عندئذ، ربما يجرى له ما جرى للحلبى! الحلبي الذي لن ينسى نظرة عينيه أبدا.

وفيما يلي ما جرى للحلبي

٤٤٥

.. وأمره ذائع، معروف في تلك المدينة، جاء من حلب، وكان هادئا، لا يختلط بالخلق، في حاله، منطو على أمره، عرف بمهارته الفائقة في صنع صنفين: البقلاوة، والكنافة بالجبن. عمل عند رجل من أهل البلاد، موظف في دائرة الأوقاف، إلا أنه يستثمر ماله في أمور شتى، فمن ذلك مصنع لتعليب التمر وحشوه باللوز، ومتجر لبيع الأدوات الكهربائية، ودكان لبيع الحقايب بكافة أنواعها، وآخر لبيع الملابس النسائية، ومصنع صغير يتبعه معرض للحلوى، وفي هذا عمل الحلبي، ومنه خرجت الحلوى التي راج أمرها، حتى قيل إن الرجل إذا أراد التقرب من امراته حمل إليها صينية كنافة أو بقلاوة من صنع الحلبي!

وذات عصر أرسل أمير الناحية في طلبه، ليعد الصنفين،
يوماً أظهر الحلبي مكنون براعته، وخلاصة قدرته، حتى
تسأل الضيوف عن مصدر الحلويات الشهية، طبيعة الرائحة،
وصانعها، وقيل إنهم مسحوا ما تبقى في الصواني، ولحسوا
أصابعهم حتى لم تعد بحاجة إلى تجفيف أو غسل، فلما علم
صاحب المصنع ذلك قلق واضطرب أمره، إذ خشى أن يرسل
الأمير في طلب الحلبي بمطبخه، أو يقدم أحد المقرين منه على
افتتاح مصنع يتولى إدارته فينافسه ويطفئ عليه، ويقال إنه
كره اقتراب عامل عنده، تابع له، من الأمير.

المهم.. استدعاه، وطلب منه تسليم ما عنده، وإرجاع ما في
أمانته، طلب منه مغادرة البلاد كلها خلال ثلاثة أيام، لا تزيد
بساعة واحدة، وإلا تعرض للمطاردة والملاحقة والسجن، أبلغ
الشرطة بإنهاء كفالاته له.

فوجئ الحلبي، وكان قد رتب أموره، إذ استأجر بيتاً من
ثلاث حجرات، واشترى بالدين فرشاً وأدوات مطبخ، وجهاز
تلفزيون ملون بعد قدوم عائلته، كانت امرأته حلبية، بيضاء،
جميلة، ساهمة الحضور، عذبة الصوت، في عينيها ألق ومعنى،
أما ابنته فتنبئ ملامحها بسعى أنثى مكتملة على الرغم من
عمرها الذي لم يتجاوز عشرة أعوام، العجيب أن شقيقها الذي
يصغرها بعامين كان ينافسها في جمال ملامحها، ونعومة
شعرها، كذا غزارته، وأنس القسمات، كان رشيقاً، أطول ممن

يماثلونهم عمرا، وقاد البديهة، سريع الحفظ، طويل التأمل، مشهود له بالفطنة، والتفوق على أقرانه فى المدرسة، ومعظمهم من أهل هذه البلاد.

كان الحلبي يردد دائما أن روحه فى هذا الولد، كان يحمله بين يديه عندما كان طفلا، يغير لفائفه، ويطعمه، ويصبر عليه حتى يتم رضاعته من زجاجة اللبن.

كان يقول إنه عاش هاجبا، ينتقل من موضع إلى موضع، ومن ديار إلى ديار. وإنه لم يحل بنفسه إلا بعد مجيء ابنه. حتى كف عن السهر فى المقاهى، صار أحنى رصه حنقا يطوق باب بيته ويخلو إلى أهله، حتى أنه كان يحبو على أربع ويحملهم أوقاتا فوق ظهره، يدايهم ويناغيهم.

كان أشد ما يعول همه، ويقض طمأنينته، أن يموت فجأة.. كان يصلى ويردد دائما أنه يرجو خالقه إطالة عمره حتى اليوم الذى يدخل جيب ولده أول قرش من عرقه، عندئذ يمكنه إغماض عينيه مطمئنا، لكن صغر البنات والولد، وطول السنوات المرتقبة، وبعد المسافة، وعسر الأحوال، واعتماده واتكاله على المهارة يديه، وحسن صنعتة، مع انعدام الضمان، وانتفاء الأمان، لو أصابه وهن، لو كف يوما واحدا عن العمل لما تقاضى أجرا، هذا كله جعله يفكر فى تكوين حاجة للزمن. مبلغ يقى عائلته شر الحاجة إذا قضى نحبه فجأة، يمكنه من افتتاح محل ولو صغيرا، دكانا يقف فيه لبييع الكنافة المحشوة

بالجن، تخصصه الأول، يمكن لأمرته أو ابنه الوقوف فيه بعده، مثل هذا يحتاج قدرا من المال. عمله باليومية لا يمكنه من ادخاره، لهذا بذل الجهد والسعاية حتى جاء هذه الديار.

هنا كف عن بعض عاداته التي لزمها في بر الشام، من ذلك صحبة ابنه في أوقات فراغه، عرف عنه ذلك، لم يكن يرى في شوارع الشام إلا ويده ممسكة بيد ولده.

كف عن ذلك هنا بعد أن سمع ما يتردد إن همسا أو علنا خاصة بعد صلاة الجمعة عندما يبث المذيع أنباء تنفيذ أحكام الإعدام، في رجال اغتصبوا فتيانا أو سرقوا، كان يتحاشى المرور أمام الحجر المستطيل عند الكنيسة الأيسر خارج المسجد الكبير، هنا كان يتم تنفيذ أحكام الإعدام جهارا، علنا، وبالسيف، كان معظم المتهمين من الغرياء، أسويين، أو عربا من أقطار أخرى، وقلة نادرة من أهل البلد.

كان إذ يكتشف أن الضرورة قادتته إلى هذا الموضع يولى مسرعا، أو يفسح الخطى، مرة لمح الحجر الذي تسقط فوقه رأس الضحية، وخيل له أنه رأى آثار دماء، فهل جال عنده، أو خطر له أنه يوما سيمثل هنا؟.

لا أدري، ولا يمكنني الجزم، ولكنه تجنب الكافة، ولم يخالط الخلق، وحرص على مصاحبة ابنه حتى باب المدرسة، وخلال مشيهما معا يصره وصرح له بما يمكن أن يلقاه إذ يتعرض له، كان لا يهدأ إلا بعد عودته في نهاية يوم عمله، وإغلاقه الباب وانفراده بأسرته، كان لا يجد إنسانيته إلا عند اجتماعه بهم، أنسهم به.

وعندما فوجئ بصاحب المصنع يرفع عنه كفالته له، ويطلب منه تسليم أمره، وإنهاء حاله، والرحيل، أصابته مسغبة، أو شك أن يلطم، أن ينوح كالنساء.

جرى هنا، وهرع إلى هناك، سعى إلى دار الإمارة، قابله عجوز ممن يدبرون شئون الأمير، يصحبونه في روحاته أو غدواته، ويقفون صامتين عندما يتناول طعامه، ويشخصون إليه عندما يبدأ اللقاء بضيوفه، تذكره الرجل برغم تقدمه في السن، أشار بأصبعه مقطبا عينيه:

«أنت الحلبي «حق» الكنافة؟»

أوما مجيبا، هو.. نعم، هو بعينه.

أشار العجوز بيده، هذا يعني الأمر بالكف، مع أنه في حاجة إلى النطق، إلى الشرح بعد أن لحقه حال صعب، إلا أن العجوز قال ما طمأنه، لم يخاطبه مباشرة، إنما صاح مناديا أحد الحراس:

«أذهب مع هذا، منذ الآن هو في كفالتي.....»

صحبه من له شأن عند الناس هنا، وعندما وقف صاحب المصنع على الأمر، بدا اضطرابه، مع أنه منيع الرتبة، رفيع الوظيفة، إلا أنه ليس مقربا، ورسول الإمارة لا يمثل نفسه، إنما ينوب عن يمشى في ركابه، ويتقدم صفوفه، الأمير نفسه، لهذا بدا صوته أمرا، عندما طلب تسليمه جواز السفر، وأوراق الكفالة، والتوقيع على ما يفيد ويوضح..

منذ هذه اللحظة صار الحلبي إلى كفالة العجوز، كان رجلا نحيلًا ذا لحية مدببة، متوسط الطول، يقول إنه تجاوز الثمانين، لكنه قادر على إشباع امرأة شابة مجربة.. والسرف في البصل.. إنه يفطر يوميًا على الريق رطلا من البصل المشوي، فقط لا غير.. كان المقربون منه يؤكدون ذلك، مع أن علامات الشيخوخة جلية في ملامحه، إذ يمسك فنجان القهوة المرة ترتعش يده في الطريق إلى فمه حتى تكاد القهوة تنسكب، لكنه إذ يمشى يدب ساعيا، وإذا غضب يسمع صوته من بعيد.

غير أنه لم يكن مثل الكفيل الأول، بدأ أشد صرامة، شديد الفضول، ثقيل الوطأة، طلب من الحلبي ألا يلبي أى طلب - ولو خاصا - لصنع الكنافة أو البقلاوة، وأن يخبره مقدما بأى منطقة يتوجه إليها للمكث أطول من ست ساعات حتى لو داخل المدينة، وأن يوضح له الأماكن التى يرتادها، وتلك التى اعتاد المضى إليها، وألا يغادر المكان المخصص له داخل مطبخ القصر، وأن يسلمه هو شخصا صوانى الكنافة والبقلاوة، ليس إلى أى إنسان غيره، مفهوم؟، لو نمى إليه أنه أهدى مجرد قطعة صغيرة إلى أى شخص ولو كان الأمير نفسه سيلحق به أذى لا يمكن لمخلوق تصوره..

اضطر الحلبي أن يقسم مرات مؤكدا أنه لا يسهر إلا مع أسرته، ولا يتادم إلا ابنته وامراته.

أبدى العجوز اهتماما، متى تزوج؟ هنا أو فى حلب؟ من أكبر؟ الابن أو البنت؟ فى أى مدرسة؟ هل أمهما شامية أو من بلد آخر؟ إنن.. لابد أن الأولاد فى جمال القمر! الحق أن الحلبي تحرك فى نفسه كره للرجل، وقلق ليس بالهين، خاصة بعد تكرار الأسئلة عن الأهل، إلى أن حل يوم قال فيه العجوز أنه سيجيء إلى البيت للتأكد بنفسه من كل كلمة قالها، سيمر عليه فى الغد ليشرب عنده قهوة.

وجد الحلبي وجدا شديدا، وصار لا يدري ما يفعل، فهو لا يقدر على رد طلب الرجل الذى يبسط عليه حمايته، ويمسك بمقدراته، كما أنه لم يسمع بمثل ذلك، فكلمات العجوز بقدر ما تبدو حاسمة، موجزة، أمرة، بقدر ما تخفى معانى لم يستطع الوقوف عليها، وجلاء غموضها.

على أى حال.. كظم ولم يظهر، وبذل الجهد فى الإعداد لاستقبال العجوز، لم يخبر إنسانا بالزيارة، لا من زملائه ولا من الجيران، وعندما حانت اللحظة التى أعد لها العدة، تمنى لو ولت وانتهت بسرعة، دخلت امرأته حبيبة، خجولة، سافرة، تغطى رأسها طرحة بيضاء لا غير، تطلع إليها العجوز متفحصا، وعندما توارت الابنة الصغيرة وراء أمها، مد يده بجنيه ذهبى، ولما لم تلح بادرة تطلع إلى الأب، فأمر بدوره ابنته:

«خذى... خذى من سيدك»

فأخذت البنت الجنيه وعضته بين شفثيها، وعندما دخل
الولد وتقدم ماداً يده، مصافحاً، مبدياً الجراءة، وكأنه يؤكد
تقدمه فى العمر، وتجاوزة طور الطفولة، ردد العجوز:

– «ما شاء الله.. ما شاء الله.. كم عمره..؟»

فقال الحلبي:

– «.. عشر سنوات..»

ردد الرجل:

– «ما شاء الله، ما شاء الله..»

أعطاه جنيهاً آخر من الذهب، وعندما انصرف بعد مقدار
ساعة، قعد الحلبي ورأسه بين يديه، لم يكن طوال الزيارة
مطمئناً، من طرف خفى كان يرصد نظرات العجوز، كلماته
الثقيلة، البغيضة، إلا أن الزيارة لم تكن الأخيرة، إذ قال الرجل
أنه أنس راحة عنده، وأنه منذ سنوات لم يرتح كما ارتاح فى
هذا البيت، لأن الناس لم تعد أحوالها كما كانت فى الزمن
القديم.

صار يتردد بدون أن يخبر الحلبي مقدماً، يدخل ويقعد،
ويطلب قهوة مرة، ضغط الحلبي أموره، ثم أتى الرجل بهدية
إلى امرأته، علبة قطيفة زرقاء على هيئة قلب، تحوى قلادة من
الذهب المطعم بالفيروز، والمرجان، وقرطاً وخاتماً وسواراً، قال
العجوز:

– «يا ابنتى أنا مثل والدك.. زوجك رجل طيب..»

وبرغم ضيق الحلبى وكتمانه الغيظ خوف الأذى، إلا أنه ارتاح لكلمات الرجل، وعلل النفس أنه يلقى فى بيته راحة، ربما لروح الأسرة، وحسن سمعتهم، وبعدهم عن المشاكل، ونقاء صفحته، بل إنه تفاضى عن مجيء امرأته وقعاها سافرة بدون غطاء للرأس حتى، مرتدية الروب الحريرى الخفيف، الذى كان يكشف بوضوح قاطع حواف سروالها، واستدارات ردفها الممتلئين عند القيام، وعند القعود، لم يعد يتعجل انصرافها، خاصة أن العجوز لم بيد منه تجاهها ما يشين، كان يتصدر الحجرة متكئا على الحشية، بعد أن يخلع عباءته، وغترته.

ويبدو أن الحلبى استكان إلى حد ما ، إذا كانت تلك هى الحدود فلا ضير ولا بأس.. وإن كانت مكروهة.

هل لاحظ الحلبى شيئا غير عادى فى تلك الآونة؟.

لا يمكننى الجزم، ولكن تذكر امرأته أن توترا مضاعفا حط عليه عندما صافح العجوز ابنه أول مرة، واحتفاظه بعض الوقت بيد الغلام، بين يديه، النحيلتين، بارزتى العروق، المقدودتين، كذلك عندما أصر العجوز على إلقاء بعض الأسئلة عليه لاختبار ذكاء الولد، وطلبه سماع بعض الآيات القرآنية التى يحفظها عن ظهر قلبه، واستحسانه للنطق والتلاوة، حتى أنه لم يكف بالطبطة على كتف الغلام، إنما قبله ودعا له..

صحيح أن الحلبي كان يخشى على امرأته.. ولكن خوفه على الولد بدأ أكثر. والحق أنني لا أقدر على جلاء هذه النقطة، فربما شعر من أول لحظة لكنه أضمّر.. وكنتم، ولم يسفر إلى أن حل هذا اليوم وكان فيه ما كان..

إذ رجع الحلبي من السوق، ليجد العجوز.. سأل:

كم مضى عليه وهو قاعد مع الولد؟

قالت امرأته: ساعة أو أكثر. عندما دخل وجده يسلم على ابنه وابتسامته تقطر رغبة ولزوجة، بينما يطرق الصغير مضطرباً، محاولاً الابتعاد بجسده عن الملامسة.

قال العجوز للحلبي إنه لم ير تلميذاً في مثل ذكائه، من الخسارة ألا يتلقى قدراً من التعليم الراقى المخصوص، في داره فرصة، لماذا لا يجيء ويقوم عنده، سيكفل أموره تماماً، لن يعول هما له، سيعيش مع أحفاده لا ينقصه شيء، سيرعاه بنفسه...

لم يكن العجوز يقترح، إنما بدأ كمن قرر أمراً، أو يقضى بحسم وضع، مد يده مداعباً الغلام الذي نفر فجأة متوارياً وراء أبيه، خرجاً معاً، بكى، وتحت إلحاح أبيه أفضى إليه بما جرى وكان، أخبر عن يد الرجل التي ملست عليه، وأندست بين فخذه، عن الذعر الذي انتابه عندما طلب منه أن يبرز كل منهما عضوه، حتى يرى أيهما أطول؟ أصغى الحلبي مذعوراً، ومن داخله طلع إلى دماغه غلب زمن طويل، حتى أنه اعتم فجأة.

لم يدم الأمر طويلا، من المطيخ جاء بالسكين الحامية، إلى الغرفة دخل، ثم تقلبت الحكاية فى البلاد، برغم أن تفاصيلها لم تنتشر قط، وقيل بين ما قيل إنهم نوعوا العذاب للحلبى، وإن شرطيا أسود اغتصب الغلام على مرأى من أبيه، وأنه سمع بأذنيه ابنه، يصرخ من ألم اللواط به، وهذا أصعب عليه من اقتياده موثقا إلى الميدان الكبير عقب صلاة الجمعة، وتمزيق ياقته، ويسط عنقه قبل أن ينخسه الجراد بالسيف فى ضلوعه.

فى هذه اللحظة بالذات التقت عيناه بعينى الشاب الذى قصصنا جانبا مما جرى له فى الحكاية السابقة.

عينا الحلبي فى آخر لحظاته ألحقا عليه أثناء انتظاره لامراته فى السيارة وعيشة المساء تغمره، عينان مزورتان، شاخصتان، جامدتان أو مرعوبتان.. لا يدري، ما شغله يومها، وحتى ما تردد أثناء وقفته هذه، كيف رآه الحلبي؟ ويقدر ما خشى هذه النظرة، بقدر محاولته استرجاعها.

على أى حال، الأمر يطول شرحه ، ولكن المؤكد، المقطوع به، أن الحلبي لم يعد قط إلى بلده، قضى غريبا، أما الشاب هذا فلم أقف على أحواله فيما تلا ذلك.

كان ممكنا أن تمضى أحوالهما بخلاف ما جرى لو أن حادثا تقدم عن مواعده، لو أن ترتيبا بسيطا أخلف، وقبل ذلك.. لو أن الظروف لم تكن تلك الظروف.

ولكن.. ما وقع.. وقع، وما سيجرى، سيجرى، وما شاء الله
كان، وقد كان ممكنا لى أن أمضى فى ذكر ما جرى لكثيرين،
عرفتهم.. إما قبل وإما اثناء وإما بعد هذا العقد الغريب،
المضطرب، أقصد زمن السبعينيات، لكننى أخاف الإطالة،
وأخشى الإملال.

لهذا رأيت الوقوف عند هذا الحد، والاكتفاء بذلك القدر من
رسالتى التى أوجهها إلى من أجهل، إلى من لن ألتقى به، إلى
من لم يعش زمنى، إلى من لم يلقه حظه الطيب فى وقتى.
ولكن فى البدء ليس لنا خيار، كذا فى الانتهاء.

فما شاء الله كان، منه نستمد العون، فسبحان من لا يدركه
التبديل، العليم بأحوال العباد، هو حسبنا ونعم الوكيل...
كان الفراغ من التحرير ليلة الثلاثاء أول أيام شوال، عيد
الفطر المبارك، عام ألف وأربعمائة وثمانية للهجرة. الموافق ألفا
وتسعمائة وثمانية وثمانين للميلاد...

والسلام

تمت

« رَبِّ تَمِّمْ بِخَيْرٍ »

رسالة في الصباية والوجد

أما بعد،

اعلم يا أخى الحميم، أيدك البارئ الكريم بمدد من عنده،
أننى ما أقدمت على البوح لك أنت إلا بعد انقضاء مدى، وما
شرعت إلا بعد تعاقب أحوال شتى صعب على كتمانها، اقترن
فيها قربى ببعدى، واتصالى بانفصالى، وخلف أمرى بتوقيفه،
وتبادلت جهاتى المواقع، حتى قوى على الشك أن ما جرى،
جرى، خاصة مع تزايد الحضور بغير كينونة ملموسة، وتكرار
الظهور بغير معاينة محسوسة، بعد انزواء جل العلاقة فى
مجرد عبق خفى مستور بالحجب، فلو أفضيت بما عندى بعد
اكتمال الأوبة، واستقرار العودة، لو لمحت إلى ما توالى على،
ما صدقنى الأقربون، حتى وقع عندى شتات بين إقبالى على
من أصل أسبابى بهم، لأبوح وأسفر، وتوقى إلى النأى
والصمت وطى صحفى، هذا ما غلب على، خاصة مع بعد
الشقة، وانتفاء المحط، وشحط الرؤية، وانعدام المجاوبة على
رسائلى. وزوال معالم الصورة الوحيدة عندى، ووهن دقات

الساعة الخزفية التي أودعتها بين يدي. والأصعب الأدهى،
انتفاء الإمكانية، أحيانا تهدئني الرؤى، غير أنها تتبدد، فلا
يتبقى إلا قفر المفازة، وغول الطريق، فأنثنى ململما فؤادي
طاويا دخائلي، خشية أن يتبدد ما تبقى، وعندما بقيت مدة
مهدهدا، منهكا، مدمدا بالوجد، متخففا من شغاف الوهم،
لقيت الحمل ثقيلًا وإن لم ير، والطوق محكما وإن لم يلتف، لذا
أقدمت على التدوين إليك مع أنك قصى، بعيد عني؛ لكن يشفع
لى عمر انقضى قرب بيننا، جعلك كائى، حتى لو عسرت المودة،
وانفرط العقد، وتباعد الشمل، وندرت اللقيا، بقيت أنت كالجهة
التي لا تدرك بالحواس وإنما يتوجه المرء إليها، هكذا وليت
بهى صوبك، لعلى باسترجاع ما تبدد، وروايتى لما يخيل إلى
أنه جرى، أقف على توكيد يطمئننى، يرسخ الحجة عندى،
فاحتملنى يا أذى وإن أطلت، ولا تذرنى إن أثقلت، ولا تنصرف
إن فصلت، ويحق العشرة القديمة، تلمس لى العذر فى شدة
تهيامى.

ديباجة الظهور

... اعلم يا أخى أولا سبب مجيئى إلى ديارها، ونزولى بلادها، أقول - أدناك الله من مبتغاك، وحقق لك مطلوبك - إننى ما جئت إلا لفترة محدودة بأيام المؤتمر، إذ دعانى القوم للمشاركة والمداولة والمناظرة فى أفضل السبل للحفاظ على المبانى العتيقة، وترميم ما تصدع منها، وما يتهدده البلى، وهذا لب انشغالى منذ ربيع قرن وعدة من سنوات آخر، ولى فى هذا المضمار قول وصولية وتجريبية، ألقىت بحثى، أبديت وجادلت نفرا قدموا من بلاد شتى، جئت برفقة واحد ممن علمونى المعمار، وأضاعوا لى أسرار البناء، أحالوه إلى التقاعد فى موطننا، غير أنه لم يركن، ولم يته الخطة، تراه فكأنه سيبدأ تحصيل المعرفة لأول مرة مبدىا حمية وحماسا أوليا ولطف

تدبير، إذن، جنت موطنها ضعيفاً، غريباً، محدود الإقامة، مدتى مبينة، مثبتة على وثائق سفرى، أما توقيت إقلاعى إلى منازل أهلى فمقدر سلفا، أنى منقلب حيثما جنت، هذا إدراك مدبب فى وعى، وبرغم وقوفى على موقوتية زمنى بالقرب منها، إلا أننى عند ظهورها انسقت غير عابى، كاشطاً الصداً عن مغاليق طال إقفالها.

ستسال، متى بدأت الرؤية؟ متى تحقق نظرى منها تمكن؟ والله يا أذى ما من إجابة دقيقة، ما من تحديد، لو قلت لك إنها قديمة عندى، سارية داخلى منذ قدر لا أعرف تعيينه، فلا تكذبنى، وإن أمرها بدأ معى قبل مجىء موطنها هذا فلا تنح كلماتى، وإن قلت إننى ما قطعت زمنى المنقضى إلا ماضيا تجاهها، وعند لحظة معينة تلاقينا فتفجر الشرر، وانتثرت الشهب، وامتزج المبتدأ بالخبر، فلا تتكى على. وإن قلت لك إن هذا الكون بمجمله مكان لأراها فيه فلا ترمنى بالشطط!

المقطوع به فى عالم الممكنات أنها لم تفارق موطنها هذا الذى أجيئه أول مرة، أين هذا الماضى المولى كله؟ لا أدرى، يقينى أيضا أن عيني وقعتا عليها فى الفندق الكبير، حيث نزلنا واجتمعنا، لأبد أنها راحت وجمت. تمهلت أو مرقت، غير أننى بقيت غافلا، فلم تكتمل كينونتى بعد، ربما لأن الجمع كثير، والذهن مشغول بأمور شتى، لكننى أنثنى وأقول، إن هذا غير دقيق، فكدى لم يكف، ولم يخفت أبدا. اعلم يا أذى أن

الظهور الذى أعنيه، له حين مقدر، جريت هذا وعرفته، حدث منذ عشرين سنة مضت أثناء تدريبى بمركز علمى، أن اعتدت المرور بشابة تقعد إلى مكتبها، أبادلها التحية وأمضى، إلى أن لاحت لى بعد طول استتار، بدت فجأة، توهج لحظها وألق عينيها، وشوارد مفلتة من داخلها المضى، فانتبهت، وبدأت سعى، متعجبا، كيف غفلت عنها؟ كيف؟ وفى ظرف آخر، جاءتنى بنية هيفاء، رحبة، ولحظة لدخولها الحجرة نفذت مباشرة صوبى، وصار بينى وبينها شأن، ثم انقضى الوقت، فلا تبدأ صلة إلا ونهايتها فى مفتحتها، وهذا أمر له تفصيل، لعلى مورده فيما بعد. اعلم أنه ما من بداية تشبه الأخرى، منها ما يحاكى ظهور الطل، ومنها ما يشبه تدفق السيل المياغت. أما هذه البنية فلاحت لى شيئا فشيئا، قبل ظهورها فى هذا الصباح المبكر.

صعب على التحديد، مع أن يقينا يداخلنى الآن وقد انحلت المدة وغابت الحضرة، أننى لم أكف عن مشاهدتها طوال وقتى، أجوس خلال ذاكرتى متلمسا خيالات واقع أمسكته بين يدي ثم انطوى، ولى، وخلف عندى البين والوجد، بعد انتهاء المؤتمر، سافرنا فى طائرة معا مع بدء الرحلة إلى أسيا الوسطى حيث قصدنا معاينة ما شيده الأقدمون، هُمننا هذا الفندق فى الليلة الأولى وإن تباعدنا جزنا العتبات، ولجنا القاعات، ركبت العربية التى أقلتنا من المطار إلى مأوانا، جلست بجوار صاحبى، ملصقا وجهى بزجاج النافذة، متلمسا معالم المدينة التى لم أتصور أننى بالفها يوما، يمكننى تحديد اليوم، ثلاثاء، يوم من

أيام هذا الكون، عند الفجر صحت مبكراً، عندي تأهب غامض، وشعاع خفى من وهج، شأن المقدم على رؤية عالم يخطر على قلبه أو باله قط. قمت وبدائيات الضوء الأسويى تنفذ عبر الواجهة الزجاجية، أزحت الستار، تطلعت إلى الملامح التى لم أتبينها عند وصولى ليلاً، جلت ببصرى عبر الحديقة، لم يوهن الشتاء من خضرة حشائشها وأشجارها، أما رد فعلى عند رؤية شجر التوليب الباسق، الملتف، الملمم، فكان تنفسا عميقا، هذا شجر لم أظالعه إلا فى منمنمات المبدعين الأقلين من أبناء الناحية، عرفت العديد منها، ودرست ما تضمنته، وأطلت النظر إلى توقيع خجل، متواضع، لعظيم ممن تنفسوا هواء تلك البقاع، اسمه «بهزاد»، إذن.. هذا شجر توليب، تبدأ الحديقة بعد انتهاء الساحة المبلطة برخام وردى، منبسطة تحت الفراغ الشفقى، ومن هذا الحد بدت، فى الصباح الأسويى تجول، تسعى، لم يكن إلا هى، تمضى إلى حد الحديقة الأيسر، تنتنى حتى الحد الأيمن، أنثى، فارهة، بأسقة، لها طلع، تفسح خطاها ما بين شجرتى توليب بعينهما، لم أدرك، هل قامتا منذ أزل قديم، أم نبتتا مع مجيئها؟ ترتدى معطفاً رمادياً طويلاً، سافرة الشعر، لا تحجبه بغطاء الفرو الثقيل، مناخ تلك النواحي مختلف عن العاصمة التى قدمنا منها، اعلم يا أختى أننى بدأت معراجى ببصرى صوبها، وبمجرد بدء الرؤية أدركت أن قدرى يكمن فى هذا الحضور الإنسانى، لم أدقق ملامحها، فالبصر كليل، والمسافة غير مساعدة، تردد عندي وجودها، وصلنى

تأثيرها في هذا العالم، انبثاق حركتها ما بين الشجرتين
الغاريتين، لماذا نزلت مبكرة، أتلك رياضتها اليومية؟ أهذه
حركتها المعتادة في مثل هذا التوقيت؟ هل رصدت قلقا في
إيقاع خطوها؟ ربما، ساحت داخلي بهجة لم أعهدا منذ زمن،
وتفجر عندي بشير كالزمن الأول، ولعلك تذكر رسالتي التي
ضمنتها أسباب ضيقي واكتئابي. وبدء اندجاري بعد أن قمت
من مرضى، أرجع إلى ما دونته إليك، وأعد قراءة ما سطرته لك،
لتدرك لب مقالى، وأى جد كانت عليه أحوالى؟

خطر لي أن أفارق غرفتي، أن أهرع فألقاها، أن أقف أمامها،
وإن لم أنطق وأوجهها بالصيحت والسكينة، لعلها تدرك عنى.
لكن.. ما أسرع الشروع وأبطأ التنفيذ، جاد بصرى لحظة،
وعندما عاودت النظر رأيت الإطار وغاب عنى المضمون، فتحت
النافذة، هواء بارد قاس، إذن فيالشتاء هنا شديد. مدت
البصير، لم أرها، عدت إلي وحدثني، هيغمورا بالرؤية، بالنفاذ،
الآن يا أخي وأنا أتم تدويني هذا أؤكد أنك أتق من رؤيتي لها قبل
ظهورها، قبل انبثاقها بين شجرتي التوليب، لكن أين؟ هذا مالا
أقدر علي تجديده، متى؟ ذلك ما ليس عندي منه يقين. فى
مدخل الفندق لم أرها، أما المطعم فكان خاليا منها، كيف أيقنت
أنها تنتمي إلي جماعتنا مع أنني لم أرها إلا عن بعد؟ لا أدرى..
طوال إفطاري تعليق نظري بالباب، لم أرها فى ثباتى، لكننا
عندما اتجهنا إلى الحركة لحبتها، تنأهب لصعود العربة التى
يستقلنا إلى الجولة، من مقعدي سددت البصر، قعدت بجوار

معماري من الهند، عندما استقرت جلت عندي سكينه. أمكنني
الرحيل بنظري هنا وهناك. مطمئنا إلى وجودها قريبا، أمر
بشعرها الطويل نافر الخصل، أتابع تدفق الطرقات، ما أراه
اطالعه أول مرة. والأرجح أن عيني لن تقع على أبدأ، أدق
اتجاهات المباني المشيدة كلها في أوقات متقاربة بعد وقوع
الزلازة المهولة منذ حوالي عشرين عاما، خطوط مساعدة،
اقواس تؤطر الطوابق العليا والمداخل، الأصول النائية عريضة،
تتقاطع الشوارع الفسيحة الرمادية وتستدير الميادين ممتدة
صوب الفراغ، غير أن ثمة مسافة بقيت تفصلني عن طشقند
هذه، كتبت أحدث عن شيء، لم أجده، وأتربق أمرا لا القاه، أما
ما شغلني فأرنبو إليها خلسة، والشروع في الاقتراب كيف؟

ترجلنا في الساحة الرئيسية، هواء صارم، قادم من أقاصر
بعيدة، خطوط تجاهها، تمكنت من جانب وجهها الأيمن، أيقنت
أن أمرا قديما بدأ ينفذ، في المعرض أبطأت الخطى،
وأفسيحتها، اقتربت، نايت، هي في حركة وأنا في حركة، كان
دوى منها يتم خلال ديمومة، اعلم يا أخى أنار الله برهانه، أن
الاقدمين قالوا إنه لا تفصل حركة عن حركة إلا بسكون
بينهما، وهذا يعرفه أهل الموسيقى خاصة، وتدرجه نحن أرباب
المعمار، هم يتقنون تأليف النغم، والنغم لا يكون إلا بالأصوات،
وتلك تحدث بالتعاقب، بالتوالي، بالجرعات التي لا ينفصل
بعضها عن بعض إلا بسكونات تكون بينها. بين زمان كل
نقرتين زمان سكون، هكذا قالوا، وأقول أنا، ذلك شأن المعمار،

فالببناء لا يتم إلا في فراخ، والقيام في الفراخ حركة، يبدأ من ثبات الأرض البادئ ثم تتخلله الفواصل وما تلك إلا وقفات، عند طوافي حولها كنت مرفرفا، حائما، لكن لى أويقات سكنوى، أولى فيها البصر بعيدا، ثم أنثنى مستوعبا ملامحها على مهل، ما وقفت عليه أغزر وأغنى مما أقدر على شموله أو استيعابه مرة واحدة، شأن من يحسو شرابا رائقا، مسكرا، فيرشفه متمهلا، متمنيا الا ينفد، لإطالة المتعة، والتمكن من القدرة، ربما نعم لهذا كله، وربما لا، غير أن ما أعرفه، أننى عند خروجى من بوابة المعرض، رأيتها، بمفردها، يداها فى جيبي معطفها، تماما كما كانت تدسهما أثناء رواحها ومجيئها بين شجرتى التسوليب، لم أتقدم، إنما دفعت من داخلى، لم أتجراً، إنما بدأ فعلى قبل قرارى، وحركتى قبل عزمى، ابتسمت مشيرا إلى اله التصوير.. تسمحين لى بصورة؟

لاح نبأ ابتسامه من شفيتها المزهرتين، مدت رأسها هنة إلى الامام، قالت بركة....

- ليس الآن من فضلك

يكن بوسعى إلا الانحناء، والانسحاب بعيدا، كلا يا أخى لم أرتد خائبا، فما لقيته ليس بصد، وما سمعته لم يكن توضيحا للحد، لم تنهرنى، لم تقطع، بل تضمنت كلماتها وعدا، أما عن تراجعى فهذا أفضل، ربما لأننى طفت ما بين عينيهما، ونزلت بعينى لحظات عند قسماتها، ملامحها وثيقة الاتصال. إذا

ابتسمت مرحبة أشرق في عينيها طيف حنيني، وإذا تطلعت
متسائلة وقع التلامس بين شفثيها، والتقوس من حاجبيها، وإذا
تدفقت منفعله فكك قوس قزح ألوانه وأظهرها متعاقبة وليست
متجاورة. وعند مس الخجل تتراجع الشفة السفلى منطوية
للعليا وتعمق الغمازتان اللتان تبدوان فجأة في الوجنتين
الثريتين، الحادثين كالخبر المفاجئ؛

حتى العصر عاودت دنوي منها ثلاثا، وفي كل مرة أقول
مبتسما.. لا تنسى الصورة..

فيجيء التطمين، والوعد، لكن ملامحها لم تأذن بعد. اعلم يا
أخي أنني اعتبارا من هذا العصر، من توجهي الأخير إليها لم
أعد أتحرك في المطلق، كل خطوة عندي تجاهها، وأية إشارة
من يدي هي المعنية بها. وعند أي نطق، توقع أنها تصغي إلى.
ولو بدرت التفاتة مني فيقيني أنها ترقبني، ولو تحركت على
مرأى منها، أو تحدثت بقربها، أو جلست صامتا، فإنني أضمن
حركتي وصوتي وسكوني رسالة إليها لعلها تتلقاها، لم يعد
الوجود مطلقا، ولم تعد الكينونة مفرغة أو بلا غاية. بل صرت
دوارا في فلكها. من توابعها، كان مرورها يكتمل عندي،
جازت، فانت حواجز شتى، وموانع قديمة، وسنين مثقلة.
وهموما متراكمة، وأرصادا من الحزن قائمة، فكت أرسادا،
وحلت طلسم، وفسرت رموزا أنتعصى على إدراك كنهها
عمرا، أقول لك قولي هذا، وما من حوار بيننا اتصل. وما من

تقارب مادی بدأ . لم أعرف بعد أن اسمها فاليريا، وهذا حال
ياصاحبى جديد، سأسطه لك وأشرحه، على أفسر الأمر
لنفسى قبل أن يكون لك، هذا حق يا أخى والله، فبقدر ما هى
محدثه، بقدر ما هى قديمة، موعلة، كنت مجروفا صوبها، وما
من صاحب أو معين..

قرب الغروب، قبل رحيلنا بساعتين، قاصدين بخارى، أقيم
حفلى صغير، خطب البعض، وتكلم مهندس من بيرو عن
الصداقة بين الشعوب، وتحدث البناء الهندى بلغة الأوردو، وقام
صاحبى فتكلم عن الحضارات القديمة وعن المتجهين صوب
المستقبل، التقط آخرون صوراً، لكننى كنت نائماً، ما تم ترتيبه
وما قيل ليس إلا الإطار الأتم لوجودها قريى، اكتمل انفلاتى
من الزمن بعد أن صار لى توقيتى الخاص القادم منها، شيئاً
فشيئاً تصبح محور تقويمى، ولب شدى وجذبى. حتى إذا
انتهت الكلمات. دخل شابان من أهل الناحية، عيونهما أسيوية،
وصمتهما باد، يحنو أولهما على طنبور. ويجلس الثانى إلى
سنطور، اثنان يا أخى اثنان لا غير، لكننى لم أتصور قط أنهما
سيفجران حزناً معتقاً، ويستنزلان أنينا كونيا بمجرد أن يجرى
الأول قوسه ويدأعب الثانى أوتاره، أصغيت إلى خلاصة
الشجى المتوارث، إلى لب العويل النائى، إلى قدح الشرير الناتج
عن عدو خيول التتار الغزاة، إلى الأسى على بنيان قام ثم
تهدم، وفراق قسرى جرى، وتباعد آلاف عاشوا معاً. هذه
مناطق عبور، أقدام شتى دهستها. اعلم يا أخى أن ما انقضى

عند الآخرين باق داخلي وإن استتر. مالم يره غيرى أوليته
عنايتي، ولأن هبوب الصبابة بدأ، لأن النذر لاحت لأنها على
مقرية، لأننى على مرأى منها، اجتاحتنى نسمات البدايات، ملت
تجاه العازف، مورجت يدي اليمنى وأشرت باليسرى، حتى إذا
جلا عازف السنطور أوتاراً، وفض أسراراً، وأطلق نغمات طال
احتجابها. تحرك على الشجن المكلوم فى أغوارى فتأهبت
للإقلاع، فلم يعد ما يحيطنى بقادر أو كاف أن يحتوينى، كدت
أو شككت، لكن ما جعلنى أحجم إلى حين، انسياب بنية قدت من
أطياف ورؤى، منمنمة، دقيقة التكوين، عصفور تخلف عن
سريه، أو خلى حرد بعيداً عن أهله، واحدة من بنات الأوزك،
متدثرة بغلالات من زمن سحيق، لم تفد علينا من مكان، إنما
جاءت من حقبة تتلوها أخرى حتى حطت فى وقتنا تبتسم
للكافة فى وقت واحد ، فهى هنا وهى هناك، هى عندى وعندها
وامامهم، مست يمين القاعة ويسارها فى وقت واحد، بسطت
حضورها وللمته، لم يكن رقصها أداءً حركياً تلميحا
وتصريحاً. شرحاً ومعنى، على شفقتها ابتسامه فرحة بنجاة
من أهوال تاريخ سحيق، كان يمكن ألا تفيض حيويتها تلك لو
أن أحد أجدادها الأقدمين أبيد فى غزوة. أو فنى فى ويا، هذا
حالى أيضاً. فلو لم يتعاقب أسلافي لما وصلت إلى لحظة القى
فيها تلك البنية. طق عندى شرر الفرح، البهجة الغريبة لأسباب
شنى. لإدراكى أننى على وشك الخروج من جب سحيق القيت
فيه منذ مرضى وما أورثنيه من إعياء وتدقيق فى الحساب.

ولعلك تذكر ملامحى عندما عدتني مرات يا أختى، حماك الله
من السوء وأقصى عنك النوائب والمحن. ما أصفة لك لحظات
لم أعد لها العدة. ولم يخطر ببالى المرور بها عند بدئى الرحلة،
إلا أننى عزمت على دفع نفسى فى خضم اللجة مع جهلى
المطبق بالعموم، طافت البنية الأوزيكية ملامسة اليايسة بأطراف
أناملها، حتى دنت وتمهلت وكنت أول من أشار إليه ليشاركها،
قمت غير خجل، بسطت حضورى وأشهرت على الملأ وجودى،
تبعتها فكنت الظل الوارف لأضل بديع. درت حولى، حتى إذا
وقعت عينى على من أحوم حولها، وأتقرب من مشارفها،
سكنت، أو قل أخذت عنى، هى متطلعة إلى، مبتسمة، متجهة
إلى بلامحها المتسقة الصريحة، تجاور الرجل الهندى،
ومهندساً، سويدياً، تتوسط قارتين، حزمت أمرى، للمت حالى،
قطعت المسافة الفاصلة، خطاى غير معهودة أو مسبوقه لا منى
ولا من غيرى، حتى إذا واجهت ملامحى قسماتها، ولم يعد
الفراغ الذى يفصلنى عنها كافياً إلا لمد يدي إذا شرعت فى
المصافحة، فردت قامتى تأهباً، وتمنيت لو أن جذعى ساعدنى،
لو أن لياقتى وأتنتى حتى تبلغ انحناعى حدا لم يبلغه إنسان
قبلى، وعندما اعتدلت حدقت مباشرة إلى عينيها، فى وجهها
الذى اكتسى خجلاً، رصدت طيف سرور فاستبشرت، هكذا
بدأت مراسيمى، وأنبات باكتمال أوراق اعتمادى، ملامحها
الرحبة لم تحو استنكاراً أو نفوراً، غير أن دهشة خفيفة بدت،
إلا أن ما أعاقنى عن التتمة تصفيق القوم، يحيون إقدامى، لم

ات أمراً فرياً، إنما أسارع إلى المجاهرة، فالزمن غير مساعد، وعلى قدر المدة تكون العدة، ولو أن أيامى ممتدة فى تلك الديار لتمهلت الخطى، لكننى الآن مرغم، فما يمكن الإفصاح عنه خلال أيام وأسابيع على إنجازها فى دقائق. وتلك الروابى التى فى حاجة إلى أوقات طوال لعبورها يجب اجتيازها فى لمح البصر، عدت ألزم مكانى، مال على صاحبى، أو قل أحد أساتذتى. قال إننى كنت صادقاً فى تعبيرى، تطلعت إليه، ومنى إليه تدفقت المودة وزهت أسباب الصلة. تأهبنا للانصراف، لاحظت توجهها إلى أقصى الغرفة، قعدت إلى بيانو عتيق، اختبرت أوتاره، بعثت أناملها أنغاماً متسقة، إلى جوارها وقفت اثنتان من زميلاتنا، والله يا أخى لم أرهما لحظة العزف، لم أتنبه إليهما إلا فيما بعد، بعد إيابى من رحلتى، وتأملى الصورة، اكتشفتها، عجبت، أين كانتا؟.. ولكننى أدركت أننى لم أر إلا هى، ولم يستوعب بصرى إلا طلاتها وطلعتها، ذلك أننى أشرعت آلة تصويرى، لم تبد ممانعة. إنما مال وجهها ناحيتى، فأسفرت عن زاوية لم أعهدا منها أثناء تطلعاتى، أظن أنها قالت: تعلمت العزف فى الثامنة. رداً على استحسانى، وأظن أنها قالت: الموسيقى لازمة للمعمار..

أعلم يا أخى أننى أثرت الظن إذ يصعب على التحديد، إذ لقيت نفسى فيما بعد أهفو وأحن، أستعيد أموراً لا قدرة لى على تبيان كيفية وصولها عندى، فبعض مما عرفته عنها أو منها أدركته بالحوارة، أو بالنظر، بالنطق أو الصمت، بالإيماء

أو التصريح، حتى الوقائع تغمض على، ومن ذلك معرفتي لها عند ظهورها بين شجرتي التوليب، إذا أستعيدها الآن، أو قن أنني كنت أعرفها من قبل، وأننى لم أنجذب إلى مجهولة منى، لكن متى وكيف؟ هذا ما لا ألقى جوابا عليه، صدقنى..

مما خبرته يا أخى أن العلاقة تفيض بما لا يدخل فى نطاق الوعى أحيانا، خاصة إذا بدأ التواصل، وشرع فى التوالج، عرفت ذلك، جرى فى أيام بعيدة أن جمعتنى الظروف ببئية هيفاء، دقيقة الحيا، أجهل لغتها كما لا تعرف لسانى، عدا كلمات معدودات من الفرنسية، دامت الصلة أياما سبعة، فى نهايتها كنت ملما بتفاصيل دقاق عنها، وكانت تعرف عنى، هذا ما أحتاج إلى فيض لتفسيره، وإنى مورد أمرا لطيفا أقصه عليك... إذ حدث أن وقفت يوما فى صحن مسجد الناصر قلاوون مشغولا بالمعاينة، عندما دخل رجل أجنبى يتحدث الألمانية، ولما كنت أجهلها لم أقدر على المجاوبة، إلا أن عاملا أميا من أهل الناحية، توقف بدافع من فضوله، أو رغبة فى المساعدة، فوجئت به يحرك يديه، ويشير بأصابعه، ويهمهم، ثم ينقل إلى وعنى، أخبرنى عن هوية الرجل، واستفساراته عن المبنى، وهذا مما حيرنى، حتى جريت فلقيت الوسائل شتى والسبل عديدة. أرجع إلى ما أنا فيه، إلى من صارت محورى ولب قصدى، فأقول إنها جاوبتني بما قلته بعد استحسان عزفها. خرجت من المبنى، لحقت بصاحبى. استنشقت هواء باردا، حوائجنا فى السيارة، اكتمل تأهبنا للإقلاع صوب

بخارى، إلى الزمن المطوى، لطلما قرأت عن مدارسها، عن
قيامها وأفولها، ثم انبعاثها، طالعت صور قبايها، وأسواقها،
وعقود مبانيها، وتصميم قلعتها، أمضى إلى المدينة العتيقة وقد
بلغت مدى بعينه، ألم تجاوبنى، ألم تواجهنى باسمه لاح منها
مالا يمكننى إغفاله، أليس بداية الضوء وهن؟ رسول الغيث
قطرة، أول السعى خطوة، إذن، لا يبقى إلا العزم، ودعاء
بإقصاء بغتات المقادير..

مساق السلسل

... يا أخى، أجد الله توقاً من يحبك إليك. وقربك ممن تهوى، وقوى يقينك، وأعانك على سعيك، أعلم أن رحيقاً عذبا سلسبيلا بدأ يسرى عندى، وإنك لعالم بحالى القديم، وعندي الرغبة أن أحدثك عنه، لكننى مرجئ ذلك، فلأن الظهور أكتمل، على المتابعة، أعلم يا صاحبي أن اليوم الذى شهد تمام تجليها فى تلك المدينة الآسيوية، اقترن بحدث، إن بدأ منفصلاً إلا أنه متحمل. عند بدء رحلتنا، وقبل ديارنا، جاءت ابنة صاحبي مودعة، انتحت بى ركننا وأسرت أمرا، أخبرتنى أن عيد ميلاد والدها سيحل أثناء سفره، سيكون هو فى ناحية وهى فى ناحية، رجتنى أن أنوب عنها فى تقديم زهور إليه. إن هذا سيسعده جدا، قلت لها الا تقلق، إنه ليس فى موقع الأستاذ

منى.. إنما الصاحب، وهذا لم يتم إلا بعد سنوات طوال. تقلبت فيها الأمور، وشهدته يخوض حرباً ضد لصوص المقاومة، ومن يفسدون الذوق السليم، لا محرك لهم إلا جشع الريح، غير عابئين بأحوال العباد. وللصحبة عندي يا أخى منزلة أكيدة، كما أننى أضمر له محبة، فهو ممن مدوا لى العون وقت الشدة، وبخلاف ذلك هو ممن ثبتوا فى الطريق، ليس ممن مالوا مع الهوى أو حادوا، ولهذا تفصيل يطول، أقصر عنه خوف الإملال. عند بداية نهارنا فى طشقند سألت مرافقتنا الروسية عن مكان لبيع الزهور، أفصحت عن غرضي، وعدت أن تدلنى، نصحتنى بتقديم عدد فردى، خمس زهرات أو سبع، قالت إنهم يتفألون بذلك فى هذه البلاد. أما إذا وعر الظرف وحل الحزن فتكون الأعداد زوجية، وهذا غريب على، أثناء تجوالنا قادتنا إلى ناصية تصطف عندها مناخذ فوقها سبلال الورد، وأصص من الخزف، مددت الخطى، ابتسمت المرأة العجوز، تغطى رأسها بمنديل نقوشه شرقية. تناولت سبعاً، فى نفس اللحظة تقدمت مرافقتنا، وعندما لمحنى معمارى من الجزائر العربية خطا صوب الزهر، لم أعد بمفردى، أبدى الرجل تأثراً، تسامل عنم أطلعنا، ثم تدارك قائلاً: لا بد إنها ابنتى. احتضنته مقبلاً، تبعتنى الروسية وهى مهندسة ممن يقمن على صيانة وحفظ المسرح الكبير، وأعقبنا الجزائرى، أما بقية القوم فوقفوا يرقبوننا باسمين، حتى فرغنا، فتقدم نحو صاحبنى.. الكولومبى، والهندي، ورسام سنغالى، أما هى فقد أقبلت

مبتسمة، حيت وهنأت، كان ذلك أول النهار فى طشقند، ومع اكتمال المساء حللنا بخارى، تبدل الوقت، بحساب الساعات ينقص واحدة عن طشقند، وثلاثا عن موسكو، وأربعا عن قاهرتى، أما بمنطق الدهر فلا حد، بخارى يا أخى لها رجع عندى قديم، من المدن التى ظننتها بمنأى، خارج المتناول لشدة البعد، وانقطاع الظرف المساعد، كما ارتبطت عندى بجمع من القوم النابغين، ونوع محبب إلى من الأبسطة النادرة، ألوانه أصلها واحد، الأحمر ودرجاته، العقيقى والياقوتى والشفقى، أما زخارفه فهندسية. مستطيلة، متقاربة، متباعدة، شأنى مع ذاتى، مع من أحببت، بها شبه من نوافذ تعد ولا تفصح، أما الإطار فمحكم كالظروف المقيدة، نزلت بخارى، فجلت بنظرى عبر فراغاتها، كان حضورها مدججا بالماضى، جئناها ليلا فلم تكن المعالم بادية، لا تفصح المدن عن مكنونها للغريب فى العتمة. تجدها مضمومة، غير منبسطة، حتى إذا انفردت بنفسى فى غرفتى، وتطلعت عبر الشرفة كدت أوقن أننى جئت الديار يوما، وأننى تنسمت هذا العبير الصحراوى زمنا لم أعشه، كدت أستسلم لما أوشك على الإصغاء إليه، غير أن حضورها القصى دعانى، ولم يكن بوسعى إلا أن البى. كنت نادما على أية دقيقة تضيع دون أن يقع عليها بصرى، أسرعت إلى المطعم، لمحت صاحبى قاعدا ويجواره مرافقة الجمع. والمعمارى الجزائرى، وأستاذ فى هندسة الجسور من سيام، جلت بنظرى لأحدد مكانها، لم المحها، غير أنها لم تتأخر،

ولجت القاعة مبسقة فارهة، لا ترتدى المعطف الرمادى الذى يخفى معالم وجودها الحسى، ترتدى قميصا من الصوف، تتعاقب ألوانه كموج البحر فى مثلثات متداخلة، أحمر صريح، وأبيض ناصع، وأسود قاتم، القميص فضفاض ينسدل على كتفها، أما بنطلونها الأخضر القطيفى المضلع فيخفف من انفلات جسدها الأنوثى، بلغنى حضورها الحسى القوى على البعد، وإن لم أقف على شواهد، ولم أمس تخومه، قعدت بالقرب، يجاورها الهندى، ومعمارى من بيشاور، راحت تتابع رقصا عذبا، وغناء شجيا يمت إلى ماضى الناحية، كنت أحوم وأحط عندها، إما بنظري أو حواسى الأخرى حتى جرى مالم أتوقعه، توقف العازفون ومالت المغنية الشابة هامسة لأحدهم، وعندما استدارت لتواجهنا، فوجئت بلحن يمت إلى ربوعنا، أغنية شائعة تنادى عاشقا باسمه، إلا أنهم غيروا، فكان اسم صاحبى بدلا من اسم المحبوب، غمرتنا بهجة إنسانية، وقفت محبيا مرافقتنا التى دبرت ذلك. بانث السعادة على وجهه وكان ذلك من الطف ما مررت به، فى غمرة الود بسطت يدي داعيا، ردت بابتسامة، ابتسامة لم أعهد مثيلا لها، إن جاز الوصف فهى رحيبة، دالة، مدلة، عند طلوعها من أفق ثغرها تضىء وجنتيها، ثم تترقرق فى عينيها، وكافة ملامحها وتنتقل إلى ما حولها، يشع عبيرها، فيه قبس من سر تدفق هذه الحياة الدنيا، قمت، تقدمت منها، أشرعت ودي فلبت، نظرت إلى رفيقيها، قاما يتبعانها، خطت فصافحت، اتسعت الجلسة فشملت،

واجهتني فأنثيخ لى طول التملى، أدركت يا أخى أننى على وشك
الاقتراب من مشارف لم يسبق تعيينها، لكننى متأهب لحط
رحلى. لإقامة مضاربى، للخروج على الناس بادئا عرضى،
كنت موقنا أن لون الدماء يتغير فى عروقى، وأن روافد نهر
قلبى تتخذ مسارا جديدا، كذا نبضى، وحواسى كافة، هنا لا
أجد مفرا من الوقفة، حتى أطلعك على بعض مما وددت ورغبت
تفصيله لك، فكثير من أمورى لم تحط بها علما، بعد أن باعدت
بيننا الظروف زماناً، واغترب كل منا، أنت فى سعيك، وأنا فى
مقامى..

تفصيل

.. اعلم يا أخى، جنبك الله المحن، وأقصى عنك الشدائد، وخفف هجيرك. أن ماء فيضى كان قد بدأ غيظه منذ زمن، وأن شحاً أدرك دفتى، وأن أوصالاً تقطعت عندى، وكثيراً ما قرأت شكواك من الغربية، ولكنك لم تدر وأنت تبثنى همك أننى مغترب مثلك، وأوعر النفى ما كان فى محل الإقامة، وأوحش الوحدة ما كانت فى الجمع. أقول يا أخى إن الأسباب تجل عن الحصر، منها ما تعرفه، وما تجهله، منها ما سأذكره لك، ومنها ما لا أقدر على تقييده، تكفينى الإشارة، تعلم يا صاحبى أن الظروف لم تكن قط سهلة منذ البدء، وقد ربينا معاً، ودرجنا، وأحببنا وخططنا لتحقيق الحلم. لكن الظروف لم تكن مساعدة، لست بحاجة لأن أحدثك عن أيام دراستنا الجامعية، وهذا التدفق، وتلك الحيوية، كان الحذر نائياً، والبوح من خصالنا والمجاهرة، والشعور أننا نتحمل مسئولية إصلاح هذا العالم، وأن مصائر شتى أقدارها حول أعناقنا، وأن أهلاً لنا غير قادرين على إسماع أصواتهم لمن بيدهم النهى والأمر، والحل والعقد، أثرنا أن ننوب عنهم، لن أستعيد أيام المعتقل، فلطالما أفضت فى سرد أحداثها. وما جرى لنا فيها وما قاسيناه من وحشة وعزلة، وإرغام قسرى لنفص أختامنا، هل تصدقنى إن قلت لك يا أخى إن أيام السجن تلك تهون عند تذكرها إذا ما قورنت بأيام تلت كنت فيها حراً، طليقاً، لا أسعى

على هوائى داخل موطنى فحسب، وإنما أسافر إلى بلدان شتى، أيام إدراكى بأن ما يجرى مهول، وأن التدهور يتم بأسرع مما نتصور، وأن التغيير إلى الأردأ والأسوأ يلقي المساندة من قوى تفوقنا بكثير، هذا مع وقوع الخلف والمعاكسة بين من قدرهم التصدى والمحاربة، وأصعب ما يواجهه إنسان، إن يلقي نفسه وحيدا فى مواجهة عنوطاغ، ولا مبالاة جارفة، وفساد شامل، فيدرك ولا يفعل، يعى ولا يتحرك إلا بقدر إن استطاع إلى ذلك سبيلا، والله يا أخى لم أتقاعس قط، إذ شاء حظى واختيارى أن ألزم الصفوف الأمامية، عند الأقالصى، وعندما بدأت كان الواقع كله ميدانا لى، حتى حلت سنوات العقد السابع فتدنت الأحوال، وتقهقرت الأمانى، وتقلصت الساحة حتى ضاقت فأصبحت ذاتى، صار همى أن أقيم المرصد والقلاع على عجل، حتى يبقى الجوهر سليما، والنواة بمنأى، كلفنى هذا الكثير يا أخى، حتى جرى لى ما سمعت أنه جرى لأخرين وظننت أنه لن يطالنى قط، وإنى لقااص عليك واقعة لم أخبرك بها، ولم أفصلها لك. ربما لأن الفرصة لم تسنح لقلة لقاءاتنا. وتباعد المزار بنا، تعرف أننى خبرت علاا كثيرة، وأمراضا، غير أن زهابنا إلى الطبيب لم يكن إلا إذا دنا المرض من حد الخطر، بل كنت إذا سمعت بصاحب أو غريب مضى إلى طبيب يداوى النفوس أسخر فوراً. هل تدرى أن الأيام مرت بى حتى سعت ذات غروب إلى واحد منهم. كان ذلك قبل سنوات تسع من اكتمال ظهورها فى مدينة طشقند النائية بين شجرتى التوليب، فى هذا العام، ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين، ضاقت على الأرض بما رحبت. وبدا الوضع الجاثم أصعب وأثقل من أن نبدله فى لمح البصر كما نرغب،

فى تلك الليلة كانت الأحوال كثيرة على، والظروف متكافئة، كنت بين النوم واليقظة عندما قمت فجأة قاعدا فى سريرى، اضطراب غريب فى أمعائى لم أعهده وأوعر الألام ما كان غير مسبوق. بدأ هبوط لين. دقيق. لكنه مخيف، مدجج بالنذر، بدأ ارتجاف أوردتى، ونفور نبض قلبى، الأدهى والأمر وعيى المكتمل أن النهاية ستتم بعد دقائق، بل قل لحظات، وهنا لى وقفة، فربما حان أجلى بعد خمس ثوان من تسطيرى هذا، لكننى مادمت لا أدرى فما من جزع أو خشية، أما لو علمت الآن أننى سأقضى بعد خمسين عاماً كاملاً فى يوم بعينه وساعة محددة، أؤكد أن حالى سيصير نكداً، سأحصى كل لحظة ما تبقى، أقول قولى هذا وأنا واثق بأن ما تبقى أقل مما انقضى، وأن ما صار ورائى أطول مما سألقاه أمامى، وإنى لمحدثك يوماً عن القضاء والقبض فى رسالة أفردتها خصيصاً، إذ شغلت بالأمر جداً منذ هذه الليلة، أقول يا أخى إن الإنسان يظل مطمئناً، راضياً، حتى لو أن أجله سيحين بعد دقائق. لا تدرى نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت؟ وهذا من أجل النعم فانتبه!

دهمنى فزع، صار حضورى كرياً، غزائى فزع أكبر، تزايد وعيى بأن ما تبقى لى مجرد ومضات، أننى سأقبض هنا، أن زمانى انتهى، وهنا بزغ عندى الهرب، أن أولى فى الأرض لعلى مفلت من اللحظة، مع تمام علمى ويقينى أنه يدركننا ولو كنا فى بروج مشيدة، فكان حالى مثل الرجل الذى هرب من الموت إلى الهند، وتلك حكاية طالعتها فى كتب الأقدمين، وإنى لقاها عليك..

حكاية دالة

يحكى أنه فى ضحى يوم، كان سيدنا سليمان يجلس على عرشه يحيط به الإنس والجن، عندما دخل عليه رجل من رعيته مفزوعا مضطربا، قال لسيدنا سليمان الحكيم:

- «الحقنى.انقذنى يا مولائى».

تعجب سليمان متسائلا:

- «ماذا بك ؟»

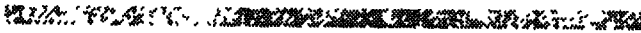
قال الرجل إنه كان فى الطريق عندما رأى عزرائيل ملك الموت، نظر إليه شزرا وبدا حائقا، غاضبا، منذرا بالشر، تملكه رعب، أدرك أن أوانه دنا واقترب، لذا يرجو سليمان الحكيم أن يأمر الريح بحمله إلى الهند، إلى أقصى أرض هناك، حتى ينجو من الموت.. رق سليمان له. أمر الريح فحملته فى إغماضة عين إلى الهند.. بعد قليل ظهر ملاك الموت فعاتبه سليمان قائلا:

«تسببت فى غربة أحد رعيتى ونأيه عن وطنه، لماذا نظرت إليه
غاضباً عندما قابلته، لماذا أرجفته؟»

قال عزرائيل..

«لم أنظر إليه غاضباً، إنما نظرت إليه متعجباً، لأن الله أمرنى
أن أقبض روح هذا الرجل فى الهند، فلما رأيته تعجبت.. كيف
سيصل إلى الهند وأنا مأمور بقبض روحه بعد لحظات؟..»

رجعى إلى ما انقطع



- فزعت!

هرعت إلى أقرب باب إلى يؤدي إلى الشرفة، أتجهت إليه،
وعندما شرعت فى اعتلاء السور أدركتني والدتي، أيقظها
حسها الأمومى وما أحدثه فتح مصراع الشرفة من ضجيج،
كنت أبغى الوصول إلى الطريق بأقصر وأسرع وسيلة،
حاشتني، صرخت فدب فى وعى الروح الحافظة، انثيت إلى
الداخل مبتلا بعرقى مرددا..

مازلت أحياء.. مازلت أعيش..

فى عصر اليوم التالى قال لى الطبيب المداوى إن القلب
سليم، وإن علاج العلة يختص به أطباء النفوس، هكذا سعيت

بقدمى إلى أحدهم، أصغى، دون ملاحظات شتى، ثم أطلعنى على ما خفى على، ما مر بى أعراض اكتئاب شديد جاثم على. وصف لى أدوية ونصحنى بخطة، أن أغير مسارى، أن أبدل الإيقاع، هذا ما قاله لى، غير أن ما أدركته تلك الليلة، ما لم ينفذ إليه هو، ما لم أفض به حتى لأمى، ما لم أبح به من قبل، وعيى أن احتضارى بدأ هذه الليلة، علمتنى التجربة والاطلاع على أحوال الآخرين، أن البعض يبدأ احتضارهم فى الثلاثين أو دون ذلك، وقد يمتد بهم العمر إلى الستين، إلى السبعين، وفيما تلا ذلك عرفت أعراضا شتى، نمت أحيانا وعندى يقين أن النهار لن يطلع على، قمت فزعا من نومى، خشية الموت ودمعى نازف، عبرت طرقا أراها بعينى من سيبقى بعدى فى هذا العالم، أشدت عمائر لم أثق بأننى سأتمها عند وضع أساساتها، وعندما اكتمل يتمى بفقد أمى، انهار حاجز كنت أعده حاميا، يحول بينى وبين إدراك العدم، وعندما طق الألم وسد وريد ساقى، قال لى الطبيب، إنك محظوظ، كان ممكنا للجأطة أن تتوقف فى موضع أشد دقة، قال إن هذا بمثابة إنذار، طلب منى ما يستعصى على، ألا أنفعل، أصغيت ولم أعلق، وخلال اضطجاعى أربعين يوما أيقنت أننى قطعت شوطا، نال منى النصب، هدى تعب، نأيت عن الأصحاب، وندرت أوقات الرفقة، وشحبت المحبة، وهذا كله من علامات عصر انقلبت فيه الأحوال وصعب عيشى، وظننت كساد سوقى، وفساد متاعى، واعتراض ركبى، وانقضاء الأكثر وبقاء الأقل، صعب حالى، ووعر ظرفى وبقي الأمر فى شدة حتى هذا الفجر، حتى مطلع النهار فى تلك الأفاصى الأسبوية، وبتراثى الموجه هذا واجهت إشراقها، وحضورها الفتى، البهى، لعل وعسى!!

إنصاح

اعلم يا أعز صاحب - رقق الله خواطره - أنها واجهتني.
شغلت فراغا أمامي بضياتها، شددت رحال بصرى صوب
ملاحها، وعمق حضورها، محاولا التمكن من نضارتها،
وغرابة عينيها الرحبتين، الطاقتين، النورانيتين، حيث يتطهر
فيهما الضوء ويشف ويرق ويرتد إلى عناصره الأولى، حتى
هذه اللحظة لم تكن تعرف عنى شيئا، كانت تجهلنى، لا من
حيث صفتى واسمى، لكن جوهرى أعنى، وإن خمنت إدراكها
لما يتطاير صوبها من شررى، من وهج وألق، كنا ما زلنا فى
غمرة احتفالنا بصاحبنا، جاء رفاق الرحلة. تضاموا، صرنا
جمعا، أنشدوا فأنشدوا، لوحوا فلوحنا، شاركت من بعيد وإن
كنت على مقربة، كان انشغالى يتزايد، كنت مشرعا حواسى

لإدراكها، لاستيعاب جلوسها، تراجعها برأسها المائل قليلا، ابتسامتها التي تطل فجأة ساعية صوب العالم بأسره، فما البال لو خصت شخصا بعينه، سلكت طرقا شتى صوب ابتسامتها تلك، تارة خلسة، ومرات مباشرة، علانية، كنت فى عجلة، فالوقت محدود، وعندى حشد لا بد من دفعه وإيصاله فى فترة وجيزة. أما الآن فهمى الأول إعلان ولائى، وتبليغ فيضى..

اعلم يا أختى، أننى عند إطلالة أفرأحى تتحرك أشجأنى. تسألت إلام سيستمر هذا؟ إلى متى وزمن الرحيل محدد، لم يتبق إلا أيام معدودات، بل أمعنت فتسألت، كيف سأستعيد هذه اللحظات فيما بعد؟ وهل سأثقلب عليها حسرات؟ كيف سيعصف بى شوقى، وكيف سيكون وجدى؟ هذا حالى أرى النهاية فى البداية، والأفول فى البروغ، والغروب عند بدء الشروق، لا لحظات حميمة تأخذنى عنى، ولا اندماج كلى فى عمل يشغلنى عن جوائى، فوجئت بصاحبى المحتفى به يقوم واقفا، يدعوها إلى رقص فتلبى، تمضى أمامه، متأودة، لها رسوخ، يتدفق منها كيان بآتمه، لم تكن تسعى، إنما تفيض، لم تكن تخطو، إنما تهمس لليابسة بموطئ وجودها الحسى، تابعت خطوهما حتى ولوجهما الحلية، ملامسة صاحبى لكتفها، ابتسامته ساطعة، عنده بشارة دائمة وحماسة متأججة، يسعى الطلبة إلى محاضراته لجاذبية إلقائه، وحرارة خطابه، وجزل عباراته، يتجاوزنى عمرا بما يقرب من خمس قرن، غير أنه فى حركة عنى، متدفق الانفعال بأديه، صريحه، ينفذ إلى

الأخرين عبر كلماته، على نقيضى، إنما يكون ذلك عندي بصمتي، بانفجاري المفاجئ، أتابع خطوهما، تلاقيهما، يتابعهما، تحاور جسديهما، يميل المعماري الهندسي فجأة، هامسا.. «معجب أنت بها؟».

فى صوته النحيل ود، رغبة فى القربى، لم أراوغ، أوأمت، قال باختصار دال، شأن من يبصرنى، من يطلعنى على خبايا لأقرر، لأحسم خيارى، قال إنها فى الرابعة والعشرين، متزوجة حديثا، تحب زوجها، إنها متخصصة فى ترميم المباني القديمة، صمت لحظات ثم قال، إن المرافقات كلهن ينمن فى حجرات متقاربة، كل منهن بصحبة زميلة لها. أفضى ثم تطلع إلى، إلا أننى لم أعبأ، فما أتأهب له، ما أشرع فيه لن يدركه من يعرفنى، فكيف بمن يجهلنى، عندما عاد صاحبي المحتفى به. مال على هامسا:

- «ادعها للرقص...».

تطلعت إليه مضطربا، كأنى خشيت أن تكون سمعت اقتراحه مع أنه أفضى إلى بلغة لا تعرف منها حرفا، إننى لا أتقن الرقص فكيف أجرؤ. فكأنى مقبل على ارتداء لباس غيرى، عاود صاحبي الهمس..

- «هذا لا يليق..».

أعى أننى من جهة، وهى من أخرى، أننى قادم من زمن غير زمنها. ميراثى مختلف، بوهجها تبدو فى بداية، أما مفتحتى

فقد أغلق منذ حول ناءٍ، هي في إقبال، وأنا في إدبار، هي في قلب الراحلة، وأنا متعثر الخطى، يمكن أن أتخلف في أية لحظة، فأية كهولة مبكرة نالت مني، وأية شيخوخة أدركتني قبل الأوان، في هذه اللحظة انتبهت إلى تطلعها صوبي، بدأ حضورها مختلفا، مغايرا لما كانت عليه منذ دقائق، إنها مترقبة، متوقعة، كأنها مشرفة من عل، انفراجة شفيتها لا تلحظ، أما أفقها فرحب مضيء ..

- «أنت مخطئ إنها تنتظر..»

بما أننى اعتبرت وجودها محطى، وشرف غايتي، فلماذا لا أسلك الدروب كلها، ما أعرفها، وما أجهلها، فلا تغاض، أتخفف من أثقالى، فلاعد ترتيب مكنونى. فلايسط ما تيسر من أمرى، قمت واقفا ..

- «أتدعونى؟» -

جاوبتها بنظر رق فشف فدل فأفضى..

- «إذا سمحت..» -

بسطت يدي، تقدمتنى، عندما دنوت، لم ألمس صوف قميصها إنما بدأت أتشم مشارف وجودها الحسى، منه تسريت تجاهى إشارات وإيماءات، أثق بانها لا تعي من أمرها شيئا، كما أن تفصيل القصد منها مبهم وإن أدركت محصلته النهائية، بدأ القرب، فلما ضاقت المسافة بينى وبينها .. وصلنى

من أنفاسها بريد مفوض. غير ذى طوى. ينبئ القاصى حتى
بعبيرها، فما بال الدانى المثلّف؟ منها بدأ سنّها لم أعرفه عند
جلوسها فى مواجهتى، وحضور مغاير لما طالعتّه منها عند
سعيها اليوم فى بخارى، اعلم يا صاحبى، أننى إذ أخطك
هذا الآن، إذ أستعيد الشوارع العتيقة، فلا أراها إلا مقترنة
بها، هى فى البؤرة، ولب المركز، أنكر امتداد الصيارفة القديم
المبانى على جانبيه، وتوالى القباب، فلا يتكشف لى منه إلا
بمقدار تتابع خطاها، وإذا توقفت تراجعت برأسها، وهففت
شعرها الجميل، فإن رؤيا ذاكرتى تتوقف معها، تجول صوب
ما كانت تنظر إليه، حتى إذا خطت فى السوق المغطى تبعتها
خواطرى، وشرعت فى ملاحظة البنيان، إذ أستعيد مدرسة مير
عرب التى تفتت زمتنا طويلا لرؤيتها، والوقوف على معمارها،
أراها بداية عند مدخلها، تلج إليها بقامتها السامقة، تتمهل عند
الجدران المنمنمة فأتهمل، ومن مركزها أرحل هنا وهناك، أما
الزاوية التى اختارتها لتتنظر منها إلى منذنة كش الصاعدة إلى
ذروة الفراغ، صوب لب الأعلى. فنفس الزاوية التى أستعيد
منها مرأى المنذنة الآن، المنذنة وهى متواجهان، وما بين عينيها
والبنيان الملتف حوار وخطوط اتصال، أما الساحة التى يخيم
عليها هجير قديم، وفراغ خفى. فتوشك أن تردد أصداء
الأقدمين الذين عبروا، وتوقفوا هنيهات أو حقبا، الذين قدموا
آمنين، أو الذين هرعوا، أو الذين جاؤوا عنوة غازين، ومنهم،
سيد المجتاحين، جنكيز الذى لا أدرى من أية زاوية تطلع إلى

مئذنة كش راكبا فرسه، قبل أن يستببح المدينة ويطلق فيها جنده فيخربوها، فكأن هذا كله يا أخى لم يصل إلى زماننا إلا لتقف عليه هي، ولتقع عليه عيناها، أما مدرسة مير عرب، فبرغم بهائها وسموقها فكانت تنقص عنصرا، لم يكتمل إلا بوقوفها فى باحتها، وتأملها المتمهل للنقوش، والآيات، والعبارات، وانتظام الأبيات، فكأن الذين صاغوا التصميمات فى الحقب البعيدة، الذين أشرفوا على تشييد تلك العمائر، استطلعوا النجوم وأهل الخبر فأنبئوا فى حينه بمجىء تلك البنية ذات يوم، فراعوا ذلك، وانتبهوا إلى العنصر الناقص، حتى إذا وفدت إلى عاملنا، ونمت، وشبت، ورحلت، اكتمل البنيان، وتضافرت العناصر، لو أنك بصحبتى وأشهدت تجولها فى القصر الصيفى، انثناءها عند المنحنيات، وسماحة ملامحها عند نظرها النقوش لأيقنت أن المكان لم يشيد إلا لسعيها هذا. ولما خطر لك ما أظنه سيجول بذهنك لحظة قراعتك هذا، أنى مبالغ، أبدأ يا أعز صاحب أبدا، اعلم يا أخى أننى فى حلبة الرقص طاف بى ما جريته. ذلك الترقب الذى يلزمنى عند جوازى عبر مداخل العمائر القديمة، والممرات المؤدية، حيث الصحن الفسيح بعد الممر المدهلز فكأنه الفرج بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، كنت أدع نفسى فى مساجد بخارى لأرصد توالى الشاعر على خاصة عند دخولى، كنت أشعر حواسى لالتقاط روائح المكان، فلكل معمار رائحته الملزمة، التى تمنحه خاصيته، وخلال هذا كانت هى متداخلة

بشتى العناصر، انبهارى بالواجهات السامقة لم يأخذنى عنها،
ونفذ العتاقة إلى صميمى لم يغيبها عنى. كذا مقارنتى لحظات
الدخول، بدخولى إلى قبة قلاوون وضريحه، أو إلى مدرسة
السلطان حسن، أو خانقاه برقوق المشيدة من توالى الأيام.
المدثرة بصحراء تختفى رويدا أمام نمو المدينة، هذه الخانقاه
التي أعشق، ملاذى من هجير عصرى وزمنى، عند اقترابى
الأول منها لا أدرى، ولا أجد تفسيراً لإلحاح حضور هذه
الخانقاه بالذات على، ولحظات قعودى عند الظهر متطلعا إلى
إحدى القببتين اللتين تتسلقان الفراغ العلوى العظيم. ربما
ليقتينى الخفى، أننى سأخلو إلى ذاتى هناك وأستعيد هذه
اللحظات عندما تصبح زمنا مندثرا، لا أقدر على استعادته،
وعندما يتزايد ضجيجى المكتوم، ويشتد كلى!

اعلم يا أختى، أننى بعد إيابى، وبدء وجدى، حاولت جاهدا
استعادة ملامحها فعجزت، حتى الصورة الوحيدة ملك يمينى
لم تسعفنى، بوثوق أقول لك إنه ما من صورة أو لحظة
مستعادة يمكن أن تدل عليها، أو تظهر بعضها من جواهرها،
فى كل لحظة تبدى مظهرا، وعند كل التفاتة تظهر جانبا،
ولحظة انتقالها من وقت إلى وقت تسفر عن حضور مختلف،
فبأيهم أستدعيها عندى؟ وبأى رسم أقربها منى؟ وما جهدى
كله بعد نائى، إلا الاقتراب من هذا الحضور المتغير، المتوالى،
المفاجئ بما لم يدر به توقع، المحاولة وعرة يا أختى، أيمكن
تلوين عبير الزهرة؟ أنقدر على رسم مسار تغريد الطير؟

أبوسعنا اقتفاء أثر لحظة ولدت؟ تتوالى ملامحها ولا تظهر، في كل لحظة تولد من جديد، بعض من مكنون نظرتها مصون في صندوق غرارة قلبي، لكنني عاجز عن تمثله بعيني عقلي أوقن أنني لن أستعيدها حتى وإن التقينا مرة أخرى، فما كان منها كان، وما سيجي، النظرة الحيرى أطلت وتلممت، والطفلة الوجلى قفلت وانتهت، والابتسامة الرائقة كانت وإن تكون حتى وإن دار الوقت دورته، وتذلت العقبات، وأذنت الظروف، هذا من عوامل مرارتي، غير أن لهذا الهم موضعه، فلماذا أتعجل؟ لماذا أثقل عليك؟ جنبك الله يا أخى كدوراتي. أما الآن فإنني منثن إلى ما كنت فيه، مطلعك على تدفق رقصها، على اضطرابي، على ميلها ونصحها، أن أدع جثمانى على سجيته، إلا أكون عصبيا لكن هل تفك كلماتها ما عقدته سنون طوال، ولما أبدت ملاحظة أنني كنت أبدو رائعا فى العصر، عندما واجهت البنية الأوزيكية تمهلت. كنت دائيا منها. محيطا خصرها بيدي، ولأنها النواة وأنا الجزى، كان لابد أن أدور حولها. استعدت رجلا صعيديا شهدته ذات شتاء يرقص فى ساحة معبد الأقصر أثناء مولد سيدى أبو الحجاج رضى الله عنه وأرضاه. كان رقصا عجيبا، متدفقا، رجوليا شامخا، قلت لها إننى لا أتقن الرقص. إنما دعوتها لأننى رغبت فى القرب منها. قلت إننى لم تتح لى فرصة حوار أو حديث إليها وكنت مشوقا إلى التلميح ببعض مغاليقى، عند هذا الحد توقفت فجأة فأوشك الآخرون على الاصطدام بى. لم أعبأ، تعرف يا أخى

أننى عندما أنوى أمرا لا أتقاعس، لا أرتد خطوة، لا أحسب الريح أو الخسارة، فما البال وقد بدأ خوض اللجة؟ نطقت بما يدل على ما بدأ عندي، هل بدت عليها دهشة؟ ربما. هل بوغتت؟ ربما، ما أدريه أنها أجابتني بهدوء راسخ:
- «وكيف أصدقك؟».

أوشك كل جواب على مغادرتي، خفت نفاذ زادي من الأحرف، صرت نبضا. وتبسبت خفقا، بذلت الأتاصى حتى نطقت، قلت إن دليلى هو حالى، وليس لى إلا السعى، ولها الرفض أو القبول فلتمنن أو لتغدق بغير حساب!

قلت إن الزمن غير مساعد، والوقت ضاغط والبراح ضيق فجل اعتمادى وأتكالى على سلامة أحاسيسها وصفاء قدرتها على التلقى، ذاك حسبى! نظراتى اشتبكت بنظراتها، أنا ساع وهى مترقبة، هنا رصدت أمرا يستعصى على الإدراك، كنت فى لب فلكى، وعين توقيتى، ومن حيث لا أدري أبحر مبتعدا عن مركزى القديم، أدنو صوبها هى القادمة من قلب المجرات سحيقة البعد، التى لم تكتشف بعد. الا تهيم النيازك والشهب حتى إذا دنت من مجال للجاذبية يحس ولا يرى، يبدو أثره ولا يمكن الإمساك به، تهوى إليه؟ فمنها ما يدور إلى أبد أبيد، ومنها ما يحترق قبل ملامسة سطح الفلك، ومنها ما يستحيل بعضه ضوئه، ويسقط ما تبقى منه، وقد كنت أنا هذا كله، فأنا حائم، ماض، داور، مأسور، محترق بذاتى، منتقل من كينونة

إلى كينونة، لا راد لي ولا كايح، حتى إذا أفضيت، لمحت في أفق عينيهما بادرة مجاوبة ربما كان طيفا أدق من أن يرى، ربما ميلاد رائحة ندى، لم يغب عنى، مع أنه انتهى لحظة بدنه، إلا أنه وصلنى فبدأ عندى وكفى وصلصت زلزلة! خبطت اليابسة بقدمى، فتفجر منى عهد قديم، وبدأ تدفق! درت حولى، ملت على، أقلعت تجاهى، تدفق قلبى المرهق يعدو وأثرى محاولا اللحاق بى، أما الموسيقى المتفجرة فولت، صارت ورائى، لم تعد مطاوعة فتلاشت الكينونة، ولاحت الحضرة، أما هى فراسخة، ثابتة فى جوهرها الدرى، تقف مائلة قليلا إلى الوراء، حضورها فى عل، دائما يا أخى مطلة حتى وإن أقعت، جاء صاحبى، قبلنى، قال إننى كنت رائعا، عدت إلى مقعدى أجرجر خطاى، قعدت، تتلاحق أنفاسى، ثبت منظرى فكأنى لم أتاجج، وعندما عاودت وجهتى إليها رفرف ما تبقى من قلبى، تلك ابتسامتها!

فيما بعد تساءل صاحبى، لماذا كنت أبدو حزينا؟ لم أجه فلم أكن أدرى، بل إننى لم أدر كيف انقضت اللحظات التالية، حتى انصرف القوم، وخبت أضواء المطعم، خرجنا إلى صالة الفندق أربعة، صاحبى، وشاب من أهل البلاد يتقن لغة لاوس الآسيوية وأنا. ومن قبل ومن بعد هى، مشيت أمامنا، لها صدى وترجيع، أمام المصعد التفتت فجأة متسائلة:

- «ستنامون؟»-

كنت مكدودا، كنت أتشظى بحزن غامض، غثيت، كنت أرغب
فى الخروج إلى بخارى، بخارى الزمن القديم، غير أن مفازتى
موحشة، لذا ملت إلى الانفراد بشجنى، يائسا من الظرف
والوقت، أجاى صاحبى..

«لماذا لا نتم السهر؟»

كانه يؤكد اقتراحها، تضمن تساؤلها اقتراحا بمد السهرة،
واستنكارا خفيا لشروعنا فى النوم، حمت ببصرى حولها،
مطرقة، طالعت منها جانبا لم أقف عليه، بدت ساهمة، راغبة فى
تجنب أمر ما. أو الابتعاد عن ضجر يخصها. إذن، فى الأمر
غصة، فى سماء الكون غيمة، فى صفاء النبع كدر، أبدى
الشاب متقن اللغة اللاوسية حماسا، ولما طال صمى توجعت
إلى مباشرة بالخطاب.

«أطلب إليك أن تجيبنى...»

ولم يكن بوسعى إلا أن أمتل وأبى!

قريبى

أدام الله يا أخى جميل لطفك، وأتم الله خطو سعيك كما
تشاء وتبغى، أقصى عنك الوحشة، وأدام لك قريبى من تهوى،
اعلم يا أخى أن فى الجماعة رحمة، وفى التنام الشمل أنس،
وفى الاتصال دواء وبقاء، فى الانقطاع عدم، لا أذاقك خالقنا
مر الوحدة وقسوة الانفراد، تبعتها والليل موغل هنا، مازال فى
بدايته بمدينتى، هنا زمنى المؤقت، وهناك أيضا، أما داخلى
فتوقيت خاص، لا يدري كنهه أحد، صعدا إلى الطابق الثامن،
من النافذة العريضة التى تتصدر الردهة أطلعت صوب المدينة،
المعالم مبهمه، والحدود منطمسة، المدن لا تفصح عن مكنونها
ليلا، غير أن ما تأملته خلال جولتنا النهارية سهل لى مرفأ

ابحر منه، حتى كدت أصغى إلى حداة القوافل الساعية إلى
الصين عبر طريق الحرير، أوشكت على التقاط ركض خيول
الغزاة، سماع انهيار الانقاض، وبقايا المعمار تتلمم من جديد،
فكان دمارا لم يقع، وغزوا لم يحدث، رحت أستعيد هدوء
المقهى القديم، والأغصان المدلاة التي لا يمكن رؤية الواجهات
السامقة إلا من خلالها، قعاد نفر من القوم فوق المصاطب
الخشبية وأمامهم أطباق الزلابية، وددت لو شاركتهم، لو
قضيت فى الجلسة مدة، لكن لم يدم تطلعى ولمس صاحبي
كتفى، قال إن الدقائق العشر انقضت، كانت قد طلبت منا
الانتظار هذا القدر حتى تتهى صاحبتها التي تشاركها غرفتها،
مضينا عبر المر المؤدى. طرقت الباب. بدت، تسطع فى المدخل
الضيق، ترتدى قميصا قطنيا شديد الالتصاق بجسدها،
بنهديها النافرين القاسيين. لم تكن تحيطهما بمشد غير أننى
لمحت دائرتى حلمتها ضاجتين من خلال النسيج الرهيف،
مشرعين، منهما تنبعث إيماءات لا تحصى، تخلت عن القميص
الصوفى الفضفاض، كان يحجب ما يبدو منها الآن، ما أطلعه
من استدارة ملساء لكتفيها، أما خصرها فبلغ من دقته أنه
أوشك أن يكون رمزا، لماذا تخفى جمال تضاريسها؟ أنتعمد
وهى مكلفة بمصاحبة غريباء وما من سابق علاقة بهم أن تموه
دفائن كنوزها؟ إنن.. ماذا يستر هذا البنطلون القطنى، أخضر
اللون، رجولى التصميم؟ لا إجابة عندى، فلم أكن قادرا على
إدراكها جملة، على انتظار الأوان المواتى، وهذا قد يأتى أو لا

يأتى! على انتظار الزمن المناسب لجريان الماء صوب جذور
النبات، الماء يا أخى يهب النماء والحياة للزرع، ولكن هذا الماء
عينه لو غمره فى توقيت مخالف سيقثله، ينويه، كل شىء بقدر
فلنتذكرا! أدركتني راحة عند ولوجى الغرفة، مساحة ضيقة، فى
المواجهة باب يؤدى إلى الشرفة بجوار المدخل سرير ضيق لا
يتسع إلا لشخص واحد متمددا، فوقه قعدت ناتاشا زميلتها
تلك الليلة، بقيقة التكوين، هادئة، ابتسامتها كقرنفل، تومئ ولا
تتكلم، قد تلفظ كلمة أو كلمتين، لكنها طرف أصيل فى
الصحة، بجوارها قعد الشاب النحيل، من يتقن لغة لاوس، قال
إنه تطلع يوما إلى الخريطة، لفت نظره موقع تلك الديار فى
آسيا. بلد ناء عنه، بعيد، شغلته، كيف تبدو أرضه وجباله
وزنهاره وقبل هذا ناسه؟ حتى إذا التحق بالجامعة، بمعهد
اللغات الأجنبية فرح وسر إذ لقي إمكانية دراسة لغة لاوس
وثقافتها، أمضى أعواما أربعة، بعدها صار يصحب الضيوف
القادمين من البلد البعيد، ومما سره وأرضاه سماعه ثناءهم
عليه لإتقانه لغتهم، هذا المعماري العجوز قال له صباح اليوم،
أنت تتقن لغتنا أفضل منا! مازال ينتظر الفرصة لشد الرجال
إلى لاوس.

فى الحجرة مقعدان، أحدهما قريب من الباب المؤدى إلى
الشرفة وهذا ما ركنت إليه، كنت قادرا من خلال الزجاج أن
أرى الليل البخارى العتيد. أما صاحبى فجلس فوق المقعد
المجاور للسريير الثانى، الممتد بحذاء الجدار، فوقه تربعت، فى

الركن منضدة صغيرة ودفاتر وأوراق ونشرات سياحية، فوق الجدار صورة لأحد أبواب مدرسة مير عرب، طلاء الجدران وسط بين الأصفر والبني، يمكن القول إنه في لون ثمر التارنج؛ إننى أطوف بك. وأصف لك، ويمكننى المضى، فأذكر لك أدق الموجودات فى تلك الحجرة التى ضمنتى وإياها. كنا خمسة، لكنه أول مجلس يجمعنا، صحيح هذا جمع، لكن إذا نما الأمر واكتمل السعى سنصير اثنين، ثم واحدا، لا يدرى أحدنا ذاته من كينونة صاحبه، كنا خمسة مظللين بالليل البخارى ثقيل الحضور، كثيفه، قبل أيام معدودات كان كل منا فى ناحية، وسعينا شتى، رحت أحوم فى الغرفة مؤجلا الدنو منها بنظري، لو سدت البصر لرسوت، ولو بدأت الحديث عنها والوصف، صعب على ما عداها هى المركز وسواها توابع، غير أن ملامحى لم تعكس ما يدور داخلى تعرف يا أخى أنه لقسوة ما مربى، صار عندى مسافة بين الظاهر والباطن، غير أننى مهما أجلت أو تباطأت فمصيرى حتما إليها.

اعلم يا أخى الأعز، أنها عندما تريعت، لما صارت فى هذه الوضعية آلت إليها الصدارة، دار حولها المكان والوقت، صعب على يا أخى أن أفصل لك الحديث، لكننى سأحاول تجسيد لب ما جرى وكان، أنت يا أخى سيد العارفين باللحظات الحميمية، وليالى سهرنا فى المقاهى،

ووصلنا المغيب بالفجر والليل بالنهار، لم تزل ماثلة فى بالى تعرف أننا إذ نستعيد ما قيل بعد الانقضاء نذكره فى جملته

وليس فى تفصيلة. نراه بعد انقضاء الوقت بمعناه وليس
بنصه، وبعد توالى المدة فى اثر المعنى يتضامل المشهد، تذوى
التفاصيل، لا يتبقى إلا الرحيق، الشذا، سنا هين، وأهن، من
لحظات مرت بنا كان الواحد منا إذا شهق خلالها شهقة لفرط
انفعالة، يوشك أن يتلاشى هلكا، وإنى لذكرك ببعض مما
ألحت به، فالأتى لما يغيب عنى والتغير يحوم حولى فى ذروة
الثبات، اللحظة فى أنيتها عدم محض، لذا عند مرورى بها
أطالعها من بعد قصى، فإما استعادة لما انقضى وإما
استحضار لما لم يأت بعد، هكذا أرقب الانفصال فى وهج
الاندماج، وأرصد العدم فى ذروة الوجود، وهذا ما يقضى،
الثبات المستحيل، والتغير القاهر، هكذا أطلت النظر إليها، ليس
بعينى فقط، إنما بقلبى، بخواطرى، بشواردى، بوارداتى،
أجتهد فى النفاذ إلى ملامحها، حتى أستعيدها عند نأبى عنها،
الرحيل حتمى، لم أكن أحاول استيعاب ملامحها الحية،
الجميلة، المتدفقة بالطلاوة، ولكن حضورها أعنى، هى فى
اللحظة ماثلة أمامى، ولكن اللحظة إلى انقضاء. بعد انصراف
إلى غرفتى، كيف ستبدو؟ كيف سأستعيدها؟ سأراها فى اليوم
التالى، غدا، قال قائل يوما..

لا مرحبا بغد ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة فى غد
ولكن شاء القائل أو لم يشأ، أنا، أنت، هذا أو ذاك، فالغد
أت لا ريب، ومنقض، هكذا بعد الغد حتى بعد البعد، إنن..
كيف سأستعيدها بعد إيابى إلى موطنى؟ بعد أن تباعد القارات

ما بينى وبينها. كيف سأذكر هذه اللحظات عندما يضعف حضورها فى ذهنى، وتصير ملامحها تلك مختلطة بخطوط ولحظات شتى، هذا صائر لا محالة، أليس مصير كل تلاقى إلى فراق؟ والفراق بداية العدم، وقد بهت عندى ما ظننته لن يبيد أبداً، أذكر أيام طفولتى وصباى يا أخى فأننتى خشية أن أتصدع، أيام لمتنا تلك استثناء فقد كنت غيا لا أعى دبيب الأيام، أو سريان الوقت، لم أرقب الآتى، ولم أنتبه، حتى إذا شببنا وتدرينا، توزعنا على الجهات الشتى، فصار كل إلى سبيله، وغاب عن العالم أب ظننته مخلداً. وأم وددت يوماً لو مت قبلها، أما شقيقى فغائب هناك وراء المحيط له حياته التى لا أعرف عنها شيئاً. أبناءه الذين لم أرهم إلا فى الصور، فيا أخى إصغ إلى محب لك، لا تدع لحظة تولى دون النظر إلى وليدك. وأظل الجلوس إليهما، لا تدع الدنيا تأخذك عنهما، فغد قريب سيبدأ فيه اغترابهما عنك، سيصير لكل منهما حياته، ويده كل منها يعنى انزواء بعض منك فانتبه، لا أرم تكديرك يا أخى، فانت تعلم مقدار محبتى لابنك، وقضائى الوقت معهما مما يهددنى، ودخولى دارك له ألفة فكانها دارى. وعلى أية حال لا يكون الثمر إلا بعد تفرق الأغصان وابتعادها عن الجذع، الثبات والتغير يا أخى لب القضية ولغزما، فهل سيرى سعيانا؟ اعلم يا أخى أن تعلقى بفن المعمار وإتقانى له، وطوافى بمشارك الأرض ومغاريها للوقوف على شواهده وروائعه، إنما بدافع مما يلح على فإذا كان الدهر لاراد له ولا

مانع، إذا كان يجرف كل شيء، فلنحاول إبطاء تأثيره بالمعمار،
بالحجر، لذا قال القائل قديما، لو أن الفتى حجر، ولكننى أعى
أيضا أن الحجر مصيره إلى بلى، فماذا أنا فاعل؟
فوجئت بها تقول..

- «لماذا تبقى بعيدا؟»

فرحت كطفل لأنها خصتني، أولتني اهتماما، لحت
شرودى، تطلعت إليها شاخصا، ممتثلا، وإذا بها تفارق
قعدتها، تنبثق فى وسط الغرفة، تتقدم منى، أقوم واقفا، تمسك
حافتي مقعدى تدفعه، تعتلد، تفرد طولها البديع وتشير كملكة
تصدر أمرا..
- «أنت هنا!».

تلتفت إلى صاحبى، لم ينتظر دعوتها، تقدم بمقعده،
مبتسما موقنا، أنها راغبة فى اللقاء، فى التقارب، فى تدانى
المصائر، طوقت سوقها بنظري، وددت لو ثبتت هذه اللحظة فى
وعىي. بينما الح على تساؤل، أين كانت هى فى مثل هذه
اللحظة، العام الماضى وأين كنت أنا؟، بل أين كنت لحظة
مولدها عام ألف وتسعمائة وثلاثة وستين؟. كانت نفرا فى
القافلة الوافدة من العدم إلى الوجود. ويوما مالا أدرى كنهه
الآن. إذ لا تدري نفس بأى أرض تموت، عندما ألق من الوجود
إلى العدم. أين ستكون هى؟ بأى أرض، بأى محلة؟ أستكون
ساعية؟ أسيطوف أثرى بخلدها؟، كنت فى مواجهتها دوارا فى
فلكها، وفى الوقت عينه بى حس من شد خفى المصدر، لا يبين

لا يكاد ينتزعنى منها، كنت موزعا بين ما أنا عليه وما سأكونه، مفقودا حاضرا، مفقودا بين لحظتين، حاضرا فيهما معا! اعلم يا أخى أن إخواننا لنا من زمن بعيد قالوا فى رسائلهم، إن الزمن ينقسم إلى سنوات، سنة مضت. وسنة لم تأت بعد، السنة تنقسم إلى شهور، شهر معني وشهر لم يأت بعد، وأن الشهر ينقسم إلى أيام، يوم مضى، ويوم لم يأت بعد، وأن الأيام تنقسم إلى ساعات، ساعة مضت وساعة لم تأت بعد والدقائق منها ما مضى وما لم يأت بعد، والدقيقة تنقسم إلى ثوان، ثانية انقضت، وثانية لم تأت بعد، إذن أين الزمان؟ وهكذا مضى منى مقدار، ومقدار لم يأت بعد، فأين موقعها هى منى؟ تعود إلى مرقبها، إلى موقعها، إلى الحيز المكانى الذى يشغله وجودها الحسى، بدأ فيضها، لا تستقر على وضع واحد أكثر من دقائق معدودات. تتكلم فتبذل الجهد الأتم لتبدو وكأنها تخاطب كلاما، تخصصه، تتزاحم الجمل والكلمات عندها، يصبح النطق غير مساعد، فتتحدث عيناها، وملامحها كافة، تبدو راغبة فى بوح فى اقتراب، فى تلاق، أمله أن يدرك كل منا ما لم تقله، الضلال التى يعسر لفظها، قالت إنها المرة الأولى التى تنزل بخارى ومن قبلها طشقند، المرة الأولى التى ستمضى فيها إلى سمرقند، البلاد شاسعة، ولكم ترغب فى رؤيتها، ها هى فى آسيا الوسطى، ومشروعها القادم إما سيبيريا أو جبال الأورال، ستفضل القطار. الطائرة تلفى الإحساس بالنقلة، تود الإقامة، فمعرفة المعمار الحقنة لن تكتمل

إلا بإدراك البشر. عملها كمرافقة استثنائي، اختاروها لا تقانها الإنجليزية، بدأت تتعلمها منذ الرابعة، وهي في الحضنة أنها تدرس الطرز القديمة، التفتت إلى، إلى صاحبي، تعرف الكثير عن العمارة الفرعونية..

«لماذا تسكت؟..».

توقفت فجأة. حادت صوبي، باغتتني بينما كانت تجتاحني على مهل، ويقدر انبعاث بهجتي لتوجيهها اللفظ إلى بقدر وجلي، نعم.. كنت صامتا برغم موارد داخلي، كنت أمنح منها مددا يشد أزرى بعد بدء ابتعادي، سؤالها المفاجئ ذكرني بي، كنت مثلها في تدفقها هذا، أيام لم أكن أعبا بساعة هجوع معينة، لا أشكر خلا لا أقاسى وحدة، أيام اجتماع الصبح، واكتمال اللمة، انقضاء الليل ونحن سهارى، يتكشف الخيط الأبيض من الأسود وحواراتنا لم تنفد والأمر فيه بقية، وقد أبدى اقتراحا لم أعد له العدة، أن نمضى إلى شارع المعز. نجوس في ظلال المباني العتيقة. أقف بين الصبح، أشير إلى الواجهات السامقة، أوضح الفرق بين منذنة قلاوون، ومنذنة برفوق، أبدو منفعلا، حتى قال صاحب لنا سورى يوما: أنت تضىفى حياة على الجدران الرمادية، حتى لتوشك الحجارة على النطق، لماذا تسكت؟ لم أجبها مباشرة فمطت شفيتها تعجبا وحيرة، واستمرت، والداها أستاذ جامعى، متخصص فى الاقتصاد، أما والدتها فطبيبة، باحثة فى علاج الأورام.

كنت يا أخى أواجهها بتراث مثقل، وحمول جمّة، وحرز غتيت ملازمى طوال السنين الأخيرة، أورت هذا عينى ظلالات، وكسى نظراتى غمامات رمادية، كان فيضها ينبهنى بقوة إلى أى حد أوغلت مبتعدا. عرفت فيها مثل تدفقها هذا، وددت لو أعرف كيف ترابى من خلال موروثها وتكوينها، كيف أبدو عندها؟ متمنيا أن تدرك بعضا مما يعتمل داخلى، وددت لو انفردت بها دقائق، لو فجرت بعضى بين يديها، لكننى لم أرها إلا فى جمع، هذا صاحبى يبدو ودودا، مبتسما، يتقدمنى بأكثر من عشرين عاما، عرفته متفائلا دائما والظرف العاتى غالب، فياضا، قادرا فى الحال العاتى. وإنى لمحدثك عنه يوما إذ خاض انتخابات نقابتنا، غير عابئ بما يتهدده من أخطار. متصديا لذلك المهندس المقاول المدعوم وقتئذ من كل سلطة، وأحد رموس الفساد، خطب محرضا، وخط الكتيبات كاشفا ما يجرى فى الخفاء، وذكر الأرقام، وأتى بالأدلة، حتى قلت يوما مادام فى قومي من هو مثله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وعندما زج به فى السجن لم يهن صوته، ربما لأنه مازال فى جماعة وصحبة، ألم أقل لك يا أخى إن فى اللمة رحمة؟ أما قناعاته فلم تدركها الشبهة، لم يصيبها عطن، ولم ينل منها ومن، كنت أرقب قدرته على المجارة والتفاعل، محاولا قدر طاقتى تتبع ما يجرى بينهما من حوار. لا أدرى مسار الحديث الذى أفضى بها إلى القول بأنها تزوجت فى الثامنة عشرة، إنن.. ليس كما أخبرنى الهندى. عندما همس لى محذرا أنها

زوجة جديدة، بما يعنى اشتعال الجذوة، إذن.. كانت تصرح
بما يدفع عنها الشرع أو المحاولة، قالت إنها لم تر الآثار
الفرعونية إلا فى الصور..
- «هل رأيت الكرنك؟».

أومات مبتسما، فرحا أنها تنطق أمرا يخص قومى، لكم تود
دخول الأهرام. والوقوف بين يدى (أبو الهول)، زيارة معبد
إدفو قالت إنها قرأت عن ظروف بناء هذا المعبد فأحبته، بدأ
تشبيده والحضارة تنوى، والعقيدة مطاردة، أتمه القوم ليلا.
- «هل زرته؟».

ينبهنى صاحبى..

- «فاليريا تسالك..».

أهز رأسى نغيا. تبدى تعجبا ودهشة، يقول متقن لغة لاوس
الهادىء الصموت:

- «فاليريا اسم له أصل عربى..»

نتطلع مستفسرين، تشهر أصبعها..

- «يعنى ليلى..»

أرضى إذ أجد وشيجة قريى بينها وبين ناسى، طال إقلاع
بصرى تجاهها، بدأ ضوء خفى مختلف يشع عبر وجنتيها،
أيقنت أن أجدادها الأقدمين لم يتناسلوا إلا لتصل هى إلى
وقتى، وتقرع مغاليقى بفيضها، فكأنى ما جئت إلى بلاد ما
وراء النهر، مادنوت من نهري سيحون وجيحون إلا بحثا عنها،
لاكتشف عين الحياة التى خلقت منها، أبدا.. لم تكن هذه نطفة

فعلقة، لم تكن يوماً بين صلب وترائب. إنما خلقت من ماء الحياة، منها تتدفق الحيوية، غير أنني لم أحتس منها بعد، مع مضى الليل كنت أتطلع إليها، مأخوذاً عن كل وجود سواها، فلو تمثل العبد الذى أوتى من اللدن علماً، وقتل أحد الموجودين لسبب يعلمه هو لما استفسرت، لو هدم الجدار القائم لما سألته، لو أشعل النار فى الأفق لما انتابنى فضول هى فقط فى مواجهتى، أتلمس طرقاً إلى رائحتها، أقلع منها إليها، فهل يدرك الكوكب انجذاب توابعه إلى فلكه، كنت أتفرق، وعناصر منى تتبدل إلى مالا أعدهه، حتى إذا بلغت حداً من التوارى والانطواء داخلى، وأيقنت أنه لا عالم بعد اليوم، شبت طفرة من طفراتى، واندلعت إحدى ومضاتى، فارقت مقعدى فجأة، وحطمت بجوارها، أهدتنى نظرة جانبية راضية فأمنت، احتفظت بمسافة تمكنى من النظرة الشمولية، أما هى فغيرت على الفور من وضعها، ثنت ساقها تحت وركيها، فانقلبت فى حركة مباغتة لتجثو على أربع، بدأ ظهرها رحب النغم، أما حضورها الحسى فازداد توقداً، وما زاد الأمر صعوبة انحسار القميص إلى أعلى، وتراجع بنطلونها قليلاً، مما كشف عن وادى ظهرها المؤدى إلى مفرق رديها، ولمجرد أنني تطلعت فكأننى لمست، دنوت وتندبت وقلقل هذا حسى ومعناى، لاحظت أن صاحبى أدرك ما أدركت. فسدد نظراً نهماً، لم يخفه، ضايقتى منه هذا، وددت لو أنه لم يفعل، تمنيت لو غطت ما بدا مع أن ولايتى منعدمة، إلا أنها لم تركع إلا لثوان، فردت

جسدها، فكأنها بعثت من داخله جسداً آخر، حركت ذراعيها،
بدت على حافة الرقص، غير أنها ثنت ساقها تحت الأخرى،
اتخذت وضعاً بوزيا، وتحدث الحاضرين أن يأتوا بمثله. بادر
صاحبي، بدأ المحاولة لكنه لم يتمها فارتحت! تقدم متقن
اللاوسية، إلى حد ما نجح إلا أنه لم يحتفظ به، بينما كانت هي
كما هي، أنا لم أشرع، أما ناتاشا الصامتة فصفتت، عندئذ
أنهت وضعها، بدأت تغني، كان صوتها فتياً، يتضمن رقّة،
وشجناً خفياً، تابعتها تمايلين مع النغم، وهنا بدأ منها تجدد
آخر، لم يدركها الوهن أبداً، أما عيناها فازدادتا تالفاً، أقول لك
يا أخى إن العتمة لو أرخت سدولها لضوت هي، مع قربي منها
دام تطلعي ومحاولة تتبعها، فاصبر على يا أخى لو فصلت
وأطلت...

فتارة أراها صاعدة، متجهة إلى منبع ريح الصبا، وتارة
إلى حر الجنوب..

مرتفعة إلى أوج. هاوية كشهاب دنا أجله، وحان احتراقه،
حتى إذا أوشكت، شهقت فيعجز الفراغ عن استيعابها..
تدنو من البروج كلها، فتارة للبروج النارية، ومرة للترايبية،
وأخرى للهوائية، ثم تنعطف إلى المائية، إلى المتقلبة، إلى
الثابتة..

المح عندها دوران الفصول، هي ربيع، هي صيف، هي مطر،
هي صحو، أراها متفرقة، أراها متجمعة، أحياناً ناظرة،
وأخرى مولية، منصرفة، مقبلة، مجتمعة، واقفة،
منبع ومصب!

قريبة حتى أوشك على تنسم ما تجود به مسامها .
بعيدة، قصية، مستحيل إدراكها، فكأنها مصدر كل
اغتراب، هي بجوارى، طفلة تلهو، وأنثى ضاجة، فوارة، مثيرة
للكرامن. تطرح الغازا والعباب، ثم توغل فى نقاش عويص عن
وجهة المصائر وغايات الأمور الخفية..

رأيت فيها مراحل فى لحظة، وأعمارا شتى فى كينونة، أما
جسدها فمعمار متكامل، مبسوق، علو كقبة بانتيون روما،
ورشاقة تستعصى على اللمس كمنحنى مدخل مدرسة
السلطان حسن، مهيب كأيوان كسرى.
- «لماذا تنظر فى الساعة؟».

اعلم يا أختى أننى لم أنتبه إلا بعد أن فاجأنى احتجاجها،
انها الخصال القديمة، فى تمام القرب استدعى اكتمال البعد،
وفى ذروة النشوة أفتح عيني لأرصد ردود الفعل على وجه من
اقترب بها، والى جسد فى جسدها، فى هذه اللحظات أدركت
اقترب الفجر، ولهذا فدون أن أعى تطلعت إلى الساعة،
والهواجس عندى تبدأ مع اقتراب الفجر، حيث اضطراب
أنفاسى، وإصغائى إلى أصوات تصدعى واقتربان ذلك بتوقع
الموت، يضطرب قلبى، وتتداخل أحوالى، ولا أدرى لماذا أوقن
أن رحيلى سيكون فجرا، الآن ميلادى كان فجرا، أم لأن إقلاع
والدى تم فجرا أيضا؟ فى الفجر أتوجس خيفة، وأصغى إلى
دبيب اليوم القادم. متسائلا، هل أنا بالغه؟
تطلعت إلى صاحبى، فهم عنى، أوما، صاحت محتجة..

«ستنصرفان؟».

لزمت صمتى، أجاب صاحبنى..

«لأبد أن تنام ناتاشا، لأبد أن ننام لو ساعة..»

ثم قال..

«أمامنا غدا سفر وجولة..».

تلفتت إلى ناتاشا:

«تريدن النوم؟».

تجيب البنية بابتسامة، وبدأ متقن اللاوسية على أهبة الكلام

لكنها صاحت..

«أسكت أنت..».

رق صوتها فجأة، لمحت فيه رجاء.. قالت..

«لماذا لا نخرج ونقابل النهار معا.. ثم ننام...».

بحدة التفت إليها، رأيتها بين شجرتى التوليب، اكانت تقابل

النهار منفردة وقتننذا؟، غير أن ماهزنى أمر آخر، هذا مقترحى

فى الزمن القديم.

منذ أمد كنت فى عشق عظيم، هاتفت صاحبتى بعد

منتصف الليل. مقترحا أن نلتقى بعد الفجر. أن نرى أول ضوء

معا. أبدت ترددا وخوفا، وإن أعجبها عرضى، وفى مرة ثانية

التقيننا ذات صباح، وخطر لى أن نساغر إلى الإسكندرية، نرى

البحر ونرجع فى اليوم نفسه، قطعنا المسافة متقاربين

مبتهجين، وعندما طالعنا الموج، والزرقة، طربنا، وتفاهمنا، وعند

المغيب عدنا إلى مدينتنا، هذا مقترحى، وإذا بالدائرة تكتمل

ويتلى على مسمعى ما قلته يوماً، وممن؟ من هذه المجرة
الانثوية، وما أنا إلا تابع لأحد أجرامها، فإما درت حولها، وإما
انجذبت تجاهها، وإما أفلتت من إسارها فأهوى إلى هدم، تبدي
هى الرغبة، بل بنفس الإيقاع الذى صدر عنى يوماً، فأتردد، بل
واعترت وأسفت لى، رثيت على، أين اتصال الليالى ببعضها؟
أين سهرنا صحبة فى المقهى القديم؟ حتى إذا أذن الفجر
ولجنا المسجد القديم، القريب، نتنسم فراغاته، وصفاءه، نخرج
منه والنهار مكتمل، نشيطين، أما سعينا فشتى. ما من تعب، ما
من وهن، أين زمن الحرب عندما كنت مجدداً فى الصفوف
الامامية، تتوالى أيام ثلاثة دون إغفاءة. ويكفى إغماضة العينين
لحظات معدودات فتجدد الجذوة، أين هذه الأيام أين؟ أهو
السن؟ لكننى لم أوغل بعد. أهى العلة المفاجئة. لكنها نتيجة
وليست سبباً، بعدها صارت أفعالى فى الحدود بعد أن كانت
فى المطلق، لكن صاحبه هذا به أعطاب شتى ويتأجج حيوية،
أعى أن لحظاتي فى الليل البخارى هذا ستكون زادا عندما
أثقلب فى وحدتى، وأوغل فى غربتى، كنت أعى يا أذى أن
حضورها بقربى سيتوالى على، زاد نفيس، عزيز، فلماذا لا
أبقى؟ لماذا لا أستجيباً خاصة أنها هى التى تطلب، هى من
يرغب، الوعى أننى مهما بقيت فمصيرى إلى انصراف؟
الرغبتى فى الانفراد؟.

- «لماذا تريد الانصراف؟».

- «لابد من النوم...».

تقول بضيق.

- «سيجيء زمن ننام فيه طويلاً..»

- «إني مرهق..»

قالت:

- «كل شخص فينا مرهق..»

انتبهت إلى اتصال الحوار بيني وبينها، أنا وهي لا غير، كنت يا أخي حائراً، إلا أن وقوف صاحبي، ومتقن اللاوسية. وإنهاك ناتاشا البادى حسم الوضع، وعندما أويت إلى مضجعي أيقنت منذ أتمام اجتياحها كينونتي، وأن ما تراءى لي نائياً صار قريباً، وما أصغيت إليه دبيبا صار ركضاً، غير أنها يا أخي لا تزال قصية، فكيف أتم الرسالة؟

إرتقاء الكتيب

.جياش أنا يا أخی، وما تارضى إلا عطاء بدون انتظار.
وفیض بغير حساب. وعمّا أنا فیہ فلم أبغ إلا الإحاطة. ألیس
ظلما لو أن جوائ لم یلق ظلا، وهوائ لم یحدث صدی؟ قوی
عزمی. وانجذابی، وإنی لسارد علیک حواریة دونها عارف
قدیم، جاء إلى بلاد ما وراء النهر، وربما وقعت عیناه علی
بعض مما رأیته أو توقفت عنده، قال الجلیل واسمه جلال
الدين..

قال: من بالباب؟

قلت: عبدك المحب.

قال: فأی شیء لك؟

قلت: أقرئك السلام أيها العظيم.

قال: فألى متى تلاحقنى؟

قلت حتى تدعونى

إلى متى تجيش؟

قلت: حتى القيامة.

هذا لب قصدى، أن يصلها نبأ بما عندى، أعلم يل أخى أن من الأشياء ما لا يمكن إدراكها أو تصورها لخفائها أو دقتها، مثل الجزء الذى لا يتجزأ، والمعنى الأول، وسبب ورود هذا خاطر دون ذلك، وسير الميل إلى هذا الشخص دون غيره، وجوهر الثمر فى الأكمام واندلاع توقى. وإدراكى أن ما أمر به مآله إلى انقضاء، ومع ذلك لا أنثنى، فالوعى عندى أثم، إن نهاية الشئ فى بدايته ولحظة تهدم البنيان تتحدد عند تشييده، أما موت الإنسان فيبدأ عند ولادته، وكما قيل فى المعنى.

ميتا خلقت، ولم أكن من قبله

شيينا يموت، فمت حيث حييت

أعلم يا أخى أننى وقفت بمفردى مستقبلا نهارى السمرقندى الأول، اعتدت تبدل المواقيت، واختلاف الأزمنة. استيقظت وعندي جذوة متقدة، هى على مقربة، تشغل حيزا معلوما بقدر، تتنفس هواء بعضه يعرف طريقه إلى صدرى، أما

وجهها رطب الملامح، فسيطالعنى بعد قليل، كنت مستوفزاً، متاهياً، تقدمت من باب الشرفة الزجاجى، ذرات الماء الدقيقة مغيمة، مسحتها فانجلت الرؤية، فى البلاد التى أنزلها أول مرة اعتدت إغلاق الزجاج وإسدال الستائر الخفيفة لا غير، أما الثقيلة فأنحيها، أوثر مقابلة كل عنصر فى الأرض التى أطؤها أول مرة. فما بالك وسمرقند لها عندى فرادة، وقديم صلة، وأحلام مبهمه، وتوقعات غامضة، واحتمالات ربما تبدو لك مستحيلة، أن ألقى بعض من سبقونى بقرون، خبرت هذا غير مرة، عندما شاركت فى جمع جاء إلى فاس ليتدارس وسائل الإبقاء عليها، والقيروان بتونس الخضراء عندما مضيت لأعين مسجد عقبة السمردى، وعندما استندت بيدي إلى جسر خشبى فوق نهر العشار لأتأمل شناسيل مدينة البصرة، ومن قبل ومن بعد قاهرته المعزية التى فرقت لحظاتي عند نواصيها، ومداخل مبانيها، يخيل إلى أحياناً يا أخى أن ما مر بهذه المدن لم ينقض، لم يندثر، دائماً أتوقع من يجيئنى ليأخذ بيدي ويصحبنى إلى غير ذى جهة لألقى الأسواق القديمة، وحلقات الدرس فى مدارسها القديمة، وساحاتها يعبرها المحاربون الخارجون لملاقاة الغزاة، وإذ أجول عبر الدروب الضيقة أجد النفس للوصول إلى ملمح مما انقضى. لكننى لا ألقى إلا

الأنية!

أشجار ضخمة تتخلها شجيرات التوليب، تنمى الرؤيا،
تؤطر الوجود، قبة زرقاء سامقة تولد من خلال غبش الضباب،

تحدد الفراغ، حدث ببصرى، ليست بمفردها. قبة أخرى تراجها، فيما بعد أدركت أن القباب هنا تجاوب بعضها، فلا تدرى الأصل من الظل، وأينما وليت وجهك فلا يقع بصرك إلا على نممة النقوش تجاوب النقوش، والرقعة تؤاخي المهابة. أما تدفق الخلق فلا بد أن يؤدي إما إلى بوابة عتيقة. أو مدرسة، أو مسجد، أو ساحة انطلاق. أو ضريح يرقد فيه جليل، تلك مدينة سيد الفاتحين، من طمع إلى امتلاك العالم. تيمور. ولى تعليق أود لو أفضيت به إليك، ولكن فى وقت آخر. وليس الآن. فإنى متعجل رؤياها، أليست باعثة جذوتى تلك، والتي طال ترقبى لها زماناً؟.. بسرعة أديت طقوسى الصباحية، من حلق لحية، وغسيل أسنان. وحمام دافئ. وترتيب حاجاتى التى سأصحابها فى حقيبتي الصغيرة، عند دخولى المطعم كان المكان خلوا منها. لمحت صاحبي، أمامه طبق فيه بيض مقلى، وكوب ملىء بالشاي، ورغيف أوزبكي. بدأ صامتاً، إلا أنه محتفظ بظل بشاشة، وطيف ابتسامة، وعندما بدت بنية رقيقة. دقيقة التكوين، تلملم شعرها فى ضفيرة طويلة، سخية، أقدمت تجاهه مستأنسة، متحمسة، أضمرت حسداً وإعجاباً لإبدائه الود تجاههن، وإظهاره جميل اللياقة وإقبالهن عليه، وبينما تتعاقب التعبيرات الأمانة على وجهه، أعتصم بصمتي، محتفظاً بسمتي، فما يبدو مغاير للباطن. أظهرن النفور منى، لم يومئن حتى عند مرورهن بى. وهذا جعل خشيتى تتعاضم، ألا يصل من أدور فى مجالها قبس من عندى. لم أكن أرى ماعداها، ولا أعبأ بغيرها،

وعندها جاءت، سرت، ولا أوشكت أن تتجاوزنا ناديتها، توقفت، والتفتت. وأومات، ثم لبت، وعندما استقرت بجوارى هدهدى قريبا، اقتربت من حافة عبيرها الخاص، الرائجة القادمة من توالى حضورها، من أنفاسها، من مسامها، من زمنها، لم أتمكن منها بعد. غير أنى رحت أحوم أحاول الطواف والقبض على ما لا يرى، هذه أنفاسها، وهذا أريج شعرها. أما الصبا فقادمة من أغوار روحها، أثار قريبا منى حيننا غامضا إلى وديان لا تقوم فيها بناية، ولون أخضر زانٍ نضر يوحى بالبلل. تبدو مهمومة، ساهمة، فكأنها قاست أرقا، متلعة إلى جهة لا ترى، أما إمساك يدها بزجاجة الملح الصغيرة وإدارتها فتعنى انشغالها بأمر يستعصى على إدراكه، وكدت فى هذه اللحظة أوقن أن ما بدا منها فى ليل بخارى لن يتكرر، كانت تتجاوزنى بالنظر، وكنت أدركها وأدرك المدينة معا. إلى داخل الفندق الأوروبى التصميم ينفذ حضور المدينة. تبدو بخارى وكأنها اقلعت من الدهر، أما سمرقند فمتباهية، مختالة، لا تزال فى لبه؛ بخارى لا تتكشف للغريب مرة واحدة، شيئا فشيئا، أما سمرقند فتبدو بشموها، بعمقها منذ اللحظات الأولى، يسألها صاحبى عن المعمارى الهندى وصحبه. قالت إنهم تناولوا إفطارهم مبكرين، وهم يجوسون الطرقات قرب الفندق، جاء النادل، وقف منتظرا، اقترحت عليها الزلابية، قلت إننى عندما أنزل بلدا أول مرة. أحرص على أمرين، أن أطمع مما يختص به أهله، وأن أصغى إلى موسيقاه. قلت إن موسيقى

هذه النواحي حزينة، شجية، فيها أنين مؤلم عمره قرون. فيه صلصلة الأزمنة المندثرة، والقيام والانهييار، والقطع، والانتناف، والإحساس بالمجد، قلت إن مالفت نظري تلك الإيقاعات الأندلسية، والآهات المصرية، والأنات العراقية، والوشى الصينى، قال صاحبى إن تاريخ المنطقة وعر.

هنا قالت إن للمكان خصوصيته المؤثرة.

ثم مالت تجاهى

ما الزلايية؟

قلت إننى تناولتها فى بخارى أمس، فطائر محشوة باللحم المفروم..

ثم قلت..

نفس الاسم عندنا. لكننا نطلقه على فطائر حلوة..

حادت بدهشة، قوست حاجبيها فبدأ جمال كامن، وأصغيت عبر ملامحها إلى لحن بعيد. تائه منى، غائب عنى، لحن مبهم، يؤجج حنيننا ويضاعف تطلعات إلى الرحيل، ويستدعى لحظات بهجة، إما أنها ولت. أو لم أعشها، أو لم يعد لها موضع فى الذاكرة المثقلة.

مضيت أشرح التقارب بين الأطعمة هنا وهناك. ولم يكن تدفقى إلا حجة للنظر، ووسيلة للقرب، تعلم يا أخى أنى أحياناً

أبدأ فلا أكف عن الحديث، خاصة إذا كنت فى جمع بينه من أحب. أتجاوز كمونى، فكأنى ألوذ بالصحة، حتى إذا انفردت ارتددت فأبما وجلت، وأما انفجرت. كانت تصفى ساهمة، متبعة، فكأننا تبادلنا المواقع، فى ليل بخارى فاضت هى. ولزمت الصمت، وفى الصباح السمرقندى هذا أطلت وأصفت هى، جاء النادل أسىوى العينين والوجنتين، وضع الطبق أمامها، أقدمت حتى اغيب عن طقوس الخدمة، ملأت كوب الماء. وقريت طبقا غير ممتلى، وعندما قضمت قطعة من الفطيرة ازداد شرودها، مع المضغ بدت شفتاها مضمومتين، رياتتين، هما حضور الياقوت، ودقة شقائق النعمان قمعت رغبتي فى الميل والقطف حتى لا يلوح على مايشى بأمر صبايتى وحدة توقى، لا أدرى يا أخى كيف مضى الحديث، لكننى انتبهت وصاحبى يقول:

هل سمعت؟

كيف لم أصغ؟ لكن عذرى أننى كنت مولياً وجهى شطر إحدى جهاتها، أحد رواقها، أبدت الاستفسار. عرفت منه قبسا مما صرحت به وأنا فى قلب الغيبة عنها لشدة حضورى قريبا.

اعلم يا أخى كشف لك الله ما خفى عنك، وما دق فهمه عليك، أنها عندما كانت فى الثامنة عشرة، أى منذ ست سنوات، تعرفت إلى من هو زوجها الآن، هل كان مقيما على

مقربة؟ ربما، هل كان على علاقة بوالديها؟ ربما. المؤكد أنه هام بها. فى كل صباح عند اجتيازها عتبة الباب تلقى الأرض مفروشة بالزهور. وعند المدخل الرئيس تلقاه، يحيطه الثلج، ملتحفا بمعطفه. بغطاء الرأس الثقيل والانتظار والرغبة، أسابيع طويلة لم ينقطع يوما، لم يغب صباحا، وعندما اقترب يوم الخميس والعشرين من مايو، اليوم الذى جاءت فيه إلى الوجود، وقبل انتصاف الليل بدقائق خمس، فوجئوا بطرق هين، كان يقف بالباب، حاملا باقة زهور، قدم بطاقة خط عليها ما ينبئ بدخائله، ورجاها أن تقبل ساعة دقيقة، ذهبية الإطار، كان يحتفل بعيد ميلادها على طريقته كما قال، أحببت حبه لها. كانت صغيرة، لكنها بعد اقترانها به، رأت فيه شابا جدا. هكذا أفضت متأسية، متحسرة، لم تخف أمرها، صممت، كأنها ودت لو أنه أكثر نضجا، ولاح منها ما بدا معبرا عن نفار. لم أعلق يا أخى، خفت أن أبدو غير موفق، وإن احترمت حبه لها. ومشروعه فى التعبير، وحاولت أن أتخيله فلم أقدر، وددت لو استفسر عن حبه الآن، كيف يعبر عنه، كيف يراها عند استيقاظها؟ عند تحركها فى البيت؟ كيف تمضى أدق لحظاتها الخصوصية؟ لماذا تبدو حزينة؟ ألهذا الحزن علاقة، أم أنه لأمر مختلف؟ بعد أن فرغت. سألتها عن يومها، قالت إنه موزع ما بين المعهد وما بين البيت. ما بين دراسة المعمار وما بين شئونهما، إنها تقوم بكل شىء، أحيانا تمضى للسباحة، للرياضة أو للمشى مسافات طويلة. سألتها عن أصحابها الأقرين، فقالت إنها لا تثق بأحد!

أخى الأعز..

هذا حوار جرى بيننا، بينى وبينها لا غير، فى المسافة الواقعة بين باب المطعم، والمدخل الرئيسى للفندق. حوار له منزلة عندى ومودة. حتى وددت لو دونت ما احاط به، تاريخ هذه البقعة من الأرض التى مشينا فوقها، من لامس موقع خطانا منذ أن جاء إليها بشر وسعى إنس، وددت لو وصفت ما احاطنا، وذكرت كل من تواجد على مقربة، وحال الطقس، وموقع اللحظات من دوران الفلك. أليس حوارنا الأول على انفراد؟.. أليس الحوار الذى أنس فيه ثقة بى، وخصوصية؟.. فما صرحت به لنا لم تقله للهندي وزملائه مع أنها مكلفة بمرافقتهم، وشرح ما يروونه، وتيسير السبل لهم، لكنها شاءت لعلاقتها بهم ألا تتجاوز الإطار، كما أنها موته، فلم تفضح شيئاً عن حياتها، أما النبيرة التى صرخت بها أنها لا تثق بأحد، فبقدر ما تضمنته من شكوى، بقدر ما احتوت من أسى وروح إلى أنا، كنت متاهبا لالتقاط أية إشارة. تلون صوت، أو ارتعاشة واهنة فى مخارج الحروف، أو تسهيم نظرة، غير أن سنينى علمتنى الحذر. إلا أباغ، فلكم أسى، فهمى، ولكن أهديت بصورت، وأفصحت وأحبطت. وأنت عالم ببعض مامر بى.

عندما اجتزت المدخل، بدت برودة الجو محتملة. إلا أننى احتفظت بغطاء رأسى، الأشجار حول الفندق. وأينما وليت البصر تقع عينك على مباني العصور القديمة. الخزف الأزرق

غالب، فكان مواد البناء والزخارف. والضحك المنسجطيق والثالث
وتلك الحروف، المتداخلة المتصلة وثيقة الأربى بأسباب خفية.
تمتع من نزقة السماء وتنهل، وإذا كانت بخارى كما لا يولد
العتيق الذي تطوى أوراقه معانى أكثر مما تظاهر، تكظم وتدثر،
فالحضور السمرقندي، مسجوط الكافاة، للقاصى. للادانى، كنا،
أنا وهى نقف فى الباحة، ننظرين رفاق الرحلة، هى على مقربة
بجوارى، لبشرتها مذاق القشدة التى تغطى اللبن فى وعاء
فخارى، تدس يديها فى جيبي معلفها، أدا الدسباح فوقته من
هذه الأوقات التى تمد فى الأجل. وتقصى الهواجم المكورة
للأفئدة، وتعد بالوصول والبشر، كنا فى انتظار العربة التى
سقلنا إلى مدرسة بيبي غانم. زوجة تيمور، إلى مجموعة شاه
زند، الأمير الحى، بين كتبي مجلد يسجلها من كافة زواياها.
كان عندى انفعالى الخاص، لقرب رؤيتى ووقفتى على ما
طالعه صوراً وسطوراً، تحين لحظة أقف فيها لأقرأ فاتحة
الكتاب على شاه زند. قثم ابن العباس. ابن عم الرسول الكريم،
تقول مخطوطات التاريخ إنه استشهد هنا فى العام السابع
والخمسين لهجرة حبيبنا وشفيعنا، لكنهم يوقنون هنا أنه بعد
سقوطه شهيداً، حمل رأسه بين يديه، وأوى إلى بئر عميقة، وفى
قاع البئر تبدأ طرقتى إلى حدائق لا يحيط بها بصر، ولا
يدركها رحيل وإن طال. وأنه مازال حياً يرزق فى إحداهما!

كان قصدنا مدرسة أولوج بك. ومزارات شتى، كنا نتأهب
للتوجه إليها مع أنها تلوح من هنا. يجى العصر العتيق إلينا،

يلدفا، أينما كنت فى سمرقند، ولا يدعك تمضى إليه. يؤجارك،
يتبعك، يتقدمك، ويسلك الطريق إلى شعاب الذاكرة والتلاقيف،
النى لا تبين، أما حضورها الكثيف فأضفى معنى فريدا على
هذا كله، كان ما أراه من معمار وتكوين فى الفانت، أما هى
فإنها الآتى عيئة، فى الضوء السمرقندى رأيت لونا جديدا
لخصبالات شعرها، فإن قلت إنه أسود صدقت، وإن وصفته
بالنحاسى أصبت، وإن لحدت فيه شقرة فما كذبت، ينهل من
الصفات، واللوان الحليف. وسر الشفق، قلت فتوددت..

شعرك جميل

واجهتنى. بجانب وجهها الأيمن

كان أطول

ثم قالت فى نبرة أنثوية:

هل يعجبك هكذا؟

تسألنى أنا؟ هى توجه إلى يا أذى استفسارا عن رأى؟
لا... مهلا، ليس بهذه العجلة. أوشك بهت أن يطوينى، لكننى
أقلت منه بقولى:

إنه رائع.

بدا منى تحمزن، فى العربية نأت عنى، حرصت على الجلوس
فى الصفوف الخلفية حتى أنهل منها. حتى لا تغرب عنى،

عرفت من صاحبي أننا قبل بدء الجولة سنتجه إلى اجتماع، حيث تلقى كلمات ترحيب ومودة، اخترقنا شارع مكسيم جوركي، على جانبيه يتداخل القديم بالحديث، تتماس الأزمنة. وتتوالج أحيانا. بعض الأزياء الأريزكية منحدره من عصور تعرف يا أخى مدى حنيني إليها وتفكرى بها، توقفنا أمام مبنى شيد فى الأربعينيات، سارعت بمفارقة مقعدى حتى أقترب منها، جاورتها، التفتت إلى، كأنها تحدث نفسها قالت:

لا أحب هذه الاجتماعات..

حرت. هل يجوز لى الرد؟ هل أرجوها البقاء، أو أعرض صحبتى، وددت لو طلبت إليها. ألا تغيب عنى، لكن الجم لسانى تطلعت إلى، كررت.. أنضيق بالخطاب.

ثم قالت:

لن أذهب.

أطرقت مفكرا. فى مردود اختفائى من الاجتماع، وصحة هذا من عدمه، وعندما تطلعت صوبها لم ألقها، لا أدرى كيف اختفت، عند دخولى القاعة لمحت الهنذى وصحبته، لم تكن معهم. أصغيت شاردا إلى التصفيق، إلى الترجمة الفورية، إلى ملامح الحضور، إلى الدقائق المتعاقبة، يهتصرنى سؤال، أين هى الآن؟ لماذا نفرت هكذا؟ لماذا أسفرت عن هذا الجموح؟ هل بدر منى شىء؟ لماذا أحمل نفسى الوزر؟ لكنه دأبى يا أخى.

عندما تركت العربية مبتعدة سرى عندي خواء.. أين هي؟ هل
تمضى عبر آثار المدينة منفردة؟ أم أنها بصحبة من أجهله، وما
نفورها إلا حجة لانصرافها ليتنى تخلت عن الخطة، ليتنى
تبعتها، ليتنى لم أتوقف لأحتسب الأفعال وردودها. ليتنى
مشيت فى أثرها، لا اقترب إلا بالقدر الذى تشاء لو أنها راغبة
فى الانفراد، لا أتكلم إلا إذا سألت: ولا أجاورها إلا إذا
أشارت، أما أن تختفى هكذا، أن يمضى وقت لا أراها فيه. أن
تنأى عن دائرة بصري، المجال ضيق. اغتمت، عزيت نفسى
أنها تتحرك فى سمرقند. ترى القباب ذاتها. وتقف أمام
وأجهات المدارس عينها. لكم رغبت أن أراها بصحبتها. أن
أفسر لها كيفية التلقى عندي، أن أحدثها عن فريدة الخط
العربى المحيط بالأفاريز، النقوش الحافة، والحروف المتداخلة،
جمال حرف الألف الذى بلغ طوله مترين كاملين عند قاعدة قبة
بيبي غانم أقرأ لها الآيات القرآنية. وأفسر قدر اجتهادى ما
غمض من معانيها. : هجأة تباغتنى هواجس مرة.

أحقا هى بمفردها الآن؟

إذا كانت فى صحبة، فمن؟

أهو أحد هؤلاء الأجانب؟ إنهم أقرب إليها، والطرق التى تبدأ
من عندهم تجاهها أقصر وأوجز، فالميراث دان. والمزاج
متشابه. أما أنا فقادم من جهات قصىة، وما هى إلا طرح
مغاير لما عرفته، فلماذا أطرق دربا وعرا، ولماذا ألقى بنفسى
فى هجير صعب؟.

لكن.. قبل هذا كله، لماذا أنحى بالعتب. باللوم، وكان المواعيق قائمة. والعهود أخذت بيننا؟ وكان الود متبادل. وهنا تذكرت واحدا ممن أجلهم، وأقتدى بهم، وأحفظ لهم المكانة، أحب فى أول شبابه بنية أوحى إليه بما أوحى. هام بها حتى كاد يهلك. أفنى من ذاته ما أفنى، وأبدى من فيضه ما أبدى، غير أنها لم تعبأ، ومضت مقترنة بآخر، وانقطع بها العهد. أصغيت إلى محدثى، كان يستعيد أمرا مضى عليه أربعون عاما وازدادوا سبعا، ولكن فى صوته أسينة لاتخفى. لمت البنية، وانكأت على سيرتها بالكلام الشديد، إلا أنه ضحك ضحكة صافية لها جلجلة.. قال:

وما ذنبها هى؟ أنا أحببتها، ولم تحبنى.. ما ذنبها؟

استعدت هذا وكذت أضحك ساخرا فى نفسى. لكنى لم أقدر فالأمر جد. لكنى تساملت، لماذا أسىء الظن بها، ربما رغبت حقا فى الانفراد، ألم تكن صباح اليوم ساهمة، كدت أستفسر من الهنذى إلا أننى أحجمت، مضينا عبر طرق تستقيم وتنحنى، صعدا تلالا ممهدة، ورأيت سمرقند منبسطة، قبابا تحاور قباب، ومآذن تشير إلى جواهر السماء، منها المكتمل، والمقطوش، أما المداخل الشاهقة فتحاكى ديوان كسرى، لو أنها بصحبتى لقلت لها ذلك، لاحظت قلة نشاطى وهبوطى، حتى صرت قاب قوسين أو أدنى من وجومى، فما أسرع الومضة!.. وما أقل عمر الشهب!.. لذت من ضيقى

بسمرقند، أوغلت فى المنمنمات، فى نقوش الجدران، فى حركة
البشر الذين لم تتبدل أزيائهم منذ قدم سحيق، فى السوق
الكبيرة، ورأيت فى قطع الجبن فرادة. وفى الخبز الذى فضلته
عما عداه خارج ديارى، وعندما وصلنا إلى المرتفع، حيث
مرصد أولوج بك. انقلبت السماء رمادية، وهبت رياح باردة،
وتوارى إدراكى للبهجة الذى عرفته عند صحوى، بدأ النفق
المؤدى إلى مكان المنظار غريب التكوين، كأنه يفضى إلى فراغ
داخل جوف الأرض، طفت بالقبة، والمعرض الحديث المقام بها،
وتأملت صور أبى بكر الخوارزمى، والشيخ الرئيس ابن سينا،
والبيرونى، ما نسبة الخيال إلى الحقيقة؟ إلى أى أصول استند
الرسام المجهول لى؟ رأيت رسوم عالم الفلك، والطبيب،
والمنجم، ولم أر توقيعا حتى لمن شادوا هذه العمائر التى
تجاوزت هشاشة البقاء، حتى مدرسة السلطان حسن، ظل اسم
من صممها ونفذها مجهولا حتى سنوات قريبة، عندما وجدوا
ذكره متواريا فى الأعالى القصوى، لماذا يتوارى المعمارىون،
لماذا تبقى أسماء البنائين مجهولة؟ يحمل الهرم اسم خوفو،
تحمل المدرسة الشاهقة اسم زوجة تيمور؟ لكن أنى لنا معرفة
من انهار عليهم الردم فجأة، أو من تعلقوا على ارتفاعات
شاهقة لتثبيت لون، أو خط حرف؟ هيروغليفيا كان يا أخى أو
عربيا، لكم وددت يا صاحبى أن أسمعها انطباعاتى، أن اللفظ
قربها ما يجول بخاطرى، أن أقف إلى جوارها لحظة تجول
نظرى عبر الأرض الممتدة، المتموجة، متسائلا عن البقعة

المجهولة التى يرقد فيها الشيخ الرئيس؟ أين مثواه: كيف تاهت عنه الذاكرة التى احتفظت بهذه العماثر، ما بقى منها وما اندثر، أين عاش هنا؟ أين أبدى المجاهدة. أين حصل العلم؟ لو لم بحالى وما صرت إليه فى دياره بعدما عرفته من جذوة العشق لنظم رسالة مطولة فى نأى الحبيب عن مجال البصر. أو لخصص فصلا عن التلاقى والتفرق فى «الشفاء» والمنطقا أين سعى؟ أين ولى وجهه، فى أى موضع كانت داره التى كابد فيها السهر؟، أما البيرونى فكادت مع استغراقى أستدل على الجهة التى سلكها عندما قصد الهند. تمنيت لو أنها بصحبتى يا أذى لأطلعها على معرفتى بهؤلاء لو أنها قريى وأنا أحقق إلى ملامح الساعين حولى، ربما انحدر هذا من أحدهم، لا هو يدرى، ولا غيره، أيتعقب الإنسان جذوره البعيدة؟ إذن أين كان جدى منذ ألف حول، وأين كان جدها فى ذات الحقبة؟ حاولت أن أوغل فى النقوش، أن ألوذ بالتصاميم بالخطوط المتداخلة، كنت أبتعث لحظات نائية، وأقابل كلا منها بظل مما أرى، أو منذنة، أو مدخل مؤد ما أجوز، حاولت رؤية مالا يمكن رؤيته تخفيفا لما أحدثه عندى ابتعادها المفاجئ. وفى إحدى الزوايا الظليلة انتحيت ركنا قصيا، وبصوت مهموس، مسموع عاتبها.

فاليريا.. أين أنت؟

وعندما اقترب منظم الجولة منى، من صاحبى، واقترح علينا تدبير عربة تمضى بنا الى ضاحية خرتك، حيث ضريح

الإمام البخارى. أبدى صاحبي حرارة وحسن استقبال للاقتراح، وطلب مجيء المعمارى الجزائرى معنا، أمر يسره، صرنا أربعة. جاء معنا دليل أوزبكى، ترجلنا، جزنا السور الخارجى، والممر المرصع بالفسيفساء الملونة وأشجار الحديقة. والباب المؤدى مباشرة. حتى إذا وقفت أمام الشاهد الرخامى، وبسطت الراحتين. قرأت الفاتحة، ثم قرأت مادون من تاريخ ميلاد، وأخبار رحيل صوب الأفاق النائية لتحصيل العلم، تمتعت أحمل للراقد الجليل تحية كل حبيب وقريب لم يمكنه المجيء إلى تلك الأصقاع، ومنهم بالطبع أنت يا أختى الأعز، فارتقت الضريح والمسجد المجاور متهددا، فهذا موضع لن أجيء إليه مرة أخرى، وهذا كريم جليل لن أقف بقربة ثانية. أما رطوبة المسجد، وظلاله، ورائحة السجاد، القديم والجير الذى طليت به الجدران، فقد بلل هذا جفاف روحى، وأثار عندي شجنا غامضا.

تعرف يا أختى حديثى عن لحظات دقاق لا تروح من الحضرة القلبية أو الذهنية، لا يغيب عبيرها، لن أنسى من هذه الطلة، تلك الوقفة، الزيارة، أمورا عديدة، فمن ذلك لوان، وعبارة، وحركة؛ أما اللوان، فاعلم أنهما الأبيض والأخضر، بياض رخام الضريح والفراغ المصفى، ونضرة الحديقة المحيطة، ولون الخشب المظلل لوحدة القبر، أما العبارة فمنقوشة على شاهد، أذكر لك نصها:

«..وجاب البلاد، ونزل الأمصار، حتى بلغ شيوخه ألفا
وزيادة..».

وقد لاقت عند زميلنا المعماري الجزائري نفس القبول
وجميل التلقى، حتى طلبت منه ترديدها بصوت عال، كما شاء
أن أقرأها له، والجزائري هذا صاحب غربة ورفيق سفر، إلا أن
ما قربني منه هواه الزائد بالمعمار القديم. وعشقه لفاس،
وتلمسان، وقسنطينة، ورغبته في زيارة القاهرة العتيقة، قلت له
إنه إذا جاء يوماً فساكون دليله. وقال لى إذا جئت الجزائر
فسيكون عيني الفاحصتين. وكان ما بدا منه، وما ظهر منى لب
المودة.

أما الحركة التى لن تروح من عندى أبداً. فمجيء شيخ
أوزيكى، جبته خضراء وحزام خصره حريرى عريض. منقوش،
وعمامته بيضاء، أما لحيته فكثة، جثا على مقربة. ولا مس
ركبتيه بيديه، ثم بدأ تلاوة آيات بينات من سورة يس، وتلك
سورة مباركة اعتدت ترديدها عند مثنوى أمى وأبى، رحمهما
الله رحمة واسعة! فارقت ضريح الإمام، وكان الطريق
الخارجى مزدحماً، وقوم قادمين، ساعين للزيارة، ونهر
زارافشان متدفقا بمياهه. ومزارع قطن شاسعة، أما داخلى
فزاخر بفيض، وتوق، وشدة فقد، لو أنها بالصحة!

علت النفس يا أخى برؤيتها فى المزرعة الجماعية، إذ
تجددت المصدر، وسلام ميين، أما السماء فلاحت أبدية،

منبسطة، فيها أصداء القباب السمرقندية الزرقاء، كذا شهوق
المداخل المؤدية، ونمنمات الضوء المنبعثة من عينيها. وراء
بشرتها. وشموخ نظرتها الجانبية، كنت متحسرا على كل لحظة
تمضى وهى بعيدة عن النظر، على وشك أن أضغ يدي على
سريان عبيرها خلال زهر الليمون، وظلال الأشجار، وتفرق
أجنحة الفراشات المحمومة، جلنا عبر المزروعات المغطاة، وقفت
عند قنوات المياه، ولأمر خفى، حننت إلى الإسكندرية، ورسوخ
قلعة قايتباي، ومداميكها الحجرية المواجهة لصخب الموج
وعنف هبوب الرياح وفوق الأبراج حراس أشداء، وأصداء
صيحات متجاوبة، ورجال منقطعون عن الأهل والولد، مرابطون
تحسبا لهجمة مفاجئة تجيء عبر الفضاء البحرى الذى يفرغ
فاه، فكرت فى مدينة سلا، هناك أقصى الغرب، وشاطئ
المحيط، قديم انقطع فيه مجاهدون أوائل، وشرفة حجرية كل ما
تبقى من حصن زال معظمه عند شاطئ تونس، وردت على
أعمدة مرمية غارقة تحت سطح بحر ناء، ومنحنى فى سمرقند
وقعدة لرجلين يرقبان مغيب الشمس إيدانا بتناول إفطارهما
الرمضانى. فى فؤادى تتشعب طرق، ومن غياهب ذاكرتى تفد
قوافل الصور. كذا حننت إلى نغم متمهل، يسرى باعنا أحزاني
جلت مع الصحب. وتذوقنا شرائح الليمون المرشوشة بذرات
السكر وقطوف العنب، متجعد الحبات بعد تمام النضج،
والتفاتتى فيها طموح لتجاوز الأطر المكانية، وعندما لاح رفاق
الرحلة من بعيد ركض بعضى فى أثر بعض، غير أننى حدث

ببصرى، إما لأننى رغبت فى تأجيل رؤيتها شأن من يؤجل المتعة، وإما خشية ألا تكون بصحبتهم فآوثر البقاء فى مجال التوقع زمنًا، مرجئًا القطع. وبتر اليقين، غير أن خواء سرى عندى، لو أنها بينهم لتوالت داخلى إشارات حتى وإن لم المحها، وعندما دنوا وصافحوا، كتمت استفسارى، تصدع وقتى، وحجبت عنى موجودات شتى من مجال الرؤية، أثرت الانفراد، حتى إذا انتهت الزيارة وليت وجهى شطر الطريق وغبت فى الظنون. عند المنحنى المؤدى إلى مدرسة بيبى غانم، فوجئت بصاحبى يقف، يدق زجاج النافذة..

«فاليريا.. فاليريا..».

يلتفت إلى، وكأنه يعى قضيتى. يشير إلى الطريق..

«هاهى..».

أتابع إشارته، يتدفق القوم أمام الواجهة الشاهقة، على مرأى من النصب الفسيفسائى للزمن، أين هى؟ أين؟ تمضى السيارة، لم أرها، مطامح شتى، وأودية عتيقة، معاطف، أغطية رأس؛ طفل يحمل زهوراً، فتارين صغيرة. الطريق منحدر، آثار المدينة تحدد مسارات الطرق، الأشجار باسقة، لكن ما من تولىب، لا يبدو إلا معها، ولا يلوح إلا بقربها، يلتفت صاحبى إلى. قال مؤكداً..

«كانت تمشى هنا..»

تساءل..

«بمفردها؟»

مط شفتيه.

«لا أدري.. لمحتها هي..»

هل رأينا بصحبة أحدهم ويخفى عني؟ من أين قدمت، وإلى أين؟ وكيف أمضت الساعات الماضية؟ توقفت العربية أمام مدخل السوق، باعة الجبن الطوم. والسجق، والخبز الأوزيكي، منتفخ الحواف، أخمص الوسط، ناصع الباطن، قيل لنا إن الوقت المتاح نصف ساعة، أبطأت الخطى، مضى صاحبي مع الجزائرى، أثرت البقاء والمشى بمفردى، ساقطع الشارع حتى نهايته، ثم أعبر لأعود من الرصيف المقابل، لو أتى أراها فجأة، سأتوقف، أمامها. أثبتها شكوى فقدى لها، وأرجوها ألا تغيب مرة أخرى. فالمتاح من الزمن غير مساعد. توزع بصرى ما بين الواجبات والمارة، مررت على ثياب مزركشة، واشترت عطرا محليا ذا فرادة، وقلبت أغذية رأس ملونة مرصعة، منمنمة، وحافظات جلدية عليها صور محاربين قدامى، وحيوانات، وطيور كواسر، رأيت امرأة جميلة. متصلة الحاجبين، تماست نظراتها بنظراتى، ومضت ومضيت، استنفدت الوقت المحدد، أسرعت الخطى، محرك العربية دائر، حتى فى المطعم لم أرها،

ولما سألت ناتاشا الهادئة قالت إنها لم ترها، وإنها لم تحسبهم إلى الجامعة صباح اليوم. قالت إنها تفضل الانزواء والوحدة، وإنها مضت تجول بمفردها في المدينة، قلت: لكننا سنرحل بعد ساعة إلى طشقند.

قالت: لا بد أنها تحسب وقتها.

قلت: أتعرف هي ميعاد الرحيل؟

قالت: طبعاً..

ابتسمت ناتاشا. لاح في عينيها معنى، قالت:

«كانت فاليريا روح السهرة أول أمس..».

طالعتها بعينين أسياننتين، تابعت هي..

«إنها تفيض حيوية».

أومات مؤكداً ما قالته، غير غافل عن إشارات أبدوها بلامحها. أعلم يا أخى أن العصر والبرد القارس وأصداء المدينة الغامضة على، ناعت ولفتنى بوحدة، أما افتقادها يوماً بأكمله فضاعف الخواء والوحشة، صرت أتعجل الرحيل، الوصول إلى المطار، هناك سأراها بالقطع، غير أن الأمر لم يأت بما توقعته يا أخى الكريم. فعندما دنا الوقت، وتحركت السيارة صوب المطار، كانت غيببتها مستمرة، أيعنى ذلك تخلفها هنا؟ أضلت طريقها أو أصابها مكروه، أو التقت بنفر

من قمرها. شذلوها ورتبوا لها قرتبا بمشايها. رحلت من انادوليا
على البعد: لم يصلك ما عندي وام نامسدي. ما يمر بي لم
تدركي، ولو أنت أطلعت على قبس لما ذيعمت يوما كاملا لم
أرك، لم المحك فيه. أوليت ظهري لسمرقند، عاصمة تيمور،
لأرض استعرض فوقها جيوشه قبل خروجه إلى العالم غازيا،
مادة إلى الشام، ومرة إلى الهند، وآخر الخرجات إلى الصين.
أوليت ظهري لطوابير الغنائم، للسبايا الجميلات. لألوج بك
الفلكي. للخوارزمي، لثوى ابن سينا المجهول، لليال متوالية
تطلعت فيها عيون متفحصة للسماوات العلاء، لمقربة مندثرة في
وادٍ بعيد هنا أوى إليها يوما بناء أجهل، أو رسام لا أعرفه، أو
قاصد سبيل متغرب عن موطنه، كان الغروب يدنو، والمطار
ممتدا، فيه شيء من لا نهائية الصحراء، وأبدية الوقت، ومما
تعجبت له عند مطالعتي تصميم المدينة، أن هذا المطار أقيم في
نفس موضع الباب الشمالي الذي كان يخرج منه القاصدون
بشاري، فهذا موضع مفارقة، ومكان رحيل دائم، اعلم يا
دساحبي أن سمرقند البالية كان لها أربعة أبواب، كل منها
بقابل جهة أصلية، فالشرقي يؤدي إلى الصين البعيدة،
والغربي سمى بباب النوبهار ولم أعرف معنى ذلك، أما باب
كش، أو الباب الكبير، فكان يؤدي إلى موطن تيمور الأصلي
إلى مسقط رأسه، وهذا مكان الرابع حيث وقفت قلعا. أسفا.
أرقت ظلها أو قدمها، سألت صاحبها عما يظنه سببا لغيابها.
أبدى دهشة، تال إنها محيرة، صمت لحظات ثم قال، إنها تحب

الاهتمام بها، أن تكون محورا، ومركزا، وقبلة للأنظار، ولابد أنها ستظهر فى اللحظة الأخيرة بعد أن يكون الجميع شغلوا بها.

هذا التفسير يا أخى لم يرضنى، لم يعجبنى، إنها محور دون أن تقصد، وبؤرة بغير تعمد، لحت الهندى وصحبه، سارعت، استفسرت منه ضاحكا - كانى لا أبالى، كأن سؤالى عرضى - عن مرافقتهم الجميلة، فقال إنه لم يرها منذ صباح اليوم. ابتعدت رحت وجئت، عدت أقول لصاحبى إن ما أقدمت عليه يعد استهتارا، هل لديها تكاليف العودة إلى موسكو البعيدة؟ كرر صاحبى، إنها محيرة؛ انصرفت عنه، قلت لاناتاشا، يبدو أن سمرقند أعجبت فاليريا. مطت شففتيها، سألتها، ألم تكن بصحبتها فى الحجرة؟ ألم ترها عندما حزمت حقيبتها؟ قالت إنها لم تكن فى الغرفة. أما حاجاتها فكانت مبعثرة، جاء صاحبى، أفضى إلى بنبا. أرسلوا عربية للبحث عنها..

قلت:

«لا أدرى كيف ستقضى الأيام هنا بمفردها؟».

ردد...

«إنها غريبة».

ثم ابتسم، ثم قال..

«تبدو مهموما لغيابها».

جأوبته باختصار.

«إن الأمر جدا».

مع اكتمال المغيب. أذاب الغسق ورمادية الشتاء والرياح الباردة حدود المطار المادية، فبدأ متصلا بالمغيب، بالمجهول، وفى الأعالى تتغير السماء السمرقندية بسرعة فى مواجهة الليل المقبل، اعلم يا أخى أننى عندما أفارق أرضا رأيتها أول مرة أتساءل. هل سارها مرة أخرى؟ تذكر يا أخى رحيلنا عن فاس، عندما ضمتنا صحبة معا، أتذكر كيف كنت أفارق الطرقات والزنقات والساحات الصغيرة وقنوات المياه الجارية، كذا وإجهات البيوت، كنت أتراجع بظهري، حتى كدت أصطدم غير مرة بالعابرين. لم أكن أريد مفارقة الزوايا، والعطوف، والنواصى التى أحببت، هذا حالى أيضا فى لحظاتي السمرقندية الأخيرة، وإن مزج أمرى هنا انشغالى بتلك البنية، أضاف ذلك وجدا على وجدى، كانت الثوانى تنسل، والقوم وقوف، لا يبدو عليهم اهتمام بغيابها، أنه انتظارهم، عادى، لا ترقب فيه ولا قلق، عدا رجل رافقنا من طشقند. كان مستنولا عن الرحلة، بدأ مشغولا لغيابها ولكن من وجهة غير وجهتى، ومن منظور يخالف منظورى، فجأة سرت حركة بين الجمع، امسك كل منهم بحقيبة اليد. أو ما سيصعبه إلى الطائرة، لم أدر من أشار بيده الحركة، غير أن جنديا أسرع الخطى، وفتح

البوابة الحديدية الصغيرة التي تتخلل السور، بسط ذراعه فوقها، كأنه يشير إلينا: تقدموا. كان علينا أن نعبّر واحدا بعد الآخر، بدأ اتجاهنا عبر المطار يتخذ هيئة طابور غير منتظم، أبطأت الخطى، بل توقفت لحظات حتى إن صاحبي تطلع إلى مستفسرا، مازحا قال.

«هل قررت البقاء هنا؟».

لو أنك مكانه يا أخى، لو بصحبتى، لسألتنى بنفس اللهجة، فالمكث بمفردى يبدو مستحيلا، فى رحلة جرى ترتيب مراحلها وفقا لنظام محكم، أما المسافة بين سمرقند وعاصمة البلاد فشاسعة غير أنك يا أخى تعرفنى أكثر، إذ بدأ الخاطر عندى، وتصاعد. أن أبقي حتى القاها، الا أرحل بدونها، ولم يبق إلا انسحابى خفية، أو إعلانهم بقرارى، كيف أمضى وهى ليست فى مجال البصر، أرقبها، وأتملاها، وأتمناها، سنأرجع إلى المدينة، إلى الفندق، وعندما التقى بها، ستبدو الدهشة فى ذرات ضوئها، عندئذ لا أدرى، هل سابقى صامتا لثوان، أم أشرح لها ما فعلت؟ هل سيصلها جواى واتقادى لحظتها؟ عندئذ أقول لها إن تخلفى سيثير اهتمامهم، فأتنا غريب، محدود المدة، وسيبدون لى من تسهيلات العودة مالن تلقاه هى، لذا أثرت التخلف والبحث عنها خشية أن تصعب عودتها..

لكن!

تعرف يا أخى أنه عند ورود كلمة لكن على الخاطر تبطئ مسارات الأمور، تتمهل النوايا، ويولوح مفترق. ماذا سيقولون،

وكيف يفسرون بقائى من أجلها: أنا من لم أجهر بعد بالقول أمامها ولم أصرح. كيف أخاطر بالبقاء فى مدينة أجهل لغة أهلها، الأمر أصعب وأعقد، هكذا رحمت ووجنت، درت على وترددت داخلى، أقلعت صوب جهاتى، فما يكاد شطر منى يولى القصد تجاهى، حتى يرتد شطر ثان مبتعداً عنى، وما إن أوشك على الرسو عند ساحل ذاتى حتى يهتز قارىبى. يختل. فأنأى وأقترب. أميل وأعتدل، لم أحسم، وهكذا مضيت مسافاً صوب الطائرة. آخر القاصدين، وأتعمس الراحلين، متثاقلاً، كارها مسارى، إذن سنقضى ليلتنا المقبلة فى طشقند بدونها، لن تصحبنا إلى العاصمة فكان السعى فى مفازة شجواء إلى نهاية الاستيحاش، قبل أن ألج جوف الطائرة تلفت، هناك عند البوابة يقف جنديان، عند مدخل البوابة يتطلعان صوب نقطة ما. تواريت فى المقعد الضيق غير عابئ بتطلع إحداهن إلى مبتسمة وكأنها تدرك ما بى ساخرة، لم أقعد يجوار أحد. وضعت حقيبتى الصغيرة بجوارى، من يدرى، ربما جاءت فى اللحظة الأخيرة، عند دخولها ترى المقعد الشاغر فأجاورها مدة ساعتين. تطلعت عبر النافذة الرمادية، غبش رمادى متزايد. أصداء المدينة التى لا تلوح لناظرى، القريبة، البعيدة الآن.

لكن .. ماذا؟

هل تخف لهفة المشتاق؟ هل ينزاح الثقل؟ لقيت نفسى يا
أخى يردد بصوت هامس، عاتب، متدفق النظر إليها حيث
لاحت، وبانت..

لماذا فاليريا؟ لماذا لماذا؟

أعاتبها، أهدها، ضاماً إلى ما يشع منها لهفة وخوفاً إثر العثور عليها في اللحظات الأولى، روم. حان، متهدج، غير مصدق، فأحدق أطول، ثم أقربها، مستعيضاً عن النظر بالتقريب، بالضم، بينما عتابى المنطوق لم ينقطع. تعرف يا صاحبي أن الإنسان إذا انفرد بنفسه يرتفع صوته أحياناً. أما مغنياً أو محدثاً، ربما بدافع خفي، قديم من الأزمنة المندثرة. إذ يلقي نفسه وحيداً في غابة، أو قفر، محدقة به أخطار شتى، وأفضعها المجهول منها، عندئذ يصرخ ليؤنس فردانيتها، ولحظة انبثاق رؤيتها كنت الأشد وحدة، ظهر تكوينها فأنتست منه أمناً، أبرزت ورقة للجنديين. صاح شخص كان يقف تحت الطائرة. تجتاز المسافة، لا تعدو إنما تتدفق، موجبات، رخات مطر، رشقات مصوية تجاهي، أما دخولها فاندفاعاً وتفجر نبع، خطوتها الواحدة نقلتها إلى الأمام، تجاوزتني لم تر المقعد الشاغر بجوارى، صاح الجمع كلهم وناداهم بعضهم باسمها، واستفسر آخرون عن غيابها، وأبدى البعض اهتماماً مفاجئاً. عدائ! لزمت السكينة، وقفت تخلع معطفها، تروض نفاً شعرها، ولم تكن إلا مبتسمة، ولم تكن إلا مشعة، ممهورة بالضوء، بالألوان، جلست فغابت عن مجال عيني، وليت وجهي شطر السور، البوابة التي لم تعد موضع ترقبى الآن، السيارة التي مضينا بها في الصباح إلى ضريح الإمام البخارى، ترى إلى أى مقعد جلست، ليبتها مست المكان الذى شغلته، فنلتقى

حيث لم نلتق، قرئت وجهى من زجاج النافذة، أرقب جريان الأرض. لحظة انفصالنا عنها، هذه سمرقند من عل، لم أدر هذه البيوت، وإلى أى مسجد تنتمى هذه القبة القائمة فوق التل البعيد؟ بدأ سحب، تزايدت كثافته، لم أعد ألمح شيئا. غريت سمرقند فى الليل والغيوم، كنت راضيا، مرضيا كأنى ارتحت من لهات أعقب ركضا. لم أطلع تجاهها، لم أحد بنظرى، فما أعجب وما أغربا. إلا أننى عند وصولنا الفندق، بعد اتجاهنا إلى الغرف، بعد نزولى إلى المطعم، بعد دخولها، قمت إليها، دعوتها فلبت، قلت لها إننا غدا سنكون فى موسكو، ينفض الإطار، وبعد أيام ثلاثة سافارق إلى موطنى. ومن يدرى. قد لا أعود إلى هذه الديار مرة أخرى، ما أريده دقائق كى أحدثها، بمعزل، بمنأى، إننى أدعوها إلى غرفتى.

توقفت متهدجا، إنها ساهمة، مدت أصبعا..

نتحدث!

بدا لى صوتها يحمل قليلا من الموافقة، وكثيرا من النذر..

قلت:

بالطبع..

قالت:

ولماذا لا نتحدث فى غرفتى؟

قلت:

فى أى مكان تشائين..

ثم قلت:

قصدى الانفراد.

قالت:

إنن.. سأنتظرك بعد صعودى..

هنا صارت دقات قلبى دوارج، حتى أنهكت بما يجرى
داخلى مع أنى وثاب، فاغفر لى يا أخى الأعز إسرافى فى
أمرى..

توق

.. اعلم يا أخى الحبيب، الصاحب، القريب، إن أصعب اللحظات ما يتم فيها التأهب، حين يللم المرء شتاته. يحاول أن يجيء من هنا وهناك بما يمكن أن يعنيه ويقويه. الأشق انتظار الفعل، وليس الفعل ذاته، اعلم أن أوعر ما مر بي فى مرات سجنى توقع الضرب والأذى، وليس التعذيب عينه، أثقل ما عرفته أثناء القتال ما يسبق بدء الهجوم وليس الاشتباك. أصعب مراحل المرض الجهل به، ما من مرة قاربت فيها من أحب إلا وانتابتنى رهبة. وأكثر ما يكون المحبوب وجلا عند مضيه إلى لقاء، إذ ربما يتم الفناء مع اللقاء، فيذهل عما حوله، هذا ما جريته، فما البال إذا كان من خصالى أيضا عيش

اللحظة إما قبل حلولها. وإما بعد انقضائها إما فى السابق
وإما فى اللاحق، لك إذن تخيل حالى. وما صرت إليه قبل
المضى، أحقا سأنفرد بها؟ هل ألقى نفسى فى القربى بهذه
السرعة؟

كيف سأبدأ؟ بأى جمل أفتتح حديثى؟ ماذا أقول؟ بل
الأدهى، ماذا أريد؟ كوكبها أسرنى، هذا حق.

أدور فى فلکها؟

هذا حق.

ها هى الفرصة تتاح الآن لأفسر، وربما أعقب ذلك أمر، هل
أرمى إلى إعلان حقيقة ولهى وجذيبى؟ نعم. لكن أيكفى هذا؟

كلا ثم كلا!

إنن.. هل أبغى الفناء؟ الاتحاد؟ لا أدرى، هل أعى ضيق
المدة، ألن أفارق هذه الديار كلها بعد ساعات معدودات؟ فإلام
أرمى؟ أى وصل أبغى؟ وصل عابر؟ هذه لا يطابق كنه حالى
إنن.. مالى أتعلق بالصعب؟ مالى أحاول فتح باب لن أقدر على
رده؟ مالى أوغل فى درب قد لا أستدل على عودتى منه؟ رحمت
أقلب أمرى، حتى مرت بى لحظات ندمت فيها على سعيبى، مع
تمام وعيى أن الأمر ليس بيدي منه شىء، فإلى أية غاية؟ تعرف
يا صاحبى أننى عندما أكون فى جمع أحتمى بهم منى،
وأحصن منهم دفعا لى. وقدما قالت لى محبوبية همت بها

قدرا، أنت تتكلم حتى لا تتكلم. لاحظتها فوجئت، أدركت أنها كشفت بعض سرى، وما أسطره لك يا أخى لم يطلع عليه أحد، ولا أقرب الخلق منى، فهل أنا بحاجة لتنبهك إلى الكتمان والصون؟ أمل أنك ملبأ! للممت شظاياى. تناولت لوحة صغيرة، فيروزية اللون، عليها نقش عتيق، حملتها من أزقة قاهرته العتيقة، أبدعها عجوز تجاوز التسعين. آخر جيل المهرة فى النقش والترميم، نوافذ الجص، والأفاريز، والعتبات المؤدية، حملتها معى خلال أسفار عدة، أقسمت ألا أقدمها إلا لمن أرى أنه يستحق، لوحة بسيطة، خلومن أى صدف أو حجر ثمين، لكن لنقشها رقة وترجيح وإيحاء، أن لها الانتقال عنى، تناولت حذرا من حقيبة يدي التى لا تفارقنى، جلث بنظرى فى الحجرة، الحقيبة، الكتب، السرير الذى لم أرقد فوقه بعد، رفعت سماعة الهاتف، عندما جاعنى صوتها بدأ نائيا محاطا بغلالة من ظلال، استعدت مرأى شجرتى التوليب، والغبشة الصباحية. وواحها ومجيئها، منذ لحظة سريانى صوبها..

تعال .. أنا فى انتظارك..

اكتمل تأهبي، بدأ شروعى، كل ما أريده عند المثل أمامها، عند الانفراد، أن أوصل إليها بعضا مما عندى، أما أن أرحل بهذا التفجر كله فىألى جانب أنه حمل ثقيل، فلا شك أنك توافقنى على ما فى الأمر من ظلم. أن أشعر تجاهها بهذا الدفق كله، ثم امضى دون أن تدرك فأمر فيه عبث بالناموس،

مررت أمام الأبواب، تتوالى الأرقام، وعندما وقفت أخيرا لم أطرق مباشرة، إنما تطلعت، قديما قيل إن مشاهدة المحبوب هي أعز مطلوب. وعندها يجب التزام آداب بعينها. منها الثبات وعدم الالتفات والخشوع والافتناع والخضوع، وتتسم رائحة المحبوب، لكن من هو مثلي، هل يثبت؟ من قام بثيابه الحريق كيف يسكن؟ النار التهاب وملكة، فلا بد من الحركة. من هدا باللقاء قلقه فما هو بعاشق، كيف يصح والعشق كله ظهور، مددت يدي مرتين ولكنني انثنت. ثم حزمت أمري، وعندما فتحت بدت كنصب أبدي للجمال، للحقيقة الناصعة، لم تكن مرتدية إلا قميصا أزرق يتيح لعنقها الانسيابي الظهور، واصدرها البروز والمناداة. فى اللحظات الأولى أدركتها فى جملتها، ولم يهدأ قلبي، قعدت بعد أن أشارت إلى، لا أدرى والله يا أخى ما قلت، ترتج ذاكرتى وتغيم على، تعرف تبيد الكلمات الأولى، حتى ما تفوه به إلى أقرب الخلق منا تصيبه الذاكرة وتطمسه، أعى الآن اللحظة التى بسطت فيها يدي. تطلعت إليها بكل ما امتد ورائى من أزمنة قدر لى أن أعيشها. وأمكنه ارتدتها أو أقيمت بها، وأشواق طاقت، وأمورى المبهجة، عندما لمست أصابعى أصابعها وعندما تلامس مشارف وجودنا الحسى، قبضت يديها، وعبرهما تدفق منى إليها حنو ورفق وطلب ومودة ورغبة فى القربى، رفعت إليها ابتهاج عيني، لم أستتر، لم أتوار، لم أبذل الكد لأظهر ما أبطن، كنت أتأهب للتأهب للاندلاع، كنت أرتد بشرا سويا، أستعيد زمن زهوى

ونضارتي، والله يا أخى، يا صاحب الأيام الصعبة، لم أكن راغباً إلا فى الحومان عند أطرافها. والتحليق بأقصى أفقها، أتطلع إلى مواردها لا غير مع علمى ويقىنى أن فيها ريبى، غير أننى رصدت تبديلاً فى ملامحها، كأنها ستبهنى إلى أمر، بينما لاح عندها ما خيل إلى أنه ندم، أو رغبة فى تدارك أمر فات أوانه، ماذا فى الأمر؟ ألم تقل إن زميلتها ستسهر حتى الفجر، وربما قضت الليلة بغرفة أخرى، ألم تؤكد أنها بمفردها، لكن.. أتدرى ما أفضت به إلى، أتدرى؟ قالت إن صاحبى سيجى، بعد دقائق، إنها دعتة.. لا. سأورد لك ما قالته بالضبط أثناء تراجع قامتها قليلاً..

لكن صاحبك قادم!

بدت لهجتها محيرة، كأنى المسئول عن دعوته، هل أدركت أخيراً، فى هذه اللحظات. دقة وصفاء وعنفوان ما عندى؟ كنت يا أخى أعول على ذكائها البادى، على أمور خفية قربتها منى، متمهلاً سحبت أصابعى، أطرقت حزينا، خائبا، راغباً فى النأى. فى التوارى، فى التوحد، فى الإيغال مبتعداً، على مهل تصاعد غضب، أن تأبى هذا حقها، أن ترفض الانفراد بى هذا مشروع. لكن أن تسخر. فهذا صعب على. وعر تحمله، ليبنى لم أجاورها، ليبنى بقيت فى مدارى، لا أحاول الاقتراب، لذت بى، بصمتى، تعرف يا أخى أننى لطول ما عانيت. لشدة ما قاسيت، صرت أتقن إخفاء ما عندى، لا أدع ملمحاً يتسرب إلى

قسماتى، لكم تمنيت بسط نفسى امامها كل البسط، أن افض مغاليق شتى، كان الأمر ثقيلًا. ويبدو أنها لمحت بوجهى ما نم عن طويتى، ما جعلها تنظر إلى هذا النظر الطويل. وتعاقبت على الأحوال، فمن خيبة أمل، إلى خجل غامض، إلى رغبة فى الرثاء، فى البكاء، حدث بنظري، وليت عنها، هذا مرفأ غير صالح لرسوى، هذا محط غير آمن فلأتجنبه، هذا سراب فلانتبه. هذا ظل كاذب فلاحذر، فلأمض فى هجيرى المقدر، شرعت فى التهيؤ للانصراف، هنا طرقت صاحبي الباب، بدا غير مفاجأ بوجودى، ما أصعب الوقت على وأنا أحاول إسدال الحجب حتى لا يتسرب من امرى خبر، ترى.. هل أخبرته بحوارى معها، برغبتي فى الانفراد؟ ترى.. هل يضمم سخرية منى؟ لم يغلب على خجلي، بل ربما قصصت عليه ما جرى غدا أو بعد غد، أما ونكسى ما زال فى بدايته، وأنا مازلت بعد أعبر تلك اللحظات الفاصلة بين وقوع الجرح وبدء ديبب الألم، فلم أكن قادرًا على الجلوس، أو المنادمة، تحركت هى، فتحت حقيبة زرقاء، أخرجت حلوى سمرقندية. قالت إنها لم ترها إلا فى المدينة لم يكن هناك أطباق، إلا تناولت طبقين صغيرين، يتوسط كل منهما كوب زجاجى، وضعتهما فوق المنضدة. لم يفتنى أنها قريبتها منى، وأن حركتها فى مجملها متجهة نحوى، فى غمار غمى لاحظت ذلك. كنت قد تراجعت عن الانصراف، لا أخفيك يا أخى أننى لم أشأ تركهما معًا، بمفردهما، ستقول إنها الغيرة، أقول يا أخى لو أنك أنت ثالثنا لما تركتكما معًا، ستقول

هذا عن شدة تعلق، أقول وهل أعلنت صور تعلقى أو هواى؟. المهم يا أخى أننى اقترحت دعوة صاحبنا الجزائرى، وأخرى كانت تظهر ودأ لصاحبى، بعد قليل جاء، صرنا خمسة، أصبحنا جمعا، وهكذا احتميت بهم منهم، أمكننى التوارى إلى حين، أثناء الحديث التفتت إلى مرات، مرة سألتنى عن صمى، ومرة قطبت عينيها متسائلة، ومرة ابتسمت بود وترحاب، تحاشيت تسديد النظر إليها. أو الدخول معها مباشرة فى محاوره. حتى إذا ما انقضى وقت قدرت أنه مناسب وفتت معلنا تعبى، ورغبى فى الماضى، خاصة وأن سفر الغد طويل. غير أنها وفتت مقطبة الحاجبين، مشدودة الجبين، طلبت منى أن أبقى، أبديت ابتسامه لا يحب رؤيتها من يعرفنى. سدت طريقي، أشارت بيدها صويى، اكتست ملامحها جدية، قالت بلهجة تحاكى فيها الخطاب الرسمى..

«أمرك أن تبقى..»

أتبعت ذلك بابتسامه. ولم يغب عنى المعنى البعيد فى إيقاع صوتها، بحق مالى عليك أمرك أن تبقى، كما انتبهت إلى دلالتها. تطلعت إلى الصحب، لبيت، عدت إلى مكانى، لم أدر كيف مضى الوقت، ولكننى عاودت إبداء رغبتى فى الانصراف، لم تثن عزمى فى هذه المرة نظراتها الملوثة، ولم يلح على أحد، بل إن الجزائرى قام واقفا، قال إنه يود الذهاب أيضا، عندئذ تاهب الجمع كله. كنت أول الخارجين، وعند اجتيازى الباب

أدرت بصرى، لمحتها واقفة، متطلعة نحوى، وحيدة تماما، عند
المصعد مال على صاحبي..

«أقترح عليك العودة».

بوغت. تطلعت إليه متسائلا..

«عند وصولك غرفتك. اطلبها فى الهاتف، و ..

قلت باختصار

«لا أرغب»

«يا أختى، ألم تخط فى عينيها اهتمامك بك، نظراتها إليك..»

نظرت إليه وكأنى بعيد..

«إننى متعب..»

بدا متعجبا، مضيت إلى غرفتى، مرتد النوايا، خاسئ
الخطى، راغبا فى الانزواء. قعدت عند حافة الفراش منحنيا.
ممسكا اللوحة الجصية، لم تتح لى فرصة حتى أقدمها، لا
أرغب شهر هداياى فى حضور الآخرين، أزحت ثيابى. اطفأت
المصباح الحاد نافذ الضوء، رددت: آخر ليلة فى أسيا
الوسطى. ثم فكرت: فى أى اتجاه أسير صوب مدينتى؟ إلى
دروبي التى أعرفها. فى اتجاه هذا الجدار أم ذاك؟ لو مددت
خطا مستقيما من نقطة رقادى هذه، بدايته هنا ومنتهاه فى
القاهرة، كم يبلغ طوله؟ هذه الأرض المقام فوقها الفندق، من

وطئها؟ هل داستها خيول جنكيز خان؟ جيوش تيمور، أم كانت محطاً لقوافل تجار الحرير. لماذا تبدوا السماء هنا أرحب، محسوس أنبساطها حتى وإن لم تقع عليها العينان، أما في بخارى فمحيطه بالمدينة. تلفها من كل جهة، ولا تنبسط فوقها، أما في سمرقند فتتخللها الأعمدة والمداخل والقباب والنقوش والآيات البينات. استعدت انحدار طريق سمرقندى، وشرفة مقهى بخارى ساعة الصباح، وقبة توشك على الاتحاد بالفراغ الصاعد لزرقه ألوانها، تقلبت مرة ذات اليمين، ومرة إلى الشمال، ثم قمت قاعداً فى فراشى..

أنا فى الطابق السادس. هى فى العاشر. غرقتى أول المر، غرقتها آخر المر من الجهة الأخرى، عبتا جاولت طرحها، أقصاءها عنى، عبتا لجوئى إلى ما تصورت أنه تداعيات ما قبل النوم، بدت خواطرى وبودهى كحظات سكون الماء قبل غليانه، اهانتتى، سخرت منى، كيف قبلت البقاء بعد ذلك؟ تطلعت إلى الهاتف، أيمكن أن أصغى إلى صوتها فى هذه اللحظات، ألا تزال بمفردها أم عاد إليها أحدهم؟ إنى مرهق، متعب، مكدود، راحل غدا، ولأنى منكسر، معكوس الخاطريا صاحبى فقد أنتابنى رثاء لذاتى، ورغبة فى نعى أحوالى. وفى مثل هذه اللحظات يتذكر الإنسان سعيه فى أوقات ضعفه. لم أكن تعباً بإرهاق يوم أو يومين، ليس بتأثير خيبة. لكن بما أحمله، بترائى كله، أستعيد رقادى إثر مرضى منذ عامين، تذكر عندما عدتنى مرارا، أوقات الظهيرة بحرهما القاسى،

ووجدتها الجافة التي مرت على. وأصوات الطير الذي لم أكن قادراً على الخروج إليه. كدت أدمع عندما استعدت وهنى الذي كان، جئت إلى أرقى لحظة ليلية نائية بعد عودتي من سهرة قضيناها معا توقفي فجأة أثناء سيرى، إدراكى أن حديثنا عما كان يفوق حوارنا عما هو أت، أيام نائيات ظننا يوماً أنها الغاية. أنها لن تبيد أبداً، انقضت، ولت، إذا بالزمن يسرع فلا نجلس إلا لنستعيدها. أورثنى هذا شجى، ذلك ما لم تعرفه تلك البنية عنى، ما لم تعقله أن وجودها تجاهى كان يستثير عزمها ظننت أنه ذوى، وقدرة على البوح طال خمودها، لكن أنى لها ذلك ولم أخاطبها إلا فى جمع، أنى لها الاطلاع على موروثى وهى لم تتجاوز العشرين إلا بسنوات أربع. وتلك نقطة يتطلع فيها المرء إلى الغد، لا يخشى الطوارق، الدواهم، يسألنى بعض من لا يعرفنى، لماذا تبدو مسناً وأنت لم تتجاوز الأربعين إلا بسنوات قلائل؟. معهم الحق يا أخى إذ إنهم لا يعلمون، لا يعلمون أننا مررنا بمراحل تبدو متقاربة لكنها متباعدة. ولم يكن الحمل يخلصنا، ولكننا لم نلقه، ولم نتخلص منه، إذ إنه متصل بقومنا، وجمعنا. بعض مما عرفناه كان ممكناً أن يهدد جمعاً، لو أفضت فى هذا، لن أكف ولكننى أضرب لك مثلاً بعصر انقلاب الأحوال. وانعكاس القيم. الذى عشناه وعصف بنا فى سبعينيات زماننا، وأننى لمحدثك يوماً عن رسالة ضمنتها بعضاً مما جرى لمن عرفتهم وشيعتها إلى صاحب لى أثر الغرية. وسميتها رسالة البصائر فى المصائر، لذا أقصر

الآن، ولا أفصلا. إنما طال تلميحي لأنبهك إلى ما عنته البنية بانبثاقها المبالغت، بحضورها الوهاج، بحيويتها، فكأنى قصدها لأنهل منها ترياقا يجدد ما بلى. وينهى عبوسى الذى طال. لو أنها صدتتى لا نثنت، لكنها.. سخرت. اليس ما أنته عين السخرية؟ بلى، شيئا فشيئا اتقد دماغى. لت ذاتى، كيف أقذف بنفسى تجاه من أجهله. هل بهرنى جمالها؟ كيف سأطيق الرحلة غدا وهى على مقربة، فى نفس الطائرة، لن أتطلع إليها. لن أتجه إلى أى موضع تقف فيه، وإذا أقبلت نحوى وخاطبتنى، فسأبدى لها الجفوة، سأسمعها ما يقوله محب بعد انقلاب العشق إلى بغض. مع أن المحبة لم تمتد بيننا، وما جرى هبوب من عندى تجاهها.

أغمض عيني، العتمة تهن فى الخارج، والنوم قصى. أما قلبى فيعدو جاهدا فى أثرى، أحمله مالا يطيق، أخشى ما أخشاه أن يتعثر، أن يكبو، أمامى سفر طويل، إنى بحاجة إلى الراحة، فلماذا لاهجع، لماذا لا أغفو، هل نامت هى مباشرة بعد انصرافنا، أم أنها تتقلب بين نراعى رجل من قومها، استدعته بعد ذهابنا، ميراثه ميراثها، وما احتاج مراحل متوالية لأشرحه، لأوصله لها، يدركه هو فى لحظة، قمت من رقادى، متطلعا إلى رمادية الضوء، إلى طلائع النهار الآسيوى البكر، ما أنأى المسافة بين مضجعى وبينى!.. وما أقربها!.. تطلعت إلى الصوان المقابل، إلى دورق المياه، إلى الراديو الصغير. وحقيبتى التى لم أخرج محتوياتها، أما اللوحة

الجنسية فعلى مقربة منى. كان من المفروض أن تكون بين حاجاتها الآن، أطرقت، تسالمت، لماذا أقسو عليها؟ ما ذنبها؟ إنها لا تعرفنى، وما أنا إلا فرد فى جمع، ذات جمال مثلها لابد أن القصاد طرقتوا السبل إليها، وأسمعوها من الكلمات أرقها. ألم تقل لى عندما أظهرت المبادرة الأولى..

« .. وكيف أصدقك؟؟ ..»

غير أننى اتكلت على احساسها الأثنوى، فما عندى تجاهها إلا صدق النوايا. بدا لى أن مكنونى سيصل إليها، لكننى كنت أعول على بى. أو أطلب العون منى، فما أضيق الساحة وأصعب الأمر، هكذا اكتمل نهار جديد من عمر الدنيا وأنا موزع. مفرق، متحامل عليها، مبرر لها، قاس ومشفق معا، اتطلع إلى الفراغ، إلى النهار الجديد، لو أغفو نصف ساعة، غير أن جسمى كلما اقترب ولامس المضجع. نأت الخواطر وفرت، هكذا فارقت الفراش وقفت متطلعا عبر زجاج الشرفة. مشتعلا بنصبى، محاطا بوحدة صماء، انحنى ببصرى متمهلا على الحديقة الامامية، أقصد شجرتى التوليب، أو شك على نرف وجدى، من هنا كان البدء، بينهما سعت، فى مجالهما اكتشفت مدارها، كنت يا أخى أصغى إلى الصمت السارى عندما وقع ما استهدف دفق قلبى، إذ رن جرس الهاتف فجأة، رنيننا حادا، متصلا، ماذا.. هى؟ أتدعونى؟ إذن.. هل مرت بما مررت به؟ ألفها الأرق كما لفنى؟، أتدعونى لنقابل النهار معا

كما كنت أشرع فى الزمن القديم؟ قطعت خطوتين إلى الهاتف، وعلى ملامحى مشروع عتاب، لا أدرى كيف سيكون جوابى، أمسكت على أنفاسى، غير أننى فوجئت برجل يتكلم لغة لا أعرفها، مجهولة عندى تماما، لم أفهم، قلت بالعربية متجهما..

لا أعرف، لا أعرف..

من هذا؟ من أية جهة؟ ماذا يريد؟ كيف فى هذه الساعة؟ خطأ أم قصد؟ محاولة للتأكد من وجودى فى الغرفة؟ لا أدرى نفضت هذا عنى، تطلعت إلى ساعتى، الثانية والرابع فى القاهرة الآن، أضفت أربع ساعات، اجتزت الحد الفاصل بين ذروة إرهاق وبين بدء تعب جديد، يحوى القديم، وليت وجهى تجاه النهار القادم، فت إمكانية القدرة على النوم بمدى سحيق، واجهت الضوء المتزايد، نضاحاً بضرى، بأساى، منطويا على ما استقر عندى من نوى، كنت متستسلما لتوالى مجيء النهار الجديد. فأننا يا أخى حسيرو!

مواقع الشهب

تحاشيتها !

فى الصلاة المتوهجة بضوء أسىوى انتحيت ركنا قصبيا،
مغمضا عينى المجهدين بين لحظة وأخرى منصتا إلى وتأثر
تعبى، داخلى ظلال من شجر توليب، وقباب، وفضاءات لا
نهائية، ومسارب بعيدة لمياه منحدره، عما قليل سأجوز الفراغ،
تلك أرض ريما لن أطاها مرة أخرى. وهذه ديار لن أجوس
خلالها، مقامى بعيد، دنا صاحبى حاررنى، تجنبت الخوض أو
التلميح، وعرف هو فالتزم، قال إن إجهادى واضح، قلت إننى
أرقت بعض الوقت، لم أبح له يا أخى بسهادى، لم أقل له إننى

ما غفوت منذ صباح أمس، وإن ما أخشاه الا يتم قلبى رحيله
معى، لكم أثقلت عليه، لكم حملته مالا يطيق. ساعات طوال من
الرحيل. وما هو إقلاع وشيك، أتأهب لإقلاع مغاير، من شرق
إلى غرب، من أرض إلى أرض، من مواقيت إلى أخرى، طاويا
خبيبة أمل، ونكوص بعد إقدام، سرى فى الجمع تأهب، فوق
أرض المطار اصطف عدد من الصغيرات، ملامهن الآسيوية
جميلة بادية، يحملن باقات زهور حمراء، ملت مقبلا الطفلة،
حدقت إلى عينيها الواسعتين، المقبلتين، هاتان لن أقابلهما مرة
أخرى. لن أطالع نظراتهما، تلك لحظة لقاء عابرة، يعقبها تفرق،
كتماس الشهب، تعرف عنى يا أختى طول تأملى لهذه اللحظات
العابرة، ولعلك محتفظ بعد برسالتى إليك عن الاغتراب واللقاء،
لعلك تذكر وصفى لتلك المدينة الحدودية الهادئة. المدثرة
بالأشجار والنبات، وخطوى فوق الأرض المبلطة بالحجر، عندما
ظهرت شابة، واثقة، متزنة الخطى، قاصدة!. اجتازتني ومضت
مبتعدة مخلفة حضورها القوى فى الفراغ، خلف ظهورها
العابر عندى هيما غامضا واستفسارات شتى، عرفت مثل هذه
اللحظات كثيرا فلن أثقل عليك. إلا أننى أقول عن حنوى بالنظر
تجاه تلك البنية الصغيرة التى ستسعى بأرض وأسعى بأخرى،
وربما لن نلتقى أبدا، كما لم نلتق قط، صافحت القوم، وعند
اتجاهى صوب الطائرة الضخمة، الجاثمة، لمحتها، تمضى بين
القوم، فارهة، علامة دالة مدلة، تتناول باقات الزهور من
زميلاتها، تجمعها. تضحك تبدو لاهية. فهل لى أن ألوم؟ هل لى

أن أعتب؟ هاهى تمد الخطى غير عابئة بالالتفات حتى، تتخطى البعض، ترتقى السلم وثبا، أحرص على تباطؤ. ما أوده أن ألوذ بمقعد منفرد، أن أجاور من أجهله، أغفو ولو ساعة، أخفف من كددي، المقاعد الأمامية مشغولة، ألمها عند نهاية المقصورة إلى اليمين، تقف ولم تقعد بعد، حدث إلى الممر الأيسر، تقدمت غاضبا بصري، متحاشيا النظر إلى الفراغ الذى تشغله. وددت سرعة التوارى، التدرج بوحدتى، غير أن ما جرى يا أختى عجب. فوجئت بيدها تمتد لتمسك معصمى، تقدمت صوبى أثناء إشاحتى إلى الجهة الأخرى، لم تتأني، لم تلفظ اسمى، إنما قصدتني، أشارت، ولم يكن بوسعى إلا التلبية متوثب الروح، خافق القلب، صامت، لا نطق ولا قول، إنما كلى بهت وغيبة عن حضورى، رأيت معطفها مطويا. مسندا إلى المقعد الشاغر حتى لا يقربه غيرى، أما ما رقرق وقتى وذرى تعبى فمرأى الزهور، الباقات التى جمعتها من زميلاتنا، ثبتتها فى ظهرى المقعدين الأماميين، وزعتها بالتساوى، فى تنسيق بديع، مرة أخرى بسطت يدها مشيرة إلى الزهور كأنها تقول بالصمت: هذا من أجلك.

توقفت، جازت إلى المقعد المجاور للنافذة، وعندما استوت، ولت وجهها متطلعة إلى مالا أدريه، أسلمتني يدها، فتخللت أصابعها حتى امتزج إحساسى بإحساسها، فلم أعد أدرى أصابعى من أصابعها حتى لو شئت تحريك أصبع لعجزت إرادتى عن تحديدها، كنت أستوى على مهل فى حضور جديد.

اعلم يا أخى أن الأمر لم يكن بيدي منه قدر ولو يسير، لبيت
والرضا متمكن منى، فكان غضبى وحزنى لم يكونا إلا عتابا
دقيقا لم ألفظه، أو تمهيدا لما صرت إليه. ما إن جاورتها
صامتا، ساكنا، متشاغلا بالنظر إلى الزهور، متأملا فى مغزى
صفها لها ودلالة الأمر حتى ولى ما عانيته، فكان أرقا لم
يقضنى وسهادا لم يطرقنى، بل إننى لمت نفسى لسوء ظنى،
وتحاملى عليها. لا أظنك تعد هذا ضعفا منى، حتى وإن بدا لك
هذا فلا ضير على ولا خجل أبعده، تلك لحظات انتفتت فيها
الحسابات، حرام فيها القول بما يجب الإقدام عليه، وما ينبغى
تجنبه، فى حضرتها لا أتقنع ولا استعير. ولا استعين بما ليس
عندى. هذا حالى أبسطه كما هو. نقيا صافيا كقطرات الغيث
قبل ملامسة اليابسة، ربما تود الإحاطة بما جرى وكان، إنى
مذكرك، منبهك إلى أن مثل هذا صعب تدوينه مفصلا بعد
انقضائه، فما يقال يفنى عندما يتلقاه الآخر، وعند استعادته
أما النظرة فتكتسى المعنى وتنفذ مندمجة بذات المتلقى، العجيب
أن تعبى تدرى، وإرهاق قلبى ولى، منها سرى دفق إلى
أوصالى، وشيئا فشيئا لم يعد إلانا، فكان القوم لا يحيطون بنا،
علقت بابتسامتها الثرية، وخضعت لألق عينيتها، أما جبينها
فيدا رحبا، لا نهائيا، وقامت بينى وبين غمازتيها صلة، اثنتيت
إلى توالى ابتساماتها، تلك المضمومة منها، أو التى تحاول
للمتها قبل انفلاته ربما لا تدرك عقباها، أو الهادئة المضاحبة
لإيماءاتها، أما هذه التى تضىء ملامحها كلها بضى خفى
المصدر، فلها شأن يغينى.

الأمر شاسع يا أخى، يا أعز صاحب، وربما أفردت يوماً رسالة أنبتك فيها بالابتسامات وتعاقبها، والالتفاتات وتنوعها، وانفعالاتها الشتى، والانديفاعات المفاجئة، والبوح، والزمن وما حفل، والوقت الذى جرفنى وطوانى وأحال ما كان منى إلى دوارس، غواير، فأدرك يا أخى ما مر بى، وفق الله أيامك. ماذا جرى منها ومنى خلال هذه الساعات الخمس، ونحن ما بين الثرى والثرى؟ أقول بعضاً من كل، فى البدء تناولت سلة فيها لفائف، أرنتى ما اشتترته فهذا عطر من أعشاب، أتت به من بخارى، وهذا كتاب عن مساجد سمرقند، عجبت، كيف فاتنى شراؤه؟ ضحكت، أخرجت رغيفا أوزيكيا، قالت إن اسمه «نون» فاستعدت مذاق الخبز الذى ظننت أننى غير ملاقيه أبداً، ضحكت مرة أخرى، قدمت زيتونا وعنبا. قالت إنها لا تتناول فى العادة عشاءها، لكنها أحياناً تجوع فى الليل. فتؤثر الاحتفاظ بطعام يسير، كدت أهفهب فرحاً، إنها تطلعنى على شىء من خصائصها، قلت إننى مثلها لا أتناول إلا عشاء خفيفاً، كنت أسعى متمسكاً ولو شبيها بسيطاً بينى وبينها، هذا حال لابد أنك مدركه يا أخى، لكم سررت عندما عرفت أنها مولودة فى نفس شهرى، وما بين يومى ويومها ستة عشر يوماً فقط، غير أننى تداركت ضاحكاً، فرق الأيام قليل، ولكن السنوات شاسعة، عشْرين كاملة، صبحها قريب، وأصيلى سار، ودأخلى إلى غروب، رددت تاريخى، قالت إنها لن تنسى أبداً، ولما بدأ غيم من وجومى، شردت لحظة، تساءلت عما

أفكر؟. قلت إننى أفكر فى المكان الذى سيكون فيه كل منا بعد سنوات عشر، قالت، لماذا تشغل نفسك بما لا نثق من وصولنا إليه؟ ثم قالت، هذه الطائرة معلقة بين السماء والأرض، وخطأ أبسط مما تتصور يمكن أن يضع حداً للنهاية، فلماذا لا نقترن باللحظة؟.

لم أقل لها يا أختى إن اللحظة التى نعيشها سرعان ما تنقضى، لن نمسك بها أبداً، دائماً تولى، تفلت، فنحن فى فوت دائم، أما جلستنا هذه وقربنا ذلك، فسيستحيل هذا كله إلى صور نائية، استرجاعها بالمخيلة لم أقل لها إننى أرى لحظة أفتراقى واللقاء متصل، وهذا جل اغترابى، وصميم قلقتى، لم أقل لها ذلك، لكنها أدركت. فكت رموز سماتى، نفذت إلى لب صمتى.. قالت مرة أخرى.

«تبدو مهموماً»

ثم قالت:

«تبدو متقدماً عن سنوات عمرك.»

ثم تساءلت:

«لماذا لا تعرف أنيتك؟»

قالت إنها منذ ثلاث سنوات، أجرت عملية جراحية، رفضت المخدر. أصرت على إجرائها وهى مكتملة الوعي، الألم له حد لا حد بعده، الألم يقتل الألم. لكنها أدركت فيما بعد أنها لم

تطق الغياب لحظة واحدة عن وقائع الحياة، قالت إنها فى رحلة كهذه تضن على نفسها بالنوم حتى تسمع وترى.. قلت لها إننى عندما كنت فى المعتقل منذ عشرين عاما، تأملت رفاقى الستة والعشرين. العنبر ضيق. معتم، والموقع قصى عن المدينة، بعضهم يروح ويجىء. عندما جاهرت بخاطرتى..

«ترى أين سنكون بعد عشر سنين؟»

تطلعوا تجاهى صامتين، مفاجئتين، ثم حاول كل منهم النطق والتخمين، كانت السنوات العشر تبدو نائية، ممتدة، مسافة شاسعة، خطأ الزمن، وانقضت عشر فى أثرها مثلها، وتفرق كل منا إلى جهة. وبعضهم رحل عن دنيانا، ومنهم من نسيته تماما مع أننا قضينا أشهرا ستة متوالية معا، مهديدين معا، نأكل من ماعون واحد، ولو أنى شئت تفصيل ما جرى لكل منهم لفاض الأمر، لكلت، تقلبت المصائر بهم، وتفرقت السبل، كانت تصفى إلى باهتمام يا أخى لم يقابلنى أحد بمثله. ثم تساطت عن السبب الذى أدى بى إلى دخولى المعتقل، ثم سجنى، أفضيت إليها وصرحت بما لم أقله تحت وطأة الإيلام البدنى، والنفسى، غير أن ما أقلت منى واستوقفها قولى:

«كنا نحلم بتغيير العالم!»

تساطت بجديّة:

«ولماذا .. ألا يمكن تغييره حقا؟»

تطلعت إليها صامتا، كنت عند نقاط معينة أحيده. تذكرت صاحبى، أستاذ الهندسة القديم، الذى يجلس على مقربة، تفاؤله الأبدى، وابتسامته فى أصعب الظروف، وددت القول إن الأحلام فى البداية كانت شاملة، ومع السنوات تواضعت حتى أصبح التعليق بالبدييات حلما. الأمور المفروغ منها. المتفق عليها بين الكافة، التى ظننا فى بواكيرنا أنها لن تكون موضوعا للمناقشة، رغبت فى الإفضاء إليها بهذا كله، غير وإننى الملمت، طويوت وأحجمت، فالأمر يحتاج إلى تفسير، وإننى آتيتها به، غير أننى مرجئ ذلك، فما أحوجنى أن أعرف عنها.

قالت إنها الابنة الوحيدة، تدرس المعمار منذ سنوات، لكنها تعمل أيضا بتدريس اللغة الإنجليزية، تعيش مع زوجها فى بيت من حجرتين، ترتب أمور، تدبر شئونه، تعد الطعام، أحيانا يشاركها أيام الأجازات، إنه رقيق، لكنه شاب، شاب جدا، صغير.

لا تفوتنى نبرة صوتها، مرة أخرى ألتزم الصمت عند سماع ذلك فالأمر حرج، تلفتت ، والتفاتاتها يا أخى حادة، مباغته، غير أنها لطيفة الوقع، تلقى عندى دعة، كما يطيب لبصرى عندئذ المكث عند أفق وجهها الجانبى. له جمال بذاته، يختلف عن حضور ملامحها إذا تطلعت إليها بالمواجهة، باغتتنى، أتجهت صوب يدي، بسطتها، حدقت إلى خطوط راحتى، لم تقل شيئا، عندما بسطت كفها للمقارنة، تدفقت

تجاهها، أحطت بيدها حتى سرى إلى نبض أوردها الخافت
وحرارة جسدها، رفعتها متأنيا، قبلتها، بل قل إننى مسستها
بشفقتى، غير أننى أقمت، بقيت منحنيا، بدت شاخصة، متطلعة.
عندما مست شعرا أسى، طارت دقات قلبى بعضها، كبحت
زمامى، هذا أقصى ما يمكن صدوره عنى، وجمع على مقربة،
بعضهم يسمع ويرى، بقى عناق أصابعنا، وإرتدت ملامحها
إلى طفولة، إلى مراحلها الأولى، فأطلعتنى. على ما لم أره. لا
أدرى متى قالت إنها تسبغ مرتين أسبوعيا حتى فى الشتاء،
تمضى للسير فى الغابات الممتدة، المحيطة بالمدينة، عند لحظة
معينة، صعب تحديدها اتصلت الحميمية، وتوحدت الأسباب،
فصار كلانا يتلقى عن الآخر فى اللحظة عينها، وفجأة، انتهت
إلى تسرب اللحظات منى، فبدأ وعيى بالمغادرة، ووجدى الذى
سيعقب الانقضاء. طفت من داخل الحان عتيقة، وبقايا
أشعار، طلبت منها أن تصغى. فهى لن تخاطب حقا إلا بالغناء،
هل تعرف آلة القانون؟ استفسرت فشرحت موضحا، رفعت
إصبعها.. «السانطور..»

قلت إنه يشبهه، غير أن استخراج أنغامه بالأصابع، وليس
بالطرق. إننى أتقن العزف. لو بصحبتى القانون لهيات مجلسا
لى فى هذا الحيز الضيق، ولا أكلمها إلا عزفا، استعدت
بخيالى مواقع الأوتار. صفرت النغم بغمى، هكذا صرت
العازف والمصدر معا، حتى أتممت على مسامعها بشرف
سماعى راسا أتقنته منذ زمن، صار سلوتى إذا كوانى
وجدى، أو طحا بى شوق فى الضلوع عاصف، أصغت دانية
منى، هزت رأسها مرتين، ومن أعطافها سرى إلى هبوب، بدأت

أتمس بربى إلى رانحتها الخاصة، تضاعف وجدى، فنوعت
واسترسلت، فلما فرغت، قالت بإشفاق..

«هذا جميل، شجى، لكنه حزين..»

اعتدلت، واجهتها بكلى، فى كل لحض يقلع من عندى وفد
إليها ليبلغ وينبئ، قلت إن من كان مثلها لا يخاطب إلا شعراً،
بل لابد من إيجاد لغة تخصصها، لا تخاطب بها إلا هى، ليس
مثلها مثل. ملت فلاقته تخصصها، لا تخاطب بها إلا هى، ليس
دقائق ذاكرتى شعراء، أنشدتها بعضاً مما احتوى حالى، ما
تنبأ به شعراء عاشوا قبلى بقرون طويلة، ما عرفوا أنى ملاقيهم،
اجتهدت لنقل المعانى إلى الإنجليزية، وعندما قالت إنها تذكر
بيتاً للمتنبى فهففت فرحاً، وأفانى إشعاع من عينيها بمدد
فيبدد تعبى، وسقتنى من منابعا فتقلبت بين حركة وسكون،
أبصرت دقائق غابت عنى، أمسكت بما يفصل الظل عن أصله،
وأدركت ما بين الصلب والترائب، فاطلعت على التكوين فى
أوله، كنت غير غائب عن هيئتها الكلية، والجزئية، عن هيئة
جلستها، إطلالتها، هيئة تحولها من جانب إلى آخر، هيئة
إصفاؤها، إبدائها العجب أو الدهشة، أو بث إشارة خفية لا
أخطئها أبداً. كنت يا أخى كمن ينفذ عنه كمونا طال، أو
يقصى البلى فيصير إلى عالم يتوقعه، ومالم يخطر على قلبه،
أو عقله، ولا جاس بخباياه، ومن أغوارى نما النداء منى
والحض، أن أقوم، أن أجتو وأقترب. لكن مازال الأوان بعيداً.
فإنهم يا أخى ما حجبتهم وما لم أقيده لصعوبة تدوينه أو تحويله
إلى لفظه لعلك - يوماً - شافعى.

اندلاع اللحظة

أخى..

من القائل:

بلىنا، وما تبلى النجوم الطوالع

وتبقى الجبال، بعدنا والمصانع

من؟؟

هلا أجبتنى؟.. هلا ساعدتني؟ بلنى وردد القول، أما أنا
فإذا سنحت الفرصة فسأنقشه، سأخطه على واجهة معمار
نابع تصميمه من صميمي، لما استوى حضورها عندي.
وتأهبت روى لتقلع من كدوراتها أيقنت أو قل بلورت ما ظل

سنين جاثما . أقصد تعلقى بالبناء، ودراسته، وترميم القديم
منه، وهذا ما اتقنته، وذاع عنى، إنه الرغبة الدفينة يا أخى فى
عدم الزوال، فى البقاء. فى تثبيت اللحظة التى يستحيل إيقاف
مروقتها. انفلاتها، فكانى أعوقها بالحجز. وإن كنت عاجزا عن
تأخير حينى، أو استعادة ما أفلت منى. فى غمار نشوتى يا
أخى، يا أعز الأقرين، على شفا استيعاب عبيرها، والطائرة
تميل صوب الأرض، ويدانا متشابكتان، وكتفانا متماستان،
اندلع أمامى الخاطر النكد، فتجاورنا يوشك على انفصام
والمتاح لى ساعات، ثمان وأربعون ثم يقذف بى عبر الفراغات
العلا، أصير إلى جهة. وتبقى هى فى جهة، فماذا أنا فاعل؟
ماذا سأجنى؟ هكذا أرى لحظة زوالى، ونأبى، أرى عين
افتراقى معى فنح وردد مع القائل:

إذا هى مرت لم تعد، ووراها

نظائر، والأوقات ماض وقادم

فما أب منها بعد ما غاب غائب

ولا يعدم الحين المحدد عادم

قل معى يا أخى:

أمسى الذى مر على قريه

يعجز أهل الأرض عن رده

هكذا بذلت جهدى لأدارى أساى، ناديت نفسى، أن أتجلد،
هذا ليس إلا الفراق الأصغر، وبعد ساعات يبدأ الفراق الأكبر.
قامت بعد توقف الطائرة. أخرجت من حقيبتها غطاء رأس من
الفرو ثقيلًا، نافر الشعيرات، له فرادة. فلم أر مثله. كنت أتأهب
لتلقى أول بواده للوجد بعد الصباية، لا أقدر على معانقة
اللحظة كما أشارت. فكل لحظة إلى بلى صائرة، ولما ارتديت
معطفى، وتأهبت لملاقاة البرد الصقيعى ودعتنى بابتسامة، لابد
أن تمضى إلى الهندى وصحبه، غابت عنهم طويلا هى المكلفة
بمرافقتهم، أومات صاغرا، أشارت إلى غد، حددت السادسة،
أى ساقضى ليلة ونهارا فى مدينة تسعى فيها، تظلى الغيوم
ونفس السماء، وأتدثر كما تندثر هى من شتاتها الكوفى، لكنها
فى مكان، وأنا فى آخر أنوء تحت تعبى الذى بدأ بمجرد
ابتعادها عنى، غصت فى مقعدى، محمقا إلى الأشجار
المتتابعة، المكلة بالجليد، أخضر، وأبيض ناصع، نقى لا يشوبه
كدر، إلى كنيسة زاهية ألوانها. الأحمر صريح. الأصفر قوى.
الأخضر خصب. أما القباب فسرمدية، إلى ضباب كثيف
يخفى نهايات المبانى الضخمة وقممها، كأنها تنهض من دعائم
الأرض الصلبة إلى عنصر الغيب، بدأ ضوء النهار وأهنا.
والقوم يسرون فى أرديتهم الثقيلة، يمضون فوق الأرصفة إلى
غايات شتى، أما غايتى فموشكة على التبدد، ساعات وأغانر،
ما تبقى من زمن غير مساعد، كيف يمكن لصلة أن تنمو.
ولوصل أن يجرى، إذن.. ما يعنينى أن أبلغ ما عندى، ما

أراحنى أننى كشفت لها قبسا . لو جئت مرة أخرى وهذا
صعب، وعمر، فهل سألقاها هى، هى، وهل تبقى اللحظات
المتوالية إنسانا على حاله؟ عند باب الفندق، فوجئت بها تنزل
من العربة، يميل رأسها قليلا، تضم شفتيها، أما الابتسامة
فبوجهها كله ..

إلى غد.

قالت مؤكدة: السادسة، وددت لو لذت بسموقها، لو احتميت
بوارفها، لكن.. لم يكن من الوداع المؤقت بد، ولا من الانفراد
مفر، فألى من أخلو بعدها؟ رغبت التوحد بذاتى، واستدعاء ما
انقرض من وقت، هكذا هرعت إلى حجرتى، محتميا بهدونها،
متوضئا بصمتها، بفراغها، مستلقيا مستسلما للرؤى، بدءا من
القباب السمرقندية، والمداخل الشاهقة، والحضور البخارى،
وحديقة القصر الصيفى، إلى مشيها، إلى ظهورها بين شجرتى
التوليب، إلى قلبها من طور إلى طور فى ليلة سهرنا الحميمية،
إلى أثر لا تلحظه عين يتركه قوامها الباسق فى الفراغ الذى
تجوز عبره، كنت أصغى إلى تدفق الحياة فى أوصال المدينة
المدثرة بالثلوج، والشجر الذى لم يبيل اخضراره فى الصقيع،
وعندما أغمضت عيني، كانت تغمرنى ولم يكن لى عاصم بعد
اليوم.

اعلم يا أخى أن ما ينتهى أحيانا يبدأ وإن كان غير موجود،
وثمة ما نراه بالنظر، ونلمسه وندركه بالحواس إلا أننا نفتقده،

وأخر إذا ولى وغاب عنا صار متمكنا منا، وصرنا منه فى أمر
سديد.

هذا عين حالى الآن، وجوهه ذلك العصر يوم أويتى من
آسيا الوسطى، أغلقت بابى، أقمت أرصادى، لم أرفع سماعة
الهاتف رغم توالى الرنين، لم أعبأ، هى على مسافة يمكننى أن
أقطعها مشيا. بعد ليلتين أصير إلى قارة. أعود إلى نظام،
وتبقى هى فى نظام آخر، هذا حالى معها. هذا ما قبر
على.

فى هذا العصر الذى أغلقت فيه بابى. لاح خسرى، أدركت
أننى أدرب نفسى على فراق يقينى، وأننى أستدعى إلى
اللحظات الآتية مكابدة مقبلة، فعبثا قولها. «عش اللحظة»،
ودعك من أت قد لا تبلغه، إنما أنا ما كنته، ما جبت عليه،
وعندما ثقل الليل تساعلت، أين هى الآن؟ فى أى مكان تخطو أو
تجلس أو تتأمل فى عين هذه اللحظة؟ تماما كما سيكون حالى
لأمد طويلة مقبلة، برغم إعيائى فى فورة حجبت عنى الإغفاءة
والهجرة، أى من أصابنى؟ أنا الحزين، المبتعد، كنت أدرب
النفس على أن ما مررت به اكتمل وتم، مهما جاءت به الساعات
الآتية. القادم لا أتوقعه وإن تمنيته، الحق يا أختى، أن شكا
روائى فى وعدا بالمجى لقرائى، وأننا سنلتقى مرة أخرى،
على امتداد النهار التالى خرجت، انتقلت، عبرت الشوارع
العريضة، خطوت فوق الثلوج المزاحة فوق الأرصفة، لبيت دعوة

من صاحب لنا، كنت فى كل لحظة، عند كل إيماة أو التفاتة موقناً أنها ترقبني من مكان خفى، أنها توشك على مناداتي، وكنت مهياً لأن اليبى، حتى إذا ولجت باب النزل الفسيح طالعتني هي، هي بوجودها، بحضورها، بسناها، كانت بصحبة زميلتين ومن تطلعها، من نظراتها صوبى أيقنت أنها لم تقف إلا لانتظاري، ولم تات إلا لترانى، فشب عندي توق متجدد. ما إن لمحتني حتى أنهت حوارها، أقبلت نحوي، كانت شاهقة كنصب حى للأثوثة، ترتدى قميصا من حرير، يشى بمشد صدرها. وحرزما جلديا عريضا أبرز دقة خصرها الذى أوشك أن يكون رمزا، عجبت، إذ كيف يمكن أن يحتوى؟ كان فراغا يفصل نصفها العلوى وقدها السفلى، وعندما تقدمتني كانت تسرى ولا تمشى، أما خطاها فصهرت ما عداها، الأبواب المطلة على الممر، والجدران القائمة. والبسط المفروشة، والمصابيح الواهنة، وأرقام الغرف، لم أعد أبصر إلا هي، ولا أرى سواها، وعندما دخلت الغرفة، وعبرت إلى المقعد الوثير، توقفت رانيا، مدمداً فى قرارى، كطائرة تدرج ثم تتوقف لحظات قبل الإقلاع. كانت أشواق طال همودها تستنفر، تبرزغ، وأحاج لم تحل، وأسرار تراكمت عبر المسيرة، كنت موشكا على الإقضاء بها، كانت تضوى، أما وجودها الحسى فيلغى ما عداها، انتشت داخلى طاقات عتيقة، وتجددت منابع جفت، تهيأت لنثر درى ومرجانى اتقليب صحفى الأولى، وتجديد أحوالى البالية، لما رأيتها متلعة إلى، مستفسرة، متأهبة، منتظرة، لمحت البشارة آتية من

ضيا عينيها، لم أئنن، لم أضيع لحظة، إنما على الفور بدأت
الدعوة.

جنوت!

شيعت لثمي، وتقبيلي إلى كافة ما طلته من عالمها الحسى،
بدأت بيديها، وطفت، ثم عدت، أنفاسى زفير بلا شهيق، حتى
إذا لمست جدائلها وتنسمت عبيرها انقلبت شهيقا ولا زفير،
أثناء قدومنا من آسيا الوسطى تعرفت على حدود أطيانها،
رائحتها الخاصة، غير أنى لم أتوغل، لكنى عندما استنشقت
نسائمها، هبوبها، تفتحت فى صدرى طرائق ودروب ومسارب
ما ظننت يوما أنها عندى. عانقت رائحتها، تعلقت بها، اقتفيتها
فى شعرها، فى جبينها، ارتميت تحت فتحتى أنفها حتى ألتقى
من صدرها خبرا، فى وجنتيها اللتين شعنا ضوءا خفيفا حلوا
ليس من مكونات هذا العالم. استنشقتها من طيات ثيابها، من
أطراف ردائها، كنت أبغى تثبيتها داخلى، ادخار جوهرها،
الإسماك بلبها حتى لتخرج من مسامى وأنفاسى، فإذا نأت بى
الديار، وتقادم العهد بهذه الانتفاضة، أمكننى استعادة بعض
من ديمومتها، تعلقت بيديها، تهجدت نظراتى صوبها، انحنيت
ملامسا أصابعها بجبهتى، كنت أخلق طقوسى، لا سابقة لها،
ولن يكون، رددت اسمى، اسمى لا غير، انتشيت لما أصغيت
إلى حروفه المكونة مصاغة بنطقها الغريب، تطلب منى أن أكف،
أن أتوقف، لفنى صوتها السارى إلى، تراجعت برأسى قليلا،
رأيتها فى خلق جديد، فى كل مرة يا أخى تبدى لى يا أخى

ملاح أدركها لأول مرة، عدت أهوى إليها. تجاهها ارتطمت،
حطمت، طوقت عبيرها مرة أخرى. رائحة يا أخى ليس لها
مثل، اعلم يا أخى أنها أمم من روائح شتى، كلها طيبة،
مسكرة، فمنها طيب منبعث من ثنايا شعرها، وبقايا عطرها،
وإشعاعات وجودها، وثناياها النائية، هذا يدق عن الإحاطة،
يستعصى على الوصف، لو أنى قدرت على الاستعارة، ولو
قبسا، لاستمر بعثى ونشورى، لو أعاننى الدهر على الوقوف
عندها مرة أخرى لبلغت ما انطوت عليه الفكرة، لجاوزت مسافة
القدرة، لتجدد عطائى بغير حساب.

فاليويا ..

ناديتها همسا، فجاءتني بالنظر الحلوم، رجوتها أن تقف،
لبت يا أخى لبت، سألتها أن تخطو، فلما جاءتني، حاولت
معاينة الفضاء الذى اجتازته، الذى عبرته، فلما أعيانى الأمر.
قبلت مواقع الخطى، عندئذ انحنت، قابلتني بعينيها، لاقتني
بنظراتها، أشرفت، حنت على حنوا، أطلت، وكنت أعى أن قدرى
يكمن فى إحدى هذه الطلات. درجت نحوها، ساعيا إلى روح
وريحان، حاولت النفاذ عبر عينيها، فأقلعت عبر رياض،
ومفازات، ولمست قمم أشجار نادرة، وجزت وديانا وبيدا،
وطفت بمدن لم أطأها، وفاتتني أرض لن أبلغها إلا بشق
الأنفس، رافلا فى نعيم القوم. متدثرا بحزن البلاد كلها
وصحاريها، غير أن وفاضى ارتد خاويا. لم يحط بشيء، لكن
تفجيرى دام، لم يبلغنى كدد، حتى تعجبت فيما بعد، أكان هذا

كله منى؟ حمت راجيا حول وجنتيها، لثمتها بشفتي، عاودت النظر، فلما أيقنت من وصول طائرهما، وفضضت بريدها، بركت على شفتيها. وانزلت متاعى وحملى. دفعت لسانى إلى دفه فمها الوردى، فكان شقا منى ارتد جنينا، كأن الوجود عاد سيرته الأولى. وعندما تطلعت إلى عينيها، أيقنت توفيقى فى إبلاغ الرسالة. وأن المجاوبه آتية والتلبية على وشك، لم تكف عن ندائى باسمى، مطالبتى أن أهدأ، لاح فى صوتها إشفاق وحنو. رأيت عينيها تسكبان رحيقا نحوى، ورحيقهما يا أخى لو تدرى عجيب.

أعرف يا أخى ما يجول بخاطرک لحظة اطلاعك، عند إدراكك سطورى هذه، ولكن صبيرا يا أقرب صاحب، وإن كنت فى بعد، صبيرا، فإنى أبوح بما أخفى وما أبطن، وإنى لمفسر لك. ولكن قبل ذلك يجب أن تصفى إلى ما أرغب تفصيله حول نظراتها تلك..

نظـر

افهمنى ولا تتعجل يا أخى، نظرها إلى المصحوب بترديد
اسمى، إنما يعنى أموراً شتى، كانت كلها على مقربة، وكنت
دانيا، جاثيا، أرقها، وترقبني، نظرها يتردد بيني وبينها، منها
إلى. نظر أصفى أطيافا على ملامحها، على رونقها، أكد لى
قبولى عندها، وللقبول يا أخى إذا تم شأن عظيم، لكنه قبول
مشوب بحيرة مشروعة. فلم يمض على تكوينا بمقادير دنيانا
إلا قدر يسير، ربما حيرة وليس ترددا، فى نظراتها أيضا حث
لى وحض، أن أقدم، أن أشرع حتى يصل الأمر إلى مداه، إلى
محطه الأخير، أن يتوالج كونا. لم تردنى، إنما أباحت لى

كوكبها الدرى، حتى إننى جست بيدي خلال الأكم والروابي،
فلا ينقص الأمر إلا دفعة يسيرة متوقفة على. ولم أقدم، لم
أفعل، مع أنى الطالب وهى المطلوب! ستقول، وفيم الإحجام؟
فيم التقاعس. هنا أقول لك، أفهمنى، وأدرك ما عندى، لم أسع
إلى المنهى، قد يبدو غريبا هذا، ستسألنى، ألم ترغبها؟ أقول لك
إن ماشب عندى حريق، ومن أمسكت النار بثيابه، كيف يهدأ؟
لكنى بقدر ما رغبت، بقدر ما أحجمت، فأنصهار كينونتنا لن
يقدر له الدوام، ولم أكن أسعى إلى اتحاد عابر، فى ظرفى
ذاك. لو نلتها ونالتنى، ربما انتهى حومى، وربما وضع الحد
لاستمرار اقترابها منى. لم أقصد الوصول إلى المحط الأخير.
إلى لحظة همود حتى وإن جاءت بعد ارتواء، لم تكن بالنسبة لى
نقطة عبور، ولا جسرا مؤديا، وعندما تعانقنا مال كل منا على
الأخر يعتصم به من لحظات آتية ستجرف ما نحن فيه، لا يمكن
ردما، وكنت أحتمى منها لحظة مرورها بالعناق، بالإحاطة بها،
مدركا أن هذا لن يستمر لأن الظرف معاكس، وهذا رغما عنى،
وعنها، أما إذا مددت الخيط إلى منتهاه. فلن يتبقى شىء، سبب
ثان يا أذى كنت حريصا حتى لا يتملكها الظن أن هذا ما
سعت إليه لا غير، ولكن ما أردت توصيله وعورة هيامى،
وشموليته، وشدة توقى، هل فهمت عنى يا أذى؟ لا تفوتنا
الإشارة إلى حدة وعيى بقصر المدة، ولم أكن قادرا على التنبؤ
بما سيصير إليه حالى لو صار الأمر إلى غايته، ربما ألقيت
بكافة المحظورات جانبا. ربما اختل دستورى، وأثرت الهيام

على وجهى إلى أبدى قريبا، أهرج ديارى، وأخترق حاجز العقل، لك أن تتصور يا أخى ما صرت إليه كنت أدور حولها، أنا الجزىء، وهى النواة، وما من اتحاد، كائى من طال بحثه عن نبع الحياة، حتى إذا بلغه، لم يدرك أنه بغيته فتجاوزه دون أن يحسونه، وبعد الفوت أدرك خسارته المبين. كائى طائر الرخ الذى علق له السندباد قطعة اللحم فى طرف العصا مدها أمامه، موجها إياها إلى الجهة التى يرغب، والرخ يطير لعله مدركها، لعله مطعمها. ولكن عبثا التناول.

لعلى وفقت فى إبلاغك كنه الأمر.

اعلم يا أخى أن النظر تهادى بيننا. وعند لحظة بعينها ذوت حيرتها، أيقنت باطلاعها على مكنونى، هكذا احتوت رأسى بين يديها، ملت حتى أويت إلى صدرها. أنست منه مأوى، راحت تتخلل شعرى بأصابعها، رددت.. «رمادى.. رمادى..»

أوشكت على رؤية ملامحى فى نغم صوتها، ما فى رأسى من شيب. كنت أبسط تاريخى كافة أمامها. ترفع رأسى. تحدق إلى..

«حزين.. لماذا هذا الحزن كله؟»

ثم قالت:

«لم تبق إلا ساعات وترحل..»

ثم قالت:

«سأراك غدا . سابقى معك حتى الرحيل..»

ثم قالت.

«فى الساعة الثانية عشرة، ساكون فى مبنى الاتحاد..»

قالت ونسيمها يسرى فى ثناياى، مثيرا شوقا جامعاغير

ذى عوج..

«تلتقى هناك..»

تراجعت قليلا. رأيتها حانية،مطلة، مشرفة على، محيطة بى،
لم تلفظ إلا همسا. لا يمكننى تفصيل ما قلته، أو ما قالته لى،
كانت تميل على، تزقنى الألفاظ، تطعمنى مسك الحرف كما
يهدى طائر الحمام الحب إلى فرخه الصغير، على مهل كنت
أتحول إلى عناصرى الأولى، بينما وجدى يبدأ قبل بدء البعاد.
فهل أتاك ما كان منه عندى منذ أبد أبيد؟

الوجد

.. اعلم يا أخى - صبرك الله وخفف عنك ما يسبب لك بأساً
أو ضرراً - أن الفراق حق، والبين حق، وأن التئاني حق. كل
مجتمع مصيره إلى افتراق، وإلا لما كان اجتماع أصلاً. فلم
أرها بين شجرتي التوليب إلا لأنى فارقت ديارى وارتحلت،
لكن، فرق بين إدراك ذلك بالعقل، وأن تعيشه، فرق بين وعى
به. واكتوائى، اعلم يا صاحبى أن الأصل فى الأشياء التفرقة..
هكذا بدأ وجدى واشتد، وأوعره ما جاء بعد تباعد ديار،
وانعدام يقين من أوبة أخرى، هذا موجع. الوجد يا أخى شدة
الشوق، ولا يكون الشوق إلا إلى غائب، وطول الوحشة

يضاعف الحسرات، هذا ما صرت إليه بعد حين، عندما عدت إلى ديارى أغمضت عيني في ليلتى الأولى، أشبه بالطافى، المحموم فى فضاءات رحبة وما من شيء يشده، كان فرحى بإدراكها. والوصول إليها. وفهمها عنى، مازال ممتدا. غضبا، فكانى سأصحو فألقاها بجوارى، أخرج من بيتى فكانى ذاهب إلى لقائها، أينما وليت وجهى أراها مشرفة على، مرة تلوح هيئتها كما شهدت فى آخر لحظة، وهى تقف أمام الفندق. وفى ملامحها شجى، ترتدى معطفها الأسود، تدس يديها فى جيبيها، حاسرة الشعر، غير عابئة بالصقيع، بعد استقرارى فى العرية، خطر لى أن أغادرها، أن أخطو ثلاث أو أربع خطوات. أمد يدي فألسها، أو أصافحها مرة أخرى، أستوثق من كينونتها المادية، غير أن الرحيل بدأ، فلا مفر، كنت كالظامئ المقيد المرغم يبسط نظره إلى الماء وما هو ببالفه، وقفتها هذه تعتقت فى خلاياى، فلکم استعدادها، وفى كل أونة أرى مالم أطلع عليه من قبل، وعندما وصلت العرية إلى المنحنى، حيث قام أول حاجز مادي حال بين بصرى وبينها، وخطر لى أنا استأذن مرافقى، أن أنتنى لحظات، غير أن ميناء الإقلاع بعيد، والوقت يمضى بى إلى اتجاه آخر، لا يؤدي إليها أبدا، أراها الآن يا أخى لحظة تدوينى هذا، فاكشف فى وقفتها تلك حزنا أعمق، وميل قوامها إلى الأمام، وتهدل كتفيها، لمحت فى صالة الفندق نوارف مطلة من عينيها فتحاشيت التطلع إليها. هل تفهم عنى إذا صارحتك، بوى انقضاء هذه اللحظات

الختامية؟ كان لابد من توقيع أوراق، وتسديد رسوم، وتوديع معارف، التأكد من وجود أوراق السفر. بينما تتحرك هي بمقربة. تكف إذا توقفت، وتمشى إذا مشيت، لا تتبادل الحوار إلا عرضاً، كنت أؤدى هذا كله وكأن شخصاً غيرى انبعث من داخلى لينوب عنى، لبيّتسم لهذا. ويؤكد ضرورة تبادل الرسائل لذلك، كان وجودى قريبها على مرأى منها فى هذه اللحظات الختامية كعدمه، كذا وجودها بالنسبة لى، كلانا فى مواجهة الآخر. لكن الانقطاع مقرر، وعندما يصبح التناهى مفروغا منه، لا راد له، ينتفى الوجود وتنعدم الكينونة وإن قامت، جريت هذا يا أخى عندما وقفت يوماً أمام جثمان أمى، كانت متمددة، مغمضة العينين، أوت إلى أبد، ألمسها، لكنها لم تعد من هذا العالم، أميل لألثمها. لكنها بعد ساعة لن يكون بوسعى أن أنادىها فتجيبنى، وجودها غير موجود. وهذا شبيه بحالى مع تلك البنية فى لحظاتها الأخيرة، علما أن فراق الحى أصعب من فراق الميت، لأن الأمل يندثر بعد حين أما الحى فيظل التعلق به قائماً، إنها تحضرنى يا أخى تتمثل فى. أرى تلك اللحظة الوداعية. هذا الصرح من الحيوية أدركه ميل، أيل بسببى، وجهها الجميل يضاعف الأسينة، خاصة والليل مكتمل، وياقة الفراء توظر عنقها الجميل، لم أدر أنها ستلازمنى مددا أضعاف ما قضيته معها من زمن حسى، فلم يكن ما قضيته معا إلا لحظات معدودات. ولم يكن تلاقينا إلا كتماس الشهب المارقة فى اتجاهات منضادة، غير أن كلا منها أودع الآخر

لهبا، وجمرا، هكذا يا أخى نمت عندى حالة الفرخ الغريب هذه فى الأيام الأولى لعودتى، كنت أصحو مبتهجا متطلعا ببهجة إلى الآتى، غير ذى صدور كأمرى قبل لقائى بها، أعى نأىها عنى، لكن لا يفزع قلبى. ولا تهرع روحى. إنما أقدم نشيطا، راغبا فى رؤية صحبى، والمضى إلى الأمكنة التى أفضل البقاء فيها منفردا، أقلب حاجاتى التى صحبتنى فى سفرى مبتهجا، قبل مفارقتنا الغرفة رجوتها أن تمسك بحقيقة سفرى، وحقيقية يدى. وحلتى التى ارتديها. والأخرى التى قالت إنها تفضلها، وكتبى. ودفتر ملاحظاتى. وغطاء رأسى، وجواز سفرى، حتى ينتسب كل شىء يخصنى إليها. وحتى الامس مواضع مرت عليها أناملها، وأنفاسها لعلى مدرك أثرا. لعلى ما لا يمكن رؤيته بالنظر، دام انطلاقى هذا أياما معدودات، صعب على إحصائها بدقة، لكننى بقيت خلالها غير منتبه إلى المسافات القصية، لا أدرى ما سيصير إليه نبئى بعد حين.

إذا لاقيت صاحبها أود لو حدثته عنها، أو أدير الحديث إلى وجهة تمكنى من إيراد تفاصيل متعلقة بها، غير أنى دائما أقف على شفا البوح، فمما لزمته بعد هذا العمر أن أكتف وأحجب، كانت تملأ على جهاتى. أتوقعها مقبلة نحوى. تفتح بابا مكتبى، تلج فراغه دافقة الحيوية إلى روحى فأشبه بعد إشعالها الجدوة، بل أتمهل أحيانا كأنها نادتنى وفى الزحام يصير وجودها قويا. حتى أوشك على تلمس جسدها الضاج قريبا. كأنها تسعى حولى. كأنها توشك أن تدنو منى، كأنها

مقبلة، مبتسمة، مادة اليد، مصافحة إياي، كأن لقائى بها مفروغ منه.

صرت أتوقعها كما بدت ظهيرة ذلك اليوم فى حديقة الاتحاد؛ أخبرتك يا أخى أنها أفضت إلى ببقائها يوم رحيلى، حددت مقر اتحاد الفنانين مكانا، أما الوقت فدار حوله همى، طوال الليل المتبقى بعد انصرافها، رحت أستعيد ما تبقى منها. ما أودعته فراغ سكنى المؤقت، غرفة الفندق، فى مطلع النهار الجديد طوقنى شوق، مسنى إليها أول حنين، هرعت إلى المكان الذى لزمته معظم الوقت، قبلته، إلى موضع جثونا فلثمته، كنت أتعجل مرور الزمن واستبطنه، فما خلا منها أرغب انقضاءه. وما اكتمل بها وددت ديمومته، ولكن يا أخى هل يدوم شىء أبدا؟

خرجت إلى فضاءات المدينة الفسيحة، المجللة بالجليد، طفت متاجر البضائع الأجنبية با حثا عن عطر تفضله. وعندما لمحت علامته تناولته، ضممته. قام بينى وبين القارورة الصغيرة أمر خاص: مررت الموعد المحدد بمدخل المبنى. طفت الشوارع المحيطة صقيع وعمر، ويرد لم أعتده، لكن ما خفف عنى أن كل خطوة تقربنى إليها، كنت أمشى محاذرا الجليد فوق الرصيف، متدثرا بمعطفى، مسدلا غطاء رأسى. جزت البناءات الهائلة، والمداخل، والنواصى المؤدية، حتى اجتزت الباب الخارجى الفسيح إلى الممر الدائرى الذى يتخلل الحديقة، بالضبط الثانية عشرة، المقاعد مثقلة بأكوام من ثلج هش، تحسبه بالنظر صلدا

حتى إذا لمستهُ أو أمسكت بحفنة منه تدرى، تماما كغياب وعيك
بعض اللحظات، أثارت نصاصته عندي بهجة غامضة. تذكرت
صاحبة لى تقييم فى مدينة نائية، قالت لى يوما إنها تتفاعل
بنزول الثلج، وقفت متطلعا إليه، منصتا، الشتاء يضىف بعدا
غامضا على الموجودات، لعلى ألتقط إيقاع مرور الوقت، الزمن،
أو ذلك الخفى المبين الذى يجمع ويفرق، غير أن ضجيج المدينة
المندغم. المدوم، حجب وأبهم.

سمعت خطأها. صوتها ينادينى دهشا، مبهجا، التفت
فرحا، فوجئت، لا ترتدى إلا قميصا من صوف خفيف، اجتازت
الحديقة نحوى حاسرة دون غطاء رأس. دون معطف. كيف
تخرج هكذا. أشارت إلى ساعتها..

«الثانية عشرة تماما..»

أشرفت، أجبت..

«طبعاً»

مبتسمة، مهللة، ضاجة بالفورة الحيوية، تصور يا أخى لو
امتد الأمر عدة من أيام أخر، تصور توالى ظهورها، تنوع
إبداعها وطلاتها وجميل لفظها المقتصد. فى كل مرة تجدد،
وتهلل مغاير، وتعاقب تعبيرات على الملامح التى أخذتنى حتى
عن نفسى، غير أن لهذا اللقاء الأخير معزة ومنزلة، عند
تواجهنا اختلف الوضع عن المرات المنقضية، فبعد أن دنا كل
من الآخر الليلة الماضية، بعد تماس كونها بعالمى، صار عندها
منى، وعندي منها، امتد وقت، ومودة، وصلة، أما قريبا منى

فله خصوصية أخص، ضاج، فواح، مشع تجامى، فكأنى
بالنظر المس جسدها، أتوسده، هذه الوقفة، تلك الطلة. قريبها.
ترحيب عينيها، علق بي هذا كله، صار مددى فى قفري، وزادى
فى بيدائى، وخلال أيامى التى تمكن فيها الفرح المريب منى
طال توقعى لظهورها، كما بدت فجأة فى هذه الحديقة، لم يكن
وعىى بفقدها قد بدأ بعد وهذا حال خبرته، لكن فى ظروف
مغايرة مختلفة، وإنى لقااص عليك نبأ منها لعلك مدركى. اعلم
أنه بعد رحيل أمى. ورحيل أبى، انقضت أيام تقال لا يمكننى
إحصاؤها الآن، كنت أهيم خلالها فى الطرقات غير واع
بالفقد، غير مصدق، متوقعا ظهورهما عند أى منعطف، أو طرق
أبى بابى كما كان يفعل. أو دخولى صالة البيت فأجدها فى
انتظارى، شيئا فشيئا بدأت أنتبه للفقء المحتم، وإن ما كان لن
يكون. لن أصغى إلى الصوت الذى ألقته، ولن الامس اليد التى
عرفت، انتبه يا أخى إلى ما قلته لك، انقطاع الرجاء من لقاء
الحى أصعب، فمن رحل إلى أبد يبلغ المدى بأهله وصحبه حدا
يؤسأ، فما من إمكانية قط، وهكذا يفضى اليأس إلى النسيان،
لذا يقولون إن كل شىء يولد صغيراً، عدا الحزن على الميت
فإنه يبدأ كبيراً ثم يضم، أما فراق الحى فهذا هو البين عينه.
والبأساء والضر، خاصة إذا تباعدت الديار، وشط المزار،
وأترك الوهن أملا فى لقاء، اعلم يا أخى أن الأيام الأولى التى
حدثتك عنها شبيهة بالخروج من دفء الغرفة إلى الصقيع،
جريت هذا. بعد الخروج تنقضى لحظات لا يصلك فيها شدة

البرد. ثم شيئاً فشيئاً يسرى، حتى يلفك فترتجف، إنها أشبه
باللحظات الفاصلة بين وقوع الصدمة والشعور بالألم
الجسماني، في هدأة انفرادى ذلك العصر. أقيت بذاتى فى
عينها الواسعتين، الفسيحتين، فجأة غزائى خوف غريب، متى
سأراها، وما الحال الذى سألقاها عليه، قلت:

«أخشى الموت، وإلا أراك...»

بادرتنى على الفور، رنتها عاتبة، شاكية قولى...

«لكنك يجب أن ترجع إلى...»

اعلم يا أخى أن الوجد يبدأ مع اكتمال الرحيل، وتباعد
الديار وانعدام اليقين من الأوبة، هذا عين الخطب الموجع، شيئاً
فشيئاً بدأ فرحى يذوى ويبدأ وعيى يبعدها، بالمفازات. بما
يفصلنى عنها من مواضع وبرارى وقفار وفلوات وخراب.
بحار، وتلال، ارتفاع وانخفاض. ومراع ومدن. وهذه مواضع
ستتبدل يوماً. فالبهار ستصير جبالا والبحار ستصبح رمالا،
فلا شىء يبقى، إذن.. فما أبعد التلاقى، وطول المسافات،
واختلاف النظم، وريبة العسس فما أتعس وما أظلم، تطلع
شمسنى قبل شروق شمسها، ويسدل ليلى قبل ليلها، فلا
الزمان يوحدها، ولا المكان يجمعنا. فماذا بوسعى أن أفعل؟
حتى إذا انقضت شهور، وعادت الفرصة، وساعد الوقت، فهل
سألقاها؟ ربما تكون على سفر، أو فى شغل عنى، أو عرض
لها عارض أحالنى إلى مصادفة جد عارضة فى حياتها
المتدفقة. وإذا دنوت وقمت واقفا أمامها، هل سألقى من
عرفتها؟

كنت الملح لك دائما أن الإنسان في الثلاثين غيره في
الأربعين، وأننى في الخمسين مغاير لما كنته في العشرين.
تذوى أمور وتستجد أشياء لم تتوقعها من قبل، لم تدر بخلدنا
يوما، تنزوى أصول لم تتوقع قط تلاشيها. أذكر قولك إن
الجوهر لا يتغير. صحيح يا أخى، لكن هل تظن أن اللب قصى؟
مستعص على التغيير؟.. أقول إن الأمر غير يقينى، الآن أطيل
النظر إلى ما فات، ما انقضى أطول مما تبقى، أما هى فتسعى
بعيدا عنى، ويبدو ما ينتظرها بعيد المدى..

لما اكتمل وعيى يا أخى بالبعاد صرت إلى شجى، إلى
أسى، هكذا ناء الوجد، صرت أسعى إلى كافة ما يمت إليها،
قرب أو بعد، حتى الإذاعة التى تتخذ من مدينتها مقرا، اعتدت
الإصغاء إليها، أحاول جاهدا تمثل المذيع، رسم ملامحه من
صوته، ربما يسكن على مقربة منها، بإمكانه لو أنه يعرفها
لسعى إليها، أن يبلغها بعد دقائق، صرت أتفحص الخرائط،
أضع العلامات، بخارى، سمرقند، طشقند.. موسكو، تحركنا
من هنا إلى هنا، اكتمل ظهورها فى مدينة. وتعارفنا فى
بخارى، وشرعنا فى سمرقند، وفى العاصمة الكبيرة جرى
التلاقى والتفرق. أما الحنين والتذكر فله قاهرته الحانية على،
هكذا.. كان اللقاء فى قارة، والفراق فى أخرى، والوجد فى
ثالثة، صرت أقعد فى جمع يا صاحبنى فكاد أسمع سعيها
البعيد. توشك أن تقترب منى حتى أتأهب لتنسم عبيرها
المفقود، المتفرد، أدرك بغتة الاستحالة، فافارق الصحبة. أبتعد

عمن أعرف. أستقبل وحشة الطرقات. أمضى بلا هدف، بلا مقصد، حولى حشد، لكنى فرد، متوحد، أحيانا أمضى إلى صاحبي، من رافقنى رحلتى، من رآها، من حابثها، واطلع على بعض مما عندى، حتى إنه صار إذ نلتقى يسألنى ضاحكا..

« .. أنت هنا أو هناك.. »

فأجيبه مبتسما..

« فى الأمر وحشة.. »

يعد نزوعى إلى شيوخ امرى، إلى الإفضاء بما عندى لكل أحد ارتددت إلى، أما حضورها عندى فصار مختلفا عما جرى فى الأيام التالية لعودتى، أحيانا تبدو فجأة، ليس أمامى فقط، وإنما حولى، أصغى إلى تحفظها على تبادلنا الخطابات، استعيد ملامح حذرها البادى، فأنا عند قومها أجنبى، وما أكثر الريب،!! غير أنى إثر انقضاء أيام الفرح. وبدء طرقات الوجد، لم أبال، رحت أشيع الرسائل. مرة فى الصباح، والثانية عند الظهر، والثالثة ليلا، أكثر من شهر كامل، أحيانا لا أخط إلا التحية، وكأنى استعويض عن نطقى بكلماتى المكتوبة..

ولم اتلق ردا، لم تصلنى إشارة..

مع بدء الشهر الثانى ولأسابيع عديدة لم أتخلف يوما عن تشييع رسالة عند مطلع كل يوم..

ولم تصلنى مجاوية، لم ترتد رسائل إلى..

كنت كراكب سفينة، تبحر مبتعدة عن المرفأ، والميناء

كنت كراكب سفينة، تبحر مبتعدة عن المرفأ، والميناء يتضائل، تغيب ملامحه، تختلط مبانيه، تصبح تضاريسه مجرد خطوط لا تنم عما تحويه من حيوات ومصائر. حتى إذا بلغت المسافة حدا تداخل البحر فى البر. وطفت السيولة والديمومة، فيبدو ما كان وهما.. والبحر يطفى، ليشمل حتى الأفق..

دام حالى مدى، ولا إشارة، ولا إيماة خطحتى، مع توالى المسافات انتهى بى الحال إلى المناسبات، فمن ذلك رأس السنة، وقدم الربيع، ويوم مجيئها إلى العالم، ويوم اكتمال ظهورها بين شجرتى التوليب، أهدق إلى العنوان، هذا خطها هى، الشارع، الرقم، كتبته عندما كنا نجوز الفضاء عائدين من آسيا، إذن.. العنوان حقيقى، واليد التى خطته حقيقية، والوجه الذى دنا وابتسم عند تقديم الورق له كينونته، ألم أقترب؟ ألم أهدق والامس؟ عندئذ يتوهج داخلى يا أخى فأوشك على استعادتها عندما احتويتها، عندما طويتها بين ذراعى، عندما أقلت صوب عينيها. صوب شفتيها، عندما تموج جسدها وتحرك متبعا تناغمه الداخلى لينبئ أنه طوعى، وأنه ملب إن إردت. إن دفعت الأمر قليلا، إن خطوت خطوة يسيرة، غير أن الوقت المحدود، والفرصة غير المساعدة، والرحيل الوشيك، وما سيطر على فكرى ويقينى، أن بقاء هذا الوله فى عدم اكتباله، هل أخطأت؟ لا أدرى.. ولكن الشك يعاودنى مع ضياع المدة، أمضى إلى ما قدمته إلى قبل أن يتخذ كل منا طريقه، الساعة العتيقة ذات الجرس الخزفى، أستعيد قولها إذا قرعت الجرس

يوما، فسيصلنى صدها أينما كنت. أمسك الساعة أخرج إلى صحراء الصمت الليلي. أهزها، أصفى إلى الرنين المعدنى إذ يتلاشى، أطيل إصغائى.. ما من نبأ!

عرفت الانصراف المفاجئ وأنا فى جمع، إذ يتدبب وعيى فجأة. أنها نائية، قصية، وإن اللقاء صعب، عندئذ أدخل فى هياج لما يتملكنى من يأس اللقيا، ومن انعدام إمكانية مشاهدتها مقبلة على، أو حانية بنظراتها، أو مجاوبة بحركاتها النغمية. حيث يتخذ جسدها المطواع، الفاره، أوضاعا عجبا، أو سكون ملامحها عندما طلبت أن نقضى الدقائق الأخيرة صامتين، يتطلع كل منا إلى الآخر، يتزود كل صاحب من صاحبه، ثم أهدتنى ثلاث زهرات، هكذا.. أستعيد تحديقها إلى، وأحيانا أوشك على الإصغاء إلى سعى عبيرها نحوى، هذا أصعب الوجد يا صاحبى، فلکم أمضيت الوقت مستنشقا نسائمهـا. من ثيابها، من راحة يدها، من خصلات رأسها أتأهب لوفودها على. أقف صامتا، متطلعا إلى الجهة التى أتوقع منها القدوم والورود. وإذا يكتمل وعيى باننى ما كنت أسعى للاندماج إلا بالصورة، أفز من مقعدى راغبا فى اختراق اللاممكن، وإذا أنوء أرتد خائبا، مستعيدا نظراتها. حنوها. مستفسرا. متسائلا، هل ما جرى كان حقيقة أو وهما، وهذا ما أمر به الآن، هذا دافعى لمخاطبتك أنت دون غيرك، فلم يعد لى من الأقربين إلا أنت وإن بعدت المسافة، وطال زمن غربتنا عن بعضنا، فما وصفته، وما سرته، وما رويته، لم يكن إلا محاولة

أيضا لللممة ما تبعثر، لاسترجاع ما غلب عليه الوهم واللايقينية. وإن ما كان حقا. وليس برقاً لمع، أو شهاباً مرق، وإلا فأى وجد هذا يبهر داخل؟ ويبقى نائيا عن الخلجان والمرافئ الآمنة، أحيانا أنتظر مرات هبوبها على وأتمنى أن تحل بى، فينزل على قلبى بردا وسلاما، أشبع بغير امتلاء، كما حدث ذلك الشيخ الجليل، عن حاله، قبل عدة قرون زمنية، إذ قال ما نصه يا أخى:

«وقد بلغ بى قوة الخيال أن كان حى يجسد لى محبوبى من خارج لعينى، فلا أقدر أنظر إليه. ويخاطبنى وأصغى إليه وأفهم عنه، ولقد تركنى أياما لا أسيغ طعاما، كلما قدمت لى المائدة يقف على حرفها وينظر إلى، ويقول لى بلسان اسمعه بأذنى.

«تاكل وأنت تشاهدنى..»

فأمتنع عن الطعام. ولا أجد جوعا، وأمتلىء منه حتى سمنت وعبلت من نظرى إليه، فقام لى مقام الغذاء، وكان أصحابى وأهل بيتى يتعجبون من سمنى مع عدم الغذاء لأنى كنت أبقى الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقا، ولا أجد جوعا ولا عطشا.. هذا ما دونه الشيخ الجليل، وليتنى مثله، فنعت بما كان عليه، لذلك أولى وجهى صوب اللاجهة، متوقعا اكتمالها أمامى، كما كانت عليه فى اللحظات الدانية من افتراقنا، ورأسى بين راحتيتها، عندما قلت لها..

«أخشى الموت، ولا أراك..
فألقت في سمعي قولا جميلا، حزينا.
«لكنك يجب أن ترجع إلي...»
ولهذا أسعى يا أخى، بلغك الله ما تتمنى..»

جمال الغيطانى
مارس - يوليو ١٩٨٧

من دفتر العشق والغربة

● هاتف

● هلاتها

● أماكنها

● من رحم إلى رحم

إلى
أمد على أبد.. فقدت
فيه وما زلت!

هاتف

احببة قلبى وان جرتم(*)
على فكل المنى انتم
رحلتم وفى القلب خلفتم
لهيبا فها لترفتم
واودعتم يوم ودعتم
باحشائى نارا واضرمتم
نوبة العشاق
ميزان نرج العشاق

(*) جميع المقطوعات الشعرية فى دفتر من اشعار الموسيقى المغربية الاندلسية. خاصة

نوبة العشاق.

فزعت فجمحت فجرا فكدت أهوى هويأ.

تسارع خفقي، وتسابق نبضي، حتى وجفت، وخفت، ولكي أتقى أمسكت على أنفاسي، ليل موغل، وصمت جاث، ونأى سحيق، ومسافات قصية. أما ماسمعتة فمازال صداه يتردد في سمعي، ويتوالى عندي، لم يول بعد بزوغ الصوت المادي، الذي اجتاز كينونتي، ونفذ إلى لبي، صوتها، نبرها، إيقاعها، جرسها، لا يمكن أن أضل عنه أو يتوه مني، حضوره، خصوصيته، تفرده، امتزاج الإيقاع الطفولي، المبتسم، المرح، الصافي، بتلواناته الأنوثية، أتلفت حولى، أوشك على تلمس حضورها القوي، الجاب ماعدها، دهمني عندما دنا نومي، وتميعت يقظتي، فاختلفت الحدود وامتزجت المشارف، يحدد صداها، وجودها الحسى يضحج حولى، فكانه أفلت من أسر الكينونة، ومحدودية الإحاطة، عبر المسافات القصية، وفص المغاليق، والأبواب، والحواجز، والسدود، والمخافر، وانتهى إلى

مرقدى، أو انفلت عبر الفضاءات العلى، ودنت منى فى مروقها،
فى سريانها. وعند محاذااتها حضورى الجثمانى أودعتنى
صيححتها ثم أفلتت مولية. مغرية، شاردة إلى كل صوت عداى.

على مهل تستقيم دقات قلبى. تجتاز حبات عرقى مسامى
مفلتة. يشرق وعى مستوعبا مايحدننى. هذا مرقدى، وتلك
جدرانى، وذاك فراغى المحدود. رائحة جسدى، طيات فراشى،
كتبى التى أطالعها قبل وسنى، تلك وحدتى، نفاذ غربتى إلى
ضميمى، وازدياد ناىى، وشدة بعدى عنها، ومر افتقادى لها.

أدرك بعدى القصى، أعيد رأسى إلى ذراعى، تتوالى
الثوانى فى صيرورتها، لكن.. لا يخف بهتى. ولا تنقضى
دهشتى، ولا يهدأ روعى. ماسمعه حقيقه، ليس إلا صوتها
الذى أعرف، أستعيده مرات فى يومى، فى سعى. فى سكونى،
وعند كدرى لأهجع. نادتنى، لفظت اسمى، وشيئا آخر من
كلمتين، استفسار؟. عتاب؟ نداء؟ ربما، كلمتين جامعتين، دالتين،
تحويان الخلاصة، لكننى لم أتبينهما، لم أستدل عليهما، لم
أقدر حتى على تلمس ملامحهما، معرفة دلالات حروفهما.

لكنها صاحت على.

من أين.. إلى أين؟

كيف؟

مامن إجابة تهدئنى.

أحقا هي؟ أو أنه الهاتف الذى يباغت الخلق فى نومهم عند هذه الساعة الفجرية، الندية، التى يكون عندها الوصول والإقلاع، الميلاد والموت. الغرق والطفو، قديما قال من أتى بى إلى الدنيا إن الهاتف يمرق فى الفراغات العلا ليلا، يدرك البعض بلفظ أو جملة مختصرة دالة، ينبه غافلا، يوقظ نائما، لا يترك أثرا، لكنه يدع خشية وحذرا، وخوفا من مجهول لا يمكن سبر كنهه.

لكننى واثق، أنه صوتها، لم تحل الأيام والمسافات بينى وبينه. ربما استعاد الهاتف ملامحه، الصق ركبتى بصدري، أستعيد وضعى داخل الرحم مع وعيى وإدراكى للبعد، تثقل على تلك اللحظات العسرة. لا أقدر خلالها على المشى، أو القعود، أو القيام، أو الالتفات، أو البكاء، أو النظر حتى. لحظات يكتمل فيها إدراكى ببعدها عنى، أنها ليست فى متناول حواسى، أنها مستحيلة الآن، أنها فى ديار وأنا فى ديار، ودوننا مسافات شسع. أننى لا أقدر على استدعائها إلا بعينى مخيلتى، واسترجاع لحظاتها إلا بالذاكرة الكليّة، المحدودة. استعادة بعضها وليس كلا مما كان وجرى.

أرفع رأسى، كأنى أحرق إلى مرئى حاضر، صوتها الذى نادانى منذ لحظات يشبه ما أصغيت إليه عبر أول وآخر اتصال، بالضبط منذ أسبوعين.

عندما ودعتنى، رافقتنى حتى الحاجز الذى يجب الافتراق عنده، عندما حاذى خطوى خطوها، انعكس حضورى فى عينيها، تماسست أطرافنا، منحتنى جانبا جميلا، أمنا، ولسات مندأة من أصابعها الحانية، العطوفة على، مالت جهتى، برقت موجات عينيها.

مارأيك.. لو اتصلت بى الليلة بعد وصولك؟

تطلعت إليها. أومأت مرتين، ثنت شفتها السفلى، مطوية بالعليا. أحببت منها ذلك عند إبداء مرحها البكر، قالت:

- سأنتظرك..

نزلت بلادى فجرا، بعد تمام إجراءات الوصول، وتحديق العيون، والتطلع إلى السمات، سعيت إلى أحد الواقفين. استفسرت عن مكان أجهزة الهاتف. أشار وذل. تطلعت إلى الوقت، إنه متقدم ساعتين هناك الآن، يدنو فجر مضاربيها الآن، أما ليلى فمازال فى صميمه، هكذا انتقلت من زمن إلى زمن، من حال إلى حال، استعدت طلبها المفاجئ، انحناء رأسها، ابتسامتها، قالت إنها لن تودعنى دامعة أبدا، فأيام الانفراد القادمة كثيرة، بدأ إدراكى باكتمال النأى، وقور الاغتراب. وأن ماكان مدركا منها بالحس، لم يعد ممكنا استعادته إلا بالمخيلة، انفطر شطر منى، وحتى أسترجعه لا أدرى كيف ستتوالى الأمور؟ قال الضابط الشاب إن أجهزة الهاتف الصفراء تلك للاتصالات المحلية، أما الدولية فهناك فى صالة العابرين..

تجاوزتها، والعودة صعبة، يبدو أنه لمح حيرتى، وتعبى، قال إنه من الممكن إجراء الاتصال من الفندق القريب من المطار، هناك مركز لخدمة رجال الأعمال، لكن.. لا بد من قطع مسافة إلى الفندق، الوقت متأخر. والحقائب ثقيلة، أما رغبتى فى الوصول إلى بيتى فطاغية، أود الانفراد بذاتى واستعادة ما كان، ومحاولة التنبؤ بما سيكون.

مع بدء اليوم الجديد، امتزج يومها بزمنى، بوقتى، حددت فرق التوقيت. الآن تجتاز مدخل بيتها، تعبر الطريق المحفوف بشجر كثيف. عند نهايته بوابة حجرية عتيقة، تخرج إلى الشارع العريض، حيث موقف عربات الأجرة صفراء اللون كنت أتابع انتقالها، توقفها هنا أو هناك، وصولها المكتب، احتساءها القهوة، على امتداد النهار أتعلق، أتشبث بالعلامات الغارقة، تناولها الغذاء السريع فى الثانية، انصرافها فى الخامسة، يحار.. هل مضت إلى والدتها؟، إلى صاحببتها؟ إلى بيتها؟ أم تنفرد بذاتها فى مقهى مجهول لى؟، ربما تخطو فى عالمها الصغير، شقتها المحدودة التى أحالتها إلى مكان فسيح بما وزعته هنا وهناك من أشياء جميلة، صغيرة.

إذ يأفل الضوء، ويكتمل الليل، لأقدر على تحمل الصور وانتفاض اللحظات، أسعى خارجا، مزدحما، تواقا إلى عيبرها. عثدى يقين أنها ترقبني من مكان لا أدرك كنهه، يتحدد إيقاع خطوى، وانتظام سيرى. وحر زفراتى، مضيت إلى مكتب

الهاتف الدولي، طلب منى الموظف أن أدخل إلى المقصورة الضيقة، أغلقت الباب، أحكمته. لا اتقن الحديث همسا، كنت مضطربا، غير قادر على التحكم فى نبضى، لحظات وأصغى إلى صوتها. أتعلق به، أتركز فى الإصغاء، نستحيل إلى الفاظ، وثوان معدودات، بعد أن كانت دائية، قريبة، مدركة لى، متوغلة عندى، تستحيل إلى صوت، يتبدد فى الفراغ، لايلمس ولا يمسك، لايمكن تقبيله أو تنسم روائحه، أو الاتكاء عليه سعيا للدعة. لكنه يصدر فى اللحظة عينها عبر وجودها. وهذا ما يخفف التياغى. وتلك النار الموقدة، بطيئة الخمود عندى.

عندما التقينا إثر فراق قسرى دام زما مقداره عامان وثلاثة شهور وستة أيام، عندما هلت على، وطالعتنى هيئتها، عندما مددت يدي واحتويت حضورها واستكانت إلى صدرى. واستكنت إليها، بزغ عندى خاطر المشنوم.. إذن بدأ العد التنازلى لفراقنا، زمنى معها محدود، والعقبات لاتحصى، وما أمر به الآن يتحول إلى ماض، فلأدخر قبسا من هذه اللحظات، لأتخيل كيف يمكننى استعادتها، فلأتزود منها لأيامى العجاف، لقهر غربتى فى موطنى، كأنها أدراكت عنى فى أول لحظات اجتماعنا، قالت، دعنا نعيش مانمر به، لاندري ماسوف يكون!

غير أن وحشتى إليها فى اقترابى منها أناخت على، وإدراكى أننى مفتقدما أفسد على أنيتنا، لكننى جاولت، واجتهدت، وسعيت، غير أن دنوى لم يزدنى إلا بعدا، وتوغلى

عبرها، وامتزاجها بى لم يدفع زمن الفراق لحظة، فمقامى ليس على مقربة منها، وحضورى موقوت. مشروط، عيشها بعيد عنى، أسعى هنا، وهى هناك، إذا جئتها فأنا عابر، غير مقيم، وإذا وفدت على فهى مغتربة، الظرف صعب. والحال وعمر، ولم الشمل دونه محاذير. هكذا.. وقفت داخل المقصورة. عرقى ينز لارتفاع درجة الحرارة، وتصاعد ذرات التراب، تؤطرنى محدودية الموضع، رفعت السماعة منتظرا، مستوفزا متأهبا للتلقى.

أصغيت، تكتكات سريعة. متعاقبة، صمت، وشيش كوني غامض، ماذا يجرى فى الفراغات الفاصلة وعبر المسافات الممتدة والموجات غير المرئية، والصمامات المعدنية، والأسلاك الغليظة، والنحيلة، الممتدة، الملتفة، ماشكل صوتى إذ ينقلب إلى ذبذبات، وأى طريق يسلكه صوتها، عبر الحجب، والمسافات، وهل تتماس موجاته بموجاتى، أم تتقاطع، تلتقى أو تضل عن بعضها. تقنى أم تبقى؟ يا حسرة وعرة، بعد اتحادنا ننقلب إلى ما لا يمكن رؤيته.

أصغيت إلى تموجات، كأن أبوابا سحرية غامضة تفتح أو تغلق، ماذا يجرى عبر الأسلاك والفضاءات والأجهزة المنصوية؟

جامنى صوت موظف المكتب:

- تفضل.. تكلم.

شبيبت على أطرافى، صرت مستوفزا، متأهبا بكينونتى
الآنية، والمنقضية، والتي ستنقلب إلى عدم، تهيأت لأتلقى منها،
وتتلقى عنى. أالصقت السماعه بأذنى، صارت جزءا منى..

تلك هى.. صوتها، مذاقه، طلته، ظله، تقلبات ألوانه، بكل
مايحوى، بما يرسله، وما يستودعه، وما يستثيره..

- نعم.. من؟

نطقت بحروف اسمى. غير عابئ، غير مبال بارتفاع صوتى،
انفتت الموجودات كلها، لم يعد إلا هى، كل شئ غائب عداها،
ومحاولتى الإمساك بما لا يمكن إدراكه أو نيله أو الوقوف عليه.

- من.. من يتكلم؟

تتساءل، تستفسر، تنطق من موضع أعرفه، بين جدران
ضمتنى وإياها، ومن فوق فراش احتوانا سويا، وفوقه بسطت
حدائقها، وأباحت لى مروجها، منحتها نضجى واشتمالى.
ترقد، تقف، تنحنى؟ مرتدية؟ متجردة، تجلس إلى مكتبها
الصغير، تتأهب لعبور ليل يعقبه صباح بدونى؟، من جوار
الهاتف أصغيت إلى صوت المطر عندما بدأ نزوله آخر الليل،
فأصغيت. وتجدد انتشائى، وتساعد إحساسى بالقرب، مع
التوحد الأثم فأقبلت أسعى من جديد حتى ابتسمت متعبه
بالنشوة، ناطقة بشكوى المتعة، أنهكتنى. ولم يزرنى خدرها،
وغزارة المطر إلا إمعانا فى اللجة، حتى صار وقتا يحتذى

الوصول إلى مثله، والسعى معاً لإيجاد قرينه.

- من.. من يتكلم..

عصبية في صوتها، أكرر زاعقاً اسمي، يبيزغ خطأ ما، لا أدري مصدره، أو كنهه، أصيح فلا تسمع، وتصرخ فأصغي، سمع من طرف واحد، أو أنها تبدى، تتجاهل، يدب الشك عندي، أهي بمفردها، في لحظة صعب إدراكها أو توصيفها يفلت، ينقلب مبتعداً، يتحول إلى استدارات معدنية، وخفقات مجهولة، وإشارات ملغزة، وترددات خفية. يجيئني صوت الموظف..

«انقطع الخط..»

رجوته تكرار المحاولة، مرة أخرى، ثالثة، عبثاً، لامجابوة، عند حد معين أدركني خجل فأنهيت الجهد، خرجت إلى الطريق خائباً، أدرج وأنا حسير، تتكأ على الهواجس، وهواجم الأفكار، هل سمعت صوتي، هل منعها عائق؟، أمضيت الليل أرقاً، ساهداً. في الصباح وقفت أمام موظف آخر، ضغط الأزرار، وأعمل المفاتيح، ثم تطلع إلى أسفا.

الرقم عاطل..

جملة تكررت في مسمعي مرارا خلال الأسابيع التالية، كنت أمضى إلى نقاط شتى من المدينة، مكاتب اتصال، فنادق كبرى، في كل مرة تجيئني الإجابة، الخط مصمت، أخرس، عاطل، ما من مجيب.

شيعت الخطاب إثر الآخر، لم أتلق حتى الآن ردا، سعيت عبر أيامى مهموما، مطرق الهامة، مثقلا بالانقطاع، مامن مهدي إلا لحظات وصلنا، نوبات لقائنا، امتزاجنا، تفاهمنا، فى كل يوم يمر يتوارى موقف، يبهت، وقد يبرز آخر، أنام وهى آخر ما يترأى لى، وأصحو فألقاها داخلى، أوشك على تنسم رائحتها التى أعرف، حتى حلت بى هذه الظهيرة، أو حلت بها، كنت على وشك الدنو من المقهى الذى اعتدت أن أخلوفيه إلى ذاتى، أقصده فى مواعيد أعرف أن صحبى يغيبون فيها..

نادتني!

صوتها، سمعته بحواسى كافة، سمعى، وشمى، وإبصارى، وقدرتى على اللمس، لا يمكن أن أخطئه أبدا، لا أضل عنه قط، نفذ إلى عبر ضجيج العريات، والطريق، وتدفق الحركة، وقفت مبهوتا لا أنطق، خشيت الالتفات فألقاها، عندئذ تقع المفاجأة التى لا أدرى مداها وأثرها عندى، خفت إلا أجدها فتبدأ الخيبة، ويتجدد الفقد، أثرت تأجيل اللحظة وجمودها، توقفت مكانى، غير أن يدها لم تلمسنى، وأنفاسها لم تتردد على مقربة منى، على مهل استندرت، لم أر إلا امرأة عجوز تسعى، ورجلا يتلفت حوله، كان الحضور قفرا منها، خلوا من أطيافها، أما صوتها الأثوى السوسنى، المغموس فى الرضا والود فما من صدى حتى! مضيت خائبا إلى المقهى. لا أدرى كيف مرت بى تلك الظهيرة، ولأيام تالية انعكس ما عندى على ملامحى، فبدأ الاستفسار من الصحب.

.. مالك تبدو مهموما ..

ولا أقدر على البوح، أو إبداء الشرح أو التفسير، كيف أفصح عن فقدى، وصعوبة هجبرى، مضت الأيام بى، ومضيت بها، لا أنا انثنت، ولا بادرة لاحت، لا الهاتف نطق، ولا الجهد أثمر، حتى استبهم الأمر، وتعثر وقتى، وكلت مساعى، غير أن تردد صوتها من مصدره الخفى عنى استمر يفاجئنى، فى هجوعى، فى تطلى إلى الأفق الممتد، فى ثباتى، فى رحيلى، فى قيامى، فى قعودى. فى أوقات لم أتأهب لها. لم أعد لها العدة.

مرة تنادينى باسمى، فتوقد داخلى الجذوة، ومرة يسبح همسها داخلى منطلقا من مصادر خفية، معيدا إلى بعض لوازمها التى أحببت وسعيت إلى تكرارها، عندما كنت أتطلع إليها صامتا، مرغما على السكون بتأثير دفقها، ولانعدام قدرتى على ترجمة هديرى إلى ألفاظ منطوقة، عندئذ تميل تجاهى، تسأل:

.. ماذا؟

سؤال ممتد، مغلف بغيم، واعد بانهمار سيل إذا صادف الجواب المرضى، أقول باختصار، إننى عندما لا أقدر على البوح، يكون المعنى عندى عظيما جللا.

عندما كانت تستحسن أمرا، تومئ برأسها مرات سريعة،

وتقول:

هذا طيب..

عندما وقفت فى فراغ حجرتها. شاهقة، حاضرة، مرمرية،
كونية الفيض، تسألنى عما يروق فى عينى قبل رسوها إلى
جوارى. هذا الثوب أم ذاك؟ تبدل، تغير حتى يلوح منى ماينم
عن رضائى.

عندما تدفق ضحكتها، ألمح فى تتابعها شجنا فيه صدى
بكاء عسر، عندما تنطق بعربية متعثرة:

«إن شاء الله..»

كل ماجرى، ماكان، تلخص فى هذه الأصوات المبهمة، دائماً
أنتظرها، عند ذروة توقعى لاتأتينى، وعندما أتلهى، أو أفرغ إلى
أمور غير ذى علاقة تدهمنى، فأحاول جاهدا التعلق بما لايرى،
اتقاء لعدم أخشى أن يدركنى فيذرينى..

فبراير ١٩٩٠

هلاتها..

هلاتها.. هلاتها.. هلاتها.. هلاتها.. هلاتها.. هلاتها.. هلاتها.. هلاتها.. هلاتها.. هلاتها..

رأيت الهلال ووجه الحبيب
فكانا هلالين عند النظر
فلم ادريهما قاتلي
هلال الدجى أم هلال البشير
فلولا التـورد فى الـوجنتين
وما راعنى من سواد الشعر
لكنت اظن الهلال الحبيب
وكنت اظن الحبيب القمر
فذاك يغيب وذا لا يغيب
وما من يغيب كما من حضر

نوبة الحجاز الكبير

· صنعة متقارب

مستهل..

.. إنما متعلق الأمر بترتيب خارج عن طوعى، ونظام لم أسهم فيه بنصيب، زمن يمضى، وقت يسرى، عصى على الرصد أو النيل، مع أنه مدركى وبالفى عند الشهيق والزفير وما بينهما.

هكذا.. لا ألقاها إلا فى رحيلى، وإن كانت من عناصر إقامتى، وتحريك ديمومتى. أنا فى جهة، هى فى أخرى، ما بيننا شسوع مدى، عوامل شتى من نظم جغرافية وتاريخية باقية، وسياسية موقوتة، ترتيب ومصادفة، أثمر لقاءنا وأبتعادنا، فترات وجيزة، مارقة، مرجع القياس أوقات تباعدنا لغلبتها.

فى إحدى رسائلها خطت مانصه:

«إن الحياة تمر بسرعة، ومرات اللقاء نادرة والوقت بخيل..»

عبرت عما جال عندي وصال على، لو تكررت مرات اللقيا
فى الآتى، قدر الماضى، لو تجاوزت الأوقات المتباعدة واتصلت،
فما هو إلا نزر يسير لا يشفى الغليل!

سألتنى صاحبة لى،. مطلة على أحوالى. ملة بعنصر
اشتياقى:

«كيف يدوم العشق مع غياب المعشوق؟»

واجهتها صامتا، حائرا، مامن إجابة مقنعة. شافية. شرعت
فى القول إن حضورها مع البعد يكون أحيانا أقوى من
تجسدها الحسى عند دنوى وتنسمى شذاها، وارتشاقى. وإن
اشتياقى مع القرب يتأجج، وقد يقع منى الشرود والفتور. غير
أنى لزمى السكون، كيف ستلقى هذا عنى؟

أما واليأس من الاجتماع واقع الآن، فإبنى أجتهد
لأستعيدها جملة وتفصيلا. يقوى حضورها عندي فتعشى
ذاكرتى لشدة السطوع، وتآلقه حتى لأطرق مغمضا عينى.
غاضا: أملا تخفيف همياته على.

أحيانا أخرى، وهذا غالب، طاخ، أجتهد محاولا الإلمام بقبس
من حضورها الذى ولى، من سريانها الذى كان، من دققها، من
تفردتها، من حنوها على، من إلمامها بداخلى، من إدراكها
سكناتى، بلوغها مراحلى، وفهمها عنى بالنظر مالم يدركه
الأخرون بالشرح والتأويل والتفسير.

كثيرا ما يطيش تصويبي، ويضل قصدي، ولما كانت أيامي
تميل إلى أصيل غروبي، مامضى أكثر من المتوقع الآتى، مع
ثقل الحمل، وتبدل الزمان، وشح الأنس، لذلك عزمت، وتوجهت،
غير خاضع لترتيب، إلا ماتمليه قوة خاطر على، وتوهج
الشوق، وانبعث الحنين، بعد أن صار منفاى فى دار إقامتى.

أما الغرض من هذا كله، فاستحضار المحبوب ولو بالمخيلة،
وتثبيت ما قد يرد على اليوم، وأعجز عن استعادتى غدا، دأبى
المشاهدة وغايتى القرب، غير أننى لما لقيت الشوارد متناثرة،
وشظايا الوقت متنافرة، أثرت للممة ماتباعد، لعلى أتى منها
بقيس، هكذا تحدد الأمر بثلاثة روافد، أماكنها وأزيائها غير
أننى أبدأ بذكر هلاتها.

* * *

.. عصر.

ضوء واهن، مر وذن بستائر شفافة مسدلة، بقايا غير
منظورة لآخرين عبروا الزوايا والأركان، ما بين الفرجات التى
تفصل بلاطات الخزف، داخل الصوان الأربعينى أو الثلاثينى
العتيق. فراش ضيق، وثير، ناصع، ترى.. كم توسده قبلى؟ أى
جهات قصدوا وأى أزمنة أقلعت بهم؟

سقف مرتفع، رائحة ظل مقيم، جدران فاصلة، وإدراك
عندى للرسو، للوصول، أما الطريق العريض. الهابط من المطار

إلى المدينة عبر الغابات الكثيفة، جعدة الخضرة. فيبدأ عندي وينتهي إلى، هذه العمارات، تلك النواصي، المداخل العريضة، لافتات المخازن، محطات الحافلات، مقاعد الحدائق العامة، النصب التذكارية فى الميادين، ينتسب هذا كله إليها ويمت، هل تطلعت إلى هذه الناحية، هل ألم بصرها بتلك الشجرة، هل خطت فوق ذلك المرء؟ ربما تعلق نظرها بهذا المنحنى.

ربما يعنى لها هذا المر المؤدى معنى، ربما يستثير عندها رؤيا كامنة، هذه الواجهات، كم توقفت أمامها، كم مرة عبرت هنا، أى شئ توقعته هناك؟

ربما أطلت من إحدى هذه النوافذ العديدة، المتشابهة، المتجاورة، المتراسة، الصارمة، أين سعت شابة؟ وأين حبت طفلة، أى حدائق أثارَت بهجتها، وأى نهارات أينعت الأمل أو أثارَت الذكرى.

كل مايقع عليه بصرى ينتسب إليها. إدراكى هذا يضيف على حضور المدينة الممتدة الضخمة ظللا ودرجات من الضوء والمشاعر، هى المقصد، والنبع، ومرجع البديهيات. من الطابق السادس أطل، أدرك الرصيف المقابل، حافلات تندفع، تتوقف، مارة يسعون، نساء طاعنات، أخريات شابات، صبية، فى كل منهن شئ منها.

نهار باق رغم رحيله، فى موطنى اكتمل الغروب منذ ساعة، يستمر مكث الضوء هنا فى شهور الصيف تلك، حتى بعد

غياب مصدره الكوني، فضوءه ولا شمس، ونهار ولا نهار، هذا
شأن بلدها الشمالي، فما أغرب!

هى هنا!

فى هذه المدينة. هذا التكوين، ملامحها، قسماتها منبثة فى
حضور المباني، وتقاطع الطرقات، وغربة النواصي، وسعى
المقيمين، ومرور العابرين.

جئت مرتين، الأولى مع بدايات الخريف وتعري الغصون من
أوراقها وبدء شحوب الكون، والثانية مع السبات الشتوى،
واكتمال الكمون، وانغلاق الذوات على مضامينها.

إقامتى الآن صيفية، انفراجة أفق، وإسفار وبوح وتصريح،
يبقى المعنى ناقصا طالما لم أستدل عليها بعد، كافة ماسبق
نقاط تمهيد، إقلاعى، وصولى، عبورى بوابات المراقبة. نظرات
فاحصة، كتابة الإقرارات، تلهفى، خففى، توقعى رؤيتها بغتة،
ألم أنبئها قبل شهر؟، ربما لم يصلها خطابى. ربما لم تعبأ..

أقصيت خاطر، لم يهن توقعى، حتى بعد اجتيازي آخر
البوابات، تقدم سيدة فى منتصف العمر، زجاج منظارها الطبي
غامق سميك، قالت إنها مكلفة باستقبالى، باصطحابى. وددت
الاستفسار منها، مع أنها لاتعرفها. لم تلتق بها، لكننى رغبت
ذكرها بلسانى، غير أننى كتمت.

لم أخبر بمطالعتى ملامحها عبر السحب والغمامات، والمدن
القصية، وتحرك لحن قديم عندى، فألى الشجن نزوعى، خاصة

إذا استدعيت بالمخيلة من أهوى، لم أنبئ بدافعي الحقيقي
للمجىء، تلهفى للرؤية، توفى إلى أوبة مرتقبة تجمع متفرق
الشملى.

دائما كنت فى مداها، تتطلع نحوى من موقع خفى لا يبين،
فإذا مشيت، كيف ترانى؟ وإذا نطقت: كيف تسمعنى؟ وإذا
شردت أنتبه حتى لا أتوه عنها. إذا خلوت ونأيت عن الخلق،
وتحدد عالمى، يقوى على حضورها، فأوشك على لمس أذائها،
وتنسم عبيرها الكلى وتقلبته، عند النظر، عند التدانى.

يهن الوقت، كيف تمضى أول ليلة بدون سماع نبرها على
الأقل؟، مرة أخرى أقوم إلى الهاتف.

صوت أبيها، على مشارف الهرم، به ظلال من فترة بعيدة.
يعرفنى، فى صوته مودة، كافة رسائلى وجهتها إلى عنوانه،
أبدى ترحيبا متمنيا إقامة سعيدة، إنجليزيتة ضعيفة مع أنه
يتقن ثلاث عشرة لغة. معظمها غير شائع، أو منقرض. فى المرة
الأولى أخبرته اسم الفندق. هذه المرة نسيت أيضا ذكر رقم
الغرفة، لم تتصل به بعد، مازال فى انتظارها.

أخشى مفارقة الغرفة، لعل وعسى!

يستمر همود الهاتف، أتطلع معاتبا، ولتبيد الوحشة،
وللتخفيف نطقت: كف عن صمتك!

لو يتردد الرنين، حتى وإن أخطأنى الطالب. لكن.. من؟ من
سيسعى إلى الآن؟. معارفى - وهم قلة - لم يستدلوا على

مكانى بعد، عزمت وقررت ألا أرى إنسانا قبلها، فمن أجلها
مجيئى، وصوبها سعوى، ماعداها غطاء وحجة.

انقضاء عام أو أكثر بعيدا عن ديارها فى جانب، وفوات
دقيقة واحدة بدونها وأنا على مقربة فى جانب آخر، فى الحال
الأول الأمر قسرى، أما الآن.. فأى حجة، أى تبرير، انعدام
اللقاء على القرب أشق من غيبة أعوام متتالية.

تبديل ملابسى أول علامات قنوطى، كذا لجوئى إلى الفراش
متملسا بدء هجوعى، يحط على تعبى، صدودى عن الطعام
قائم، لم أفارق الغرفة خشية أن تطلبنى أثناء غيبتى.
كمدت.

بدأت مرحلة انتقالى من اليقظة إلى النوم، مستسلما إلى
كافة هواجسى وظنونى، هل أبلغها والدها حقا؟ الرجل وعدنى
مرتين، بدأ متفهما، مطمئنا لى، إذن.. لماذا الصمت؟ أيعوقها
أمر؟

ماهو؟

ربما لم تعبأ، لم تبد اهتماما بتأثير من فتور الهمة، كيف
يدوم العشق مع البعد؟، ربما خرجت إلى نزهة، إلى سهرة مع
زوجها، ربما مع صاحب أجهله، لم ألم بتفاصيل كافية عن
أيامها، عن علاقاتها. عن سريانها هنا وهناك. لم أطلع إلا على
عموميات. منها جفوة الصلة مع من ارتبطت به فى سن مبكرة،

حتى أنها تأبى الإنجاب حتى الآن بعد مرور ست سنوات ودونها من الثلاثين، قالت لى إنه سن مخيف بالنسبة للمرأة، أستعيد شروذ نظرتها، لحظة نطقها المعنى والعبارة أرى فناء فسيحا مسورا لكننى لا أذكر المبني، تمرق رائحة بعيدة تمت إلى فندق قديم، عربية تتوقف، وسحب تتجمع منذرة بمطر، لحظات شروق مبهمة، ركاب مرهقون داخل قطارات تسعى فى عمق الليالى المندثرة، أرصفة محطات خالية، فتاة متفجرة بالأنوثة تمشى أمامى، أكاد أقتنص شذاها، طريق ضيق مظلل، واجهة شاهقة، زخارف، زجاج ملون يتخلل جصا، مقهى، صبى حائر، أين؟ رنين، رنين، رنين.

أنتبه منتفضا متسارع الخفق، ظامئا، أتطلع إلى جهاز الهاتف. أول رنين يتردد فى فراغ الغرفة العتيقة، فى فراغها العبق برائحة غامضة، خفية المصدر، للحظات خشيت رفع السماعه، لكن خشيتى أن يكف تدفعنى..

أنطق مبادرا..

مامن صوت، مامن مجيب، صفارة متقطعة تتردد، إشارات، أصداء لا أدرى مصادرها، أخشى ركض نبضى، أبطئ أنفاسى، تدرى نعاسى، من.. ترى من؟، هل يريد أحدهم التأكد من وجودى فى الغرفة؟ جزء من مراقبة الأجانب، أو اتصال ضل طريقه إلى؟ خواطر متتالية، احتمالات شتى، لو أصغى إلى الرنين مرة أخرى، حتى وإن تكرر الصمت، لكن.. تتوالى الثوانى، الدقائق مخلطة عندى الحيرة واللبال.

طار النوم عن عيني، كثيرا مارددت أُمى تلك العبارة بنصها
فى الزمن القديم، نطقتها بصوت مرتفع، إيقاع مماثل لما
سمعته منها، حتى بدا وكأن صوتها ينبعث منى. مططت
شفتى.. كأننى أشرع فى مخاطبة آخر لا يبين يمثّل أمامى.

كم انقضى بالضبط؟

كم.. مقدار الوقت الفاصل بين الرنين الأول والثانى. هذه
المرّة لم أنتظر. على الطرف الآخر، من مكان أجهله، من خلال
وضع ما، تسلّمت بريد صوتها، هى.. أعرف تضاريس نبرها
مهما خفت أو نأى. تلك تموجاته، ظلاله، مذاقه، فكأن شهورا
عديدة لم تنقض، ومسافات لم تفصل، وببدا دونها ببدا لم تعبر،
قالت إنها بذلت جهدا حتى عرفت رقم غرفتى.

بعد نطق الجملة الأولى صممت لحظات، قلت إننى غير
مصدق. فوجئت بسؤالها:

- ترغب رؤيتى؟

صحت:

- لهذا جئت..

قالت:

- إذن.. الآن.

نطقها مختصر، دال، حازم، أجببت منساقا.

- أين.. كيف؟

قالت إن الليل موغل، الثانية صباحا الآن، حضورها إلى
الفندق صعب، لكن هناك مخزن مشهور للبضائع، مجمع
ضخم، مجمع ضخم يعرفه سائقو عربات الأجرة، قريب جدا
من بيتها..

- لحظة..

ورقة، قلم، كتبت ماتمليه على، قالت:

- بعد ثلاثين دقيقة ساكون أمام المخزن..

كررت:

- بعد ثلاثين دقيقة..

تدفقت، وقفت عاريا لثوان تحت المياه الباردة، تطلعت إلى
سترتى التى سألقاها بها، أحكم ثيابى بأصابع مرتعشة، جواز
السفر، هل أترك النقود فى الغرفة؟

لا.. من الأفضل أن أصحب ما أخشى عليه، أخرج مجتازا
الممرات الطويلة، الأبواب مغلقة على أسرار شتى، أصوات
صادرة من إحدى الغرف، فى الصالة الرئيسية تتمدد مشرفة
الطابق فوق أريكة مستطيلة. أبتسم معتذرا، تتطلع إلى دهشة،
مستديرة الوجه، شرقية الطلع، متصلة الحاجبين، سلمتها
المفتاح. تناولت البطاقة الصغيرة التى لا يمكن لى اجتياز البوابة
الخارجية بدونها.

برودة منعشة. ساحة ممتدة شبه خالية، ثلاث عربات أجرة فى الانتظار، اتجهت صوب سائق قدرت تجاوزه الخمسين، رحبت أنطق العنوان، اسم الشارع، المحل. كتبتتها بحروف عربية كما سمعت منها حتى يسهل على ذكرهما، هز رأسه مرتين، جلست إلى جواره، بعد استدارته استقبل ليل المدينة خافت الضوء، كثيفة الأشجار، تتوه طرقاتها فى العتمة، مبان ضخمة لكن مصمتة.. أجهل الدروب والمنافذ، أيضا الوجهة، لا أعرف أى سبل مؤدية. أطأ هذه النواحي أول مرة، لم يسبق لى المرور ليلا أو نهارا، أجهل لغة السائق. لا أستفسر إذا توقف، أو اذا أبطأ، إذا سلك هذا الشارع ولم يعبر ذاك، لا أعرف أين الموقع على وجه التحديد، ولا المسافة التى تفصله عن الفندق، لم أعرف إذا كنت أمضى يمينا أو شمالا، تداخلت على الجهات. أوغل ليلا صوبها، لا يعنينى مايمكن التعثر فيه. مايمكن أن يعيقنى. المخاطر المحدقة، أتحوّل إلى كينونة متطلعة، متلهفة، أتساءل، كيف ستبدو؟ كيف سيقع بصرها على، هل أتحمل انبثاقها عندى، قوة وروده على، أى كلمات اللفظ، أى نبر أتكلم، أى حوار يجرى؟

تقل السرعة، فى حركة السيارة وعد بالوصول، بشرى بالقرب، يتطلع السائق إلى المباني، يتوقف قرب مظلة، محطة حافلات عمومية. يشير إلى بناء ضخم، مستطيل، عريض الواجهة والنوافذ، تعلوه لافتة تضى بلونين أزرق وأحمر، إذن.. أصل إلى الموضع المحدد.

عربة شرطة تمضى متمهلة، يضوى المصباح الأزرق فوقها
فى حركة دائرية، تتوقف على مقربة، ينزل منها جنديان
يتفحصان شيئاً ما. وجودهما على مقربة وتحسسى جواز
سفرى فى جيبي يبعث عندى ثقة هجير ليلى وموضع لم
أتوقعه، رغم تأخر الساعة إلا أن الحركة غير معدومة، شابان
وامرأة يمضون فى الاتجاه المقابل.

لم أفارق العربة. تطلعت إلى السائق، أشرت إلى الساعة.
إلى الخارج، صوب الجهة التى جاءت منها وكأنى كنت أعرف،
ما أثار عجبى أننى لم ألتفت إلى الجهة الأخرى قط.

حافلة تتوقف أمام المحطة، لا ينزل، لا يصعد أحد، لو
انتظرت تحت المظلة فلن يلفت ذلك النظر، الحركة تستمر حتى
هذه الساعة المتأخرة، ألم بالمكان كله مع أن الليل وظلاله الثقيلة
وكثافة الأشجار تخفى عنى الكثير، موضع لم يدر بخلدى أننى
بالفه، فوق نقطة منه سنلتقى، كم عبره قبلنا وكم بعدنا؟ لو
مررت به بدون ترتيبها لما عنى شيئاً بالنسبة لى، لكنه منذ
انتظاري هذا سيمثل بذهنى ويعلق. كيف سأستعيده، فى أى
لحظات من صحوى أو نومى سيرد على. هذه المباني، تلك
الأشجار، الحشائش الخضراء التى ينعكس عليها ضوء
النيون، البلاطات المربعة المتساوية، الواجهات المتشابهة، أعمدة
الإضاءة القديمة، المصائر وراء الجدران، الناس الذين أجهلهم،
السائق الصامت، لا يعرف التراث الكامن عندى، موقع هذه

اللحظات منى، غريب أمرى! يحل بى هدوء، تنزل على سكيئة،
كأننى أرقب الوقت من خلال شخص آخر أعرفه ولا أعرفه،
عند دنوى من اللحظات الفاصلة يبدو ما سأشاهده، ما سأمر به
وكأنه يخص غيرى، حتى إذا فارقت ونأيت وصار وصولى
اليها صعبا. وإدراكى المكان مستحيلا، عندئذ.. أستعيد أدق
التفاصيل، أعيشه مرات، تثقلنى المرئيات المستعادة حتى لا
أقدر على تحملها فأفارق مرقدى أو مجلسى، أنأى عن
صحتى، كأن انتقالى من مكان إلى آخر يخفف ويسرى.

مالى، موزع، مذكرى، ضائع بين استعادة ماكان. والتطلع
إلى ماسيكون، حتى إذا تحقق الأمر أنظر إلى مايكون من
موقع زمنى مثبت، بعيد، أحض نفسى على الاستغراق، التطلع
صوب الآتى.

أوشك على النظر إلى أعمدة المصاييح، أصغى مثلما
دبيب اللحظات التى تعبر المكان أو يعبرها.. لا أدري؟،
ماموقعها من الزمان؟ أى مواضع تتخذها النجوم القصية
الآن؟ أى مدار ينتظم فيه الفلك، فى أى حيز تحوم أرواح
الراجلين؟. تلوح لحظة حنين إلى شذا قديم، خفى المصدر،
أوشك على.. على.. هى..

انبثاق، انبلاج، يتفتق ظلام الليل عنها، تحديد البداية وعمر،
غير أنى أملت بانبثاق خطوها من سور العتمة، رأيت إقبالها،
اقترابها، خطوها، تدفقها نحوى، لمدى طويل أمضيت الوقت
متوقعا ذاك الأوان حتى كدت أكل.

ها هي..

مائلة، شاخصة، تسرى، تسعى. تبلغنى كنبأ جميل،
سترتها قدت من صوف أزرق، أحمر، أبيض، أسود. أصول
الألوان وجذورها، طلعها يلغى سائر المكونات، أتطلع، أوشك
على الجموح لكننى لا أحدد ولا أحدد.

أنتبه إلى ثباتى وإقبالها!

وقوفى ليس من علامات الأدب مع المحبوب حتى وإن
جمدنى البهت، أواجهها بكافتى. بكلى. اكتمالها يحو ماعداها
خاصة عندما رست عندى ورسيت عندها، جثوت، مستسلما،
راضيا، متأهبا، محاولا استيعاب فاتحة هلاتها فى دورتها
تلك..

- ٢ -

«مكان محدد، مطروق، موضح على خرائط المدينة، ساحة
منبسطة، مبلطة بالحجر، تمتد أمام الحصن القديم، مقصد
الزائرين، ملتقى أجناس شتى، علامة رئيسية بالمدينة، حددنا
الباب الرئيسى القريب من النهر، أما الوقت فتمام الواحدة،
مجرد نقطة لقاء، بعدها نمضى إلى مقهى قريب، هناك تقدمنى
إلى زوجها، لم أقتنع باللقاء المقترح، هذا مخالف لكافة ماجبلت
عليه، لم أدر كيف ستنتم المواجهة. كيف سأصرف، وددت
استبعاد هذا الترتيب، لكنها أصرت. قالت إن حياتها تمضى

فى خط مواز له، وأن الفتور واقع منذ مدى، ومايجرى عندها لاتعتبره سرا، ولا تريد إخفاءه. لماذا تكذب؟. ليس عندها إلا المصارحة، حتى يكون مايكون، قالت إنه كان يمضى أجازة فى الريف عند سحب له، كتبت إليه تنبئه بوصولها، بعد عودته جرت محاورات عديدة، كنت أنا موضوعها ومرتكزها، عسر على الفهم، وعندما أبديت تحفظى قالت:

- من الأفضل أن يتم كل شىء فى الضوء.

أتطلع حولى، لنصوع حضورها أعشى عما عداها، لا أتوقف عند ملامح أخرى مهما بدت مبهرة. ليس مثلها مثل متفردة. بعد خمس دقائق تلوح، أحرص على وصولى مبكرا، هى يجب أن تنتظر لا أن تنتظر. أدور حول المبنى، أفق عند الركن، خلف العامود الرخامى، أود مشاهدتها قادمة، مطالعة ظهورها على غير علم منها، رصد انتظارها، قلقها، تصرفاتها، تجىء دائما فى مواعيدها. دهشت.. كيف تضبط حركتها مع استخدامهما المواصلات العامة، ومجيئها من مسافة بعيدة، ترى من جاورها فى المركبة، من وقف على مقربة، من دنا ومن نظر؟

- تختبئى ؟

تلمس كنفى، أستدير، تتلأأ عيناها، تضوى بحبور إنسانى نادر، بريق هادئ، تائق لايمكن لهذه اللحظات أن تحتويه. وتلك المعانى، أومئ برأسى غير ملم بما أريد التعبير عنه، أنبهارى، وقع المفاجأة؟ مجيئها من حيث لا أحتسب؟ أو أساى لإدراك

زوال اللحظة ومروق المعنى، أو لعجز النطق عن إسعافى. أم
لأن ألقها وفيضها غمرانى، مع وهن القدرة على التصريح،
كدت أتبسبس خفقا مع دوام تطلعها.

ترفع حاجبها مع انفراجة يسيرة من شفقتها، وهذا تكوين
يدنو بها من سر الزنابق، وسريان اللون فى المتلون، سبحان من
جعل الإنسان قادرا على تغيير العتمة وتبديد الظلام، أما
الضياء فلا يمكن تحويله. أو تغييره، أو تبديله. تطلعت صوبى.

تتساءل بصوت منبعث عبر درجة أو طبقة يستحيل إدراجها
أو تعيينها:

- ماذا؟

بصدور نطقها عنها اكتمل سطور نظامها الخاص، لم أجب،
إنما استمرت حركة رأسى، متأنية، نادمة.

- ماذا؟

تنبعث عنى حيرة، كنت متبدا فى مواجهة هلتها المفاجئة
تلك..

- ٣ -

.. سطوع بدون نهار، العاشرة ليلا والمساء خفى، اعتدت
ذلك. مرة أخرى أطا الموضوع حيث أهلت على أول مرة، اقترحت
تسميته المكان التاريخى، صفقت بيديها مرحة، مسرورة. يبدو

وجهها الطفولى سافرا بخباياه، عذويتها البكر لم تندثر بعد،
ما بين لحظة وأخرى تتبدل. تتغير. مرة طفلة وتارة أنثى مكتملة.
تضحك ولكن فى أصدائها نحيب لا يرى.

جئت مبكرا، أثرت المشى، إلى الاتجاه الذى قدمت منه،
أمضى حتى تقاطع الطرق، هنا افترقنا بعد لقائنا الليلي، قرب
مشرق الشمس، وطلوع الصبح، عدت إلى الفندق مكتمل
الطاقة، قادرا على الشروع مع أنى أمضيت ستا وثلاثين ساعة
بدون نوم، تماما كزمن فتوتى، عندما كنت أصل جهدا بجهد، لا
يدركنى ملل، ولا أهاب وقسوع التعب وإدراك النصب، أينعت
عندى منابع ظننت جفافها منذ أمد، كلما استعدت فاتحة
هلاتها فى دورتنا تلك، يخف وجودى الحسى حتى لأوشك على
التحليق والطفو، استأنست بصوتى فكنت الشادى والمستمع
معا.

بعد مفارقتها بدأت استرجاعى لظهورها، لطلتها، لتوقعها،
لإشراقها الليلي، فرأيت مالم أقف عليه عند وقوعه، وفهمت ما
استعصى على لحظة نطقه، ونفذت إلى جوهر عبارات لن يبقى
منها بعد توالى الفترات إلا مضمون عام غير مفصل، لفظ
محدد، أو جملة أفلتت من النسيان، لهذا سأشرع فى تدوين
معلق أثر فراغى من تثبيت هلاتها خشية الاندثار.

ليتنى أدرك قانون الذاكرة!

ليتنى أقدر فأبقى ما أرب. وأستبعد ما يقض ويوجع، قلت

فلاهنأ بفيضها الذى مازال يغمرنى، عبير حضورها المزهر فى
دمى، الحق أنها لم تفارقنى، لم أضل عنها، بل إنها على البعد
أقوى منها على القرب لكن.. إلى متى؟

أسترجع نوبات عشقى، وأزمنة تيمى، فأدهش وأحار، كيف
يذوى ماظننته لن يبيد أبدا، ويحل موضعه آخر، يحوه حتى
يستخف المرء بما أوشك أن يقضى بسببه يوما، لهذا إقدامى
على التدوين محاولا الإمساك بشوارد الوقت، أما زمان الوحدة
والتأسى ففادم، أليس كل أت قريب؟

أمر الهوينا بالموضوع مرة أخرى، كأنى ألم بالمعالم أول
مرة، لكن. كيف لم ألاحظ هذه الواجهة الزجاجية، كذا ألوان
المبنى، اللافتة. الأعلام الملونة فوق الممر المؤدى إلى المدخل، فى
الضوء تولد الموجودات من جديد، تتغير الهيئات وتتبدل.

تهدى الحافلات من سرعتها، تتوقف، تمضى، حركة
تستمر، وتتصل، لن تتوقف أبدا، كذلك سعى المارة، واللقاءات
المرتبة، ونتاج الصدفة، والعبارات التى تلفظ، وتوهجات العيون،
وأخضرار الأشجار، وطرحها، ثم ذبولها، سيتصل هذا كله بعد
غيبتى، ستم الدورة، ولكن وجودى مختلف، مغاير، ناء، أما
هى فعيناها ستقعان على هذه المرئيات مرات عدة فى نهارات
وليال متعاقبة، لأدرى كيف ستستعيد أمرى، ولا كيف ستبدو
صورتى فى ذهنها، وأى أوضاع مثلت فيها أمامها ستحتفظ
بها فى أفق وعيها. كنت جاهلا، سأتشكل عليه فى مناماتها،
كيف سأبدو؟ ومن أى جهة سأفد؟ وأى أصداء ستبقى عندها،

أى ألفاظ نطقتها على مسمع منها ستتردد عندها وبأى وقع
وأى نبر عندما أصير فى جهة وهى فى أخرى؟

أتجه إلى مظلة المحطة، أتوقف قليلا متطلعا إلى الجهة التى
تأتى منها الحافلات، تهب النسيمات، عند تطعى إلى شابة
تمسك بيدها سلة ملونة.. يتردد اسمى.

هى..

قادمة، لكن.. من الناحية الأخرى، عكس الجهة التى أهلت
منها المرة السابقة، مسرعة تأتى، تميل قليلا إلى الأمام، الهيئة
التي أستعيدها بها، إما على حافة، أو فى سموق علوى. بريق
أنثوى ينشق ظله، مهفهف، مرفرف، أصبغها مشرعة إلى
الأمام.

تتجاوزنى متطلعة، أتابعها دهشا، حائرا، إلى أى شىء
تشير بأصبعها؟ لكنها بعد تجاوزى بثلاث أو أربع خطوات
تنثنى راجعة صويى، أثبت، لا أميل، لا أتلفت.

تنثنى مقبلة، رجة. مشعة. تتساعل:

سالم تر أبى؟

- لا.. لم أره..

ثم استدركت:

- حتى إذا قابلته فلن أعرفه.. لم التق به.

يستمر تلفتها، تقول إنه أحضر بطاقات دعوة إلى حفل موسيقى.

قلت إننى لحت رجلاً متقدماً فى العمر كان واقفا منذ عشر دقائق لكنه ركب عربة أجرة. تتجاوزنى بنظراتها. لم تستفسر عن ملامحه. تلتفت، تدعونى إلى عبور الطريق، عندما حانيتها تطلعت إليها، تبتسم، فيما بعد تساءلت، لماذا تساءلت ولماذا مضت فى سيرها، هل قصدت التمويه على شخص ما؟

تقول:

- البيت قريب.

ينضح صوتها بالوعد إذ يتردد همسها:

- الليلة.. أنا بمفردى.

- ٤ -

لم أغف حتى!

لم أنم، أصغيت إلى تنفسها الهادئ، المطمئن، الآمن إلى جوارى، حاذرت التقلب أو إيداء القلق الجثمانى حتى لا أزعجها، ولجت نومها بيسر، أما أنا فاستعصى على الوسن، ربما لاغترابى أو لهيبتى حضورها، واقتران عالمى بعالمها، مع أن تكوكبنا أمر وقع عندى بالخيال، فلکم طالعتة. وتمنيته، وحرك عندى ماحرك، وعندما اكتمل فى عالم الحس وجلت وتهيبت فكان الأمر يخص غيرى.

منذ الفجر، لم يتوقف المطر إلا فى الصباح، قطرات ثقيلة، متتابعة، تشتد حيناً حتى أظنه الغرق، أغمض مآقى، مزدحماً بهلاتها والتي لم تتوقف منذ لقاءاتنا حتى تردد أنفاس النوم المنتظمة.

عند انفرادنا فى المصعد الضيق، تطلعت نحوى، أقدمت.. قبلتها ممسكاً بذراعيها، ورفعت حاجبيها محذرة، مشهرة لحظها ودلالها، انبعثت من داخلها طفلة. مرحة. مقبلة.

قبل خروجنا تطلعت إلى مشجب المعاطف، ينقسم كونها الصغير إلى جزأين. إلى يسار الداخل مطبخ، تتصدره منضدة صغيرة حولها أربعة مقاعد. أوعية مختلفة. مرتبة، منسقة، القسم الثانى إلى اليمين، فسيح الحضور، ضيق المساحة. فراش وثير، تضىف إحساسات باتساع المكان، إلى جوارها لاقطة قرأتها بصوت مرتفع..

«الأمس مر إلى غير رجعة، غدا ربما لن يأتى، اللحظة هى الآن..»

أشار أصبعى.

«هذا أنا..»

قلت إننى أردد عبارة مشابهة، أكتبها أثناء شرودى وتسهيمنى، لا أذكر أين قرأتها على وجه التحديد. أى كتاب؟ أى مصدر؟ لكنها لشيخ ساح فى البرية، سكن الكهوف، والأماكن المحشنة، قال ما نصه:

«الإنسان بين لحظتين، واحدة مضت لن ترجع أبداً، وأخرى
آتية ربما لن يصل إليها..»

كثيراً ما أنقشها بعناية، أجمل حروفها، أكتبها بخيالي على
الفراغات التي أحرق اليها أو عبرها، عظم يقيني أن انجذابي
إليها لم يكن صدفة، وانتظامي في فلکها لم يكن عبثاً.

جلت، طوفت بنظري، بمشارف ذاكرتي، راغباً، أملاً في
حفظ الدقائق، موضع رقادها، مقعدها أمام المكتب، مراجع
دراستها المصفوفة، صوان حاجاتها، أسطواناتها، أريكة
مستطيلة تحت النافذة، هذا فراغ يحتويها، السقف غير
المرتفع، مرسى نظراتها عندما تستلقي، تطلق العنان
لشطحاتها، لتأملاتها، كل يوم تقع عينها على تلك الجزئيات.
أنتبه إلى وقوفها.

تتجاوز فراغ الباب بسموقها، بتأججها الداخلي الذي
يتخطى محدوديتها البشرية، يفيض حتى أكل عن احتمالها، أو
الإلام به أو وصفه.

أستفسر، كيف تتحرك في هذا الحيز، أين مكانها المفضل؟
كيف ترقد؟ على أي وضع تستريح؟ حتى تتطلع إلى قمم
الأشجار المرتفعة؟

تصغى. نورانية الطلع، صامته الحضور، أما غمازتيها فتم
بهما المعنى الذي لم أقدر على تفسيره، بلامحها تأثر غامض،

قالت فيما بعد إن أى إنسان غيرى لم يهتم بالتعرف على هذا كله.

طفت المكان الذى ربما لن أشهده إلا فى الذاكرة، العجيب أننى لم أكن مستنفرا بسبب الانفراد. مع أن مجرد استدعائى لحضورها بالخيال المحض كان يؤجج حواسى. فكأننى ذلك الرجل الذى سافر مسافة قصية إلى شيخ مهيب، عرف بصلاحه وتقواه. طلب منه أن يقيم فى خدمته سنة كاملة، لا ينقطع خلالها عن الصلاة والعبادة، قبل الرجل طمعا فى وصوله إلى سر تحويل التراب إلى تير أصفر، بعد انقضاء عام استدعاه الشيخ، سألته: هل أنت على استعداد؟ سأخبرك بالسر.

عندئذ.. بسط الرجل يديه قائلا:

- كفى.. لم أعد فى حاجة إلى ذلك!

كنت محايدا، وكأننى خارج الخطة، كنت مولها، مشغودا، متأثرا، ولأننى تخيلت مطولا ما أمر به، وقع عندى عدم تصديق لاستحالة ذلك زما طويلا.

تبتسم.

تشير إلى المطبخ:

- لابد أنك جائع..

المكان رحب رغم محدوديته، استند بظهرى إلى المقعد، من الثلاجة تتناول قالباً من لحم مطحون، محفوظ، وسكينا، تيسط

الشرائح فوق رقائق الخبز، تسفر فى ابتساماتها، لفتاتها،
طلاتها الجانبية، هذا الفيض يهل على، مجهول المصدر، تارة
من صوتها، مرة أخرى من نظراتها، من نبرها، من فرد قامتها
فجأة، مع تراجعها فجأة، كنت مستكينا، هادئا، مراقبا لسريان
الوقت بيننا، لماذا الهلع، لماذا الوهج، لماذا القلق إذا كانت ماثلة
أمامى، على مقربة، فى المدى.

أكد ألمس ضيق المدى مابين أمنياتى وتحققها، راحت،
جاءت، عند تنسى عيبرها الكلى لحظة مرورها قربي أمسكت
يدها.

تطلعت راضية. باسمه. حطت فى نطاقى، وقفت فجأة، قالت
إنها تود أن ترينى صورها، عادت إلى مرساها، قالت إنها
تتمنى اطلاعى عليها. راحت تقلبها، كنت مابين تأملها وتجرح
عيبرها. موزعا، حائرا، هاهى طوعى وأنا طوعها، غير أن
هاجسا هنا مغبشا لحظات الوداد. كيف سأستعيد ما أمر به
بعد تجدد الفقد. وابتعادى، أدرك استحالة الاستحواز، عقم
إدراك الإدراك، رحت أتأمل صورها، طفلة، شابة، والديها.
صاحباتها، لحظات أجازاتها، مناسباتها. وإن أتأمل كل منها
أسأل ذاتى، أين كنت لحظة التقاط هذه أو تلك؟

فجأة قامت، لم تبد تفسيراً، لم تفه حرفاً، فتبعتها، قعدت
على حافة الفراش. تخففت من سترتى الصوفية، من حذائى،
عندما حاذتنى متجهة إلى المطبخ أحطت معصمها بيدي،
أجلستها بجوارى، حدقت، تعلقت، تهدجت، كنت على شفا

عينها، طاقتان من ماس مصهور يشع ألقا، كنت أرى شرايين
وأوردة وشعيرات دفق الحياة التي تتخلل وجهها، شفيتها،
جبينها الأشم، كذا غمازتيها فى سكونهما، فى حركتهما،
مأقيها تقيض بالوداعة، مقلتها تنطقان بالسكينة. بالطمأنينة.

تقول بنطق همسى، قادم من هناك:

- «ترغب الآن؟»

حركت رأسى نفيا.

- «لا.. ليس الآن..»

توقفت لحظتين، تابعت.

«أرغب من زمن بعيد، قبل أن نلتقى، أثناء قريى وبعدى،
وفى الآتى الذى لن أدركه..»

تهل على بهينات لم أعدها، لم أعرفها منها، هلات ذات
خصوصية، شمولية، علوية، تتجاوزنى إلى ماوراء حضورى
الآتى إلى زمن حضورى، وأفولى، أو تمردى وثورتى، وسعوى
إلى المدى.

كان نبضها يتماس بنبضى، فلا أدرك كلا منهما على حدة،
تنفجر شفاتها الريانتان، تطل ملامح من أسنانها، لآلئها، يزداد
اقترابى. ينفصل مكان حضورنا عما يتصل به. نعمن فيتجدد
خلقى..

.. بقايا مطر، خضرة مرتوية، للهواء شفافية ناصعة حتى ليرى، يوم أحد، المدينة هاجعة، حركة محدودة وسريان خفيف. درت عند المنحنى، طريق ممهد. رصيف عريض يتوسطه، نبتت الحشائش من الفراغات الفاصلة بين بلاطاته، مضيت متمهلا، واثقا أننى سوف أسترجع هذا الوقت مرارا، سألوذ به وأستدعيه تهدئة لى، وتصبيرا لقلبي إذ ينوء بالوحدة وثقل الفرقة، وغرابة الطرف.

قبل خروجنا طلبت منى أن أتقدمها، لاترغب انصرافنا معا اتقاء ودفعا لفضول الجيران، خاصة النساء منهن، أمام الباب رأيت امرأتين، الأولى عجوز، والثانية شابة، لم يلتفتا، لم يبديا اهتماما، لم تتوقفا عن الحوار عند محاذاتى لهما، كنت راغبا فى التحقق من ملامحهما، ألا يقيمان على مقربة منها؟ ألا تراهما فى أوقات متقاربة؟ ألا تعيشان فى البناية التى تضمها؟ مضيت متمهل الخطا، هل سأعود إلى المكان مرة أخرى؟ درت عند المنحنى، التفت، لم تبد بعد. كنت مرهقا، متعبا، لم أغمض عيني منذ الأمس، غير أن تردد اللون الأخضر بدرجاته وبرودة الهواء الخفيفة، وخلو الطريق وتوقعى ظهورها، أثار هذا كله عندى دققا وحيوية.

هاهى.. متوحدة، منفردة، مامن أحد الإها، بينها وبين الشجيرات وشائج وصلة، لخطاها وقع، أصغى، هذا صادر عنها، كأنها تتقدم صوب خلاء ممتد، لم أنكرها ولم أرها بعيني

مخيلتى إلا دانية من حافة فاصلة، ابتسامتها تهل على، لتلك
الابتساماة تقلبات ومظاهر شتى، صعب حصرها، عسر
وصفها، لكن ابتسامتها تلك بدت لى مختلفة عما سبقها.

أدرك صلتها، اتجهت صوبها للأقبيها فى منتصف المسافة،
الأولى فى الصباح التالى لليلة اقترابى، وطوافى، وامتزاجى
الكلى، كل ماسيبدو منها له وقع مغاير منذ الآن، غير أننى
لمحت شيئا ما يوطر هلتها الديمومية، استعصى على تفسيره،
ثمة اتصال وثيق خفى ما بين شفيتها وعينيها، وحضورها غير
المدرک بالحس، أسرعرت الخطأ، حاذيتها، تجاوزتها فى الاتجاه
المعاكس، لم ألفظ حرفا، كأنى عابر، غريب يجهلها، انثنت
لأتبعها، تقدمت، صرت إلى جوارها، بدأت نطقى من موقع
الاعتراب، كأننى لم ألتق ولم أصافح ولم أصغ..

- أيمكننى الحديث ياسيدتى؟

هلت على بتطلع جانبى، تستمر ولا تتوقف، قلت إننى عابر
غير مقيم هنا. جئت من بلد بعيد، من قارة أخرى، مسافات
قصية تفصلنا، ونظم مختلفة، وإجراءات. وترتيبات، لكننى إذ
رأيتها الآن فوق هذا الجزء من طريقى أدركت أن مصيرا
بأكملها تحدد. نكرت اسمى، وموطنى.

توقفت، تطلعت صوبى، غمرتنى هلتها على القرب فكنت
أشب، وأدركتنى على البعد فكانت الباعث على خفق قلبى، تلك

هلة لزمتمنى . فكانت أول ما أفيق عليه عند صحوى، وآخر
ما أتعلق به قبل إغماض عيني، قلت هادئاً:

- أدعوك إلى حياتي.. هل تقبلين؟

فيما بعد.. أحطت علماً أن ذلك الألم الخفى أسفر مطلاً فى
ذلك اليوم، أخفت ذلك عنى، لم يتبق إلا يومان وأغرب عنها،
بذلت جهداً غير يسير لقمع تلك الطرقات التى لم تعرفها من
قبل، وأشد ما يخيف مالم نعهده، أرادت أن تبدو هادئة، متألقة،
دائماً كما أحببت أن أراها، بعد أن عاتبتها عبر الهاتف، عبر
رسائلى، عبر المسافات، جاوبتنى:

- لم أشأ إزعاجك بينما سفرك قريب..

بعد لحظات قالت:

- لكن يبدو أن قلبك حدثك بشيء ما، إذ خاطبنى فى
الطريق كغريبة!

- كنت أمزح..

تسلمت بريد ضحكها الواهنة، المتعبة، الآيلة.

- هل تذكر؟

أو مات كأنها ترانى، كأنها على مقربة، مع أنها تهل على
عبر الرؤى والأطياف..

.. السابعة إلا دقيقة.

وقت نزوة، جمع يتوافد أفراده لحضور حفل، أقف أمام مدخل الفندق، أرقب الوجوه، الملامح دائما معبرة، العيون تبحث عن المنتظرين، اعتدت تأملها عند بوابات الفنادق التي أمضى فيها أوقاتا عابرة، كذا مخارج المطارات. محطات القطارات، الموانئ، صالات الاستقبال في المستشفيات، دائما.. الملامح متأهبة، متوقعة لنبا، لفعل ما.

ضوء النهار ساطع مع أن الليل بدأ، نهار بدون شمس، عريات تتوقف، البينايات المقابلة مغلقة النوافذ، مامن شرفات.

عيناها في مواجعتي..

احتجاج صامت، تنكسر الأشعة في حدقتها فيبدو جوهرها العصي، لايمكن تحديد انتماءات الألوان، متداخلة، متغيرة، سنية الأوج، قالت إنها جاءت منذ عشر دقائق.

لم أجب. طال تحديقي، هلة مفاجأة، مباغطة كأنها انفجار ضوئي صامت يشملني شيئا فشيئا، كنت في حاجة إلى استيعابها على مهل، بما تحويه من ترقب، وتحفز، واستعداد مسبق للملاقاتي.

قالت إنها لاتحب الانتظار بمفردها.. خاصة أمام الفنادق.

تطلعت محاولا تثبيت الجزئيات، نفور شعيراتها، انفراجة

شففتيها، تحفز غصنها، عدت أتطلع إلى اللحظات المنفلتة من موقع متخيل أكون فيه نائيا، قصيا، غير قادر على تنسم وجودها وإدراك أصولها، تدارى احتجاجها البادى، تسفر عن ودها. تتساءل عن صمتى، تتوارد على الصور، التى بمفردها تنتظر قرب النيل. حرجها باد، عندما بدا صاحبها بسط يديه على امتدادهما، لمحت العتاب فى انتصاب قوامها، أدركنى سرور غامض، رؤية عاشقين يلتقيان تشع بهجة وتبرج بوعد ما. لكم حرصت على استيعاب خطوها المتدفق صويى، فلسعيها ألق، ولقدومها القدرة على فك إسار، تضوى فى مواجهتى مع أن ملامحها جادة، بها مس من عتاب وريما غضب، المفروض أن نمضى إلى ملاقة صاحبة لنا لنسلمها أوراقا خاصة يبحث تعده، لكننى أدركت من بزوغها، من هينتها، أنها جاءت من أجلي، وأنها اجتهدت ليتم بهاؤها، وأنها لم ترتد هذا الثوب إلا لأننى أبديت إعجابى بدرجة لونه، وأنها قدمت لتمضى وقتنا أشمل..

- ٧ -

لكنها فى هذا العصر تأخرت، موعدها الثانية، عقارب الساعة أشارت إلى النصف بعدها، لا تتقن والدتها إلا كلمات محدودة من الإنجليزية، أشارت إلى فهمها..

- الطعام..

أنفى بهز رأسى، أشير إلى الباب، أذكر اسمها: عندما

تجئ. تقوم متجهة إلى نافذة الغرفة الجانبية المطلة على الطريق المؤدى إلى مدخل المبنى، كدت أغفو بتأثير إرهاق كامن، أو قعدتى، أو هدوء المكان، فى الثالثة والربع أطلت مبهجة..

.. إنها قادمة..

إذن.. مجرد لحظات وتهل.

انتظارها المصعد، ولوجها، ضغطها زر الطابق الرابع عشر، اجتيازها الباب، مثولها أمامى، غدا، فى مثل هذه اللحظات يبدأ شروعى العودة إلى موطنى الأسمى، أمضى إلى مكان، وتبقى هى فى آخر..

أصغى إلى تكة القفل.

لم تدخل، إنما انبثقت ففتحت فى الحين، قوامها الفاره يميل وكأنها على وشك أن تبدأ العدو، أو تقدم على وثبة كبرى، فى مواجهة تفجرها بدأ هدوء تقبلى له، كنت مثقلا، لا أبدى من الانفعالات ما يوازى اضطرامها، وهذا حال يغلب على فى اللحظات الصعبة فيظن من يجهلنى جمودى، وانعدام مجاوبتى، مع أنى أترقرق، أدنو من الشروع فى البكاء، لكننى كظمت.

البيت هادئ، صامت، لكنه سيكون مختلفا عما كان قبلها، يفيض الفراغ. تتحرك هنا وهناك، تعد المائدة من جديد، ترتب

المقاعد. تشير بأصبعها متدركة أمرا، تبسط محتويات الحقيبة، أشياء صغيرة جميلة، تماثيل دقيقة من الجبس أو الرخام، مفارش منمنمة، لوحات من خشب محفور، قالت إنها تأخرت لهذا، بسبب ذهابها إلى متجر التحف والعاديات.

- لكن اليوم أحد..

قالت إن المتاجر تفتح يوم الأحد الأخير من كل شهر. قالت إنها طلبت كتابة جملة على كوب من الخزف عبارة «إن شاء الله» بحروف لاتينية ونطق عري، سألها مدير المتجر، هل هذا اسم شخص، تطلعت إليه صامته، قالت إنها ترجوني مصاحبة هذا الكوب، أن يمثل أمامي، فى مكان أستطيع رؤيته كل يوم.

أرقبها، هلتها مستمرة، كأنها وصلت لتو، أو تبدو من جديد فى كل لحظة، سددت إليها غموضى وحيرتى..

- لماذا تبدو حزينا؟

أموه ابتسامه، قالت وكأنها مدركة لجملة بواعثى:

- لكننا سنلتقى.. ألن تجيء فى أكتوبر؟

دنت منى، جرعت نسيمها حتى شبع صدرى، أشارت إلى قميصها ذى الحواف المزركشة..

- أول مرة.. من أجلك..

سمقت فجأة، دارت دورتين!

- ما رأيك؟

- رائع..

من ملامحها أدركت أنها تكابد مالا أعرفه وتؤثر انعدام البوح.. مالت تجاهى بغتة، قبلتنى، تراجعت قليلا، تلالا الضوء متكسرا فى عينيها، حاضا لى على السعى..

- ٨ -

.. لم ينفذ أملى رغم اجتيازي أول حاجز، دخولى المنطقة التى لا يتواجد بها إلا المسافرون، جنسيات شتى، حضور خاص لأماكن العبور المؤقت، الضوء، حركة العابرين، جدية الوجوه، التأهب، حقائب تنتظر الميزان، عقارب ساعات تشير إلى توقيتات أماكن مختلفة من العالم، اللوحة العريضة السوداء توضح حركة الطائرات الراحلة، تلفت مرة أخرى، لم أرها، المودعون أكثر، لكن لا أثر، يبدو أن ثمة أمرا أفاقها، وعندما قدمت بطاقتى وجواز سفرى ودفعت بحقيبتى، بعد انتهاء إجراءتى وتأهبت لعبور الممر الضيق، القصير، عندما دنوت من النقطة التى سأعبر عندها بوابات التفتيش إلى قاعة الانتظار الأخيرة، المعزولة، أدركت هلتها بدون وقوع نظرى عليها!

بين الواقفين، ملامحها. قسماتها، خصوصية حضورها، حلت بكل الحضور، وفاضت بقسماتها على كافة الملامح فلم

أر عداها، ولم أَلحِ إلّاها . كانت تهل على من كل صوب، تآتيني
من كل فيج، مع استحالة الوصل، فالإقلاع وشيك..

- ٩ -

خطوها، بسوقها، إقبالها، ولوجها القاعات، ظهورها فى
الفراغات، مثولها، نفيها سائر الموجودات عداها، ازدهار
خضرة الحدائق بها، وانتماء صفو اللحظات الجميلة إليها،
تمهلها فى المعرض، إطالتها النظر إلى أثر تبقى منذ آلاف
السنين، إصفاؤها إلى الشرح، انبهارها، ظهورها، هلتها
الأولى المفاجئة رغم شخصها أمامى.

متى:

متى جرى ذلك؟

صعب القطع، وعر التحديد، لا أدرى متى وقعت عيناي
عليها أول مرة، متى هلت؟ متى انعكس حضورها المادى فى
حدقتى، لا أقدر على التعيين أو تحديد البزوغ، بدء سريانها فى
عمرى المحدود، مامن علامة فارقة يمكنها أن تحيد أو تؤثر،
مؤكد.. يقينى، شروقها على قبل هذه اللحظات، عند دخولنا
صالة المتحف الرئيسية، لكننى أثق من معرفتى لها قبل ذلك.

متى لاحت أول مرة إذن؟

أعجز عن التحديد، عن القطع، هى قديمة بلا شك.

كانت تخطو فارهة، مطلة على مايحيطنا . لايرقى إلى حضورها حضور. ولا يدانيها وجوه، يداها فى جيبى معطفها الرمادى مرتفع الياقة، تميل أمام تمثال، أو تتوقف عند لوحة، تتوحد، تشرذ عن الجمع، حتى عند اندماجها بالآخرين يستمر بسوقها وتفردها.

هذا المساء باق عندى، لاتبهت تفاصيله، مع أن الآف الأمسيات التى عبرتها بحضورى الكينونى اندثرت، لم يبق منها تفصيل، كأنها لم تكن، تطلعت حولى قلقا، كنت أعى مايطراً على ملامحى، من انفراج، وضيق.

فى تلك الليلة نظرت إلى الموائد وماتحمل، إلى الأطباق والأكواب والزجاجات وما تحوى، إلى الخطين الأحمر والأزرق، إلى زملاء السفر، بدأ بعضهم فى سكب النبيذ، أو التهام السلطة. نظرت إلى المقعد المجاور الذى حرصت على ألا يقر به أحد، أسندت اليه حقيبتى الصغيرة، لم يدن منه آخر.

دقائق ثقيلة تمضى، ومر على تحملها، أضييق بها إذ أستعيدها رغم المسافة المكانية والزمنية، تبدأ الهواجس والظنون، لم تبدأ خطوط الوصل بعد، لم تحل لحظات التماس، إنما مجرد محاولة مبذولة من جانبى، قد تتصل أو تنقطع فى أى لحظة، تسالمت: فى أى مكان هى؟ فى الطريق؟ أى ناصية إذن؟ أى شارع؟ بمفردها؟ أو تلزم صحبة، إذن.. من ؟ صاحبة أو صاحب؟

أحنيت رأسي، فى هذه اللحظة بالذات سرى هبوبها إلى ،
مسنى قبل أن أراها، اجتازت الباب والمساحات الفاصلة
مباشرة إلى المقعد المجاور تماما، قمت فأفسحت فمرت، لم
تلتفت ناحيتى، مجرد إيماء سريعة، لا خصوصية لها، ولا
تفرد، غير أن سكونا لطيفا محببا شملنى.

عندما توقف المصعد، أضاء الرقم السابع، انفرج شطرى
الباب، أهلت، منبلجة الملامح، رجة العينين، قلت:

- لم أرك منذ الأمس..

لاحت وكأنها تشكو، بصوتها مس من دلال..

- أمور كثيرة.. كان يجب إنجازها..

- هل ستذهبين إلى المقر غدا..

تومئ، تلك الإيماء السريعة، الدالة، المختصرة، لكم
استعدتها فيما بعد، لكم أسرع أو أبطأت نبضى.

- أراك هناك..

- الثانية عشرة..

قلت مرددا:

- الثانية عشرة..

أضاء الرقم السابع عشر، التفتت محببة، أنتبه إلى وقوف

رجل عجوز، أشيب الشعر. لم أدر جنسيته بالضبط. إلا أنه كان يبتسم بركة، قال:

- لطيفة جدا..

دهشت، كيف لم أنتبه إلى وجوده بجوارى رغم ضيق الحيز؟ أو أن هلتها المفاجئة. نتاج المصادفة. أقصت ماعداها عن دائرة وعيى من قبل ومن بعد؟

تلك النهارات، الليالى، الأوقات المجمعة، هذه النواصى، المداخل، الممرات المؤدية، الفاصلة، الغصون العارية، خطوها فوق الحشائش المبتلة، فوق البلاطات الحجرية، الحجرات التى اتسعت وفاضت، هلاتها المباغثة التى لم أعد لها العدة، هلاتها البطيئة القادمة، زمن سعيى. زمن اقترانى، اقترابى، اجتيازها، الإحاطة بى، نثار مكنوناتى.

هلاتها فى الإصباح، العصارى، تحدد أزمنة وتقصى أوقاتا، لا أقدر على إحصائها، خاصة زمن انقطاع رجائى، توحدى، انفرادى، تلوح فجأة، من جهة لم أتوقعها، وأحيانا من جهتين فى وقت واحد، ومعظم الأوقات من سائر الجهات، يطول إصغائى رنوى إلى المتوهم، إلى ظلال حضورها فيقوى على حتى أوشك على ملامستها، أحيانا أنفر واقفا، ساعيا صوب اللامكان، ما بين يقظتى واكتمال سباتى أسمع حفيفها، حضورها قريبا، أهمى ظلنا منى أنى قادر على تناولها، لمسها، إدراكى الحسى لها، أفيق على هباء فيقوى تهدجى.

أسعى إلى صورها، إلى اللحظات المنتزعة من العدم،
استرجع اللحظات المنقضية لأستوثق فلا أقبض إلا الهباء، أما
هذا العصر فباق، هفا حضورها على، أيقنت إنها نادتنى، أنها
صاحت باسمى من موضع سحيق، أهلت فى أفق وعيى خلال
سكونى وحركتى، انتقالى من عملى إلى بيتى، إلى ركنى فى
المقهى، عند عبورى مدخلا، عند وصولى، عند لقائى بأقران
الفترة، عند تقليبى صفحات، عند مروق الموجودات عبر نوافذ
المركبات، خلال طى المراحل، عند بدء خطوى فوق الطريق
المترب، المرتفع، المغمور برائحة التين والنخيل، والمياه الجارية،
المؤدى إلى بيوت قرىتى، عند رسوى فى المسجد العتيق الذى
أوى إليه قبسا من وقتى، ملتصبا التأمل والانفراد، عند سعوى
لزيارة مراقد أحباب رحلوا، عند جنوحى إلى حافة الضيق،
بلوغى ذروة النصب والعناء، أهفو، أتطلع، أرقب هلة ربما تبزغ
فجأة، مع يقينى التام بانقطاع المصدر..

مايو ١٩٩٠

أماكنها

.....

ليل الهوى يقظان
والحب تررب السهر
والصبر لى خوان
والنوم عن عينى ببادى
يازهرة الأنس
روض المنى منك جـذيب
لولاك لسمم أمـس
فى الدهر والأهل غـريب
نوية العشاق
صنعة توشيح

مستهمل..

.. يشق على ذلك الآن.

توهنتى المحاولة، تنال منى، وعر على استعادة اللحظات كلها فى تتابعها، فى تواليها، إنما أرى كلا منها بمعزل، البعض واضح جلى، أما الأغلب الأعم فغائم، كأنه لم يكن، لم أعبره، لم يعبرنى، كأنه تلك الثقوب السوداء فى جدار الكون حيث ينتفى الزمان والمكان، وإذ توشك الصفحة أن تمحى، وما كان منى يتبدد ويتذرى، أقدم على التدوين، محاولا استعادة ما يوجد الآن، ولكننى لست بالغه، مايمكن لسه والتحقق منه بالعين، حتى إذا تمكنت من أماكنها أسترجع بعضا من ملامح الوقت، فلا يمكن استعادة موضع إلا من خلال لحظة احتوته

واحتواها..

هكذا أقدم، لعل وعسى!

وقوع التماس..

عندى تتداخل الواجهات، تتراص النوافذ المستطيلة التي
تؤطر زوايا شتى لحظات التطلع منها، ولا بد أن بعض من أجهل
رأى أثناء سعيي إلى هذا الموعد.

نواص مؤدية، لافتات معلقة، معرض للزهور، ياقوتي
المدخل، مداخل منطوية على أسرار شتى، أفاريز خشبية، زهور
من حديد، سقف قائم، بوابة فسيحة، فناء مبلط بالحجر القديم،
تطل عليه ثلاثة مبان، قديمة، تمت إلى القرن التاسع عشر،
وربما الثامن عشر، فالعناية مبذولة متصلة حتى لتبدو بعض
البيوت المشيدة منذ ثلاثة قرون كأنها قامت منذ خمسين سنة
أو أقل.

سلالم خشبية، حلزونية التكوين.

كم طابقا ارتقيت؟

لا أدري.

كم درجة سعدت؟

لا يمكن التحديد.

ما أعيه أن مسكن صاحبي فى النهاية، متصل بالسطح، توقفت مرتين خلال طلوعى، الغرفة فسيحة، غالب عليها الظل، حشايا موزعة بدلا من المقاعد.

كم عدد الأصدقاء الذين كانوا فى انتظارى؟

لا أعرف.

حتى ملامح صاحبي تضطرب، تختلط، متوسط القامة، ربيعة، جاد دائما، عرفته خريجا للأزهر، مشغولا بأمور البلاغة، جاء إلى تلك الديار فى بعثة لعدة سنوات، يرجع بعدها إلى بلده. معروف بتعصبه للماركسية، واستشهاده المستمر بنصوص من مصادرها، وقت تدوينى هذا لا أعرف مستقره، أين هو؟، منذ سنوات نمت إلى أنه يعمل بالتدريس، وأنه فصل من الحزب الذى انتمى إليه، بعد خلافات عقائدية دبت، يكتب مقالا هنا أو هناك، لم تدم صلتى به، إذ يطيح بى الحنين أستدعيه ليمثل أمامى، فى أفق وعيى، ألم يكن السبب المؤدى إليها، لو أنه لم يدعنى لما لقيتها، لو أننى تخلفت لسبب ما .. لما عرفتها، لظل وجودها مجهولا عندى، وذلك عين الجهل بذاتى، لأن جوانب شتى عندى لم أقف عليها إلا من خلال تطلعها إلى، وإصغائها إلى كلمى، وحنوها على، وسعيها مخلصا إلى الاتحاد بى.

أحيانا.. رغم انقضاء المدة وتمام الأمر، أخشى تخلفى عن الموعد الذى تم وانقضى منذ سنوات عشر، يخفق قلبى

اضطرابا كأن الخشية من المستقبل الآتى، وليست على الماضى الأقل، إنما تفصيل ذلك يطول، فلا أقصر حتى لا أحميد عن القصد.

انتظرنى صاحبى فى مكان لا أعيه الآن. رصيف المحطة؟ ناصية؟ أمام مقهى صغير كان مقصدا لعدد من المشاهير. لست متيقنا، اختلطت على الموجودات مع أنها مؤدية إليها. ظهورها بدد ماعدها، بزوغها الهادئ، المفاجئ فى فراغ الغرفة الفسيح، لا أظن طرقا تردد، أو جرسا نبه، إنما حطت بفتة. لاحت، شع حضورها الألق، العنبرى النسيم فلم يصلنى إلا أطياها. ابتسامتها الهادئة، الحاضرة على الود، جبينها الأزهر، توقفها عند حافة البساط البربرى الزخرفى، المتسوج فى ريف الغرب ليوضع هنا وتطؤه يوما. انحنائها قليلا حتى تخلع حذاءها، ظهور مقدمة جوربها الأبيض مؤطرا ومحددا أصابع قدميها، تلك التى لثمتها تباعا فيما بعد ومرغت عندهما هامتى إذ أوشك على بلوغ ذروتى، ويتصور أجيحى.

تبدل المكان بظهورها فولج أفقى. استندت بمقدمة ذقنها إلى ركبته، بينما نثت الأخرى كأنها اتخذت مرقبا خفيا تتطلع إلينا منه، قميصها من صوف ناعم، درجة من اللون ياقوتية، لا أتردد فى قبولها، والاستكانة إليها، سروالها من قطيفة سوداء، انثوية القوام، ما بين امتلاء ونحافة، استقامة أنف. وثرأ شفتين مع انبساطهما ورقتهما وحيويتهما إن فى تضامهما، أو

انفراجهما الأسر عند الإصغاء، وجهها المستدير، شبه
المستطيل. عيناها السوداوان، استدارتهما الهندية، وانحرافهما
الصينى، أما العلاقات الخفية بين ملامحها فتسفر عن جمال
خفى يستمر متجها إلى كمال مرتقب مع مضى الوقت، لا أريد
عنها بعينى إلا وأرى تبداً طراً.

أعرف أن الأمور تتحدد عند البدايات. لهذا قوى يقينى
بسعى إليها، ومجيئها صوبى، فى فراغ هذا المكان العلوى
الذى لا أعرف من يشغله الآن، تماست نظراتنا لثوان. لمديدة
قصيرة يستعصى رصدها بقياس الميقات المعروف. مع اتصال
الحوار بين الجمع، تكررت مرات التلاقى بين نظراتنا. بين
قسماتنا، بين ترائينا، بين رحلتى التى انتهت عندها، وظهورها
المكتمل. حتى إذا تبادلنا الاستفسار والجواب ونحن فى إطار
هذا الجمع أيقنت تحقق الخصوصية.

فى هذه الغرفة أشار صاحبى إليها بعد أن قدمنى ناطقاً
اسمها..

- سندس..

لحظة نطقه لاح تطابقه مع حضورها، فلم يكن ممكناً أن
تسمى بغيره. فى تلك الغرفة طقت الشرارة. وأز أوارى. أما ما
يستعصى على الرصد فأشمل وأعم وأبقى من كل مدرك
بالحواس..

الانفراد..

.. درجة عتيقة من سلم حجرى مؤد إلى النهر، عند الطرف الشمالى للجزيرة التى تتوسطه، تتجاور المبانى القديمة التى حوفظ على عتاقتها، هنا يقيم أثرى الأغنياء، ومشاهير الكتاب والرسمين وعازفى الموسيقى، عكس الأمر فى مدينتى، حيث هجر ميسورو الأحوال دروب القاهرة القديمة، ونأوا عنها!

هنا الطرقات ضيقة، والنواصى تؤدى إلى أزمنة متجاوزة بقدر ماتوصل إلى موضع، شارع كان أو ساحة. أبواب من خشب غامق. صلد، بدون أغلاق، فى اللون والتركيب جهامة. لا تفتح إلا لمن يعرف الرموز والأرقام، أما النوافذ فمغلقة، ستائر رهيبة تحجب الأكدار والأفراح والظل والضجر والتوق.

مطاعم صغيرة فى الأزقة الضيقة، خافتة الإضاءة، أنيقة، معروف أنها أعلى مطاعم المدينة، لا يطرقتها إلا العارفون، الذواقة، ليست مقصدا للسياح الأجانب، خاصة أثرياء النفط الذين أعدوا لهم شارعاً عريضاً، فسيحاً فى وسط المدينة، فيه متاجر كبيرة، واجهاتها ملونة، وبضائعها غالية. وأماكن أخرى فيها مبازل كثيرة..

هذا ما أفضت به إلى فيما بعد، وهى تنهى مغاليق المدينة وترشدنى إلى مواطن جمالها، وتقودنى إلى نفائس كنوزها،

الكامن منها والمستتر الذى يصعب الوصول إليه أو معرفته
خلال فترات زياراتى القصيرة.

أزقة الجزيرة. شوارعها الضيقة، نواصيها. انحناءات
شوارعها، تلاقى مبانيها، فراغات ما بين الجدران، حوارات
الواجهات الصامتة، لون الضوء من خلالها، الأيام الرمادية،
والنهارات الساطعة. النهايات المفاجئة غير المتوقعة للطرق
الموصلة كلها إلى النهر من مختلف الجهات، الجزيرة صغيرة،
مساحتها ضيقة لذلك تتلاصق البيوت، إنه الجزء الأثير.
المفضل عندها فى المدينة. تقصدها إذا ألم بها ضيق. إذا
رغبت فى الانفراد، إذا هامت فرحاً، تجلس بالمقاهى
الصغيرة. لكنها فى معظم الأحيان تمضى منفردة إلى ضفة
النهر. خاصة عند تفكيرها أو انشغالها بأمر صعب. أو..

- إذا أردت مقابلة عزيز على..

هكذا صرحت بصوت خافت، متأمل، كأنها تخاطب شخصاً
لا يرى، ولم يكن سوى ماثلاً أمامها، هنا.. طق سرورى، وزج
بى انفعالى!

هذا السلم الحجرى المؤدى إلى النهر مباشرة يرجع تاريخه
إلى القرن الثالث عشر، هذان العمودان المرمرىان كانا قائمين
فى قصر قديم تهدم فى السنوات التالية على الثورة العظمى
التي اجتاحت البلاد منذ قرنين، أحد رؤساء البلدية نقلهما إلى
مدخل الدرج فى نهاية القرن التاسع عشر.

السلم لم يجدد، لم يرمم، تاكلت حوافه، يقولون فى المدينة إنه مشهور بالتنهيدات، ومن فقد عزيزا عليه أن يجىء إلى هنا. يذكره ويتنهد، عندئذ لابد أن يراه فى المنام.

- هذا مكتوب فى الدليل السياحى الصادر بعدة لغات..

- ومع ذلك لم أر أى إنسان عدانا..

قالت إن بعض السكان القدامى أخبروها أنه منذ انتهاء ثورة الشباب نهاية الستينات كف القوم عن التردد.

- إلاى..

- لابد أن من ترغيبين رؤيتهم فى المنام كثيرون..

مدت بصرها إلى بعيد، توشحت بغمام رهيف أومات..

- نعم..

إذ تمتد جلستنا ويطول صمتها، تصبح مدججة بالعزلة. تتطلع إلى مياه النهر الهادئ، المروض. أتابع همس الموجات الهادئ لعلى ألح ماتقرأه. صار الموضع مفضلا بعد اتصال أسبابنا، إذ تطوف هنا وهناك ننتهى إليه أو نبدأ منه، أول انفرادنا كان هناك.

عصر..

وهن النهار وبدأ خفوت الضوء، التقينا عند بداية القنطرة الحجرية، لم يكن وصولى إلى المكان الذى اختارته صعبا على، المتحف الشهير على مقربة.

بكرت. خوفاً وتوقاً، الخوف فمن احتمال فقدان الطريق، أما التوق فإليها، هذا الخفق الذى يسبق الخطأ، وذلك الهرور الداخلى إليها، لكم أسرع، وغالبت الشوق، وكابدت الوقت، كان ذلك قبل ديبب التثاقل، وتقاعس الهمة.

رحت وجئت فوق الجسر، انحنيت متأملاً مياه النهر، الطحالب الخضراء الزلقة الملتصقة بالقوائم، حاولت تخيل اللحظات الأولى، استعدت صوتها عبر الهاتف، لم تبد أذعاراً، لم تتردد، حددت الموعد، وبدأت تشرح لى كيفية وصولى إلى المحطة المؤدية، لم تنس أننى غريب، جاهل بلغة أهل البلاد.

لم أكن أدر الجهة التى ستجىء منها، لكننى خمنت أنها ستصل بالقطار، تطلعت إلى الطريق، إلى الإفريز، إلى الرصيف، إلى واجهات المباني، إلى اللحظات التى أمضيها عند صاحبى، ثم خروجنا معاً والليل غميق، وإبدانى خشية ابتسمت لها، إذ اعتادت العودة متأخرة، إلى المتاجر العتيقة المترامية، المتجاورة على الجانب الآخر. لكن.. صوتها جاءنى مباغتاً من الناحية الأخرى، كانت فى الجزيرة، لماذا؟ كيف؟

فى البداية كنت أسأل حذراً، راغباً فى الإحاطة بكل ما يمت إليها بصلة، ولم أدر اننى أجد أقوى جسورى صوبها.

حتى بدء تلاقى مسارى بمسارها، خبرت وعرفت لحظات لقاء أولى شتى، أنكر من اللواتى أضان حقبا من عمري هلاتهن، يرتبط الظهور بالحضور والتكوين وقوة الرغبة

والسعى، هذا يطول شرحه، لكننى أقول موجزا إننى عرفت ظهورا كالانبثاق، كسطوع نجم جبار فى المجرة، ظهور يعشى فيجب ماعداه، ربما لا يتبقى من علاقة إلا تلك اللحظات، جرى ذلك عندى، إذ غلبت هلات محبوبة لى ماعداها. وألحت على فأقدمت على تدوينها.

عرفت ظهورا كميلاد قطرات الندى، ترى بعد اكتمالها، صعب رصدها أثناء التكوين، وربما توحى قطيرة واحدة، وحيدة، بكون أتم، ثمة آخر يبدأ هادئا ثم يتعالى صخبه، يتدفق، يغمر، إلى هذا ينتمى طلوعها ويتشجج، بل يستمر بعد انصرافها، فكأن حضورها دائم مستمر حتى بعد انقضائه، بعد انقطاعها تضوى وتتجسد أناتها فى ذروة إحساسى بابتعادها.

هكذا.. تعنتقت فى دمي مع مضى السنوات، ومكث منها عندى مالم أعايته لحظات احتوائها لى واحتوائى لها، تمشى مثل الأخرى، تسعى خافتة فى الأسواق. لا تستوقف نظرا، ولا تلفت راصدا. لكن.. بعد وصولها، رسوها، يبدأ وفودها الخفى على مهل، شيئا فشيئا، يتم بزوغها، أما توردها وجنتيها فيتفتح على مهل، ولا حد للاكتمال، لم أكتشف حماس خطوها عندما تقدمتنى عبر الشوارع الضيقة إلا عندما استعدت اللحظات الفانية. كانت أسرع مما اعتدته منها فيما بعد، تقابل الأرض بكعبى حذائها فيطق الصوت المنتظم.

تجاوزت الرصيف المبلط بالحجارة إلى بداية الدرج، أوراق شجر متساقطة، أغصان رفيعة، ذرات غامضة مجهولة المصدر، عندما استقرت جالسة لم تنفض موضعها، إنما مالت قليلا إلى الأمام، بدا صمتها عميقا، مستمرا إلى هذا الوضع ينتمى حنيني، أما العناصر كلها فإليها تنتسب، انحناءة النهر، موجاته، الضفة الأخرى القريبة، الجزيرة التي أدرنا ظهرينا لبيوتها، لنوافذها، لمداخلها المثقلة بالأسرار، الطوابق العلوية، ملامحها تتوزع هنا وهناك، تتعشق بالنواصي، بهبات النسائم عند المفارق، أسترجعها رغم انقضاء المدة فيهن فؤادي. ويشف وجودي، أصير أدق من طيف عابر، تنفر دقات قلبي فأهلع، إذ أصغى إلى نغمة تلمس منى دفائني، تغد على اللحظة بقوة، حتى لأتوهم استعادتها، لكنها تفلت، تذوي، لا أقدر على تأملها حتى، لكن مع مروقها الشهابي تخلف زلزلة عندي وصلصلة!

في ذلك الفراغ، الحيز، عند نقطة منه تماسست يدانا، تكوكت أصابعنا، حتى لم أعد قادرا على تحريك أحدها لو أردت، لتمازجها. أين سبابتي من بنصرها، وأين إبهامها من أوسطي؟ تغامست نظراتنا، وعندما ملت إليها لاقتني ولم تنفر، هل يصد الكوكب جرما أو نيزكا؟ تائها، ضالا، شاردا في الفراغات العلى، انجذب إليه. ليحترق قبل ارتطامه به؟

عند نقطة أخرى من الفراغ تلاققت شفاهنا، عندما تسارعت أنفاسنا، ونأى الوقت عنا، وكدت أمعن، تراجعت، بدت

متوهجة، متقدمة، أعدت الكرة لكنها صددتني بلطف حازم.
نطقت:

- من أنت؟

ثم تساءلت:

- لماذا تسعى إلي؟

ثم رددت:

- ولماذا أسعى اليك؟؟

ثم أتبعته قولاها بهزة من رأسها:

- لماذا؟ مع انى لا أعرفك..

مضيت ببصرى إلى مياه النهر، إلى الضوء الهادئ
الساجى، أطرقت موغلا البصر فى الدرج الحجري الذى
تمنيت الإيواء إليه مرارا فيما تلى ذلك عندما جنّت إلى المدينة،
لكننى لم أجرؤ على الخطو إليه أو فوقه منفردا، نعم.. أستعيده
مرارا، أستكين لهبويه على فى أقاص شتى، ولكن إذ يتحقق
قربى منه أنأى، فلا أقدر على مواجهة ما انقضى وكان لأنه
حى، صاخب عندى وليس فى المتناول.

رفعت بصرى، واجهتها، تطلعت إليها متفرسا، محدقا،
مجتهدا، قالت حائرة:

- ماذا؟

حاولت الإلمام بها، بملامحها، بمصادر سناها والقها،
بمنايع حنانها البادئ، وهشاشتها، وهمس حضورها.

ماذا؟

عندئذ أشرعت أصبعي. صوته تجاهها في تحديد وتعيين
لا لیس فيه، هنا تبددت حيرتها، ولاح مزيج من دهشة وتساؤل،
سمعت رنة صوتها الخاصة المقترنة بلهجة موطنها الشامي:

.. أنا؟

الطريق المؤدى..

.. كنت مقيما في الجانب الشرقي من المدينة، وهي في
الغربي، بعد منتصف الليل، وعبر أسلاك ودوائر معدنية
وأجهزة لا قبل لي بفك طلاسمها أصغيت إلى صوتها يصف
الطريق. كتبت اسم المحطة بحروف عربية، استعدتها مرارا
لجزالة نطقها وفرادته، وبعد تدويني كافة العلامات، بعد
إصغائي إلى جملتها:

.. أنا في انتظارك..

أقلعت مرتين، الأولى من مكاني، والثانية من وقتي، مستوثقا
أن لحظات تأهبي وتوجهي ستضفي على مسيرة عمري أمرا
لا عهد لي به، وهكذا صارت تلك الليلة من ملاجئي الخفية،

أقصدها إذ تفيض بى الكدورات، واستبطئ استعادتها عندما
تتكاثر الهواجم فيهدأ قلبي، ويخف همى.

تطلى إلى القضبان الممتدة تحت الأرض، الألوان المختلفة،
الدوائر الصغيرة المرسومة فوق اللوحة الإرشادية، هذه
الخريطة عرفتها بأحجام شتى، منها الكبير المتصل بمفاتيح
ملونة عند مداخل المحطات، تضغط اسم المحطة فيضئ الذرب
المؤدى، ومنها المستطيل الملصق إلى الجدران الداخلية
للعربات، ومنها الصغير كصفحة كتاب، يوضع فى الحافظة،
ومن هذا احتفظت بواحدة. لكم تطلعت إليها فى لحظات شتى،
أنظر خط المترو الذى كان يصلنى بها، لونه على الورق بنى
غامق، أمرق بالبداية، مستعيدا المدخل القديم، السلم الذى
يرجع إلى بداية القرن، الأشجار المطلة على المدخل والتي تغيب
شيئا فشيئا.

ثم أنتقل ببصرى على الورق، من محطة إلى أخرى، ناطقا
اسم كل منها على مهل، متمنيا أن أقطع وقتا مماثلا لما كنت
أستغرقه فى الواقع، حتى أنتهى إلى الموضع الذى حددته لى
أول ليلة، ثم صار مقصدى فى المرات التالية، عرفته حتى أننى
اعتدت ركوب آخر عربات القطار لمواجهتها المخرج مما يوفر
على قطع بضعة أمتار مشيا، أنحنى متفرسا، مدققا،
مستبصرا الخريطة، متخيلا المداخل والمخارج، المراحل التى
يخرج فيها القطار من النفق، عبوره الجسم المعلق فوق النهر،

المعالم الشهيرة، البرج، الضريح، المتحف. المقاهى القديمة، عازفى الآلات الموسيقية، باعة الزهور، تطالغنى منبئة فى كل صوب فكان هذا لم يوجد إلا للتمهيد إليها. والسعى باتجاهها، فلا يمكن بلوغها بغتة أو مصادفة، لابد من قطع مسافة وارتحال، وقد طال سفرى إليها، سنوات عمرى لم تكن إلا مراحل نحوها، شتى أسفارى، قطعى المسافات القصية، بلوغى المراسى، إقلاعى من الموانئ، ركوبى طائرات تجتاز الفراغات العلاء، سفن صيد تخرج إلى غيبة تطول أمدا غير قصير، فى غرف مغلقة، فى زوايا، فى تكايا هجرها الدراويش منذ زمن، أضرحة، مزارات، أقطار أجهل لغات سكانها، كان سعى إليها شاقا عسرا لكنها.. اليسر كله!

نزلت فوق الرصيف طاويا قصدى، متكتما أمرى، الجدران شبه مقوسة، النصف الأسفل مغطى ببلاطات خزفية زرقاء، العلوى مكسو ببلاطات بيضاء، خريطة توضح المنطقة المحيطة التى سأخرج إليها، لم أتوقف أمامها، لم أستعن بها، إنما كنت أتبع صوتها، دونت ما أملته على، صعدت الدرج القصير، خرجت إلى الفراغ الليلى. المبنى المواجه من طابقين، تحته مخبز، يليه مقهى أغلق أبوابه، متجر للملابس الأطفال، مكتبة قديمة متخصصة فى الأديان المختلفة، يقصدها باحثون من شتى أنحاء العالم، المقهى المطل على ناصية الشارع المخصص للمشاة فقط، الميدان الصغير تتوسطه ساعة ذات أربع واجهات مستديرة، إلى يمين القادم من المحطة يبدأ الطريق، ما من

ملامح محددة، منازل متجاورة، سور مرتفع فى الجانب الآخر،
رقم تسعة، تسعة، التاسع مكرر، مدخل أول يؤدي إلى فناء
صغير، يتوسطه حوض دائرى من رخام يضم زهوراً، فى
المواجهة باب خشبى ذو مصراعين، مصمت، قرب منتصف
الجدار لوحة مضيئة، مفاتيح مستديرة، بحذر أضغط الأرقام
والحروف، أقرأها من الورقة، أسرع بعد سماع الأزيز الخافت
إلى دفع الباب، أجتاز العتبة، رائحة الأماكن الظليلة، مصعد لا
يتسع إلا لشخصين، أضغط الزر الثالث، إلى اليمين، بابها،
آخر مدخل أجتازه صويها، رنة الجرس يمكننى سماعها،
وكانها تنتظر، قبل أن أمد يدي مرة ثانية أنشق مصرعا الباب،
كانت تقف خلفه، وجهها يتطلع إلى مرحبا، هادئا مبتسما..

الآوى..

.. البدايات لا تنسى. كذا النهايات، الحقائق لا تتبدل إلا عند استعادتها، أكابد تجسيد اللحظة بالمخيلة، أهدق فيما لا يمكن لمسه، أدقق فيما يستعصى على غيرى رؤيته، أرى التكوين أحيانا فى مجمله، ومرات أخرى فى تفصيله. وقد أطلع على مالم اللحظة فى أنيته، وربما يغيب عنى ماظننت أنه لن يبيد أبدا.

هذا الحيز ضمنا، بمجرد إغلاق المزلاج صرنا بمفردنا، بمعناى عن كل بصر، وبعيدا عن كل سعى، عدنا بالخليقة إلى بدايتها.

الموجودات كافة فى ضمير الغيب، المؤكد، الأمر الوحيد اليقيني.. تدانينا، تاهبنا، تماهينا، حركتنا فى هذا الحيز.

مدخل مفض إلى صالة صغيرة، ثم غرفة داخلية، يليها

حمام مستطيل، أتمهل، لا.. بل أعود إلى انتظارى القصير فى الخارج، عندما سمعت نكة القفل، ومفارقة السلسلة المعدنية لمربطها، وتقلب مفتاح ثالث، أدركت إلى أى حد تحتاط، تجسدت عندى وحدتها، قاسية، وعرة، عندما فتحت الشطر المتحرك من الباب كان جسدها يختفى خلفه، بينما أطلت برأسها، كان حضورها متضمنا الترحيب والتدثر والحنز والتواطؤ والتفاهم، وتوق إلى ماسيكون! عندما عبرت العتبة الفاصلة هب على حضور خاص، مازلت أعيه لكننى لا أقدر على تحديده أو تعيينه أو نسبته إلى أى من الممكنات، ثم مايستعصى على الذاكرة الاحتفاظ به، مثل الأصوات، الروائح، تلون اللحيظات العابرة بالأحوال، وبرغم صعوبة استدعائها أو تمثيلها فإن قبسا منها إذ يهفو فى أويقات لا أتأهب خلالها للتلقى أو هبوب الحنين، عندئذ ينبعث المكان والزمان، ولكنه سرعان مايفنى.

يشق على استعادة خصوصية المسكن، أعى منه وطأة الظلال، ومثول الانفراد، الوحدة، هذا ما انطبع عندى فى اللحيظات الأولى. وهذا ما ظل مرجعا لى أستند إليه وأتكئ عندما أستعيد الوقت.

جلستها عند حافة الفراش، تسند ذقنها إلى راحتى يديها، تميل إلى أمام، نظرها مسدد فى اتجاه خفى لايبين، تطالعها عبر النافذة المستطيلة، تصل ما بين السقف والأرض، يحد

انفتحتها على الفراغ سور من حديد مفرغ، قصير، ستارة خفيفة لكنها تحجب، مع أنها أكدت لي، هنا لا يتلصص إنسان بالنظر على آخر، تلك اللحظات الأولى. استقرارى فوق الحشية الوثيرة التي فرشت فوق الأرض مباشرة، هكذا اتجهت صوبها، لم أقعد فوق الأريكة الصغيرة، أنثوية المظهر.

مذياع بنى اللون، قديم الطراز فوق منضدة مستديرة، يذكرنى بالحرب العالمية الأولى، أو الثانية، حرب فيها المان وإنجليز وهنود واستراليون، لم أعشها لم تكن وفادتى إلى العالم قد تمت ربما الآن، طرازه يمت إلى حقبة ما بين الحربين، ربما لأنه يشبه مذياعا امتلكه سكان الطابق الأرضى، كنا ننزل عندهم لنختمى من الغارات الجوية، من الشظايا الحائمة، الشاردة، كنا نلتف حوله، الضوء الواهن المنبعث من لوحة الموجات والمفاتيح يضئ الملامح المترقبة، المتحفزة لسماع مايجرى فى فلسطين، مذياع خشبى الصندوق، بنى اللون، مستطيل القاعدة، محذب أعلاه، أسماء المحطات وأرقام الموجات مكتوبة بالانجليزية والعربية، قالت إنها صحبتته معها من الشام، خص والدها زمنا، وإنها لتراه جالسا إلى جواره مصغيا إلى الأخبار أو موسيقى منبعثة من مكان ما، قالت إنه عزيز عليها جدا، فى الركن منضدة، لوح عريض من الخشب بلونه الطبيعى، يستند إلى أربع ركائز، بدون أدراج، فوقه كتب، وعلب داخلها بطاقات، كوب خزفى تبرز منه أقلام عديدة، مختلف ألوانها، وأوراق شتى وحامل خطابات قرب الحافة.

كنت متأثراً بدرجة ماء، أخشى أن أبدو مبتذلاً، أن يسفر
منى ما يعنى سوء الأدب، وهذا من قبيل الفعّال فى مواجهة
المحبوب. لذا كان بصرى موزعاً ما بين الرغبة فى النظر إليها،
والإغضاء خجلاً منها، أما اتقادى وتأججى عند النهر فلا أثر
له هنا، بل صوت هادئ، ألتست على مقربة، ألم أدن؟ أليست
القطوف قريبة.. فلم العجلة التى ربما أدت إلى الخطأ؟

غلب على حنين ما ربما أثاره دفء المكان، وما يعنيه
اجتماعنا على انفراد، وانشغالى بكيفية استعادتى للحظات
عندما تفوتنى وتصبح مستحيلة التناول، عندى أيضاً تهيب ما،
يلازمنى إذ أدنو من مشارف امرأة سيتوحد عالمها بعالمى، ماذا
يجب أن أقوم به؟ كيف أجتاز المسافة الفاصلة؟ رغم قصرها
لكنها أصعب المراحل.

سألت عن موقع المنطقة من المدينة؟ عن المدة المنقضية على
سكنها هنا؟ عن المسافة التى تقطعها يومياً إلى الجامعة، إلى
عملها بعد الظهر. عن إيجار الشقة. نسبته إلى دخلها. أين
تنام؟ بأى غطاء تتدثر؟ متى تظفر؟ على أى ضوء تقرأ؟ متى
تعمل فى أطروحتها، كيف توزع الوقت بين تصحيح كراسات
التلاميذ ومذاكرتها؟ كم ساعة تنام إنن؟

أجابتنى بدقة، بسرور بين، فيما بعد قالت إنها تأثرت جداً
لاهتمامى بها، منذ سنوات طوال، منذ مجيئها إلى هذه القرية
لم يستفسر آخر عن شئونها، ولم يبد مخلوق اهتماماً كما

فعلت. عندما قامت شاهرة قامتها المتوسطة، ومشت مسفرة عن خطوط جسدها التي لا تبرز عبر قميصها وينظرونها، تسالمت خفية عما إذا سبقنى شخص آخر إلى هنا؟ أحقا لم يهتم بها أحد؟ وهل أمضت المدة السابقة وحيدة؟

مرة أخرى بدت خارجة من الغرفة الداخلية، رواؤها المنزلى مضموم إلى جسدها بحزام عليه نقوش صينية، فيما بعد قالت بدون أن أسألها إنها لو لم تصدق إحساسها، لو لم تصغ إلى بعض من سيرتى - أفضى بها صاحبى - لما أقدمت ودعتنى.

عرفت من قبلى آخرين؟، نعم.. لكنهم لم يدخلوا هذا المكان. قعدت متخذة وضعها الذى صار علامة عندى، ودلالة على وقت، وإشارة إلى نعيم!

إحاطتها ركبتيها بيديها. ميلها قليلا، بروز استدارتها، خصرها الهامس، ردفها الثريان، الحكمان، لاتدركهما زيادة ولا ينالهما فتور، نهذاها المتطلعان، ثمارها لم يتطرق إليها شك مع أنها تدنو من الأربعين، تماثلنى، ولدنا العام نفسه، تسبقنى بشهر، جاءت فى أبريل وتبعتهما فى مايو.

نزل على صمت عندما واجهت كينونتتها المترقبة، بدء سفور جمالها بلا حد، تتألق عيناها، تدفق منهما حيوية، نظرت دهشا، راغبا، ساعيا. متعجبا..

- ماذا؟

لكم أستعيد تلك اللحظات التي تجتاز فيها الصلات
فواصل حاسمة، فيتقرر مصير أو تبدأ رحلة، تقدمت صوبها،
كان كل مايمت إلى مؤديا إليها، وكل ماينبعث منها وافدا إلى..

المقهى..

بالتحديد..

هذا المقهى وليس غيره، طلاء المدخل الياقوتى، والنقوش
الفضية على زجاج الأبواب، ومقاعد البسيطة ذات الحضور
الذى يوحى بالإنسان إلى درجة ما!

جنّته معها والصبح باكراً، كنت مجهداً إثر ليلة لم أنم
خلالها، كل ماعرفته جديد على، صعب هجوعى فى مكان لم
ألفه، وإن تأثرت باستكانتها بين ذراعى، حتى أننى أحطتها
متنسماً مشارفها، مع أننى أسعى إلى الوحدة عند المضى إلى
الوسن.

تأويننا كل فى الآخر، رغم تعبى كنت مقبلاً على النهار
الجديد، مستبشراً، متأهباً للصفح الجميل، واثقاً أننى لفترة
طويلة سوف أسترجع واجهات البيوت المطلة، وتساؤلى بدهشة،
كيف يبدو الميدان أفسح مما رأيته عند عبورى ليلاً؟، كيف لم
أنتبه إلى هذا المقهى عند مرورى به؟ كيف لم يخطر ببالى أنه
سوف يستمر معى كعلامة، كإشارة، كباعث ذكرى وحاض

على دفع الدم أسرع، ولهاتئ النبض بمجرء استعءاءة،
بالتءءءء فى تلك اللحظات النهارفة الأولى.

فقق على ناصفة، الجانب الذى اعتءنا الجلوس ففه مظل
على شارع جانبى عتفق، ففر مسموح للعرفاء المرور ففه،
ففوسط بءاففه عموء فجرى قءفم، على جانبفه تظل مطاعم
مفرفة، وصفنفة، وأرمنفة، وأزرففجانفة، وشامفة، وإفرانفة،
وأفغانفة مفروشة بالبسط، وبقالاء فبفع الفلفل والبهاراء
واللبان الجاوى والجبن الأففض الإسءامبولى، والزفءون
واللفمون والفلفل المعءق، مكءباء صفرفة مءخصصة، وأءة
لاءعرض إلا كءبا فى النخفل، وأخرى لا فبفع إلا مؤلفاء عن
الإبل، وثالءة فمكن العءور ففها على أى كءاب ءول الءفاناء
القءفمة، ومكءبة فسعى إلفها كل من فءرس الأحلام وففسفرافها
وآؤولافها.

قالء إن هءه المكءباء بءاء مع الجامعة، القرن السادس
عشر، كان الءى كله لإقامة الطلبة لكن ثمة فغفراف طراء.

اجءزنا المءخل وكاننا اعتءنا المءف معا منذ سنوات طوئلة،
كانء هاءئة جءا، وئفرة الملامع، ناعمة، وعءءما ءنء منا سفءة
المقهى ابءسمنا، ءسنا راسخة، عبءرء أرفعفن على الأقل،
ابءسامءها ءائمة ءءى مع ءماس شفءفها، بفنهما موءة،
ءوارهما فءخاله إعماض عفنفن أسفا، وزم شفءفن، وأءاء
ءسرة أو ءأس.

تشير إلى، تنطق اسمى مجردا، تمد السيدة يدها مرة أخرى، تقول بعد انصرافها إنها تعرفها منذ سبع سنوات، منذ مجيئها إلى هنا، قالت إنه ركنها الأثير. من هنا يمكنها تأمل الساعين على أقدامهم، والميدان، تجيء م:كرة، تشرب قهوتها، تأكل شطيرة أو كعكة، لا يعقبها زاد آخر إلا قرب الغروب في البيت، مابين المدرسة والبيت حوالى ساعة، عملها على فترتين، أما الجامعة فلا تذهب إليها بانتظام، إنما لمقابلة الأستاذ المشرف على الرسالة، يتناقشان بعض الوقت، لا يحدث هذا إلا مرتان أو ثلاث كل شهر.

قالت إنها استغرقت وقتا أطول من المقرر لإعداد الرسالة، كان ممكنا أن تنتهى منها خلال العامين الماضيين، لكن هذا يعنى إلغاء مبرر وجودها، إقامتها هنا، إنها تحصل على التصريح كل سنة لأنها تدرس، لكن بعد الدكتوراة عليها أن ترحل، لا ترغب فى العودة لأن هذا يعنى المخاطرة..

قالت إن شقيقها فى المعتقل منذ ثمان سنوات، إنه مازال حيا لكن لا تدرى ماذا سيصير إليه الوضع، مايمكن أن يحدث لها فظيع.. فظيع، إنها تشارك فى نشاطات المعارضة هنا، نعم.. فى عودتها مخاطرة.

قالت إنها تخطط للاستقرار هنا.

لم تفسر. لم أشأ السؤال عن كل شىء مرة واحدة..

قالت إن أمتع لحظاتها هنا عند سقوط المطر أو الثلج،
ورؤيتها له من وراء الزجاج.

قالت إنها لاتذكر القائل: إن العاصفة تكون جميلة إذا كان
البيت قويا..أدارت فنجان القهوة بين أصابعها، صامتة، لكن
وجهها ضاج بالحيوية، هيئة لم أرها إلا فى ذلك المقهى، لكم
اجتهدت محاولا استعادتها حتى أدركنى الكلل، أحيانا تمرق
أمامى بدون توقع أو تهيبؤ، الصباح الأول، لكم جئنا إلى
الموضع ذاته، عصرا، ظهرا، ليلا، فى أيام الأحد حيث تقفر
الشوارع واليادين، لا أستعيد المقهى إلا عبر هذا الصباح حتى
وان تذكرت حوارا جرى فيه ليلا، فى أقصى البعد أستشعر
سخونة رشفة القهوة التى سرت وأنا أتطلع إليها.

نزلت المدينة فيما بعد سبع مرات ما بين زيارة دامت شهرا،
وأخرى لم تتعد ثلاثة أيام، دائما أسعى إليه، مزارى الخاص،
أمل رؤيتها صدفة، غير أن ذلك لم يحدث قط، مع أننى رأيتها
بدون ترتيب فى أوجنا، بل فى أيامنا الأولى.. بالضبط، فى
مواجهة هذا المقهى.

ذلك أن صاحبنا لى أظهر ودا، عناية، صحبنى إلى ما أجمله
من شوارع الحى القديم، لئنى على واجهات جميلة تنتمى إلى
القرن الثامن عشر، ومداخل بيوت منمنمة، دعانى إلى غداء
بمطعم تونسى عليه إقبال، نويت دعوتها إلى المكان عينه، حتى
استعيده مقترنا بها، رغم طول تجوالى فى المدينة فلم يعلق

عندى إلا ما ارتبط بها. أينما وليت وجهى فى أنحائها يحوم
فكرى حولها، فإما أستعيد لحظات أمضيها. أو حوارا جرى،
أو أتخيلها فى الأماكن التى لم أصحابها إليها، مثل مدرستها،
أو جامعتها، أو متعجلا لحظات ستجمعنا، أو متخيلا العبارات
التي سنتبادلها عند اللقاء، أينعت علاقتنا بسرعة ونما اتصالنا،
كأن وجودى المؤقت يخلق قوانينه الخاصة، فالיום من مدتى
يوازى شهرا إذا قيس بالحالة الطبيعية، كنا نتعرف معا إلى
الموجودات من جديد، وكأننا ندركها لأول مرة، كنا نعتاد
الضوء معا، جسد كل منا يآلف الآخر بسرعة، حتى أن حوارا
بالصمت سرعان ما يتصل بين مسامنا وأطرافنا وجوهنا حتى
إذا أينعنا وتجاوزنا أول حسد الذرة، لم أعد أدري، أهذا
وجودى المادى أو وجودها؟ أهذا جسدها أو جسدى؟ تتداخل
حواسنا، وتنصهر ماديتنا، فينتفى التمييز والفرق وتعدم
المسافات الضئيلة الفاصلة ما بين الأصل والظل، ما بين الغصن
والجذع، لكم استعدت فى غربتى عنها لحظة مولية تنتمى إلى
ذروة الصحبة، فيدركنى ابتهاج، وأوشك أن أبادلها النظر
والخوار والمودة، بل إن وهجا يسرى من روحى إلى جسدى
فأشرع!

فى مشيى الوئيد، فى سعين الحثيث، عند عبور النواصي
والميادين، عند تاهى اجتياز المداخل، عند وصولى أو إقلاعى،
تصبحنى حالة تنبعث دائما فى أوج عشقى، إذ أثق من رؤية
المحبوب لى أينما وليت وجهها، فى شتى حالاتى، يتطلع إلى من

نقطة خفية يستعصى رصدها، علوية، سفلية، لا تستند إلى
يابسة، ولا بناء، ولا نهر ولا بحر. يضىفى على هذا سلوكا
خاصا، وانضباطا، فكل ما يصدر عنى يرقبه الحبيب.

هكذا مضيت مع صاحبى إلى الشارع القديم، قال إننا
سنرى بعض المكتبات القديمة. أخفيت ابتساما ودهشة وشوقا
وحذرا. أما الابتساما فمبعثها حس ساخر، لجهله مجيئى
اليومى إلى تلك الناحية، وإقامتى فى بيت أرى فيه ذاتى لأول
مرة سافرة، كما اننى توقفت مرارا أمام واجهات المكتبات. إذ
أننى أجيء نهارا قبل موعدى بربع، بنصف الساعة، أرغب فى
اتخاذ الحيلة وفى الوصول قبلها حتى يكون من حظى التلقى.

أما الدهشة فلصلتى بالمكان. هل كان خفق قلبى سيتدرد
بهذه القوة لو أنها لم تكن تقييم على مقرية؟ لو أننى لم أسع
إليها هنا، لو أننا لم نتطلع عبر زجاج المقهى؟ هل كنت سأطلع
برفق وحنو إلى المقاعد والمناضد والموضع الذى اعتدناه، حتى
لأتمنى تقبيل كل شبر، والانحناء أمام كل زاوية؟ هل كان
خطوى سيتخذ هذا الإيقاع الذى لم أعتده منى؟

أما الشوق فأليها، والرغبة فى سلوك الطريق صوبها
مباشرة، عبور المكان كله إلى موضعها، إلى أى حيز تتحرك
فيه.

أما الحذر فلخشيتى أن يسفر عنى ماينم على، كنت أرغب
الحديث عنها، وصفها، قص ماجرى على الناس، لكننى كتمت

لأنها لم تبد إشارة الإفضاء والجهر، وما التزامى إلامن عناصر أدبى مع المحبوب. كنت أعرف أن موعد صاحبي يقترب. وأنه سيفارقنى بعد قليل. لابد أن يصحب زوجته طيبة التحاليل بعد انتهاء عملها فى المستشفى الدولى. بقى على لقائنا ساعة وربع. قررت أن أمضيها منفردا فى المقهى.

خطونا تجاه الساحة، توقفنا عند الرصيف، بالضبط أمام الجانب الآخر من المقهى، فجأة.. تبدل الفراغ وتغيرت الكينونة، يتخذ الطريق حضورا مغايرا فيصعب إدراك الأشياء، فى البدء لم أستوعب، لكن بعد اكتمال ورودها على بصرى فهمت.

تقف على الناحية الأخرى من الطريق تضع يديها فى جيبي سترتها، تتطلع إلى، مبتسمة، ابتسامة سوف أراها مستقلة، بمفردها، فى أوقات شتى، ويقاع قصية، لكننى لن أدركها، ولأننى رأيت سناها عرفت أنها شاهدتني قبل أن المحها. لم أنتظر إضاءة اللون الأخضر. عبرت الطريق مسرعا مع خطورة ذلك، وشدة عاقبته. أبدت جزعا ولكننى لم أعبأ..

- لست بمفردك..

استدرت تجاه صاحبي الواقف هناك.

- صاحبي عبد الله.. لم أذكر لك شيئا عنه..

قالت مبتسمة:

- أمور كثيرة لم تفض بها إلى..

قلت:

- الكتاب لا يقرأ مرة واحدة..

عبر صاحبي، بدأ مدركا للأمر، انحنى محييا، التفت إلى..

- إلى الغد..

قال مداعبا:

- لا تعبر واللون الأحمر مضاء مرة أخرى..

لوحث، استدرت تجاهها.

معقول هذا؟

نلتقى صدفة؟

في هذا الموضع بالذات؟

لو أننا لم نلتق، لو أن كل منا يجهل الآخر، كيف كنت
سأتطلع إليها؟ كيف كنت سأرى ملامحها؟ هل كانت ستعبر
للمحة. قد تبقى ملامحها في وعيي لحظات، تعاودني أياما ثم
تغرب، ماذا كان يمكن أن يكون لو أن ماكان لم يكن؟

حدثتني وهي دانية مني، إذ تلامس بمؤخرتها ركبتى وتحيط
عنقى بذراعيها..

- مدخلك.. هو صراعك مع الوقت..

فرجئت بسداد فهمها، ذلك ما استعصى على كثيرين،

كأنها تسفر عني، قبلتها..

- أخشى انقضاء وقتك..

لا مست بمقدمة أصبعها صدرى..

- لا.. إنما تخاف لانقضاء زمنك أنت..

صحيح!

لم أجادل، عندما نطقت كان يشغلني حقا إفلات اللحظات
التي تطويني، تلف كل شيء، انشغالي بلحظة سأقلع فيها نائيا
عنها، عندما تنتهي غربتي الموقوتة بعودتي إلى وطني لتبدأ
غربتي الدائمة.

ما ظننت قط أن المكان واحد والمصائر شتى، حتى قصدت
ذلك المقهى ذات صباح، في الموعد عينه. التوقيت الذي جننته
أول مرة ولكن في زمن مغاير بعد انفصام العرى..

سيدة المقهى بدا عليها وهن، جاءت متباطئة. أعادت ترتيب
الأكواب والمفرش فوق المنضدة، لم أكف عن التطلع إليها لعلها
تلمح، لعلها تعي.

لكم تبادلت معها الحوار المرح الضحك. كنت أناديها:
«كونتيسة» لهيبة مظهرها. وأناقة حضورها. كنت أنطقها
بلهجتي، تصحح صاحبتى، تعيد لفظها كما ينبغي، لكم
سألتنى عن الأهرامات، عن الأقصر، عن بورسعيد، كان أحد

أعمامها يعمل فى شركة القناة قبل التأميم، فى كل مرة تذكر صاحبته التى زارت مصر وأمضت شهرا. تفيض نشاطا إذ ترانا، تتدفق حيوية إذ تلمح تساررنا وتلاقينا!

فى تلك المرة تطلعت إلى منتظرة ما أرغب شربه أو أكله، أيقنت محوى عندها، كأنى غريب يطرق المقهى أول وآخر مرة، عابر ليس ضروريا الاهتمام به.

هل تعرف بانقضاء ماكان بيننا؟

لكنها تروح وتجىء محايدة تماما، بعد لحظات أسأل نفسى: لماذا جئت إلى هنا؟، ماذا أنتظر؟

تتقلقل جلستى، أبدا.. ليس هذا المقهى الذى ألفته يوما، وعرفته. ويا للأسفى.. ليس المقهى بمفرده.

ضيقة الأزقة..

.. وتلك ناصية مؤدية إلى شارع ظليل اجتزناه على مهل، أوله مكتبة متخصصة فى رسائل المشاهير، تعرض صورا منها مغطاة برفائق الزجاج، ثم تتوالى الواجهات الضيقة، والأبواب الحرجة، على الأرفف مجلدات قديمة، وعلب خشبية روسية، وحلى من فضة يمنية، وخزف صينى، وتماثيل خشبية أفريقية، وأقنعة أرتكية، وجلود مغربية، وخشب مطعم من مصر، علقت أول مرة ضاحكة:

- انما اגיע للفرجة..

أشرت إلى علبة سوداء صغيرة، فى حجم راحة اليد، مغطاة
برسوم ألوانها زاهية..

- أسعار مرتفعة جدا..

أومات.

- وهل تجد من يشتريها؟

قالت:

- ولماذا عرضتا إذن.. كثير مما أراه يختفى على الفور..

هذا طريق تسلكه متمهلة، معرض حتى. ترتاده عند
العصاري، فى الأيام التى تخلو من المطر، وتخف أعباء عملها،
أتأبط ذراعها، أو تتعلق بى، إذ تتوقف مطولا أمام واجهة تتطلع
إلى. تبسط أناملها تفد إلى شعري، تلثم وجنتى، أو تميل حتى
يلامس رأسها صدرى. لخشونة أيامى لم أعتد ابداء هذه
الرقعة، أرتبك إزاء حنوها المغدق، قد أنطق كلمتين عبر غمغمة،
أو كلمات لا رابط بينها، أو أولى النظر إلى غير جهة المحبوبة
حتى لا يلوح وهنى ويفتضح أمرى.

لكم استدعيت فى زمن كرى لفتاتها نحوى. فكان مجرد
حضورها بالمخيلة يهدئ أمرى وييسر حالى، فكاننى تزودت من
لحظاتها لآيامى الصعاب. كأنها حضنتنى، حوطنتى بالأسرار
المانعة للأذى وقحط المخيلة، أغدقت على غيثا يروى جدبى حتى

فى غيابها، ما البال إذن لحظة صدوره؟ عند اقترابها وإقبالها. أما إحاطتها لى عند بدء هجوعى فأمر أنوى لو اتسع المدى افراد كتاب خاص أشرح فيه الحال، فلو فتحت الكلام فيه لضاقت العبارة، ولما استوعب الحيز. إنما نويت الآن ذكر كل ما ارتبط بها من أماكن مررنا فيها أو أقمنا بها معا، دافعى إلى ذلك بدء وهنى، واتساع الشقة بيننا، بعد ترددى مرارا على المواضع عينها، فكل أمرى. حتى المخيلة التى اعتصمت بها ملتصقا العون خذلتنى.

أزقة ضيقة، عتيقة، مبللة بندى خفى، مطاعم راسخة. تقدم المأكولات التقليدية، أطباق من الجنوب، أو الشمال. معظمها ينقرض الآن، تنتشر مطاعم الأكل السريع. هذه الشركات الأمريكية!

إنها تحب الطعام الجيد، الغريب، تستمتع به إذا وجد.

وإذا ضعفت الإمكانية؟

قالت:

- أراضى بالمتاح اليسير واستمتعا

قالت أمام واجهة تعرض السجاد التركمانى الغالب عليه لون الياقوت النارى، إنها حريصة على ألا تربط نفسها بعبادة ما حتى لاتجد نفسها عاجزة إذا ماتغير الحال، تعلمت الشبع من القليل، وارتداء مالدبها وليس ماتريد، أن تتمدد أحيانا فوق

الحشية التي تلامس الأرض مباشرة أو فوق السرير، فى أى ظروف يمكنها النوم، منذ مجيئها إلى هنا تقلبت فى ظروف شتى، عملت جليسة أطفال عند أسرة البانيه، وعالمة تليفون فى سفارة دولة عربية، لكنها هجت عندما حاول معظمهم مضاجعتها، وموزعة إعلانات، تطوف المدينة على قدميها لتضع فى صناديق البريد الإعلانات المجانية، وموظفة فى متجر يبيع الأقمشة، وأخيرا.. مدرسة لأطفال المهاجرين، فى بلادها كان والدها ميسورا، مهيب الجانب لماضيه الوطنى، وأشعاره التي قرر بعضها على المدارس، لكن.. بعد اعتقال شقيقها اختلت أمورهم، وتفرق الإخوة فى البلاد، الصغرى فى أمريكا، متزوجة من طبيب، ولكنها ليست سعيدة، واستمرار حياة كهذه خطأ، قالت إن العلاقات تبدأ لتنتهى، وعندما تستنفد مضامينها يجب أن تتوقف، أما استمرارها بعد ذلك فأمر معذب..

قلت إننى أخشى هذه اللهجة.

- ليست الحياة كذلك؟

قلت إن هذا حق، وما تنطقه صدق، ولكن حبنا أبدى.

ضحكت، ابتسامتها الغامضة، المحيرة، القادمة من عمق

صدرها.

- إنن.. أبدى أبدى..

أمام بيت نحيل الواجهة، بارز النواخذ توقفنا.

- تمنيت سكناه..

قلت إن عمارته، وهيئته، وخطوطه توحى بالشجن، لمست
صدرى بأصبعها الذى انبعث فجأة.

- ولهذا السبب أحببته..

ثم قالت:

- عجيب.. كيف أدركت؟

أسفرت عن فرحة أولى، غضة، تلقائية لاتفاقنا فى الرؤية
والاختيار بدون ترتيب، أحببت ردود فعلها فى تقلبات أحوالها
المختلفة، كانت تخف وتشف فى أماكن بعينها، بيتها، الحديقة
الملكية، المقهى. تسفر عن أنثويتها الضاجة إذ تتأبط ذراعى
وتمشى فى هذا الطريق، عرفت منها درجة نادرة من الدلال
السيال الرقراق، لم يلح إلا عند تسكعنا أمام تلك الواجهات،
سرعان ما يختفى ويتبدل بجدية وشجن إذا ولجنا قاعة عرض
لوحات، كانت فى الطابق الأول من بيت ذى شرفات حجرية لا
مثيل لها فى بنايات المدينة، كان على الناصية المؤدية إلى
تلايف من الطرق الضيقة. فى أحدها يقع المنزل الذى يسكنه
صاحبنا هذا، ولكننى مرجئ هذا إلى ما بعد الحدائق، فالأماكن
داخلى لها ترتيب يطابق مايمت إلى، بغض النظر عن محالها
فى الواقع..

حدائق الرغبة..

مهما تبدلت المعالم، لا يمكن أن أضل طريقى إلى هذا المقعد بالذات، بالضبط.. فى مواجهة النافورة الوسطى. على هيئة زهرة لوتس، يتدفق منها الماء بقوة نائرا رذاذه، متحولا إلى أطياف ضوئية، بعد خلو عالمي منها، جئت بمفردى، فعدت فوق مكانها المفضل، رأيت ماكانت تحديق إليه وتصغى، نصاعة الماء، وألق الضوء. اصطدام القطرات المتساقطة ببعضها قبل ملامستها رخام القاعدة. أودعت فى الفراغ أثرا غير مرئى، إلى هنا جاءت لتطوى الوقت وتستدعى المراحل. أيام الأحد والعطلات، تضى ساعة أو ساعتين، عندها يبعث تدفق النافورة راحة، لكننى لم أعرف مثلها عندما سعيت إلى الموضع ذاته فى محاولاتي العائرة اقتنفا، زمنها المندثر، وسعيتى بمفردى لاسترداد أماكن جمعتنا وصاغتنا صياغة أخرى.

فوق هذا المقعد، تطلعت إلى الأمام ساهمة وتبعث نظراتها المهاجرة، ملت عليها قبلتها، تنسمت عبيرها، كانت رائحتها ذكية، خاصة، لا تشبه أى أنثى أخرى، لها مصادرها الخفية المستعصية على الرصد. قالت يوما وهى متجردة، سابحة فى جلال عريها أنها تفضل الروائح الطبيعية، ولا تضع المساحيق، تعتبرها زيفا يجب ألا تلجأ إليه، أما ماثير غثيانها وسخريتها فرجل يصبغ شعره.

هنا رحلت أحدهم من بعيد سعياً إلى معرفة كنه علاقاتها
الماضية، والآنية، أبدأ بالسؤال عن صاحباتها في موطنها
الأصلي، صديقاتها هنا، بحذر أقرب من علاقتها بالرجال،
خاصة هذا الشاب، استفسرت عن مشروعه الدراسي، عن
أوقات تلاقيهما، تطلعت إلى هادئة، لم يفتها اهتمامي، ولم
يغب عنها مصدره..

- تهتم به كثيراً..

- أريد أن أعرف كل شيء عنك..

- عنه أو عني..

- عنك أنت..

تقطع الحوار آبية إلى صمتها الغامض، كنت أخفى
اضطراباً. ساعياً إلى سبر أغوار قد تخفى ما يكريني، ما
أخشاه، راغباً في الوقوف على معرفة حدود علاقاتها
بالآخرين.

عصر أحد قمنا بتجول في الحديقة، وعندما تكاتف الشجر،
وغزر العشب، تمددنا، كنت منتشياً برائحتها التي امتزجت
برائحة الحشائش والأرض غير الممهدة، ارتكزت إلى مرفقي،
فوجئت بعمق عينيها وخصوبة وجنتيها، جمالها المتصاعد في
هدوء كزحف الظل، لا يلحظ إلا بعد اكتماله، وقع امتزاج بين
عناصرى ومكوناتها يستعصى الإفصاح عنه، يجب أى معنى.

بسطت ساعدي تحت خصرها فدغدغني التناقض بين رقته
ومشارف الردفين المثلثين، فككت أزرار قميصها مستقبلا
نفور نهدها الأيسر بشفتي..

- انتظر.. هنا صعب.. صعب..

لم أقدر على الكف، غير عابئ بما يمكن أن يبرز فجأة، لم
يحدث ذلك مني، لكن عبارة مارقة ترددت عندي قالها صاحب
لى أمضى سنوات هنا. قال إن لممارسة الحب فى الغابات
والحدائق شأن آخر.

استدعيت ما رأيته فى شريط سينمائي عندما تجردت
البطلة تماما وراحت ترقص على حافة النهر ملوحة للبحارة
العابرين.

لم أتوقف، أكملت سعيي، وعند لحظة معينة تحولت
مقاومتها إلى مجاوبة، لم أنه عادتى عن التحديق متطلعا فى
أوجي، وجهها حديقة من الرغبة، وتاريخ كامل من ثراء أنثوى
غزير، دفست أنفى ما بين عنقها والكتف. فاتصلت بالأرض،
جذور النباتات، التراب المندى. الهواء النقى المرتد، الزرع
الغامض، الشجر الغامض، ملح جسدها. كنت أحتوى هذا
الموضع كرمز للكوكب كله. وعبثا حاولت الوصول إليه فيما تلى
ذلك، فكأنه تدرى بددا..

غرفة الضوء..

.. لم أعرف ولم أنزل فنادق المدينة، دائما كنت ضيفا على صاحب لى جاء البلاد منذ سنوات وأقام. استقر فى مبنى قديم، فى كل طابق مسكان. ولكل غرفة صغيرة فوق السطح، يقولون إنها غرفة الغسيل، أو لإقامة الخدم، ولكن مع ازدياد حدة السكنى بدأ تأجيرها، خاصة للأجانب، غير أن صاحبي الحميم لم يقدم، وضع فيها فراشا بسيطا، ومنضدة صغيرة ومقعدا، وثبت أرففا إلى الجدار رص فوقها الكتب، وأطلق عليها الصومعة، قال إن المرء يحتاج إلى الوحدة والانفراد بالذات، مرة أو مرتين كل أسبوع يفارق امرأته وابنه طالب الجامعة ويحىء ليمضى ساعتين أو ثلاث، وربما يقضى الليل، عند وصولى يلح على أن أقيم معهم، ولكنه يستجيب لرغبتى. الإقامة فى هذه الغرفة الضيقة، القريبة من السماء، المطلة على المدينة، معظم المعالم الشهيرة تلوح من هنا.

هنا.. تعددت مرات لقائنا، قلت إننى أرغب فى ارتباط المكان بها، بوجودها، بحضورها، ثم اعتدناها معا، كانت تجئ إلى محطة القطار القريبة، أنا المنتظر دائما، كنت أعجب من قدرتها على الوصول فى موعدها بالضبط.

ذات ظهيرة رائقة، بعد تناولنا الغداء فى مطعم صغير قرب الأوبرا، احتسيت نظراتها، وكنت على استعداد لإشهار السلام

مع الدانى والنائى، ونسيان كافة كدوراتى، ومشاحناتى
وخلافاتى، كنت على استعداد للرحيل صوب اللآجهة، حال
غريب لم أعده، مماثل لهواجمها المباغته، تقول فجأة وهى
قربى:

- إننى خائفة..

- من أى شىء؟

- لا أدرى.. لا أعرف..

تنكمش، تزداد اقترابا، لكنها تتقوقع أكثر، قالت إن الخوف
المباغت من الوحدة يفاجئها رغم مضى الأوقات الطوال عليها
منفردة. أحيانا.. إذ تغمض عينيها أثناء غسيل وجهها أو
استحمامها يخيل إليها أن أحدهم يقف خلفها، وأنه على وشك
الانقضاض فجأة، كانت تخشى إغماضة عينين لا يعقبهما
صحو، تخشى موتا طارئا. مفاجئا، بقاء جسدها مسجى فى
البيت الصغير حتى يكشف أمرها مصادفة..، إذ أصغى إلى
ألفاظها القليلة. المضطربة، أضمرها بحنو شفاف فتستكين
تماما. عندئذ أرصد هجرتها صوبى. فأود لو صرت منها فى
موضع مع البيضة من صفارها، أو حدقة العين من سوادها،
إذ تخفى ملامحها فى صدرى تنقلب فى لحظة إلى طفلة وجلة
تخشى عالما مجهولا.

ظهيرة هذا اليوم خرجنا من المطعم، نوسع الخطا فى

الشوارع الخالية، تسبقنى رغبتى. تكاد هيئتى تشى بى، عبرنا
النواصى. صعدا السلاالم الثابتة والمتحركة. وعندما زوينا إلى
المكان المحدد بدا من أمرنا عجباً. نال التعب منا فلم نطق إلا
والليل مكتمل، كانت الحجرة تضاء بأصدااء ألعاب نارية تطلق
للمناسبة ما، أصغيت إلى أنفاسها الهادئة. المنتظمة. تحملت
خدر ساعدى إذ لم أشأ إزعاجها. فوجئت بهمسها فى
الصمت:

- صاحى؟

- نعم.

قالت بهدوء إنها تريد أن توضح أمراً، لا يوجد بينها وبين
أى شخص علاقة خاصة، قالت إنها لاحظت كدرى بعد زيارتنا
إلى ابن بلدتها هذا... بعد صمت يسير. قالت:

- يجب أن تفهم ذلك..

عجبت لهذا التوضيح المفاجئ، المتأخر. استوقفتنى اللهجة
الصارمة تقريبا، أو هكذا بدت، لزمتم صمتى. ولم أستطع
إقصاء صورة هذا الشاب عنى.. جاعنى صوتها فى العتمة
أكثر تحديداً..

- يجب أن تثق بى..

كلماتها كالبرقيات. مركزة. خاطفة، قالت إنها تفهم كل
تلميحاتى. والغرض من استفساراتى، ثم أشارت إلى الفراغ..

- لم يحدث هذا بسرعة إلا معك..

ثم قالت:

- ومادمت معك فمستحيل وجود آخر..

كنت مفاجأ. حائرا. وكان وجود هذا الشاب يدنو منى..

غرفة الصدع..

. عبثا استعادة الطريق الذى سلكناه.

مستحيل تذكره. كأننى راغب فى محوه، لكم مررت
بالمداخل المؤدية والميادين المفضية فلا أستدعيه بفكرى، وربما
مررت أمام المبنى الذى يحوى تلك الغرفة فلم أره.

يوما تقدمتنى مبتهجة. مقبلة. ضاحكة، عندما فتح الباب
الخشبي القائم لم تصافح الشاب الذى بدا فى ملبسه المنزلية،
إنما وضعت يدها فوق كتفه وقبلته مرتين، بادلها اللثم. مرة
على الوجنة اليسرى. وأخرى على اليمنى.

استهجنى ذلك وكتمت، مع علمى إنها عادة مألوفة فى تلك
البلاد، هى منذ سنوات سبع هنا، رصدت بدقة تدفق مرحتها
وسفور بهجتها. توهجها، مد يده متحفظا. قالت:

- حدثك عنه..

التفتت إلى، أمسكت يده، ثم يدي، غطت الاثنتين براحتها.

شبت إلا أنني لم أبدأ، أو استجابة لجياشها. استندت إلى الجدار، حشية فوق الأرض للنوم، مكتب صغير فوقه ملفات وأوراق وكتابتان فقط، وكوب صغير من خزف تطل منه أقلام، ثمة شبه ما بين ترتيب الغرفة هنا، وحجرتها هناك، أعرفها الآن من الظاهر والباطن، ما يرى وما لا يرى منه، الصمت الذي يعبق به الفراغ. الضوء النهاري، وهنه وخفوته بعد أسدال الستائر الشفافة.

حجرته صارمة الأضلاع، أضفى فراغها بعدا مضاعفا، في مواجهة الباب صوان نحيل يصل ما بين الأرض والسقف، فتح جزءا مريعا منه، برز موقد كهربائي، من جزء آخر تناول طبقا به حمص مطحون، وطبقا به قطع من الطماطم المملحة وشرائح باننجان وفلفل أخضر، وضع مقلاة من الصاج، خفق البيضات الست، سعت إلى قالب الزبد. وقطعة الجبن، بيدها اليسرى، مسكت السكين، كانت تكتب بها، وتشير، وتؤكد، تعرف مواضع الأطباق، والملاعق. تتصرف بتلقائية، تقدمت.. أشارت..

فاظنتني صيغة الجمع. حنقت من اعتبارها إياي ضيفهما، بدأ ركود داخلي، لم يرق لي تبسيطهما معا. حوارهما باللهجة الشامية، مأواها ومسقط رأسها هناك. ابن مدينتها، لا بد أن تاريخا طويلا يربطهما، لكن.. إلى أي حد؟

في هذه الغرفة بدأ وسواسي!

كيف تتحدث إليه عندما تجيء بمفردها؟

الحشية المستطيلة، المفرودة فوق الأرض، هل تمددت فوقها؟

هل تجردت هنا؟

فى ليلتنا الأولى معا راحت وجاءت ببساطة، غير خجلى،
وأجهتني مقبلة ومدبرة، مع أنني جلست متكوما وحاولت بسط
ملاءة بيضاء لأخفى ما بدا.

هذا الشاب، هل رأى إغماضة عينيها وعض شفتها السفلى
عند ملامسة مشارف عالمها الحسى. هل تطلع إلى انفراج
فمها المتمهل، ما أثار عندي رعشة المتعة، هل أحكمت ضم
ذراعيها حول خصره، هل أصغى إلى توتر جسدها وانفراجاته
المتوالية عند بلوغها الأوج؟، هل أصغى إلى دعيتها وسكونها
عقب إيوائها إلى الرضى. هل ترددت أهاتها هنا؟

- تبدو شاردا..

استعير ابتسامة من بعيد..

- لماذا لا تاكل؟

قال صاحبها:

- لا تؤاخذن .. إنه أكل الطلبة..

بالعكس!.

حاولت إبداء استحسانى، واستمتاعى به، سألنى عن المدة

التي سأقضيها هنا، نصحني بزيارة متحف الفن الحديث. ثم قال إنه يوجد متحف لكل ما يمكن تخيله هنا، لا أدري كيف تداعى الحوار حتى وصلنا إلى الانتحار. بدأ منفعلا وهو يتحدث عن الموت الإرادى، أفاض. رأيت فى نبراته تكلفا ما، انتبعت إلى تطلعها. إصغائها، هل تشاركه أفكاره؟ قلت لنفسى إنها هموم مجردة لمن يعيشون بعيدا عن أوطانهم.

عند انصرافنا أبدأ أسفه لأن صاحبتة اليونانية لم تأت. ارتبت، هل له صديقه فعلا؟ أو أنه يقصد التمويه؟

عندما فارقت الغرفة تنفست بعمق، كأننى أخرج من قبر. عند الناصية سألتنى عن صمتى. هل بدأ منه ما يضايقنى، هل أخطأت بتقديمه إلى؟ لم أقل إجابة واضحة، إنما تطلعت إلى الخلف. وعندما اختفت البناية لم أستدل عليها، لم أهتد إليها حتى الآن، حتى ملامحها زالت. عبثا حاولت استعادتها عندما دنا موعد زهابها، قالت مبتسمة:

- مالك ؟

- تعرفين أن أيامى هنا محدودة، وأن مدتى قصيرة ما أرجوه أن أراك منفردة..

- تضايقت؟

- لا..

- إنما أردت أن أعرفك بالأقربين حتى ترى عالمى

ضغطت يديها.

- أنت عالم بأكمله.. ما حاجتى إلى الآخرين حتى أعرفك؟

شتات الأماكن..

.. نفرت فجأة واقفة، مرت بشعرها متراجعة إلى الوراء

قليلا.

رأيت كبرياء نهديها واكتمال شموخها..

- تأخرت.

ظننتها ستمضى الليلة إلى جوارى، فى هذه الغرفة المطلة على أفق المدينة أعرف إصرارها الحاد إذا حان وقت انصرافها، لا يمكن إيقافها أو تعطيلها. جلست عند حافة الفراش متطلعا عبر النافذة المفتوحة، مصغيا إلى أصداء المدينة الليلية. فكرت فى اقفرار الشوارع، وخلو محطات المترو. مخاطر محدقة، قمت متأهبا لارتداء ملابسى.

- لا.. لا ترهق نفسك..

قالت إنها اعتادت الحركة بمفردها ليلا، هذا عادى هنا، صحيح.. ثمة مخاطر، لكنها قاصرة على بعض المناطق، طريقها آمن إلى حد ما، تساءلت، كيف سأعرف بوصولها سالمة، الحجرة هنا خلو من هاتف. داعبت شعبرى ضاحكة:

- تقلق على..

أحطت قبتي رديها. أسندت رأسي إلى انبساط بطنها،
كنت جالسا وهي واقفة، أتصور قلقا وشكا وضيقا، بينما
تتعجل انصرافها، مبالغة في إبداء الرقة نحوى.

إنها تقيم بمفردها. ما الفرق بين قضاء الليل هناك أو هنا؟
هل تخفى أمرا، إن صمتها الطويل يحيرنى. تميل على، تقبلنى،
مدركة لبعض ما يدور داخلى، قالت إنها تتمنى ليلة سعيدة،
أصغيت إلى خطواتها المبتعدة فى الممر الخارجى بعد إغلاق
الباب، وأعر وقتى ما يعقب انصرافها. أما انتظاري قدومها
فكان مبعثا لطلاوة وخشية ممتزجة بتوقع جميل، أتطلع إلى
الساعة، الخامسة. قبلها بثوان أو بعدها، مجرد ثوان فارقة.
أصغى إلى وقع خطاها. قصيرة، سريعة، مهموسة، تقابل
الأرض بمقدمة حذائها. لذا كانت تمشى بميل قليل إلى الأمام،
قبل أن تمد يدها لتطرق الباب كنت أبادر متهللا. مفسحا.
مستمتعا بدخولها، قبل اقترابى وبدء تماس مدارينا.

ما من لحظات أبهج من سماع خطواتها المقبلة. وأنا داخل
تلك الغرفة، وما من لحظات مرتبطة بهذا المكان أستعيدها
ففينقبض قلبى ويتمرر وقتى مثل خروجها وإصغائى إلى
ابتعادها، بعد تلك الليلة لم تعد قط إلى الحجرة، إصرارها
حيرنى، لا أدرى كم لبثت جالسا بينما أوار ممض يزداد اتقادا
عندى.

كم انقضى على؟

لم أدر. لكننى لم أعبا بتوغل الليل. وجهلى بدروب المنطقة، فلم أتجول ليلا إلا نادرا، أعى دائما ضعف الغريب، واستهدافه، فارقت الحجرة، على ورقة صغيرة كتبت الحروف والأرقام التى يجب أن أضغطها حتى يفتح الباب الخارجى عند عودتى، أما الخروج فكان ميسورا.

خارج محطة المترو القريبة يوجد هاتف عام.

أدرت القرص سبع مرات. هذا الرقم الذى رددته مرارا، وحفظته ذاكرتى حتى زمن قريب، عندما بدأت بعض أرقامه فى تبادل مواقعها أو المحو.

لا أحد يجيب!

أعدت الكرة أربع مرات. حتى أننى فى المرة الثانية نطقت الأرقام بصوت مرتفع، كلا.. لا يمكن أن أضل عنها.

رنين، رنين، رنين..

أين ذهبت إذن، أين اتجهت؟ لا يمكن أن تهمل الرد، هكذا أخبرتنى عندما أطلعتنى على دقائقها، ولكننا بعد انفرادنا فى الليلة الأولى. أبطلت الجاز، قالت انها لن تستجيب لأى نداء قادم من الخارج، لاتريد إزعاجا من أى مصدر أثناء ممارستنا العشق!، هكذا قالت بوضوح وصراحة، لم يكن عندها ما تخفيه، أو هذا ما توهمته، وما من لفظ تتحرج منه إذا نطقت، غير أن لفظها نادر، شحيح، تطلعت إلى الهاتف بعد محاولتى

الرابعة بأئسا، حانقا، لا أعرف ماذا يجرى فى مكانها هذا؟ هل يرن الجرس فى فراغ يخلو منها؟ أو أخرسته عامدة؟ إذن.. من بصحبته الآن؟ هذه اللحظة بالذات؟

مجرد رؤيتى لها بالخيال راقدة بجوار آخر تدفعنى إلى هذيان مطلق واضطراب جلى، لا أقدر على تخيل حاسة أخرى سوف تتنسم عبيرها، أو أنامل تمر على مسام جسدها، أو تحيط خصرها الهش. عينان يتطلعان إليها من تلك المسافة القريبة؟

عناصر القلقلة تلك. تطيح بى. تدفعنى إلى كل صوب. وتقذفنى إلى كل جهة.

هل أتجه إلى بيتها؟ إلى الشارع الذى أستعيد كل شبر منه، تقطعه مرتين أو أكثر كل يوم. تظهر فى فراغه عند مطلع الصبح وعند مغرب الشمس، تحتل من فراغه حيزا.

أعرف رمز الباب. إذا مافتحت الباب والنعاس يثقلها أبدى اعتذارا، لكم قلقت عند اتصالى بها وانعدام الإجابة. أنطق هذا وعندى شك فى وجود صاحبها بالداخل، ربما أتطلع عبرها، ربما أسألها مباشرة مستعيدا فى تلك اللحظة صراحتها الناصعة. أو أستسلم لاتقاد نيرانى. ألج فراغ الشقة، أستمر حتى الحجرة الداخلية. لا أعرف ردود أفعالى لو أننى رأيت هذا الشاب أو غيره، هل أنهار باكيا أو أتطلع إليها بقسوة، لم أختر بالدقة رد فعلى المتخيل.

كيف انقضت تلك الليلة؟

هذا ما يثقل على استعادته. وإن كنت أثق أنها نقطة من معالم تحويلات مسارى. عند الفجر عدت إلى الغرفة. لكم بدت ضيقة. لم تكن تخصنى، أو تخصها. ولكنها تنتسب إليها فى كل مرة أستعيد فراغها المحدود، وحضورها قريبي. وأقبالها على، وحديها. وإصغاءها. وإيماءاتها. وتلك الدموع التى سحتها فجأة. ذات عصر على غير توقع، لماذا بكنت؟ لماذا لم تجب عن تساؤلاتى. لماذا تألق حزنها بقية اليوم كماسة سوداء؟ بعد انتفاء إمكانية لقائها، استحالة الاجتماع. سعيت إلى كل موضع وطنناه معا عدا مسكنها، مررت بأطوار عديدة. فى البداية خشيت مجرد الطواف أو الدنو من مقهى جلسنا فيه معا أو قاعة أصغينا فيها إلى عزف، أو حديقة تنسنا فيها العبير. كنت أوهى من تحمل التدايعيات، حتى غرفة صاحبي نأيت عنها، واعتذرت له بأمر شتى. وبعد مرور الوقت، ومع تكرار مجيئى خفت موانعى فسعيت. حمت حول بيتها وأنا لا أعرف إذا كانت مقيمة فيه أو فارقته، أمضيت أوقانا طويلة فى المقهى، وعندما جهلتنى صاحبتة أنكسر عندى أمر أجهله. فلم أعد أعبأ بالتردد عليه، لم يعد المقهى هو عينه، ولا الطرق التى قطعناها معا. ولا الواجهات التى تأملنا محتوياتها. ولا الزوايا التى اخترنا الجلوس فيها داخل المطاعم التى ارتدناها. وعبادة طبيب الأسنان فى المبنى العتيق.

وصحبتى لها عند زهابها إليه. والمصعد الضيق الذى ضمنا، رغم اعتيادى والفتى كانت أماكنها تبدو مغايرة، قصية،

من رحم .. إلى رحم ..

ملكتم فؤادى فصار الهوى
على رقيب ، رقيب ، رقيب ،
فلا تقتلونى كذا عامدا
لانى كئيب كئيب كئيب
وان كان لابد من قتله..
فقولوا غريب غريب غريب
متى يجمع الله شملى بكم
فقولوا قريب قريب قريب

من موسيقى الآلة المغربية

نوبة العشاق . صنعة متقارب

(خروج)

وصول..

«شتاء لم نعرفه منذ أربعين سنة أو أكثر..»

لم يتوقف عن تدوين السطور المعتادة، متجاهلا الفضول البادى عند موظف الاستقبال ذى الشارب الكث. الاسم الثلاثى، تاريخ ومحل الميلاد، الجنسية، تاريخ الوصول إلى الأردن، عنوانه فى مصر..

«تاريخ المغادرة؟»

يتردد لحظات قبل أن يكتب: أسبوع!

لا يعرف المدة التى سيقضيها، لكنه فى كل الأحوال لن يتجاوز الأيام العشرة، ليلة واحدة فقط سيمضيها بمفرده، غدا قبل انتصاف النهار ستقف هنا لتدون تلك المعلومات ولكن بلغة أخرى، حقيبتها على مقربة، سينظر أصابعها النحيلة،

المتناسقة. المتلامسة، المنفرجة أحيانا. المتضامة حول القلم، يتخيل سرحاتها عند العناق فوق سطح ظهره، يسرى خدر، توقع بالمباهج التي استدعاها شهورا طويلة على البعد القصى، وربما تنظر إليه بغتة، سرعان ما تنقلب نظرتها إلى تأمل متمهل، وأعد، بها يبدأ السعى، وإليها القصد، يعيد الالتفات إلى الصخور المتراكمة الموغلة فى العنقاة البادية عبر الواجهة الزجاجية، قطعاً ستتجه إليها مباشرة، انفعالاتها متأججة، حادة، متدفقة حتى لينطوى أمامها أحيانا غير قادر على احتوائها، أو التجاوب معها، كأنها ترحل أول مرة، مع أنها جابت الكوكب تقريبا.

بدا من الغد سيكون معها بمعزل، بمنأى، بعيدان عن كل نظام، يكتشفان معا ما بداخلهما. المكان الموجل فى الصخور الأزلية، ما لن يبصره ستراه، وما لن تلحظه سيلفت نظرها إليه، منذ اقتراب موعد سفره الذى حدداه معا عبر الهاتف وحضورها يقوى قربه، مرة تتطلع إليه من الصحراء التى شطرها الطريق الفسيح، ومرة من خلال الوديان والمرتفعات المغطاة بالثلوج، أو عبر الغمام الذى سبحت الطائرة خلاله. بدا اقتران اللون الأبيض بصفرة الرمال والسفوح الجرداء استثنائيا غريبا عنده، يبدو الجليد منطقيا فى موطنها الشمالى، لكن هنا؟!

الصفور..

ياه..

لو أنها بجواره الآن، لو تم وصولهما معا، أى دهشة تبديها لحظة ازاحة الستارة عن النافذة الممتدة بعرض الغرفة؟

أى عبارات تصيح بها؟

من هنا يمكنه رؤية مساحة أكبر من تلك التى طالعها عبر الطابق الأول، لم تفقد براءة الاكتشاف قط، حتى أنها تواجه صباح كل يوم فى مدينتها وكأنه أول نهار يطلع عليها فى الدنيا.

لن ينسى أبدا توقفها المشدوه، المأخوذ، أمام سبيل عبد الرحمن كتحذا، توقفت فجأة ثم خطت متمهلة. استقرت عند مدخل درب قرمز المواجه.

قعدت فوق حجر ناء عبر الزمن القديم، لامست ذقنها بأصابعها، رحلت إلى الواجهة بصمتها، بتحديثها، إلى المقرنصات، الزخارف، الزوايا، الأغصان المجردة، أشارت إلى الآيات القرآنية المحفورة، الملطقة، المتعانقة فوق الواجهة..

«هذه ليست كتابة»

قالت بيقين:

– «إنها عبادة»

لم يعلق إنما أخذ عنها رؤيتها إلى الأشياء، وتعلم أن يرى الجمال المتفرد حيث لا يتوقعه إنسان، يثق أنها لو كانت بمفردها لتحدثت إلى الجماد معبرة عن انطباعاتها. إذا كتبت ولم تصرح فإنها تدون.

هذا الدفتر الصغير الذى تمسك به أحيانا لتثبت ما تخشى فقدانه من ذكورتها، ما يفلت، ما يصعب عليها حفظه، تكتب بيدها اليسرى، عندئذ ينشأ تكوين مغاير لكل ما يعرف. لكم استعادته متمهلا، متمعنا، مرفقا بالغوامض المستعصية على التفسير والتي لم تدركها عنه إلا هي. من تلك السطور، المفردات، الرموز، الإشارات، تصيغ ما تكتبه، ما تنشره عن أسفارها فى تلك المجلة التى لا يمكنه قراءة مضمونها لجهله بلغتها واستغلاقتها عليه.

قبل ساعات من مغادرتها القاهرة جثا أمامها، كانت منحنية إلى الأمام، تحديق منطلقة إلى داخله مباشرة. كان يبذل الجهد والمحاولة لتثبيت كافة ماسيفقده.

– «السفر موت أصغر..»

قالت هامسة:

– «لولا الإقلاع لما كان الوصول»

هز رأسه متأسيا شاكيا، مرددا:

– «الرحيل موت بالحياة.»

ضغطت يديه.

.. «لولا السفر لما التقيتكم..»

طالعها بملامح أسيانة مثقلة بمثلها عنده وملامحها التي تهمل عليه، محاولته التثبيت بلحظات آنية مولية، يود لو أنشب نفسه فيها، أن ينقشها على ذاكرته، أن تتحول للحظات إلى صخر يبقى ولا يفنى، يستعصى على الاندثار، على الفقد. لكم خشى لحظات آنية قد يبدأ عندها النسيان!

حاول أن يثبت عبيرها الخاص المنبعث من شعرها، من مسامها، من ثناياها، كينونتها، استسلمت لطقوسه الخاصة، حتى ملابسها احتضنها وقبلها.

«وما يمر بي يستعصى على لفظي.. لغتي لا تساعدني.»

يدكها الشجى.

«لا معنى لأى لغة الآن.»

تطوقه.

«تكلم بالعربية..»

يتداخل اللفظ باللفظ، يرتج عليه الأمر، فى ذروة اندماجهما، إيغال كل منهما عبر الآخر، لا تغيب عنه اللحظات التى سيقع فيها الافتراق. عندما تتحول النشوة المادية إلى صور للذاكرة، ترداد:

- «عش لحظتنا».

يقول:

- «لكنها فانية.. مولية»

يطيل النظر إلى الصخور المتراكمة منذ الأزل، تكوينات غارية، يتصل الصخر الجهم وينفصل، يتضام ويتفرق، قباب مضغوطة، ملامح آدمية ناقصة ومكتملة تحد الأفق، داخلها تترقد المدينة القديمة.

لا يمكن رؤية ملامحها من هنا، لابد من عبور السيق، عندما سمع الاسم أول مرة، قال مصححا:

- «الشق»

هن الموظف كث الشارب رأسه.

- «ماذا يعنى ذلك؟»

- «لا أدرى.. ولدنا لنجدهم يسمون الممر الصعب هكذا..»

سيمضى بصحبتها عبره. سيكتشف الأطلال القديمة معها. فى القاهرة كان دليلها. وفى مدينتها تقدمته عبر دروب جهلها وقادته للوقوف أمام معالم لم يعرفها إلا فى الكتب والأفلام السينمائية، هنا.. سيكتشفان معا البترا، سيرى ما تراه لأول مرة. منذ سبعة شهور وأربعة أيام لم يتضاما، لم يرها، لم يلتقيا، يخفق قلبه، ينتشى إذ يستعيد الإيقاع القديم،

ظن أنه ولى، لن يسترجعه مع تقدم العمر، زمن فتوته الأول،
عندما كانت ظروفه أشق، أصعب، لكن إذ يمضى إلى لقاء
محبوبة تعلق بها يشف ويخف حتى ليكاد يمضى على الماء.

أمامه وقت اليوم، لكنه لن يمضى إلى المدينة القديمة، لن
يعبر السيق بمفرده، منذ افتراقهما أضيف إلى عمره مقدار،
إلى عمرها، زمن اكتمل بمنأى عنه.

إلى كل بلد رحلت إليه خلت بنفسها وخطت سطوراً إليه.
من خلال كلماتها يرى ذاته من جديد، عندما أخبرته بمشروع
قدومها إلى البتراء أبدى استعداداً، أخبرها بإمكانية تدبير
أمره، منذ ثلاثة شهور يتطلع إلى لحظة ظهورها المرتقب، إلى
لقائهما هنا، إلى أيام يقضيها بصحبتها تطيل أجله المقدر،
تضيف إليه حتى مع نقصه، بحيوتها، بدهشتها البكر، بفيضها
الأنثوى المرتقب. بمرحها المبالغت، بجوهر طفولتها الذى لم ينل
منه الوقت!

هنا سيحقق معها ما رغبته، ما صرحت به، ما قابله وقتئذ
بدهشة وخوف، الآن أصبح متهيئاً للقبول.

فى مدينتها، فى ذلك المقهى الصباحى المطل على النهر
المروض بدت صامتة. يعرف ملامحها عندما تنوى الإفضاء
بأمر صعب، أو شئ تخجل منه. بقدر رغبته فى إطالة لحظات
حياتها الانثوى بقدر تعجله سماعها والإصغاء التام، لامست
يده بأصابعها. قالت:

- «تعرف أننى لم أنجب من زوجى...»

أصغى.

- «وتعرف أننى بعد ثلاثة أو أربعة أعوام سأبلغ مرحلة

يصعب فيها ذلك...»

استعاد صحبته لأمه منذ حوالى ربع قرن، جلس فى
مواجهتها عند الطبيب الذى بدأ يستفسر عن أعراض المرض،
ثم سألها عن العادة الشهرية، فردت فى صوت خافت جدا:
إنها منقطعة منذ عامين، يومها انتابته دهشة، إذ يقف على أمر
خاص جدا يتعلق بأمه مصادفة: دخولها سن اليأس!

تسارعت دقات قلبه، ضغطت يده.

- «أريد طفلا منك...»

يقترّب من النافذة، مبتعدا عن وسط الغرفة يميل مستندا
الى الحد المعدنى الداخلى، ملصقا وجهه بالزجاج المحكم،
تماما كما فعلت عندما تطلعت إلى حديقة البيت المملوكى عبر
المشربية. سور الفندق من حجر ورسى، يبدو حمام السباحة
ضيقا طارنا على المكان، يتجاوزه إلى الصخور الوعرة،
ستحويها بالبصر غدا، سيصبح لتلك التكوينات الهائلة بعدا
مغايرا.

هذه التراكمات الصماء، تضج بحركة يصعب إدراكها،
منتمية إلى أزل سحيق، أكثر مواضع الكوكب شيخوخة
وحيوية.

أين قرأ أن المكان زمن تجمد أما الوقت فمكان يسيل
باستمرار؟ يتغير، ما هذه الصخور إلا قرون بلا حصر، طبقات
عديدة من أزمنة يستحيل إدراكها، يتابع طيوراً دقيقة الحجم
فجأة في الفراغ المتاح له رؤيته، ترتفع إلى علو شاهق، تغيب
عنه يقين خفى أنها تبصره من مكان ما، خفى. أن ملامحها
موزعة هنا وهناك، تتجاوز الأفق، حضورها الخفى الملازم،
المستمر، المصاحب له منذ مفارقتها ماديتها المحسوسة،
ملاحمها الماثلة.

عندما تجيء غدا يتصل وقتها القديم بلحظات قدمها،
بأيامها هنا، أما ما يفصل، ما لم يقضيه معا فلا محل له ولا
شأن، هكذا قدراً!

ينثنى متأملاً الغرفة، هذا الفراغ سيحتويهما، ما موقعه
بالنسبة للشمس؟ للمجرة؟ للكون؟ إلام سيستحيل بعد فناء
المنظومة وتذرى الكواكب في الفضاء السحيق؟

لكل وجود حد، حتى الزمن له انقضاء. فأين سترسوم
ذراتهما المتبقية؟ وهل تتعرف واحدة إلى الأخرى؟ أين مصير
الصبوات والحنين؟ إذا كان العدم سيطوى ما يلمس ويدرك
بالحواس، فهل سيبقى ما يستحيل رصده أو التعلق به؟

غدا.. بمجرد توجدهما، يسعى كل منهما إلى الآخر، يلتئم
شطراهما لحظة تواجدهما، يخبرها بما استقر عليه، اقتناعه بما
أبدته، لا يمكنه تخيل رد فعلها.

أخبرها ببعض مما عنده:

- «إنى هرم».

ابتسمت:

- «تفيض حيوية، لكنك تتعجل الكهولة».

لا يصرح بشعوره الأتقم، يقينه أن ما مضى أكثر مما يبقى. إن الحد النهائي ربما يكمن فى اللحظة التالية، إن سعيه سوف يبطل وما من أمل موجود بعده، أما نفاذه مع الواقع فمتزايد، سيقول إن رسوه عندها منج، يستمد من فوراتها جذوة وتوقدا.

على البعد يستحضرها فيحن، يهدأ إلى حين، إنما هى عنصر مصالحة، حتى فى بعدها واستحالة الظرف المواتى. يفتح حقيقته، يرتب حاجاته. الملابس فى الصوان، كتبه وأوراقه فوق المنضدة المجاورة السرير.

كوب ماء يحرص دائما على وضعه قريبا. قالت إن حرصى على الماء يعنى حاجتى إلى الأمان، عندما زارت بلدا أفريقيا على حافة الصحراء الكبرى قدموا إليها الماء، علامة أمن وطمأنينة، ونزولها من قلوبهم موقعا مكينا، ولطرد الأرواح الشريرة أثناء نومها.

قال إنه لا يعرف هذا كله، لكنه يستيقظ ليلا وجفاف حلقه

ممض.

تضم شفيتها، تغمض عينيها، يكتسب وجهها تفرداً وملاحة خاصة، قالت: أنت تؤكد ما أقول.

كيف يستقبلها غدا؟، لا يعرف موعد وصولها على وجه التحديد، هل يجلس إلى إحدى الأرائك الوثيرة المواجهة للمدخل؟ إذ يلمحها، يخرج غير عابئ بأى نظر، لن يقبلها، مجرد مصافحة، أما العناق فمؤجل إلى الانفراد.

لا.. بل قبلة سريعة ثم تخلل أصابعه لأصابعها، يصحبها إلى مكتب الاستقبال، غرفة مجاورة بقدر الإمكان، الفندق شبه خال، للتوقع لذة. وللاستعادة حسرة، أما اللقاء فممنقض حتى فى آنيته، هذا ما تدركه عنه، لحظة دخولها مجالاً بصرياً يكسوه جمود ناطق، يرجى متعة الانفراد، قال يوماً:

- «لا أتكلم كثيراً، لكن .. عندي فيض غزير».

مسدت شعره، قالت:

- «أحسك فلا تأس..»

يصغى إلى أزيز جهاز التكييف، يبتث دفئاً، تنبئ حدة الفراغ ومثول الصخور عن حدة البرد، تلك متعته القديمة، أن يرى المطر من خلف زجاج مقهى أو نافذة بيت.

رغم البرودة المتوقعة أغلق الجهاز، ضجيج الخفى يفسد عتاقة المكان، أنفاسه ستدفع الفراغ المحدود، غدا.. يستمد حرارته منها، يواجهان هذا الطلل الأبدى متعانقين، عاريين كما جاء إلى الحياة الدنيا.

فى المرة الأولى لم يفارقه خجله، فى العرى ضعف ما، وهن
إنسانى لا يطيقه، أما هى فتحركت بطلاقة مفصحة، خرجت
إلى صالة بيتها الصغيرة، متناثر فيها أوان معدنية وأخرى
خزفية، تماثيل وأقنعة من جهات شتى حطت فيها أثناء
ترحالها، قرب المدخل علقت إلى الجدار صفا طويلا من أوعية
إعداد القهوة متدرجة الأحجام، مختلفة الأشكال. أنية
موريتانية، أخرى من سيناء، ثلاثة من حضرموت، رابعة من
مسينا الصقلية، خامسة روسية، تفضل القهوة على الطريقة
التركية، تهيم بالبن المخلوط بالحبهان وأعشاب غامضة، زيوت
محفوظة فى قوارير من زجاج منمق. خلطة يتقنها رجل عجوز
فى متجر لا يتسع إلا لجسده الضامر عند مدخل شارع
المغربلين، رائحة البن القوية الفريدة تدل عليه من أماكن بعيدة.
عند وصوله مدينتها استنشقت العبير من الحقيقية. صفقت.
تهللت. لكنه عندما رآها تبتلع ملء ملعقة بنا مطحونا. تسفه
سفا. أبدى جزعا. قال إن هذا مضر جدا بالكلى.

«لآخر مرة!»

إشارة أصبعها الطفولية، كانت عارية إلا من أيامها
ولحظاتها، سيضع جسدها الفاره هنا غدا، سترك كل منهما
أثرا لا يمكن رصده، ربما جاء يوما من يسعى فى أثر الذين
كانوا، عندئذ يكتشف أمرهما الذى كان!

قالت:

«إن جسدهك جميل».

ثم قالت:

«ومتناسق..»

ثم تساءلت:

«لماذا تخجل؟»

قالت:

«حقا.. إن جسدي متناسق، قوی»

دهش. سمع مثل ذلك يوما ولكن في لغته من محبوبة انقطع عهده بها، يرد طيفها عليه في أوقات متباعدة، كأن ما اتصل، بينهما وظنه لن يبيد أبدا يخص كائنا غيره، كأنه لم يكن بينهما أمر، هل سيتذكر لحظاته تلك من نفس الموقع.. لكن قبل اكتمال تساؤله هذا، يجمع إلى خاطر يقضه: هل ينتظره مقدار يوازى ما انقضى على الزمن القديم؟ أكثر من ستة وعشرين سنة مرت منذ أن تقطعت الأواصر، وخدمت الجذوة، هل سيقطع عين المسافة في رحم الحياة؟، لو اكتمل ذلك، كيف سيرى لحظاته الآن.

هل يسخر عندئذ لإقدامه على السفر إلى بلد ينزله أول مرة، ثم يتجه مباشرة إلى الجنوب، إلى جبال الشوبك، إلى وادي موسى ليجاور البتراء؟

«أي خواطر تلك؟»

يردد قولها المتكرر:

«عش اللحظة».

يتمدد، يمكنه رؤية الصخور راقدا، كلما ولى البصر كأنه يراها أول مرة، لا يفارقه اليقين أنها تكمن فى موضع ما، عند تلك الانفراجات، هذه الشقوق. المرات البادية والخفية، لا يعرف أسبابا مباشرة لخجله من اكتمال عريه، ربما لتحذيرات والدته المستمرة عندما كان صغيرا، أن يحذر خلع ملبسه أمام الآخرين. أن يغلق الباب جيدا إذا دخل دورة المياه فى المدرسة. أن يحذر الأكبر منه سنا. كانت تصرخ ولا تلمح، مع تقدم الزمن عرف أن هاجسها وقتئذ حماية مؤخرته، أو كما سمع والده يحدثها عن ابن أحد الجيران الذى استدرجه حارس الفرن الأفرنجى القريب وضحك عليه!

«فى العرى المكتمل إثم ما؟»

«ربما».

حدثها عن أيام المعتقل، خاصة فترات التحقيقات المتوالية، إذ تفتح الزنزانة فجأة، يقف الضابط اخضر العينين ممسكا عصا غليظة، يصدر أمرا بالتجرد تماما، فإذا صدر الامتناع جرى التنفيذ قسرا، لحظة خلع القطعة الأخيرة يقترب، يعمن النظر، ثم يشهر عصاه هاويا فوق الكينونة العزلاء كيفما أنفق، عندئذ يتم عصب العينين، لم يكن همه متجها صوب الضربة

المباغثة أو الحاجز الذى يمكن الاصطدام به أثناء الجرى صوب
اللاجهه بينما يستمر اصطدام العصى بالجسد المكشوف، إنما
كان همه أن يستمر ما بين فخديه بيديه، يقول:
«لا يتم اختيار ضباط التعذيب عبثاً».

يقول:

«كلما استعدت ذلك يتجدد غضبى»

يضم قبضة يده.

«كنت عفياً، قادراً على المقاومة».

تميل مقتربة منه، تبدى الإصغاء العميق حتى تتردد
أنفاسها فوق مسام صدره.. يقول:

«كان اليقين مكتملاً بقدرتنا على تغيير العالم».

ثم يضحك ساخراً:

«لكن العالم غيرنا».

يلتفت إلى السرير المجاور، كأنه يتوقع رؤيتها، تضم
ركبتيها، تسند ذقنها إليهما، وضع إصغائها الأمل، ومصدر
طق شروره، انحدر صوبها بفتة. تهمس داعية غير ناهية..

«كن رقيقاً».

يستنفره الهمس، يتبدل للتو.

«إنى طوعك».

على مهل يعبر اللاجهة، الحد الفاصل بين اليقظة والنوم،
سفر طويل، خروجه فجرا، إجراءات المغادرة، نظرات رجال
الأمن المستريية، انتقاله مباشرة من عمان إلى وادي موسى،
حرصه على إجابة تساؤلات السائق، يوضح القصد من
وصوله لمن يفضى إليهم بما يسمعه، حذر قديم متأصل
واستراتيجية دائمة، هذا الرجل متوسط العمر، البدين قليلا،
رأسه، قال:

«معك حق.. يجيء الأجنب من آخر الدنيا ونحن لا نعرف
البتراء كما ينبغي!»

شاب يعرفه في المطعم شبه الخالي، لكنه لا يذكر ملامحه.
ينتقل بين المناضد، ينظف أطباقا، يبذل الدوايق الفارغة بأخرى
ممتلئة، يخدم زبائن لم يصلوا بعد.

حارس صعيدي، طويل القامة، يوصى بنزول السلم
الحلزونى الحديدى الضيق بحذر، تتقدمه صوب المقبرة الواقعة
على عمق مائة متر، عند المنعطفات الحادة تغيب عنه، يناديها،
تتردد أصداً نطقها، تفرد طبقاتها، يتلاشى الضوء، يطول
ترقبه.

يناديها.

ما من إجابة أو صدى!

يصحو متلاحق الأنفاس، كم انقضى؟

العتمة مطبقة، الصخر اندمج بظلمة الليل، كم غسق توالى
عليه منذ اكتماله؟ منذ استواء الهيئة؟، تدهمه وحدة، يتوق إلى
التواجد فى جمع.. قوى، أين هى الآن؟

ترتب حاجاتها؟

تجلس بمفردها فى الزاوية التى اعتادا ارتيادها بالمقهى؟

هل يتصل بالمطار؟

. لكنه يخشى سماع إجابة محبطة. عبر المذيع قال رجل
وقور الصوت. إن منخفضاً جويًا يتمركز الآن شرق قبرص،
يتحرك باتجاه المنطقة، أما العواصف المتوقعة فمن المنتظر ألا
تكون فى عنف السابقة، طالب المواطنين بالحذر، أكد استنفار
الأجهزة المعنية لتوفير احتياجات المواطنين، بدأ يذكر الطرق
السالكة، والمغلقة، والتى يصعب مرور المركبات الصغيرة بها،
عندما قال إن حركة الطيران تعمل بشكل طبيعى، قام واقفاً.

هذا ما انتظره، ما يعنيه الآن، ارتدى ملابسه بسرعة وكأنه
تخلف عن موعد هام، فارق الغرفة، لا يدرى إلى أين؟

.. الليل ..

.. يواجه الفراغ الليلي البارد، الأضواء المتناثرة المتدرجة
على سفح الجبل المرتفع، المثل، المشرف.

خطاه فسيحة مسرعة، كأنه يحرص اللحاق بشيء ما، يريد بلوغ المنحنى بسرعة، يعرف أن عينى الحارس الواقف خلف الباب الزجاجى تتبعاعنه، يعمن مستكشفا، ليس بحاجة إلى تثبيت علامات فى ذاكرته، المبانى قليلة، والفندق من علامات المنطقة.

أصوات فتیان ..

يلعبون الكرة، فى نهاية لهوهم، قال موظف الاستقبال الذى بدا ودودا إن الناحية آمنة، بعض الأجانب يفضلون دخول السيق ليلا، يقضون ليلتهم فى أعلى التلال الصخرية، داخل المغارات الأزلية، المسكونة. نعم.. عائلات تقيم بها. سكان المنطقة، اسمهم «البدول».

«من أين جاءوا؟»

لم يجب بشكل قاطع، لكنه من غير المؤكد أنهم أحفاد الأنباط، لم يشأ إبداء دهشة السائح الغريب الذى يفتح فمه أو تجحظ عيناه إزاء كل مالا يعرفه لكنه أبدى تعجبا عندما سمع أنه الوحيد فى الفندق الآن..

«الجميع سافروا قبل المغرب، يخافون إغلاق الطريق...»

سارع الموظف:

«لكن غدا سيصل فوج صغير».

«أعرف..»

تابع مجيباً استفسار الموظف الصامت:

«لى بينهم أصدقاء..»

ابتسم، كأنه أدرك عنه، وقال: إنه من المنتظر وصولهم
حوالى الواحدة. سيجيئون من المطار مباشرة.

حتى الآن يمضى كل شيء على ما يرام إذا تعطلوا سيكون
ذلك بسبب الثلوج، لكن تأثير المنخفض الجوى لن يبدأ إلا بعد
الظهر، منذ بداية الشتاء ثبت دقة التنبؤات، أشار إلى أعلى..

«كل شيء مرصود بالأقمار الصناعية.»

قال إنه يوجد أجناب فى المنطقة، يأوى بعضهم إلى فنادق
صغيرة، أو يقيم بعضهم هناك، تحت، فى «المغر».

قال زميله الذى اقترب ليتابع الحوار إن بعض الأجنيبات
جئن إلى البتراء ولم يفارقنها، تزوجن وأنجن، يرتدين الآن
الملابس البدوية، ويتحدثن العربية بلهجة البدول.

أول من تزوج أوربية دخيل الله، أمره شائع معروف، هامت
به بنية سويسرية، جاءت إلى هنا فى العشرين من عمرها،
دخلت السيق ولم تخرج منه إلا متزوجة به. كتبت إلى أسرتها
تخبرهم بما لاقته، ما استقرت عليه، خلعت الجينز ولبست
الجلباب البدوى، عاشت معه فى المغارة التى ورث الإقامة فيها

أبا عن جد. كانت تقف الى جواره فى المقهى الصغير ترتدى
الخمار. تعد الشاي للزيائن الأغرأب، تباع زجاجات مليئة
برمال ملونة يمكن كتابة اسم الراغب داخلها بطريقة يتقنها
البدول، أنجبت طفلة جميلة وأسعة العينين، كانت تجرى فى
الوادى حتى سن السادسة. تحمل أوعية الماء. أو الطعام عند
سعيها جوار أمها، هى الطفلة الوحيدة التى لا تهاب عند
ظهوره..

«من ضبعان؟»

«حكاية طول، لكن الكل ينتظر عودته منذ غيابه فى مجاهل
البتراء».

قال موظف الاستقبال:

مؤكد أنه فى غرفة فرعون..»

تسأل الموظف الأخر:

«هل رآه أحد بعينه؟»

«لا.. ولكن يسمع أحيانا صوته»

«حكايات.. مجرد حكايات»

كان ضبعان يجرى من وادى موسى إلى البتراء، إذ يرى
الطفلة يدس يده فى جيبه، يقدم إليها قطعة حلوى أو عقدا من
خرن، بعد ذهابها حزن عليها ولام والدها.

راحت الطفلة مع أمها، من كان يتصور أن الحنين سيقوى
ويشدد بعد مضي سنوات؟ لكن هذا ما جرى للسويسرية، يبدو
أنها تلقت ما يدعوها إلى السفر، إذ مرض والدها، هكذا قالت،
المهم أنها صحبت معها دخيل الله. هناك أبدت عناية به وبذلت
الهمة. عاشوا فى بيت من طابقين، تحيطه حديقة كبيرة بها
جراج لسيارتين وأشجار تفاح وكمثرى وتوت وكريز وكل
ماتشتهيه الأنفس. والدها عنده مصنع لعب الساعات
السويسرية النادرة. لم تقصر مع زوجها، أى رغبة أباها
سعت لتحقيقها، عرضت عليه وظيفة فى مصنع أبيها ليمضى
وقته. كانت تتق من نجاحه، إنه ذكى.

يتقن خمس لغات. نعم .. أى رجل من البدول يتكلم بثلاث
أو أربع لغات، المفاجأة أن دخيل الله أبى، أظهر الكدر، ونال
منه الغم، طلب منها العودة لكنها رفضت، أبدى المسيرة حتى
فوجئ القوم برجوعه وحيدا.

أمضى عامين متصلين قبل سفره ليرى ابنته، لكنه لم يمكث
أكثر من أسبوعين..

قال موظف الاستقبال بلهجة قاهرية:

«غبى.. مش. وش نعمة»

أجابته مبتسما:

. «يا عالم بالنفوس..»

يتوقف مجهدا مع صعود الطريق، تنأى أصوات الفتیان كأنها آتية من وديان سحيقة البعد، يتفرقون هنا تنتوع المستويات. السماء حادة الصفاء، مركز المدينة مازال بعيدا، لا بد أن يصعد حتى يصل إليه. الطريق خال تماما. يتوقف. ما من مقهى، عزلة تلف سائر الموجودات.

الجهة الأخرى يبدأ السيق. المدخل الطبيعي المؤدى. لن يدخله إلا بصحبتها، برفقتها، لو أنها بجواره الآن، ربما تقترح عليه المضى، لا تهاب الليل ولا الانهيارات المفاجئة أو الأخطار المتوهمة القادمة من عصور لا يعرفها، إنما يخمن ما دار فيها.

فى القاهرة أصرت على رؤية الأهرام فى منتصف الليل، وعند الفجر، لحظة الشروق، وعند الغروب، أمضت أوقاتا فى مواجهته تتطلع بلا نطق.

كيف سيرى انفعالها بالمكان هنا؟

لا يدري.

من مكان قريب ينبح كلب نباحا متصلا، توقف كأنه لم يكن، تفد عليه الآن من سائر الجهات، تقتحمه كالغواية. يتوقف. يكف عن الخطو، يرقب الفندق. غدا سيضمهما هذا المكان، فكأن الأنباط لم يستقروا هنا، ولم يشيدوا عاصمتهم الفريدة إلا ليتبقى منها ما يغرى بالمجىء والفرجة عليه وتفقدته، لينزلاها معا، يمضيا مقدارا من زمنهما معا. على مهل يخطو

عبر الممرات الممهدة، تمثل أمامه إشراقتها الأولى، تتكرر اللقاءات، يقع الاتصاد، لكن اللحظات الأولى لا تفنى ولا تستحدث، فى زمن فتوته كان ينطلق بين صحبه.

يقص عليهم أدق التفاصيل، فى وحدته يستعيدها مرارا، كأنه يحاول انشاء المتعة مرة أخرى، لكنه مع مرور الوقت أتقن الكتمان، حتى صار ما عنده أكثر مما يلقاه خارجه! غير أن البدايات تظل ماثلة، يود لو يقيم لها نصبا من اللحظات.

عبير الطلع..

.. بناء احتوى النهار كله، اختزل جوهر الصحراء التى امتدت يوما، والخلاء الأبدى، هذا صحن مسجد ومدرسة وخانقاه فرج بن برقوق، لم ير رسما له، لم تثبت فى ذهنه أوصاف المؤرخين الثقة، لكنه يتخيله متوسط القامة، عريض الصدر، بشوش الوجه، مقبلا على الدنيا.

يقصد المكان عند الرغبة فى الإفلات من ضيق نزل به، أو سعيا إلى حنين غامض، يوما صحبه أبوه إلى مقبرة قريبة محفوفة بالريحان. كأنه يستنشقه للتو.

يعبر طريق صلاح سالم، يحاول تخيل المكان فى الزمن القديم عندما توحدت العمارة ولم يجاورها بناء ضخم آخر، مع صعوبة الانتقال واستيحاش الطريق وطوله بالنسبة لأهالى

القاهرة. كانت تلك المنشآت الصواري ترى من بعيد.

تحت شمس شتوية اليفة جلس مسندا ظهره الى قائم
حجرى.. هل أغفى؟

ريما.

هل أغمض عينيها؟

مؤكد.

لكنه عندما اتجه بنظره لسبب خفى، كانت تقف فى مواجهة
الإيوان الغربى.. كيف تمت وفادتها؟

متى ظهرت بوجودها المتمنطق بالحنين؟ لكن مجرد رؤيتها
أثار عنده تحفزا، أحيانا يحرك ظهور أنثى مجهولة توقعا، أو
حماسا، أو شجنا، ريما يضيف معنى تاما على حضور مدينة
أو طريق.

وقفتها، استغراقها، ملامسة يديها لخصرها، لكم رأى
أجانب هنا، مروا به ولم يتركوا أثرا، لماذا قصدها اهتمامه
وتركيزه؟ لأنها بمفردها؟
لا يمكنه القطع.

لحظة رؤيتها تلك. هل كان ضبعان يسعى أم بدا اختفاؤه؟
أين البتراء بالنسبة له؟ مجرد اسم قديم علق بذهنه يوما. أين
الطريق إلى وادى موسى؟ والملاح التى طالعتها. والصخور؟

أين مكونات العاصفة الثلجية؟ مكونات ذراتها، عناصر هبوبها؟، ماذا عن تلك الأماكن المجهولة قبل ذلك عنده، يتعلق سمعه بها وبصره بالخرائط الموضحة لحالة الطقس.

انتقلت من تواجدها العابر في صحن الخانقاه إلى مركز وجوده، عرفها وهي في سفر، ارتبط الرحيل بسعيه صوبها، أحيانا تتصل به، تخبره أنها ستقلع عند منتصف الليل إلى المكسيك، إلى تايلاند، إلى بلد لم ولن يبلغه، يحزن، كأنه يودعها بالحضور مع أنه بعيد قصى، يتخيلها في الطريق إلى المطار، مرورها البوابات، يعيش كافة التفاصيل التي يصر على الاستفسار عنها، اسم شركة الطيران، موعده الإقلاع، زمن الرحلة، يقرب الخرائط المتاحة، يرسم دائرة خضراء على مدينة ستحل بها لساعات، يعاني من ابتعادها عن بعدها في كل الأحوال هي نائية، لكن انتقالها يضاعف وحشته.

بدا هذا كله عند تلك اللحظة. لو أنه أطل الإغفاء، لو أنه حاد ببصره، تناله خشية، عدم تمكنه رؤيتها في الزمن المولى، المنقضى، ألا تتصل أسبابه بها.

لم يتجه صوبها، إنما قصد الاتجاه القبلى مبتعدا، حتى لا يظن من يرقبه أنه يسعى إلى تحرش ما، أول خطوه نحوها مقترن بالحدز!

لم يلمح كأننا آخر، حتى الحراس الذين لا يكفون عن الذهاب والمجيء، غاب المترددون والمصلون، حتى من يلتمس

إغفاءة قصيرة، لم يفارقه هذا اليقين أن حركاته مرصودة،
مراقبة من آخرين يجهلهم.

وقف أمام خلاوى الصوفية. ترى.. من أقام بها؟

أى تمتمات أو أدعية؟

أى شطح جرى؟

دائما يجهد الذهن والمخيلة لاستعادة ما اندثر، ما لحق
بالعدم، بقدر ما جرى يضيف ذلك خصوصيته على الطابع، ألا
تأخذ الجدران من ملامح ساكنيها؟

أقبلت ناحيته كالغواية، كالصبر، تعلق بعينيها الفسيحتين،
أجابها:

– «مدفن السلطان هناك فى القبة البحرية..»

منذ تلك اللحظة لزمها. قصدا الإيوان الشرقى. القبة
القبليّة، البحرية، توقفا عند النقوش المطلة. والحشوات المشرفة
والمقرنصات الصاعدة. تطلعا من شرفة المنذنة الشمالية إلى
الأخرى الجنوبية. اجتازا عتبة الصوان الفرعونية..

– «هذا شعار رمسيس الثانى.»

أبدت تعجبا. بمفردها لم تكن ستلحظ ذلك.

قال مزهوا إنه يعرف البناء حجرا. حجرا. خرجا معا. إلى
القباب، الأضرحة، الواجهاة الشاهقة، الحوارى الضيقة،

المقاهى الصغيرة. أشار إلى التراب. ذكر معنى بيت المعرى،
خفف الوطء فإن هذه الأرض من أديم تلك الأجساد. حاول
تقريب المعنى إلى اللغة الإنجليزية التى تتقنها تماما. بعد تناول
الغداء أخرجت حافظة نقودها. خاطب الرجل طيب الملامح:

– «يجوز أن تدفع السيدة حسابها يا عم أحمد؟»

مال رأسه مستنكرا، نافرا:

– «لا يليق..»

اجتهد ليقدم إليها أقصى ما يُلكن ابلاغه عنه ومنه،
حضورها المشع ينفذ عبره، تتداخل أوقاتهما.

كان راغبا فى رؤيتها من كافة جهاتها فى نفس اللحظة،
الإحاطة بها والذوبان فيها. عند مدخل قبة قلاوون طلب منها
التعمل. احتواهما الفراغ المؤطر بالنقوش، المنمنمات، الكلمات
المقدسة.

قالت بصوتها الهمسى:

– «تبدو وكأنك جزء من البناء..»

طلب من الحارس إطفاء المصابيح الكهربائية، الشاحبة،
الفقيرة، حتى تسبح فى الضوء الطبيعى العابر للزجاج الملون،
النوافذ الخضراء، الصفراء، الياقوتية، الأشعة المروضة،
المرمرية، كأن الشمس تبدأ دورة الفلك من سمت المكان.

وحدت الظلال حضورهما، قرّبت ما بينهما. بدأ عنده استنفار حسى حاول كبحه، حافظ على مسافة فاصلة حتى عند اقترابه منها وهبوب عبير شعرها وبدء تعرفه إليه، خاف الزل. ربما ظنت أن هدفه الأول والأخير لقاء عابر. كل ما يمت إليها استوفزه. لكنه كتم. هكذا.. تحفظ عند اقترابه، أو عبورهما الطريق واضطراره إلى ملامسة يدها أو كتفها لتحذيرها مع أنها لم تبد نفورا، تعمد تأخير خطوه ليرى عنقها، وكتفيتها المنحدرين فى دعوة ساقرة، خطوها إذ تلمس الأرض بأطراف، أصابعها، راقصة أبدا. دهشة دائمة كأنها ترى الموجودات لأول مرة مع أنها اطّلت على كثير وطافت الدنيا..

جرى اتصالهما الحسى الأول عبر الطريق الفاصل بين مسجد الرفاعى ومدرسة السلطان حسن، وعلى مرأى من مأذن مسجد محمد على المشرف المطل من عل. عندما اتجها صوب الشارع المنحدر بعد ساعات طوال أمضياها فى الشواهد الشواهد المشرفة على الميدان العتيق، كان مرهقا لكنه قادر على أن يتبعها إلى حيث شاءت، نظرت إليه. كان إقدامها قويا، مقتحما حتى ليتوقع مثلها فى كل لحظة كما بدت. تخلّت أصابعها يديه ليبدأ عنده مس لم يكف حتى الآن. يتجدد إذ يستعيده بالمخيلة. اتحدت أصابعهما حتى لم يعد قادرا على التمييز الحسى. لو شاء تحريك إبهامه أو خنصره ضلّت الإشارة إليهما، تنقطع صلته بأطرافه وتتصل بها فى الوقت عينه.

توقف.

شملها بالنظر، فهمت عنه وأدركت، كاد خفقه أن يحدث فى
العمار القديم أصداء. طاف بها المدينة، قصد أماكن اعتادها،
أحبها لترتبط عنده بها، فإذا أتاها وحيدا، منفردا،
استحضرها، يرى مالا يمكن لغيره مشاهدته، آثار مرورها
يوما، فكانها ماثلة أبدا.

قالت إنها ترحل باستمرار، لا تمكث فى مدينتها الإفتراة
قصيرة، فكان منزلها للعبور، وليس للإقامة.

ولدت فى الجنوب. قرية صغيرة قرب البحر. والدها فلاح
قديم، أمها بولونية الأصل. تعرف إليها أثناء الحرب. لم ترهما
منذ الصيف الماضى. كانت متزوجة. تعيش بمفردها الآن.
مسكن صغير قرب النهر. حجرة وصالة فسيحة، مستطيلة،
الجدران كلها مغطاة بأرفف الكتب. فى المساء تكون دائما
وحيدة. عندها أريكة مستطيلة. تجلس فى مواجهة التليفزيون.
تشرب جرعات صغيرة من النبيذ. ربما يدركها النوم واذ
تصحو تثقل عليها الوحدة.

تلتقى بزوجها السابق أحيانا. إنه حكواتى مشهور، يقص
على المستمعين فى صالات المسارح القديمة، يظهر فى
التليفزيون مرتين فى الشهر يحفظ ألف ليلة.

لا.. لم تنجب منه.

كأنه يصغى إلى صوتها الآن. يستعيد دائما ندمها وحزنها

فى إجابتها، لم يمكنها عملها من أن تصيح أما، لكنها أعادت
النظر منذ أن التقيا وتوحدا، العمر ينقضى أسرع مع اقتراب
الأربعين..

قال إنه لم يتزوج لظروف شتى، مع دنوه من الخمسين
يشعر أن ما تبقى أقل بكثير مما مضى، يوقن أنه لن يتجاوز
الستين تساءلت:

- «الديك هاجس الموت؟»

أوما. أجاب مفتحا أول قوله وإفضائه:

- «الى حد يعينى»

أبدت تعجبا:

«أذن .. أمامك أحد عشر عاما..»

تابعت:

- «هذه مدة كافية جدا..»

تساءل باقتضاب:

- «لأى شىء؟»

- «لتنجز ما تبغى..»

يظن أنه ضاق بما قالته. كأنه صرح بهاجسه وانتظر منها
الطمأنينة، لا أن تقر وتعتبر هذه السنوات كافية، اكتشف أن

حزنه ليس على قصر ما تبقى، إنما لاستحالة عيشه أبداً، رغبة
ألا يفنى، ألا يتدري ببداء، ألا يهن، أن يفعل غداً ما قدر عليه
أمس، كيف تريد منه الاقتناع بتلك السنوات لإحدى عشرة؟
لكن هل يسعى إلى يقين عندها لا يستقر داخله؟

قال إنه فى موقع الأخ الأكبر، انتظر حتى انتهاء أشقائه
الأربعة من مراحل تعليمهم، كان مسئولاً عنهم بعد رحيل أبيه
المبكر، المباغت، كل منهم تزوج إلا هو.

تطلعت صوبه مباشرة:

- «أهى الظروف أو رغبتك فى الانفراد؟»

عيناها الفسيحتان، الجميلتان، ذاتا الأغوار، إذ تتطلعان
إليه لا يقدر على التورية. أو التخفى، تنفذ إليه بلا مانع يردھا..

عودة

ثمة شىء لا يعرفه فى تلك الصخور يسمع ويرى.

قعد على حافة الفراش. مشدود البصر إلى التكوينات
الغامضة، سماء دانية، قصية خالية من الغيوم، تحوم حوله
بهجة مستعصية، ستصل اليوم. يلتفت إلى الفراش الآخر.

«صباح الخير.. كلودين»

لا.. لا تلفظ اسمها هكذا، كرره مرات، محاولاً محاكاة
لفظها، فيها تعبير عن مفاجأة، ودهشة، وتساؤل، وإفشاء

بسر. تنطق فكأنها تهمس، تتعجب به وله، أهي المقصودة؟،
يميل جسدها إلى الأمام. مع مخارج حروفها تسفر عن دعوة
محدثها، تغويه بالقرب وتنفي أى خاطر بوقوع
الاستحالة. تبتسم إذ تصغى إلى محاولاته سماع نطقها. تشف
ملاحها عن وجود غير منظور.

ما بين وقوع عينيه عليها أول مرة، وسفرها من القاهرة
سبعة أيام. وما بين سفرها ورحيله إلى مدينته تسعة شهور،
وما بين وصوله وانفراده بها واتحادهما خمس ساعات. لم
يتحقق ذلك الايام السبعة الأولى.

أقامت عند صاحبة تعمل مهندسة فى مشروع مترو
الأنفاق. حدثته عنها. لم يلتق بها، أحيانا يتلقى رسائلها عليها
طوابع بريد مصرية وأختام قاهرية، يستنتج أنها بعثت بها إلى
صاحبته مع مسافر أو مسافرة.

مساء كل يوم يكتب لها. يجلس ليخاطبها على الورق. يقص
عليها ماجرى له. ما مر به. أطلعته على صندوق مغربى لونه
بندقى غامق، خشبه معتق. كافة ما كتبه إليها. صورهما معا.
تأمل الأوراق. المظاريف. أختام البريد، كأنه يتعرف إلى كلماته
من جديد، يكتشف ما لم يطرأ عليه لحظات الكتابة، كأنه يتعرف
الى كلماته من جديد.

بعد وصوله كان متعبا، منهيبا. إنها المرة الأولى التى ينزل
فيها ضيفا على أنثى. وفى بلد غريب. تمنى الا يسبب إزعاجا

ما. تحرك بحدز. أبدى تكلفا. وأسفرت عن بساطة، لم يعتد الرفقة.

قدمت إليه حاجاتها. مكتبها الصغير، القلم المغموس فى الدواة، المرايا المؤطرة بزخارف مغربية، هذا العدد الكبير من أوعية القهوة، اللوحات الصغيرة، منها البرتغالية المرسومة على الفلّين، المكسيكية على لحاء الشجر، مشاهد مرشحة لطبيعة صينية على حديد، ألواح مستطيلة أو مستديرة من نحاس، زربية من جبال الأطلس الكبير تغطى الصالة، مجلدات بلغات شتى متجاوزة، تتقدمها فوق الأرفف تماثيل دقيقة.

أمسك نرجيلة صغيرة من فضة. هديته الأولى لها. لوح بها. بادلته الابتسام. كل منهما يكتشف الذى لا يعرفه من الآخر بعد بدء الانفراد.

النافذة بامتداد الجدار، عريضة كتلك المطلة على الصخور. شقتها فى الطابق الثانى والعشرين. فى الأفق البرج الشهير، وعند قمة المرتفع قباب الكنيسة الشهيرة التى يقصدها السياح. قال:

«أفضل الأفق المفتوح..»

أومات موافقة، أشارت باسطة يدها..

«هذا أول ما أرى صباح كل يوم..»

لم يكف عن الاستفسار، أى مقهى تفضل؟ أى الأماكن

تذهب فى المساء؟ أى أصحاب يزورونها هنا؟ أشار إلى الكتاب المفتوح فوق المنضدة المجاورة للسريـر.

«على الأقل ساعة قبل النوم، أما الصحف فبعد الغداء..»

قالت إنها تمضى أياما عدة بمفردها. فى أيام الأجازات تفضل الفرجة على التليفزيون بدلا من الخروج إلى الشوارع الرمادية الموحشة، الفارغة إلا من دوامات الرياح وأوراق الشجر المتساقط والضياء.

تدقق منه حنو تجاهها، حاول مساعدتها أثناء إعدادها طعام العشاء لكنها طلبت منه أن يقعد. منذ صباح الغد يمكنه أن يفعل ما يشاء. أطلعته على محتويات الثلاجة. علب الشاي والقهوة ومكان السكر. والنعناع المحفوظ فى أكياس صغيرة. أحضرته من أجله لأنه قال مرة إنه يحبه ويفضله.

عند العاشرة ليلا توقف أمام النافذة. تطلع إلى أضواء المدينة، مستدعيا القاهرة النائبة والتي تفيض حيوية، خاصة فى أماكن نشأته ودراسته وعمله.

الأحياء القديمة، فى أى ساعة من الليل يمكنه أن ينزل إلى الطريق فيجد من يتحدث إليه، ويعود بما يرغب شراءه، هذه المسافة من سوق السروجيين حتى باب زويلة، صعودا إلى باب الوزير. شريان يدفق دما وضوءا وإنسانية!

لم يبدأ ليلته الأولى بعد، وبدأ حنينه الممض، بل إن الفقد يتحرك الوعى به دائما فى البداية. قبل الانغماس فيما ينتظره،

حاول إخفاء كمد عابر كاد يمسك به. استشعر حركتها بدون رؤيتها، ضجيج حضورها وفورانها.

التفت..

متهيئة.. سافرة.

ما من أجمل وأرق وأكثر سحراً وغموضاً من امرأة راغبة. ساعية، قميص شفاف، قصير، يفصح عن تخومها المذهلة. أما صدرها النافر فأحدث زحزحة داخله، نهدان طليقان، مقيدان، مشهران، ملمحان إلى أكرية الكون والوقت. أما كتفاها فازداد انحنائهما، كانا ملساوين، مكتملين، غائبين وموجودين.

يستدعى لحظات مماثلة، محبوبة عرفها يوماً على سفر أيضاً، أورثه فقدها حسرات، فى كل خلوة تصر على ارتداء ما يروق له، تبديل قمصانها. أردية النوم، حتى تلمح لمعة عينيه، تستقر وترضى.

لم تتعمد بداية عرض. إنما كانت فى تغير مستمر، كل لحظة تبدى جديداً لم يعهده منها. راحت وجاءت. لم تظهر تكلفاً أو خجلاً. أفسحت لثيابه موضعاً فى الصوان، حاول منع عينيه من تعقب رديفها، خاصة عند انحنائها. كان الزجاج شفافاً، وأصداء المدينة تصلهما. لم يشد الستائر، سيشهد الكون ليلتهما!

لحظة خروجها من غرفة النوم ممسكة علبة دواء صغيرة. اندلعت كوامنه فجأة، كأنه انتبه إلى خلوتهما، إلى تالقها

الحسى، لأول مرة. فارقتة الرهبة التى اعتادها قبل الاتصال
الأول. تبدد خوفه من الفشل، لكن دقات قلبه هرعت تقتفى
بعضها، عندما حاذته، لاس معصمها، أحاطه، التفتت، هل
بوسعه نسيان ابتسامتها تلك؟، مستحيل، ربما يغمض عينيه
إلى الأبد وآخر ما يصحبه معه قوس قزحها.

أقدمت صوبه. أحاطت عنقه. شبت على أطراف أصابعها
بميل نحوه فحل صدرها ضيفا عليه. لاس نداوتها عند نقطة
مصير الخصر الى بداية تقبب الردفين. سرى جسدها عبر
مسامه إلى ركنه المقيم. بعبيره. بإقباله وإدباره. بتأججه.
بمفارقة ونواصيه، تبدد كل أتران عنده بعد تسليمها مفاتيح
مدينة روحها إليه، أما زفرتها الحرى فأججت قواه التى ظن
تلاشيها، سرحات يديها تبعث القشعريرة بتذكرها فما البال
عند حضورها؟ أما دفسها وجهها فى صدره فجعل مبررا
جديدا لاستمراره حيا يسعى.

صار فى خلق جديد.

أضيف إلى زمنه مقدار لم يعد له العدة. كانت منفلته. نائية
عن أى اعتبار، ساعية إلى ارضائه والحنو عليه، بادلهما دفقا
بدفق فاسترد حرите الأولى.

لا يستعيد البداية إلا بتأجج حضوره. يصعب عليه الهجوع،
قام واقفا. أشعة الشمس تتخلل الصخور التى بدا طلعا
مختلفا. كما احتضنها فى مواجهة مدينتها سيضمها هنا
متحديا كافة القوى والأزمنة التى عبرت هذه الأكم.

كان جسده مشهرا رغبتة فى مواجهة المدينة التوارية وكأنه
يعلن قصده: افتضاضاها.

نادى بصوت خافت، أينما حلت الآن تصفى إليه، سيقص
عليها نبأ تلك الليلة، أمضاها بمفرده فى الفندق، ما من نزيل
غيره.

عندما وقف أول صباح يحلق ذقنه أمام مراتها التى تغطى
الجدار، وقفت لحيظات عند الباب الموارب. تقدمت. أسندت
وجنتها إلى ظهره، أحاطته، طلبت منه أن يستمر. فارقه أى
حرج، يتحرك فى البيت وكأنه مقيم منذ وقت طويل، صار
مرحبا، خفيف الخطو، أجرا بعد أن توالجا، بعد اتحادهما به،
طلب أن تقف كما جاءت إلى الدنيا.

بدت نصبا حيا، دافقا للأنوثة.

كان راغبا فى تثبيت كافة ما يمت إليها عنده. بدأ بتقبيل
شعرها وتمريغ أنفه فى خصله. طرق كوامنها. وعندما انحنى
متأملا تناسق قدميها. لم تطق. انحنى، تتخلل شعره، تردد
اسمه بتائر، بحنو، بأزلية أمومية، حريصة على احتوائه
واختزال مداريها، فكأنها تريد إعادته إلى رحمها المكنون عند
اتحادهما.

المغارات..

هى الآن فى نفس البلد.

وصل الفوج. لم يغلق المطار رغم اشتداد العواصف. هل يعوقها انقطاع الطرق؟. لم تفتحه نشرة أخبار واحدة. يعرف مصطلحات المرور الآن. هذه سالكة وتلك مغلقة وأخرى يلزم الحذر لاجتيازها.

قبل مغادرته الحجرة للمرة الثالثة خلال ساعتين التفت إلى المقعد المواجه للمرأة.

«لماذا اخترت هذه التوقيت».

تبسط راحتها. تمط شفيتها. تتخذ ملامحها أوضاعا مغايرة تستمدتها من طفولة كامنة، غاربة..

«ترتيب يتعلق بعملى.. لا يد لى فيه».

ينبعث صوتها منه. تتردد لوازمها داخله. تراوغه على البعد. إن يرغب فى الإصغاء إلى نطقها اسمها. عند جلوسه منفردا. يخطه بعناية. مرة بالعربية، يعيد رسمه، بالنسخ، بالثلث، بالخط الديوانى أو النسستعليق، ثم يكتبه باللاتينية. كل حرف يورق زهورا، وأغصانا.

لكن.. هل يثق من وصولها؟

ربما جرى ما أعاقها. لا يمكن الاستدلال على اسم معين بين أفراد الفوج، يقتضى ذلك اتصالات عديدة، المؤكد أنهم نزلوا أحد فنادق عمان. ينتظرون تحسن الطقس. الطرق فى العاصمة ذاتها صعبة. بعضها مغلق.

حرص على أن يبدو هادئا. وإن أدرك كل من فى الفندق أنه ينتظر عزيزا عليه، وأنها أنثى. حقا.. وأى أنثى؟ أى حنو يسعى؟ وأى تتويج للحقيقة؟

تكرر خروجه إلى الشوارع المحيطة، لكنه لم يقرب السيق. لن يسعى إلى المدينة القديمة إلا بصحبتها. اعتاد تناول الشاي فى مطعم الاستراحة الحكومية. إطالة النظر إلى المرتفعات المحيطة، الحديث إلى القوم، بدأ مدير الاستراحة حزينًا، غائبا عن المثول بدرجة منا، قال إن عددا من المصريين يعملون فى المدينة. أحدهم نجا من التجمد بأعجوبة. كان قادما من مكة. نزل فى منطقة «أذرح» تبعد حوالى عشرين كيلو مترا، بدأ المشى قاصدا وادى موسى والرياح باردة تقص الوجود قصا. خاض العاصفة، استمر، تقدم، تعثر، لم ير الثلج فى حياته ومع ذلك عرف كيف يقاومه. لم يكن يرتدى إلا معطفا وجلبابا وسراويل طويلة. بيده حقيبة لم يفارقها. قال إنه من الصعيد، ويعمل مزارعا بحديقة فاكرة.

قال المدير سريع اللهجة، مقتضب العبارة إنه عاش فى النمسا اثنتين وعشرين سنة، فى بلدة قرب الحدود الألمانية..

«عندى هناك طفلان...»

لماذا عاد؟

لماذا فارق زوجته وطفليه؟.

لم يفصح عن فضوله. اكتفى بمتابعة المدير الذى يتكلم. يتكلم بسرعة ثم يكف فجأة، سارحا بعينيه إلى ما يصعب إدراكه. يجيء البعض ويمكثون مددا متفاوتة، ثم ينصرفون بعد إحكام الغطاء أحمر اللون حول الرؤوس والأعناق. عندما رآه فى الصور ظنه مجرد زينة.

موظف بمحطة الكهرباء يسكن أعالي البلدة. طباخ كثيف الشارب، سائق من الخليل اضطر إلى الإقامة لانقطاع الطريق. استفسر منه عن الثلوج وتراكمها، عن الأفواج، عن المناخ المتقلب، العنيف هذا العام، هل له علاقة بحرب الخليج وحرائق الكويت؟

«بالتأكيد حدث تغير...»

تابع المناقشة صامتا. من أخطأ؟ العراق أو الكويت؟. قال أحدهم إن الحسابات لم تكن دقيقة.

قال آخر إن ملايين تشرذوا، قال ثالث إن الصواريخ التى أطلقت عمل لا يمكن تجاهله. النفطيون كفوا عن المجيء لقضاء الأجازات، شربهم الويسكى، الخمور، أحدهم دهس طفلا عند الطريق المؤدى إلى قلعة الشويك، عندما جاء والده أخرج مبلغا

كبيراً من المال. لكن الأب وقف صامتا. ذاهلاً. ثم أخرج غدارته، أفرغها فى رأس القاتل!

العاطلون. اللاجئون. الفارون. الخيول المنتظرة قدوم السياح فى الفراغ أدخلوها الحظائر، حرام ترك الحيوانات فى الخلاء. ليس من المنتظر قدوم إنسان هذه الليلة أو صباح الغد، فى نشرة السادسة يعلنون ما سيكون عليه الحال غدا. لكن هناك أجانب فى البتراء. يمضون الليل هناك.

«هل هذا طبيعى؟»

قال أحمد المتخصص فى آثار المنطقة إن ذلك يحدث كثيراً. وإن بعضهم يفضل الإقامة فى المغر على الفنادق.

«أى مغر؟»

المغارات.. فى الخارج لا يكف الثلج، بدأ الأثرى متعباً، يلف رأسه بغطاء مماثل، ملامحه قوية، بارز الأسنان، قدر أنه تجاوز الثلاثين، وأنهما من الممكن أن يصبحا أصدقاء، قال السائق من المحتمل مجيء بعض الجواسيس.

قال المدير إن هذا ممكن.

قال الأثرى الشاب أن البدول يعودون الآن إلى مغاراتهم، لكل أسرة كهف فى الجبل، بعضه فسيح مريح، اعتادوا العيش هناك، الحكومة أرادت أن تخلق المواقع منهم لحماية الآثار، شيدت لهم بيوتاً مريحة، فيها الكهرباء والماء على مقربة، لكنهم

أثاروا مشاكل عديدة، والآن بدأوا يعودون، معظمهم ولد في الكهوف، اعتادوها، ومنهم من يريد البقاء قرب المكان الذي اختفى فيه ضبعان.

قال إن مثل ذلك جرى في الأتصر منذ حوالي نصف قرن عندما بنى المهندس فتحي قرية القرنة، صارت مزارا، لكن الأهالي رفضوا الإقامة في بيوتها، عادوا إلى منازلهم القديمة.

قال إنه قرأ عن تجربة حسن فتحي، وأن ثمة تشابها قويا. كان الحوار حول البتراء والقرنة بداية تعارف كل منهما بالأخر، وفي المساء أطلعه على انتظاره وقلقه، بل سبب مجيئه، أبدى دهشة لأنه لم ير المدينة القديمة.

«كم تبقى لك هنا؟»

«أربعة أيام»

«لاتخسر يوما واحدا، أمض إلى المدينة، وعندما تجيء صاحبك ستطلعها على ماتعرفه.. أنت دليلها.

«المهم أن تصل..»

تطلع إلى السماء. قال إن الثلوج ستنزل بكثافة يعرف تلك الغيوم جيدا. ما من شيء مؤكد ما دامت العاصفة مستمرة.

فى السيق..

لابد أن حارس الباب، وموظف الأمن، ومن يرقبه خفية من حيث لا يدري اعتادوا خروجة اليومى، خطاه السريعة كأنه سيلحق بموعد هام تأخر عنه.

يعرفونه الآن. بل أخبره الأثرى أن بعضهم أشار إلى الفندق أمس من المرتفع:

لا يوجد به إلا المصرى..

ما من مفر. يوم واحد ويشرع فى الرحيل، مجرد فتح الطريق، أى يوم يتجاوز مدته المقررة يعرضه للخرج، اقتنع صباح اليوم بما قاله صاحبه، أن يلقى نظرة، المدينة تستحق، وإذا كان اللقاء لم يتم، فليقص عليها ما جرى، ليصف لها وقته المعزول.

«يمكنك أن تبدأ بعد الإفطار وسألحق بك عند الظهيرة..»

طلب منه أن ينتظره عند المسرح الرومانى، سيصحبه إلى أعلى الدير، ولكن يجب ألا يضيع وقتا، ظروف نادرة يرى فيها البتراء.

يميل الطريق منحدرًا. حصى صغير مختلط بالرمال. شظايا أحجار. مداخل الكهوف الممهدة، الصخور المستقيمة الجوانب، خزائن الجن. قبر السلالات. الواجهاة مطموسة

العالم. بقايا قنوات المياه القديمة. تابعه الحارس دهشا من داخل الحجرة ذات الجدران من الصفيح المضلع.

يلتفت إلى الورا. نصحه صاحبه أن يمضى مع السيق. إلا
يحيد، إلا يتسلق صخرا مهما بدأ درج أو طريق ممهد.

يلتفت إلى الورا.

لا أحد.

لماذا يشعر أن هناك من يرقبه. يتابعه. صمت جليدى. حتى
الرياح كفت تماما. كأنه فى بداية الخليقة. لضيقه خلال أيام
انتظارها عجز عن استدعائها. خلال اليومين اللذين أعقبا
وصوله لم يكف عن تخيل انفعالاتها، اقتراحاتها المفاجئة
الممكنة.

لكن مع انقطاع الطرق، وغموض موقف وصولها إلى عمان،
ورنين الهاتف فى بيئتها بدون إجابة، دفعه هذا إلى كمد لم
يخفف منه إلا صحبته أحمد الأثرى وإن لم ينقطع رجاؤه من
مثولها أمامه فجأة، لكم تطلع إلى الهاتف الهامد. ود لو أن
رنيئا أشعل توقعه. حتى وإن خاب، لكن من سيتصل هنا به؟

ليس بحاجة إلى مراجعة الكتيب الصغير. أمده صاحبه
بالكثير. كذلك موظفو الفندق الذين أبدوا اهتماما به. اليس
النزىل الوحيد؟

أكد المدير أن التعليمات تقضى باستمرار العمل، اضاءة

كاملة، وموسيقى مستمرة. ومطاعم متأهبة، نظافة فى مواعيدها، حتى وإن لم يكن هناك نزيل واحد.

لابد أن وجوده يمنح الجميع سببا لبقائهم ومداومتهم أعمالهم، بمجرد ظهوره يتسابقون إليه. يسألونه عما إذا كان فى حاجة إلى شىء ما؟

فى اليوم الرابع كانوا مطلعين على مكنونه، كلمة من هنا وكلمة من هناك الموا بدوافع قدومه، خاصة موظف الاستقبال الشاب الذى استقبله فى اليوم الأول. أبدى تعاطفا، وحكى بعضا مما عنده..

. يتوقف لحظات فوق جسر حديث، أقيم فوق موضع آخر قديم، يحمى السيق من تدفق السيول، بعد أن جرفت المياه ثلاثة عشر،فرنسيا..

«لا.. كان ذلك قبل الجسر. الآن يمكنك دخول السيق فى أمان.. لكن مع التزام الحذرا»

مع كل خطوة يعمق الصمت، سكون أزلى قادم من عصور سحيقة، عند المدخل الطبيعى، بداية السيق، إلى اليمين مقاعد متناثرة ومنضدتان، لافتة تعلن عن شاي وقهوة ومثلجات. لكن.. لأحد.

لو أنها إلى جواره الآن!

هذا مقهى يقصده العائدون وليس الذاهبون إلى البتراء.

يدعوها إلى الجلوس لحظات.

«طبعا.. لا يمكن المرور أمام مقهى إلا وتجلس إليه حتى لو كان مجرد لافتة».

صباحهما الأول. أول شمس تشرق على توحدهما أزاح الباب المتحرك، أصبحت غرفة النوم والصالة المكونة مساحة واحدة تنتهي بالنافذة التي تحتل عرض الجدار. أزاح الستائر تماما. أطل على المدينة، ضباب كثيف يغطي قمم البيوت..
«لم يكتمل النهار بعد.. كأنه الفجر»

قالت:

«هل تعلم أن أتم لحظات الليل تلك التي تسبق الفجر؟»

ليته يستعيد حوارهما معا، أو كلماتها أثناء حركتها فى الحيز، ضمها إليه. قال إن مثل هذه اللحظات يسميها العروسان فى مصر «الصباحية»

تردد:

«ال.. السباهية..»

محاولتها نطق الصاد والحاء تثير مرحة، يقبل شفقتها، تتألق عيناها بحيوية. داخله يدفق نشاطا لم يعهده. أكثر من أربع وعشرين ساعة بدون نوم، عندما اندلع تأججها خشى الحينة. لكن ما بدا منها أثار زهوه. ريبها البادى ورضاؤها حتى أنه سعى مرة أخرى يستعيد تعلقها به وتكوبه بمدارها،

وقبض جسدها لجسده، إحاطتها به وتدرجها كأصابع عازف
ماهر أثناء انتقالها على درجات الناي الخشبي!

لم يكن يحتضنها إنما يتعلق بها. لم يكن يدفع بنفسه إنما
يتلمس أسباب الحياة، وعندما أغفى بجوارها لم تدهمه تلك
الهاجم إذ يبدأ انتقاله من اليقظة إلى النعاس.

ما أشد الشسوع بين استعادته لما كان بينهما عند وصوله،
طوال اليوم الأول وحتى الثاني، وبين انبعاث هذه اللحظات الآن
وقد دنا وقته من الانقضاء، وصار وصولها أملا عسر التحقق.
في البداية كان يتقدم متحفزا متوقعا لما سيكون، أما الآن فكانه
يرثى ما كان.

يستدير ملتفتا. لقد أوغل. منحني لم يشعر به حجب عنه
مقاعد المقهى الخاوى. الأرض تزداد خشونة. في الصخور
نوافذ محفورة لا تطل على شيء. لاتؤدى إلا صوب نفسها. من
صخر إلى صخر أصم يتبدل النظر. ما يشبه وجوها آدمية.
مجرد خطوط، أفواها مزمومة، رموزا، إشارات إلى ملوك
عبروا. لم يتبق منهم إلا تلك الإشارات المستعصية..

تقول وهى تدنو منه:

«عش زمنك»

يجيبها مجادلا:

«ما من حاضر»

تشير إليه بأصبع اكتسبت حدة تميز إشاراتهِ .

«أنت تعيش فى الماضى»

يبتسم هادئاً .

«وحتى هذا لا يمكن إدراكه..»

يكاد يصغى إلى لفظها فى هذا الصمت المقبوء، ترتفع الصخور على الجانبين عبر تكوينات متتابعة. تبدو السماء بعيدة. يوغل الآن وحيداً. لا يعرف مكانها الآن؟. هل تقع المفاجأة فيجدها عند عودته إلى الفندق؟

هل تظهر أمامه فجأة عند أحد المنحنيات، أو يلتفت فيراها ساعية إليه؟ وصلت بعد فتح الطريق، بمجرد علمها ذهابه إلى السيق سارعت للحاق به.

حدثه أحمد الأثرى، فقال إنه عرف العديديات من زائرات البتراء، كل منهن تنتمى إلى جنسية، لكنه لن ينسى أبداً بنية مالايزية، تعمل مضييفة فى شركة أسيوية، جاءت مع زملائها أول مرة، كانوا تسعة.. ثلاثة ذكور وست إناث. صحبهم سبع ساعات، المدة المتاحة لهم، لكنه أيقن أن كلا منهما للأخر.

قال أحمد عن جده الغائب ضبعان إن مسار العلاقة بين الرجل والمرأة يتقرر منذ اللحظة الأولى. وإنه عند تطلعه إلى الوجوه يتأمل وعند ملامح بعينها يرسو ويبدأ.

منذ خمسين سنة جاءت امرأة إنجليزية ترتدى قبعة عريضة وقفازاً أبيض، أما زوجها فيمسك عصاً قصيرة. كان طويلاً.

فارها، يتحرك على مهل. جاء فى زمن لم يكن قادرا على الوصول الى البتراء إلا الأثرياء. أصحاب المراكب العابرة للمسافات، والذين اعتادوا إنفاق جنيهاات جورج الخامس الذهبية. كما تنفق الفلوس المعدنية الآن. منذ تلاقى نظراتهما فهم ضبعان.

لم تمكث مع زوجها إلا ليلة واحدة. أمضيها فى خيمة أحضرها معا. لمدة عشر سنوات كان يتلقى منها بطاقات من شتى أنحاء العالم. حتى أيقظوه يوما فى الخامسة صباحا، وعندما قالوا له إن امرأة أجنبية، قصيرة، ترتدى قبعة عريضة، تريده فى الخارج، قام متمهلا، غسل وجهه، وغير ريقه بكوب ملىء بزيت الزيتون المذاب فيه صفار عشر بيضات نيئة، ثم خرج راسخا، كان يثق أنها أتت. لهذا لم تبد عليه أى دهشة، التفت إليها. أو ما مرحبا. لم يضع يده فى يدها. مشى متمهلا وهى تحاول جاهدة اللحاق به، عيناها لم تفارقاه، كانت مشتاقة، وما من شىء فى الدنيا يفوق ملامح امرأة راغبة. نزلا من وادى موسى إلى السيق إلى خزنة فرعون. أتجه إلى اليمين، قبل أن يرتقى الدرج العتيق الصاعد توقف. لم يلتفت. لحقت به. حملها كطفل، اختفيا لمدة أسبوعين لم يسمع إنسان عنهما أى خبر.

ضبعان كان عالما بدروب الجبل، صخوره، مرتفعاته الصخرية، كافة المسارب الخفية، أما حجرة فرعون المعلقة فلا يمكن لمخلوق الوصول إليها عداه هو، مرات ثلاث شاهده

القوم، مطلا منها، يثق الجميع أنه يعرف مواضع كنوز البتراء من فضة وذهب وحلى لا مثيل لها، وأوان فخارية نادرة، لا تقدر بثمن لندرته وقيمتها، يؤكدون أن ما يظهر من المدينة القديمة مجرد شيء ضئيل جدا. وأن ما يختفى من معابد وشوارع وساحات كثيرة.

قال أحمد إن جده أفضى إليه ببعض من مسارب البتراء وطرقاتها الخفية عبر الجبل. الدروب التي يسلكها الآن عرفها منه، أما ما درسه لسنوات عديدة في كلية الآثار وفي أمريكا خلال بعثته هناك. فقطرة من بحر. وبعض من فيض ضبعان.

لا يعرف إنسان أين غاب مع الإنجليزية، كيف أمضيا مدتهما؟ كيف وفرا طعامهما وزادهما. خاصة أنه اشتهر بنهما وقدرته حتى سمي بضبعان وغطى لقبه على اسمه الحقيقي. كان يفطر بثلاثين بيضة مضروبة في السمن الذي تفوح رائحته من بعيد. وخمسة لترات من اللبن. ثلاثة طازجة واثنان حامض، وسبعة أرغفة. وحمل برقوق أو كمثرى أو برتقال. فاكهة مقطوفة للتو. لو مضى عليها ثلاث ساعات لا يقربها. زيت الزيتون يعبه عبا بدلا من الماء. في الظهرية يأتي على خروف كامل. لا يترك حتى الغضاريف، كانت حركة يديه فريدة في تفكيك اللحم من العظم، خاصة الرأس، ويعقبه بطشت من الأرز المطهو بالدهن، في العشاء يكتفى بسخل صغير ومرق كثير وفطائر وصينية كنافة بالجبن.

لم يستطع أحد منافسته فى قدرته على الأكل، أو فحولته التى ذاع أمرها، وعلمه بالجبل وما يخفى، لكن بعد تجاوزه المائة وقع أمر غريب، إذ تردد أن صبيا هولنديا اعتادت أمه أن تصحبه عند مجيئها إلى البتراء فى مهام علمية تفوق عليه، دعاها ضبعان، كان له معرفة قديمة بالأم، عندما بدأ الغداء فوجيء القوم بالولد يأكل أسرع من ضبعان، استمرا معا حتى توقف والولد لم يكف، التهم لية خروف مسلوقة فى السمن. لم يبد انزعاجا انما ربت كتف الصبى بحنوزائد، وأعطاه أعشابا تنبت فى الشقوق ليتناولها إذا شعر بوهن، أو ألم به ضيق.

ظهر بصبحة الإنجليزية فى السيق. قابلهما واحد من الأدلة القدامى، بدت المرأة متألقة تضوى، تتوثب فرحة وبهجة. كأنها ارتدت صبيبة لم تمس، والأغرب أنها كانت تتكلم العربية. تفهم ما تسمعه وتجيب. هى التى لم تعرف حرفا واحدا قبل دخولها السيق بصحبته!

قيل إنها عرضت عليه قصرا من ثلاثة طوابق تحيطه حديقة يرمح فيه الخيل، وسفينة، لكنه أبى أن يصحبها، لم يقدم كما فعل البعض عندما تزوجوا بأجنبيات، وما جرى لزواج السويسرية معروف، بقى صامتا، كسيريا بعد عودته، انفرد بحاله عن أهله حتى عافه الناس.

قال أحمد أن الماليزية أمرها مختلف، عادت بعد شهر وستة، أعد كل شىء عند اتصالها به من عمان. صحبها إلى

مغارة قرب الدير، عند ذروة الجبل، مطلة على وادي عربة. عند الشروق وقبل الغروب يمكن رؤية البحر بوله من الأفق. مكثا خمسة أيام، لم يفارقا موضعهما إلا للاستحمام في العين الجارية، في كل لحظة كان يتذكر جده، بل يتوقع ظهوره فجأة أمامه لينصحه أو ليقص عليه بعضا من تجاربه.

لماذا يشعر الآن بنظرات ضبعان؟، يكاد يوقن أنه ليس بمفرده في السيق، أربعة عيون موزعة، عينا ضبعان وعينا كلودين، يحاول نفي الخاطر عن ذهنه، كأنه يخشى اجتماعهما في تداعيات أفكاره؟ أو يلتقيا عبر مخيلته. مع أن ضبعان اختلفى تماما ولم يعد يسعى. وهى لم تصل بعد.

يفار عليها؟

نعم..

لكم استفسر خفية وعلانية. إلى أى حد تصل علاقتها بهذا أو ذاك؟. ما مضى لا شأن له به، لكن ماذا عن الحاضر؟ عن الآتى؟

لم تفتها هواجسه. قالت فجأة أثناء تحديقهما إلى النهر:

«لم أرتبط بإنسان أثناء سفرى كما جرى معك»

يتطلع إلى تراكمات الصخور الشاهقة، تتقارب في الأعلى حتى لا يبدو إلا شق نحيل من السماء، يطبق عليه المكان، لو جاءه مباشرة لظنها الإحاطة الكاملة، لا مخرج، على السفح

الأيمن خط طويل أقتم يبدأ من القمة غير المنظورة. خيوط الماء. تتساقط القطرات فوق صخرة مستوية، تتشربها الأرض الرملية. ومن الصخر الوعر، تنبت شقائق النعمان والبنفسج وزهور صغيرة لم ير مثلها من قبل، عند نقطة معينة يبدأ جذر نخيل. يطل ثم يمضى صوب مركز الجاذبية ليبدأ ساق شجيرة تنمو بالمقلوب. قال أحمد إن جده كان يتعهدا، يرعاها، سماها «لدل».

قال ضاحكا إن القوم يعتقدون أنه ما من إنسان يمر بها أو يمكث قريبا إلا وتسرى الحرارة عنده، يتقد بالرغبة، من الشقوق النحيلة تنبثق أعشاب شتى. كان ضبعان يقطعها بعناية ويعالج بها المرضى ممن استعصى على الأطباء شفاؤهم.

ضبعان لم يذهب إلى طبيب قط. لم يتناول حبة أسبرين ولم تنغرس في جسده إبرة حقنة، لم يغسل ثيابه إلا بصابون طبيعي مخلوط بزيت الزيتون. لم يتمدد إلا فوق حرام من صوف الغنم فوق الأرض مباشرة. كان يغزل صوف عيافته بنفسه ويشرف على نسجه في معمل قريب أغلق منذ عشرين سنة ثم أعيد فتح المكان ليتحول إلى معرض لمشغولات المنطقة التي يطلبها السياح.

لم يرقد ضبعان فوق سرير قط، كان ينام هنا، فى أى مكان بالسيق داخل الجبل، لم يخش الزواحف، كان قادرا على

الإمساك بأشد أنواع الزواحف فتكا، كان العقرب الأسود والعنكبوت الأحمر ذو الوبر الأحمر يجرى فوق ذراعه ويقرصه مرسلا السم الزعاف إلى شرايينه فلا يعبا، أما الطريشة والحنش الأسود والرقطاء وحية الإسفنج وبعبان الرمل فلا يقتربون منه. تتوقف سائر الهوام على بعد خطوتين بشريتين.

حدث أثناء صعوده المرتفع الصخري المشرف على خزنة فرعون أن قفزت تجاهه أفعى رقطاء كانت تلبد بين أغصان شجرة شبيح. لدغت رقبته، تراجع مرافقوه فزعين، لكن سرعان ما تعاضمت دهشتهم وهم يرونه واقفا، راسخا، متطلعا إلى الأفعى التي راحت تتلوى بين قدميه وكأن مسا أصابها. بقدميه العاريتين سحقها.

لم يمش فوق هذه الأرض الصعبة مرتديا حذاء قط. قدماه ضرب بهما المثل في ضخامتهما. مع مشيه فوق الصخر، فى الحر والبرد، تقدد جلده، أصبح طبقة قاتمة. لو داس جمرا مشتعلا لما بدا على ملامحه جزع.

قيل فى استعصائه على السموم إن أمه التى توفت بعد بلوغها التسعين أرضعته مقادير معينة من سموم الأفاعى مع حليبها، وأنها حرقت عقريا. وضعت رماده على ثديها قبل أن تلقمه حلمتها.

قيل إنه يضع حجابا مثلثا تحت إبطه يقيه كافة أنواع الدبش، شراب الضارة. وحجاب تحت الأيمن يمنع الرصاص

والشظايا من اختراق جسده. عندما شارك في الحرب ضد الأتراك آثار رعبا. كان يتقدم واقفا والرصاص يرتد عنه. والشظايا تحيد عنه.

قال أحمد إن جده كان يتسلق نرى الجبال، جبل الدير، جبل المذبح. جبل هارون، كان يبدو للناظرين فوق أعلى نقطة من جبل خبئة، لم يبلغها أحد بعده. في نروة العاصفة الثلجية يتجرد تماما من ثيابه، يدلك جسده بالثلج قبل بلوغ ندفه سطح اليايسة، عادة أتقنها من امرأة روسية أقامت بالناحية منذ سبعين عاما، كانت هاربة من الثورة، لم تمكث طويلا، لكنه يذكرها دائما وكأنه عرفها بالأمس.

أما عن قدرته وفحولته فتروى حكايات عديدة وأقاويل بلا حصر عن تمكنه وصبره على النساء وفهمه كلا منهن، أما عضوه فلا مثيل له. حتى أنه إذا نام على ظهره وانفط يظن الناظر من بعيد أنه عامود متين أو نصب غامض ظهر في الفراغ فجأة، لم تتحدث امرأته عن حياتها معه. حتى لأترب صديقاتها اللواتي اعتدت أن يفضفضن ويتناولن أدق شئونهن. لكن بعضهن يؤكدن أنه كان يتروق بها، ويتكىء على راحتيه رافعا نفسه عن الأرض حتى لا يفقا رحمها. أما هؤلاء النسوة الأجنبيات فلا يعرف أحد كيف احتملته، لكن ما من أنثى عرفته الا وتعلقت به، حاولت العودة إليه ولو كانت في آخر العالم. كثيرات أنجبن منه أطفالا. يتوزعون الآن في أقطار الدنيا. هذا

الواد الهولندي الذي تفوق عليه في الأكل لابد أنه من هبله.

بعد اختفائه جاء رجل في الستين، عيناه ضيقتان، وجنتاه عريضتان، خليط من ملامح عربية وأخرى يابانية أو صينية. سأل عن أبيه ضبعان.

في عام آخر شاب من فارس. وقف عند مدخل السيق وقرأ قصيدة بالفارسية ينادى فيها أباه أن يظهر، ثم بكى ومضى. وثالث لسانه عربي مسبين من المغرب. ورابع من جزيرة بورتريكو. وخامس من جزيرة تقع عند آخر حد العمار قبل بلوغ القطب الجنوبي، وسانس من تشاد، وسابع. وتاسع.. لا يمر شهر إلا ويغد رجل أو امرأة، شيخ أو شاب، يسألون عنه. وفي عيونهم شوق، وحيرة، وسؤال.

كانوا يتوقفون امام السيق، تماما كما توقف ضبعان بعض الوقت. قبل أن يلجه متمهلا، هكذا يعبرونه، من نقلة معينة داخله لا يعرفها أحد بدأ تسلقه الصخر، انتهى إلى حجرة فرعون كما يؤكد البدول سكان الكهوف.

كانوا يتوقفون في مواجهة المقبرة، المعبد، يتطلعون إلى الحجرة المحفورة في بروز من الصخر الوعر، يتطلعون صامتين، أو يذرفون دموعا، بعضهم ينادى، تعارف عدد منهم، تردد في الوادي أنهم سيفقدون في يوم معين يوافق غيابه، كل منهم أخبر عن هاتف قوى أتاه في المنام، ناداه بلغة من منشأ وأقام بينهم ودعاه للمجيء إلى البتراء. هؤلاء من استطاعوا

القدوم، أما الذين لم يتمكنوا فلا يدري أحد عددهم بالضبط، أو جهاتهم.

يكاد يسمع نبر صوتها الهادئ عندما سألته بعد أيام ثلاثة من تصريحها برغبتها:

«لماذا كتمت انزعاجك عندما أخبرتك برغبتى فى إنجاب طفل منك؟»

يفاجأ، إذن.. من طباعها إثارة الموضوعات الحرجة فى أوقات غير متوقعة. وبهدوء لا يوحى بخطورة ما تناوله. فى مواجهتها لم يكن قادرا على تمويه مشاعره. قال إنه يفكر منذ تصريحها، وأنه مضطرب، أو مات:

«أعرف . إننى أشعر بك..»

قال إن ذلك بالنسبة له غريب، لم يتزوج لظروف شتى، لم تمض حياته فى مسارها الطبيعى. تعايش مع الأمر. خاصة مع تقدمه وطيء السنين طيا. أو احتواء الوقت له، لا يدري أيهما يفنى الآخر؟

تبدو له فكرة إنجابها طفلا بدون زواج غريبة، كيف يسعى بعيدا عنه؟

قالت إن مجيئه ليس مشكلة بالنسبة لها، فى بلادها ما يعنيه مجيء الطفل، وليس مهما كيف جاء؟

لس معصمها، قال:

«ولكنها مشكلة بالنسبة لى.. مشكلة هنا»

قالت إنها تدعوه، ما عليه إلا أن يشد رحاله ويستقر معها،
نظر إليها صامتا، حرجا، يتحاشى وقوع المبارزات الكلامية.

تعرض عليه الإقامة، الانتقال وهى التى تسافر دائما. لماذا
لا تجيء هى عنده، إلى موطنه؟.

لا يمكنه أن يخلع نفسه هكذا بسهولة. أن يجيد بأيامه وقد
مضى معظمها. هى لا تقدر وهو لا يمكنه. مع أن ظروف كل
منهما متشابهة فى دائرة الوطن والإقامة. يوم جرى حوار مع
صاحب له.

قال صديقه إن الإنسان بعد رحيله يتحول إلى تراب، وإنه لا
يطبق أقداما أجنبية تطؤه عندما يصبح جزءا من الأرض. إذا
كان الأمر حتمى فقومه أفضل. لهذا رفض الهجرة.

لم يصرح لها بذلك، ما يشده أمور تتعلق بأيامه وما
سيتلوها من عدم، عندما تشاغل بالنظر إلى طيور بيضاء ذات
مناقير خضراء تحط فوق النهر، قالت:

«نوع نادر لا يجيء إلا فى هذا الوقت..»

ثم قالت:

«لا تقلق .. لن أنجبه إلا إذا اقتنعت..»

ضحكت.

ض إلا شتاء.

كان يوم مفارقتة بيته فى وادى موسى إلى مغارته مشهودا،
بعده يبدأ نزوح القوم من قبيلة النواظلة، لكل كهفه، يتوارثه أبا
عن جد، يدخلون إلى بطن الجبل، هذا عرف قديم.

حدث أحمد فقال إن امرأة إسترالية، تتقن العربية وتتردد
على البتراء لدراسة نقوشها وفك رموزها تسلقت الدروب
العتيقة، لكنها حادت فى سعيها. وصلت الى صخرة معلقة
يصعب الوصول إليها، صرخت. . تطلع إليها القوم من الوادى.
كيف وصلت الى هذا الموضع الذى لم يظهر عنده إنس ولا
حيوان؟

جاء ضبعان. ضرب كفا بكف عندما رأها.

«متى بدأ صعودها؟»

قالوا إنها اختفت منذ الأمس. ولا يدري أحد كيف وصلت
هناك؟ قال إن هذه الصخرة التى يراها الجميع قريبة أبعد مما
يتصور أى إنسان، إنه فى حاجة إلى أربع عشرة ساعة ليصل
إليها. ربما لن تقدر على المكث. لو اغمضت عينيها ستسقط،
موضع لا يتسع إلا لشخص، لكنه سيبدأ قاصدا الصخرة
الأعلى، يصلها بعد ساعتين. من هناك يدلى بحبل متين إليها،
تتعلق به فيرفعها.

طلب ضبعان منهم أن يصرخوا، أن يناووا باستمرار حتى

لا تغفرو، لو نال منها الإعياء وغفت فهلاكها ميبين. لمدة ساعتين لم يكف الرجال والنساء.. حتى الأطفال، قرعوا الطبول، والأواني النحاسية، لا يمكن نسيان ذلك. بعد ساعتين بالضبط، تماما كما أخبر، ظهر في ضوء القمر، عند النقطة التي حددها، كان باستطاعة الجميع رؤيته رغم شحوب النور وكثافة الظلال. بدأ أطول وأعرض، زعق عليها، ناداها بلسانها. ألقى حبلا مجدولا، متينا. تعلق به، بيد واحدة راح يرفعها بدون أن ينحنى، كان تجاوز المائة وقتنذ.

لماذا يلح عليه ضبعان؟

لماذا يخيل إليه أنه متطلع صوبه؟

هل يعرف أبناء الموزعين في شتى أنحاء الدنيا؟ هل حن إلى رؤية أحدهم؟ هل ينزل من مخبئه المجهول ليظهر أمامه فجأة، يقولون إنه ظل محتفظا ببهائه القديم، لم يعرف الشيب طريقه إلى شعرة واحدة من رأسه، لم تره أنتى إلا رغبته، كان القوم يخشون على بناتهم ونسائهم منه، رغم علمهم أنه لا يمكن أن يرفع النظر إلى واحدة منهم، لكن النفس راغبة، طامعة، بعد غيابه شددوا عليها خشية أن يتبعه بعضهن، يؤكد معظمهم أنه مقيم في حجرة فرعون. وأن الأمالى يصفون إلى تردد أنفاسه وتقلبه في الوقت.

للوهاء صفيير غريب عند هذا المنحنى الضيق. يكاد شطرا الجبل أن يتماسا عند قمتهما. حنره صاحبه من انهيارات

مفاجئة. وحوش يمكن أن تظهر فجأة. حدث أحمد فقال إن صيادا عاش منذ خمسة وسبعين سنة. كان مشهورا بقنص الغزال والكباش البرية. فى أحد الأيام انحنى يذبح أحدها، فجأة.. ظهر حيوان أمامه. يشبه النمر لكنه ليس نمرا. تمالك أعصابه.

اقتطع جزءا من الشاة رماه إليه. ما تبقى وضعه فى جوال حمله مبتعدا بخطى ثابتة غير هياب، فيما بعد. فى كل مرة يصعد إلى الجبل. أو ينزل إلى الوادى، لحظة ذبحه الفريسة يفاجأ بالحيوان أمامه، ينتظر نصيبه، لم يخلف مرة قط، استمر ذلك سنوات، حتى طلع نهار لم يستيقظ فيه. لحظة دفنه فوجئ القوم. صراخ يتردد فى الجبال. فزعوا، رأوا الحيوان فوق أعلى نقطة من السيق. كان مشرفا على حفرة القبر من عل، وفى عوائه مس آدمى غريب، نصحهم ضبعان ألا يتصدوا له، لمدة أربعين يوما لم ينقطع نواحه، وقرب الفجر ينزل ليجثو عند القبر، يتحول صراخه إلى عويل غامض، يخشع لسماعه الكافة!

قال أحمد:

«لا تحد عن السيق، لا تعرج هنا أو هناك مهما لاح لك من إغراء..»

لو ظهر ضبعان الآن، لو وقع ما يتمناه ولا ينتظره وراها مقبلة من الناحية الأخرى. أو من خلفه سيتقدم صوبها، ستنظر

إلى عينيه، يثق أنها ستفهم. ما رغبته يمكنه تحقيقه الآن، فى هذه الثنايا متسع للخلوة، لم يفت الوقت بعد. سيقيمان هنا حتى يقع التأكد من زرع البذرة وبث النواة.

تتنوع ألوان الصخور، اللون الوردى غالب، عبثا حاول أن يعرف معنى كلمة السيق. قال أحمد، وقال الآخرون إنه شق بين جبلين. رحم كونى، طبيعى، رحم الأرض التى لا يمكن الإحاطة بأطرافها، تتردد فيه أصداء الطقوس القديمة، والام القرابين، والأغانى التى تمايل القوم لسماعها يوما، وقدم الرسل. وخروج السفارات إلى ممالك الدنيا.

ترق الصخور، يختلط اللون الوردى بأطياف زرقاء. يصبح لمراها ملمس الحرير.

يتوقف بغتة..

بقدر ما روعته المفاجأة. بقدر ما أدركه ذلك الوهن الغامض، الغريب، واليقين أن ثمة من يرقبه، وأنه يتأهب للمس، لكن لا يمكنه النظر إلى الوراء. لم يكن باستطاعته النظر إلا صوب الأمام.

انفراجة الصخور الضيقة. الشق، يبلغ منتهاه. مهبل ارضى. يسده الفعل البشرى. واجهة وردية من حجر قديم. مستوية.

يصله صخب ضوئها القوى، الهادئ، انبثاقها عجيب، محسوب.

من الظلمة إلى النور أم من العتمة إلى الضوء؟، لم ينتقل من
موضع إلى آخر، إنما من وقت إلى وقت، من حال إلى حال، لا
يمت ما يراه إلى أى صورة اطلع عليها أو قرأ عنها، يحجب
الحضور الوردى المتصل بالسيق كافة ما عداه، يتوقف، بينما
يبدأ عنده ما يشبه الطفو إلى أعلى، إلى فراغ غامض يحده
السيق الممتد...

مارس ١٩٩٢

المحتويات

● رسالة البصائر فى المصائر

أبدأ بحكاية حارس الأثر.....	١١
حاشية - ١	٣٣
ماذا جرى للشاب الذى أصبح فندقياً.....	٤٣
وقت ضائع	٩٧
ما جرى للمحارب الذى تقاعد	١٠٥
لماذا نظر المحارب الذى تقاعد إلى الصغيرات أثناء لعبهن	١٣٧
وهذا نبأ الطويجى	١٨٩
حاشية - ٢	١٩٧
وفيما يلى نبأ الخطاط الذى راج أمره فى القرية	٢٠٣
حاشية - ٣	٢٦٧
وهذه حكاية نزيه	٢٨٥
طبق الأصل	٣٦٩
هذا ما جرى للمدرسة التى أتمت المدة	٣٧٩
طرح التساؤلات	٤٠٥
وفيما يلى ما جرى للحلبى	٤٤٥
	٧٧٩

● رسالة فى الصباية والوجد

٤٦٣ ديباجة الظهور
٤٧٧ مساق المسلسل
٤٨٣ تفصيل
٤٨٧ حكاية دالة
٤٨٩ رجعى إلى ما أنقطع
٤٩١ افصاح
٥٠٣ قبرى
٥٢١ إرتقاء الكتيب
٥٥١ تسوق
٥٦٥ مواقع الشهب
٥٧٥ اندلاع اللحظة
٥٨٥ نظر
٥٨٩ الوجد

● من دفتر العشق والغربة

٦٠٧ هاتف
٦٢١ هلاتها
٦٦١ أماكنها

٦٧٩المأوى
٦٩٨حدائق الرغبة
٧٠١غرفة الضوء
٧٠٤غرفة الصدع
٧١٥من رحم ... إلى رحم
٧١٦وصول
٧١٨الصخور
٧٥٣المغارات
٧٥٨فى السيق

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٢٩١٢

I.S.B.N. 977-01-4308-1

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب